الفكر الجغرافى

سيرة ومسيرة

دكتور

صلاح الدين الشامى



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

الناشر : منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه
٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون / فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣
٣٢ ش الدكتور مصطفى مشرفة - سوتير الاسكندرية ت : ٤٨٤٣٦٦٢

الكتب الجغرافية

الفكر الجغرافى

سيرة ومسيرة

دكتور

صلاح الدين على الشامى

أستاذ الجغرافية-جامعة بنها

١٩٩٩

الناشر

منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

تصدير

الطبعة الثانية

تظل مسيرة الفكر الجغرافى ، التى تلازم حركة الحياة منذ اليوم الأول لوجوده ، وهو يدب على الأرض ، هى الشغل الشاغل الذى يهم المتخصص فى علم الجغرافيا . ويجد الباحث الجغرافى المتخصص فى متابعة هذه المسيرة ، وهى تمضى وتتطور على دروب الصواب فى الاتجاه الصحيح ، المعين الفلسفى الذى يشد أزر التوجه العلمى الجغرافى ، ويسعف التجديد والتجويد فى الأداء العلمى الجغرافى ، ويجاوب اتساع آفاق اهتماماته .

ويسعدنى بعد مضى أكثر من خمسة عشر عاماً، أن أحاول اعادة نشر اجتهادى المتواضع ، فى هذا الموضوع الحيوى والمفيد . وقد أسعفنى اجتهادى لكى أضيف شيئاً مناسباً ومفيداً ، فى مجال متابعة مسيرة الفكر الجغرافى ، وهى مستمرة فلا تتوقف أبداً .

وأرجو أن تكون هذه الاضافات موفقة ، وهى تدعم الاهتمام بمسيرة الفكر الجغرافى ، وهى تتطور وتجاوب تطور أهداف العلم الجغرافية المعاصرة .

وعلى الله قصد السبيل ،

صلاح الدين الشامى

الاسكندرية ١٩٩٨ .

تصدير

الطبعة الأولى

عندما يستشعر الجغرافى كنه وماهية الاجتهاد العقلانى ، الذى أخذ بما أملته الحاسة الجرافية فى المكان على الأرض ، والذى فجر الاهتمام الموضوعى بالجغرافية ، وما تصبو اليه من استطلاع أبعاد التفاعل الديناميكى الايجابى أو السلبى بين الانسان والأرض. وعندما يستشعر الجغرافى كنه وماهية الاجتهاد العقلانى الرشيد ، الذى أفلح فى تكوين وصياغة وصقل وتطوير حصاد الحاسة الجغرافية ، وهى تغذى وتطوع البحث الموضوعى الهادف ، وصولاً الى الاسهام الفعال المفيد فى خدمة محصلة التفاعل الحياتى للثمر المتطور الى الأفضل على الأرض . وعندما يستشعر الجغرافى كنه وماهية الاجتهاد العقلانى البصير ، الذى أرسى قواعد وأسس علم الجغرافيا وصاغ وصقل الخبرة الجغرافية ، التى تحملت المسئولية قبل الانسان ، وهو يطلب المعرفة الكاشفة عن الأرض ، أو وهو يتحسس العوامل أو الضوابط الحاكمة لإرادة التفاعل الحياتى فى أرجاء الأرض . وعندما يستشعر الجغرافى كنه وماهية الاجتهاد العقلانى المبدع ، الذى بصّر ورشد الجغرافيين ، وهم يأخذون بزمام البحث البنّاء ، ويتصدون لصنع النتائج المفيدة ، من أجل تحسين محصلة التفاعل الحياتى ، أو ترشيد مسيرة الحياة فى أحضان الأرض . وعندما يستشعر الجغرافى ذلك كله ويحصيه ويقوّمه، تراوده الرغبة ويطالعه الرجاء فى مطالعة موضوعية كاشفة ، تتبيّن مسيرة الفكر الجغرافى ، وتتابع الاجتهاد الذى وجه هذه المسيرة ، وأخذ بزمامها فى الاتجاه الصحيح . كما تراوده الرغبة ويطالعه الرجاء ، فى تقصى الحقائق ونقط التحول ، التى أسفرت عن تقدم وتطور مسيرة الفكر الجغرافى ، لحساب الانسان فى كل مكان وكل زمان .

وحركة الفكر الجغرافى فى مسيرتها السوية واتجاهها الصحيح ، كانت – بكل تأكيد – رتيبة ومتأنية ، بقدر ما كانت مستمرة

وموضوعية ومتطورة   وصحيح أن هذه المسيرة الفكرية الموضوعية المتطورة ، قد قطعت أشواطاً كبيرة على المدى الطويل ، وهى تشبع نهم الانسان وتخدم انتصار الحياة فى المكان . وصحيح أن بعض الأعلام الفذة والصفوة المرموقة من الجغرافيين المجتهدين ، قد سجل - بكل التفوق - الاضافات ، واستثمر نقط التحول ، وهم يتحملون مسئولية توسيع وتعميق المعرفة الجغرافية ، فى كل مرحلة من مراحل التحرك البنّاء المثمر فى الاتجاه الصحيح . ولكن الصحيح أيضاً أن الاجتهاد الجغرافى الرشيد ، الذى أولى اهتمامه توسيع دائرة المعرفة الجغرافية واشباع نهم الناس ، كان أسبق من الاجتهاد الجغرافى الموضوعى ، الذى أولى اهتمامه أبعاد المعرفة الجغرافية واشباع منفعة الناس بها ، وهذا - فى حقيقة الأمر - اتجاه منطقى وضرورى ، لأنه يعنى - بكل الصدق - تحرك حذر غير متهور ، استهدف ارساء قواعد علم الجغرافية، وتطوير اجتهاده لحساب الانسان على أرضية تثرى بالمعرفة الجغرافية ، فى الوقت المناسب .

ولكى نتابع مسيرة الفكر الجغرافى ، وهى تخطو خطواتها المتأنية ، ولكى نطالع الاجتهاد الجغرافى الرشيد ، فى كل مرحلة من مراحل التحرك البنّاء الى الأفضل ، فى الاتجاه الصحيح ، ولكى نتبيّن ولادة علم الجغرافية فى القرون القليلة الماضية وما أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى العلمى فى النظرية ، وفى التطبيق لحساب الحياة ، نقدم هذا البحث الموضوعى لقارئ العربية ، فى شكل كتاب متكامل . ويسعدنى أن أجتهد لكى يضاف هذا الكتاب الى رصيد المدرسة الجغرافية المصرية ، فى المكتبة الجغرافية العربية المعاصرة . وأتمنى على الله - وهو على كل شىء قدير - أن يكون اجتهادى موفقاً ، وأن ينتفع به طلاب المعرفة الجغرافية . وعلى الله قصد السبيل .

صلاح الدين الشامى

أستاذ الجغرافية - جامعة صنعاء

الاسكندرية ، فبراير ١٩٨٠ .

إهداء

الى زوجتى التى شاركتنى الحياة ، وشدت أزرى
وأنا أكتب كل كلمة من انتاجى العلمى ،
وباركت اجتهادى فى موكب المجتهدين ،
أهدى هذا الكتاب

المؤلف

تمهيد

الفكر الجغرافى ورفقة الحياة

الفكر ربيب الحياة :

مسيرة الفكر بكل ما تعلنه أو تخفيه من حصاد العقل ، وبكل ما تعنيه وتبتغيه من أجل الحياة ، كانت – بكل تأكيد – رفيقة عمر الحياة – حياة الانسان – لحساب الانسان على الأرض ، فى أى مكان . بمعنى أن مسيرة الفكر التى حفلت بابداع الانسان وثمرة اجتهاده ، وهو يمسك بزمام مصيره فى المكان على الأرض ، ينبغى أن تبدأ مع ميلاد الحياة ، وأن تخطو خطوة بخطوة ، لكى ترافق مسيرة الحياة والتفاعل الحياتى فى أى مكان على الأرض .

هذا وينبغى أن تكون خطوات هذه المسيرة المثمرة فى رفقة الحياة رتيبة ومستمرة . بمعنى أن تتحرك فى سياق متطور ، وحلقات متلاحقة ، من بداية كانت بإرادة اللّه فى أحضان المكان على الأرض ، إلى نهاية تكون بإرادة اللّه فى المكان أيضًا فى الأرض . ولأن الانسان يطلب الحياة فى المكان ، ولأن الانسان يصنع الايقاع الرتيب لنبض الحياة فى أحضان المكان ، فإنه يطالع المكان الذى يحتويه بفكره ، ويتحسسه بعقله وادراكه وفكره ، لكى يتعرف على الواقع فيه ، ولكى يتلمس حاجات الحياة منه ، ولكى يؤمن ذاته به ، ولكى يفرض سيطرته عليه .

ومن قائل حكيم عاقل – بكل الصدق – أن الانسان حيوان مفكر عاقل ، إلى قائل حكيم آخر – بكل الموضوعية – أن الانسان العاقل يفكر لأنه موجود ، يتجلى معنى استخدام العقل وافراز الفكر . بل ومن الطبيعى أن نستشعر جدوى الفكر سلبًا وايجاباً ، لحساب الحياة فى وجودها ونبضها الرتيب ، وتفاعلها وانجازها على الأرض فى أى مكان . ودعوة اللّه صانع الحياة ، الانسان إلى التفكير ، وحسن استخدام العقل واستثمار حصاده ، هى توجيه صحيح سوى وترشيد صريح واضح ،

لكى يلتزم الانسان بتدبير عاقل رزين ، يسخر الاجتهاد العقلانى من أجل حياة أفضل على الأرض ، فى كل مكان وفى كل زمان .

وهكذا ينبغى أن نستشعر بداية ، كيف كان ميلاد الفكر البناء فى رفقة ميلاد الحياة على الأرض . بمعنى أن نتصور كيف لازمت وزامنت مسيرة الحياة فى اتجاه متوازٍ ، وهى تدب على الأرض . كما يجب أن نستشعر أيضاً كيف جمع الانسان حصاد فكره ، وانتفع به فى مواجهة أعباء الحياة فى المكان على الأرض ، وكيف حفظه ونقله وورثه من جيل إلى جيل آخر ، وكيف صنع تراثاً مفيداً ، بصر وما زال يبصر مسيرة الحياة ويدعم انتصارها فى أى مكان على الأرض .

ولأن التفكير نبض حيوى بناء متداخل فى كنه وجوهر الحياة على الأرض ، ومتعلق بجدوى وماهية الوجود فى المكان ، قد نستشعر الحاجة – بكل تأكيد – إلى تصور ذكى بارع ، لكى يتكشف له كيف يكون الفكر حصاد مثمر وثمر مفيد ، يطلبه الانسان بذاته الخاصة أو بذاته العامة ، من أجل تجسيد الغايات التى تتطلع إليها الحياة ، أو من أجل صنع الانتصار الذى تزهو به إرادة الحياة فى المكان وفى الزمان .

وهل يملك الانسان وهو يتشبث بالانتصار للحياة فى المكان ، أن يكف عن التدبير وأعمال العقل وافراز الفكر ، الذى يؤكد وجوده السوى ، أو أن يمتنع عن استثمار حصاد الفكر المفيد، الذى يؤمن ذاته ويبصر وجوده على الأرض ؟

وهل يملك الانسان حيلة غير أعمال العقل وجنى حصاده المتجدد ، لكى يقبض على زمام مصيره ، وهو يخوض الجولة بعد الجولة لحساب الواقع الحياتى ، وانتصاره فى حضن المكان ، أو وهو يواجه التحدى الصعب والضبط الحاكم للحياة ومسيرة الحياة ومصير الحياة ، لحساب التفاعل الحيوى الصانع لكل سبب من أسباب انتصار الحياة، واستمرار نبضها السوى وتقدم خطاها على الأرض ؟

وهكذا نستشعر الحاجة إلى تصور ذكى وبارع وشجاع ، يكشف كيف كانت فى عمق الانسان ، وهو يواجه أعباء الحياة ، حاسة تحفز التفكير وتفجره ، لكى يرشد ويبصر الحياة لحساب شكل أو نمط

التعايش فى أحضان المكان . وقد نستشعر الحاجة مرة أخرى إلى تصور نكى وبارع شجاع ، يكشف كيف كانت هذه الحاسة فى مغزاها ومرماها من وراء افراز الفكر المفيد ، لدى الاحساس بأبعاد المواجهة الصعبة ، التى تعين أن ينتصر فيها الانسان لحساب الحياة ، ودعم مصير الحياة فى المكان وفى الزمان .

وهذه الحاسة – فى اعتقادى – وليدة الاحساس بالمكان الذى يحتوى الحياة . ومن الطبيعى أن يغطى المكان حاجات الحياة ، ولكن ليس قبل أن يأخذ المكان من الانسان اجتهادا وجهداً . ومن الطبيعى أيضًا أن الاحساس بما يطلبه المكان كان من وراء تنشيط الحاسة التى تحفز الفكر، وتفجر التفكير ، وتلهمه القدرة على التفاعل المحصور فى الأخذ والعطاء ، لكى تؤمن حاجات الحياة . وهذا معناه أن يعتمد فكر الانسان الذى ينتصر لارادة الحياة على صدق هذه الحاسة وحسن استخدامها . ومعناه أن هذا الفكر وليد شرعى لهذه الحاسة ، لكى يؤمن مصالح الحياة ، ويمكن لها من أن تقبض على زمام مصيرها فى أحضان المكان على الأرض .

ولئن كان الانسان حيواناً مفكراً بطبعه ، وكان التفكير والتدبر مطية الارادة والاصرار والالتزام ، الذى واجه به أعباء الحياة فى كل مكان، وكان الفكر حصاداً مثمراً مفيداً ، وهو يرشد ويبصر ويصنع التعايش فى أى مكان على الأرض ، فمن الطبيعى ، بل ومن الضرورى أن يتشبث الانسان بالتفكير والتدبر وأعمال العقل ، وأن يحسن استخدام ثمرات فكره ، منذ أن بدأت قصة الحياة على الأرض، واستشعرت الحاسة الكامنة فيه طبيعة المكان ، وأعباء الحياة فيه وواجهت الضوابط الحاكمة لمسيرة الحياة فى أى مكان . ومن شأن هذا الفكر أن يمثل النافذة العريضة ، التى يطل من خلالها الانسان على الأرض فى المكان من حوله ، وهو يطلب الانفتاح على الواقع فى أنحائه ، لكى يتفاعل ويتعامل ويعطى ويأخذ وينتفع ، ولكى يتعايش ويقبض على زمام مصيره .

ومن شأن نبض الفكر الذى فجره الاحساس بالمكان ، أن يسعف

الانسـان وينصـره فى المواجهة الحـاسـمـة مـع الأرض ، وهـو يعطيـهـا أو وهـو يأخذ منها . ومن شـأنه أيضاً أن يكون رصيداً لحسـاب الحياة ، لكى يؤمن الـوجـود والتـعـايش فى المكـان ، وهـو ينتـزع حـقـه وحـاجـاته من براثن التـحـدى . بـل ومن شـأن هذا الـنبض الفكرى البناء المفـيـد، الذى خاض التجربة فى معركة الوجود وتأمين حق الحياة ، أن يكون لحسـاب الذات العـامـة ، أو لحـسـاب الذات الخـاصـة على السـواء ، لـكى يقـبض الانسان على زمام مصيره فى المكان ، ولكى يؤكد حقه وتشـبثه بالعطاء المتاح فى هذا المكان .

ويهذا ينبـغى أن ندرك أو أن نـركـز على ثلاثة أمـور هـامـة ، نعـتـمـد عليـهـا فـى تصـور نقطة بداية أصليـة انطلقت منهـا مـسـيـرة الـفكر الجغرافى . وهذه الأمـور الثلاثة هـى :

١- أن الوجـود فى المكان - أى مكان - علـى الأرض ، وأن الانفـتـاح على هذا المكان اسـتجابة لارادة الحياة والتعايش فيه ، يولد فى الانسـان كنه وماهية الاحساس بالمكان ، والواقع الذى يحتوى الحياة .

٢- أن كنه ومـاهية الاحسـاس بالمكان والواقع الذى يحـتوى الحـيـاة ، وأن حـيـوية وجـدوى الاسـتيطان فى هـذا المكان ، اسـتجـابة لارادة الحـيـاة والتـعـايش فـيه ، يلهم الفـكر الابداع الذى ينصـر الانسـان ، وهـو يطوع المكان لحساب الحياة ، ويطوع الحياة لحساب المكان .

٣- أن تطويع المكان لحسـاب الحياة وتطويع الحياة لحـسـاب المكان ، وضـع التـفـاعل الحـياتـى فى اطار التـفـكير العقـلانى ، ومـا يسـفـر عنه من فكر مثمر ، وهـو يسـوق ويصـنـع سياق قصة الحياة على صعيد الأرض، فى المكان والزمان .

* * *

وتأسـيسـاً على ذلك كله ، ينبـغى أن نتصـور كيف كـان الاحسـاس بالمكان، والفكر الذى تفجر تأسيساً على هذا الاحساس، هـو الأسبق من غيره فى سياق قصة الحياة ، ومـا تمتلكه من رصيد أو تراث فكرى. ومع مـرور الوقت ، وتوالى السـيـاق الرتيب لقـصـة الحـياة، الذى يسـجل نبض

الفكر، وهو ينصر ويشد أزر الانسان فى المكان ، يتولد فى الانسان الاحساس بالزمان وحركة الزمان - واجتماع الاحساس بالمكان ، مع الاحساس بالزمان مسألة مهمة لأنها كانت - بالضرورة - من وراء مزيد من التفكير واعمال العقل وزيادة رصيد الانسان من حصاد الفكر.

وعندما يصبح الاحساس بالزمان فى المكان من وراء استشعار بالتغيير ، وكيف يطوى الزمان من يوم إلى يوم آخر صفحات الحياة ، وكيف تتحرك مسيرة الحياة ويتشبث الانسان باستمرارها ، يتصدى الفكر إلى صيانة حق الحياة فى المكان ، من زمان إلى زمان آخر . وعندئذ ينبغى أن نستشعر كيف يكون الفكر الذى يفجره الاحساس بالزمان ، نافذة عريضة يطل من خلالها الانسان على الصفحات الذى تقص وتحكى قصة الحياة ، وهو يطلب ويتشبث باستمرارها فى المكان ، لكى يتعايش ويقبض على زمام مصيره ، ويؤمن حقه فى عطائها مع مسيرة الزمان .

وفى اعتقادى ، أنه فى بداية قصة الحياة فى أحضان المكان الأصل على الأرض ، لم يمتلك الانسان وسيلة غير احساسه بالمكان من حوله ، وغير قدراته الذاتية فى مواجهة الضوابط الحاكمة للحياة ، لكى يتعايش ويعيش . وما من شك فى أن هذا الاحساس بالمكان ، كان احساسًا فطريًا بالطبع . وهو الذى أطلق - بالضرورة - العنان ، وفجر الفكر المبكر الذى أسعف الانسان وشد أزره ، أو الذى أسفر عن تهيئة قدراته فى مواجهة الضوابط الحاكمة للحياة ، لكى يؤمن وجوده ويتعايش فى أحضان المكان .

وفى اعتقادى أيضًا أن حركة المسيرة التى تحكى قصة الحياة فى المكان الأصل على الأرض ، قد ولدت فى الانسان الاحساس بالزمان ، وهو يطوى صفحات الحياة من يوم إلى يوم آخر . وما من شك فى أن هذا الاحساس بالزمان كان احساساً مبنياً على استشعار حركة الليل والنهار بالفعل . وهذا الاحساس هو الذى أطلق - بالضرورة - العنان ، ووجه الفكر المبكر فى الاتجاه الذى أسفر عن اجتهاد فى رصد التغيير، واستشعار وقع خطوات مسيرة الحياة التى يطوى صفحاتها الزمان .

وتأسيساً على هذا الاعتقاد – وهو صحيح – ينبغى أن ندرك كيف كان الاحساس بالمكان ، واستشعار الضوابط الحاكمة للحياة فى المكان كاشفاً للحاسة الجغرافية . وقد كانت هذه الحاسة الجغرافية بالضرورة من وراء توجيه الفكر توجيهًا جغرافياً ، يبصر الحياة ، ويشد أزرها وينتصر لارادتها فى أحضان المكان . كما ينبغى أن ندرك كيف كان الاحساس بالزمان ، واستشعار وقع خطوات مسيرة الحياة فى الزمان كاشفاً للحاسة التاريخية . وقد كانت هذه الحاسة التاريخية بالضرورة ، من وراء توجيه الفكر توجيهًا تاريخيًا ، يتابع حركة الحياة ويرصد استمرارها فى الزمان .

وهكذا نستشعر – بكل الصدق – كيف كان الاحساس بالمكان أسبق من الاحساس بالزمان ، وكيف اتخذ الفكر من وراء ذلك ، وجهين هامين ، وجه عمل فى خدمة الحياة فى المكان ، ووجه أخر عمل فى خدمة الحياة فى الزمان . وعندما يكون نبض الفكر البناء وليد الاحساس بالمكان والتعايش فيه ، أو وليد الاحساس بالزمان والاستمرار فيه ، ينبغى أن نتبين – بكل الوضوح – مسألتين هما :

أولاً : كيف يكون الفكر فى الاتجاه الجغرافى مفيداً ومطلوباً – بكل الالحاح – لكى يبصر الانسان بالمكان من حوله . ويحيطه علمًا بالضوابط الحاكمة للحياة فيه ، ويرشد اجتهاده فى مواجهة أعباء الحياة، لحساب التعايش فى أحضان المكان .

ثانياً : كيف يكون الفكر فى الاتجاه التاريخى مفيداً ومطلوباً – بكل الالحاح – أيضًا ، لكى يسعف حرص الانسان على استمرار الحياة ، ويتابع سياق اجتهاده فى مواجهة أعباء الحياة ، ويسجل خطوات انتصاره لارادة الحياة ، لحساب التعايش فى المكان مع حركة الزمان .

وصحيح أن استشعار المكان واستخدام الحس الجغرافى ، الذى صنع انتصار الحياة فى المكان ، كان أسبق من استشعار الزمان واستخدام الحس التاريخى الذى تابع حركة أو مسيرة انتصار الحياة فى المكان . ولكن الصحيح أيضًا أن هذا الاستشعار المبكر ، قد دعا – بكل تأكيد – إلى قدر كبير من التداخل والخلط ، بين اتجاه الفكر فى الاتجاه الجغرافى ، واتجاه الفكر فى الاتجاه التاريخى . ومع مرور الوقت ربما تطور الأمر وأفلح الانسان فى صنع الخيط الرفيع، الذى فصل بين الفكر

الجغرافى والفكر التاريخى . ومع ذلك فما زال الاحساس بالمكان مطلوباً فى سياق الزمان ، وما زال الاحساس بالزمان مطلوباً فى اطار المكان . وإذا كانت الحياة وجود وتعايش وانتصار فى المكان ، فإن حركة الحياة مصير واستمرار وتقدم مع حركة الزمان .

ومن غير أن ننكر أو نتنكر لهذا التداخل والخلط ، بين حصاد الفكر الجغرافى الذى فجره استشعار الانسان بالمكان ، لحساب الوجود والتعايش فيه ، والفكر التاريخى الذى فجره استشعار الانسان بالزمان ، لحساب استمرار الوجود والتعايش فيه ، ينبغى أن نؤكد على قيمة الحس الجغرافى . وهذا الحس الجغرافى – فى تقديرى – قد أسفر عن نصرة الانسان ، وهو يؤمن وجوده ويؤكد ذاته ويدعم تعايشه فى أحضان المكان . ومن غير هذا الانتصار الحقيقى ، ينتفى – فى تقديرى – ضمان استمرار الحياة الذى أسفر عن حقيقة الاحساس بحركة الزمان ، وغرس فى الانسان الحس التاريخى .

وهكذا ، ينبغى أن نتبين – على كل حال – كيف كانت الحاسة الجغرافية – وهى صادقة لا تضلل أو تخون أو تكذب – من وراء ابداع الفكر الجغرافى والخط الذى سار فيه ، وكيف كان هذا الفكر الجغرافى – وهو صادق لا يضلل أو يخون أو يكذب – من وراء انتصار الانسان على الضوابط الحاكمة للحياة فى المكان ، وحركة الحياة فى الزمان ، فى وقت واحد .

وعندما توجه الحاسة الجغرافية الانسان ، لكى يفكر التفكير البناء فى الاتجاه الجغرافى لمواجهة أعباء الحياة ولأحكام قبضته على أسباب الحياة فى المكان ، وعندما ينمى الاتجاه الفكرى الجغرافى الحاسة الجغرافية ويصقلها ويحسن استخدامها ، يولد على الأرض أقدم شكل من أشكال الفكر الجغرافى ولادة عفوية تلقائية . بل هو – فى تصورى – أول وأقدم رصيد أو حصاد أسفر عنه استخدام العقل . وكان المطلوب من هذا الفكر الجغرافى أن يقدم الخدمة والخبرة ، لنصرة الحياة ودعم وجودها وتأمين حقها فى المكان والزمان على الأرض .

* * *

ورحلة الفكر الجغرافى التى رافقت عمر الحياة على الأرض ، رحلة طويلة ومستمرة . وقد استشعر الانسان حاجته دائماً إلى هذا الفكر - بل لقد تولى - بكل الاجتهاد العقلانى - دفع هذه المسيرة الفكرية على طريق التطور والتجديد والاضافة . وكانت آماله معلقة بأن يجد فى معين هذا الفكر الجغرافى ما يشبع تطلعه إلى المعرفة الجغرافية ، أو ما يخدم التفاعل الحياتى مع الأرض ، أو ما يعينه على استخلاص حق وحاجة الحياة من الأرض . ومن الجائز أن نفتقد الاجتهاد الجغرافى المتخصص فى مرحلة ، وأن يتبنى الاجتهاد الجغرافى المتخصص الفكر الجغرافى فى مراحل أخرى ، ومع ذلك فإن المسيرة الفكرية الجغرافية مسيرة جادة ومفيدة ، وهى ترافق مسيرة الحياة فى كل مرحلة أو وهى تبصرها وتقومها وترشد وجودها فى أحضان المكان على الأرض.

* * *

بداية واقتراب

الفكر الجغرافى العفوى

هذا الفكر يمثل فكراً بسيطاً بعيداً عن كل تعقيد . بل قد لا نجد له منهجًا واضح المعالم بصفة عامة . ومن شأن هذا الفكر الجغرافى العفوى البسيط ، أن يصور مدى ادراك الانسان للأرض من حوله ، أو أن يعبر عن مدى استشعاره خصائص ومواصفات المكان الذى يحتويه ويعوله . ومن شأن هذا الفكر الجغرافى البسيط أيضًا ، أن يصور الاجتهاد الذى تكفل بترشيد أداء الانسان ، وهو يواجه الضوابط الحاكمة للحياة فى المكان ، أو الذى اضطلع بشد أزر الانسان ، وهو يستخدم الموارد المتاحة فى المكان .

وهذا الفكر الجغرافى نشأ بالضرورة نشأة عفوية تلقائية ، لكى يجنب الانسان التخبط فى المكان ، أو لكى يرشد التعايش فى المكان . وهذا معناه أنه – بكل تأكيد – خلاصة التجربة ، وما تنتهى إليه من صواب نافع أو خطأ ضار . بل أنه من غير شك حصاد الفكر الذى يعبر – بالفعل – عن سعة حيلة الانسان واحتياله ، لكى يفلح فى تأمين الحياة وضمان وجودها وانتصارها فى أى مكان على الأرض .

وصحيح أننا قد نفتقد القدرة الكاملة على تصور موضوعى متكامل، يصور شكل وأبعاد ومنطق هذا الشكل من أشكال الفكر الجغرافى العفوى ، الوليد مع ميلاد الحياة فى المكان الأصل على الأرض ، لأنه فكر غير مكتوب . وصحيح أن شكل وأبعاد ومنطق هذا الشكل المبكر من أشكال الفكر الجغرافى ، غير شكل وأبعاد ومنطق الشكل الآخر المكتوب من الفكر الجغرافى ، الذى أنجب التخصص الجغرافى البحت ، أو أسفر عن قواعد وأسس علم الجغرافية . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الشكل المبكر من أشكال الفكر الجغرافى كان – بكل تأكيد – مثمراً وهو وليد مع ميلاد الحياة عندما :

١– رشد الحياة وهى تقبض على زمام مصيرها ، ويصر التعايش

فى أبسط شكل من أشكال التفاعل الديناميكى الحياتى . بين الانسان والأرض فى موطنه المنتخب فى أى مكان على الأرض .

٢- أطلق العنان للابداع المفيد وصولاً إلى صياغة وتأسيس القاعدة الصلبة التى ارتكز عليها الاجتهاد الجغرافى العقلانى ، الذى أسفر عن بواكير التخصص الجغرافى فى خدمة الحياة .

وبهذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن نستشعر كيف أحس الانسان بالمكان من حوله ، وكيف استلهم حسه الجغرافى لكى يتعرف على موطنه فى هذا المكان . كما ينبغى أن نستشعر كيف فجر هذا الحس الجغرافى الاجتهاد العقلانى ، لكى يسعف الانسان ويشد أزره ويظاهره، فى مواجهة الواقع الطبيعى والضوابط الحاكمة للحياة فى هذا الموطن فى أى مكان . وكان من شأن هذا الاجتهاد العقلانى أن يسفر عن الفكر الجغرافى البسيط الذى يعبر - بكل الصدق - عن مدى احساس الانسان بالمكان من ناحية ، ويرشده وهو يدب على الأرض فى طلب أسباب التعايش وتأمين الحياة فى كل مكان من ناحية أخرى .

ومن غير اصرار على تصور شكل وأبعاد ومنطق الفكر الجغرافى العفوى الوليد مع ميلاد الحياة ، ينبغى أن نتصور كيف بصر هذا الفكر الانسان وهداه ، وهو يغرس جذوره فى الأرض ، أو وهو ينتخب الأرض التى يجعل منها موطناً ، أو وهو يحدد ويمارس أسلوب انتفاعه بها . بمعنى أنه - من غير شك - وليد الحاجة ، عندما تحسس الانسان المكان من حوله ، وأحسن استخدام حسه الجغرافى ، لكى يؤمن الحياة السوية التى انتخبت الموطن ، وبدأت مسيرتها المكافحة على الأرض أى أرض ، وفى المكان أى مكان . وهل يستغنى الانسان عن ثمرة الحاسة الجغرافية الصادقة ، وهو يطوع ذاته للواقع الطبيعى فى أحضان أى مكان معين منتخب ، أو وهو يطوع الواقع الطبيعى فى أحضان أى مكان معين منتخب لحساب هذه الذات ؟ بل وهل يستغنى الانسان عن استثمار ثمرات الفكر الجغرافى العفوى ، التى أبدعها استشعار الحس الجغرافى الذكى ، وهو يتعايش مع الواقع الطبيعى فى أحضان الموطن المنتخب ، أو وهو يقبض على زمام مصيره فى أى موطن منتخب ؟

ومن غير اصرار مرة أخرى على تصور شكل وأبعاد ومنطق الفكر الجغرافى العفوى ، المولود ولادة تلقائية مع ميلاد الحياة ، ينبغى أن نتصور كيف كان هذا الفكر دليل الانسان ، وهو يطلب الاستيطان فى أنحاء الأرض ، أو وهو ينتخب المكان الأنسب لاستيطانه على الأرض ، أو وهو يغرس جذوره فى أى موطن انسب على الأرض . وهو - من غير شك - وليد الحاجة ، عندما تحسس الانسان طريقه فى أنحاء الأرض ، وعندما أحسن استخدام حسه الجغرافى ، لكى يستكشف المكان ، ويؤمن مصيره فى أحضان الموطن الأنسب المنتخب . وهل يستغنى الانسان عن استخدام الحاسة الجغرافية ، وهو يتحرك من موطن صار مقتراً ، لا يستجيب ، أو وهو يتحرك إلى موطن جاذب سخى يفيض بالعطاء ؟ بل وهل يستغنى الانسان عن استثمار ثمرات الفكر الجغرافى العفوى ، التى تفتق عنها الحس الجغرافى الذكى ، وهو يفر من الشح والتقتير الذى أعلنه الواقع الجغرافى فى مكان . أو وهو يلوذ بالسخاء والعطاء المجزى الذى يجود به الواقع الجغرافى فى مكان آخر ، أو وهو ينتخب الطريق السوى الأفضل ، طلباً للتحرك من مكان يطرد إلى مكان يجذب ؟

وبكل الصدق والموضوعية ، ينبغى أن نتصور كيف أودع الخالق فى صميم الانسان الحس الجغرافى ، وكيف يولد فيه مع ميلاده . كما ينبغى أن نتصور أيضاً كيف وجه هذا الحس الجغرافى ، لحساب الحياة. وبكل الصدق والموضوعية ، نتبين كيف أصبح الفكر الجغرافى العفوى المولود مع ميلاد الحياة ، رفيق عمر الانسان فى المكان ، لحساب الحياة ، ودليل مصيره فى كل مكان ، لحساب التنوع فى أنماط أساليب الحياة.

ولكى نستوعب هذا التصور ، ونقيم الحس الجغرافى تقويماً صحيحاً ، علينا أن نرقب الطفل الوليد فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وأن نرصد تحركاته فى أى مكان . ومن الطبيعى أن نتبين كيف يتحسس من حوله المكان ، وهو يجلس قعيداً أو وهو يحبو أو وهو يمشى فى أضيق الدوائر ، لأنه يطلب المعرفة والاحاطة التى تخدم التعايش فى هذا المكان . وهل يطلب هذا الوليد وهو فى أول مرحلة من

مراحل نبض الحياة ، من غير الحس الجغرافى الكامن فيه المعرفة بالمكان فى أضيق الدوائر من حوله ، لكى يستشعر وجوده ويؤمن مصيره ؟

ولكى نستوعب هذا التصور ونقيم الحس الجغرافى تقويماً صحيحاً مرة أخرى ، علينا أن نرقب الرجل الكبير فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وأن نرصد تحركاته فى أى مكان يفد إليه . ومن الطبيعى أن نتبين كيف يتحسس من حول المكان فى أوسع الدوائر ، لأنه يطلب المعرفة ويستهدف التعايش مع الواقع الجغرافى فيه . وهل يطلب هذا الرجل الوافد تواً إلى المكان من غير الحس الجغرافى الكامن فيه المعرفة بالمكان فى أوسع الدوائر من حوله ، لكى يؤدى دوره ويؤمن وجوده ويمسك بزمام مصيره لحساب الحياة فى هذا المكان ؟

ومن غير الحس الجغرافى الذكى لا يكاد يفلح الانسان فى عملية تطويع المكان لارادة الحياة ، أو فى تطويع الحياة لارادة المكان ، وصولاً إلى حد التعايش الأمثل ، مع الواقع الجغرافى فى أى مكان منتخب لحساب الحياة . وصحيح أن الحس الجغرافى يلهم الانسان ويبصره وهو يطلب المعرفة بالمكان من حوله ، أو وهو يتعامل مع الأرض فى المكان من حوله ويطلب العطاء منها لحساب الحياة . ولكن الصحيح أيضًا أن طلب المعرفة بالمكان واستخدام الحس الجغرافى من أجل استشعار الواقع الجغرافى فيه ، ينمى – بكل تأكيد – الحس الجغرافى ويصقله ويشحذه ويحسن مستوى فاعليته وأدائه ، وأن نمو الحس الجغرافى وشحذه وتحسين مستوى أدائه ، يفجر الفكر الجغرافى العفوى ، وينمى ابداعه لحساب انتصار حركة الحياة .

وهكذا نتبين أن الحس الجغرافى يقود ويوجه ويرشد المعرفة بالمكان ، وأن المعرفة بالمكان انفتاح ينشط وينمى ويشحذ الحس الجغرافى ، وأن تنشيط وشحذ الحس الجغرافى ، تفتح ذكى يطور الفكر الجغرافى العفوى ويثريه . وبمعنى آخر ، ينبغى أن نتبين ، كيف كانت حاجة الانسان لمعرفة المكان مقدمة منطقية مطلوبة – بكل الالحاح – لحساب الحياة فيه ، وكيف استلهم الانسان حسه الجغرافى الكاشف فى

التعرف على المكان . واستيعاب المقدمة المنطقية المطلوبة لحساب الحياة فيه . ومن خلال التجربة التى رشدها الحس الجغرافى ، تفجر الفكر الجغرافى العفوى . لكى يوجه التعامل مع الأرض ، ولكى يبصر التعايش مع الواقع الطبيعى فى المكان .

وفى اعتقادى - على كل حال - أن الحس الجغرافى يمثل قوة من قوى الادراك المبصرة الكامنة فى الانسان . وقد أودعها الخالق فيه لكى تبصر حياته وتقود مصيره وتشد أزره وترشد اجتهاده فى المكان على الأرض . وصحيح أن الانسان قد اعتمد - بكل الفطنة - على صدق هذا الحس الجغرافى الذى لا يضل ولا يضلل ، لكى يتعرف على المكان من حوله ، ولكى يتعايش مع الواقع الجغرافى فى أى مكان على الأرض . ولكن الصحيح أيضًا أن حسن استخدام الحس الجغرافى العفوى ، قد حول ادراك المكان من ادراك بالقوة إلى ادراك بالفعل . ومن ثم فجر هذا الادراك بالفعل الفكر الجغرافى العفوى وبلور أهدافه ، وأخرج ما فى الجعبة من حيلة أو ابداع أو اجتهاد ، لحساب التعايش بين الواقع الجغرافى فى المكان فى جانب ، والحياة التى تشبثت بهذا المكان فى جانب آخر .

وإذا كان الفكر الذى يسفر عنه التفكير العقلانى ، يمثل فى رأى الفلاسفة ، دليلاً على وجود الانسان ماديًا ومعنويًا ، فإن الفكر الجغرافى الذى يسفر عنه الحس الجغرافى ، يمثل فى رأى الجغرافية دليلاً على حيوية هذا الوجود ، وهو يبصر التوافق والانسجام مع الواقع الجغرافى فى المكان . بمعنى أنه إذا كان وجود الانسان لا يستقيم أو يتأتى من غير فكر بناء ، فإن حيوية هذا الوجود وانتظام نبضه الفعال، وانتصاره للحياة ، لا يتأتى من غير فكر جغرافى عفوى ، يؤمن مصير الحياة فى أحضان المكان .

وبهذا المنطق الموضوعى الرشيد ، نتبين كيف كان الفكر الجغرافى العفوى ، وليدًا شرعيًا نافعًا ، للادراك الذكى ، الذى هيأ له حسن استخدام الحس الجغرافى الكامن فى عمق الانسان أن يولد . ومن الطبيعى أن نستشعر كيف كان الفكر الجغرافى العفوى ، وهو وليد

مبهماً لبعض الوقت الطويل ، الذى افتقد فيه الانسان أساليب التسجيل وحفظ التراث وتوريثه . ومع ذلك فقد تولى هذا الفكر الجغرافى العفوى، وهو مبهم مسئولياته بكل الصدق والواقعية ، لحساب الحياة . ومن غير شك أفلح هذا الفكر الجغرافى العفوى فى مهمته ، عندما توجب عليه ادراك الواقع الجغرافى فى أحضان أى مكان ، أو عندما تولى ترشيد التفاعل الديناميكى الحيوى بين الانسان والأرض ، لحساب دعم الحياة تارة ، أو لحساب صياغة الحياة الأفضل تارة أخرى .

هذا وينبغى – عندئذ – أن نتصور كيف أسلم الفكر الجغرافى العفوى زمامه لاجتهاد الحس الجغرافى الكامن فى عمق الانسان ، وكيف استلهم من ملاحظاته المعرفة الكاشفة لأهم أبعاد المواجهة والصراع بين الانسان والأرض ، وكيف ترك لاجتهاده أن يوجه ويقود الانتصار فى هذه المواجهة ، فى الاتجاه الذى أملته حاجة الانسان فى اطار الممارسة الحياتية الصعبة المكافحة فى أحضان المكان . بل يجب أن نستشعر – بالضرورة – كيف أصبح رصيد الفكر الجغرافى العفوى وخبرته ، وهى تسعف الانسان وتشد أزره وتلهم كفاحه ، ومضات ضوء مشعة تبصر الانتصار لحساب التعايش ، وتؤكد فاعلية وجدوى الحس الذكى الجغرافى ، لحساب الحياة فى أى مكان .

وهكذا كانت الحاسة الجغرافية التى نمتها التجربة وشحذتها الحاجة فى المواقف العصيبة التى واجهت مسيرة الحياة ، وهى تخدم الاحساس بالمكان وترشد الادراك بالواقع الجغرافى فيه ، من وراء الاجتهاد الذى صنع الفكر الجغرافى العفوى ، ونمى رصيد خبراته ومعطياته ، وحدد مساره ، من أجل مسيرة سوية للحياة . بل لقد كان هذا الفكر الجغرافى العفوى ، وهو يخدم التعامل مع الأرض ، ويبصر التعايش مع الواقع الجغرافى من وراء الاجتهاد الانسانى الخاص والعام ، الذى أطلق عنان الابداع ، وصنع الاضافات المفيدة ، وأنتج أدوات الحضارة ، لحساب المسيرة الحياتية المتأنية ، وهى تبتغى ترسيخ وجود الانسان على الأرض .

وصحيح أن الحس الجغرافى الذكى الصادق ، قد اعتصر التدبر من خلال التجارب الحياتية المستمرة ، وهى تنتصر لإرادة الحياة فى المكان ، لكى تتحدد أبعاد العلاقات المكانية فى الزمان ، بين المكان الموطن فى أضيق

دائرة من حول الانسان فى جانب ، والأماكن الأخرى - المواطن - فى أوسع دائرة تغطيها معرفته على الأرض الموطن الكل الكبير للانسان فى جانب آخر . ولكن الصحيح أيضاً أن الحس الجغرافى الذكى الصادق ، قد استهواه تجسيد الخيال والأمل من خلال التفاعل الحياتى المتجدد ، وهو يطوع الواقع الجغرافى لارادة الحياة ، ويطوع ارادة الحياة للواقع الجغرافى فى المكان ، لكى يجنى ثمرات المعرفة بالعلاقات المكانية ، بين الأرض الوطن الذى يحتوى الحياة ، والكون الفسيح الذى يحتوى الأرض ، ويشبع ادراكه بمكانة الأرض فى هذا الكون ، وبمكانة وجوده وانتصاره على الأرض .

وهكذا قدم الحس الجغرافى الصادق - بحسن استشعاره وبكامل اختياره - ثمرات الاجتهاد بكل السخاء والوفاء . وكان من شأن هذه الثمرات أن تمثل الالهام الذى غرس نواة الفكر الجغرافى العفوى ، بل لقد أضاف هذا الاجتهاد رصيداً أثرى الفكر الجغرافى العفوى ، وهو يتحمل مسئوليته قبل الحياة وترشيدها فى المكان ، أو وهو يتحسس طريقه السوى ويقدم عونه لمسيرة الحياة ، لو وهو يظاهر وينصر الحياة فى مواجهة الواقع الجغرافى فى أى مكان . وقد كان تحرك الفكر الجغرافى العفوى - فى اعتقادى - على ثلاثة محاور متوازية ، وصولاً إلى ثلاثة ثمرات على وجه التحديد . ومن شأن هذه الثمرات أن تمثل - فى تصورى - أبعاد الشكل العام الذى حدد محتوى وأهداف وتطلعات الفكر الجغرافى العفوى لحساب الحياة ، بل وسبيل الحياة الأفضل .

هذا وتتمثل هذه الثمرات التى حددت محتوى وأهداف الفكر الجغرافى العفوى على المدى الطويل ، الذى افتقد فيه الانسان الكتابة ووسائل التسجيل والمحافظة على التراث ، فى التعرف على المكان على صعيد الأرض مرة ، وعلى صعيد السماء مرة أخرى . ومن ثم تأتى ذلك على ثلاثة محاور هى :

١- **المحور الأول** ، وكان بالضرورة من وراء الاحساس بسطح الأرض ، وادراك كل العوامل التى تشترك فى صياغة خصائصه ، ومن وراء استشعار التجربة الحياتية فى حضن المكان ، الذى يحتوى الحياة ويستجيب لارادتها وفاعليها بشكل أو بآخر . ومن خلال هذا الاحساس، ومن خلال هذا الاستشعار تكشفت للانسان أنماطاً من

التحديات التى تواجه ارادة الحياة فى هذا المكان ، الذى تشبث به لبعض الوقت أحياناً ، أو الذى عاش فيه لكل الوقت أحياناً أخرى . وفى أى من الحالتين ، استلهم الانسان الحيلة التى هيأت له الحل أو الحلول التى كفلت صموده فى أحضان هذا المكان .

وكان من شأن الخبرة التى استوعبت رصيد الفكر الجغرافى العفوى ، أن تعجم عود هذه التحديات ، وأن تسبر غورها وأن تحدد أبعادها ، لكى ينفتح لها باب الأمل ، وهى ترشد أو تبصر اجتهاد الانسان، وهو ينصاع لبعض هذه التحديات أحياناً ويمتثل لارادتها أحياناً ، أو وهو يهيئ الضبط الحاكم لها والمنتصر لارادته عليها أحياناً أخرى . وسواء امتثل الانسان للتحدى الذى أملاه الواقع الجغرافى فى المكان ، وطوع ذاته وارادته ، لكى يتعايش ، أو أحبط الانسان التحدى وأبطل مفعوله وطوعه لارادته ، لكى ينتصر لحياته فى هذا المكان ، فينبغى أن نتبين كيف تحدد المسار الذى سار فيه الفكر الجغرافى العفوى لحساب الحياة ، ودعم صيغ المعايشة مع الواقع الجغرافى فى أى مكان ، مساراً واضحاً ، وهو يستلهم الصدق والواقعية وحسن الترشيد من الحس الجغرافى الذكى المتفتح .

وصحيح أن ثمرات الفكر الجغرافى العفوى ، قد استهدفت – بكل المرونة – الادراك الكلى والجزئى للخصائص من وراء الواقع الجغرافى فى المكان ، وألهمت وبصرت التفاعل الحياتى الايجابى والسلبى بين الانسان والأرض ، ورصدت جدوى التأثير المتبادل فى المصارعة بين الانسان والواقع الجغرافى فى المكان لحساب الحياة . وصحيح أيضًا أن ثمرات الفكر الجغرافى العفوى ، قد أسعفت وبرهنت على حسن أدائها ودعمها تأكيداً للحياة وحرصًا على استمرار وجودها وتأمينها فى أحضان أى مكان ، وأسهمت فى صياغة وتشكيل وتنويع أنماط الحياة فى كل مكان . ولكن الصحيح أيضًا أن ثمرات هذا الفكر الجغرافى العفوى ، قد تابعت – بكل الفطنة – عوامل التغيير على سطح الأرض فى المكان ، وهى تبدل الأحوال وتعدل من مواصفات وخصائص الواقع الجغرافى فى المكان .

ومن ثم ينبغى أن نتصور كيف لعبت ثمرات الفكر الجغرافى العفوى دورها الوظيفى بمهارة ، وكيف بصرت الحياة وهى تقبل بهذا التغيير وتقبل عليه وتستوعبه ، أو وهى ترفض هذا التغيير وتتحرك من المكان إلى المكان الأنسب الآخر . وفى أى من هاتين الحالتين ، وهو القبول بالتغير ومعايشة الواقع الجغرافى فى المكان ، أو رفض التغيير واستحالة معايشة الواقع الجغرافى فى المكان ، تولى الفكر الجغرافى مهمة ترشيد ودعم اختيار الانسان . بمعنى أنه رشد الانسان مرة ، وهو يقبل على صنع التغيير فى حياته من أجل التشبث والبقاء فى المكان ، ورشد الانسان مرة أخرى وهو يرفض التغيير ويلتزم بالتحرك إلى المكان الأنسب . وهذا معناه أيضًا أن الفكر الجغرافى العفوى كان بصيرة الحياة المتفتحة ، لأنه أخذ على عاتقه دائماً خدمة الحياة ودعمها فى المكان ، بقدر ما أخذ على عاتقه تأمين مسيرة الحياة، وتعايشها مع الواقع الجغرافى فى كل مكان .

وفى اعتقاد أى من الجغرافيين المعاصرين المنصفين ، أن الاحساس بالمكان الذى يحتوى الحياة ، وأن الادراك الحسى لخصائص وسمات المكان الذى يعطى ويؤمن الحياة ، تمثل أبعاداً هامة وكاشفة لمفاهيم الفكر الجغرافى العفوى ، قد تعبر تعبيراً جيداً عن أداء هذا الفكر الوظيفى ، وهو يجسد الواقع الجغرافى فى المكان تجسيداً واضحًا . وتنبنى عليه بالضرورة المتابعة الذكية واستشعار منطق التغيير فى هذا الواقع الجغرافى ، وكيف يسهم فى تطوير الحياة فى المكان ، أو كيف ينقلها ويحركها من المكان إلى المكان الأفضل .

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعاصرين أيضاً ، أن الفكر الجغرافى العفوى عندما تكفل بتجسيد الواقع الجغرافى فى المكان لم يبدأ من فراغ ، لأنه استلهم الحس الجغرافى . كما أنه لم ينكب على أداء دوره الوظيفى عبثاً ، لأنه حقق بالفعل اقصى قدر من الاستجابة لطلب المعرفة التى طلبها الانسان لحساب الحياة فى المكان .

وهكذا نستشعر كيف وقف الفكر الجغرافى العفوى فى صف الانسان ، وكيف همس فى أذنيه ، كلما واجه أعباء التحدى فى المكان .

وهذا معناه أن اتخذ الانسان من الفكر الجغرافى وأدائه الوظيفى رفيقًا يظاهره، وهو يقبض على زمام الواقع الجغرافى ويؤمن مصيره فى أحضان هذا الواقع فى أى مكان ، بل لقد اتخذ الانسان منه أيضاً رفيقًا يظاهره ، وهو يبصر الحياة التى تدس جذورها فى المكان ، أو التى تتحرك وتنتقل من مكان إلى مكان أفضل .

وبهذا المنطق الموضوعى ، كانت هذه الثمرة من ثمرات الفكر الجغرافى العفوى الذى جمع أوصالها وتولى صياغتها ، وليدة التفتح وحسن استخدام الحس الجغرافى وتدبر ما يستشعره فى أنحاء المكان . وكانت هذه الثمرة الطيبة – بكل تأكيد – بصيرة الانسان على الأرض ، وهو يتعايش فى أحضان أى مكان ، أو وهو يتعامل مع الأرض ويطلب الاستجابة منها والوفاء لإرادة الحياة فى هذا المكان . كما كانت هذه الثمرة الطيبة – بكل تأكيد – دليل الانسان على الأرض ترشد وتقود خطاه ، وهو يضرب فى الدروب ويتحرك طلبًا للموطن الأفضل فى المكان الأنسب ، أو وهو يتشبث بالأرض ويواجه أعباء التحديات ، ويحل عقدتها ويبطل مفعولها وينتصر لإرادة الحياة فى المكان الأفضل للموطن الأنسب . ومن ثم نتبين – بكل الواقعية – كيف اتخذ الانسان من مهمة الفكر الجغرافى الوظيفية سلاحًا ، لكى ينتصر لإرادة الحياة فى المكان ، أو لكى ينصر انتشار حركة الحياة ، وتنويع الاستيطان فى كل مكان على صعيد الأرض .

٢- **المحور الثانى** ، وكان بالضرورة من وراء الاحساس بمشقة التجربة الحياتية فى المكان المعين الذى احتوى الموطن الصغير . ومن وراء استشعار العلاقات الأصولية بين التجربة الحياتية الذاتية فى المكان المنتخب الذى احتوى على الموطن الصغير على الأرض ، والتجارب الحياتية العامة فى الأماكن المنتخبة التى احتوت المواطن فى أنحاء الوطن الكبير الكل الأرض . ومن خلال هذا الاستشعار تكشفت للانسان معنى التنوع فى أنماط التعامل مع الأرض لحساب الحياة ، ومعنى الوحدة فى المصير الذى يواجه مسيرة الحياة .

هذا وكان من شأن الحس الجغرافى الذى استلهم ماهية العلاقة

الايجابية والسلبية . بين الحياة فى المكان والحياة فى الأماكن الأخرى ، واستوحى منطق الاطار الجامع لأنماط الحياة المتنوعة والمنتشرة على صعيد الأرض ، أن يحفز الفكر الجغرافى العفوى ، لكى يتدبر معنى وفاعلية المسافة بين المكان والأماكن الأخرى ، ولكى يواجه التحدى الذى يعلنه حاجز المسافة بين أوصال الحياة فى كل مكان . وهذا معناه أن الفكر الجغرافى العفوى ، قد تطلع إلى صيغة أو صيغ تحقق معنى وجدوى الانتصار على حاجز المسافة واختراقه ، وصولاً إلى درجات من الترابط بين أوصال الحياة فى كل مكان ، أو وصولاً إلى درجة من التكامل والدعم المتبادل بين التجربة الحياتية فى أى مكان ، والتجارب الحياتية الأخرى فى كل مكان على صعيد الأرض .

هكذا فتح الحس الجغرافى الصادق باب الاجتهاد ، عندما حمل الفكر الجغرافى العفوى مسئولية الاضافة أو الابداع ، الذى يسعف الانسان فى مواجهة حاجز المسافة . وقد تمثلت هذه الاضافة أو الابداع فى ضبط عامل اسقاط هذا الحاجز واختراقه ، واحباط أو ابطال مفعوله لكيلا تنقطع الصلة بين المكان والأماكن الأخرى . وما من شك فى أن حرية التحرك أو تحرير التحرك لم يكن عبثًا أو مقصوداً لذات الحركة . بل كان من وراء هذا التحرير التطلع الانسانى إلى استثمار الاتصال ،وجنى حصاد التكامل بين التجارب الحياتية المتنوعة ، المنتشرة على أوسع مدى فى أنحاء الأرض .

وسواء أفلح هذا الضبط الذى أسفر عنه الفكر الجغرافى العفوى وتبناه ورشده فلاحًا كليًا ، لكى تنتصر العلاقة والاتصال ويتحرر التحرك ، لحساب التكامل بين أنماط الحياة المتنوعة فى أنحاء الأرض ، أو لم يفلح هذا الضبط فى اسقاط حاجز المسافة واختراقه إلا فى حدود معينة ، فينبغى أن نتبين كيف قاد الفكر الجغرافى العفوى الانسان فى الاتجاه الصحيح ، وكيف ألهمه الوسيلة التى وسعت دائرة تحركه، وانتقاله من حول موطنه فى المكان المعين إلى موطن الحياة فى الأماكن الأخرى . بل ينبغى أن نتبين أكثر من ذلك ، كيف أسفر تحرير التحرك وتوسيع دائرته الانتقال عن ادراك حقيقتين هامتين هما ، وحدة الأرض

ووحدة الناس على صعيد الأرض . وعندئذ انبرى الفكر الجغرافى العفوى إلى استيعاب هاتين الحقيقتين ، وما ينبنى عليهما معًا لحساب الحياة فى كل مكان .

وصحيح أن وعى الفكر الجغرافى العفوى ، قد استلهم من الحس الجغرافى معرفة الكل المتكامل فى اطار جامع ، يشمل وحدة الأرض ووحدة الناس على هذه الأرض ، من خلال المعرفة بالجزء المتميز من هذا الكل . وصحيح أن اهتمام الفكر الجغرافى العفوى بهذا الجزء المتميز من الكل، قد قوم معنى وكنه وجدوى العلاقة المكانية ، التى ربطت بين الأجزاء المتباينة ، من مكان إلى مكان آخر على الأرض ، من خلال انتشار الاستيطان البشرى على المدى الواسع ، وانتقال نبتة الحياة من موطن إلى موطن آخر فى أرجاء الأرض . ولكن الصحيح أيضًا ، أن هذا الفكر الجغرافى العفوى ، هو الذى استشعر حقيقة وحدة الأرض، وحقيقة وحدة الناس ، وتلمس أبعاد وحدة الحياة ومدى التنوع فى أنماطها وأساليبها ومناهج تعايشها فى سائر المواطن المتنوعة ، قد تابع – بكل الفطنة – أسباب وجدوى التكامل والاتصال والدعم المتبادل ، بين الحياة فى الموطن المعين ، والحياة فى سائر الأوطان على امتداد الأرض . ومن خلال اسقاط حاجز المسافة واختراقه فى البر والبحر ، تولى هذا الفكر ترشيد الخبرة التى تولت أمر التحرك والانتقال من المكان إلى المكان الآخر . كما تولى بالضرورة تهيئة الدعم المتبادل ، بين الحياة المنتشرة على المدى الواسع فى أرجاء الأرض .

وهكذا استشعر الفكر الجغرافى العفوى مسئوليته وأداء دوره الوظيفى ، وهو يخدم المصلحة المشتركة للحياة ، لكى يؤمن مصيرها ويشد أزرها ، وينمى انتفاعها بالدعم المتبادل بين المكان والمكان الآخر ، أو بين الموطن والموطن الآخر ، لحساب الناس كل الناس فى الأرض كل الأرض . بل لقد أصبح من شأن الفكر الجغرافى العفوى ، الذى صاحب مسيرة الحياة وأخذ على عاتقه مهمة استيعاب وترشيد المصلحة المشتركة للحياة فى أرجاء الأرض ، أن يأخذ بالانفتاح ومنطق الأخذ والعطاء ، لكى يحقق أهدافه ويؤدى دوره الوظيفى البناء ، وأن يرفض

الانغلاق ومنطق الانطواء والتقوقع ، الذى لا يخدم التكامل بين المكان والمكان الآخر ، ولا يتوافق مع التسليم بوحدة الأرض ، ووحدة الناس على امتداد الأرض .

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعاصرين ، أن حسن استخدام الحس الجغرافى الذكى ، الذى لا يضل ولا يضلل ، من أجل ادراك موضوعى للواقع الجغرافى فى الكل ، من خلال الواقع الجغرافى فى الجزء على الأرض ، ومن أجل استشعار التكامل الذى يجمع شمل الأجزاء المتباينة والمتباعدة فى اطار الكل الشامل للأرض ، كان – بكل تأكيد – من وراء التدبر والتفكير وشحذ العقل ، الذى أسفر عن الفكر الجغرافى العفوى ، وتسخير انجازه لدعم ومظاهرة التعايش فى أى مكان .

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعاصرين أيضاً ، أن حسن استخدام الحس الجغرافى الذى لا يضل ولا يضلل ، من أجل استشعار كنه وماهية وحدة الأصل، الذى يجمع شمل الناس والبناء البشرى على امتداد الأرض ، ومن أجل ادراك جدوى الانفتاح والتفتح الكاشف عن موضوعية وأهمية العلاقات بين الناس فى المكان ، والناس فى كل مكان على الأرض ، كان – بكل تأكيد – من وراء التدبر والتفكير وشحذ العقل الذى أسفر عن الفكر الجغرافى العفوى ، وتسخير دوره الوظيفى وأدائه التلقائى ، لحساب الحياة فى كل مكان .

هذا ولقد كان من شأن هذا الفكر الجغرافى ودوره الوظيفى ، أن يفلح فى مغزاه ومرماه إلى حد كبير . ذلك لأنه لم يتأت إلا من خلال استيعاب كنه وماهية جدوى حقائق أصولية ، ترتكز إليها النتائج التى يصل إليها التدبر والتفكير . وتتمثل هذه الحقائق فى :

أ– الحقائق الأصولية التى أنبأت بوحدة الأرض من حيث النشأة والتكوين ، بصرف النظر عن مدى التنوع والتباين بين خصائص المكان، وخصائص أو مواصفات المكان الآخر .

ب– الحقائق الأصولية التى أنبأت بوحدة الناس من حيث الأصل

والمصير ، بصرف النظر عن مدى التنوع والتباين ، بين الناس والناس فى أحضان الأوطان المتميزة على امتداد الأرض .

وبهذا المنطق الموضوعى ، كانت هذه الثمرة من ثمرات الفكر الجغرافى العقوى ، الذى جمع أوصالها وتولى صياغتها . وليدة الانفتاح وحسن استخدام الحس الجغرافى ، وتدبر ما يشعره عن كل الأرض وكل الناس . وكانت هذه الثمرة الطيبة - بكل تأكيد - بصيرة الانسان التى لم تضلله ، عندما انفتح من خلال رؤية الجزء الذى يحتوى موطنه على الأرض، على تصور شمول الكل الذى يضم الأوطان الجامعة شمل كل الناس فى أرجاء الأرض . كما كانت هذه الثمرة الطيبة - بكل تأكيد - أيضاً دليل الانسان الذى لم يخطئ عندما استشعر من خلال استيعاب وتدبر العلاقة بين الجزء والكل ، معنى وجدوى المصلحة المشتركة للحياة على الأرض . وكيف تكون مطلوبة وحاسمة لحساب وحدة المصير الذى يشترك فيه الناس فى كل أنحاء الأرض . ومن ثم يمكن أن نتبين - بكل الواقعية - كيف اتخذ الانسان من مهمة الفكر الجغرافى العفوى ودوره الوظيفى سلاحًا ، لكى ينتصر لإرادة الحياة ، ولكى يبصر ويرشد وجوده بجدوى المنطق الذى ينتصر لوحدة الناس، ومصلحة الحياة المشتركة فى الاطار الجامع الذى يتمثل فى وحدة الأرض .

٣- المحور الثالث ، كان بالضرورة من وراء الاحساس ، بوضع الأرض التى احتوت الحياة ، فى أحضان الكون الفسيح الذى يطوقها بأنواع متنوعة من الأجرام السماوية ، ومن وراء استشعار شكل أو أشكال العلاقة المنطقية بين الأرض والكون . ومن خلال هذا الاحساس الذى شد البصر إلى السماء والتطلع إلى أبعادها الفسيحة ، وهى صافية، ومن خلال معاينة الأجرام فى مواضعها ومتابعة تحركاتها فى مسالكها ، ومن خلال الانفتاح والتفتح على ما ينبئ بالكون وماهيته من حول الأرض ، كان الابصار والرؤية ، وكانت البصيرة والتأمل ، وسيلة الانسان لكى يتدبر ويستنفر الحس الجغرافى ، وصولاً إلى استشعار وضع الأرض فى الكون ، وإلى استطلاع علاقة الأرض بالكون ، وإلى ادراك مكانة الأرض ، فى إطار كينونة الكون .

هذا ولقد كان من شأن الحس الجغرافى الصادق ، أن يستجيب لإرادة التدبر ويشبع حاجتها لارضاء شهوة المعرفة . بل وكان من شأنه أيضاً أن يسعف الانسان وينتشله من الفزع الذى انتابه ، كلما تغيرت الأحوال من حوله فى السماء ، وهى ترمجر بالغضب أحياناً ، أو وهى تصفو بالبشاشة أحياناً أخرى ، أو كلما تغيرت أوضاع الشمس والقمر والأجرام فى قبة السماء ، وهى مشرقة بنور وضاء ، أو وهى آفلة بظلمة حالكة . وهل للحياة حيلة غير أن تسأل الحس الجغرافى ، لكى يبصر التدبر والتفكير فى أمر هذا الكون وتقلباته ، التى تفزعها حيناً، وتؤمنها أحياناً أخرى ؟

وهكذا كان على الحس الجغرافى فى الانسان ، أن يستوعب – بكل الفطنة – مكان الأرض فى الكون ، وأن يتحسس – بكل الموضوعية – علاقة الأرض بالكون ، وأن يتصور – بكل الوعى – مكانة الأرض فى الكون ، لكى يبصر التدبر ويرشد التفكير فى أمر هذا الكون الفسيح من حول الأرض . وهذا معناه أن الفكر الجغرافى العفوى قد تبنى أمر هذا الكون . وربما تطلع إلى كشف غموض الكون ، وبيان جدوى تأثير الأجرام السماوية فى الكون على الحياة ، ووقع خطوات مسيرتها وتنوع مكانتها على الأرض . وأضاف هذا الاهتمام إلى رصيد الفكر الجغرافى العفوى اضافة مفيدة عن الكون ، على اعتبار أنها تخدم وجود الانسان وتؤمن فزع الحياة من غضب وزمجرة السماء .

ويبدو أن رصيد الفكر الجغرافى العفوى ، الذى تحمس للمعرفة بالكون ، قد حفز الانسان لأن يتصور الأرض ، وكيف أنها تحتل أو تشغل المركز القلب النابض من الكون . وربما فشل فى نفس الوقت فى تأمين الانسان وفزعه من غضبة السماء التى يزمجر بها الكون . بمعنى أنه بث فى الحياة روح ومنطق التخوف ، وهو يتدبر أمر الكون من حول الأرض ، وأنه لم يبث الأمن أو يشيع الطمأنينة لحساب الحياة، التى تتخوف وتفزع من التقلبات فى أنحاء الكون .

وربما ذهب الفكر الجغرافى برؤية الانسان وتدبره فى أمر الكون إلى حد تجاوز منطق الاستعلاء بالذات ، لكى يتصور كيف كان الكون،

لكى تكون الأرض ، وكيف كانت الأرض ، لكى تكون الحياة على الأرض ، وكيف كانت الحياة على الأرض ، لكى يكون الانسان سيداً فى الأرض . بمعنى أنه من أجل الانسان كانت الحياة ، ومن أجل الحياة كانت الأرض، ومن أجل الأرض كان الكون . وسواء أصاب الانسان وهو يقدح فكرة الجغرافى ، أو أخفق فى هذا التصور النابع من الذات ، فينبغى أن نستشعر كيف صاغ أو صنع هذا التصور الذاتى النزعة مساراً واضحاً تحرك فيه التفكير الجغرافى تحركاً متخبطاً ، لحساب ذاتية الحياة على الأرض أو لحساب أنانية الانسان على الأرض ، فى اطار الكون العظيم من حوله .

وصحيح أن حسن استخدام الحس الجغرافى الصادق ، قد ألهم الفكر الجغرافى العفوى ، وهو يرصد الاطار الجامع لامتداد الكون الفسيح من حول الأرض . وصحيح أيضًا أن حسن استخدام الحس الجغرافى الصادق ، قد أشبع الفكر الجغرافى العفوى وساند خطاه ، وهو يتدبر وضع الأرض فى مكانها فى المركز القلب من الكون . ولكن الصحيح – بكل تأكيد – أيضًا أن حسن استخدام الحس الجغرافى الصادق ، قد بصر وحفز الفكر الجغرافى العفوى ، لكى يحدد معنى ومغزى وقيمة العلاقة بين الأرض فى جانب ، والأجرام السماوية فى الكون الفسيح فى جانب آخر . وربما كان ذلك من وراء القفزة الفكرية التى استثمرت هذه العلاقة السرمدية ، من خلال استشعار كنه القوة أو القوى الخفية ، أو من خلال غرس نبتة العقيدة المؤمنة بفاعلية وقدرة هذه القوى ، ومدى تأثيرها على نبض الحياة وكينونتها ومصيرها فى المكان وفى الزمان على الأرض .

وهكذا ينبغى أن نتبين – بكل الوضوح – كيف تابع الفكر الجغرافى العفوى ، من خلال انفتاح الحس الجغرافى على السماء ، والتطلع إلى الأجرام السماوية ، والتأمل فى حركتها ومدى انتظامها ورتباتها ، مهمته لكى يشبع نهم الانسان إلى معرفة المجهول الذى يفزعه حيناً ويذهله أحياناً أخرى . كما ينبغى أن نتبين– بكل الفطنة – أيضًا ، كيف تفتقت مهمة الفكر الجغرافى العفوى ، من خلال مطالعة قبة السماء ،

عن استشعار فاعلية وجدوى كل الضوابط والسنن الحاكمة للحركة السرمدية . فى الكون الفسيح الغامض من حول الأرض . ومن المؤكد انه عطل عن الفكر ادراك واقعى صحيح ، يصور كنه وماهية هذه الضوابط والسنن الحاكمة . ولكنه استل منها تصورات مبهمة غريبة تلعب دوراً غير مرئى فى مصير الحياة على الأرض .

وبصرف النظر عن مبلغ الخلط الشديد بين رصيد الفكر الجغرافى العفوى عن المعرفة بالكون ، وعن التنجيم ومطالعة الحظ ، وعن نبتة الاعتقاد فى قوى الخير والشر فى جوف هذا الكون ، نستشعر كيف أخذ التفكير على عاتقه مسئولية التدبر فى أمر الكون ، ومسئولية تلمس العلاقة بين الأرض وما عليها ، والسماء وما فيها ، لحساب الحياة. ومن ثم كان تشبث الانسان بالانفتاح على قبة السماء دائمًا ، مطلباً يحفز الفكر الجغرافى العفوى لكشف غموض المجهول فيها الذى يفزعه، ولتطويع الحركة فيها لحساب الزمان ، الذى يطوى صفحات الحياة . بل لقد أبى الانسان أن ينطوى الفكر الجغرافى العفوى انطواء، بصرف معاينته عن قبة السماء ، وينكر أو يتنكر لجدوى الاستطلاع الفلكى ، فى خدمة الحياة على الأرض .

وفى اعتقاد أى من الجغرافيين المعاصرين المنصفين ، أن الاحساس بالاطار الجامع للكون كله من حول الأرض ، واستشعار الفزع من المجهول الذى يزأر بالغضب، أو يشرق بالصفاء ، واستطلاع كنه ومغزى العلاقة بين ، الأرض وما عليها من نبض الحياة ، والسماء وما تحتويه من أجرام ، تمثل أبعاداً هامة وكاشفة لاهتمام وتدبر ، وقدتولى أمره الفكر الجغرافى العفوى . وولاية الأمر من شأنها عندئذ أن تعبر عن اداء وظيفى يتسم بالقدرة على التخيل أولاً ، وتجسيد هذا التخيل ثانيًا بصرف النظر عن مدى الأخطاء التى تردى فيها ، وهو يكشف النقاب عن المجهول فى الكون .

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعاصرين أيضاً ، أن الفكر الجغرافى عندما تكفل بتدبر أمر الكون ، وتجسيد تخيله عن هذا الكون لم يبدأ من فراغ لأنه استلهم – فى الحقيقة – الحس الجغرافى ، الذى

علق استشعاره بقبة السماء وتابع رئير الغضب ، حيناً ، واشراقه الصفاء حيناً آخر كما انه لم يكب على أداء دوره الوظيفى عبثاً لأنه قد حقق بالفعل أقصى قدر من وضوح التصور. لكنه وماهية الكون استجابة لتطلع الحياة إلى كشف النقاب عن المجهول فى الكون .

وهكذا نستشعر كيف وقف الفكر الجغرافى العفوى فى صف إرادة الانسان ، وكيف صور له ما وراء قوى الطبيعة التى تشرق بالصفاء وتزمجر بالغضب . ومن غير أن يبدد عنه الفزع ، ربما أفلح الفكر الجغرافى العفوى أيضاً ، فى أن يغرس فى قلب الانسان نبتة العقيدة التى تتخوف من القوة الخفية المتخفية ، فيما وراء قوى الطبيعة الشريرة والخيرة . وما كان لهذا الدور الوظيفى أن يفلح ، لولا أن تأتى بالفعل من خلال استيعاب كنه وجدوى السنن الكونية التى حددت مكان ومكانة الأرض فى الكون الفسيح ، وصورت موضعها ، وهى تحتوى نبض حركة الحياة بين أجرام السماء .

وبهذا المنطق الموضوعى ، كانت هذه الثمرة من ثمرات الفكر الجغرافى العفوى ، والتى جمع أوصالها وتولى صياغتها التدبر ، وليدة حسن استخدام الحس الجغرافى الذكى . ولقد كانت – من غير شك – بصيرة الانسان التى لا تضلله ، وهو يتطلع بالأمل إلى السماء من فوق رأسه ، لكى يتحسس مصلحة الحياة فى العلاقة المعنية بأجرام السماء، والتى تجسدت فى الضوء والحرارة والمطر ، ولكى يستشعر هذه المنح السخية من السماء وأجرام السماء ،وكيف تدعم الحياة وتشد أزرها وتؤمن حاجاتها فى أحضان الأرض . كما كانت – من غير شك – أيضاً رفيقة الانسان التى لا تضلله ، وهو يتطلع بالخوف والفزع إلى السماء من فوق رأسه ، لكى يتحسس غضبه قوى الطبيعة التى تتجسد فى زمجرة وزئير وبريق يخطف الابصار وصواعق حارقة مدمرة ، ولكى يستشعر هذه النقم ، التى تفزع وتهدد بها السماء مصلحة الحياة فى أحضان الأرض . كما كانت هذه القوة أيضا – ومن غير شك – دليل الانسان الذى لا يكذب عليه ، وهو يلتمس رضا وعون القوة الخفية التى تفجر تقلبات السماء وتحولها ، من عطاء النعم مدراراً ، إلى صب النقم والبلايا ومن ثم يمكن أن نتبين – بكل الوضوح – كيف أخذ الفكر

الجغرافى العفوى بيد الحياة . وكيف تحمل مسئولية التدبر ، وهو ينفتح بكل التفتح على حصاد الحس الجغرافى الذى يرقب السماء، ويتطلع إلى الكون الفسيح ، بالمنطق الدى انتصر لمصلحة الحياة فى رصد العلاقة بين الأرض والكون من حولها .

* * *

هكذا كانت إرادة الحياة فى المكان على الأرض ، وفى أى مكان على امتداد الأرض ، والتى تزودت بالحس الجغرافى وأحسنت استخدامه ، من وراء حفز التدبر والتفكير ، الذى فجر الفكر الجغرافى العفوى ، الذى كان يسعفه فى مواجهة أعباء الحياة . كما كانت حقيقة الموت التى تنهى حياة كل انسان فى كل مكان على الأرض ، من وراء حفز التدبر والتفكير الذى فجر الفكر التاريخى العفوى ، الذى يرقب ويعالج تقدم وتجدد مسيرة الحياة .

ومن قبيل الاستجابة لارادة الحياة والتشبث بها ، والتطلع إلى التطويع المتبادل بين الانسان والأرض ، كانت الرغبة فى معرفة الواقع الطبيعى فى المكان ، الذى يحتوى الحياة فى أضيق دائرة من حول الانسان، وفى أوسع دائرة من حول كل الناس . وتطلع الفكر والاجتهاد عندئذ إلى دراسة واقعية كاشفة ، تصور المسرح الذى يستجيب لارادة الحياة .

وعندما يتطلع الفكر الانسانى - بكل الاجتهاد إلى معرفة المكان ، لأن الانسان يتشبث بالحياة ، ويتشوق إلى دعم عطاء واستجابة الأرض فى المكان لها ، ويتلمس الضوابط الحاكمة للتفاعل الحياتى الديناميكى بينه وبين الأرض لحساب الحياة ، يتجه هذا الفكر الذى استثمر الحس الجغرافى فى الاتجاه الجغرافى . وهو - من غير شك - الاتجاه الهادف الذى يسفر عن نتائج طيبة وعطاء مفيد ، يخدم ارادة الحياة وانجاح تعايشها مع الواقع الجغرافى فى المكان . بل أنه السبيل الأمثل الذى يسعف الانسان ، وهو يمسك بزمام الأرض ويطوعها ، أو وهو يعمل من أجل تأمين حق الحياة فى الأرض .

ومن قبيل الاستجابة لحقيقة الموت والانصياع لها ، لكى تتجدد

أجيال الحياة، كانت الرغبة فى حساب الزمان ، الذى يمضى وتمضى معه فصول قصة أو مسيرة الحياة فى حدود أقصر مدى لحياة الانسان ، أو فى حدود مدى الحياة الانسانية كلها . وتطلع الفكر والاجتهاد – عندئذ – إلى دراسة التطور الكاشف الذى يصور استمرار وتجدد قصة الحياة ، وكيف يطويها أو يطوى صفحاتها الزمان ، بقدر ما تطويه .

وعندما يتطلع الفكر الانسانى – بكل الاجتهاد – إلى حساب الزمان، لأن الانسان يستشعر الوقت ، الذى يفصل بين ولادة الحياة ونهاية الحياة، ويتلمس الضوابط الحاكمة لتجدد نبض أجيال ، الحياة واستمرار مسيرتها ، ويتشبث برصد الفصول التى تحكى فصول أو سياق قصة الحياة وتجددها ، من خلال الترابط بين السلف والخلف ، يتجه هذا الفكر الذى استثمر الحس التاريخى فى الاتجاه التاريخى . وهو – من غير شك – الاتجاه الهادف الذى يسفر عن نتائج طيبة وعطاء مفيد، يخدم إرادة استمرار ومواصلة الحياة وانجاح تجددها فى الزمان . بل أنه السبيل الأمثل الذى يسعف الانسان ، وهو يتابع صفحات الحياة، التى يطويها الزمان لكى تتجدد ، وتتوالى الأجيال من زمان إلى زمان آخر .

وهكذا ولد الحس مع ولادة الانسان على الأرض . وكان له – بكل تأكيد – وجهين مختلفين اختلافًا جوهريًا . وجه تطلع بكل اللهفة إلى استشعار قيمة المكان فى الزمان ، ووجه قطاعًا من الفكر لكى يصبح فكرًا جغرافيًا . ووجه آخر تطلع بكل الاهتمام إلى استشعار حركة الزمان فى المكان ، ووجه قطاعًا من الفكر لكى يصبح فكرًا تاريخيًا . ومن الطبيعى أن تبدأ مسيرة الفكر الجغرافى قبل أن تبدأ مسيرة الفكر التاريخى ، لأن استشعار قيمة المكان فى الزمان لحساب الحياة سبق استشعار حركة الزمان فى المكان لحساب مسيرة تجدد الحياة . ومع ذلك لا ينبغى أن نغفل العلاقة الأصولية بين هذين الوجهين المختلفين ، أو بين الفكر الجغرافى العفوى والفكر التاريخى العفوى . ومن الجائز – فعلاً – الا تكون هذه العلاقة عضوية فى الأصل ، ولكنها – بكل تأكيد – علاقة موضوعية إلى أبعد الحدود .

هذا ولا ينبغى أن ينكر أى جغرافى معاصر منصف موضوعية

هده العلاقة ، بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى ، أو أن يتنكر لكنهها وماهيتها وجدوها . ذلك أن دراسة **المكان** تصور القاعدة أو المسرح الذى يشهد ديناميكية الحياة فى الزمان ، وأن دراسة **الزمان** تصور السياق أو التطور الذى يشهد فصول قصة الحياة فى المكان . ولأن الانسان يحيا ويتشبث بدعم أسباب الحياة فى المكان ، فينبغى أن يفكر الانسان جغرافيًا ، لكى يتبين كيف تكون فرصة الوجود . بمعنى أن التفكير الجغرافى يكون مطلوباً وهادفاً ، لتأمين التعايش مع الواقع الجغرافى فى أحضان أى مكان على الأرض . ولأن العمر يمضى وينهى الموت فصلاً من فصول أجيال الحياة مع مرور الزمان ، فينبغى أن يفكر الانسان تاريخياً ، لكى يتبين كيف يطوى الزمان صفحات الحياة ويشهد تجدد الحياة . بمعنى أن التفكير التاريخى يكون مطلوباً وهادفاً ، لتأمين استمرار قصة التعايش ، مع الواقع الجغرافى فى أى مكان على الأرض .

ومن شأن العلاقة الموضوعية بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى فى أى مرحلة من مراحل المسيرة ، أن تتجلى من خلال استشعار الضوابط الحاكمة للصلة الواقعية بين الحياة والموت . وهى – من غير شك – علاقة مصير لا ينبغى أن تنفصم . وكيف نتصور انها علاقة يمكن أن تنفصم ، وهى كاشفة عن صلة بين استشعار المكان الذى يحتوى الحياة فى الزمان المعين ، واستشعار الزمان الذى يشهد تجدد الحياة فى المكان المعين . وهل تولد الحياة إلا لأنها تموت ؟ وهل يموت الانسان إلا لأنه يحيا ؟ والموت بحق لا يوقف العجلة الدوارة بحركة ومسيرة الحياة فى المكان ، من زمان إلى زمان آخر .

وهكذا عاش الفكر الجغرافى – تأسيسًا على موضوعية هذه العلاقة – قبل أن يكون مكتوباً ، وحتى بعد أن اصبح فكراً مكتوباً ، عاش متداخلاً ومخلوطاً مع الفكر التاريخى . بل أن الخلط والتداخل بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى ، لكى يمتزج الاحساس بالمكان مع الاحساس بالزمان ، لحساب التعايش واستمراره فى المكان والزمان، يمثل أمراً حيوياً . وحتى عندما يتطور التفكير ويتوالى الابداع ، وعندما ترفض الصفوة الرائدة على رأس مسيرة كل من الفكر الجغرافى

والفكر التاريخى ، الخلط والتداخل ، وتتلمس الخيط الرفيع الفاصل بينهما، يظل الفكر الجغرافى فى خدمة الفكر التاريخى يبصره ويرشد اجتهاده بدور العامل الجغرافى ، من وراء حركة الأحداث ونتائجها .

وهذا معناه مرة أخرى ، أن الفكر الانسانى الذى فجره الحس والادراك ، فى مواجهة المواقف الصعبة بحثًا عن الحيلة أو الوسيلة ، قد تبنى من خلال الاحساس بالمكان ومعرفته ، ومن خلال الاحساس بالزمان وحسابه ، أهداف الانسان . والتبنى معناه أن يبصر مصيره، ويحقق مصلحته ، وينصر وجوده ، فى أحضان الواقع فى المكان ، وهو يعيش ، أو فى سياق حركة الزمان ، وهو يطوى صفحات الحياة لكى يواصل التعايش فى أحضان الواقع المتغير فى المكان . ولكن هل ينبغى أن نتوقع عندئذ ، أن تكون بداية الفكر الجغرافى والفكر التاريخى بداية مشتركة ومتزامنة فى وقت واحد ؟ وهل صحيح أن هذا الفكر يكون فكراً عفوياً ونابعاً من الذات الانسانية بكل التلقائية ؟

وصحيح أن الكل يصور لنا ، كيف كانت مسيرة الفكر الجغرافى فى خدمة مسيرة الفكر التاريخى . وصحيح أن الكل يصور لنا الفكر الجغرافى فى مرحلة ما بعد الانسلاخ ، قد لعب دور المعلم والرائد الذى يبصر ورشد مسيرة الفكر التاريخى . وصحيح أن البعض يصور لنا كيف أن حصاد الفكر الجغرافى فى الزمن الحاضر ، هو موضع اهتمام الفكر التاريخى فى المستقبل . وصحيح أن البعض يصور لنا كيف أن **الجغرافية هى تاريخ اليوم ، وأن التاريخ هو جغرافية الماضى .** ولكن الصحيح أيضاً – بكل تأكيد – هو :

أولاً : أن حصاد الفكر الجغرافى حصاد مفيد مثمر ، يعيه الانسان ويستوعبه ويستثمره ويعمل بموجبه ، لحساب الحياة فى أى مكان ، من غير حاجة – بالضرورة – لأن يكون هذا الحصاد حصاداً مسجلاً أو مكتوباً . بمعنى أنه خبرة تكتسب ترشد الحياة ، وتشد أزرها وتورث هذه الخبرة انحداراً من جيل إلى جيل آخر .

ثانياً : أن حصاد الفكر التاريخى حصاد مفيد ومثمر ، تحتويه قصة وترويه حكاية . وقد يتعرض لاضافات وتضخيم أو لحذف

وتشويه بقصد أو من غير قصد وهذا معناه أنه لا يكون مثمراً وموثوقًا به إلا إذا ابتكر الانسان ، وسيلة لحساب الزمان لضبط التسلسل الدقيق ، الذى يحكى فى سياق رتيب حركة ومسيرة قصة الحياة ، ووسيلة للتسجيل لتأمين السياق ، ومضى حركة الأحداث التى تحتويها قصة أو حكاية الحياة .

وهكذا ، يمكن أن يكون الفكر الجغرافى فكراً عفوياً ينبع من الذات بكل التلقائية ، لكى تحتويه الخبرة بالمكان والتعايش فيه . بل ويمكن أن يعيش هذا الفكر الجغرافى عفوياً . وأن ينتقل حصاده من جيل إلى جيل آخر ، فلا يشوهه التوريث ، ولا يفرط فيه الانسان لأنه يبصر الحياة فى المكان . أما الفكر التاريخى الذى يمكن أن يكون عفوياً ، فلا ينبغى أن نثق فيه أو نبحث عن حصاده ، لأن انتقاله بالرواية من جيل إلى جيل آخر ، يشوهه ويفرط فى تسلسل السياق الرتيب أو المنضبط الذى يحكيه .

وفى اعتقادى – على كل حال – بل وفى اعتقاد كل منصف من الجغرافيين المعاصرين ، أن حصاد الفكر الجغرافى العفوى ، الذى يكون من وراء تطويع المكان للحياة ، وتطويع الحياة للمكان ، ينبغى أن تنتظمه مسيرة ، وينبغى أن تبدأ هذه المسيرة من غير حاجة ملحة إلى التسجيل والكتابة . وهذا معناه أن مسيرة الفكر الجغرافى العفوى قبل ابداع التسجيل ، تتكشف من خلال انحدار وتوريث حصادها من جيل إلى جيل آخر ، ومن خلال استيعاب هذا الحصاد والانتفاع به فى مواجهة أعباء الحياة . بل أن بداية مسيرة الفكر الجغرافى المكتوب ، كانت من حيث انتهت مسيرة الفكر الجغرافى العفوى غير المكتوب .

وفى اعتقادى أيضاً أن الحس التاريخى قد فجر الفكر التاريخى ، وأن هذا الفكر قد أعطى حصاداً بكل تأكيد أشبع نهم الانسان ، وهو تصور سياق حركة الحياة . ولكن الذى لا شك فيه أن هذا الحصاد لم يهيئ للفكر التاريخى مسيرة تنتظمه . ذلك أن حصاد هذا الفكر الذى احتوته القصة أو الحكاية ، ونقلته الرواية وعرضته للتشوية بقصد أو من غير قصد ، لا يفلح فى صياغة مسيرة . وما من شك أن هذا الحصاد كان

أحوج ما يكون إلى التسجيل والكتابة ، لكى تصونه وتحفظ سياقه وتحقق مصلحة الانسان فى حساب حركة الحياة فى الزمان .

وولادة الفكر الجغرافى الذى أسفرت عنه استخدامات الحس الجغرافى ، ولادة مبكرة مع ميلاد الحياة على الأرض ، مسألة يجب أن تلفت الانتباه . بل قد لا تستحق الجدل بحثًا عن الدليل . ذلك أن الحس الجغرافى الذى كان بمثابة النافذة ، التى أطل من خلالها الانسان على المكان الذى يحتويه ، لكى يتحسس أبعاده ويستشعر خصائصه ، ولكى يتلمس الضوابط الحاكمة للانتفاع بالأرض فيه ، قد حفز التدبر والتفكير الذى أشرق بنوره وأثمر بحصاده الفكر الجغرافى .

وهذا المعنى يقود إلى تصور كيف يولد الانسان جغرافيًا بطبعه وحسه ، لكى تتكشف له أبعاد المسرح الذى يجب أن تستوعبه الحياة ، من أجل أن يتسع ويستوعب ويستجيب للحياة . بل ولكى تتكشف له أيضًا قدرات المسرح الذى يجب أن تستخدمه الحياة من أجل أن يعطى للحياة . ومعنى ذلك ايضًا أن الفكر العفوى رفيق عمر الحياة ، قد بدأ فكراً بالطبع فى ضمير الانسان ، قبل أن يصبح فكراً مجرداً بالتخصص فى عقلية الانسان .

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعاصرين ، أن دور الحس الجغرافى فى ولادة ونشأة الفكر الجغرافى مع ولادة الحياة على الأرض، كان دوراً طبيعيًا . بل أن دور هذا الحس الجغرافى ، وهو يوجه الفكر الجغرافى فى الوجهة المفيدة التى تخدم الحياة فى المكان وتحدد علاقة المكان بالمكان ، وتقيم التفاعل الحياتى بين الناس والأرض ، لحساب الحياة ، كان دوراً منطقيًا . ومنطقية هذا الدور وطبيعته ، تبتنى على ادراك كيف تطلعت الحياة دائماً إلى البصيرة قبل البصر ، وإلى التأمل قبل الأمل ، لكى تؤمن ذاتها فى أحضان المكان على الأرض .

وصحيح أن البحث يفتقد الدليل المادى الكاشف عن كنه وماهية الفكر الجغرافى المولود مع ميلاد الحياة ، لأن الانسان لم يمتلك الوسيلة لتسجيل نبضات هذا الفكر عن المكان ، أو بصمات اجتهاده وترشيده فى المكان ، إلا بعد مسيرة طويلة وتفاعل بناء مثمر ثبتت جذور الحياة

فى المكان . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا التفاعل المثمر، الذى أسفر عن تثبيت الجذور ، ودعم وجود الحياة فى أى مكان ، لا يمكن يتأتى أو لا يمكن أن يسلم زمام الانتفاع بالأرض للحياة ، إلا إذا كان الفكر الجغرافى قد بصرها فى المكان وهداها ، ورشد صمودها للتحديات التى أعلنتها الأرض فى المكان . وإلا فكيف طوع الانسان هذه التحديات ؟ وكيف أبطل مفعولها وأحبطها ومكن وأمن وجوده فى الأرض فى كل مكان ؟

هكذا تفتق اجتهاد الانسان عن استخدام الحس الجغرافى ، وتسخيره تسخيراً وضع الأساس والقاعدة الأصلية للفكر الجغرافى من ناحية ، وحدد معالم الطريق الذى اجتازته مسيرة هذا الفكر الجغرافى من ناحية أخرى . وقد اعتمد الانسان على الفكر الجغرافى فى مواجهة أعباء الحياة فى أى مكان ، وهو يستخدم الأرض ويطلب منها أن تعطيه، وأن تستجيب لارادة الحياة ، قبل أن يعرف التسجيل أو الكتابة ، ومن شأن الاعتماد على حصاد فكر غير مكتوب ، يشد أزر الحياة ويبصرها ، أن يصور مدى الترابط العضوى بين الحس الجغرافى وهو يستشعر خصائص المكان ، والفكر صاحب هذا الحصاد ، وهو يخدم ويبصر الحياة فى هذا المكان . بل أن الترابط أو العلاقة العفوية بين الحس الجغرافى والفكر الجغرافى ، علامة على أن هذا الفكر قد نبع من ذات الناس ، وانطلق من احساسهم وهم أصحاب المصلحة فيه ، عندما يتشبثون بأسباب انتصار الحياة فى المكان . وقد نقول أن استشعار الحس الجغرافى يعطى حصاداً بالقوة ، وأن تدبر الفكر الجغرافى يحول هذا العطاء إلى حصاد بالفعل .

وبهذا المنطق ، ينبغى أن نتصور كيف نفتقد التسجيل الذى يصور أو يجسد الفكر الجغرافى المولود ولادة طبيعية ، مع ميلاد الانسان على الأرض ، ولكن الذى لا ينبغى أن نفتقده هو الحصاد والنتائج والثمرات التى تصور كيف رافق هذا الفكر مسيرة الحياة ، وكيف كان بصيرة الانسان فى أى مكان ، ودليل التحرك والانتقال من المكان إلى المكان الآخر. وصحيح أن هذا الفكر الجغرافى كان بسيطاً وعفوياً ، بساطة أنماط الحياة، وما تتطلع إليه من ضرورات فى أى مكان . ولكن الصحيح أيضاً أنه سلم الانسان زمام مصيره وساند صراعه ، لكى يعايش الواقع الجغرافى الطبيعى ، وتستجيب له الأرض فى المكان .

وبهذا المنطق أيضاً ، يجب أن نتصور كيف ولد الفكر مع ميلاد الانسان ، وكيف وجهت إرادة التعايش مع الواقع فى المكان هذا الفكر ، فى الاتجاه الجغرافى . كما يجب أن نتصور كيف عاش حصاد هذا الفكر الجغرافى فى ضمير الانسان ، على المدى الطويل لكى يبصره ، منذ أن عاش أو تعايش الانسان فى المكان ، وانتصر لحساب الحياة . ومن ثم ينبغى أن ننتهى إلى :

أ- أنه طالما كان الانسان موجوداً فى المكان على الأرض ، فإنه يلتزم بتدبر ما يستشعره الحس الجغرافى ، ويتولى العقل افراز الفكر الذى يدلل على وجوده .

ب- أنه طالما كان الانسان موجوداً فى أحضان الواقع الجغرافى فى المكان على الأرض ، فإنه يلتزم بتدبر ما يستشعره الحس الجغرافى ، ويتولى العقل عندئذ افراز الفكر الجغرافى ، الذى يدلل على سعيه واجتهاده ، لكى يطوع الواقع لحياته ، ويطوع حياته للواقع ويدعم وجوده.

وافتقاد الوعاء الذى يحتوى على الفكر الجغرافى العفوى ويجسد حصاده ، وافتقاد الأسلوب الذى يسجل نبضه واجتهاده لحساب ترشيد الحياة فى المكان شئ ، لا يجب أن يتعارض مع وجود هذا الفكر فى ضمير الانسان ، أو مع رصد البصمات التى تعلن عنه ، أو مع ثمرات استخدامه التى رشدت التعايش مع الواقع الجغرافى فى المكان . ومن غير أن نعتصر كل النتائج الباهرة ، التى حققها اجتهاد الانسان ، وهو يقبض على زمام مصيره فى المكان ، ومن غير أن نتبين الاجتهاد الدؤوب الذى بذله الانسان ، وهو يجنى ثمرات معرفته بالمكان ، ومن غير أن نتلمس النجاح الذى حققه الانسان ، وهو يتعايش مع الواقع الجغرافى للمكان ، لا يمكن أن نستشعر دور الحس الجغرافى ، وهو يوجه الفكر فى الاتجاه الجغرافى . كما لا يمكن أن نستشعر دور الاتجاه الجغرافى ، وهو يرسخ قاعدة الفكر الجغرافى العفوى ، من غير أن نتصور عطاء هذا الفكر ، وهو يسعف الانسان وانتصاره فى مواجهة فعل الطبيعة ، فى المكان .

وهكذا بدأت مسيرة الفكر الجغرافى بداية هادئة بسيطة ، مع بداية

الوجود الانسانى على الأرض . وما من شك فى أن الحس الجغرافى قد ألهب الفكر الجغرافى ، الذى ألهم الانسان ودعم تعايشه من خلال صراع بناء مع الواقع الجغرافى فى كل مكان . ومن غير أن نتحسس القاعدة الأصلية التى ارتكز عليها الفكر الجغرافى العفوى ، ومن غير أن نتبين الاضافات التى بصر بها الفكر الجغرافى العفوى التعايش فى المكان ، لا يمكن أن ندرك صدق وجدوى الحس الجغرافى العفوى غير المكتوب فى مرحلة طويلة . كما لا يمكن أن ندرك صدق وجدوى الحس الجغرافى ، وهو يحفز ويلهم التدبر ، لكى يتبنى ويتحمل مسئولية عطاء الفكر الجغرافى المكتوب ، إلا من خلال تصور قيمة هذا العطاء وأهميته ، وهو يسعف الانسان وانتصاره فى المكان .

وبهذا المنطق ، يجب أن نتصور كيف أن الفكر الجغرافى الذى سجله اجتهاد الانسان ، بعد ابداع الكتابة وأساليب التسجيل ، لم يبدأ من فراغ . بمعنى أن ابداع الكتابة وأساليب التسجيل ، يمثل نقطة تحول، أطلقت العنان للفكر الجغرافى العفوى ، الذى توارثته الأجيال على المدى الطويل ، لكى يعلن عن نفسه ، ولكى يجد الوعاء الذى يحتويه ويجسده ويسجل نبضه المفيد ، فى اطار التراث الفكرى البشرى ، لحساب الحياة ومسيرة الحياة . ومن ثم نستشعر أن اسقاط أو اغفال الفكر الجغرافى العفوى غير المكتوب ، فى المرحلة الطويلة السابقة لابتكار وسائل التسجيل والتعبير عن اجتهاد الانسان ، يجب أن يكون مرفوضًا. وصحيح أننا نفتقد أبعاد وأعماق هذا الفكر الجغرافى العفوى ، وهو بسيط . ولكن الصحيح أيضًا أننا لا نفتقد الاحساس بماهيته وجوهره ، ولا ننكر جدواه ونتائجه واجتهاده فى خدمة أهداف التعايش مع الواقع الطبيعى فى أى مكان على الأرض .

ولئن اتفق الجغرافيون على أن مسيرة الفكر الجغرافى الحقيقية ، هى المسيرة التى تبدأ مع بداية التسجيل والكتابة ، فلا ينبغى أن ننكر الفكر الجغرافى العفوى ، الذى يمثل الارهاص المبكر الذى هيأ وأعد وجهز لهذه المسيرة . بل لا يجب أن نتنكر للتصور الذى يستشعر العلاقة بين ميلاد الحياة وميلاد الفكر الجغرافى . وكيف يمكن أن نتنكر لهذا التصور والعلاقة حتمية ، ووليدة الاستجابة للحس الجغرافى الذى

حفز التدبر واستنفر التفكير ، لكى يظاهر ويعدم وينصر إرادة التعايش مع الواقع الجغرافى . فى أى مكان ، وفى كل مكان . بل وكيف يمكن أن ننكر أو نتنكر لماهية وجدوى الفكر الجغرافى العفوى ، وهو قطاع من كل الفكر الانسانى الذى اقترن بوجوده على الأرض . وقد تولى تأمين هذا الوجود وترشيده فى أحضان الواقع الجغرافى فى أى مكان . والتعايش مع الواقع الجغرافى فى المكان ، وتطويع المكان للحياة وتطويع الحياة للمكان ، وترشيد التحرك من المكان إلى المكان الآخر ، كلها من بين أهم العلامات والأدلة المادية ، التى لا تكذب وهى تدحض انكار الفكر الجغرافى العفوى ، وتحبط التنكر لماهية وجدوى هذا الفكر الفعال، لحساب الحياة .

هذا ، ولا ينبغى أن ننكر أيضاً أن الحس الجغرافى الذى حفز التدبر ونشط التفكير ، كان له فى بعض المواقف ديناميكية الفعل ، وله فى بعض المواقف الأخرى ديناميكية رد الفعل . وهذا معناه أن ديناميكية الفعل أو رد الفعل ، قد اشتركا معًا فى ولادة الفكر الجغرافى العفوى فى أبسط صورة . ولا يجب أن نتنكر لفعل ورد فعل بنى على استخدام الحس الجغرافى ، وهو يلتقط ويجمع أوصال الصور الكلية للمكان ، ويرشد ويوجه الفكر فى الاتجاه الجغرافى . وكيف يمكن أن ننكر أو نتنكر لديناميكية الحس الجغرافى وفاعليته ، فى مواجهة المواقف التى تعترض حركة الحياة ، وتستوجب التدبر والتفكير الذى يظاهر ويدعم انتصار مشيئة الحياة ؟ بل وكيف يمكن أن ننكر أو نتنكر لديناميكية وفاعلية الحس الجغرافى ، وهو يوجه ويحفز ويوسع دائرة الفكر الجغرافى ، لكى يسعف الحياة فى المكان ، ولكى يكترث بالدعم الأنسب للتعايش فى المكان فى أضيق دائرة تحتوى الانسان ، أو فى أوسع دائرة تحتوى الناس كل الناس فى أرجاء الأرض ؟

فى اعتقادى – على كل حال – أنه ينبغى أن نضيف المرحلة التى عاش فيها الفكر الجغرافى العفوى فى ضمير الانسان حصاداً يبصر الحياة ، إلى مسيرة الفكر الجغرافى التى حفظ حصادها التسجيل على المدى الطويل ، من وقت أن عرف الانسان الكتابة إلى الوقت الحاضر .

وصحيح أن افتقاد وسائل التسجيل ، قد أخفى ملامح هذا الفكر الجغرافى العفوى . رغم أنه رفيق عمر الانسان منذ ميلاد حياته على الأرض . وصحيح أن حصاد هذا الفكر وجدواه قد أظهر دوره الوظيفى ، وهو يبصر ويرشد وينصر إرادة الحياة فى أحضان المكان على الأرض . ولكن الصحيح أيضاً أن الفكر الجغرافى الذى حفظه التسجيل وأعلن عن جدواه ، وليد شرعى للفكر الجغرافى العفوى . وأداثه الوظيفى فى رفقة عمر الحياة وانتصارها فى أى مكان . وفى أى من المرحلتين اللتين عاش فيهما الفكر الجغرافى غير المكتوب والمكتوب ، لا نفتقد فى مغزاه ومرماه وحدة الهدف ، تلك التى تمثلت دائماً فى اطار خدمة المعرفة بأى مكان ، لحساب الحياة وانتصار وجودها فى كل مكان .

وفى المرحلة الطويلة التى عاش فيها الفكر الجغرافى العفوى فى ضمير الانسان حصاداً وخبرة وفاعلية تبصر الحياة ، كان التدبر والتفكير اجتهاداً وفريضة والتزاماً من شأن كل انسان ، وهو يعايش الواقع الجغرافى فى أى مكان ، ويحقق الانتصار لحسابه الشخصى أو لحساب الحياة فى كل مكان . وهذا معناه أن نفتقد فى هذه المرحلة الطويلة وضوح رؤية خط سير المسيرة الفكرية ، وأن نفتقد الصفوة المتخصصة ، التى تنكب على التفكير ، وتتولى اثراء هذه المسيرة . ومعناه أيضاً أن استشعار وتلمس ثمرات الاجتهاد الذى يصر الانسان فى مواجهة الواقع الجغرافى وتحدياته وضوابطه ، أهم وأجدى من تحرى كنه وماهية الفكر الجغرافى ، وهو يهيئ فرص جنى هذه الثمرات لحساب الانسان .

وفى اعتقادى أيضاً ، أن تطور هذا الفكر الجغرافى فى هذه المرحلة الطويلة ، كان تطوراً بطيئاً ومتأنياً ، بقدر ما كان منطقياً ومفيداً . وكانت مسيرة هذا التطور البطئ تدب فى رفقة الانسان ، وتلبى حاجته فى الاتجاه الصحيح . وصحيح أن ولادة الحياة البشرية على الأرض كانت نقطة بداية ، لكى تبدأ وتتحرك هذه المسيرة الفكرية ، وتتولى ترشيد الانسان فى المكان المعين . وصحيح أن هذا الفكر الجغرافى قد بصر الانتشار ، والاستيطان فى أنحاء متفرقة على امتداد الأرض . ولكن

الصحيح أيضاً بعد ذلك كله ، أن هذا الانتشار الاستيطاني في الأقاليم المتنوعة ، وما بني عليه من مواجهة أعباء التنوع في الواقع الجغرافي من اقليم إلى اقليم آخر ، كان من أهم الدوافع أو الحوافز التي أسهمت في تطوير واثراء هذا الفكر الجغرافي العفوي .

وهكذا ينبغي أن نستشعر جدوى الصحبة ، بين الانسان والفكر الجغرافي في رحلة عمر الحياة . كما ينبغي أن نبني على هذه الجدوى حقيقتين هامتين . ومن شأن هاتان الحقيقتان صياغة الاطار الذي يحدد أبعاد هذه الصحبة المثمرة . وتتمثل هاتان الحقيقتان في :

أ- أن طلب الحياة وتأمين الحياة وصياغة التعايش مع الواقع الجغرافي في أي مكان على الأرض ، قد اتخذ من الملاحظة بالعين والاستشعار بالحس ، قاعدة للتدبر والتفكير ، وأن التدبر والتفكير قد أطلق عنان الفكر لكي يتجه ويحلق في الاتجاه الجغرافي ، وهو يتحمل مسئوليته قبل الحياة وترشيدها .

ب- أن هذا الانطلاق الذي تأتي استجابة لحسن الصحبة وامتثالاً لإرادة الحياة ، قد أسفر عن حصاد فكري جغرافي مفيد . وقد انتظم هذا الحصاد الذي تمثل في مكاسب وثمرات في مسيرة فكرية ، يشوبها الغموض ، ولا ينبغي أن نبحث عن وقع أو بصمات خطواتها الوئيدة . ومن الأفضل أن نحصي جدواها ، وأن نتبين كيف شدت أزر الحياة وكيف سددت خطواتها في أي مكان على الأرض .

هكذا نقول أن مسيرة حركة الحياة ، قد باشرت الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، في المكان والزمان . بل قل لقد فجر هذا الاهتمام ، بالمعرفة الجغرافية شيئاً من التفكير الجغرافي ، الذي يجسد اعمال العقل ، في تدبر المدركات الجغرافية . وما من شك في أن هذا التمعن والتفكير ، قد بصر ورشد ، قدرات الانسان على الابداع ، لكي يبتدع قوة الفعل الأنسب للتعامل مع الطبيعة وخواصها ، دون الوقوع في أسر التبعية لها ، وضياع حق سيادته على خواص ومواصفات الطبيعة ، على صعيد الأرض .

هذا وفي وسعنا أن نتبين خواص هذا التفكير الجغرافي ، الذي باشره الانسان على المدى الطويل ، وهو يخطو خطواته المتأنية في

المرحلة العتيقة ، التى عاشها وهو يتعايش أو وهو يتعامل مع الطبيعة ، دون أن يمتلك أسباب السيطرة على الانتاج . وتتمثل هذه الخواص فى:

أولاً : كان هذا التفكير الجغرافى تفكيراً ، يتأتى بشكل **تلقائى أو عفوى** . بمعنى أن الانسان لم يتعمد مباشرة هذا التفكير ، أو التمعن فى مدركات جغرافية بعينها . وقل أنه كان من شأنه أن يواجه المنظور الجغرافى الطبيعى ، على صعيد الأرض ، أو على صعيد قبة السماء . وتشد المدركات الجغرافية انتباهه . وكان هذا الادراك الذى استوعبته الحواس ، هو الذى استرعى الانتباه ، وفرض على الانسان شيئًا من التحدى . وكان من شأن هذا التحدى أن يستنفر قدرات الانسان العقلية ، لكى يفكر ويتدبر ويتمعن فى عناصر الصورة الجغرافية ، واستيعاب ما تعبر عنه ، أو ما تكشف عنه ، أو ما تتحدث عنه المدركات الجغرافية ، التى عاينها واقترب منها ، واستوجب أمر الحياة التعامل الايجابى معها. بل قل إنها المصادفة البحتة ، هى التى كانت تضع المنظور الجغرافى ، أمام أعين وحواس الانسان فى المكان والزمان . وتكون هذه المصادفة مسئولة عن تلقائية التفكير الجغرافى أو عفويته ، فى المكان والزمان .

ثانياً : كان هذا التفكير الجغرافى تفكيراً ، يتسم **بالخصوصية الذاتية** . بمعنى أن الانسان وهو يحيا فى شكل قوامه ، التفرد فى إطار الأسرة ، قد باشر هذا التفكير الجغرافى لحسابه الخاص . وتغطى هذه الخصوصية مصلحة الانسان ، وهو مسئول مسئولية متبادلة بين الزوج والزوجة ، ومسئول مسئولية مشتركة ، قبل أطفال الأسرة . وتعنى هذه الخصوصية فيما تعنى ، تباين توجهات هذا التفكير الجغرافى ، وهو مستغرق فى الذاتية . كما تعنى هذه الخصوصية شيئاً كثيراً من التنوع ، فى جنى ثمرات هذا التفكير الجغرافى ، وهو قيد تباين حتمًا من مكان إلى مكان آخر ، ومن زمان إلى زمان آخر ، وقل تبقى هذه الخصوصية الذاتية ، ما بقى وجود الانسان ، وهو يحيا فى تفرد حقيقى ، فى اطار الأسرة كياناً اجتماعياً بسيطاً .

ثالثاً : كان هذا التفكير الجغرافى تفكيراً ، يجسد **رصيداً أو تراثاً غير مكتوب** . بمعنى أن الانسان وهو صاحب هذا التراث الجغرافى

المهم ، كان لا يمتلك اللغة المشتركة ،ولا الأبجدية التى تسعف تدوين ، أو تسجيل هذا الرصيد . وقل أن هذا الرصيد كان مستغرقاً فى الذاتية ، إلى الحد الذى استغنى عن أن يكون مكتوباً أو مسجلاً . وربما اعتمد الانسان على الحافظة والذاكرة ، التى تمتع بها فى حفظ ما يستحق أن يحتفظ به من حصاد ، أو من نتائج هذا التفكير الجغرافى . كما كان فى وسعه أن يورث رصيد هذا التراث ، من جيل إلى جيل آخر ، من غير أن يكون مسجلاً أو مكتوباً .

وقل أن حصاد هذا التفكير الجغرافى ، وهو الذى تأتى بتلقائية ، واستغرق فى الخصوصية ، وكان غير مكتوب ، قد ألهم الانسان حسن التعامل مع المدركات الجغرافية التى عاينها . ونضرب المثل الذى يجسد كيف أدرك الانسان النار ، وربما خاف منها لأول وهلة ، كما خاف منها الحيوان . وفى الوقت الذى يبقى الحيوان خائفاً من النار ، ويفر منها ولا يقترب منها ، عاد الانسان فاقترب منها بمهارة ، وعمل على استئناسها والتعامل معها والانتفاع بها . وقد أصبح فى وسعه أن ينتفع بها نوراً وأن يتخذ منها الدفء ، وأن يستخدمها فى طهى الطعام ، وفى استخلاص المعدن ، وفى صناعته . وما زال الانسان متعاملاً مع النار ، لكى ينتفع بها ، وهو فى نفس الوقت يروضها ، ويعرف كيف يتقى خطرها .

وبهذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن نستشعر كيف كان حصاد الفكر الجغرافى العفوى اضافة وابداعًا ، فى قاعدة تراث الانسان على الأرض . كما ينبغى أن نتصور كيف أصبحت اللبنات فى هذه القاعدة أساسًا ، ومقدمة لاضافات وابداعات الفكر الجغرافى المكتوب التى تسجل وقع خطوات المسيرة الفكرية انتصاراً لإرادة الحياة فى كل مكان . وهذا معناه أن الفكر الجغرافى المكتوب لم يبدأ من فراغ . ذلك أنه من غير شك استمرار للفكر الجغرافى غير المكتوب . وصحيح أننا نفتقد القدرة على تسجيل العلاقة ، بين فكر جغرافى مبهم ، وفكر جغرافى جلى . ولكن الصحيح أيضاً أن الفكر الجغرافى الجلى الواضح ، هو وليد الفكر الجغرافى الغامض ، وأن مسيرة هذا الفكر الجغرافى ما خفى علينا منها وما ظهر ، كانت رفيقة عمر الحياة على الأرض .

الفصل الأول

فجر الاجتهاد الجغرافى القديم

- الحضارات القديمة وصناعة الفكر الجغرافى
- الاجتهاد الجغرافى المصرى
- الاجتهاد الجغرافى البابلى
- الاجتهاد الجغرافى الفينيقى
- الاجتهاد الجغرافى الفارسى

الفصل الأول

فجر الاجتهاد الجغرافى القديم

فى العصر الحجرى الحديث ، كان التحول الذى أنهى أوضاع ، عاشها التفكير الجغرافى غير المكتوب التلقائى ، المستغرق فى الخصوصة الذاتية ، لكى تبدأ الأوضاع الجديدة التى يسرت ، تسجيل التفكير الجغرافى القديم المكتوب . وقل أن هذا التحول قد تمثل فى التغيير الذى استجد ، وأتاح للانسان أن يباشر الانتاج الاقتصادى ، ويسيطر على مقوماته . وبناء على هذا الوضع الذى استجد ، كان التوجه المباشر إلى انهاء التفرد الذى عاشه الانسان فى اطار الأسرة ، إلى التوحد والترابط الذى أدخله فى نسيج المجتمع الكبير المركب .

وفرض هذا التداخل فى توليفة المجتمع ، أن تخيم عليه روح المصلحة المشتركة . ومن ثم كان التوجه إلى مباشرة الانتاج ، وتقسيم العمل على أفراد المجتمع ، كل لما هو ميسر له . وتحت مظلة المصلحة المشتركة ، والتنعم بالدفء الاجتماعى ، كان مشوار صناعة المدنية ، فى اطار خصوصية اجتماعية اقليمية . وأفرز هذا التوجه النظام ، الذى كفل ضبط ايقاعات حركة حياة المجتمع الشعب أو الأمة . كما أنجز صناعة اللغة التى يسرت أو أتاحت التفاهم والتعاون والتكامل ، وهو الذى جاوب ورسخ المصلحة ، بكل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية المشتركة. وأبدعت المدنية الكتابة واصطنعت حروف الأبجدية ، لكى يتسنى التسجيل والتدوين والكتابة .

وقل أن الكتابة والأخذ بالتدوين والتسجيل ، ابداع وابتكار فى غاية الأهمية . وأعلن هذا الابداع عن تطلع الانسان وجاوب اهتماماته ، وهو صاحب هذه الاضافة حتى أصبح فى وسعه ، رصد وحصر وصيانة تراثه والابقاء عليه ، وتأمينه وتوريثه لحساب تعاقب الأجيال ، ومسيرة حركة الحياة . ومن الطبيعى أن نستشعر جيداً كيف هيأ هذا الابداع ، الوعاء الذى احتوى وحافظ على حصاد ، أو محصلة الفكر الجغرافى .

وقد أسفر هذا الاحتواء ، عن تحديد معالم الخط السليم ، الذى سارت فيه المسيرة الفكرية الجغرافية .

هكذا ندرك بالضرورة كيف أنهى ابداع أو ابتكار أساليب الكتابة والتدوين بالكلمة ، أو بالصورة ، مرحلة طويلة عاش فيها الفكر الجغرافى ، وهو تلقائى ومبهم وغير مكتوب ، ومستغرق فى بحور الخصوصية الذاتية الضيقة . وهذا معناه أن نقطة التحول كانت مثيرة وفعالة ، وتستحق الاهتمام ، لأنها هى التى كفلت ويسرت بداية مرحلة جديدة للتفكير الجغرافى ، ولأنها هى التى كفلت وطورت الاجتهاد الجاد الذى تولى مسئولية هذا التفكير الجغرافى وترسيخه ، لحساب حركة الحياة فى شكلها الاجتماعى المركب .

وفى اعتقادى أن هذه المرحلة الجديدة ، لا يمكن أن توصف أنها تجسد بداية مسيرة الفكر الجغرافى ، لأنها من غير شك ، تتمم مسيرة التفكير الجغرافى غير المكتوب . بمعنى أن المدونات أو التسجيلات التى جسدت الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، وتوجه الانسان لاستيعاب هذه المعرفة الجغرافية والتفكير فيها ، تعلن عن اهتمام جغرافى لم يبدأ فجأة ، أو لم يبدأ من فراغ . ولولا أن تعود الانسان على طلب المعرفة الجغرافية ، والتمعن والتفكير فى فحواها ، لما توجه فى أول خطوة كان يخطوها وهو يرسخ قواعد مدنيته ، إلى تسجيل اهتماماته الجغرافية بقصد المحافظة على رصيده منها ، وعدم الاستعداد للتفريط فيه .

وفى هذه المرحلة التى استجدت ، ينبغى أن نتبين كيف تبنى الانسان بعناية والحاح ، مهمة الاجتهاد والتدبر والتفكبر الجغرافى . بل قد كيف تفرغ فريق معين وتتناول أمر هذا الاجتهاد ، ومباشرة الاهتمام بالتفكير الجغرافى فريق معين من زمرة المفكرين . وهذا أول مظهر من مظاهر التغيير ، فى مسألة التفكير الجغرافى ، وافراز حصاد هذا الاهتمام . وتلك نقطة بداية فى التخصص ، والتزام المتخصص بالاجتهاد والتدبر ، والتمعن ومباشرة التفكير فى المنظور الجغرافى الطبيعى ومكوناته .

وقل صحيح أن حصاد وثمرات هذا الاجتهاد الفكرى ، كان مشاعاً

لحساب المصلحة المشتركة ، التى لملمت ونسقت ايقاعات وجود وأوضاع حركة الحياة وترابطها الاجتماعى . ولكن الصحيح بعد ذلك كله، أن ولاية أمر هذا التراث الفكرى ، التى جسدت اجتهاد الفريق المتخصص كانت مسئولية ثقيلة . ولقد سلك الاجتهاد الجغرافى كل الدروب ، التى أتاحت ويسرت المعرفة الجغرافية . وكانت بعض هذه الدروب مسدودة أحيانًا ، حتى كان التخبط الذى شوه أو ضيع بعض أهم الحقائق الجغرافية . بل قل ربما ضاعت هذه الحقائق ، فى زحمة توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، والانبهار بالعجائب والغرائب على صعيد الأرض .

الحضارات القديمة وصناعة الفكر الجغرافى :

هذا وفى مرحلة طويلة ، نعرف بشئ كبير من وضوح الرؤية متى بدأت وكيف بدأت ، نستشعر اجتهاد الانسان ،وهو يتحسس مكانه فى الأرض ، ويتعرف على الواقع الجغرافى من حوله . وقد نستشعر أيضاً، كيف تطلع الانسان بكل الاجتهاد إلى تحسين مستوى تعايشه ، وهو يتطلع إلى قبة السماء ، ويود لو اخترق الحجاب وأحاط بالكون علمًا . ويتطلع إلى تطويع الأرض والواقع الجغرافى فيها لإرادة حياته ، فى أحضان مساحات واقطار وأوطان من حول حوض البحر المتوسط الشرقى .

وكان من الطبيعى أن يتأتى ذلك الاجتهاد فى تلك المساحات والأوطان ، التى شهدت الانسان هو يفجر ويصنع الحضارات . وما من شك فى أن ابداع وسائل التدوين والكتابة والتسجيل قد أتاح للانسان أن يسجل ابداعه وأن يدون تراثه ، وأن يكتب خلجات فكره ، بقدر ما أتاح للخلف أن يرث ويستوعب ، وينتفع بتراث السلف ، وأن يتحمل هذا الخلف أمانة التطوير والاضافة والتجديد . وهذا معناه أن بدأ تزود الانسان بزاد حضارى مفيد . وما من شك فى هذا الزاد الحضارى المفيد ، قد وضع الانسان فى الموضع الذى أثار فيه شهية متفتحة ورغبة متعطشة ، للمعرفة بالأرض من حوله ، واستطلاع سبل دعم وتحسين نمط وتوجهات الحياة فيها .

وينبغى أن نذكر بداية ، كيف حرر التقدم الحضارى حاجة الانسان

آنذاك من منطق الاكتفاء الذاتى . وكيف أطلق تطلعه إلى صيغة من صيغ التكامل . بين المكان والمكان الآخر . وما من شك فى أن هذا التطلع الذى حفز التحرك من المكان إلى المكان الآخر . واخترق حاجز المسافة بينهما ، قد أسفر عن استشعار حقيقى لمعنى ومغزى وصدى التباين والتنوع بين الأوطان . وهذا معناه أن التقدم الحضارى . الذى بنى على الاستقرار والاستيطان فى أوطان معينة ، بعد أن طوع الواقع الجغرافى فيها لحياته وطوع حياته فيها للواقع الجغرافى ، قد صعد فرص إقامة وترسيخ ، للعلاقات بين الناس فى أوطانهم حرباً وسلماً .

وعندئذ حمل هذا التصعيد مسئولية توسع دائرة رؤيته للأرض ، توسيعًا كبيراً . وأطلعه على مدى ومعنى وجدوى التباين بين الواقع الجغرافى الذى يميز كل وطن من هذه الأوطان . وكانت بالضرورة دعوة استقطبت اجتهاد الانسان ، وفرضت عليهم تقصى الحقائق واستيعاب التباين ، واستطلاع ماهية التنوع الجغرافى من مكان إلى مكان آخر .

هكذا استوجب أمر الحياة فى مواطن الحضارات القديمة الاهتمام بالواقع الجغرافى ، فى دائرة اتسعت مع اتساع وتصاعد اختراق حاجز المسافة فى أنحاء الأرض من حولها . كما استوجب أيضاً وضعه فى اطار التدبر والتفكير والاجتهاد الباحث عن مزيد من المعرفة الجغرافية ، وعندئذ نبغ بعض الناس فى هذه المواقع فى تجسيد رؤيتهم الجغرافية . وتفوق من بين هؤلاء صفوة تفرغت وأخذت على عاتقها مسئولية الاستغراق فى التدبر والتفكير الكاشف لأبعاد المعرفة الجغرافية . وكان هدف هذه الصفوة التى أسفرت عن شكل فج من أشكال التخصص ، هدفًا واضحًا ، تمثل فى الاحاطة بالأرض علمًا ، والتعرف على خصائصها جملة ، والكشف عن انماطه انتفاع الناس بها ضمناً ، فى كل مكان عاينوه أو استمعوا للرواية عنه . كما تمثل فى هذا الهدف فى تجسيد هذه المعرفة والتعبير عنها ، بالكلمة أو بالصورة ، وتوصيلها إلى غيرهم من الناس واشباع نهمهم إليها .

وقبل أن نبحث عن اجتهاد هذه الصفوة ، وقبل أن نتقصى حقيقة

هذا الاجتهاد الجغرافى . وقبل أن نسبر غوره ونقوم أهم نتائجه . يجب أن نتذكر كيف أن المرحلة التى عاشتها مسيرة الفكر الجغرافى من خلال اجتهاد هذه الصفوة سعيًا وراء المعرفة بالأرض ، وبحثًا عن الحقائق الجغرافية كانت مرحلة شاقة . وقد واجه الاجتهاد حاجز المسافة ، وكان عليه أن يسخر الوسيلة لاختراق هذا الحاجز بين المكان والمكان ، لكى يؤدى دوره الوظيفى . كما واجه مشقة الرحلة وتمويلها وتهيئة أسباب ودواعى الانفتاح على الناس ، والتعامل معهم وجنى ثمرات التفتح لحساب المعرفة الجغرافية .

هذا وكان من الطبيعى أن يجنى الاجتهاد حصاداً ، وأن يكون هذا الحصاد اضافة ، تنمى المعرفة بأنحاء الأرض . ولكن كان من الطبيعى أيضًا أن تتحقق هذه المكاسب ببطء شديد ، وعلى مدى زمنى طويل . ومن شأن هذا الحصاد ، الذى تأتى على المدى الطويل ، والذى فتح الباب لزيادة رصيد المعرفة الجغرافية ، أن يتمثل فى شقين كبيرين . وقد ركز الشق الأول على الأرض ، وتطلع الشق الثانى إلى الكون الذى يحتوى الأرض . وانشطار الاجتهاد إلى هذين الشقين كان انشطاراً منطقيًا وموضوعيًا . بل لعله كان من وراء الاجتهاد المتوازى ، الذى انكب كل فريق منهما على الشق الذى شد اهتمامه وأثار أو استنفر فكره .

وعن الاجتهاد الذى انكب على دراسة الأرض ، نتذكر كيف اهتم بالمعرفة الجغرافية فى اطار ثلاث دوائر متداخلة ومتكاملة ، وانصب الاجتهاد الجغرافى فى **الدائرة الأولى** على توسيع دائرة المعرفة بالأرض على المستوى الأفقى ، من حول مواطن الحضارات القديمة ، والاحاطة بمدى التباين الجغرافى بين المكان والمكان الآخر . وفى **الدائرة الثانية**، كرس الاجتهاد الجغرافى اهتمامه بتوسيع دائرة المعرفة بالناس فى اطار الأوطان المتنوعة ، ورصد اختلاف الوانهم والسنتهم وأنماط وأساليب حياتهم . وركز الاجتهاد الجغرافى فى **الدائرة الثالثة** على رؤية واستيعاب مدى التنوع فى أساليب التفاعل بين الناس والأرض ، وعلى رصد مدى التنوع والتباين اجتماعيًا واقتصادياً ، بين الناس والأقوام فى أوطانهم المتباينة فى أنحاء الأرض .

وعى الاجتهاد الذى تفرغ لدراسة الكون ، نذكر كيف اهتم بالتطلع إلى قبة السماء ورصد الأجرام فى أنحائها ، فى اطار ثلاث دوائر متداخلة ومتكاملة . وانصب الاجتهاد فى **الدائرة الأولى** على متابعة حركة الشمس وحركة القمر ورصد مرور الوقت الذى تستغرقه هذه الحركة، وصولاً إلى ابداع التقويم وحساب الزمن . وفى **الدائرة الثانية** كرس الاجتهاد الجغرافى اهتمامه بمتابعة الأجرام السماوية وانتقال الشمس من حين إلى حين ، وتغيير أوضاع الأجرام وصولاً إلى رصد الأبراج والربط بينهما وبين أحوال الناس على الأرض وحظوظهم . وركز الاجتهاد الجغرافى فى **الدائرة الثالثة** على تقصى أوضاع الأجرام السماوية فى الكون ، واستشعار مكان الأرض ومكانتها فى هذا الكون وصولاً إلى أنها تحتل قلب الكون .

وربما كانت المعرفة فى اطار أى دائرة من دوائر البحث – أنذاك – سطحية ومن غير عمق مشبع . وربما كانت الاضافات تدون أو تكتب ، من غير أن يتوخى الكاتب الدقة ، أو من غير أن يلتفت إلى تقصى الأسباب التى تفسر تفسيراً مقنعاً . ومع ذلك فهو حصاد نقبله على علاته ، ولا يستحق أن نجادل تحسباً لبيان مدى صدقه أو كذبه . وكيف نجادل وكيف لا نقبله ، وهو يمثل الاضافة التى أشبعت حاجة الانسان أنذاك إلى المعرفة الجغرافية بالأرض من حوله ، أو بالكون الفسيح من حول الأرض . وهو بأى المقاييس حصاد أثرى رصيد الانسان من المعرفة ، وجاوب تطلعه إلى الانفتاح على الكون ومكانة الأرض فيه ، أو إلى الانفتاح على الأرض ونبض الحياة فى الأوطان المتنوعة .

هذا ، وقد اشترك فى جمع وتكوين هذا الرصد الذى امتلأت به جعبة الفكر الجغرافى المكتوب فى ذلك الوقت المبكر ، نفر كثير من الرجال المجتهدين من مصر وبابل والفرس والهند وغيرها من بلدان ، على امتداد زمن طويل . ولم تكن – بكل تأكيد – ثمة مناهج أو معايير متفق عليها ، لكى يتوافق اجتهاد العاملين فى الحقل الجغرافى توافقاً فكرياً مقبولاً أو مقنعاً ، وهم بصدد جمع الحصاد وتسجيل الرصيد الجغرافى . وما من شك فى أن الأمر كله قد خضع – أنذاك – لمدى

اقتناع كل مجتهد من المجتهدين فى حقل العمل الجغرافى وما من شك فى أن حصاد كل مجتهد من هؤلاء المجتهدين ، قد أضاف شيئاً إلى رصيد المعرفة الجغرافية . ولعلهم أسهموا جميعًا فى اشباع نهم الناس إلى المعرفة الجغرافية ، وارضاء تطلعهم إلى كشف النقاب عن المجهول .

وينبغى أن نفطن إلى أن الاجتهاد فى طلب المعرفة الجغرافية عن الكون ومكان الأرض فيه ، قد تأتى من خلال معاينة السماء والتطلع إلى حركة الأجرام فيها ، طلبًا لشكل من أشكال ادراك المجهول عن هذه الحركة . وهذا معناه أن الرصد بالعين المجردة من مواقع منتخبة كاشفة لقبة السماء ، قد أسعف هذا الاجتهاد ويصره بجدوى الانفتاح ومتابعة التغير فى مواقع الأجرام . ومعناه أيضًا أن معاينة السماء ومطالعة التغير فى حركة الأجرام ، قد شد اهتمام الاجتهاد إلى المجهول وحفزه إلى كشف النقاب عنه ، على اعتبار أنه الهدف الأساسى الذى تطلبه المعرفة الجغرافية استجابة لإرادة الحياة .

وينبغى أن نفطن مرة أخرى إلى أن الاجتهاد فى طلب المعرفة الجغرافية عن الأرض والناس ، قد تأتى فى اطار ادراك حقيقة وحدة الأرض ووحدة الناس ، ومن خلال حركة بعض الناس طلبًا لشكل من أشكال التعامل مع غيرهم من الناس . وهذا معناه أن الحركة سواء كانت سلمية بناءة أو عدوانية هدامة ، كانت من وراء الانفتاح الذى أسفر عن حصاد لحساب المعرفة الجغرافية . وما من شك فى أن خطوات التقدم الحضارى فى أقطار بعينها ، قد حفزت الحركة السلمية لحساب الحصول على انتاج معين من قطر معين . وما من شك أيضاً فى أن صيانة التقدم الحضارى فى أقطار بعينها ، قد حفزت الحركة السلمية لحساب الحصول على انتاج معين من قطر معين . وما من شك أيضًا فى أن صيانة التقدم الحضارى فى أقطار بعينها قد حفزت الحركة العدوانية لحساب ردع العدوان المغير عليها من قطر أو أقطار معينة مجاورة . وفى أى من هاتين الحالتين يفتح التحرك لهدف أساسى الباب ، لكى يصبح استطلاع المكان وجمع المعلومات لحساب المعرفة الجغرافية ، هدفاً جانبياً إلى حد كبير .

ورحلة فى ركب التحرك السلمى البناء لحساب شكل مبكر من أشكال التجارة والتبادل التجارى ، أو فى ركب التحرك الحربى العدوانى الهدام لحساب الغزو أو التصدى للعدوان وردعه ، فى البر أو فى البحر ، يمكن أن تسعف الاجتهاد فى طلب المعرفة الجغرافية عن الأرض والناس. ولكن الرحلة التى تتصدى أصلاً للكشف الجغرافى تكون هى الأفضل فى خدمة المعرفة الجغرافية . ومما لا شك فيه أن هذا النوع من الرحلات لم يكن هناك استعداد له فى ذلك الوقت . بمعنى أن التسجيل الجغرافى وجمع المعلومات قد اعتمد على الرحلة التابعة . بل ربما انبرى نفر من الذين عمل فى ركب التحرك السلمى، أو فى ركب التحرك الحربى لأداء مهمة العمل الجغرافى . وربما تمثل هذا الأداء فى رواية أو حكاية ما استرعى انتباهه ، لكى يتلقفه المجتهدون ويسجلونه لحساب المعرفة الجغرافية .

ويصرف النظر عن شكل الرحلة ، ويصرف النظر عن مدى الصدق فى الرواية التى أسفرت عنها الرحلة ، ينبغى أن نستشعر كيف فتحت الرحلة ، وهى برية تضرب فى دروب الأرض ، أو وهى بحرية تطوع البحر وتركبه ، باب المشاهدة والمعاينة والملاحظة فى أنحاء من الأرض . وصحيح أن الرحلة أسقطت حاجز المسافة ووسعت دائرة الرؤية والمعاينة ، وأتاحت فرص التزود وجمع المعلومات ، وأسهمت فى زيادة رصيد المعرفة الجغرافية . ولكن الصحيح أيضاً أن هذه الرحلات الجماعية ، قد وسعت مصادر الرواية والقصص ، وهيأت فرص الاستماع والانصات ، لكى يسجل ويضيف إلى رصيد المعرفة الجغرافية، ويثريها .

هذا ، وكان من شأن المجتهدين الذين اشتركوا من خلال المعاينة أو من خلال الاستماع إلى الرواية فى جمع المعلومات ، لحساب المعرفة الجغرافية أن ينكبوا على تسجيل اجتهادهم والتعليق عليه . وقد فعلوا ما يجب أن يفعل كبداية مبكرة فى حقل التسجيل الجغرافى ، وأفلحوا فى اثراء المعرفة الجغرافية ، واثارة التدبر فى بعض الحقائق الجغرافية. وهذا الاجتهاد الجغرافى مشكور ، لأنه يعبر عن استجابة للتطلع

الموضوعي إلى دراسة الأرض ، والتعرف على الناس وأنماط حياتهم في أحضانها ، ولأنه استوعب أهم المضامين التي تخدم إرادة الحياة .

ولا ينبغي أن نتوقع بداية التسجيل الجغرافي من غير أن يستغرق في وصف سطحي عام ، بالأسلوب الذي يشبع رغبة الناس في المعرفة الجغرافية بمسلحات وأقطار وأقاليم من الأرض . كما ينبغي أن نتوقع ممارسة التسجيل الجغرافي الكاشف عن أهم مضامين دراسة الأرض، من غير عرض وتركيز على الصور الغريبة التي لفتت الانتباه ، وأشبعت حاجة الناس للتفكير والتدبر في المجهول . كما لا ينبغي أن نتوقع عرض التسجيل الجغرافي الكاشف عن مضامين دراسة الأرض وحياة الناس فيها ، من غير الخلط بين السرد التاريخي والتصوير الجغرافي ، أو من غير الخلط بين الغرائب والعجائب والخرافات في جانب ، والحقيقة والواقع في جانب آخر .

وهكذا أوردت المعرفة الجغرافية التي أسفر عنها التسجيل الجغرافي صوراً مشوهة عن كثير من الأقطار ، التي دخلت في إطار الاجتهاد العتيق . وقد نجد في ذلك التصوير حشوا من الخرافات والأساطير والغرائب ، التي تفسد في كثير من الأحيان معنى ومغزى التعبير الجغرافي ودلالته المفيدة . وكانت الاضافات في بعض الأحيان غاية في الغرابة ، لأنها نبعت في حقيقة الأمر من صميم المعتقدات الدينية العتيقة، أو من تقاليد الناس البالية أو البائدة . لكي يستجيب التصوير الجغرافي لفضول الناس ، وانغماسهم في الخرافة وانبهارهم بالعجائب والغرائب . وصحيح أن الخيال الخصب قد لعب دوراً هداماً ، وهو يغرق الاجتهاد الجغرافي في الخلط بين الحقيقة والخرافة . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الخلط الذي أشبع فضول الناس ، قد تسبب في طمس وجه الحقيقة الصحيحة ، وضيع معالمها إلى الحد الذي أخل بالعرض الموضوعي لحساب المعرفة الجغرافية .

ومن غير إطار واضح يحدد أبعاد الاجتهاد الجغرافي ، أو يوجهه في اتجاه سوى ، اشترك نفر كبير من المجتهدين الذين استقطبتهم المعرفة الجغرافية ، في تسجيل أو تدوين حصاد اجتهادهم . ومن الجائز أن

شفع بعض هؤلاء المجتهدين التسجيل ، الذى يصور حصاد اجتهادهم بالخريطة أو الصورة التى تمثل امتداداً للاجتهاد الحريص على وضوح العرض الجغرافى . ولأن الاجتهاد الجغرافى افتقد المنهج ، فقد خضع أمر التسجيل والتدوين الجغرافى كله ، لتصور كل مجتهد وقدرته على استيعاب رؤيته الجغرافية من ناحية ، ولمنطق الواقع الحضارى الذى بث النبض الحيوى فى هذا الاجتهاد وحدد أهدافه من ناحية أخرى .

ومن خلال حصاد الرحلات التى أكسبت الاجتهاد الجغرافى فرص المعاينة والملاحظة والمعايشة ، أو فرص الاستماع إلى الرواية والقصة تأتى التسجيل ، الذى أثرى المعرفة الجغرافية مع مرور الوقت . وكانت حاجة التسجيل الجغرافى إلى الرحلة ، لا تعنى فقط الحاجة إلى جسارة الرجل المغامر ، لكى يقتحم المجهول ويسقط الحجاب عنه ، لكنها احتاجت بالفعل إلى الرجل الحصيف صاحب الحس الجغرافى المرهف ، لكى يجنى الثمرة الجغرافية المفيدة ، من خلال اختراق حاجز المسافة إلى المجهول من الأرض . وصحيح أننا لا نملك بياناً كاشفًا ينبئ بما كان من أمر هذه الرحلات فى صحبة التحرك لحساب التجارة ، أو التحرك لحساب الحرب أحياناً ، أو بما كان من أمر خروج هذه الرحلات لحساب السفارة أحياناً أخرى . ولكن الصحيح أيضًا أن هذه الرحلات قد بدأت فى جملتها من المواقع التى عاشت فيها المدنيات القديمة إلى الأقاليم من حولها . وما من شك فى أن المنطق الحضارى ، كان أهم قوة من قوى الدفع التى حفزت الرجل الحصيف ، لكى يخرج فى سبيل الاجتهاد الجغرافى ، ولكى يقتحم المجهول وصولاً إلى الاضافة إلى الرصيد الجغرافى .

وبهذا المنطق ، ينبغى أن نتصور أيضًا الفارق الزمنى ، بين بداية الاجتهاد الجغرافى ، وبداية التسجيل الجغرافى . وربما تسبب هذا الفارق الزمنى فى بعض الخطأ أحياناً ، وبعض الخلط أحياناً أخرى . ومن الطبيعى أن نتوقع هذا الخطأ والخلط والمغالطة الذى شوه التسجيل الجغرافى بقصد أحياناً ، ومن غير قصد أحيانًا أخرى . ومع ذلك فالتسجيل الجغرافى علامة على حرص الاجتهاد الجغرافى على رصيد

جغرافى يضاف إلى تراث الانسان . ومن ثم نستطيع أن نفسر لماذا كانت البداية فى أحضان المواقع التى شهدت تفتح ونمو الحضارات القديمة فى ثلاثة مواقع رئيسية كبرى هى :

١ – الصين الحقيقية China Proper التى تطوقها الجبال والهضاب فى المكان القصى من أسيا الشرقية .

٢– الهند الكبرى التى تطوقها الجبال الشمالية والشمالية الغربية وتعزلها فى آسيا الجنوبية .

٣ – الأقطار فى ظهير حوض البحر المتوسط الشرقى الذى يحتل الموقع القلب من جزيرة العالم .

وصحيح أن الحضارات المتفتحة فى هذه المواقع قد استقبلت البحر ، وتعلمت الملاحة وركوب البحر لحساب الرحلة ، التى خدمت شكلاً أولياً مبكراً من أشكال التجارة الدولية والتبادل التجارى ، وحققت صورة مشرفة من صور الانفتاح على العالم من حولها . وصحيح أن هذه الحضارات قد وجهت بعض الرحلات على الدروب البرية لأهداف تجارية ، استجابة لتصاعد الطلب على سلع ومنتجات من أقطار فى غير متناول الرحلات البحرية . وصحيح أن الرحلات البحرية والبرية قد خدمت أهداف الكشف الجغرافى ، وجمع المعلومات واثراء المعرفة الجغرافية . ولكن الصحيح أيضاً أن الموقع الجغرافى كان – بكل تأكيد – من وراء اختلاف حقيقى بين اسهام الحضارات فى الصين والهند ، واسهام الحضارات فى حوض البحر المتوسط الشرقى فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية وتسجيل الاضافات واثراء الرصيد الجغرافى .

ولكى نتفهم ذلك الاختلاف ، نذكر أن موقع الصين والهند من وراء الحاجز التضاريسى الذى يطوقها ، قد تسبب فى اهدار أهم منجزات الاجتهاد الجغرافى . بل يمكن القول أنه كان بحكم الموقع الجغرافى فى المكان القصى المعزول اجتهاداً منطوياً على ذاته ، لأنه لم يجد الفرصة للانفتاح أو للاحتكاك المثمر مع الاجتهاد الجغرافى فى أجزاء أخرى من العالم . أما الاجتهاد الجغرافى الذى انطلق من مواطن الحضارات فى أنحاء من الأقطار فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، فقد أسعفه الموقع

الجغرافى وظاهره إلى أبعد الحدود . بل يجب أن نتصور كيف كان هذا الاجتهاد الجغرافى منفتحاً على أوسع مدى ، وكيف استثمر الاحتكاك مع الاجتهادات الجغرافية الأخرى والانفتاح عليها .

ومن المفيد – على كل حال – أن نطالع الاجتهاد الجغرافى الذى وليت أمره الحضارات القديمة فى أقطار حوض البحر المتوسط الشرقى. ويكون الهدف أن نتبين كيف سار هذا الاجتهاد الجغرافى فى الاتجاه الصحيح ، وكيف أسفر عن اضافات أثرت الرصيد الجغرافى ، ووسعت دائرة المعرفة الجغرافية ، لحساب الانسان . ومن الطبيعى أن نستشعر أبعاد الانفتاح على العالم ، سواء كان لحساب الحرب وردع العدوان وصيانة الوجود الحضارى ، أو كان لحساب السلام وخدمة التجارة واشباع الوجود الحضارى ، وهو يشد أزر الاجتهاد الجغرافى فى صحبة التحرك والرحلة . ومن الطبيعى أيضًا أن نتبن الاسهام الذى قدمه الاجتهاد الجغرافى لارضاء شهوة المعرفة الجغرافية ، ولتهيئة الأساس الذى ارتكز عليه التدبر والتفكير، وبناء قواعد الفكر الجغرافى القديم .

هذا وينبغى أن نحسب حساب الموقع الجغرافى الممتاز فى قلب جزيرة العالم النابضة بالحياة ، لكى نتصور كيف كان الواقع الجغرافى والواقع الحضارى فى كل من مصر والعراق والشام ، من وراء كل الحوافز التى فتحت أبواب الانفتاح على العالم من حولها ، ووجهت الاجتهاد الجغرافى لكى يطل على هذا العالم . وصحيح أن الرحلة دلفت من أبواب الانفتاح لحساب الحرب أو لحساب السلام وفى صحبتها الاجتهاد الجغرافى . ولكن الصحيح أيضًا أن الاجتهاد الجغرافى الذى أطل على العالم وسجل معرفته ببعض أقطاره ، قد بصر ورشد الرحلة وهى فى سبيل الحرب أو السلام ، وقاد مسيرتها إلى أهدافها فى تلك الأقطار .

كما ينبغى أن نستشعر كيف أفلح الابداع الحضارى فى اسقاط واختراق حاجز المسافة فى البر وفى البحر ، وكيف كفل هذا الابداع تحريك الرحلة لحساب الانفتاح على العالم من حول مواطن الحضارات فى حوض البحر المتوسط الشرقى . وما من شك فى أن الاجتهاد

الجغرافى قد استثمر هذا التحريك ، وهو يركب البحر أو يتسلل عبر الدروب والمسالك على الأرض . وهذا معناه أن هناك علاقة موضوعية بين تطوير وسيلة النقل وزيادة كفاءة اختراق حاجز المسافة من ناحية ، وتصاعد الاجتهاد الجغرافى وتأمين مسيرته فى البر والبحر على السواء من ناحية أخرى .

هذا وفى الوقت الذى أصبح فيه الفكر الجغرافى مدوناً ، أو مسجلاً ضمن تراث المدنيات العريقة ، فى كل من مصر وبابل والهند وفارس والصين ، وتحول أو أقلع عن التوارد التلقائى العفوى المبنى على المصادفة البحتة ، تأتى التحول الفعلى من انغلاق الاستغراق فى قيود الخصوصية الذاتية ، إلى انفتاح التوجه إلى الخصوصية المدنية الاقليمية. وقل أن التحلى بانفتاح هذا التوجه ، إلى الخصوصية المدنية الاقليمية ، وهى تجاوب حاجة المجتمع ، وتلبى مطلب من مطالب المصلحة المشتركة للمجتمع ، الذى يصنع قواعد مدنيته ، جسد خطوة هامة فى الاتجاه الصحيح . بل قل أن هذه الخطوة الهامة ، كانت التمهيد الحقيقى لتحول الفكر الجغرافى فى مرحلة تالية ، من حبكة الخصوصية المدنية الاقليمية الضيقة المحدودة، إلى آفاق العمومية العالمية المنفتحة تماماً ، لحساب الانسان على صعيد الأرض .

ومع ذلك ينبغى أن نميز جيداً ، بين مدنيات قديمة باشرت الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، وعاشت تجارب التفكير الجغرافى ، فى اطار الخصوصية المدنية الاقليمية ، وتكتمت عليه ولم تجازف بالاعلان عن رصيدها الجغرافى فى جانب ، ومدنيات قديمة أخرى باشرت الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، وخاضت تجارب التفكير الجغرافى ، فى اطار الخصوصية المدنية الاقليمية ، ولم تجد مبرراً واحداً للتكتم على رصيدها الجغرافى فى جانب آخر . وقل أن المدنيات التى تكتمت ، ولم تعلن عن رصيدها الجغرافى ، ووظفت القصص الاسطورى للتفزيع والمبالغة فى التكتم على هذا الرصيد ، كانت تحمى مصالحها فى استثمار هذا الرصيد ، وتغطى احتكارها وعوائدها الضخمة من الابحار فى المحيط الهندى ، والقيام بدور الوساطة التجارية ، بين عالم المحيط الهندى وعالم

البحر المتوسط . بل قل أن هذا التكتم يستوجب استبعاد أو اخراج هذه المدنيات ورصيدها الجغرافى من الحساب تماماً . ذلك أن التكتم لا يعنى شيئاً ، غير الامعان فى الانغلاق الكامل ، على خصوصية مدنيتهم الاقليمية المحدودة .

ويبقى أن نقول أن المدنيات العريقة الأخرى ، التى لم تجد مبرراً للتكتم أو الانغلاق قد أعلنت عن رصيدها الجغرافى . وصحيح أن أوضاع هذه المدنيات فى مواقعها الجغرافية المتباينة ، قد استوجبت شيئاً من التنوع والتباين ، فى الرصيد الجغرافى الخاص بكل مدنية ، من هذه المدنيات المتميزة . ولكن الصحيح بعد ذلك كله أن الانفتاح قد أباح شيئاً من الاحتكاك الحضارى ، وتفتحت قنوات التواصل والاطلاع ، على أرصدة هذه المدنيات الجغرافية . ولقد يسر هذا التواصل وهذا الاطلاع ، فرص الأخذ والعطاء ، لكى يبشر بشئ من التوجه إلى عمومية تضع هذا الرصيد الجغرافى وتوجاته السديدة ، فى خدمة العالمية .

ولكى نجرى حصراً شاملاً عن الرصيد الجغرافى الذى انتهى إليه الاجتهاد الجغرافى النشيط ، يجب أن نطالع قصة كلاً من المصريين القدماء والبابلين والفينيقيين من هذا الاجتهاد . كما ينبغى أن نتبين اتجاهات هذه الاجتهادات الجغرافية العامة ، وهى تعالج وتسجل الاستشعار الجغرافى عن الأرض ، ووضعها فى الكون مرة ، وعن مساحات الأرض المعمورة من حول أوطانهم مرة أخرى . ومن ثم نستطيع أن نقيم الرصيد الجغرافى الذى اشترك الاجتهاد الجغرافى فى جمعه وتسجيله ، وأن نتبين كيف اشترك الاجتهاد المصرى والبابلى اشتراكًا حقيقيًا فى ريادة مسيرة فكرية جغرافية ، حققت القاعدة التى بنى عليها الفكر الجغرافى القديم .

الاجتهاد الجغرافى المصرى :

هذا شكل من أشكال الاجتهاد المبكر الذى كفله الاجتهاد الحضارى المصرى على ضفاف النيل . وهو – من غير شك – وليد شرعى لكل العوامل الطبيعية والضوابط الحاكمة التى اشتركت فى صياغة وتحديد ملامح شخصية ، مصر الأرض ، ومصر الناس ، ومصر الحضارة ،

ومصر الدولة . ويمكن القول أن ضبط النهر ومواجهة غدره ، وترويض الجريان فيه ، لحساب الاستقرار وتأمين الحياة - قد فجر - بكل تأكيد - هذا الاجتهاد الجغرافى ، على المستوى المحلى منذ وقت مبكر . وكان حسن استخدام الحس الجغرافى فى مراحل الاقتراب من ضفاف النهر ، والتشبث بها فى اطار الوادى من وراء هذا الاجتهاد .

وكان من شأن هذا الاجتهاد الجغرافى الذى رشد الحياة ، ونصر ارادتها على ضفاف النيل ، أن يدعم ويظاهر انفتاحها على العالم من حولها ، وأن يصحب تحركاتها وعلاقات السلام والحرب مع الناس فى الأرض، على الصعيد الأفريقى وعلى الصعيد الآسيوى. ولقد أسفر هذا الاجتهاد الجغرافى المصرى مع مرور الوقت ، عن التركيز على اتجاهين هامين لحساب المعرفة الجغرافية . بمعنى أنه تبنى التدبر والتفكير وأعمال العقل باهتمام الاجتهاد الجغرافى المصرى باتجاهين هما :

١- الاتجاه الذى تطلع فيه الاجتهاد إلى توسيع المعرفة بالكون ومكان الأرض فيها ، وإلى تصور شكل الأرض وقياس أبعادها .

٢- الاتجاه الذى تطلع فيه الاجتهاد إلى توسيع المعرفة بمساحات الأرض من حول مصر واشباع نهم المعرفة بالناس فيها .

وفى الاتجاه الأول استغرق الاجتهاد الجغرافى المصرى فى الرصد والمعاينة الفلكية والتطلع إلى قبة السماء . وربما انغمس هذا الاجتهاد من غير قصد ، فى تصورات وافتراضات ، مبنية على الخلط الشديد ، بين حصاد الأساطير ونسج الخيال من ناحية ، وحصاد الرصد والتمعن ومتابعة أجرام السماء وحركتها السرمدية من ناحية أخرى . والمهم أنه أسفر عن تجسيد هذه التصورات والافتراضات تجسيداً تقبله الحس الجغرافى واقتنع به .

وصحيح أن هذا الاجتهاد الجغرافى الذى وضع لبنات الأساس فى صرح الفكر الجغرافى القديم قد ضل كثيراً ، عندما اتخذ من حصاد الأساطير أساساً لتصوير مسألة خلق وتكوين الأرض ووضعها فى اطار الكون الفسيح . وصحيح مرة أخرى أن هذا الاجتهاد قد ضلل الفكر الجغرافى كثيراً ، عندما اتخذ من الوهم والخيال ، سبيلاً لمناقشة مسألة

شكل الأرض وتفسير حركة الشمس وحدوث الليل والنهار . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الاجتهاد الجغرافى قد أفلح عندما بصر مسألة الرصد ومعاينة أجرام السماء ، وقاد ورشد الفكر الذى تولى صياغة التقويم وحساب الزمن .

هذا وربما اتخذ الاجتهاد المصرى فى زمن سابق لقيام الدولة المصرية الفرعونية من حركة القمر ودورته ، أساساً لحساب الزمن لبعض الوقت . ولكنه فطن بعد ذلك إلى مزالق التقويم القمرى ، وتحول إلى حساب التقويم الشمسى الأكثر انضباطاً . بمعنى أن الاجتهاد الجغرافى المصرى قد اهتدى من خلال رصيد واستطلاع حركة النجوم، ومن خلال متابعة نجم معين فى كبد السماء ، إلى حساب السنة الشمسية منذ أكثر من ٧٠٠٠ سنة . بل لقد أفلح هذا الاجتهاد تماماً ، عندما أكد على حساب السنة فى نظام التقويم الشمسى يتكون من ٣٦٥,٢٥ (١) .

وتحقيق الانضباط الفعلى فى حساب الزمن ، منذ أكثر من القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، علامة على أن الاجتهاد الجغرافى كان مدعومًا بفكر ممتاز يحفزه واقع حضارى تطلع إلى جدوى هذا الانضباط . ومن الجائز أن رصد حركة الشمس التى بنى عليها وضع خطة صياغة التقويم الشمسى ، قد جنب حساب الزمن التردى فى الفروق التى حققها التقويم القمرى ، وتضرر بها الانتفاع الحياتى فى مصر . ومن ثم ينبغى أن نستشعر جدوى الاجتهاد الجغرافى المصرى من وراء هذا الضبط ، وكيف أنه أنجز مهمته من خلال حسن استخدام الحس الجغرافى ، لتهيئة أقصى درجة من التوافق ، بين التغير الذى يطرأ على مناسيب الجريان فى النيل من ناحية ، وحركة الزمن ودورته المنضبطة انضباطاً كاملاً من ناحية أخرى (٢) .

---

(١) يقال أن الحكيم الطبيب المصرى ، توت ، هو الذى تولى مسئولية ابداع خطة صياغة التقويم المصرى القديم على نظام الحركة الشمسية – راجع : شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى – الطبعة الأولى – مكتبة الأنجلو ، صفحات ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) من وضع التقويم وصياغة الاجتهاد المصرى له بمرحلتين متكاملتين . وهاتان المرحلتان هما : =

وفى يقين أى منصف من الجغرافيين المعاصرين ، أن التقويم الشمسى وهو حصاد وابداع الاجتهاد المصرى ، أساس اعتمدت عليه الحياة بصفة عامة فى حساب الزمن . وهذا من غير شك ابداع مفيد أضيف إلى تراث الانسان . ولكنه فى نفس الوقت يعنى نجاحاً حقيقياً ، يتيه أو يزهو به الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم . وكيف لا يتيه بهذا الانجاز الذى برهن على حسن استخدام الحس الجغرافى ، وهو يرقب العلاقة ومدى الانضباط ، بين معاينة قبة السماء وحركة الأجرام السماوية الرتيبة فيها من ناحية ، ومتابعة الرتابة التى توالت بها مناسيب الجريان فى النيل فى الموسمين المتكاملين ، عندما يفيض الماء وترتفع المناسيب فى موسم ، وعندما تغيض المياه وتنخفض المناسيب من ناحية أخرى فى موسم آخر .

وهكذا ، ينبغى أن نسجل كيف كان الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم ، الذى حفزته حضارة مصر الزراعية القديمة رائداً ومعلماً ، وهو يقود حركة الاهتمام برصد قبة السماء والتطلع إلى حركة الأجرام فيها قيادة هادفة . كما نسجل أيضاً كيف كان الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم موفقاً ومبشراً ، وهو يجمع أطراف الابداع والاضافة ، لكى يضع نقطة البداية ويصوغ لبنات القاعدة ، التى ارتكز إليها التفكير والتدبر الجغرافى الفلكى . وهذا معناه أن هذا الاجتهاد مسئول عن صناعة أساس وقاعدة الجغرافية الفلكية أو الجغرافية الرياضية، وإطلاق ملكات الفكر لحسابها . ومعناه أيضاً ، أن الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم ، قد أفلح فى استخدام الحس الجغرافى ، فى تجسيد حصاد هذا الحس ،

= أولاً : مرحلة أولية انتهت إلى جعل طول السنة ٣٦٥ يوماً . وعندئذ قسمت السنة إلى اثنى عشر شهراً بواقع ثلاثين يوماً لكل شهر . وتكفل هذا التقسيم اضافة خمسة أيام كاملة فى نهاية هذا التقسيم لاتمام عدة السنة .

ثانياً : مرحلة تالية استشعرت من خلال رصد مستمر لنجم الشعرى اليمانية بفرق طفيف يتراكم بواقع يوم كامل كل أربع سنوات كاملة . وعندئذ أدرك الاجتهاد الجغرافى أن طول السنة بالفعل ٣٦٥ ١/٤ يوماً ، وأن أيام النسئ فى موسم آخر تصبح ستة أيام بدلاً من خمسة كل أربع سنوات ، وصولاً إلى أقصى حد من الضبط الزمنى وحساب الزمن .

لكى ينشئ شكلاً من أشكال الفكر الجغرافى ، التى صاحبت إرادة الحياة واهتمامها بالواقع الفلكى من حولها .

وفى الاتجاه الثانى كان للاجتهاد الجغرافى المصرى شأن آخر فى الكشف الجغرافى ، والتطلع إلى الأرض من حول مصر . وقد أسفر هذا الاجتهاد عن شكل من أشكال توسيع المعرفة الجغرافية ، وتزويدها بمعلومات كثيرة من مساحات من الأرض ، وعن الناس فى هذه الأرض . ومن غير حاجة إلى دليل ينبغى أن نستشعر جدوى الانفتاح على العالم من حول مصر ، وكيف سارت رؤية الاجتهاد الجغرافى فى سبيلين ، هما سبيل التعرف على الأرض ، وسبيل التعرف على الناس فى هذه الأرض . وتلك - من غير شك - بداية مبكرة فى تسجيل الاهتمام الجغرافى ، الذى يجمع جمعًا منطقياً بين الأرض التى تحتوى الناس ، والناس الذين يعمرون الأرض .

وصحيح أن الغزو الذى كانت تشنه بعض الشعوب غير المستقرة ، فى أنحاء الأرض من حول مصر ، وتعقب المصريين القدماء لهذا الغزو المعتدى وردعه ، قد فتح العيون على الأرض التى صدرت هذا العدوان ، وأثار فيهم الرغبة والتطلع إلى التعرف عليها وعلى أحوال الحياة فيها . وصحيح أيضاً ، أن حركة التجارة بين مصر وبعض البلدان من حولها على طريق البحر أو على طريق البر ، قد شد اهتمام المصريين ودعاهم إلى ارتياد هذه الأرض والتعرف على أحوال الناس فيها . ولكن الصحيح من قبل ذلك كله ، أن الواقع الحضارى المتطور فى مصر ، ومكانتها السياسية المرموقة فى الموقع الجغرافى الحاكم ، كان من وراء كل حوافز ودواعى التحرك الذى بصر الاجتهاد الجغرافى ، وهو فى معية المطاردة وملاحقة الغزو ، أو وهو فى صحبة التعامل التجارى مع الناس فى البلدان من حول مصر .

وينبغى أن نتصور كيف كانت عمليات التربص بالغزاة ومطاردتهم وتعقبهم إلى عقر دارهم ، وهى مسئولية ملحة ، لاحباط العدوان على الاستقرار ، الذى يصنع الابداع الحضارى ويطورها على أرض مصر ، ولتأمين مسيرة الحياة الرتيبة فى أحضان وادى النيل الأدنى ، مسئولة

فى نفس الوقت عن فتح الباب ، ووضع العلامات على الطريق لحساب الاجتهاد الجغرافى . وما من شك فى أن حصاد هذا الاجتهاد الجغرافى قد تولى بدوره دعم التحرك الحربى ، لأن المعرفة بالأرض تضمن على أقل تقدير مواجهة التحديات التى تفرضها الأرض على هذا التحرك . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى المصرى الكاشف عن الأرض قد كسب الأرض وطوعها أحياناً ، لكى تحارب فى صف التحرك الحربى الذى طارد العدوان وأبطل مفعوله .

وينبغى أن نتصور أيضًا كيف كانت عمليات التعامل التجارى والتبادل مع الناس فى أقطار وبلدان من حول مصر ، وهى مسئولية ملحة أخرى ، لاشباع حاجة الاستقرار الذى يطور الحضارة وينمى حاجاتها الضرورية ، ولاشاعة المد الحضارى البناء وترسيخه لحساب الحياة ، مسئولة فى نفس الوقت عن الانفتاح ، ووضع العلامات على الطريق لحساب الاجتهاد الجغرافى . وما من شك فى أن حصاد هذا الاجتهاد الجغرافى ، قد تولى بدوره دعم التحرك التجارى ، لأن المعرفة بالناس تضمن على أقل تقدير التجاوب مع حاجة الأسواق . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الكاشف عن الناس قد كسب اهتمام الناس، واستشعر حاجتها ، لكى تتهافت على التحرك التجارى الذى يعطى ويأخذ .

وهكذا كان الحصاد الحضارى فى مصر ، الذى يمثل ابداع الحياة المستقرة ، الآمنة فى أحضان النيل الأدنى ، من وراء الانفتاح ، الذى التزمت به الحياة فى مصر . وما من شك فى أن مصر قد استشعرت جدوى هذا الانفتاح ، وأفلحت دائماً فى جنى ثمراته اقتصادياً وحضارياً. ومن ثم أصبح هذا البعد الحضارى العريق المتفتح فى مصر ، من وراء الانفتاح الذى قاد ووجه الاجتهاد الجغرافى المصرى ، وحمله المسئولية عندما حفزه ، لكى يطل على الأقطار والبلدان من حولها . كما كان هذا البعد الحضارى العريق المتفتح فى مصر ، من وراء رصد وتسجيل حصاد الاجتهاد الجغرافى المصرى فى سجل تراثها الثرى .

ولكى نتصور لماذا التزمت مصر بالانفتاح ، الذى أسفر عن كل

شكل من أشكال العلاقات السوية مع أقطار وبلدان من حولها ، ينبغى أن نستشعر جدوى الحس الجغرافى ومدى صدقه ، عندما بصر بالتباين بين مصر والواقع الجغرافى فيها ، والواقع الجغرافى فى الأقطار الأخرى ، ودعا الاجتهاد الجغرافى إلى تقصى حقيقة هذا التباين، وتفهم أبعاده وادراك ماهيته . كما ينبغى أن نستشعر أيضًا كيف دعا التطور الحضارى فى أحضان مصر الانفتاح ، وهو يطلب ما يؤمن المصريين وحقهم فى حياة مستقرة ، وما يتمم حاجاتهم الضرورية المتزايدة ، من الأقطار والبلدان فيما وراء أرضها الطيبة ، دعوة ملحة ، لكى يكفل الاجتهاد الجغرافى ويؤمن أهدافه .

ولكى نتصور كيف خدم الانفتاح الاجتهاد الجغرافى المصرى ، الذى أسفر عن شكل من أشكال الكشف الجغرافى ، وتوسيع المعرفة الجغرافية من حول مصر ، ينبغى أن نستوعب جدوى الاجتهاد الحضارى المصرى ، الذى انكب على تطويع وتحسين استخدام الوسائل، التى أسقطت أو اخترقت حاجز المسافة ، وخدمت براً وبحراً ، وهو ينتقل من المكان إلى المكان الآخر . كما ينبغى أن نستشعر أيضًا جدوى هذا الاجتهاد الحضارى ، وهو يجنى ثمرة انفتاح الاجتهاد الجغرافى المصرى، الذى أتاح شكلاً من أشكال الأخذ والعطاء المتبادل، حضارياً واقتصادياً ، مع أقطار وبلدان من حول مصر .

هذا وقد اعتمدت مصر لبعض الوقت على الرجال المشاة ، فى التحرك البرى بعيداً عن وادى النيل الأدنى ، فى دروب الصحراء الغربية أو الشرقية . كما اعتمد هذا التحرك أيضًا على الحيوان . وصحيح أن الاجتهاد المصرى قد افتقد الحيوان الأفضل لأداء هذه المهمة، ووصلاً إلى الهدف . وصحيح أيضاً أن افتقاد الحيوان الأفضل قد حرم التحرك البرى من مرونة الحد الأقصى لاجتياز الصحراء، واختراق حاجز المسافة على أى اتجاه . ولكن الصحيح – بكل تأكيد – أنهم استعاضوا بالحمار فى مرحلة ، وبالحصان فى مرحلة أخرى ، عن الجمل فى خدمة التحرك البرى (١) ، وهو يطارد الغزو ويحبط العدوان، أو وهو يتحسس الأرض

---

(١) لقد عرف المصريون القدماء الجمل وعاينوه من خلال علاقاتهم مع موطنه =

ويتعامل مع الأقطار والبلدان من حول مصر ، على الصعيد الآسيوى (الشام) ، وعلى الصعيد الأفريقى (حوض النيل) (١).

ومن شأن هذا التحرك المصرى البرى، الذى برهن على حسن استخدام الوسيلة لاختراق أو لاسقاط حاجز المسافة ، أن يصور كيف انفتح باب الاجتهاد العسكرى والتجارى والجغرافى فى وقت واحد، وهو يتصدى للعدوان ويطارده، أو وهو يتعامل مع الناس فى الأقطار من حول مصر ، أو وهو يتعرف على الأرض وأحوال الناس وأنماط حياتهم فى هذه الأقطار . بل ومن شأن هذا التحرك المصرى البرى أيضاً ، أن يصف ويصور كيف أحسن هذا الاجتهاد استخدام الحصاد ، لكى يصعد مكانة مصر، ويدعم تفوقها المرموق سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وحضارياً .

ومن الجائز أن التحرك البرى المصرى قد تمادى فى أداء مهماته الممتازة ، وفى تسجيل انجازات مفيدة ، لحساب الانفتاح المصرى على

= فى جنوب غرب آسيا . ولكن الذى لا شك فيه انهم لم يستخدموه ولم يضموه إلى ثروتهم الحيوانية لأداء وظيفى معين . ولعلهم اضمروا له البغض لأنه كان – فى نظرهم – الحيوان الذى حرك العدوان عليهم وأسعفه ، وهو يجتاز الصحراء إلى حيث يتهدد الخطر الاستقرار المتشبث بضفاف النيل الأدنى وفروعه فى الدلتا . والمفهوم أن – الجمل – لم يتسلل إلى أفريقية وينتشر على صعيد الشمال الأفريقى لكى يخدم اجتياز الصحراء الكبرى إلا فى حوالى عصر البطالمة. وعن الحمار نذكر كيف خدم الانسان المصرى فى الحقل وفى الرحلة على مدى طويل . ثم عرف المصريون الحصان واقتنوا أعداداً منه حصلوا عليها من خلال التعامل مع العرب (العماليق) وأحسنوا استخدامه فى الكر والفر ، وفى تعزيز مظاهر العز والوجاهة ، وقد أثر استخدام الحصان كثيراً على مكانة الحمار .

(١) رحلة حرقوف المصرى فى الأرض جنوب مصر فى اطار حوض النيل ، تعد – فى تقديرى – نموذجًا ممتازاً يعبر عن شكل وجدوى التحرك البرى الذى أحسن المصريون استخدام الحمار فيه ، لحساب التعامل التجارى وردع العدوان والكشف الجغرافى فى وقت واحد . ومن غير استغراق فى الحديث الأسطورى المشوق الذى يجسد ويجسم المغامرة الجسورة ، ويضيف إليها الاضافات المثيرة من نسج الخيال ، ينبغى أن نستشعر جدوى الحس الجغرافى الذى بصر هذه الرحلة فى الذهاب وفى الاياب . وفى تسجيل ثمرة الاجتهاد الجغرافى الذى كشف النقاب لأول مرة ، عن بعض الأرض الأفريقية جنوب الصحراء .

بعض الأقطار من حولها ، ومعرفتها جغرافياً وتحديد مواقعها . ولكن من المؤكد فعلاً أن هذه المنجزات التى أشبعت شهوة الانفتاح المصرى، وسجلت انتصار الاجتهاد الجغرافى ، قد استنفرت حسه الجغرافى وصعدت التدبر والتفكير فى مدركات هذا الحس . ويبدو أن هذا الاستنفار كان من وراء شهوة ركوب البحر ، من أجل انفتاح على المدى الأوسع ، وتوسيع دائرتى التعامل والمعرفة الجغرافية بالأقطار من حول مصر .

ويتفق الباحثون على تصاعد الاجتهاد التجارى المصرى فى ركوب البحر (١) ، وجنى ثمرات هذا الاجتهاد . وفى نفس الوقت وسع هذا الاجتهاد دائرة الرؤية الجغرافية توسيعاً حقيقياً ، وشد اهتمام الاجتهاد الجغرافى فى صحبته إلى أقطار كثيرة من حول مصر . ومن الطبيعى أن نشير إلى الابداع فى انجاز صناعة السفينة الأنسب للملاحة البحرية ، وأن نشير إلى مشقة استحضار الأخشاب الجيدة لها من أقطار بعيدة(٢)، لكى نتصور مدى الاهتمام بركوب البحر ، قبل أن نتبين جدوى الاجتهاد وهو يخدم الانفتاح المصرى التجارى ، ويدعم الاجتهاد الجغرافى المصرى .

والرحلة البحرية ، سواء كانت فى البحر المتوسط ، أو كانت فى البحر الأحمر ، أو انطلقت من خلال أى من هذين البحرين ، تعنى المغامرة الجسورة التى تمضى بالضرورة من أجل هدف أو غاية .

---

(١) فى اعتقاد بعض الباحثين ، ان صفحة النيل الأدنى كانت من أهم المدارس ، إن لم تكن أول مدرسة تعلم الانسان فى أحضانها ركوب الماء . وفى اعتقادهم أيضاً أن اسهام الاجتهاد الحضارى المصرى فى صناعة وتجهيز السفينة ، وفى تشغيلها لا يمكن أن ننكره أو نتنكر له . ويبدو أن حركة الملاحة وركوب البحر لم تنطلق – بكل الاطمئنان – من صفحة النهر الهادئ إلى سطح البحر الصاخب ، إلا بعد أن اكتسبت مهارات وخبرات كثيرة . وما من شك فى حاجة الملاحة البحرية إلى هذه المهارات والخبرات ، لكى يتسنى لها تطويع البحر واذعانه لارادة التحرك الواثق ، وصولاً إلى الهدف .

(٢) هناك أثر من دليل مادى تنطق به المدونات الفرعونية ويصور استحضار الأخشاب من بر الشام لصناعة السفن .

وصحيح أن القصص عن هذه الرحلات ، يحكى كيف واجه الاجتهاد المصرى الحطر فى عرض البحر ، ويقص كيف تضرر بغدر وعدوان وغضب البحر . ولكن الصحيح أيضًا ، أن هذا الاجتهاد المصرى الجسور، لم يحجم أو لم يكف أو لم يرجع مقتنعًا من الغنيمة بالاياب . وما من شك فى أنه قد واصل ودوام على ركوب البحر ، وبرهن على جلد واصرار فى الانفتاح على الأقطار التى استهدفتها . بل وما من شك أيضًا فى أنه قد جنى ثمار هذا الانفتاح ، لحساب التعامل التجارى ، أو التعامل وجنى ثمرات المعرفة الجغرافية فى وقت واحد .

هذا ، وينبغى أن نذكر كيف حفلت المدونات من خلال هذه الرحلات البحرية المثيرة بالقصص الذى جسد الاثارة أكثر من أى شئ آخر . بل تفننت رواية الأساطير[1] فى عرض الغرائب وتصوير العجائب ، واعتصرت الخيال فى مجال وصف الأقطار ، التى أطلت عليها هذه الرحلات . ومن الجائز أن ننكر تمامًا ذلك التصور الذى يذهب ويتصور أن الأساطير بكل ما انطوت عليه من خرافة ووهم وتهويل واثارة ، كانت من وراء الرحلة البحرية حافزًا [2]. ولكن الذى

(١) من شأن كل أسطورة أن تحكى قصة عجبًا . ومن القصص الأسطورى فى التراث المصرى القديم نذكر أسطورة الملاح الذى نجا بعد أن غرقت سفينته فى البحر الأحمر . وتحكى هذه الأسطورة كيف أنه تشبث بجزيرة قابل فيها ثعبانًا ناطقًا بكلام . وتصور هذه الأسطورة كيف عايش الملاح هذا الثعبان ودار بينهما الحوار لبعض الوقت ، قبل أن يغادر هذه الجزيرة على سفينة انتشلته وعادت به إلى مصر . ومن نفس هذا المعين الأسطورى ، نذكر أسطورة سيزوتريس البطل التى تمجد جسارته وتعظم انتصاراته . وتحكى هذه الأسطورة حكاية عجبًا عندما تصور كيف أخضع هذا البطل الأسطورى مساحات كبيرة ، امتدت من البحر الأسود غربًا إلى الهند شرقًا وإلى غرب أفريقية جنوبًا .

(٢) ما جاء فى قصص الأساطير التى حفل بها التراث المصرى القديم – رغم كل شئ – لا يمكن أن ينشأ من فراغ ، ولا يمكن أن يكون كله من صنع الوهم والخيال . بل هو – فى تقدير معظم الباحثين – قصص طوعت الرواية الحقيقية فيه لشطحات الخيال والوهم والتهويل . وقد اسفر هذا التطويع عن اضافات عجيبة إلى سياق الرواية . وقد تتحول هذه الرواية مع مرور الوقت وتكرار الاضافة إليها إلى شئ مميز غريب ، أبعد ما يكون عن واقع الحقيقة الصحيحة فيها . بمعنى أن شطحات الخيال التى تضيف الغرائب والعجائب تغطى على =

يجب أن نؤكد عليه هو ما أسفرت عنه الرحلة البحرية ، من حصاد وثمرات واضافات لحساب الاجتهاد المصرى . وقد تمثل هذا الحصاد فى تسجيلات متنوعة كثيرة ، تخلط بين الخيال ، وهو يعتصر الوهم وينسج الأسطورة ويركز على الغرائب من ناحية ، والحقيقة ، وهو يعاين الواقع الجغرافى ويشاهد حقيقة الناس ويتعامل معهم اقتصادياً فى حالة السلام ، وعسكرياً فى حالة الحرب (١) من ناحية أخرى .

ومن المؤكد أن الرحلة البحرية قد أسفرت عن فرص حقيقة لاستطلاعات جغرافية كاشفة ، وعن معرفة بصفات الأرض وأحوال الناس . بل ربما أطلعت الاجتهاد الجغرافى المصرى على التفاعل الحياتى بين الناس والأرض فى بعض الأقطار التى أطلت عليها من البحر . ويستوى فى ذلك أن تكون الرحلة البحرية رحلة منتظمة أو رحلة غير منتظمة ، فى أى من البحرين الأحمر والمتوسط . وهناك أكثر من دليل أو علامة ، تدلل على حسن استخدام الحس الجغرافى الذى حفز بدوره التدبر والتفكير ، من وراء الاجتهاد المصرى الذى سجل اهتمامه ومعرفته بالأقطار ، وتقصى الحقائق عن الحياة فيها (٢).

= صدق الحقيقة وتطمسها فى نهاية الأمر . ومن الأدلة على ذلك أن الأساطير تضع رحلة الملاح الذى نجا بسفينته فى زمن سابق للرحلات المصرية البحرية إلى بنت . وهذا بكل تأكيد عكس ما ينبغى أن نتصوره تماماً .

(١) فى اعتقاد معظم الباحثين عن التراث الأسطورى القديم ، أن ترديد القصص الأسطورى يعكس انطباعاً بشرياً يجنح إلى التهويل والاثارة . وكثيراً ما اعتاد الراوى على دس الغريب والعجيب ، وحتى المستحيل فى الرواية الأسطورية ، لكى يجسد أو يضخم اعجابه وانبهاره بالشخصية أو الشخصيات الأسطورية . ومن شأن هذا الاتجاه الذى يزين الحقيقة الثمينة بشحطات الخيال ، أن يتسبب فى مسخ هذه الحقيقة وطمس معالمها فى كثيرمن الأحيان وابعاد الرواية عن أهدافها. وقد يصل الأمر فى كثير من الأساطير إلى حد العجز التام لدى الفصل والتمييز ، بين صدق الحقيقة ووهم الخُيال . وهذا معناه أن نفتقد فيها القدرة على استخلاص الواقع من الشوائب التى تعلق وتشوه ملامحه .

(٢) هناك أكثر من تسجيل شاهد يدلل على جدوى هذه الرحلة البحرية . بل وهناك أكثر من دليل على أن الدولة فى مصر كانت – بكل امكانياتها – مادياً ومعنوياً، من وراء تنظيم وتمويل ودعم هذه الرحلة. كما كانت الدولة أيضاً فى انتظار عودتها ، وهى ترقب حصادها المرتجى . وهذا معناه – بكل تأكد – أن =

وكان من شأن الرحلة البحرية . في البحر الأحمر ، وقد تطلعت بكل الأمل - إلى ادراك بلاد بنت ، وإلى التعامل التجارى مع سكانها ، أن تصور مدى حرص الواقع الحضارى المتطور ، على انجاح الرحلة وعلى حسن استثمار العلاقات التى تنتهى إليها أهداف الرحلة ، مع أهل هذه البلاد (١) . بل وكان من شأن هذه الرحلة البحرية الناجحة فى الغدو والرواح ، أن تسجل بياناً كاشفًا ومفيداً ، يجسد شكلاً من أشكال الاجتهاد الجغرافى ، وهو يطل على بعض الأقطار من حول مصر . ومن الجائز أن هذا البيان الكاشف لم يفلح فى تحديد موقع بلاد بنت الجغرافى تحديداً قاطعًا . ولكن الصحيح أيضًا أن هذا البيان لم يضلل البحث عنها ، لأنه احتوى كل أهم البيانات ، التى تسعف الباحث وتبصره وترشد اجتهاده ، وهو يحدد موقعها الجغرافى من حول البحر الأحمر الجنوبى (٢) .

= التحرك البحرى الذى صحب الاجتهاد الجغرافى فى معيته ، وفجر الحس الجغرافى لحساب المعرفة الجغرافية بالأقطار من حول مصر ، قد اتخذ فى بعض الأحيان مسحة الطابع الرسمى ، الذى خططت له الدولة ووجهته توجيهاً هادفاً ، لحساب مصلحة الدولة العليا .

(١) اقدم التسجيلات الكاشفة عن الرحلة البحرية الرسمية إلى بلاد بنت ، كان على عهد خوفو فرعون مصر فى حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد . وهناك تسجيل آخر عن رحلة بحرية رسمية أخرى إلى بلاد بنت جهزتها وأرسلتها حتشبسوت فى حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد . وقد اتخذت هذه الرحلات البحرية شأنها فى ذلك شأن كل الرحلات البحرية الأخرى ، طابع المغامرة الجسورة . وكانت تتطلع - بكل تأكيد - إلى التعامل التجارى مع بلاد بنت ، طلباً للبخور والعطور وغيرها من السلع ، التى ترنو إليها الحضارة المصرية ، وهذا معناه أن رحلة بحرية من هذه الرحلات ذات الطابع الرسمى إلى بلاد بنت لم تمثل عدواناً ، أو لم تستهدف الغزو العسكرى والقهر . ومعناه أيضًا أن توالى هذه الرحلات البحرية يعبر عن تصاعد الحنكة فى ركوب البحر الأحمر تصاعداً أسعف التقدم جنوباً ووسع دائرة التعامل مع بلاد بنت . ومعناه بعد ذلك كله انفتاح الاجتهاد الجغرافى المصرى ، وهو يصحب هذه الرحلات ويطلع بمعاينة الواقع الجغرافى فى بلاد بنت .

(٢) اجتهاد فريق من الباحثين ، يصور من وقع بلاد بنت على الجانب الأفريقى فى ظهير البحر الأحمر الجنوبى ، امتداداً من اريتريا إلى الصومال. ويصور اجتهاد فريق آخر من الباحثين . أن بلاد بنت تقع على الجانب الآسيوى فى ظهير البحر الأحمر امتداداً من عسير إلى اليمن. وفى اعتقادى -على كل حال- أن بلاد =

أما الرحلة البحرية فى البحر المتوسط ، فقد تطلعت بشكل يلفت النظر إلى الوصول والتعامل ، مع أهم الموانى على ساحل بلاد الشام . ولقد كان من شأنها أن تمثل انطلاقه التعامل التجارى المصرى المبكر(١)، الذى سجل أول اجتهاد مصرى بناء ، وهو يرسى قواعد أولية لحساب التجارة الدولية . وكان من شأنها أيضاً أن تصحب الاجتهاد الجغرافى المصرى فى معيتها ، الذى يسجل أول بيان كاشف لمبلغ اهتمام هذا الاجتهاد بالمعرفة الجغرافية . وصحيح أن هذا البيان قد أفلح فى تسجيل التطلع المصرى ، إلى ثمرة الاجتهاد الجغرافى ، وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية . ولكن الصحيح أيضًا ، أن هذا البيان قد أنجح الاجتهاد الجغرافى ، وكان من وراء شحذ الحس الجغرافى ، واعمال الفكر الجغرافى اعمالاً ، يسفر عن انجاز مشبع للمعرفة الجغرافية عن بلاد الشام .

هذا وينبغى أن نفطن إلى دور الاجتهاد الجغرافى المصرى النشيط ، عندما حفز الفينيقيين واستخدام خبراتهم المكتسبة فى ركوب البحر (٢) وكلفهم بالطواف وتحسس الطريق البحرى من حول اليابس

= بنت كانت تتمثل فى الأرض على الجانبين الأفريقى والآسيوى ، من حول باب المندب . ويبدو أن المصريين قد استخدموا هذا الاسم استخداماً مرناً ، لكى يصدق على الظهير الأرضى على جانبى البحر الأحمر والتى يتأتى وصولهم إليها من خلال رحلات بحرية أو رحلات برية ، وحصولهم من انحائها على البخور والعطور وكل السلع التى مثلت آنذاك انتاجاً متخصصاً فى بلاد بنت .

(١) علاقة مصر بساحل الشام وبعض جزر البحر المتوسط قديمة ، ترجع إلى حوالى الألف الرابعة قبل الميلاد . ويمكن أن يمز بين رحلات بحرية تولت أمرها نفر من المصريين العاملين فى حقل التجارة ، ورحلات بحرية تولى أمرها الدولة المصرية . ومن اشهر الرحلات الرسمية فى البحر المتوسط رحلة بحرية ، تمت بأمر سنفرو فرعون مصر فى حوالى ٣٢٠٠ ق.م. وكانت هذه الرحلة مؤلفة من أربعين سفينة ومكلفة باستحضار الأخشاب لصناعة السفن.

(٢) من الجائز أن نؤكد على أن المصريين قد ابدعوا فى بناء السفينة وتجهيزها للرحلة البحرية . وتجد فى التراث الأفريقى اعترافًا بدور الاجتهاد المصرى المبدع فى صنع السفينة ذات الخمسين مجدافًا ، ولكن الذى لا شك فيه أن المصريين ، قد اعترفوا اعترافاً صريحاً بكفاءة الفينيقيين ، وكيف انهم اكثر خبرة ومهارة فى ركوب البحر إلى المدى البعيد .

الأفريقى (١). وصحيح أن الدجل كان شديداً وما زال بين فريقين ، فريق يكذب (٢) وقد رفض التصديق بما أورده هيردوت عن هذا الطواف ، وفريق يصدق (٣) وقد تلمس الأدلة على نجاح رحلة الطواف الفينيقية حول اليابس الأفريقى . ولكن الصحيح أيضاً ، أن الاجتهاد الجغرافى المصرى النشيط قد تلمس استثمار الاجتهاد الفينيقى استثماراً واسعًا ، وتلمس منه حصاداً يزودهم بزاد متجدد من المعرفة الجغرافية ، عن الأقطار التى يتعاملون معها فى حوض البحر المتوسط .

والرحلة البرية بدورها ، سواء كانت على الصعيد الآسيوى ، أو على الصعيد الأفريقى ، تعنى المغامرة الجسورة وهى تضرب فى دروب الصحراء الموحشة ، من أجل هدف أو غاية مباشرة (٤). وصحيح

---

(١) كانت رحلة الطواف حول أفريقية ، بتكليف من نخاو فرعون مصر ، الذى قام حكمه فى الفترة بين ٦١٠ ، ٥٩٤ قبل الميلاد .

(٢) من الفريق الذى كذب بهذه الرحلة قديماً بوليبيوس وحديثًا وب . وقد بنى الانكار أو التكذيب على أساس أن هيردوت لم يعرض تقريراً شاملاً عن هذه الرحلة ، يضمنه اسم قائدها ويبين أنواع السفن التى استخدمتها لانجاز مهمتها . وهناك اعتراض آخر على الوقت الذى استغرقته هذه الرحلة البحرية الطويلة ، وكيف أنه أقصر من أن يبث فى النفس الثقة والاقتناع بقيام هذه الرحلة بالفعل ، وإتمام مهمة الطواف حول اليابس الأفريقى .

(٣) فريق المصدقين برحلة الطواف حول أفريقية الذى يقوده مولر ، لا يرتاب فى ضخامة الانجاز . وقد تصدى بكل المنطق والموضوعية للرد على الاعتراضات وتفنيدها فى مواجهة فريق الرفض . وهناك اعتقاد سائد بين هذا الفريق الذى يصدق بالرحلة ، وانجاز مهمتها يصور كيف أن هذه الرحلة البحرية كانت من وراء هدف تجارى باحث عن توسيع دائرة التعامل التجارى ، مع أقوام وأقطار جديدة على الصعيد الأفريقى . واجتهاد مولر فى تصوير رحلة الطواف حول اليابس الأفريقى تمثل – على كل حال – شيئاً ممتعًا ، وهو يوجه أو يقود دفاعاً منطقيًا عن قيمة الحصاد الذى أسفرت عنه هذه الرحلة . كما يصور مولر كيف انتفع الاجتهاد الجغرافى المصرى بهذا الحصاد فى نهاية الأمر واستثمره لحساب المعرفة الجغرافية .

(٤) هناك أكثر من تسجيل شاهد – بكل الصدق – عن هذه الرحلة . بل وهناك أكثر من دليل يدلل على تبنى حاكم مصر هذا الاجتهاد المثابر ، الذى حقق أهداف الرحلة البرية . وهذا معناه أن بعض التحرك البرى الذى فجر الحس الجغرافى وفتح باب التدبر والتفكير الجغرافى لحساب المعرفة الجغرافية، قد اتخذ فى بعض الحالات الطابع الرسمى الذى خططت له الدولة وترقبت نتائجه .

أن قصص هذه الرحلات البرية قصص مثير ، وهو يحكي كيف واجه الاجتهاد المصرى الخطر والمشقة على الطريق ، وكيف تضرر بوحشة ووعورة وطول الطريق . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا الاجتهاد لم يجبن أو يتوقف أو يكف عن أداء دوره الوظيفى وتحمل مسئوليته . وقد واصل هذا الاجتهاد مهمته وانجازه ، ويرهن على جلد ومثابرة واصرار فى متابعة الانفتاح وجنى ثمراته ، لحساب ردع وترويض وتأديب العدوان (١) ، أو لحساب التعامل التجارى (٢) ، أو لحساب المعرفة الجغرافية ، فى وقت واحد .

ومن المؤكد أن الرحلة البرية كانت تتكرر من حين إلى حين آخر ، بشكل غير رتيب إلى بعض الأقطار من حول مصر . ومع ذلك فليس من شأن هذا التكرار أن ينبئ بالانتظام . بل وقد ينبئ بالدوام والاستمرار والاصرار على انجاز المهمة ، وتحقيق الهدف الذى تطلع إليه الاجتهاد المصرى النشيط . وفى اعتقاد زمرة من الباحثين ، أن هذا التكرار والاستمرار فى الرحلة البرية ، قد فتح الباب على مصراعيه ، لكى يتحقق الاستطلاع الجغرافى ، والمعاينة الكاشفة عن الناس والأرض والتفاعل الحياتى فى كل الأقطار التى تعامل معها هذا التحرك البرى(٣).

---

(١) كان ردع العدوان او احباطه ورده على اعقابه ، مطلبًا وهدفًا عزيزًا لتأمين الاستقرار وانجازه الحضارى الشامخ فى مصر . وقد استشعرت مصر حكومة وشعباً وطأة هذا الخطر ، الذى يبادر به البدو غير المستقرين على حدود مصر ، وكان حقًا عليها أن تتصدى له . وفى اعتقادى أن الرحلة البرية سواء كانت رحلة سلام أو رحلة حرب ، قد اتخذت من الاستطلاع الجغرافى والكشف ، مطية لانجاح اغراضها وانجاز مهمتها على افضل وضع .

(٢) عندما أخذ الاستقرار بزمام المبادرة ، وهو يرسى قواعد البناء الحضارى المصرى بشقيه المادى والروحى ، قد استشعر الحاجة إلى التعامل التجارى مع بعض الأقطار من حول مصر ، لاستكمال حاجة مصر من سلع ومنتجات لا تتوفر فيها . وهذا معناه أن الواقع الحضارى وهو ينوع ويوسع دائرة ضروريات الحياة فى مصر ، كان - بكل تأكيد - من وراء الرحلة البرية وتجهزها وترقب عودتها . وعندئذ كان الاستطلاع الجغرافى مطلوباً لكى يبصر الرحلة ويوجه مسيرتها ، ولكى يرشد التعامل التجارى ومسيرته فى القنوات الصحيحة ، بين مصر وبعض الأقطار من حولها .

(٣) من أهم ثمرات هذا التحرك البرى النشيط ، أن كانت المواجهة المباشرة بين =

وهناك أكثر من دليل واضح ، يدلل على ذلك الانفتاح ، ويصور كيف كان الحس الجغرافى متيقظاً ، وهو يبصر الاجتهاد الجغرافى المصرى ، لكى يسجل معرفته بالأقطار ، ويكشف النقاب عن المجهول فيها .

وكان من شأن الرحلة البرية التى تحركت على الصعيد الأفريقى ، أن تجتاز حد مصر الجنوبى [1] صعوداً إلى بلاد كوش ويام فى أحضان النيل . وصحيح أن بعض هذه الرحلات البرية ، قد أفلحت فى احباط العدوان على مصر وردته على أعقابه . وصحيح أيضاً أن بعض هذه الرحلات البرية ، قد أفلحت فى جنى ثمرات التعامل التجارى مع أقطار أفريقيا جنوب مصر . ولكن الصحيح – بكل تأكيد – أن هذه الرحلات البرية جميعها ، قد أفلحت فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، عندما ضمنت القصص الذى يحكى حكايتها ، بياناً جغرافياً كاشفاً عنها بالتصريح أحياناً ، وبالتلميح أحياناً أخرى [2] . وينبغى أن نؤكد على أن

= الاجتهاد الحضارى المصرى ، والاجتهاد الحضارى فى الأقطار الأخرى من حول مصر . وكانت هذه المواجهة سلمية فى بعض الأحيان . ومن ثم تحقق شكل من أشكال الاحتكام الحضارى البناء ، لحساب الانسان بصفة عامة ، وهناك اكثر من دليل على جدوى هذا الاحتكاك الحضارى وما بنى عليه من أخذ وعطاء وتفتح من أجل بناء حضارى أفضل فى مصر أو فى الأقطار من حول مصر .

(١) فى كثير من الأحوال اتخذت الرحلة البرية شكل الحملة العسكرية على بلاد النوبة . وقد حملت الدولة هذه الحملة مسئولية ردع العدوان وتعقبه كلما تهدد أمن مصر واستشعرت الخطر الذى يدق على بابها الجنوبى . وفى بعض الأحوال الأخرى ، اتخذت الرحلة شكل حملة السلام والتعاون مع بلاد النوبة وما ورائها جنوباً . وقد تحملت هذه الحملة عندئذ مسئولية انجاح الانفتاح والتعامل الذى كان مطلباً اقتصادياً وحضارياً فى وقت واحد .

(٢) من خلال مراجعة سجل الرحلات البرية التى تزخر بالقصص والروايات عن التقدم إلى بلاد كوش وبلاد يام – وفى مقدمتها رحلة حرقوف ذات الطابع الرسمى البحت – نتبين بكل الوضوح – مدى الاجتهاد الذى يحكى بالتصريح أو بالتلميح عن جغرافية الأنحاء ، التى مرت بها قوافل الرحلة فى الغدو والرواح . ومن الجائز أن يكون الخلط شديداً بين الحقيقة والخيال، أو بين حصاد الرؤية الجغرافية ، وسيرة الأحداث التاريخية . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا التصوير المخلوط كان – رغم التهويل والمبالغة التى أضافتها شطحات الخيال – تصويراً مفيداً ، لحساب المعرفة الجغرافية وكيف لا يكون مفيداً وهو كاشف النقاب عن ظلمة المجهول عن بعض الأرض ونبض الحياة عليها .

هذا التوغل الذى سار فى دروب تحاذى النيل فى بعض مراحل الرحلة(١) ، وسار فى دروب تبتعد عن النيل فى مراحل أخرى منها ، وقد ترك من ورائه بصمات الحضارة المصرية وغرس جذورها ، وأشاع المعرفة بها بين الناس ، لكى تنمو وتعيش وتشيع فى أحضان الاستقرار المتشبث بالنيل جنوب مصر (٢) .

هذا وقد كانت هذه الرحلات البرية - بكل تأكيد - من وراء الاجتهاد الجغرافى المصرى الذى انبرى للتعرف على النيل وكشف النقاب عن بعض الحقائق المجهولة عن مجرى النيل وروافده ، جنوب مصر (٣) .

---

(١) ألزمت الجنادل التى تنتشر فى مجرى النيل النوبى الرحلة جنوب حد مصر الجنوبى ، إلى اسقاط أو اختراق حاجز المسافة وصولاً إلى الهدف على امتداد الطرق والدروب البرية فى الصحراء الكبرى . وليس من قبيل الصدفة أن تشبثت الرحلة البرية بضفة النيل الوعرة التى تختنق المجرى ، ولا تفسح المجال لوادى يحتوى النهر . ولكنها اتخذت هذا الطريق ، لكى تضمن مورد الماء ، وهى تستخدم الحمار لاجتياز القطاع الوعر من الصحراء على جانبى النيل النوبى . وليس من قبيل الصدفة أيضًا أن تحررت الرحلة البرية من الالتصاق بضفة النيل جنوب خط عرض دنقلة ، ولكنها اتخذت هذه الطريق إلى كردفان التى يوفر المطر فيها مورد الماء بكم انسب .

(٢) صحيح أن النيل والتربة الفيضية فى كل جيب من الجيوب ، التى تحتوى الأرساب على ضفة من ضفتى النيل النوبى ، كان من وراء نمط الاستقرار المتميز فى أنحاء من النوبة جنوب أرض مصر . وصحيح أن الآثار القديمة التى تكشف عن الوجه الحضارى المادى والروحى فى النوبة ، تمثل تراثًا قديمًا من صنع وانتاج هذا الاستقرار . ولكن الصحيح أيضًا أن التشابه والتكامل، بين تراث مصر القديمة من الآثار، وتراث النوبة منها فى كل من مروى القديمة والنجعة والمصورات ، لم يكن من قبيل الصدفة البحتة أبدًا . وفى اعتقاد كل الباحثين المنصفين أن الانفتاح العريض الذى تأتى تأسيسًا على دور الرحلات البرية الوظيفى وأدائها ، قد هيأ فرص الاحتكاك الحضارى ، وتولى مسئولية ترشيد الأخذ والعطاء الحضارى المتبادل ، بين الشركاء فى صناعة وتطوير الحضارة ، على ضفاف النيل فى النوبة ومصر . وفى اعتقادى أيضًا أن المعرفة الجغرافية بالنوبة قد أتاح للحضارة المصرية أن تتخذ منها مأوى تعتصم به ، عندما تستشعر الخطر الزاحف على أرض مصر ، فى بعض فترات الضعف، من الأرض الآسيوية .

(٣) أثار النيل وجريانه الرتيب ، وهو يؤدى دوره فى دعم ومظاهرة الحياة على -

أما الرحلة البرية على الصعيد الأسيوى ، فقد اتخذت سبيلها عبر الدروب الصحراوية فى سيناء إلى أرض الشام . ونستطيع أن نؤكد على قيمة هذه الرحلات البرية وجدواها ، وهى تطارد العدوان وتتعقبه أو وهى توقف مد العزو وتحبطه، أو وهى تكبح جماح التسلل إلى أرض مصر واحتلال أطراف من أرضها الطيبة . كما نستطيع أن نؤكد أيضاً على قيمة هذه الرحلات البرية وعلى جدوى دورها الوظيفى وهى تفتح باب الاحتكاك الحضارى مع حضارات الشعوب والأقوام فى الأرض الأسيوية (١) ، أو وهى تصحب الاجتهاد الجغرافى فى معيتها فيصقل معرفته الجغرافية ، ويتزود برصيد عن الأرض والناس وأنماط حياتهم فى أحضان أوطانهم فى ظهير البحر المتوسط . ثم هى بعد ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، رحلات نشيطة لحساب التعامل التجارى ، فى خدمة

= الضفاف ، انتباه الحس الجغرافى المصرى . وكان هذا الحس الجغرافى - بكل تأكيد - من وراء التدبر والتفكير الذى تطلع إلى الرحلة البرية جنوب مصر وحفزها للكشف عن منابع النيل . وفى اعتقاد بعض الباحثين المنصفين على الأقل أن هذه الرحلات قد أفلحت فى معاينة الجريان النيلى جنوب خط عرض الخرطوم ، وفى تزويد المعرفة على النيل وصولاً إلى خط عرض ملكال . بل لقد تجاوز البعض هذا التصور ، واعتقد أن المعرفة بلغت أطرافًا من حوض بحر الغزال . ومن الجائز أن نؤكد على أن رؤية الاجتهاد الجغرافى المصرى قد توقفت عند خط عرض الخرطوم ، وأن ما تلاها جنوباً كانت معرفة مشوهة وممسوخة . ولكن الصحيح الذى نؤكد عليه أنه من خلال الخيال والتخمين والتهويل ، استخلص الاجتهاد الجغرافى المصرى فكرة ورود الايراد النيلى من منبعين متباينين ، وعجز فى نفس الوقت فى ابراز ماهية هذه الحقيقية وتنقيتها من كل أو بعض الشوائب ، التى زخرت بها الأساطير والروايات القديمة عن منابع النيل .

(١) كان من شأن الاجتهاد المصرى أن يمرح فى بعض الفترات فى أرض الشام ، وأن يجنى ثمرة وجوده اقتصادياً وعسكرياً ، وأن يتراجع عنها فى بعض فترات الضعف . وهذا معناه أن مصر لم تؤكد على صيانة سلطانها وحيازة أرض الشام . ومعناه أيضًا أن هذه الأرض كانت نطاقًا عريضاً حاجزاً ، بين الوجود الحضارى فى وادى النيل الأدنى . والوجود الحضارى البابلى فى ما بين النهرين ولم يكن غريبًا أن تشهد هذه الأرض الحاجزة مد الوجود المصرى وجرره . ومد الوجود البابلى وجزره . أو أن تشهد هذه الأرض الحاجزة . المواجهة التى أسفرت عن شكل من أشكال الاحتكاك الحضارى . بين نمط الحضارة المصرية ونمط الحضارة العراقية وتبادل الاخذ والعطاء .

الانتفاع المباشر أو غير المباشر ، بحركة تجارة المرور ، التى كانت تنساب بين رأس الخليج العربى وموانى البحر المتوسط الشرقى (١) .

وهكذا نتبين كيف أبلى الاجتهاد الجغرافى المصرى بلاء حسناً ، سواء وهو يتجه فى الاتجاه الفلكى الرياضى ، أو وهو يتجه فى الاتجاه العامل فى حقل المعرفة الجغرافية بالأرض والناس فى مساحات من حول مصر . وينبغى أن نستشعر كيف رشد الحس الجغرافى هذا الاجتهاد ، لكى يضع اللبنات الأولية فى بنية الفكر الجغرافى القديم . كما ينبغى أن نستشعر أيضًا كيف انكب التسجيل على كتابة حصاد هذا الاجتهاد ، لكى يمثل قطاعاً هاماً من تراث مصر القديمة .

وفى مقابل هذا الاجتهاد الجغرافى المصرى النشيط ، نفتقد الاهتمام برسم وتجهيز الخريطة . بمعنى أن انصب التعبير عن ثمرات هذا الاجتهاد ، على استخدام الكلمة المكتوبة ، أكثر من أى شئ آخر . ويمعنى أن التعبير الجيد من خلال رسم الخريطة لم يكن أمراً وارداً ، وأن انتاج الخرائط كان – بكل تأكيد – انتاجاً متواضعًا إلى حد كبير، بالقياس إلى الانتاج الجيد المكتوب من المعرفة الجغرافية .

ومن الجائز أن عملية رسم الخريطة كانت مبنية على براعة فى مسح الأرض مسحًا تفصيليًا ، عقب كل فيضان ، من أجل حساب وتقدير الضرائب الواجبة على الفلاحين . ومن الجائز أيضًا أن تفتقد نماذج الخرائط (٢) الدقة ، وتعبر عن بدايات متواضعة ، فى خدمة

---

(١) كانت حركة القوافل بين خليج العرب والبحر المتوسط عبر أرض الشام بمثابة شريان من الشرايين الحيوية ، التى خدمت حركة التجارة بين مواطن الانتاج فى أحضان حضارات جنوب أسيا ، ومواطن الحضارات فى أحضان حوض البحر المتوسط .

(٢) تتمثل نماذج الخرائط المصرية القديمة فى :
أ- خريطة للمساحة التفصيلية ، متمثلة فى النموذج المحفوظ فى متحف تورينو. ويرجع تاريخ انشاء هذه الخريطة إلى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد . وهى مرسومة لكى تبين منطقة من مناطق تعدين الذهب فى الصحراء الشرقية .
ب- خريطة جغرافية متواضعة ، تتمثل فى النموذج المحفوظ فى متحف تورينو أيضًا. وتوضح هذه الخريطة –بصرف النظر عن مدى التشويه– خط سير =

المعرفة الجغرافية . ولكن المؤكد أن هناك نماذج متنوعة من الخرائط ، تصور استشعار الاجتهاد الجغرافى المصرى قيمة هذه الخرائط ، وتعبر عن ريادة فى استخدام الخريطة لبيان كاشف عن بعض المعرفة الجغرافية أحياناً ، وعن بعض الأغراض الأخرى أحياناً أخرى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم ، قد حقق انجازات مفيدة ، تستحق – بكل تأكيد – التقدير . وكيف لا تستحق – بالفعل – هذا التقدير ، وهى انجازات رائدة واضافات مجددة . وما من شك فى أن الدعم الحضارى العريق قد أيد الاجتهاد الجغرافى وظاهره ، وهو يحقق هذه الانجازات . وليس من قبيل الصدفة أن تكون هذه الانجازات لبنات سوية فى بنية الفكر الجغرافى وقاعدتها العريضة، وأن تحدد الاضافات معالم الطريق ، التى سارت فيه مسيرة الفكر الجغرافى القديم فى طريقها السوى .

* * *

الاجتهاد الجغرافى البابلى :

هذا اجتهاد آخر قديم ، بنى على حسن استخدام الحس الجغرافى . ولقد كان الاجتهاد – بالضرورة – وليداً شرعياً ، لكل العوامل الطبيعية والبشرية ، التى اشتركت فى صياغة الشخصية الحضارية ، التى عاشت فى أحضان السهول الفيضية من حول دجلة والفرات . وبصرف النظر عن جدوى العلاقات الايجابية البناءة ، بين الواقع الحضارى فى وادى النيل الأدنى ، والواقع الحضارى فى سهول الرافدين فى جانب ،

= حملة من حملات مصر على أرض الشام . وتتضمن هذه الخريطة المتواضعة بعض البيانات الجغرافية عن مصر والشام .

جـ- خريطة ارشاد من نوع غريب . وقد توخى رسم هذه الخريطة الغريبة قيادة أو توجيه الموتى فى طريقهم إلى الدار الآخرة .

راجع : ١- د. صبحى عبد الحكيم وماهر الليثى : علم الخرائط – الجزء الأول – القاهرة – مكتبة الأنجلو ١٩٦٦ .

٢- د. شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى – الجزء الأول – القاهرة – مكتبة الأنجلة ١٩٦٩ .

٣- Thomson, J.O. History of Ancient Geography, Cambridge. 1948

وبصرف النظر عن جدوى الاحتكاك الحضارى التى تأتى تأسيساً على هذه العلاقات فى جانب آخر ، ينبغى أن نستشعر كيف تفجر الحس الجغرافى باهتمام باحث عن الواقع الجغرافى فى سهول الرافدين ، وكيف حمل الاجتهاد البابلى أمانة ومسئولية هذا الاهتمام الباحث ، عن المعرفة الجغرافية . كما ينبغى أن نتبين أيضاً كيف سار الاجتهاد البابلى الجغرافى على نفس الدرب ، الذى سار فيه الاجتهاد الجغرافى المصرى ، وصولاً إلى هدفين.

ومن أجل الهدف الأول ، تطلع الاجتهاد الجغرافى البابلى - بكل الوعى - إلى الكون الفسيح ، وهو يعاين قبة السماء ويرصد أجرامها . وقد سعى هذا الاجتهاد - بكل تأكيد - إلى استشعار مكان الأرض ، فى هذا الكون الفسيح . كما تلمس الاحاطة بمكانة الأرض بين أجرام السماء. وقد أسفر هذا الاجتهاد - بالفعل - عن اسهام جيد مناسب فى البحث الجغرافى الفلكى . كما أسعف العمل الرياضى الذى عكف على صناعة التقويم وحساب الزمان .

ومن أجل الهدف الثانى ، تطلع الاجتهاد الجغرافى البابلى - بكل الفطنة - إلى الأرض والأقطار من حول سهول الرافدين . وقد سعى هذا الاجتهاد - بكل تأكيد - إلى استشعار قيمة الرحلة فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، وهو يتلمس كشف النقاب عن المجهول من الأرض وأحوال الناس فيها . وقد أسفر هذا الاجتهاد - بالفعل - عن اسهام جيد مناسب فى صناعة الجغرافية الوصفية ، وعن ارتياد مساحات من الأرض ومعايشة الناس فيها .

ولقد كان من شأن الاجتهاد الجغرافى البابلى، الذى انغمس فى بحث تحسس أبعاد الكون ، وفى تصور مكان الأرض ومكانتها فى هذا الكون ، أن يزج برؤيته فى أحضان التصور الأسطورى ، وأن يستغرق فى الوهم والخيال (١) . وصحيح أن هذا الاجتهاد قد توصل من خلال

---

(١) تذهب الأسطورة البابلية التى نسجها خيال الاجتهاد الجغرافى البابلى إلى تصور شكل الأرض على هيئة قفه مقلوبة تطفو على سطح المحيط ، كما تذكر أنها تتألف من سبع طبقات . ويوغل التصور الأسطورى إلى حد تصور مركز الكون كله عند منبع الفرات ، على منحدرات جبال طوروس .

التدبر والتفكير ، إلى أن الماء هو أصل كل شئ ، وأن قوة الخالق كانت من وراء بداية التكوين وصناعة الحياة والأحياء . ولكن الصحيح أيضاً أن تسلط الخيال والتصورات الأسطورية ، قد شوه حصاد وثمرات هذا الاجتهاد إلى حد يلفت النظر . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى البابلى قد تخبط أحياناً ، وهو يقفز من التفكير المنطقى السوى إلى التفكير الفج غير السوى . ومعناه أيضًا أن الحس الجغرافى الصادق كان بصيرة رشدت هذا الاجتهاد ، عندما أسفر عن التفكير المنطقى السوى فقط . أما التفكير الفج غير السوى فهو علامة على مدى تنكر هذا الاجتهاد فى بعض الأحيان ، للاستشعار الذى ينبض به الحس الجغرافى الصادق .

وبصرف النظر عن التردى فى هذه السوءة التى أغرقت الاجتهاد البابلى فى التصور الأسطورى الكاذب ، وينبغى أن نتصور كيف وجه هذا الاجتهاد صناعة التقويم ، وحساب الزمان فى الاتجاه الصحيح . وما من شك فى أن هذا الاجتهاد قد أجاد رصد الأجرام فى السماء ، وأحسن استخدام بعض الأجهزة الأولية ، التى أبدعها لحساب عمليات ومعاينة قبة السماء (١) . وقد تجرأ هذا الاجتهاد البابلى – بكل تأكيد – عندما عكف على استشعار العلاقة بين الأجرام فى السماء فى جانب ، وحظوظ الناس وأقدارهم فى جانب آخر .

هذا ، وقد رصد الاجتهاد البابلى الجغرافى حركة القمر وحركة الشمس واستشعر الحس الجغرافى ما تعنيه بالنسبة لحركة الزمان ومرور الوقت . واعتمد هذا الاجتهاد على حركة القمر فى حساب الزمان ، وتحديد طول الشهر فى هذا التقويم بما يتراوح بين ٢٩ ، ٣٠ يوماً . ثم أفلح هذا الاجتهاد فى ادراك الفرق الزمنى ، بين حساب التقويم القمرى ، وحساب التقويم الشمسى للزمان . ولقد أضاف عندئذ شهراً إلى السنة حسب التقويم القمرى ، لكى تصبح ١٣ شهراً ، وتحقق الحساب الأكثر انضباطاً لحركة الزمان .

---

(١) سجل المرصد الفلكى بعض الكواكب ، ومنها عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل . كما سجلت المعاينة ظاهرتى الخسوف والكسوف ، وتحدث عنهما من تعليق يحاول تفسيرهما .

ولم يتوقف الاجتهاد البابلى عند هذا الحد ، بل لقد قسم الشهر إلى أسابيع امعاناً فى ضبط حساب حركة الزمان . بل لقد قسم هذا الاجتهاد - بكل الوعى والفطنة - اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ، وقسم الساعة إلى ستين دقيقة ، وقسم الدقيقة إلى ستين ثانية . ومن شأن ذلك كله أن يصور كيف طوع الاجتهاد الجغرافى البابلى ثمرة من ثمراته تطويعاً ممتازاً لحساب حركة الزمان ، وهى مسألة جوهرية حضارياً . وهذا معناه أن هذا الاجتهاد قد أسعف البناء الحضارى ، لكى يسجل البابليون فضل الريادة فى حساب الزمان . بل ومعناه أيضاً أن هذا الاجتهاد الذى أفلح فى تصور العلاقة بين حركة القمر وحركة الشمس، ومبلغ عدم التوافق وعدم الانضباط بينهما ، قد أوصل التراث الحضارى العالمى إلى نقطة تحول هامة ، تحقق عندها التمييز بين التقويم القمرى ، والتقويم الشمسى .

وأضاف الاجتهاد البابلى إلى ذلك كله محاولة فجة لتفسير تعاقب الفصول على مدار السنة . كما رصد حركة انتقال الشمس ونزولها فى البروج (١) أو الكويكبات البرجية التى تتمثل فى اثنتى عشر برجًا . بمعنى أنه تصور نزول الشمس فى زيارة كل برج من هذه البروج لمدة ثلاثين يومًا . ويمعنى أنه تعرف على قاعدة الحساب لحركة الزمان ، التى بنى عليها التقويم الشمسى . وتولى عندئذ مظاهرة الابتاع الحضارى ، الذى عكف على صناعة السنة الشمسية .

أما الاجتهاد الجغرافى البابلى الذى انفتح على رؤية ومعاينة الأرض فى الأقطار من حول سهول الرافدين ، فقد انساق فى معية الرحلات من كل نوع وصولاً إلى هدفه . وكان من وراء الرحلات التى اصطحبت الاجتهاد الجغرافى البابلى فى صفوفها ، واقع حضارى متفتح يحفز ، ويدعو - بكل الالحاح - إلى الانفتاح على العالم من حوله ، وجنى

---

(١) يورد هذا البيتان من الشعر هذه البروج مرتبة حسبما تجئ فى حساب السنة على التقويم الشمسى وهذان البيتان هما :

حمل الثور جوزه السرطان ** ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدى ** نزح الدلو بركة الحيتان

ثمرات التعامل التجارى [1] مع الناس فى تلك الأقطار . وهذا معناه أن الرحلة سواء كانت برية أو بحرية ، قد أسعفت الاجتهاد الجغرافى ، وهو يوسع دائرة المعرفة الجغرافية . وفى نفس الوقت انتفعت الرحلة بثمرات هذا الاجتهاد ، وهو يبصر تحركاتها فى الغدو والرواح على الطريق ، أو وهو يرشد التعامل التجارى مع الناس فى الأقطار التى وصلت إليها [2] .

وحتى عندما خرجت الرحلات من أرض بابل فى خدمة العمل العسكرى ، لحساب الغزو عنوة ، أو لحساب ردع العدوان ، انساق الاجتهاد الجغرافى البابلى فى ركابها . ومن الجائز أن يستعين العمل العسكرى بالحس الجغرافى ، وحسن استشعاره خصائص الواقع الجغرافى فى الأرض ، لكيلا تنحاز إلى صف الغريم وتحارب ضده . ولكن من المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى الذى استشعر هذا الحس الجغرافى ، قد أطل – بكل تأكيد – على الأرض التى تشهد الغزو، أو مطاردة العدوان ، وانتفع بمعاينة الواقع الجغرافى فى أنحائها .

ومن خلال المعاينة للأرض والتعايش مع الناس ، ومن خلال الاستماع إلى الرواية عن المشاهدات فى الرحلة ، جمع الاجتهاد البابلى أوصال معرفته الجعرافية . وقد عكف هذا الاجتهاد – بكل تأكيد – على تسجيل حصاد معرفته الجغرافية فى الوثائق البابلية ، التى تحكى وتصور فى سرد وتوصيف جغرافى عام ، أبعاد هذه المعرفة فى الأقطار التى تعرف عليها من حول بابل . ويشهد هذا التسجيل على نجاح هذا الاجتهاد، وهو يطل على الأرض من حول بابل ، أو وهو يطلق عليها

---

(١) افتقار الحضارة البابلية إلى كثير من المواد الخام فى وطنها فى أحضان سهول الرافدين ، قد الزمهم بالبحث عن معين يعطى هذه المواد الخام . وهذا معناه أن الخروج فى رحلات قد بنى على ارادة الحصول على هذه المواد الخام من الأقطار المجاورة . ومعناه ايضاً أن التعامل التجارى الذى أسفرت عنه هذه الرحلات ، كان من قبيل الاستجابة لطلب الخام الذى يمثل ضرورة ملحة لحساب الحضارة البابلية ووجودها السوى .

(٢) لا غرابة فى أن نستشعر جدوى المصلحة أو المنفعة المتبادلة بين الاجتهاد التجارى ، والاجتهاد الجغرافى ، لحساب الواقع الحضارى فى دولة بابل

أسماء . ويحدد مكانها وموقعها الجغرافى الصحيح ، من حول أرض بابل (١) .

هذا ، ومن شأن السجلات والمدونات (٢) التى احتوت بعض جوانب التراث البابلى القديم ، أن تسجل قصصًا يصور بعض الرحلات التى خدمت التحرك الحربى ، أو فتحت باب التعامل التجارى مع جيران بابل. كما تسجل هذه المدونات أيضًا بيانات كثيرة تنبئ بحسن استخدام الحس الجغرافى ، وكيف أدت هذه الرحلات دوراً وظيفيًا فى الكشف الجغرافى . وهذا معناه أن الاجتهاد الحضارى الذى عكف على تسجيل التراث ،استشعر قيمة وجدوى الاجتهاد الجغرافى ، وهو يوسع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض والناس ، وبالتفاعل الحياتى فى كثير من الأقطار من حول بابل .

ومن الجائز أن يكشف التسجيل عن خلط شديد ، بين ما يحكيه القصص الأسطورى ، وهو يضخم الأبطال والشخصيات الأسطورية(٣) ، وما يحكيه الواقع عندما يجسد نمط أو أنماط الحياة فى الأقطار من حول بابل . ومن الجائز أن يشوه هذا الخلط المعرفة الجغرافية ، وأن يضلل الباحث عن الصحيح منها . ولكن الصحيح أن هذا التسجيل يجسد الانفعال وطابع الانبهار الذى تردى فيه الرحالة(٤)، وهم

---

(١) أطلقت بابل اسم عيلام على الأرض جنوبها ، واسم أكاد على الأرض فى شمالها ، واسم سوبارتو فى شرقها واسم أمورو على الأرض فى غربها .

(٢) تضم هذه السجلات ثمرات الاجتهاد الجغرافى ، التى تبصر السفر والرحلة من مكان إلى مكان آخر فى بعض الأحيان ، والتى ترشد الحكم والادارة وفرض النظام وسلطان الحكم فى بعض الأحيان الأخرى .

(٣) من أهم وأخطر الشخصيات الأسطورية جلجاميش . وقد أوردت التسجيلات الكثير بشأن تصوير بطولته وتجسيد قوته وتعظيم أقدامه الجسور فى رحلة طويلة فى أحضان شبه جزيرة العرب ، وعبور البحر قرب عدن إلى جزيرة سوقطرة . أما شخصية سميراميس فقد أبرزها التسجيل الأسطورى عندما صور كيف أنجزت هذه الشخصية الجسورة رحلات جريئة فى حوالى سنة ٦٨٠٠ قبل الميلاد ، وكيف قادت الانتصار البابلى فى أقطار كثيرة .

(٤) من أهم فريق المغامرين البابليين ، الذين سجلوا نشاط وتفتح الاجتهاد الجغرافى من خلال الرحلة فى مساحات من حول أرض بابل ، نذكر : =

يخوضون تجربة الرحلة ويغامرون - بكل الجسارة - وصولاً إلى أهداف ، أضيفت بقصد أحياناً ، ومن غير قصد أحياناً أخرى إلى حساب المعرفة الجغرافية . بل قد يبدو تسجيل الانفعال والانبهار أروع وأصدق، من تسجيل الحقائق التى تعبر عن الرؤية الجغرافية الصحيحة .

هذا ، ويبدو أن الرحلة سواء كانت برية تدب فى دروب وعرة على الأرض ، أو كانت بحرية تخاطر فى البحر المخيف ، قد أطلقت العنان للحس الجغرافى ، وهو يرقب ويلاحظ ويبصر مسيرة هذه الرحلة . بل لقد برهنت النتائج على أن هذا الحس الجغرافى ، قد فجر قدرات وطاقات الاجتهاد الجغرافى ، وشحذ التدبر والتفكير الجغرافى . وفى اعتقاد معظم الباحثين أن الواقع الحضارى قد نمى هذا الحس الجغرافى ، وأحسن توجيهه واستخدامه أو تسخيره لحساب الاستشعار الجغرافى المفيد (١) .

وفى نفس الوقت ، أدى الاجتهاد الجغرافى البابلى دوره – بكل صدق – وهو ينتج بعض الخرائط الجيدة (٢). وما من شك فى أنه قد اتخذ من هذه الخرائط وسيلة ، يصب فيها تعبيره وتصوراته عن جغرافية المكان . ومن الجائز أن ندرك كيف أسهم الاجتهاد فى الرصد

– أ– أسرحدون الذى طوف كثير فى أرجاء ميديا .
ب– نبوخذنصر الذى رحل فى اتجاه الغرب ، وطوف بالأرض وعايش الناس فيها.
جـ– سرجون الذى رحل فى البحر ، وأطل على كثير من البلاد التى حملته إليها الرحلة البحرية

(١) تحفل مدونات سرجون بتصوير شيق يصور أبعاد المخاطرة التى واجهها فى عرض البحر . وقد ذكر أنه خرج فى أكثر من رحلة بحرية طويلة . كما لجأ إلى أساليب الغزو وأحسن استثمار الانفتاح على شعوب الأقطار، التى أطل على سواحلها .

(٢) يضم التراث البابلى خرائط متعددة نقشت حفراً على ألواح من الطين . وهناك اعتقاد عام أن الأعمال المساحية فى بابل ، قد هيأت لأن تكون الخرائط معبرة عن الغرض ، الذى وضعت وجهزت من أجله . وترجع أقدم خرائط بابل (لوحة جاسور) إلى حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد وتصور هذه اللوحة أرض بابل ، وهى تلتئم من حول الجريان النهرى فى سهول الرافدين وقد سجل عليها الجهات الأصلية امعاناً فى التعبير عن مكان بابل وموقعها الجغرافى

الفلكي والرياضات ، فى حسن اخراج هذه الخرائط وسلامة ما تنبئ به ، أو تعبر عنه . ولكن الذى لا شك فيه أن حسن استخدام الحس الجغرافى فى التصور على المستوى الاقليمى لأرض بابل وما حولها ، قد أسعف الاجتهاد البابلى ، وأبرز نجاحه فى رسم هذه الخرائط واعدادها (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد حقق اجتهاد الجغرافى البابلى انجازات مفيدة ، تلفت النظر وتستحق - بكل تأكيد - التقدير . وكيف لا تستحق بالفعل هذا التقدير ، وهى اسهام صادق وخلاصة فكر ذكى ، فجره حس جغرافى يقظ . ولا نشك - بالطبع - فى قيمة الدعم الحضارى العريق ، الذى أيد هذا الاجتهاد الجغرافى البابلى وظاهره ، وهو ينكب على أداء دوره الوظيفى . وليس من قبيل الصدفة أن تكون هذه الانجازات لبنات سوية فى بنية الفكر الجغرافى القديم وقاعدتها العريضة . بل وليس من قبيل الصدفة أيضاً أن تحدد الاضافات البابلية التى أسفر عنها الاجتهاد الجغرافى معالم الطريق التى سارت فيه مسيرة الفكر الجغرافى القديم فى سبيلها السوى . ولكن المؤكد بالفعل أن هذا كله كان وليد الانجاز الحضارى ، فى حضن الاستقرار فى سهول الرافدين .

الاجتهاد الجغرافى الفينيقى :

وهذا اجتهاد قديم آخر فجره حسن جغرافى ، استشعر الحاجة إلى معرفة تكشف النقاب عن الأرض ، فى أوسع اطار من حول الوطن

---

(١) هناك خريطتان مهمتان فى اطار التراث الجغرافى البابلى . وينبغى تذكر كيف أنهما تعبران - بكل تأكيد - عن مهارة الأداء والاعداد ، وعن كفاءة فى تصوير بعض جوانب الواقع الجغرافى . وتمثل الخريطة الأولى وثيقة هامة على المستوى المحلى ، حيث سجلت الأقاليم وتوزيع المدن البابلية . أما الخريطة الثانية فهى خريطة بلورت وصورت فكرة الاجتهاد الجغرافى البابلى عن شكل العالم . ومن شأن هذه الخريطة أن تصور العالم على هيئة قرص مستدير ، يحيط به البحر المحيط . وفى هذه الخريطة التى تمثل قمة التفوق المرموق ، الذى وصل إليه الاجتهاد الجغرافى البابلى فى اعداد وتجهيز الخرائط ، وفى تصور شكل العالم ، يضع الرسم خارج قرص العالم المستدير سبع جزر لكى تمثل - فى اعتقادهم - المعابر إلى المحيط السماوى الفسيح ، الذى يطوق الأرض .

الفينيقى (١) . ولقد كان هذا الاجتهاد – من غير شك – وليداً شرعيًا ، لكل العوامل الطبيعية والعوامل الحضارية ، التى وجهت اهتمام الفينيقيين كله إلى ركوب البحر . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الفينيقى ، كان ربيب تجارة البحر والتعامل التجارى ، مع الأقطار التى تشغل الظهير المباشر فى حوض البحر المتوسط على الصعيد الأفريقى وعلى الصعيد الأوروبى (٢) . ومعناه أن اسهام الفينيقيين فى ارساء قواعد أولية لشكل مبكر من أشكال التجارة الدولية ، رافق اسهام الاجتهاد الجغرافى الفينيقى فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية .

وبصرف النظر عن روح البداوة (٣) التى حفزت حركة الفينيقيين

---

(١) الفينيقيون شعب سامى هاجر إلى موطنه ، واستوطن الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، الذى أطل منه على العالم ، ومن الجائز أن الفينيقيين قد أحسنوا استثمار العلاقة التى وضعتهم ، بين معين الحضارة البابلية فى العراق ، ومعين الحضارة الفرعونية فى مصر . ولكن المؤكد أنهم أخذوا بزمام حركة التجارة ، التى اتخذت من أرض الشام فى ظهير الوطن الفينيقى معبراً حيوياً للتعامل بين الشرق الغرب ، وقطفوا ثمرات هذه الحركة . كما شهد عرض البحر المتوسط النشاط التجارى الفينيقى ، الذى خاض المغامرة الجسورة ، وهو يخدم التجارة ويقوم بدور الوسيط على مستوى المعروف أنذاك من العالم . وأقدم الفينيقيين على التحول ، من الملاحة الساحلية المحدودة المدى والانطلاق إلى الملاحة فى أعالى البحار والمخاطرة فى البحر ليلاً ونهاراً ، يقوم دليلاً أو علامة على التفوق فى اداء المهمة التى حملوا مسئوليتها. بل هذا دليل بين ، كاشف عن اصرار على الأخذ بزمام الريادة فى الوساطة التجارية ، وعلى جنى ثمرات الانتفاع على الشعوب التى تلعب دور الوسيط فيما بينها .

(٢) من الجائز أن الاجتهاد التجارى الفينيقى قد خدم حركة التجارة بين كثير من الأقطار . ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الذى كفل التعامل التجارى البحرى قد تحمل مسئولية الاحتكاك الحضارى البناء ، على المدى الواسع بين شعوب الأقطار التى تعاملوا معها . ومع ذلك فإن الفينيقيين كانوا بعد ذلك كله أكثر الملاحين انطواء وحرصًا على اسرار تحركاتهم البحرية ، وتكتمًا لمعالم الطرق التى سلكوها فى عرض البحر . كما أنهم كانوا حريصين وقد ضنوا كثيراً بأسرار معرفتهم الجغرافية ، وخاصة ما يتعلق منها بالأقطار التى يحصلون منها على السلع والبضائع .

(٣) بداوة الفينيقيين من نوع فريد لأنها قذفت بهم إلى البحر، وحببت لهم عدم الاستقرار فى موطن معين. وعدم الاستقرار كان من وراء الانتقال والنزوح من موقع منتخب إلى موقع منتخب آخر، بكل الحرص، لحساب الحركة =

فى عرض البحر ووضعت الاطار العام لنمط حياتهم ، ينبغى أن نؤكد على هذه الظاهرة ، وكيف كانت الخبرات التى قوت ساعد النشاط الفينقى البحرى ، من وراء تنشيط الاجتهاد الجغرافى ، وزيادة معدلات انجازاته ، فى مجال توسيع دائرة الكشف الجغرافى ، وفى مجال توسيع دائرة التعامل التجارى البحرى ، فى وقت واحد . كما ينبغى أن نؤكد على هذه الظاهرة مرة أخرى وكيف أنها عندما الزمت النشاط الفينيقى بأكبر قدر من الانفتاح على العالم من حولها ، لكى يخدم أهدافها الاقتصادية ، حفزت الاجتهاد الجغرافى ودوره الوظيفى الذى يبصر ويرشد هذا الانفتاح .

ومن غير أدنى تجنى على الاجتهاد الجغرافى الفينيقى ، نذكر أن انصراف الفينيقيين انصرافاً كلياً إلى ركوب البحر وتجارة البحر ، قد صرف هذا الاجتهاد عن الاهتمام بالبحث الفلكى . وصحيح أنهم تطلعوا إلى قبة السماء ، وتمرسوا فى رصد الأجرام السماوية ، واتقنوا متابعة وجودها وانتشارها فى كبد السماء ، واسترشدوا بها ، لدى التحرك فى عرض البحر فى ساعات الليل المظلم . ولكن الصحيح أنهم لم يتركوا فى التراث علامة أو أثر أو مؤشر ينبئ باستخدام الحس الجغرافى استخداماً يعبر عن انطباعاتهم بشأن العلاقة بين الأرض والأجرام السماوية فى الكون الفسيح ، أو يصور اجتهادهم فى تقصى الحقائق عن العلاقة بين الأرض والكون (١) .

وهكذا اختصر الاجتهاد الجغرافى الفينيقى الطريق ، ولم ينكب

= على المدى الأوسع فى البحار وخدمة التجارة الدولية فى شكلها المبكر . وقد يفسر لنا ذلك كله ، كيف أنهم امتلكوا اكثر من موقع ممتاز للاستيطان فى انحاء متفرقة على سواحل البحر المتوسط . ومن الجائز أن نتبين مدى الثراء الذى تحقق لهم من خلال الوساطة التجارية بين شعوب كثيرة . ولكن الذى يمكن أن نؤكده هو انشغالهم انشغالاً صرفهم عن صناعة حضارة مادية متميزة . وهذا معناه أن الرحلة التى قذفت بهم من بحر إلى بحر ، ومن ميناء إلى ميناء آخر ، قد فرضت عليهم الاستيطان المتشتت ، وحرمتهم فى نفس الوقت من صنع واستثمار الاحتكاك الحضارى لتطوير وتنمية الحضارة .

(١) د. شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى - جـ١ - القاهرة – مكتبة الأنجلو صفحة ١٠٧ .

على تدبر رؤيته أو معاينته لقبة السماء . بل لقد ثبت أن الفينيقيين قد تخففوا من بذل أى اجتهاد بناء بشأن وضع تقويم منضبط لحساب الزمن ، وحركة مرور الزمن .وفى اعتقاد بعض الباحثين – وهو مقبول – أن الفينيقيين قد انتفعوا بالتقويم الذى أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى الفلكى البابلى والاجتهاد الجغرافى الفلكى المصرى القديم . وربما كفاهم ذلك ولم يجدوا حاجة للتدبر والتفكير فى صناعة تقويم خاص بهم . وفى اعتقاد فريق آخر من الباحثين – وهو مقبول أيضاً – أن الفينيقيين عاشوا التشتت وعدم الاستقرار وقد شغلتهم تجارة البحر ومخاطر الركوب فى عرض البحر عن تدبر وتفكير بناء يصنع حضارة خاصة بهم . وربما ملك البحر بأهواله ، زمام تفكيرهم ، ولم يجدوا مجالاً للتدبر والتفكير فى ابداع فن أو صياغة علم (١).

وبهذا المنطق ، ينبغى أن ندرك كيف اتجه الاجتهاد الجغرافى الفينيقى اتجاهاً كليًا إلى أداء مهمة الكشف الجغرافى ، وتوسيع دائرة المعرفة بكل قطر أطلت عليه سفنهم ، التى لم تكف عن الحركة فى البحر. كما ينبغى أن نفطن إلى أن الرحلة البحرية الهادفة كانت الحافز الذى حفز همة هذا الاجتهاد ، وهى تتلمس ثمراته التى رشدت التعامل التجارى وبصرت الوساطة التجارية بين الشعوب والأقطار . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الفينيقى قد انتفع بالرحلة البحرية لحساب الرحلة البحرية وأهدافها الاقتصادية . كما ينبغى أن نفطن أيضاً إلى أن الاجتهاد التجارى الفينيقى الذى تولى مهمة تأسيس قواعد الاستيطان فى مواقع منتحبة على ساحل البحر ، وتشبث بها واستغل البحر واستدبر اليابس وانصرف عنه ، قد حمل الاجتهاد الجغرافى الفينيقى العامل فى معيته، على الانتفاح على الظهير المباشر بحساب طلباً للمعرفة الجغرافية ، التى تؤمن الوجود الفينيقى فى قواعده وحركة التجارة التى تستثمر مواقع هذه القواعد الاستيطانية على أوسع مدى . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الفينيقى قد انتفع بقواعد الاستيطان الفينيقى المتشتت ، لحساب هذا الاستيطان ، وكل أهدافه الاقتصادية .

---

(١) ربما تعمد الفينيقيون التكتم وعدم الاعلان عن معرفتهم الجغرافية ، لحماية الحق فى احتكار التجارة ، وحرمان الآخرين من اقتحام مجال التجارة الدولية .

من غير أدنى تجنى على الاجتهاد الاقتصادى الفينيقى ، نذكر أنه قد جعل من الاجتهاد الجغرافى اجتهاداً ملتزماً بشكل يلفت النظر . وصحيح أن الاجتهاد الجغرافى قد انتفع بالرحلة البحرية التى سخرها الاجتهاد الاقتصادى ، لحساب أهدافه اقتصادياً . ولكن الصحيح أن هذا الاجتهاد الجغرافى فى معية أو صحبة الاجتهاد الاقتصادى قد امتثل وأذعن وركز على حسن استخدام الحس الجغرافى ، وعلى استنفار التدبر والتفكير لحساب الاجتهاد الاقتصادى أولاً وأخيراً . بمعنى أن ثمرات هذا الاجتهاد الجغرافى التى جمعها وحققها ، وهو فى صحبة الرحلات البحرية الفينيقية ، كانت وليدة ارادتها من ناحية ، وعينها التى تبصر بها ، لكى تؤدى دورها الوظيفى من ناحية أخرى . وهذا بحق ما نعنيه بالالتزام الكامل الذى وضع الاجتهاد الجغرافى فى خدمة الاجتهاد الاقتصادى الفينيقى (١) .

وعلى صعيد الشرق ، خرجت رحلات الفينيقيين ، التى بدأت من البحر الأحمر لأداء دورها الوظيفى . ولقد انطلقت هذه الرحلات البحرية انطلاقاً حراً لكى تجول فى المحيط الهندى ، وتخدم التعامل الاقتصادى . وقد أفلحت هذه الرحلات أن تدرك أطرافاً من ساحل شرق أفريقية ، بقدر ما أفلحت فى الوصول إلى الهند . وهناك من يبالغ أو يهول، وهو يصور كيف تمادى نشاط بحريتهم الاقتصادية التجارية إلى سومطرة وشانتنج فى سنة ٦٨٠ قبل الميلاد (٢) . وتصف هذه المبالغات

---

(١) Cary, M. & Warmington, E.H. - The Ancient Explorers (Poelician Book) , London, 1929, P. 76 .

(٢) اختلف الباحثون فيما بينهم كثيراً لدى مناقشة جدية الاجتهاد الفينيقى فى المحيط الهندى . ويتصور فريق منهم أن هذا النشاط البحرى كان نشاطاً عربياً خالصاً . ويتصور فريق آخر أن الفينيقيين كانوا شركاء فى هذا النشاط البحرى . وقد تركوا بصمات الاستيطان فى قواعد تجارية لحتوت وجودهم ودعمت ملاحتهم . ولكى نتجنب هذا الاختلاف ونقضى فيه برأى ، نذكر أن الفينيقيين ، هم من أصول عربية سامية . وأن الوجود الفينيقى فى البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى ، هو جزء من هيمنة النشاط العربى، الذى صرف اهتمامه وتولى أمر الوساطة التجارية متفرداً على مدى طويل فى البحار الجنوبية

وصفاً شيقاً ، فتصور كيف أسس الاجتهاد البحرى الفينيقى مستعمرات استيطانية فى أكثر من موقع منتخب ، وكيف امتد نشاط الاجتهاد الجغرافى الفينيقى وغطى برؤيته مساحات كبيرة ورشد التعامل التجارى العربى الفينيقى ، فى أنحاء جنوب وجنوب شرق آسيا .

وسواء تمثل هذا الانجاز العربى الفينيقى العظيم فى المحيط الهندى ، فى رحلات بحرية قصيرة المدى ، أو رحلات بحرية ساحلية تقفز من موقع إلى موقع آخر ، أو فى رحلات طويلة وملاحة غزت عرض البحر وتحملت مخاطرها ، فقد أسلم الاجتهاد التجارى ، زمام المعرفة الجغرافية بالأقطار فى حوض هذا المحيط – بكل تأكيد – للاجتهاد الجغرافى الفينيقى (١) . بل ولقد حافظ ذلك الاجتهاد على ذلك الزمام ، بالاشتراك مع نظرائهم من جنوب جزيرة العرب لبعض الوقت ، ولم يفرطوا فيه ، وأدوا دورهم الوظيفى بأمانة وجلد . كما استطاع هذا الاجتهاد الموفق أن يحفظ سر حركة الملاحة فى المحيط الهندى ، ويتكتم عليه ولم يكشف عنه إلى الاجتهاد البحرى اليونانى ، الذى ظهر على مسرح الملاحة فى البحر الأحمر ، وتطلع بعد الاسكندر إلى ارتياد البحار الجنوبية .

وعلى صعيد الغرب ، خرجت رحلات الفينيقيين (٢) ، إلى عرض

---

(١) لا نملك الوسيلة أو الحيلة لاستشعار الخيط الرفيع الفاصل بين الاجتهاد الفينيقى البحرى والاجتهاد العربى البحرى فى البحار الجنوبية . وربما اشتركا معاً بروح الفريق التى صنعتها أصالة الانتماء فى أداء دورها الوظيفى الصعب فى عرض البحر .

(٢) تعتبر رحلة همليكو التى انطلقت من قرطاجنة فى عام ٥٠٠ قبل الميلاد، فى عرض البحر أهم مغامرة بحرية فينيقية جسورة ، تقتحم المحيط وتبحر فى المحيط بحذاء ساحل غرب أوروبا . وقد هيأ نجاح أو توفق هذا التحرك البحرى المغامرة فرصة حصول الفينيقيين على معدن القصدير الذى قيل أنه مستخلص من موارد مستخدمة فى الجزر البريطانية . ويبدو أن الاجتهاد الفينيقى البحرى، قد مارس أسلوب وجوده واستيطانه وأسس مراكز وقواعد استيطان فى مواقع منتخبة ، واتخذ منها نقط أمن تؤمن الرحلات البحرية الوافدة ، وتكفل حقهم فى احتكار تجارة وتسويق بعض السلع ومن بينها العنبر . وفى اعتقاد بعض الباحثين الذين رشدتهم آثار وبصمات الوجود الفينيقى ، أن هذا الاجتهاد قد –

البحر المتوسط ، وتقدمت - بكل الثقة - من الشرق إلى الغرب ، وأدت دورها الوظيفى ، ووسعت دائرة التعامل التجارى مع كثير من الأقوام . ولقد انطلقت هذه الرحلات البحرية انطلاقًا مغامراً وجسوراً من بعد اجتياز مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق) فى المحيط المجهول ، لكى تحقق أهدافها الاقتصادية . ومن الجائز أن التزمت المغامرات الجسورة بالملاحة الساحلة مع ساحل أوروبا الغربية ، فى اتجاه الشمال ، وتقدمت بقدر كبير من التأنى والثقة . ومن الجائز أيضاً أن التزمت المغامرات الجسورة ، بالملاحة الساحلية أيضاً مع ساحل غرب أفريقية (١) ، لكى تحقق أهدافها الاقتصادية مرة أخرى . ولكن المؤكد أن هذه المغامرات الفينيقية الجسورة قد تهيبت عرض البحر فى المحيط وتجنبت التوغل فيه والتصدى للمجهول فى ظلماته . وهذا معناه - بأى مقياس - أن الاجتهاد التجارى البحرى الفنيقى النشيط ، قد حمل فى معيته الاجتهاد الجغرافى وحمله مسئولية استثمار الانفتاح على مساحات جديدة . ومعناه أيضًا - بأى مقياس - أن الاجتهاد الجغرافى قد بصر ورشد اختيار مواقع الاستيطان الفينيقى ، بقدر ما بصر ورشد حركة التعامل التجارى مع الناس ، فى ظهير المساحات التى احتوت مواقع الاستيطان .

وهكذا واصل الاجتهاد التجارى البرى الفينيقى انجاز مهمته فى البحر المحيط ، تدعمه روح المغامرة وترشده خبرات الاجتهاد الجغرافى.

- بلغ حد الاتصال والتعامل مع الناس فى أقطار بحر بلطيق ، فى شمال غرب أوربا .

(١) في رأى بعض الكتاب ان بعض الملاحين من غير الفينيقيين قد اقتحموا المحيط الأطلنطى ، وساروا فى ملاحة ساحلية بحذاء ساحل أفريقية . ومع ذلك هذا لا ينفى الاجتهاد التجارى البحرى الفينيقى بداية من سنة ٥٠٠ قبل الميلاد، ولا يسقط عنهم أمانة الكشف الجغرافى عن هذا الساحل . وتعتبر رحلة هانو انجاز مفيد ومثير . وتسجل هذه الرحلة صورة فذة من صور الاجتهاد التجارى البحرى الفينيقى . ذلك أنها تسجل رؤية هانو وانطباعاته عن الأقطار . التى تعامل مع أهلها . ويصرف النظر عن تحامل بعض الباحثين على هانو، وانكار اجتهاده واصرارهم على انه لم يبتعد جنوبياً فى مقابل الساحل الأفريقى لأبعد من رأس نون فى المغرب ينبغى أن نذكر له كيف صور . ما يمكن ان يمثل تقدماً حثيثاً بحذاء الساحل إلى حد السنغال على أقل تقدير

وهناك اعتقاد يصور كيف تقدم الاجتهاد الفينيقى المغامر بحراً فى طواف مباشر حول اليابس الأفريقى تقدماً ناجحاً ، بلغ إلى حد التعامل التجارى مع العاملين فى حقل التجارة البحرية فى حوض المحيط الهندى(١) . بل لقد أقدم هذا الاجتهاد الفينيقى التجارى النشيط إلى التوغل بداية من بعض مواقع استيطانهم المنتخبة فى بعض أنحاء واسعة من أرض الظهير الأفريقى .ويثنى هذا التصور على مهارة التوغل السلمى وعلى مهارة التعامل التجارى دون اثارة أو تخويف أو ازعاج الأفريقيين البدائيين فيما وراء الصحراء الكبرى جنوباً .

ومن غير أى تجنى على الاجتهاد التجارى البحرى الفينيقى ، ومن غير أى تنديد بالاجتهاد الجغرافى ، الذى سار فى ركابه وأمن مسيرته وتعامله واستيطانه ، ينبغى أن ننكر على الفينيقيين انطوائهم على أسرارهم ، وأعراضهم عن أى تسجيل أو تدوين يصور أبعاد انفتاحهم على العالم . بمعنى أنهم أحجموا بالفعل عن تسجيل معرفتهم الجغرافية تسجيلاً كاشفاً عن الأقطار التى تعاملوا معها ، أو عن مراكز الاستيطان التى احتوتهم . بل لقد امتد هذا الاحجام إلى حد عدم رسم الخرائط التى تحدد مسارات رحلاتهم البحرية ، وتوضح مدى تحركاتهم فى خدمة أهدافهم الاقتصادية (٢) .

وهذا الاحجام الذى يمثل كل معنى الانطواء على الذات ، لا يجب أن يسقط عن الاجتهاد الجغرافى الفينيقى الملتزم حسن استخدام الحس الجغرافى، وتطويع التدبر والتفكير الجغرافى لحساب الرحلة البرية، والتعامل التجارى الفينيقى مع كثير من الأقطار . ولعله انطواء من قبيل تكتم الأسرار فى مجال المنافسات ، بينهم وبين غيرهم من رواد البحر والتعامل التجارى . وربما اتخذوا من الانطواء سبيلاً لتأمين مصالحهم

---

(١) فى كتابات التراث فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ما ينبئ بهذا الطواف حول أفريقية ومن الجائز انه كان حيلة الاجتهاد التجارى البحرى الفينيقى لكى يتجنب مواجهة النشاط البحرى اليونانى الذى تصاعد فى حماية الوجود البطلمى فى مصر فى البحر الأحمر

(٢) Skes P A History of Explorations London 1949 P G

وحرمان أى منافسة من استثمار معرفتهم الجغرافية ،ومشاركتهم فى ارزاقهم التى يكفلها التعامل التجارى مع كثير من الأقطار .

ومهما يكن من أمر ، فقد أنجز الاجتهاد الجغرافى الفينيقى انجازاً مفيداً ، عندما وسع دائرة المعرفة الجغرافية ، وطوع هذه المعرفة لحساب الاجتهاد التجارى البحرى . ومن شأن هذا الانجاز أن يلفت النظر ويستحق التقدير . وكيف لا يستحق هذا التقدير وهو خلاصة فكر ذكى فجره حس جغرافى نشيط وصحيح أنهم حرموا مسيرة الفكر الجغرافى من خلاصة هذا الانجاز . ولكن الصحيح أيضاً أنه قد حفز الاجتهاد الجغرافى ، لكى يخوض تجربة الملاحة فى عرض البحر، وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية .

الاجتهاد الجغرافى الفارسى :

وهذا اجتهاد قديم آخر ، فجره حس جغرافى ، استشعر الحاجة إلى معرفة جغرافية ، تدعم التفوق الفارسى حضارياً وعسكرياً . ولقد كان هذا الاجتهاد – بحق – وليد الفكر والتدبر الذى شحذه الابداع الحضارى فى فارس ، فى حوالى القرن السادس قبل الميلاد . ويبدو أن هذا الاجتهاد الجغرافى الذى أسهم فى تحديد ملامح الشخصية الفارسية ، قد كفله الواقع السياسى ، الذى هيأ للفرس بلوغ ذروة التفوق والمجد ، وظاهر نشاطه فى الداخل والخارج .

ولقد أتاح التوسع الفارسى الامبراطورى ، على الصعيدين الآسيوى والأفريقى ، الحد الأقصى من استثمار الاحتكاك الحضارى ، وما بنى عليه من أخذ وعطاء . كما أتاح هذا التوسع فرصاً ممتازة ، لكى يطلع الاجتهاد الجغرافى الفارسى بأداء دوره الوظيفى أداء سوياً . وما من شك فى أن هذا الأداء قد أثرى الرصيد الذى جمع أوصاله الاجتهاد الجغرافى، سواء كان الاجتهاد الجغرافى من أجل الرصد الفلكى وتصور مكان ومكانة الأرض فى الكون ، أو كان هذا الاجتهاد من أجل توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالأقطار على صعيد الأرض . من حول فارس .

وفى مجال الاجتهاد الجغرافى الفلكى ، هناك أكثر من دليل على تبنى الاجتهاد مسألة الرصد واستطلاع الأجرام وانتشارها فى قبة

السماء . بل وهناك أكثر من مؤشر يؤكد على تكثيف هذا الاجتهاد، الذى انكب على صياغة رؤيته الموضوعية الكاشفة عن مكان الأرض فى الكون الفسيح . ومن الجائز أن نتبين كيف أسفر هذا الاجتهاد الجغرافى الفلكى عن حساب حركة الزمان وصناعة تقويم شمسى (١) ، ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد قد فشل إلى حد أنه لم يسفر عن صياغة أى تصور معقول يعالج مكان أو مكانة الأرض فى الكون .

وفى اعتقاد بعض الجغرافيين المنصفين ، أن العلاقة بين الفرس والمصريين، والتى فرضتها دواعى وجود الحكم الفارسى وانتصاره فى مصر ، قد أطلعتهم على خلاصة الرصيد الذى أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى الفلكى المصرى . ويبدو أن الاجتهاد الفارسى لم يجد أى فرصة لكى يبدع أو يبتكر اضافة مفيدة ، تضيف الجديد إلى ما تعلموه واقتبسوه من الاجتهاد الجغرافى الفلكى المصرى . وهذا معناه أن نفتقد فى رصيد الاجتهاد الجغرافى الفلكى الفارسى التجديد . وحسب هذا الاجتهاد أن نذكر كيف انكب على صناعة الأزياج (٢) أكثر من أى شئ أخر ، وكيف عجز عن تطويع المهارة فى الرصد الفلكى وحصادها ، لابداع اضافة عن وضع الأرض فى الكون .

وفى مجال الاجتهاد الجغرافى الباحث من المعرفة الجغرافية ، هناك أكثر من دليل يدلل على النشاط الذى انكب - بكل الالحاح - على توسيع دائرة المعرفة بالأرض فى الأقطار من حول فارس . ويحتوى سجل التراث العريق التى تعتز به فارس ، على بيان صريح عن هذا

---

(١) هناك اعتقاد أن الفرس قد أخذوا عن المصريين عملية صناعة التقويم . بمعنى أنهم لم يجدوا حاجة تدعوهم إلى التفرغ إلى حساب الزمان . ومعناه أيضاً أنهم قد جعلوا من تقويمهم تقويماً شمسياً .

(٢) صناعة الأزياج التى تمثل ضرباً من ضروب الحسابات الفلكية التى تتلمس العلاقة بين الانسان وحظه ومصيره فى جانب ، وحركة الأجرام السماوية فى جانب أخر، هى علامة من العلامات التى يحتويها تراث الفرس . وما من شك أنها تنبئ بقدر كبير من التقدم فى مسألة الرصد الفلكى ، ومتابعة حركة الأجرام السماوية . وقد تصور مدى شغف الفرس باستطلاع المجهول من حياة الانسان ، ومدى ارتباط مصيره بحركة أجرام السماء .

النشاط ، وعن جدوى هذا النشاط ، الذى تحمل مسئولية ارتياد الأقطار، وتسجيل رؤيته الجغرافية لها . وهذا معناه أن الرحلة كانت حيلة هذا الاجتهاد ، لكى يتجول ويجوس فى أقطار كثيرة من حول فارس . ومعناه أيضاً أن هذا الاجتهاد قد أصغى إلى همس الحس الجغرافى ، وهو يفكر أو وهو يسجل انطباعاته عن رؤيته الجغرافية أثناء الرحلة .

هذا ومن الجائز أن نتصور كيف خدم التوسع الامبراطورى الفارسى وشن الحرب (١) وغزو الأقطار بالقوة ، والانتصار وحيازة الأرض على الصعيدين الآسيوى والأفريقى عمليات الكشف الجغرافى . بل ومن الجائز أن السلطة الفارسية المنتصرة قد أمنت وظاهرت الرحلات ، التى خرجت تدب فى بعض أنحاء الأرض ، وتخدم أغراض الاجتهاد الجغرافى الفارسى . ولكن الذى لا شك فيه أن الاجتهاد الجغرافى الناجح قد أحسن استخدام الانفتاح على أقطار العالم من حول فارس ، وحقق الرؤية الجغرافية التى بصرت ورشدت وقادت الغزو الفارسى ، وأسعفت أهداف التوسع الامبراطورى الفارسى ، التى مكن لسلطته فى الأرض على نطاق واسع .

هكذا كانت الرحلة مطية الاجتهاد الجغرافى الفارسى ، وكان الدعم الحكومى الذى أمنها وحفزها لكى تتجول فى أنحاء كثيرة من الأرض . ولقد توج بعض ملوك الفرس هذا الاجتهاد الجغرافى وكرمه ، وأسبغ عليه المنح والعطاء . بل لقد تصدى أكثر من ملك من ملوك الفرس لتمويل الرحلة أو لقيادة مسيرتها بنفسه (٢) . وكان الهدف مزيداً من

---

(١) شهد القرن السادس قبل الميلاد ، تصاعد الابداع الحضارى الفارسى ، الذى كفل الغزو والتوسع العسكرى الذى قامت به القوة الفارسية الفتية ، لكى تبلغ الامبراطورية الفارسية أقصى اتساع لها . ولقد سخرت هذه الامبراطورية كل الاجتهادات ، الحضارية والعسكرية والاقتصادية والجغرافية فى تأييد مكانتها ، حتى أصبحت فى الموقع القلب من آسيا وأفريقية وأوروبا ، القوة الأعظم فى مجتمع الدول آنذاك

(٢) سجل قمبيز دور الامبراطور الرائد . وهو يتبنى الرحلة ويتولى تمويلها وقيادتها بنفسه وصولاً إلى الهدف ومن الجائز أن تصور قمبيز قيمة الرحلة، وكيف أنها تفتح الطريق وترشد الغزو . لكى يواصل التوسع الامبراطورى —

الانفتاح على الأرض والناس ، ومزيداً من المعرفة الجغرافية بالأقطار التى وطئتها الرحلة الفارسية ، وجاست فى أنحائها . وما من شك فى أن كل رحلة قد عكفت على تسجيل الحصاد الكاشف ، عن مدى توفيقها فى استطلاع الأرض ومعاينتها ، وفى معرفة الناس وأنماط حياتهم فى تلك الأنحاء . ويستوى فى ذلك أن تكون الرحلة البرية ، تضرب فى دروب الأرض ، أو أن تكون بحرية ، وهى تخاطر فى عرض البحر .

وبهذا المنطق ، ينبغى أن نتصور كيف كانت شهية الاجتهاد الجغرافى الفارسى منفتحة ، وكيف كان الواقع الحضارى والواقع السياسى ظهيراً لهذه الشهية المتفتحة . وما من شك فى أن حسن استخدام الحس الجغرافى لاستيعاب مشاهدات الرحلة ، قد جاوب – بكل تأكيد – تفتح هذه الشهية إلى أبعد الحدود . وربما حفز هذا الحس الجغرافى الاجتهاد لكي يتدبر ويفكر مليًا ، وهو يعاين الأرض ويعايش الناس فى اقطار التوسع الامبراطورى ، أو فى الأقطار التى دخلت فى شكل من أشكال التعامل التجارى والحضارى ، مع الوجود الامبراطورى الفارسى ، طلباً لثمرات هذا التدبر والتفكير .

= الفارسى تمدده وانتشاره وانتصاره . وكانت الرحلة الفريدة التى قادها قمبيز عام ٥٢٥ قبل الميلاد . ولقد نظم هذه الرحلة مع لفيف شجاع ومغامر من رجاله المخلصين ، بعد أن انتصر وأفلح فى ضم مصر إلى بنية الامبراطورية الفارسية . وهناك اعتقاد أن قمبير بكل زهو الانتصار قد تطلع إلى وصول هذه الرحلة إلى ارض جديدة ربما سمع أنها تزخر بمناجم الذهب فى أثيوبيا ، جنوب نطاق الصحراء الأفريقية الكبرى . وكان على هذه الرحلة أن تغامر مغامرة جسورة ، لكى تعبر الصحراء وتجتاز المشقة وصولاً إلى الهدف . ولا ندرى – بالطبع – إن كانت الرواية التى استمع إليها عن مناجم الذهب قد ضللته ، أو أن كانت جهالته وعدم استخدام الحس الجغرافى قد خذلته . بل ولا ندرى بالطبع كيف اختار طريق الرحلة ،وكيف تحسس الدرب فى الصحراء الموحشة . ولكن الذى نعرفه بالضبط أن قمبيز ذهب مع رجاله وغابت أخباره وضاع وضاعوا معه ، واحتوتهم ظلمة الصحراء وجهل الناس بها. وهذا معناه أنها رحلة خاسرة لم تسفر عن نتيجة ايجابية . ومعناه أن الخسارة مبنية على عدم الانتفاع بالحس الجغرافى . ومع ذلك تستطيع هذه الرحلة الخاسرة أن تنبئ بمدى الاهتمام الفارسى بالرحلة والعجلة فى القيام بها، لكى تضرب فى أعماق المجهول من الأرض استجابة لطلب المعرفة وخدمة الأهداف لحساب الانسان .

ولكى نتبين دور الرحلة التى خدمت انفتاح الاجتهاد الجغرافى ، نذكر تلك الرحلة التى انطلقت على الصعيد الآسيوى فى عام ٥١٠ قبل الميلاد . ولقد كان داراً من وراء هذه الرحلة البحرية ، فهو الذى مولها وحدد أهدافها . ولقد اختار لقيادتها سكاى لاكس الأغريقى الأصل ، وضم تحت امرته لفيفاً مغامراً من الرجال الأشداء (١) الذين تمرسوا فى ركوب البحر ، ومواجهة الخطر فى أحضانه . وتوقع داراً أن تكشف هذه الرحلة البحرية الشاقة النقاب عن مصب نهر السند ، وأن تشبع تطلعه إلى ثمرة الاجتهاد الجغرافى ، فى التعرف على مساحات الأرض والناس فى هذه الأرض من حول الامبراطورية الفارسية .

وبدأت هذه الرحلة من بلدة اتوك ، وسارت مع مجرى نهر السند إلى المصب . ثم تحولت إلى البحر والتزمت بالملاحة الهادئة وهى تتحرك بحذاء الساحل الآسيوى فى اتجاه الغرب . ولقد طافت هذه الرحلة البحرية حول جنوب جزيرة العرب ، وتسللت من باب المندب إلى البحر الأحمر ، ووصلت إلى أرسينو المصرية (٢) على رأس خليج السويس . وتمام هذه الرحلة البحرية التى استغرقت حوالى ثلاثين شهراً ، قد أسفر بالفعل عن نتائج محدودة لحساب الاجتهاد الجغرافى الفارسى(٣).

وقصة هذه الرحلة فى التراث الفارسى تحكيها أسطورة وتسجل نتائجها . ومن الطبيعى أن يردد سياق هذه القصة الاسطورية ، التوصيف الذى يضم حجم هذه المغامرة الجسورة ، ويضيف إليها

---

(١) كان رفقاء سكاى لاكس من الأغريق الأيونين ، الذين خدموا مرتزقة فى عمليات التجارة البحرية .

(٢) ميناء قديمة قامت فى موضع ميناء السويس الحالية .

(٣) صحيح أن هذه الرحلة ، لم تسفر عن تحديد حقيقى لمجرى نهر السند ومصبه . وصحيح أنها لم تفلح فى الاتجاه الصحيح ، لكى تكشف النقاب عن المجهول من الأرض شرق شبه جزيرة الهند . وصحيح أنها تخبطت فى عرض التوصيف الجغرافى مع سياق القصص الاسطورى . ولكن الصحيح أيضاً أنها اشبعت نهم الفرس للمعرفة عن جزيرة العرب ، التى كانت مجهولة ومغلقة عليهم من ناحية ، وللمعرفة عن البحر الأحمر وحركة الملاحة النشيطة فيه من ناحية أخرى .

المبالغات التي تجسد المخاطرة . ولكن من المؤكد أن هناك توصف جغرافي للأرض والناس في بعض أنحاء المساحات ، التي جاس خلالها سكاي لاكس وصحبه ، وارد في سياق الرواية الاسطورية . ويبدو أن دارا قد اقتنع بالانجاز الجيد ، الذي أسفرت عنه هذه الرحلة البحرية ، اقتناعًا كبيراً . بل لقد اقبل – بكل الاهتمام – على حسن استثمار هذا الانجاز الجيد الجغرافي ، لحساب أو لمصلحة التفوق الامبراطوري الفارسي (١) ، وهو يدعم مكانة فارس المرموقة سياسيًا ، ولحساب أو لمصلحة الاجتهاد الامبراطوري الفارسي ، وهو يحاول أن يقبض على زمام التجارة الدولية(٢) .

ومن النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد ، أخرج اكزركس فريقاً من المغامرين في رحلة مهمة وخطيرة . وقد تولى ساتاسبس (٣)

---

(١) برهن دارا بشكل عملي على دعم اجتهاد فارسي ، حاول محاولة جادة لاستثمار نتائج هذه الرحلة البحرية المثيرة . وتمثل ذلك في حفر قناة ، تصل فيما بين البحر الأحمر والنيل . وقد تطلع دارا بالضرورة إلى جدوى هذه القناة الاصطناعية ، في الامساك بزمام حركة التجارة التي تعبر أرض مصر ، بين اقطار حوض المحيط الهندي ، واقطار حوض البحر المتوسط . ومن ثم ينبغي أن نذكر أن محاولة حفر القناة قد انساقت إلى الفشل . وقد توقف العمل فيها خشية الخطر الذي استشعر الفنيون عندما توهموا الاختلاف ، بين مناسيب الجريان النيلي ، ومناسيب الماء في خليج السويس . ومن شأن هذا الاستشعار الخاطئ ، أن يصور كيف أخفق الحس الجغرافي وخاب أمل الاجتهاد الجغرافي الفارسي ، وعجز عن ترشيد هذا العمل الهندسي . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافي الفارسي ، لم يكن على المستوى المناسب عندما خيبت آمال دارا والفرس في تصعيد كفاءة سيطرتهم على حركة تجارة المرور بين الشرق والغرب .

(٢) لا غرابة في أن يكون الوجود الفارسي الحاكم في مصر وسيطرته ، من وراء استشعار جدوى حركة تجارة المرور ، التي تعبر أرض مصر بين الشرق والغرب بل ولا غرابة في أن يصبو الفرس إلى جني واستثمار ثمرة هذه الحركة . بالشكل الذي يدعم مكانة الامبراطورية اقتصادياً ، وهي تحتل مكانة القوة السياسية الأعظم في مجتمع الدول أنذاك .

(٣) هو واحد من أبناء عم اكزركس الذي يكرهه ويتوجس منه خوفًا . وقيل أن تسليم قيادة الرحلة البحرية له كان من قبيل الأبعاد وانزال العقاب به بل لقد صور البعض كيف تمنى اكزركس أن يخرج ساتاسبس مع الرحلة . لكي يواجه مصيره فلا يعود وليس ثمة دليل يعبر عن أحاسيس اكزركس =

توجيه دورها الوظيفى وتمويلها . وقد استهدفت هذه الرحلة البحرية الطواف حول أفريقية ، بداية من جبل طارق لكى تصل إلى البحر الأحمر فى خاتمة المطاف . وهذا معناه أنها اتجهت في اتجاه معاكس للرحلة البحرية العتيقة ، التى تحمل نخاو مسئولية قيادتها من أجل الطواف حول أفريقية من الشرق إلى الغرب . وربما استمرت هذه الرحلة نفس الاتجاه الذى سلكته رحلات فينيقية من قبل ، بحذاء ساحل أفريقية الغربى .

هذا وقد خرجت هذه الرحلة البحرية فى سفينة من مصر . وضمت هذه السفينة الفريق المغامر الجسور من الملاحين الأغريق ، وبعض الفينيقيين الذين عرفت عنهم المهارة فى ركوب البحر ، ومواجهة الخطر في أحضانه . ومن الجائز أن خاضت الرحلة التجربة الصعبة ، وهى تتحسس طريقها فى اتجاه المجهول فى ملاحة ساحلية هادئة ، بحذاء الساحل الأفريقى الغربى . ولكن الصحيح أنها انتهت إلى الموقف الأصعب (١) الذى اضطرها إلى التراجع والعودة من حيث أتت ، وقبل أن تنجز المهمة المنوطة بها .

ومن غير أدنى تحيز للاجتهاد الجغرافى الفارسى ، ينبغى أن نسقط أى طعن فى جدوى الحس الجغرافى ، وعجزه فى ترشيد الرحلة ودعمها، لكى تتجاوز المحنة . ذلك أن الحس الجغرافى لا يمكن أن يجنب التحرك الملاحى مشقة الدخول فى منطقة تكف الرياح فيها عن دفع وتحريك السفينة ، وهو لم يستشعر ماهية الركود فيها . بل ولا يمكن

= بالضبط لدى سماعه بعودة ابن العم سالماً ، بعد أن فشل فى اتمام الرحلة وانجاز الهدف الذى خرجت من أجله .

(١) ليس أصعب من أن تواجه السفينة حالة الركود فى المنطقة الاستوائية . ذلك أنها تفتقد الرياح التى تدفع السفينة . ومن غير الرياح قد يستحيل التحرك أو يصبح صعباً . وما من شك أن ساتاسبس قد واجه هذا الموقف ، واستشعر صعوبة هذا التحدى . ومن الجائز أن احتال لكى يبطل مفعول هذا التحدى . ولكن الظاهر انه لم يفلح فى احباطه واستشعر العجز الحقيقى . ومن ثم لم يكن بد من أن يعود ويبدو أنه لم يتصور أن هذه العودة ، تمثل فشلاً يلحق به العار

أن ينتشل الحس الجغرافى السفينة من منطقة الركود ، بعد أن انساقت إليها وواجهت تأثير هذا الركود ، لأنه لا يملك الوسيلة للخروج من هذا المأزق .

وقصة هذه الرحلة البحرية المثيرة - كما رواها ساتاسبس على أسماع اكزركس - تصور أن تقدم السفينة فيما وراء مضيق جبل طارق جنوبياً كان مطمئناً . وقد أفلح هذا التقدم فى تجاوز قطاع الساحل ، الذى تقع فى ظهيره المباشر الصحراء الكبرى . كما تصور الرواية كيف وصلت السفينة تجاه الساحل الأفريقى ، الذى تقع فى ظهيره أرض تنبض بالحياة ، ويعيش سكانها الاستقرار فى القرى والمدن الصغيرة . وهذا معناه أن الرحلة البحرية المثيرة قد بلغت على وجه التقريب ساحل غينيا ، وأنها قدمت تصويراً جغرافيًا ، يحكى مشاهداتها عن الأرض والناس فى هذا القطاع الغربى من أفريقية .

وسياق القصة أو الرواية التى تحكى مراحل هذه الرحلة البحرية ، يحرص على عرض الصورة الجغرافية التى تشهد بفطنة الحس الجغرافى ، وهى تعمل لحساب الاجتهاد الجغرافى الفارسى ، فى معية هذه المغامرة التى أجهضها التحدى الطبيعى . ومن شأن التصوير الجغرافى الذى أسفرت عنه هذه الرحلة أن يصور انتشار الأقزام، ووجودهم فى ظهير قطاع من الساحل الأفريقى ، التى سارت بحذائه . كما يصور كيف عاش الأقزام البدائية بكل ما تعنيه من تأخر وسلبية وجمود ، فى أوطان تكفل حاجتهم المحدودة بقدر من السخاء (١) .

ومهما يكن من أمر ، فينبغى أن نتبين كيف كان انجاز الاجتهاد الجغرافى الفارسى انجازاً متواضعًا ، إلى حد لا يرقى إلى مستوى الانجازات الأقدم المصرية والبابلية والفينيقية . ومما لا شك فيه أن الانجاز المتواضع لا يعنى أن الاجتهاد الجغرافى الفارسى، قد سجل اضافات قليلة

---

(١) جاء فى هذا التصوير الجغرافى أن الأقزام يسترون عوراتهم بلباس من أوراق الشجر ، ويقتنون بعض الحيوانات . كما يذكر كيف أنهم يتخوفون من الغرباء الوافدين على ديارهم . وليس هناك دليل على تعامل الرحلة مع هؤلاء الأقزام

ومحدودة فقط ، بل الذى يعنيه بالفعل ، هو أنه رغم التفوق السياسى والثراء الحضارى ، كان أعجز من أن يحرك مسيرة الفكر الجغرافى فى اتجاه والأوضح . ومن الجائز أن استخف هذا الاجتهاد برسم الخرائط، وانشائها . ونفتقد وضوح الرؤية الجغرافية عن الأقطار التى شهدت الالحاح على معرفتها جغرافيًا . ولكن المؤكد أن الدعم الامبراطورى للاجتهاد الجغرافى الفارسى كان متعجلاً ، فلم يصنع جيداً للاجتهاد الجغرافى ، وإنما استهان ولم يطلب ترشيد الاجتهاد الجغرافى للرحلات التى أوفدها . ومع ذلك لا ينبغى – من قبل الانصاف – أن نتنكر أو ننكر تأجج الحس الجغرافى ، وحسن استعداده ، وهو يفجر الاجتهاد الجغرافى الفارسى ، وإلا فكيف استجاب فى وقت لاحق للفكر الجغرافى الهارب من تزمت ومطاردة الكنيسة ، وكيف أعطاه المأوى الذى حافظ على بقية من جنوته فى أحضان فارس ؟

هنا ، ومن خلال التأمل الهادئ فى كنة وماهية حصاد هذه الاجتهادات الجغرافية ، التى شبت وترعرعت فى أحضان الحضارات القديمة ، وأثرت معرفة الانسان بالأرض ، واستثمرت نظرته إلى الكون، يجب أن ندرك كيف تأجج حسن استخدام الحس الجغرافى ، والانسان يتدبر ويفكر فى مشاهداته وصولاً إلى حد تجسيد مناسب ، وتوسيع فعلى لمعرفته الجغرافية . ويصرف النظر عن المبالغة والتهويل والانبهار، وما أسفر عنه من خلط وتخبط وتشويه المعرفة الجغرافية ، يجب أن ندرك أيضًا سلامة الخط الفكرى الذى سار فيه الاجتهاد الجغرافى ، وهو يتطلع إلى ترجمة رؤيته الجغرافية والتعبير عنها ، واضافاتها إلى تراث الانسان .

وقد تحدد تجسيد وتسجيل حصاد الاجتهاد الجغرافى الذى انتفع بالانفتاح ، وأحسن استخدام الحس الجغرافى على ثلاثة محاور رئيسية . وقد حدد هذه المحاور ملامح الخط الفكرى الجغرافى ، وعبرت عن سلامته وهو يسير فى الاتجاه الصحيح . وتمثلت هذه المحاور فى :

١– محور انهمك فى الرصد الفلكى واستطلاع قبة السماء ، وهو يطلب استثمار رؤيته لحساب المعرفة بمكان الأرض ومكانتها ، فى الكون .

٢- محور ابرى لمشقة الرحلة واستطلاع المكان من حولها ، وهو يطلب استثمار رؤيته لحساب المعرفة بكل مكان فى الأرض .

٣- محور انكب على تسجيل المعرفة وحصادها فى خرائط ومصورات ، وهو يطلب توضيح رؤيته واشباع حاجة الناس للمعرفة الجغرافية .

وحصاد الاجتهاد الجغرافى فى مجال الرصد الفلكى ، قد تمثل فى تصورات متفاوتة عن شكل الأرض تتصور أن الأرض لها شكل هندسى ، يتراوح بين المربع والدائرة والمستطيل (١) ، وأن البحر المحيط يطوقها ويدور من حولها تطويقًا كاملاً . ومن الجائز أن هذه الاجتهادات الجغرافية المتنوعة ، قد أقدمت على تفسير حركة الشمس ، وكيف تظهر لكى تشرق ، وكيف تختفى لكى تغرب ، تفسيراً ساذجاً إلى أبعد الحدود (٢) . ومن الجائز أن أى من هذه الاجتهادات لم يتصور ثبات الشمس ، وأن الأرض هى التى تتحرك من حولها . ولكن المؤكد أن معظم هذه الاجتهادات الجغرافية قد انبرت وأفلحت فى ابتكار أو ابداع التقويم لحساب حركة الزمان ، سواء كان هذا التقويم محسوباً تأسيساً على حركة الشمس (٣) ، أو كان هذا التقويم محسوباً تأسيسًا على حركة القمر (٤) .

---

(١) انساقت الاجتهادات الجغرافية بصفة عامة إلى تصور نشأة الوجود كله من خلال قوة إلهية عليا ، فصلت بين الأرض والسماء ، انطلاقًا من الماء الأزلى . وأضاف إلى ذلك التصور وجود عمد عند أطراف الأرض تحمل السماء . وهذا لا يعنى سوى انزلاق فى تخريف أسطورى غير واقعى

(٢) زعم الاجتهاد الجغرافى المصرى ، أن الشمس تركب قارب ينساب ليلاً فى نيل السماء عندما تغرب عن حافة الأرض . أما الاجتهاد البابلى فقد تصور اختفاء الشمس وراء جبل شامخ شمال الأرض .

(٣) قاد الاجتهاد الجغرافى المصرى صناعة التقويم الشمسى . وجعل من السنة ٣٦٥ ١/٤ يومًا . وقسم السنة إلى اثنى عشر شهراً طول كل منها ثلاثين يوماً، وما زاد عن ذلك كان عيداً .

(٤) قاد الاجتهاد البابلى صناعة التقويم القمرى وقد قسم الشهر إلى أربعة أسابيع وجعل من اليوم ٢٤ ساعة . ومن الساعة ٦ دقيقة ومن الدقيقة ٦ ثانية

وحصاد الاجتهادات الجغرافية مجتمعة فى المجال الاقليمى ، على امتداد الأرض . قد تمثل فى سرد القصص وحكاية الأساطير التى رويت، لكى تصور الرحلات فى البحر والبر ، على الصعيد الأوروبى الأفريقى والآسيوى (١) . وما من شك فى أن التسجيل قد خلط بين الغث والثمين من المعلومات أحياناً ، وانغمس فى تجسيم الغرائب والعجائب أحياناً أخرى . وكان ذلك من وراء تشويه وطمس بعض المعرفة الجغرافية وضياع معالمها فى زحمة هذا الخلط الغريب ، الذى استهوى أسماع المعجبين بالأسطورة (٢) .

وهكذا جنى الاجتهاد الجغرافى ثمرات الرحلة وانتفع بمسيرتها . ذلك أنها خدمت الانفتاح ، وفتحت الباب على مصراعيه لكى يستغل الاجتهاد الجغرافى عناصر المشاهدة والمعاينة (٣)والمعايشة، سبيلاً لجمع

---

(١) لم تجد الرواية التى حكت حكايات الرحلات من يهتم موضوعياً بتسجيلها فى حينها تسجيلاً صادقًا . وانتقال التوصيف الجغرافى من خلال الرواية ، قد افسح المجال حقًا ، لكى تتسلل إلى الروايات مزاعم وأباطيل وأوهام اسطورية . وهذا معناه أن الرحلات وجدت من الملوك من مولها واهتم بحفز المغامرين للقيام بها ، ولكنها فى نفس الوقت افتقدت من يولى تسجيل أخبارها وتدوين المعلومات التى أسفرت عنها الاهتمام والعناية . ومن ثم افلتت في كثير من الأحيان فى زحمة السرد الأسطورى المستغرق فى الخيال والوهم ، الخطوط الرئيسية الهامة التى تصنع وتجسد صلب الحقيقة الجغرافية المفيدة .

(٢) شهدت الأذرع المائية التى تتوغل فى قلب جزيرة العالم ، وهى البحر المتوسط، والبحر الأسود ، والبحر الأحمر ، والخليج العربى ، تحركات الاجتهادات الجغرافية التى استهدفت المعرفة الجغرافية . وعلى الصعيد الأوربى، كشفت الرحلات النقاب عن ساحل غرب أوروبا وعن الأقطار من حول البحر الأسود . وامتدت المعرفة عندئذ بأوروبا جنوب خط يمتد من نهر الراين غرباً ، إلى مصب الدانوب شرقًا . وعلى الصعيد الأفريقى ، كشفت الرحلات النقاب عن ساحل غرب افريقية ، وساحل شرق افريقية وما وراء الصحراء الكبرى جنوباً إلى خط عرض الخرطوم وامتدت المعرفة الجغرافية عندئذ بأفريقية شمال خط عرض الخرطوم داكار ، بالاضافة إلى مساحات الظهير من وراء البحر الأحمر وساحل شرق افريقية . وعلى الصعيد الآسيوى كشفت الرحلات النقاب عن ساحل جنوب آسيا على امتداد اشباه الجزر الجنوبية الثلاث . وقد امتدت المعرفة الجغرافية إلى أطراف من أرض الصين، وجنوب الطريق البرى ، الذى يصل إليها عبر قلب آسيا الوسطى .

(٣) من خلال المعاينة كان التوصيف الكاشف جغرافياً للاجتهاد الجغرافى، وهو =

أوصال المعرفة الجغرافية بالأرض ، فى كثير من أنحاء جزيرة العالم . هذا بالاضافة إلى دور الاجتهاد الجغرافى الذى بصر التعامل التجارى ، مع الأقطار التى كشف النقاب عن الواقع الجغرافى فيها ، ورشد الأخذ والعطاء وهيأ المناخ المناسب للاحتكاك الحضارى ، بين الأقوام فى الأقطار التى وطئتها فى صحبة أو معية الرحلات .

أما حصاد الاجتهادات الجغرافية المختلفة ، عندما عكفت على رسم الخرائط وتجهيز الرسوم التوضيحية ، فقد تمثل فى انتاج متواضع نسبيًا . ومن شأن هذا الانتاج أن يصور رؤية هذا الاجتهاد لأبعاد المكان، على المستوى المحلى أكثر من أى شئ آخر ، أو على المستوى الاقليمى فى حالات قليلة . ومن الجائز أن تكون عمليات المسح المحلية ، لحساب النظام الحاكم فى الدولة ، وتصريف الأمور وتطبيق الضوابط وجباية الضرائب ، قد أسعفت رسم الخرائط على المستوى المحلى . ولكن المؤكد فعلاً أن الحس الجغرافى الذى شد انتباه الفكر واستنفر التدبر ، قد أسعف الرؤية الجغرافية ، لكى تعبر عن ادراكها من خلال رسم الخريطة على المستوى الاقليمى ، لحساب الترشيد وتوجه حركة النقل والاتصال والتعامل التجارى البرى والبحرى ، بين مجتمع الأقطار والدول التى كشفت الرحلات النقاب عنها آنذاك .

وخريطة من الخرائط التى أسفرت عنها الاجتهادات الجغرافية ، لا يمكن أن تمثل صدقاً موضوعياً فى التعبير عن الرؤية الجغرافية . ومع ذلك هى من غير شك خطوة على الطريق واضافة مجددة . بمعنى أن الاجتهاد الجغرافى لم يقتنع بالتعبير عن رؤية الجغرافية بالكلمة ، وعندئذ أضاف الخريطة ، لكى تمثل شكلاً آخراً من أشكال التعبير عن هذه الرؤية .

= يزور الأقطار فى صحبة الرحلات ويبعى أن نفطن إلى أن السرد قد تردى فى الخلط بين الحقيقة والتصور الأسطورى الحافل بالغرائب ، بقصد احياناً ، وهو يستهدف التضليل والتمويه لكيلا تتضرر مصالح الاحتكار التجارى ، ومن غير قصد احياناً اخرى وهو يستهدف التهويل ، لكى يصور ضخامة المغامرة الجسورة التى واجهت الرحلات

ومهما يكن من أمر ، فإن الاجتهادات الجغرافية فى ذلك الوقت المبكر قد فتحت الباب - مشكورة - على مصراعيه ، لكى تصنع القاعدة العريضة ، التى ارتكز إليها وانطلق منها التدبر والتفكير ، الذى صنع الفكر الجغرافى ووضع أقدامه على بداية الطريق فى الاتجاه الصحيح . وهذا معناه أن الفكر الجغرافى القديم الذى بدأ فى أحضان النظرية الفلسفية ، قد تأتى تأسيساً على حصاد هذه الاجتهادات الجغرافية التى شبت فى أحضان الحضارات المبكرة . ومعناه أيضاً أن حصاد الاجتهادات الجغرافية الذى أسفر عنه التدبر فيما استشعره الحس الجغرافى قد تولى تحديد القنوات التى سار فيها الفكر الجغرافى القديم استجابة لحاجة الانسان إلى المعرفة الجغرافية .

ومع ذلك نقول أن مسيرة الفكر الجغرافى تدين للمدنيات، التى انفتحت ولم تتكتم على معرفتها الجغرافية ، وتثنى عليها . وفى المقابل تدين مسيرة الفكر الجغرافى المدنيات ، التى تكتمت وتعمدت عدم الاعلان عن معرفتها الجغرافية . وقد كان عطاء من انفتح ولم يتكتم من وراء تنور الاغريق ومعرفتهم واهتمامهم بالمعرفة الجغرافية ، التى تتجلى فى فصول الفلسفة اليونانية القديمة .

* * *

الفصل الثالث

الفكر الجغرافى القديم

- الفلسفة والفكر الجغرافى
- الفكر الجغرافى الأغريقى
- الفكر الجغرافى اليونانى المصرى
- الفكر الجغرافى الرومانى المصرى

الفصل الثالث

الفكر الجغرافى القديم

الانفتاح الحضارى الذى عاشته مصر الفرعونية وبابل وفارس ، كان بكل تأكيد من وراء نشأة الحضارة الهللينية ، فى بلاد الأغريق . وقل أن الأغريق قد نهلوا من فيض معين هذه الحضارات الأعرق . بل قل لقد شد انتباههم الرصيد الجغرافى المتراكم ، وأتاح الانفتاح لهم أن يطلعوا عليه ، وأن يهمهم حتى أصبح شغلهم الشاغل . بمعنى أن أصبح اهتمامهم بالمعرفة الجغرافية ، مسئولية ألقت عليهم مهمة تكملة المشوار ، وحمل أمانة الاضافة وتطوير التفكير الجغرافى القديم وتوجهاته .

ولقد استوجب هذا التوجه إلى مباشرة الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، أن تكون هذه المعرفة جزء ، من كل ما استحق التدبر والتمعن والتفكير . وقل اعتمد الأغريق على التفلسف ، فى تناول واسيتعاب المعرفة الجغرافية . بل قل أصبح فلاسفة الأغريق مشغولون بالتفكير الجغرافى ، من أجل التمعن والتغلغل فى أعماق المعرفة الجغرافية . وبلغ هذا الاهتمام الأغريقى الحد الذى وضع الفلسفة الأغريقية فى مكان الصدارة ، وهم مسئولون عن قيادة وريادة مسيرة التفكير الجغرافى . ولقد وضعت الفلسفة الأغريقية قواعد مهمة ، ابتنى عليها التحول من تفكير جغرافى كانت تهيمن عليه نزعة الخصوصية المدنية الاقليمية ، إلى تفكير جغرافى تظلله نزعة توجهت إلى شئ من العمومية ، التى كانت من شأنها أن تفضى بعد ذلك ، إلى العالمية .

وقل أن الأهم من ذلك كله ، هو مسئولية الفلسفة اليونانية ، عن خطوة مستجدة فى الاتجاه الصحيح ، لحساب مسيرة الفكر الجغرافى.

الفلسفة والفكر الجغرافى :

لكى يتأتى الفكر الجغرافى بكل أبعاده التى يحددها استخدام العقل، ولكى يسفر هذا الفكر عن انجازات مفيدة لحساب الانسان ، ولكى تشتد خطوات م[illegible]وتتمخض عن اضافات مجددة مثمرة لحساب الحياة ،

كان من الضروري أن يستجيب العقل لنداء الحس الجغرافى ، وأن يشحذ العقل أدائه ومعطياته ، وهو يطلب عمق المعرفة الجغرافية بالأرض ، وصولاً إلى حد التفكير السوى البناء ، فى كنه وماهية الصور الجغرافية التى يعانيها بذاته ، ويتحسس أبعادها هنا وهناك ، أو التى يستمع إلى الرواية المشرقة عنها من هذا أو ذاك .

وهكذا كان التحول من مرحلة شهدت الاجتهاد الجغرافى الذى وجهته وأشبعته يقظة الحس الجغرافى ، لكى يمثل أو يصور حصاد الرؤية والمعاينة والاستشعار فى أى مكان ، إلى مرحلة جديدة يستجيب فيها العقل لنداء الحس الجغرافى ، لكى يتفجر الفكر الجغرافى ، حتى يمثل ويصور حصاد التدبر والتأمل والتفكر فى خصائص المكان ، تحولاً طبيعياً ومطلوباً بكل الالحاح لحساب الحياة . وهذا معناه أن نداء الحس الجغرافى للعقل ، قد أطلق العنان لكى يتحمل العقل مسئولية التفكير الجغرافى .

وأصبح من شأن الفكر الجغرافى فى شكله الفلسفى النظرى ، وهو وليد شرعى لاعمال العقل وحسن استخدام التدبر ، أن يتبنى رؤية الاجتهاد الجغرافى ، وأن يتولى مهمة استيعابها ومناقشتها . وكان من الطبيعى أن يتفجر هذا الفكر الجغرافى فى المكان الأنسب ، وفى الزمان الأنسب ، الذى حمل فيهما الأغريق أمانة التفكير المجرد ، ومسئولية اعمال العقل ، وتبعة تطويع التدبر ، وصولاً إلى الحصاد العقلى المقنع والمفيد . وهذا معناه أن التفكير الفلسفى العقلى اليونانى النابض بالابداع ، قد استجاب لنداء الحس الجغرافى ورؤيته الجغرافية ، لأبعاد المعرفة بالأرض . ومعناه أيضاً أن التفكير الفلسفى العقلى اليونانى ، قد انكب على هذه الرؤية الجغرافية ، وأفلح فى ابداع فكر مفيد ، يبصر إرادة الحياة ويشبع نهمها إلى تقصى أبعاد المعرفة الجغرافية بالأرض والناس .

وبصرف النظر عن كل العوامل التى كمنت من وراء النضج العقلى، الذى أطلق ملكات الفكر الأغريقى فى الاتجاه الفلسفى[1]، وبصرف

---

(١) انحدر التفكير الأغريقى إلى عمق الجدل والاجتهاد النظرى ، وتنكر تماماً =

النظر عن كل العوامل التي كانت من وراء المناخ الفكرى الأنسب ، الذى ظاهر البناء الفلسفى الفكرى الأغريقى ، ينبغى أن نتصور كيف كان حصاد الاجتهادات الجغرافية الذى نشأ ونما وتطور استجابة للحس الجغرافى . فى أحضان الحضارات القديمة فى مصر وبابل وفارس وغيرها ، معيناً ومنهلاً ، نهل منه الفكر الجغرافى الأغريقى . بل ينبغى أن نتصور أيضًا ، كيف نجح التفكير الفلسفى الأغريقى فى تبنى ثمرات الاجتهادات الجغرافية العتيقة ، وفى احيائها ، وفى الاضافة إليه ، من خلال اعمال العقل والتدبر فى الرؤية الجغرافية . ومن الجائز أن نتبين كيف حاول التفكير الفلسفى الأغريقى انتشال المعرفة الجغرافية من حضيض الأسطورة أو الخرافة التي شوهتها ، وطمست الحقيقة التى تكشف النقاب عنها . ولكن المؤكد أن هذا التفكير الفلسفى الأغريقى ، قد انتصر للعقل وحسن استخدامه وتصعيد قدراته ، وهو يرشد ويبصر المعرفة الجغرافية .

هذا وقد حظى التفكير فى الأرض والتدبر فى مكان الأرض فى الكون ، باهتمام الاجتهاد الفلسفى العقلي على أوسع مدى ، وصولاً إلى حد الاجابة على تساؤل الانسان وتطلعه إلى معرفة كاشفة عن ماهية الوجود من حوله . وكان من شأن الفلاسفة الاغريق ، الذين كدوا عقولهم بالبحث عما وراء الطبيعة ، أن يزجوا بالتفكير فى الاتجاه الباحث عن قاعدة انطلاق المعرفة الجغرافية . بل لقد أنجب هذا الاهتمام الاسم (جغرافية) الذى أصبح علماً وتعبيراً عن حصاد الاجتهاد الباحث، فى وصف الأرض ، ومكانها فى الكون الفسيح .

وهكذا تسللت الاجتهادات الجغرافية من خلال التأمل الفلسفى

=للبحث التجريبى والاجتهاد التطبيقى . ومن ثم كان فكر الأغريق فكراً فلسفياً نظرياً يدور فى جمود النظرية ويتجنب مرونة التجريب والتطبيق . وصحيح أن الفكر الفلسفى النظرى قد افلح فى صياغة أرضية صلبة للعلوم . ولكن الصحيح تمامًا ، أن تنكر هذا الفكر للبحث التجريبى ، قد أدى إلى الاخفاق فى تجسيد العلوم . وقد أسفر التفكير الفلسفى الأغريقى عن فكر هلامى من غير اطار محدد أو شكل معين يحتويه . وقد استغرقت هذا الفكر مراحل طويلة ، لكى يتخذ شكل العلم ، ولكى تتجسد القواعد والأصول ، التى تمثل الصلب السوى فى بنية هذا العلم .

إلى أحضان التفكير العقلى ، الذى أصغى باهتمام وعناية لنداء الحس الجغرافى . وصحيح أن التسلل الذى أغرق الاجتهادات الجغرافية فى خضم التأمل والتدبر والتفكير ، قد أوقف أو جمد تطور وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية لبعض الوقت . ولكن الصحيح أن التأمل الفلسفى قد خلصها من التخبط ، فى مجال البحث عن المعرفة من ناحية ، وهيأ لها الأساس الذى بنيت عليه النظرية ، وأصبحت فيما بعد قاعدة عريضة لنشأة علم الجغرافية من ناحية أخرى .

وينبغى أن نذكر كيف أن التحول الذى زج بالاجتهاد الجغرافى فى اطار التأمل الفلسفى والتفكير العقلى ، قد بدأ فى حوالى القرن السادس قبل الميلاد . ومن الجائز أن كان وضع الاغريق ومكانتهم السياسية والحضارية ، فى اطار مجتمع الدول من وراء احتضان الاجتهاد الجغرافى وتذوق طعم حصاده ، وتولى التأمل الفلسفى والتفكير العقلى أمره . ولكن المؤكد أن التأمل الفلسفى قد فجر الفكر الجغرافى ارهاصاً باحثاً عن النظرية ، وأن الفلاسفة قد قادوا هذا الارهاص ، وسجلوا رصيداً لحساب النظرية ، التى انكب الفكر الجغرافى القديم على صياغتها .

ولقد خطت مسيرة ذلك الفكر الجغرافى القديم على ثلاثة مراحل متكاملة ومتداخلة . وقد استغرقت هذه المراحل حوالى خمسة قرون كاملة قبل الميلاد . ومن الطبيعى أن كانت الخطوة الأولى لكى يعيش الفكر الجغرافى فى أحضان التأمل الفلسفى أغريقياً بحتًا . وقد استغرقت هذه المرحلة العصر الهلينى الذى شهد مسيرة الأحداث التى بوأت الاغريق المكانة المرموقة ، حضارياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً. ومع موت الاسكندر وتصاعد وزن مصر البطلمية ، واحتلال المكانة المرموقة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً ، كانت الخطوة الثانية التى حولت الفكر الجغرافى إلى مصر ، لكى يعيش فى أحضان التفكير العلمى ، مصرياً بانتمائه ، ويونانياً بلغته وتسجيلاته . وقد استغرقت هذه المرحلة العصر الهلينى الذى وضع البطالمة فيه مصر فى مركز الثقل على المستوى العالم . ومع هزيمة البطالمة وضم مصر إلى الحكم الرومانى ، كانت الخطوة الثالثة التى حولت الفكر الجغرافى إلى

الانتعاش فى مصر وروما . و لكى يعيش فى أحضان التفكير العلمى المصرى وأحضان التوسع الامبراطورى الرومانى ، مصريًا يونانيًا رومانيًا فى وقت واحد . وقد استغرقت هذه المرحلة العصر الذى شهد التفوق الرومانى ونشاطها الامبراطورى وانتهى بظهور المسيحية .

* * *

الفكر الجغرافى الاغريقى :

لكى نتلمس نقطة البادية التى زجت الاجتهاد الجغرافى واهتمام الانسان بحصاده ، فى اطار التأمل الفلسفى الاغريقى ، ينبغى أن نتابع ما ورد فى ملحمة الالياذة (١)وملحمة الأوديسة (٢) ، كيف سجل هومير تسجيلاً واضحًا ، يصور أو يعبر عن الاهتمام الاغريقى بالمعرفة الجغرافية اهتمامًا يلفت النظر . ومن الجائز أن يختلط عرض المعرفة الجغرافية بالغرائب والعجائب وشطحات الخيال الاسطورى ، إلى الحد الذى يشوهها ويطمس ملامحها ويخفى دلالتها . ولكن المؤكد أن هذا العرض علامة أو مؤشر ، ينبئ بمدى الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، وتطلع الناس إليها (٣) .

ويبدو أن الاغريق قد استقوا هذه المعرفة الجغرافية من مصادرها الأصلية ، من خلال احتكاك حضارى أو من خلال مطالعة رصيد التراث الحضارى المصرى والبابلى والفارسى . ومن الجائز أن هذا

---

(١) تحكى ملحمة الالياذة قصة حرب مدمرة ، بكل ما تعنيه من انتصار وهزيمة ، وبكل ما تسفر عنه من تخريب وافساد .

(٢) تحكى ملحمة الأوديسة قصة سلام وبناء ، بكل ما تعنيه من بناء واضافة ، وبكل ما تسفر عنه من تفرغ للاجتهاد والتجديد والتطوير .

(٣) هومير شاعر أغريقى سجل بالشعر احاسيسه وانطباعاته عن قصتى الحرب والسلام . وهو مفجر نبع الثقافة الاغريقية بكل تأكيد – وتتنازع اكثر من سبع مدن أغريقية هومير بدعوى أنه ولد فيها . ومع ذلك هناك من يتصور أنه شخصية أسطورية لم تولد بالفعل . وهناك جدل حول تاريخ صياغة الالياذة والأوديسة . ومن قائل انها وضعت فى سنة ١٢٨٠ قبل الميلاد إلى قائل أخر انها وضعت فى سنة ١١٨٠ . والأرجح أن هذه الصياغة الفنية ، لا يمكن أن ترجع إلى اقدم من القرن التاسع قبل الميلاد .

الاهتمام الاغريقى قد أسفر عن اضافة عن المعرفة بالجهات الأصلية [١]، أو عن شرح أصول تسمية المجموعات النجمية [٢] . ولكن المؤكد أن هذا الاهتمام الاغريقى قد هيأ للتأمل الفلسفى . الذى جاوب نداء الحس الجغرافى الاغريقى المتأجج برغبة فى المعرفة الجغرافية ونداءه إلى العقل لكى يتدبرها ، حتى يبدأ من حيث انتهت الاجتهادات الجغرافية القديمة

وتأسيسًا على ذلك كله ، نذكر أنه اعتباراً من القرن السادس قبل الميلاد ، انبرى بعض أعلام الفكر الاغريقى للاهتمام بالرؤية الجغرافية، وحسن الاستماع لهمس الحس الجغرافى الذى فجر فيهم هذا الاهتمام. ومن هؤلاء الرواد نذكر أربعة هم : طاليس [٣] وانكسمندر [٤] وهيكاتيوس [٥] وزينوفان [٦] . وقد فتح هؤلاء المفكرون الباب على

---

(١) من الجائز أن دعا شروق الشمس وغروبها إلى معرفة للشرق والغرب ، ولكن الانجاز المفيد قد تمثل فى معرفة الشمال والجنوب والتميز بينهما .

(٢) سجل هزيود الشاعر فى حوالى أواخر القرن الثامن الميلادى بحثاً عن الفلك حاول فيه أن يفسر أصول تسمية المجموعات النجمية .

(٣) طاليس فيلسوف قيل عنه أنه من أصل فينيقى . وقد عاش فى الفترة من سنة ٦٢٤ إلى سنة ٥٤٥ قبل الميلاد . وتجلى اهتمام طاليس بالمعرفة فرحل إلى مصر لكى ينهل من معين العلم فيها ، ويتعلم طائفة من أهم الحقائق الفلكية والهندسية ، التى يحتويه تراثها العلمى الثرى . ومع اكتمال نضجه الثقافى انطلق فكره الفلسفى ، لكى يمثل مفكراً رائداً فى الفلك والرياضة .

(٤) انكسمندر أغريقى من تلاميذ طاليس . وقد عاش فى الفترة من سنة ٦١٠ إلى سنة ٥٤٧ قبل الميلاد . وقد ارتوى من نبع فكر طاليس الفلسفى ، وسار على دربه ، لكى يتم ويضيف إلى انجازه الفكرى وقد سجل افضل انجاز له عن الفلك . كما تفرغ لصناعة خريطة للعالم كما تصوره .

(٥) هيكاتيوس مفكر أغريقى . قيل عنه انه أبو الفكر الجغرافى الصحيح وقد عاش فى الفترة من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٤٨٥ قبل الميلاد . وتفرغ هيكاتيوس للرحلة احياناً وانصت جيداً إلى حكايات الرحالة احياناً ، لكى يجمع رصيداً من المعلومات الجغرافية وتجلت براعته وابداعه ، عندما صنف وميز بين المعلومات الطبيعية والمعلومات البشرية وتلك اول بداية فى مجال التمييز بين دراسة الأرض ودراسة الناس. والتى أسفرت بعد وقت طويل عن تقسيم الجغرافية إلى جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية ومن اهم منجزاته نشر أول كتاب جغرافى بعنوان الفترات الزمنية ويختص القسم الأول منه بأوروبا والقسم الثانى بآسيا وامتداداها فى افريقية وقد الحق بهذا الكتاب الرائد خريطة انكسمندر بعد ان أدخل عليها بعض التصويب

(٦) زينوفان مفكر أغريقى انغمس فى الاجتهاد الجغرافى وقد عاش فى الفترة =

على مصراعيه ، لكي يهتم المفكرون الاغريق بالتأمل في الرؤية الجغرافية . في الفترة التي امتدت إلى وفاة الاسكندر الأكبر في سنة ٣٢٣ قبل الميلاد

وبصرف النظر عن مدى ازدهار التفكير العقلي الاغريقي ، مبلغ انتفاعه بازدهار التوسع الامبراطوري ، نذكر كيف فجر التفكير العقلي الفلسفي الاغريقي ، تباشير الفكر الجغرافي المبكر ، وكيف انبرى إلى تقسيم وصف الأرض إلى أقسام رئيسية تمثلت في الفكر الجغرافي الفلكي ، وفي الفكر الجغرافي الاقليمي (١) . بل قل لقد تمادى هذا التفكير إلى حد ابداع مبكر يسجل الاهتمام بالأرض وحقائق وسنن عن حياة الناس في الأرض . بمعنى أن كانت تباشير استشعار الحد الفاصل بين الفكر الجغرافي الذي يستوعب ويتدارس الأرض (جغرافية طبيعية)(٢) والفكر الجغرافي الذي يستوعب ويتدارس الناس (جغرافية بشرية)(٣) في ذلك الوقت المبكر . ومع ذلك فقد تأتى الخلط الذي وضع الاهتمام بدراسة الناس في حضيض الاهتمام ، واستوجب تعظيم دراسة الأرض .

وهكذا ينبغي أن نتصور كيف تبنى التفكير الفلسفي الاغريقي

= من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٤٧٠ قبل الميلاد . ولقد استهوت الرحلة زينوفان إلى حد كبير ومن ثم أصبحت هذه الهواية معيناً من وراء فكره ، وهو يعلن عن رأيه الفلسفي العقلي ، في وحدة الوجود . وقد تفرغ بكل تأمله إلى تقصي حقيقة العلاقة بين اليابس والماء . بل وبحث بحثاً عقلياً عن الأدلة الجغرافية التي تؤكد هذه العلاقة . وانساق فكره وبحثه إلى حد أن أصبح في آخر الأمر، صاحب الريادة في المجال الجيولوجي ، عندما لفت الانتباه إلى الحفريات ومدى دلالتها في البحث عن العلاقة بين اليابس والماء

(١) د/ محمد السيد غلاب - البيئة والمجتمع ط٢ . ١٩٦٣ . مكتبة الأنجلو . القاهرة صفحة ١٣

(٢) سجل ثيوفراش من تلاميذ أرسطو دراسة مقارنة للنبات ودراسة عن العلاقة بين المناخ والنبات ومن ثم كانت له الريادة وهو يقدم أول انجاز مفيد عن جغرافية النبات

(٣) سجل هيبوقراط وافلاطون وغيرهم من المفكرين الاغريق الاهتمامات التي بنيت عليه دراسة البيئة وقد سجل هؤلاء المفكرون كيف يمكن أن نتلمس في خصائص البيئة ما يكشف عن شكل ونمط الواقع الاجتماعي فيها

النابض بالحيوية والتجديد والابداع ، الاهتمام بالأرض والناس ، وكيف انساق هذا التفكير فى الاتجاه الصحيح ، لكى يضئ كاشفًا عن أبعاد حقيقة المعرفة الجغرافية . وقد أسفر التأمل الفلسفى الاغريقى ، ومن ورائه التطلع الشديد إلى المعرفة وكشف النقاب عن الأرض ، عن نتائج واضافات وتطوير وتقدم المسيرة الفكرية الجغرافية فى اتجاه رشيد ومفيد ، لحساب الانسان . ويمكن أن نحصى ذلك كله من خلال متابعة عطاء الفكر الفلسفى ، فى كل من الجغرافية الفلكية والجغرافية الطبيعية والجغرافية الوصفية ، لكى نتبين حقيقة الاضافات والتطوير فى هذه المرحلة(١) .

وفى **الجغرافية الفلكية** ، انساب التأمل والتفكير الفلسفى فى اتجاه باحث عن الكون ونشأته ونظامه أولاً ، وفى اتجاه باحث عن الأجرام السماوية وحركتها فى قبة السماء ثانيًا ، وفى اتجاه باحث عن مكان ومكانة الأرض ثالثًا . وها معناه نظرة تأملية إلى الكل الذى يشمل الكون ، وصولاً إلى الأجزاء التى يتألف منها هذا الكل . ومعناه أيضًا نظرة تستطلع الكون من غير اغفال للعلاقة السرمدية بينه وبين الأرض . ومعناه مرة ثالثة أن نظرة التأمل الفلسفى ، توغل – بكل العمق – فى البعد اللانهائى ، لكى تنتهى إلى تصور مقنع ، يفصح عن مكان ومكانة الأرض فى الكون .

وفى **الاتجاه الأول الباحث** عن أصل الكون ونشأته ، تلمس الفكر الفلسفى ، هذا الأصل فى الماء . وقد استشعر التأمل الفلسفى العميق دور الألوهية الخلاق فى تكوين الكون ونشأته نشأة سوية متوازنة (٢) . ومن الجائز أن نتبين كيف ضل هذا التفكير ، وكيف ضلل التأمل الفلسفى المفكرين إلى حد كبير . ولكن المؤكد أن هذا التفكير قد أفلح

---

(١) على الرغم من الاهتمام الضحل بالناس على الأرض ، فقد غاب تمامًا عطاء الفكر اليونانى الفلسفى ، ولم يضع بداية حقيقية للجغرافية البشرية .

(٢) بعث هذا التصور هومير وثنى عليه هوزيود ، الذى حاول أن يضع قاعدة عامل تحكم تسلسل التكوين فى ثلاثة أصول هى :
أ- كارس وهو الخلاء الذى يحتوى الوجود .
ب- جايا وهى الأرض فى قلب هذا الوجود .
جـ- ابروس وهى قوة التوالد والانتاج والبقاء .

فى تصور وحدة الوجود ، وأن الأرض والسماء كانتا متصلتين فى شكل هيولى، قبل أن ينفصلا .

وقد تضمنت فلسفة طاليس (١) ذكر الماء ، وكيف أنه الجوهر الذى تولدت منه الأشياء . وتصور هذه الفلسفة ، كيف خرجت الأرض من الماء فى شكل قرص يطفو فى بحر هائل . كما تصور أيضًا ، كيف يسرت الحركة على الماء انفصال السماء عن الأرض . أما فلسفة انكسمندر (٢) فقد رفضت تصور طاليس من أساسها . واعتقدت هذه الفلسفة فى مادة أولية ، تمثلت فى مزيج من الأضداد كلها ، أصلاً وأساسًا فى تكوين الكون . وقد أكدت هذه الفلسفة التى سجلت فكر وتصورات انكسمندر ، على أن الحركة تسببت فى انفصال عناصر الأضداد بعضها عن بعض أحياناً ، واجتماع الأضداد بعضها مع بعض أحياناً أخرى (٣). ومن خلال الانفصال ، ومن خلال الاجتماع ، تكونت الأجسام المتنوعة الطبيعية . والأرض فى هذا التصور الفكرى الفلسفى جسم من هذه الأجسام ، وانها تحتل - بالضرورة - مركز الكون كله .

أما فيثاغورس ومدرسته الرياضية الفلكية ، فقد نبذت وعارضت - بكل الاصرار - فكرة احتلال الأرض مركز الكون . وسيطر على فكرهم التأملى الفلسفى تصور آخر ، تمثل فى نار مركزية تبث الحرارة إلى الشمس التى تحتل مركز الكون . وناقش هذا الفكر - بكل التأمل والتدبر - كيف تعكس الشمس الحرارة التى تبث إليها ، لكى تضئ الأجرام السماوية ، وتكسبها الحرارة .

---

(١) زار طاليس مصر ونهل من معين المعرفة فيها ، وربما شغلته مسألة فيضان النيل واستشعر قيمة الماء لحساب الحياة وقد تأثر فكره بما اطلع عليه من رأى المصريين والبابليين . ولا يكاد يختلف فكر طاليس كثيراً عما ورد فى التراث عن علاقة الماء بالحياة .

(٢) يرى انكسمندر أن التكوين كان على مراحل . وأن الانفصال قد أدى إلى تكوين الهواء فى مرحلة وإلى تكوين البحر فى مرحلة ثانية وإلى تكوين الأرض (اليابس) فى مرحلة ثالثة

(٣)الحركة فى فكر انكسمندر حركة دائرية أزلية ومن ثم يصور تفكير انكسمندر الفلسفى كيف أن الكون يشمل مكاناً لا حدود له . وزماناً لا نهاية له .

هذا ولقد عارض فكر انكسمندر الفلسفى أيضًا ، رؤية طاليس ورفض فكرة الماء وكونها جوهر التكوين فى الكون . وقد سيطر تصور آخر أسفر عنه فكر فلسفى أصر على أن الهواء هو الأصل ، وكيف أنه هو جوهر التكوين والنشأة . بل لقد تمادى هذا الفكر فى تصور جرئ ، يتبين كيف تسبح الأجرام السماوية التى تتخذ شكل الأقراص ، فى الهواء، سباحة سرمدية أو لا نهائية .

وعندما أقحم أرسطو فكره وتأمله الفلسفى فى مسألة البحث عن أصل وتكوين الكون ، سجل تصوره ورؤيته الفكرية من خلال تجديد يؤكد على أن الشكل كروى ، هو الشكل الذى يحتوى الكون كله . وفى اعتقاد أرسطو أن الشكل الكروى هو الشكل الأنسب والأمثل ، لأنه يكفل حركة الكون حركة أزلية أبدية لا متناهية . وتصور أرسطو أن الأثير هو المادة الأصل ، فى تكوين جوهر الأجرام السماوية . أما عن الحركة فقد أسفر فكر أرسطو الفلسفى ، عن تصور ثبات الكواكب فى مواضعها ، وأن الحركة هى وليدة تحرك الفلك الذى يحمل كل كوكب . وفى اعتقاده أن هذه الحركة السريعة السرمدية ، تتسبب سرعتها فى ارتفاع الحرارة ارتفاعاً كبيراً ، وفى انبعاث الضوء المنير منها .

والواقع – على كل حال – أن الفلسفة الاغريقية التى استغرقت فى التأمل والتدبر واعمال العقل ، قد استغرقت – بكل الجدية – فى البحث عن كنه وماهية الوجود . بل لقد تطلعت الفسلفات المجتهدة ، من خلال رغبة متأججة ، إلى كشف النقاب عن الكون وتكوينه ، وإلى تصور المادة التى هى أصل أصيل فى هذا التكوين . وما من شك فى أن اكثر من مفكر اغريقى ، قد سعى وفكر – بكل العمق – لكى يرد على فكره البرهان ، ويسوق الأدلة على صدق منهجه وتصوره وتصويره . ومن الجائز أن هذا التفكير الذى استسلم للتأمل فى قبة السماء من حول الأرض ، قد تملص إلى حد كبير من معظم الخرافات والأوهام التى أوردتها أساطير الأولين . ومن الجائز أيضًا أن هذا التفكير قد انتشل التدبر والتأمل من سقطات وشطحات الخيال والوهم . وحاول أن يستلهم الواقع والحقيقة . ولكن المؤكد أن هذا التفكير قد انغمس من

غير قصد أو على غير ارادته ، فى خيال اسطورى اغريقى غريب ، وهو يناقش ويعرض رؤيته الفكرية عن خلق وتكوين الكون .

وفى الاتجاه الثانى الباحث عن كنه الأجرام فى السماء ، تطلع الفكر الفلسفى الاغريقى إلى معاينة قبة السماء ، بعد أن نهل من معين التراث العريق ، كما ورد لدى الاجتهاد البابلى والمصرى القديم . وكان من الطبيعى أن يمعن النظر ويتأمل ويتدبر ويفكر تفكيراً ، يلهم التصور الأصوب والرؤية الأفضل . ومن الجائز أن الفكر الفلسفى الاغريقى قد أقحم قدرة الآلهة فى تصور خلق السماء ، وما يبدو فيها من نجوم وكواكب وبروج . بل ومن الجائز أيضاً أن أوكل هذا الفكر فى تصور أسطورى لكبير الآلهة ، مهمة تنظيم وانتشار هذه الأجرام فى السماء . ولكن المؤكد أن هذا الفكر الذى أطلق عنان التأمل والتدبر ، قد أفلح فى تناول المسائل الفلكية بشكل أكثر ادراكًا وفهمًا ، وهو يتابع الرؤية الكاشفة للأجرام فى قبة السماء (١) .

هذا وقد تصور فكر انكسمندر كيف أن الكواكب على شكل أقراص فى الهواء . وتصور أيضاً أنها تدور دورة تدخلها من حين إلى حين فيما وراء جبال عند طرف الكون ، لكى تختفى عن أنظار الناس ، ثم تخرجها من وراء هذه الجبال ، لكى تظهر لأنظار الناس . أما فكر فيثاغورس الفلسفى الرياضى ، فقد تصور هذه الأجرام السماوية فى شكل كروى. وتصور أنها تتحرك وهى متعلقة بأفلاكها فى مدارات ، حركة منتظمة مستديرة . كما ميز فكر فيثاغورس بين قطاعين من الكون ،

---

(١) صورت الرؤية الفلكية فى فكر الفلاسفة الاغريق صورتان : هما صورة السماء الشمالية وصورة السماء الجنوبية . وفى تصور السماء الشمالية ، وضع من حول الدب الأصغر كوكبات هى ، التنين وقيفلرس والبقار والاكليل الشمالى والجاثى وذات الكرسى وفرسوس والحواء والعقاب والفرس والفرس الأعظم والمرأة المسلسلة . وفى تصورالسماء الجنوبية وضع كوكبات قيطس والجبار والنهر والسفينة والشجاع وقنطورس والحوت الجنوبى . أما عن البروج فقد أسفر الفكر الفلسفى الاغريقى عن أنها تتمثل فى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان ، والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت تماماً كما وردت فى حصاد الاجتهاد الجغرافى البابلى .

قطاع فوق فلك القمر . وهو أزلى لا يتغير وهو موطن للخلود ، وقطاع تحت فلك القمر وهو غير أزلى متغير ، وهو موطن للفساد والموت . والأرض – بكل تأكيد – تقع فى هذا القطاع الأخير غير الأزلى .

وقد تحققت واحدة من الاضافات المهمة بالفعل ، عندما أسفر تفكير انكسوجراس عن الحقيقة التى تصور كيف يستمد القمر نوره من الشمس . ومع ذلك قد يتخبط التفكير كثيراً بعيداً عن الحقيقة من خلال الرؤية الفلكية . ونذكر كيف ضل الفكر الأفلاطونى عن الحقيقة كثيراً ، وهو يؤكد على مكان الأرض فى مركز الأرض ، أو وهو يصور الكواكب والشمس والقمر كلها تدور فى أفلاك من حول الأرض . وفى هذه المناسبة ينبغى أن نستشعر مقدار الاهتمام الذى زج بالفكر الفلسفى الاغريقى فى مطالعة السماء ، ورصد البروج والادلاء برأى فى حركة الأجرام . كما ينبغى أن نتقبل الخطأ أو الأخطاء ، التى أسفر عنها اجتهاد بعض المفكرين ، من أمثال كيلوْ ستراتس ويودكس فى تصور هذه الحركة والادلاء برأى فيها .

ومن غير تجنى ، ودون أن نعبأ بالأخطاء ، نتبين أن انسياق الفكر الفلسفى الاغريقى فى الاتجاه الباحث عن حركة الأجرام ، التى ذكرها هومير لأول مرة ، وتصور كيف أنها لا تضئ عندما تمر فى وادى الظلمات فى العالم السفلى ، كان انسياقًا طبيعياً . ومن الجائز أن أدى هذا الانسياق إلى ابداع تصورات غير صحيحة ، تحكى مثلاً كيف تنطفئ الشمس كل ليلة ، وكيف تنشأ مع طلوع النهار شمس جديدة . ولكن المؤكد أن هذا الانسياق قد رشد اتجاه البحث ، فأقلع عن تصور الأرض فى مركز الكون ، ووضع الشمس فى هذا المركز (١) . وهذا التغيير لا يعنى وصول التفكير الاغريقى إلى الحقيقة اطلاقاً ، ولكنه يعنى تغييراً يقود

---

(١) اهتم أرسطو بالشمس وتأمل وضعها . بل لقد ناقش نور الشمس من وراء ظاهرات المناخ . ونظر اريسطارخرس إلى الشمس نظرة التأمل ايضًا ، لأنها فى فكرة ، هى الجرم الأهم فى قبة السماء . وقد أسفر تفكيره عن تصور مكان الشمس ووضعها فى مركز الكون .

إلى تصور دوران الأرض حول الشمس ، بدلاً من أن تدور الشمس حول الأرض .

وفى الاتجاه الثالث ، الباحث فى كنه الأرض ، تطلع الفكر الفلسفى الاغريقى إلى تصور شكلها العام وإلى مسألة نشأتها ، وهى وطن يحنو على الحياة فى مكان ، ويقسو على الحياة إلى مكان آخر . وربما أخذ هذا الفكر عن التراث القديم الذى أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى المصرى والبابلى ، بعض التصورات وانكب على تدبرها بكل الاهتمام . ولكن المؤكد أن هذا الفكر الفلسفى قد توصل إلى ادراك شكل الأرض الكروى ، وجمع الأدلة التى تؤيد هذا الادراك السوى .

واستشعار أو ادراك هذا الشكل الكروى ، قد تأتى من خلال بداية أو بدايات ظنية . وكان أول تصور من اجتهاد هوميروس الذى أشار إلى البحر المحيط الذى يطوق الأرض ، ويحيط بها من كل جانب . أما طاليس فقد تصور قرص الأرض الذى يسبح فى البحر . وقد فتحت هذه التصورات الباب على مصراعيه ، لكى يتصاعد تفكير فيثاغورس ومدرسته ويسفر عن اضافات هامة عن شكل الأرض . وقد تمثلت هذه الاضافات فى :

١- تصور الأرض فى شكل كروى ودعمه هذا التصور بالبراهين.

٢- تنحية الأرض عن التمركز فى قلب الكون ، واحلال النار المركزية التى تعكس حرارتها الشمس محلها .

٣- استشعار حركة الأرض من حول النار المركزية ، من الغرب إلى الشرق مرة واحدة كل نهار وليلة .

وهكذا تفجرت ثورة فكرية خطيرة ، أمسكت بطرف الخيط فى هذا الموضوع الهام . وما من شك فى أن هذه الثورة الفكرية قد تجاوزت كل التخبط ، الذى تردى فيه أصحاب الاجتهاد الجغرافى الفلكى السابق ، وانطلقت - بشئ كثير من الثقة والجدية - تتقصى بعض الحقائق الفلكية . وربما رفض بعض المفكرين الاغريق من أمثال ديمقريطس وانكزجراس فكرة التكوير رفضاً قاطعاً ، واستهانوا بها . ولكن سقراط وأفلاطون قد قبلا هذه الفكرة قبولاً كلياً . بل لقد عمل كل منهما على تأكيد صدق هذه الفكرة وجديتها .

وينبغى أن نذكر فى هذا المجال ، كيف تمادى أفلاطون فى استملاح فكرة كروية الأرض ، وأسفر تفكيره عن تصور أسطورى فى شأن بيان بعض الدلالات الكونية . ومن الجائز أن أضاف أفلاطون إلى فكرة التكور، مسألة توازن الأرض بالنسبة لما حولها توازناً سرمدياً يحفظها فى وضعها ، أو فى مكانها من غير أن تسقط من حالق . ولكن المؤكد أنه أصر على وضع الأرض الكروية فى مركز الكون ، وعلى ثباتها فى مكانها من غير حركة .

وعن السرد الأسطورى الذى يحكى فكر أفلاطون ، ومدى دعمه لكروية الأرض ، فقد ميز بين الأرض العليا ، والأرض الوسطى ، والأرض السفلى ، تمييزاً كاملاً . وتكشف حكاية أفلاطون الأسطورية التى تعبر عن مدى تصوره وإدراكه لكل أرض من هذه الأراضى ، عن مدى الاستغراق فى الوهم ، والتردى فى الخيال . بل ينساق أفلاطون بفكره الفلسفى الغارق فى الوهم والخيال ، إلى ربط غريب بين هذه الأرض التى حسبتها رؤيته الأسطورية من ناحية ، ومصائر النفوس والناس من ناحية أخرى . وفى كثير من المواضع ، يكون التصور الأفلاطونى الذى ابتدع هذا الربط الغريب غامضاً ومبهماً إلى حد كبير ، يضلل ولا يرشد .

ومن بعد أفلاطون الذى حاول أن يوجه التفكير الجغرافى عن الأرض فى الاتجاه العلمى ، فانحدر به إلى التخريف الأسطورى ، جاء أرسطو لكى يعيد التفكير الجغرافى إلى صوابه ، فى اطار أسلوب فلسفى علمى رشيد . ومن الجائز أن تردى أفلاطون فى الخطأ عندما أكد على سكون الأرض ، وعلى وضعها فى مركز الكون الفسيح . ولكن المؤكد أنه أورد من خلال منهج علمى الأدلة والبراهين التى تؤكد على كروية الأرض . كما ذهب أرسطو من خلال الخبرة الرياضية ، إلى تقدير طول محيط الأرض الذى قدره بنحو ٧٣ ألف كيلومتر .

وتمادى فكر أرسطو المتفتح ، فى تصور المعمور من الأرض ، فذكر أنه يشمل مساحة على شكل مستطيل ، طوله ينتشر فيما بين أسبانيا

والهند ، وعرضه يمتد فيما بين أثيوبيا وبحر أزوف . أما عن المحيط فيما وراء غرب أسبانيا فهو فى تصور أرسطو محيطاً عظيماً يطوق الأرض تماماً . وبلغ فكر أرسطو قمة الصدق وسلامة الرؤية الجغرافية الكلية ، عندما أدرك مدى التطابق بين النصف الشمالى والنصف الجنوبى من الكرة الأرضية مناخًا . بمعنى أنه تصور تكرار النطاق الحار ، والنطاق المعتدل ، على امتداد النصفين الشمالى والجنوبى من الأرض .

وفى الجغرافية الطبيعية الكاشفة عن خصائص الأرض ، فقد انساب الفكر الفلسفى الاغريقى ، باحثاً ومتقصياً الحقائق التى تبين هذه الخصائص . وقد تأتى هذا الفكر الفلسفى وأسفر عن حصاده ، من وراء ملاحظة بعض الظاهرات الطبيعية ، التى كانت لافتة للنظر فى بعض أنحاء الأرض . ومن الجائز أن انكب هذا الفكر على مزج أو خلط بين الحقيقة والخيال ، وإن استغراق فى تصورات أسطورية غريبة ، وهو يناقش الظاهرات الطبيعية . ولكن المؤكد أن أسفر هذا الفكر الفلسفى ، عن صياغة قاعدة ، أو أرضية صلبة ، وهو يغرس النواة العلمية ، لحساب البحث الموضوعى ، عن بعض خصائص الأرض الطبيعية .

وفى سياق السرد الأسطورى الغارق فى الوهم والخيال ، دس الفكر الفلسفى الاغريقى بعض التصورات ، التى صورت رؤيته الكاشفة عن بعض جوانب چيولوچية عن الأرض أحياناً ، أو عن بعض جوانب چيمورفولوچية أحياناً أخرى . وما من شك فى أن زينوفان قد لفت النظر إلى الحفريات وأثار انتباه الفكر ، وهو يصور التداخل بين اليابس والماء ، عندما عثر على مخلفات الحياة البحرية ، فى أحضان تكوينات الجبال فى أكثر من موضع . وقد تأسس على ذلك التصور ، الذى بين كيف تكون سهل تساليا على رواسب بحرية ، ارتفعت بفعل حركة رفع أرضية ، تسببت فى حدوث الانكسار أو الصدع ، الذى تسرب من خلاله الماء وتنكشف الأرضية السهلية .

وعن البحر ، وضع أرسطو نظرية عن أحواض البحار . وقد بين فيها كيف أن السواحل التى تحدد امتداد البحر تتغير ، على المدى

الزمنى الطويل . كما ناقش أرسطو بقدر كبير من التدبر والتفكير، حركات الماء فى البحر . ومن الجائز أنه لم يفطن – بالفعل – إلى حقيقة المد والجزر . ولكن المؤكد أن هذا النقاش قد فتح باب الاجتهاد الذى انكب على تصور ارتفاع الماء مع المد ، وانحساره مع الجزر ، وكيف كانت هذه الحركة من وراء الطوفان . وربما كان هذا التصور من الأهمية ، إلى الحد الذى دفع هيردوت – فيما بعد – إلى تصوير حركة المد والجزر اليومية ، فى حضن واحد من خلجان بحر ايجه تصويراً فنياً .

وعن الحركات الباطنية والتقلبات الأرضية ، التى تتسبب فى الزلازل والبراكين ، انكب الفكر الفلسفى الاغريقى على وضع وتصور نظرية عقلية تفسرها . ومن الجائز أن نتبين كيف انغمست هذه النظرية فى بحر الخيال الأسطورى الغريب ، وكيف نسبت الزلازل والبراكين لغضب الآلهة التى تهز الأرض هزاً ، أو التى تقذف سطحها بالحمم والصهير . ولكن الصحيح أيضًا أن أرسطو حاول أن يتصور دوراً وظيفياً لحركة الرياح، وكيف تتسلل من مسارب ومنافذ فى الأرض، لكى تهز كيانها هزاً عنيفًا ، أو لكى تفجر النار والحمم من باطنها الملتهب .

وعن الأنهار والجريان النهرى ، اهتم الفكر الفلسفى الاغريقى بظاهرة الارساب ، أو الاطماء وما تسفر عنه من بناء أرضى . وتصور هذا التفكير من خلال رؤيته التأملية فاعلية هذا البناء ، وكيف يصنع الرواسب الفيضية ويبنى الدالات النهرية . وقد انساق هذا التفكير الفلسفى إلى معالجة مسألة الجريان النهرى ، فخلط بين الحقيقة والخيال. وأعطى أفلاطون وأرسطو تصورات غريبة ، تحكى عن مسألة الجريان النهرى السطحى والجريان النهرى الجوفى . بل لقد زعم أرسطو أن ثمة خزانات أرضية زاخرة بالماء تمد الأنهار الجارية بالماء ، لكى تواصل جريانها .

وعن المناخ وأحوال الجو ، انبرى الفكر الفلسفى الاغريقى – بكل التدبر – لاستشعار خصائص المناخ ، ومدى التغير الذى يطرأ على أحوال الجو من وقت إلى وقت آخر . ولقد تلمس هذا التفكير دس ادراكه

للمناخ فى ثنايا السرد الأسطورى فى بعض الأحيان . ومن الجائز أن هذا الفكر قد تحسس العلاقة ، بين خصائص المناخ وأحوال الاقليم أو الأقاليم ونبض الحياة فيها . ولكن المؤكد أنه انكب على تصور العلاقة بين المناخ من ناحية ، وصفات الناس وطبائع الشعوب من ناحية أخرى . وتمادى هذا الاجتهاد إلى حد استشعار تأثير المناخ وحالة الجو فى مسيرة ووجود حركة الحياة .

وامعاناً فى التفكير فى المناخ وتأثيره واختلافه من مكان إلى مكان آخر ، أخرج هذا الفكر الفلسفى الاغريقى ، أول أو اقدم محاولة مفيدة ، تقسم العالم إلى عدد من الأقاليم المناخية المتميزة . وصحيح أن هذا التقسيم العتيق قد بنى على درجات العرض ، وما يترتب عليها من اختلاف فى الحرارة ، وبالذات للفصل بين اقليم واقليم آخر ، ودون أن يفطن هذا التفكير إلى كل العوامل الأخرى التى تعدل الحرارة . ولكن المؤكد أن هذا التفكير قد اتجه فى الاتجاه الصحيح إلى حد كبير ، وخاصة عندما تلمس أثر بعض العوامل المحلية ، وكيف تكون من وراء اختلافات مناخية هامة وجوهرية ، بين الأقطار فى اطار الاقليم المناخى الواحد .

وعن الغلاف الحيوى النابض بالحيوية والحياة على سطح الأرض ، تصدى الفكر الفلسفى الاغريقى لمدى التنوع الحيوى من ناحية ، ولكنه بحث فى كنه وماهية النشأة والتطور الحيوى من ناحية لخرى . وأفلح انكسمندر فى تصور العلاقة الأصولية بين الماء والحياة . وقد ساد اعتقاد غالب بين المفكرين الاغريق ، يصور كيف نشأت الحياة فى البحر ، وكيف تسللت من البحر إلى البر . وتمادى هذا التفكير فى أمر الحياة ، لكى يتصور كيف تطورت الحياة من كائنات بسيطة التركيب دنيئة ، إلى كائنات معقدة التركيب راقية . وهذا – من غير شك – علامة على أن الفكر الفلسفى الاغريقى ، قد وضع أول لبنة فى مسألة تطور الحياة فى أحضان الأرض ، على المدى الچيولوچى الطويل .

بل ويجب أن نؤكد أن الفكر الفلسفى الاغريقى الذى انبرى من خلال الملاحظة إلى تقصى بعض الحقائق الطبيعية ، وأدلى بفكره فيها لم يقف اهتمامه عند حد معين . ومن الطبيعى أن نستشعر كيف اجتهد

اجتهاداً فكرياً عميقاً ، وهو يقدم على تصور تفسير معين يقتنع به ، لكى يفسر هذه الحقائق ، أو وهو يتلمس العلاقة بين الحقيقة الطبيعية الجغرافية والحياة على الأرض . ومن الجائز أن يشطح هذا الفكر ويتردى فى الخطأ ، أو يحلق فى الوهم والخيال الأسطورى ، أو أن يبتعد عن الواقعية السوية . ولكن المؤكد انه أعطى أول خطوة فى الاتجاه الصحيح ، وهو يحتم على التفكير الجغرافى البحث عن تفسير أو البحث عن العلاقة . بمعنى أنه لم يقف عند حد عرض الصورة الجغرافية ، بل تلمس السبيل الكاشف ، عما يمكن أن يكون وراء الصورة .

وفى **الجغرافية الوصفية** ، تطلع الفكر الفلسفى الاغريقى ، إلى استيعاب وتدبر حصاد المغامرات الجسورة التى انبرى المغامرون فيها إلى كشف النقاب وتوسيع دائرة المعرفة بكثير من أنحاء الأرض من حول بلاد الاغريق . وهذا معناه أن فريق المغامرين قد اجتهد وتولى مسئولية الكشف الجغرافى ، وأن المفكرين قد انكبوا على تدبر نتائج هذا الكشف . ومعناه أن الرحلة كانت مطية هذا الاتجاه ، وأن التفكير كان استثماراً مفيداً لحساب الانجاز الجغرافى ، الذى استفاد من هذه الرحلة .

هذا ، وينبغى أن نتصور كيف انفتح الفكر الفلسفى الاغريقى انفتاحًا من غير حدود ، لكى يستوعب حصاد الاجتهادات الجغرافية الأقدم ، وهى تحكى فى السياق الأسطورى وتخلط بين الحقيقة والخيال ، فى مجال توصيف الأقطار التى شهدتها أو استمعت إلى الرواية عنها . وما من شك فى أن هذا الانفتاح قد فتح شهية الفكر الفلسفى الاغريقى ، لكى يتدارس حصاد الاجتهاد الجغرافى المغامر ، فى صحبة البحارة أو التجار العاملين فى البر والبحر (١) ، أو فى صحبة الجيش العامل فى خدمة أحلام الاسكندر الأكبر (٢) .

---

(١) نضرب لذلك مثلاً بمدى الانتفاع برحلة بتياس الاغريقى فى القرن الرابع قبل الميلاد فى المحيط وصولاً إلى غرب أوروبا . ومن الجائز أنه قد تطلع إلى تجارة القصدير وتجارة العنبر ، من خلال مغامرة بحرية إلى الجزر البريطانية . وقد حقق هدفه التجارى بالفعل ، ولكن المؤكد أنه قد سجل وصفاً جغرافياً جيداً عن أحوال الناس وأوطانهم فى أنحاء هذه الجزر .

(٢) قاد الاسكندر التحرك الاغريقى المنتصر على كل الجبهات فى آسيا =

وتراث الفكر الاغريقى ، فى جعبته حصيلة مفيدة وثرية ، عن المعرفة الجغرافية . ومن شأن هذه الحصيلة أن تعبر - بكل الصدق - عن تصاعد الاجتهاد الجغرافى الذى انبرى له نفر من رجال مغامرين، خرجوا فى صحبة التحرك الاغريقى براً وبحراً فى أنحاء متفرقة . وما من شك فى أنهم وضعوا أول تمييز واضح ، بين القارات آسيا وأوروبا وأفريقية فى جزيرة العالم . ويصرف النظر عن مدى الخلط بين الحقيقة والخيال فى السرد الأسطورى ، ويصرف النظر عن الصور المبهمة والشخصيات الأسطورية والغرائب الكاذبة فى التصوير أو التوصيف الجغرافى ، الذى أسفر عنه هذا الاجتهاد المغامر ، ينبغى أن نستشعر صدى الفكر اليونانى وتعلقه بأمل التدبر الواعى للكشف الجغرافى ، والتعرف على الأقطار وصور الحياة فى أحضانها .

وعلى الصعيد الأوروبى ، كان النشاط التجارى الاغريقى البحرى والبرى على حد سواء ، من وراء معرفة جغرافية وتوصيف جغرافى عام لبعض أنحائها . ومن الجائز أن التوغل الاغريقى إلى القلب الأوروبى لم يحدث إلا من بعد عام ٦٥٠ قبل الميلاد . ولكن المؤكد أن الاستيطان الاغريقى فى بعض مستعمرات خصوصية على شروم وخلجان الساحل الأوروبى ، قد أتاح رؤية جغرافية مبكرة فى الظهير المباشر ، وتسجيل هذه الرؤية عن قطاعات من أوروبا الجنوبية والجنوبية الشرقية ، على وجه الخصوص .

= وأفريقية فى القرن الرابع قبل الميلاد . وقد اصطحب مع الجيش نفراً من المفكرين علامة على استشعاره قيمة العلم والتفكير ، وعلى تطلعه رأى كشف النقاب عن المجهول وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض والناس . ولقد راودت الاسكندر الأحلام ، لكى تتحقق أكثر من رحلة بحرية تدور حول جزيرة العرب من الخليج العربى إلى البحر الأحمر (الاريترى) . وسارت بالفعل رحلة بحرية مغامرة فيما بين مصب نهر السند والخليج العربى . وسير رحلة برية مغامرة أخرى فى قلب جزيرة العرب المجهول ، تلتمس الطريق وتكشف النقاب عن طريق البخور الذى يخترق جزيرة العرب . ومن خلال العرض الاسطورى الذى أسفر عنه الفكر الفلسفى الاغريقى تمجيداً للاسكندر وبطولته الفذة ، تدارس هذا الفكر أهم حصاد هذه الرحلات المغامرة، لحساب الاضافة إلى رصيد المعرفة الجغرافية .

هذا وقد اقتحم هيرودوت بذكاء ميدان التسجيل الجغرافى عن أوروبا . وقد التمس توصيف الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا . كما أورد فى توصيفه الجغرافى ذكر المجارى النهرية فى أوروبا الشرقية ، وصور وضع البحر الأسود وبحر أزوف ، والجريان الرتيب فى نهر الدانوب . وفى مقابل التسجيل الذى كشف أبعاد هذه الرؤية الجغرافية والانفتاح على شرق أوروبا ، أسهمت رحلة بثياس عن رصيد سجل الرؤية الجغرافية ، فى ظهير ساحل أوروبا الغربية والبحر البلطى . وهذا معناه اجتهاد ود لو أنه كشف النقاب وعرف الطريق ، لكى تغطى الرؤية الجغرافية أوروبا بأسرها .

ويصرف النظر عن الخطأ والتخبط والاستغراق فى سوءات الخلط بين الواقع والخيال ، ويصرف النظر عن شطحات الفكر فى التصور الأسطورى المبهم الغشيم ، ويصرف النظر عن سقطات هيرودوت وزلات بثياس وأخطاء غيرهم ، ممن أسهم اجتهادهم البرئ فى كشف النقاب عن أوروبا ، ينبغى أن نؤكد على قيمة التسجيل الاغريقى ، وهو يميط اللثام عن قطاعات من أرض أوروبا وصور الحياة فيها . أو ليس هذا هو الانفتاح الحقيقى ، الذى فتح الباب على مصراعيه ، لكى يتوالى من بعد الاغريق ورؤيتهم الجغرافية ويتصاعد الاجتهاد الجغرافى للكشف عن أوروبا ، وادخالها إلى مسرح التاريخ الذى يوجه أحداثه ويحرك مسيرته ، ويسجل نبض أصحاب الحضارات فى حوض البحر المتوسط ؟

وعلى الصعيد الآسيوى ، كان النشاط التجارى الاغريقى البرى والبحرى والنشاط الحربى المنتصر على حد سواء ، من وراء معرفة جغرافية ، وتوصيف جغرافى عام كاشف عن بعض أنحائها . ومن الجائز أن بدأ التسلل الاغريقى بداية مبكرة إلى بابل ، واستوعب تراثها وتعايش على زادها الحضارى العتيق . ولكن المؤكد أن الانتشار الفارسى والانتصار الامبراطورى ، قد أجهض هذا التسلل ، وأوقفه وجمد فاعليته لبعض الوقت . ومع ذلك فلقد استثمر الاجتهاد الجغرافى الاغريقى هذا التسلل ، استثماراً نتبينه من خلال البيان الجغرافى الذى

سجله الاغريقى هيكاثيوس ، فى القرن الخامس قبل الميلاد . وفى هذا البيان تصوير للرؤية الجغرافية الاغريقية التى جمع هيكاثيوس أوصالها وصاغ صورتها وبيانها ، من خلال استيعاب الروايات التى أصغى إلى رواتها . كما سجل هيرودوت بدوره الرؤية الجغرافية عن أقطار آسيوية، مثل ايران والهند اعتماداً على معلومات أسفرت عنها بعض الرحلات المغامرة فى آسيا .

وفى كنف السلطة الفارسية ، وتحت سمعها وبصرها ، انطلق الاجتهاد الاغريقى – بكل الجدية – إلى الرحلة وجمع المعلومات الجغرافية من بعض أنحاء من آسيا الغربية . واستطاع بعض الرحالة المغامرين مثل سكايلاكس وكتسياس من التجول وتسجيل الرؤية الجغرافية فى تلك الأنحاء (١). وما من شك فى أن حصاد الاجتهاد الجغرافى الذى استهدفته الرحلة كان خطوة مهمة على الطريق ، التى قادت الانطلاق الاغريقى – بكل الحماس – الذى انفتح على آسيا ، وتطلع إلى توسيع دائرة رؤيته الجغرافية فى أنحائها .

أما الانطلاق الحقيقى وعلى أوسع مدى فقد تحقق عندما استثمر الاجتهاد الجغرافى انتصار الاسكندر الأكبر . وما من شك فى أن الرحلة فى البر والبحر ، قد استشعرت الأمن والأمان ، وهى تسعف الاجتهاد الجغرافى الاغريقى ، لكى يفتح لها السبل ويرشده . والمهم أن الفكر الاغريقى قد انكب على استيعاب حصاد هذا الاجتهاد ، وتولى تسجيل المعرفة الجغرافية وتزويد التراث برصيد هذه المعرفة .

وعلى الصعيد الافريقى ، كان الاجتهاد الاغريقى البحرى ، وفى صحبته الاجتهاد الجغرفى من وراء عرض الرؤية الجغرافية الكاشفة عن بعض أقطار افريقية . ويمكن أن نتصور كيف أدى هذا الاجتهاد دوره

---

(١) يشهد كتاب كتسياس عن الهند على حصافة ومهارة الاجتهاد الجغرافى الاغريقى ، فى كنف السلطة الفارسية . ومن الجائز أن يحتوى هذا الكتاب على كثير من الأخطاء والمعلومات الزائفة ، وأن يتردى كاتبه فى سقطات وزلات تشوه رؤيته الجغرافية . ولكن المؤكد ان اخراج هذا الكتاب علامة على جرأة الاجتهاد الاغريقى ، وهو يتصدى لكشف النقاب عن الهند .

الوظيفى . من خلال استيطان ووجود أغريقى تشبث بسواحل برقة وليبيا ، أو من خلال انفتاح أغريقى مصرى متبادل . وهذا معناه أن تهيأت لانفتاح حقيقى أغريقى على الأرض الأفريقية . ومعناه أن نشأت الخبرة وبدأت المحاولات فى البر والبحر ، من أجل كشف النقاب عن أنحاء أفريقية فى ظهير الساحل الشمالى .

وقد اعتمد الاجتهاد الجغرافى الاغريقى على الرحلة البرية للتوغل فى الظهير الافريقى ، بقدر اعتماده على الرحلة البحرية للاقتراب من السواحل الأفريقية الشمالية (١) . ومن الجائز أن واجه التحرك الاغريقى البحرى التحدى ، الذى خذلهم وأحبط آمالهم . ومن الجائز أن كان هذا التحدى من صنع الخيال الفينيقى فى قرطاجنة ، الذى أدخل فى روع الاغريق – كذباً – أن المحيط غرب أفريقية ضحل ، لا يصلح للرحلة البحرية ، وسدوا الطريق فى سبيلهم . ولكن المؤكد أن التحرك الاغريقى قد واجه التحدى الصحراوى ، الذى أقام سداً وحاجزاً مانعًا تغلغلهم فى اتجاه القلب الافريقى . وهذا معناه أن أكثر من عقبة قد أحبطت التطلع الاغريقى ، وأجهضت اجتهادهم الجغرافى على الصعيد الافريقى (٢) .

من خلال رحلات محدودة أوقفت مسيرتها التحديات الصعبة فى البر والبحر ، ومن خلال روايات وقصص أسطورية وحكايات ، اعتصر الاجتهاد الجغرافى معرفته بالأرض الافريقية ، فى أضيق اطار لا يتجاوز بعض وليس كل الظهير المباشر للساحل الشمالى . ولم يكن غريباً أن تكون هذه المعرفة سطحية . بل لعلها كانت معرفة تضلل ، ووقع الفكر الجغرافى فى سقطات وأخطاء فاحشة . وليس أدل على ذلك من تردى

---

(١) رفض الفكر الاغريقى قصة الطواف حول افريقية التى رواها هيردوت ، واعتقد فى استحالة هذا الطواف . ويبدو أن تجارة البحار الجنوبية قد استقطبت معظم الاجتهاد الاغريقى .

(٢) افتقد التحرك البرى الاغريقى الجمل ، الذى لم يكن قد شاع استخدامه فى مصر حتى ذلك الوقت ولم يجد فى الحمار وسيلة مناسبة لاختراق حاجز الصحراء

هيردوت فى الخطأ الشنيع ، وهو يتصور جريان النيل وانسياب أحباسه العليا من جبال أطلس فى شمال غرب أفريقية وجريانها على محور غربى شرقى مسافات طويلة (١) ، قبل أن يتغيّر اتجاهه ، ويصبح من الجنوب إلى الشمال فى مصر (٢) .

وفى الوقت الذى أحبطت فيه الصحراء الافريقية الرحلة الاغريقية البرية ، ولم يسعفها النيل بجنادله ولم يفتح لها الحمار الطريق إلى القلب الافريقى ، والذى غرر فيه السرد الأسطورى الفينيقى بالرحلة الاغريقية البحرية ، ولم تنطلق فى المحيط غرب أفريقية ، فى هذا الوقت نفسه ، تصدت العناصر الافريقية البدائية الشرسة ، للتوغل الاغريقى الذى حاول التسلل من مراكز التجارة الاغريقية ، التى تناثرت على ساحل البحر الأحمر (الارترى) وساحل شرق أفريقية إلى القلب الافريقى . وهذا معناه أن الاجتهاد الاغريقى لم يملك حرية الحركة على الصعيد الافريقى . ومعناه أيضًا أنهم أطلوا على ظهير محدود من الأرض الأفريقية ، وتطلعوا من وراء حواجز طبيعية أو بشرية ، تطلعًا لم يسفر عن روية جغرافية سوية . ومن ثم كان حصاد الاجتهاد الجغرافى على الصعيد الأفريقى زائفاً أو غامضاً . وقد أوقع هذا الزيف أو الغموض الفكر الجغرافى ، الذى تدبر الرؤية الجغرافية فى الضلال والخطأ .

---

(١) زعم هيردوت بوجود منابع النيل فى جبال اطلس يمثل تصوراً بنى تحت تأثير النظام السميترى ، الذى انزلق فيه الفكر الاغريقى بصفة عامة . ويبدو أن التشبث بفكرة السميترية قد دعت إلى تصور جريان النيل فى نفس الاتجاه الذى يجرى فيه نهر الدانوب .

(٢) توغل هيردوت فى اتجاه جنوب مصر سنة ٤٤٨ قبل الميلاد . وقد وصل بالفعل إلى فيله قرب مدينة اسوان . وقد هيأ له هذا التوغل أن يشهد النيل ، وأن يشده لكى يسجل دراسة عنه . ومن الجائز انه أخفق فى الكشف عن منابع النهر وأماطة اللثام عن المجهول فيما وراء مصر جنوبياً . ولكن المؤكد أن هيردوت قد أشار إلى منابع حبشية بالاضافة إلى المنابع التى تصور انسيابها من جبال أطلس . وبصرف النظر عن سقطات وزلات هيردوت ، إلا أنه فتح الباب على مصراعيه وشد انتباه الفكر الاغريقى إلى النيل . وقد تحقق بالفعل اهتمام ارسطو بالنيل وناقش اهميته . بل لقد انساق هذا الفكر الاغريقى إلى حد المحاولة ، التى تصدت لتفسير ظاهرة الفيضان ، والضوابط الحاكمة لتغيير مناسيب الجريان فى هذا النهر ، من موسم إلى موسم آخر .

وفى مـجـال اعـداد وتجهـيـز الخـرائط التى تمثل شكلاً من أشكال التعبير عن المعرفة الجغرافية ، ينبغى أن نفطن إلى أن الاجتهاد الاغريقى لم يبدأ من فـراغ . ذلك أنه قد انتفع واسـتـثمر خبـرة وحصاد الاجتـهادات الجغرافيـة الأقدم والأسبق . ومع ذلك فقد تأتى هذا الاجتـهاد الاغريقى – بكل التفـتح – لكى يسجل نقطة تحول فى انجاز وابداع الخـريطة للعالم . وهناك خريطتان على الأقل قد أوضحت هذا التحول .

وتمثل الخـريطة التى أسـفـر عنهـا تصـور انكسـندر أول خـريطة للعالم. وقد رسمت هذه الخريطة الرائدة فى القرن السادس قبل الميلاد. وتصور هذه الخريطة الأرض قرصاً فى محيط يطوقها . ومن الجائز أن انكسـمندر قـد تحمس لموطنه ، فـوضع اليونان فى مـركـز هذا القـرص الأرضى . ومع ذلك فإن مطالعة هذه الخريطة تصور مـدى الحرص على عناية بتسـجيل كل الحقـائق المعـروفـة عن الأرض . ولأن هذا الاغـريقى كـان حـريصـًا على أكبر قـدر من الصـدق الموضـوعى ، فـقـد ترك بعض المساحات الكبيـرة بيـضاء على الخريطة ، اعتـرافًا بجـهله بهـا وتأكيـداً لصدقه .

أما الخريطة الثانية فهى التى تمثلت فى محاولة هيكاتيوس فى سنة ٥٠٠ قـبل الميلاد . وهـذه بدورها خـريطة كليـة للعـالـم أضـيـفت إليـهـا تفاصيل كثيرة لم تتضمنها خريطة انكسمندر . وفى اعتقاد الجغرافيين المنصفين أن هذه الخريطة تمثل نقطة انطلاق حقيقية فى رسم الخريطة العالمية ، التى تحكى أو تعبرعن المعرفة الاغريقـية الجغرافية على صـعيد جزيرة العالم [١] . ومن الجائز أن رسم الخـريطة قـد أخطأ عندمـا وضـع البـحـر المتوسط وبحـر قـزوين ، لكى يفـصل بين أوروبا فى الشـمال وأسيا

---

(١) قام هيردوت برسم خريطة للعالم . كما كانت أبعاد العالم فى تصوره . ويبدو أن هيـردوت كـان من الرافـضين لفكرة اسـتدارة الأرض . ومـن ثم رسم هذه الخريطة لكى تتخذ شكلاً طولياً . وعلى هوامش هذه الخـريطة ، ترك هيردوت مساحات كثيرة دون أن يحدد سواحل تحدد شكل اليابس . وكأنه كان يرفض أيضاً فكرة احاطة البحـر المحيط بالأرض ، كما وردت فى خريطة هيكاتيوس . وربما كان ذلك ايضاً تعـبيراً عن مـدى الجهل بشـكل اليابس ، وصـدق تعبيره عن هذا الجهل

فى الجنوب . ولكن الذى يهم فى هذه الخريطة هو أن الشكل العام يعطى الانطباع الذى يشعر ويصور مدى معرفتهم العامة عن جزيرة العالم (١) .

* * *

مهما يكن من أمر ، فقد أفلح الفكر الفلسفى الاغريقى فى تبنى الاجتهاد الجغرافى . وما من شك فى أن الفكر الجغرافى القديم ، الذى سجل ابداع العقل الاغريقى سار فى الاتجاه الصحيح أولى خطواته بأقدام ثابتة . وعندئذ تبدأ – بالفعل – مسيرة فكرية حافلة بما يشبع تطلع الانسان للمعرفة الجغرافية . ومن الجائز أن نعيب الخلط بين الحقيقة كما ينبغى أن تكون ، والخيال كما حدث بالفعل ، وكيف تسبب فى تشويه الفكر الجغرافى وتقدمه بطيئًا . ولكن الذى لا شك فيه أن ومضات هذا الفكر المتفتح كانت مضيئة وكاشفة ، وهى تبصر خطوات المسيرة الفكرية الجغرافية المتأنية ، فى المرحلة التالية فى كنف التفوق المصرى البطلمى .

* * *

الفكر الجغرافى المصرى اليونانى :

من الجائز إن كانت وفاة الاسكندر فى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد مسئولة عن صدمة عنيفة ، بددت شمل التوسع الاغريقى الامبراطورى . ولكن المؤكد أن التواجد البطلمى الذى انتصر فى حيازة مصر ، كان من وراء استقطاب أهل الفكر وأقطاب الاجتهاد الاغريقى ، واغرائهم للاستقرار فى أحضان العز والرفاهية والتقدم الحضارى فى مصر . وعندئذ يجب أن نتصور كيف أصبحت مصر مركز الثقل فى حوض البحر المتوسط ، حضاريًا وسياسيًا واقتصاديًا وفكريًا ، وكيف أقام البطالمة صرحًا شامخًا احتوى الفكر والمفكرين ، وأجزل لهم العطاء

---

(١) اتسم تسجيل هذه المرحلة بالصدق . ولعلهم حرصوا كل الحرص على تسجيل المعلومات التى يثقون فيها ، ومن ثم تركوا بعض المساحات المجهولة بيضاء .

فى أحضان الاسكندرية (١) .

هذا ويلفت النظر أن مدرسة الاسكندرية ، قد عاشت الانفتاح وفتحت أبوابها ، لكى يفد إليها المعلم وطالب العلم ، من كل حدب وصوب . وبشر الأداء الذى باشره العلماء بالتوجه الحقيقى إلى العمومية ، التى أفضت إلى العالمية . بمعنى أن انتهت تمامًا مرحلة التفكير الجغرافى فى اطار الخصوصية المدنية ، وبدأت مرحلة الانطلاق الصحيح إلى العالمية .

وما من شك فى أن البطالمة قد لعبوا دوراً بارزاً ، فى تنشيط وانعاش الأداء العلمى ، الذى تفرغت له مدرسة الاسكندرية (٢). وقل أنهم كفلوا مناخًا مناسبًا ، خيمت عليه الحرية والاغداق المادى السخى ، وهى التى أمنت وأنعشت وحفزت تفكير واجتهاد وعمل العلماء . بل قل أنهم قدموا الدعم وأجزلوا العطاء ، الذى أشبع العلماء ولبى مطالبهم المشروعة . بمعنى أن باشر العلماء اهتماماتهم ، وهم ينعمون بالأمن والاغداق السخى . وتألقت أعمالهم وانجازاتهم وتوارث العلماء على المدى الطويل ، أسباب التفوق واكتساب السمعة العلمية الحسنة .

وما من شك فى أن المكتبة العلمية ، التى جمع البطالمة فيها ، أعظم ما أسفر عنه الفكر الاغريقى والمصرى من تراث ، قد أشبع نهم العلماء والمفكرين المبرزين (٣) ، بل قل أن العطاء السخى الذى قدمه البطالمة لأهل العلم والفكر الوافدين إلى رحاب الاسكندرية ، قد فتح شهية الاجتهاد وشحذ الفكر ، لكى تتوالى الأجيال المجتهدة العاملة فى كل

---

(١) الاسكندرية مدينة من صنع الانتصار لحساب الوجود اليونانى الذى تشبث بمصر . وقد عكف البطالمة بعد أن قدر لهم أن يرثوا حكم مصر بعد الاسكندر، على دعم مكانة الاسكندرية . وما من شك فى انهم صنعوا كل ما يجب أن يصنع ، لكى ترث الاسكندرية أثينا ، حتى أصبحت بالفعل منارة العلم والمعرفة وحصن المفكرين فى العالم .

(٢) شهدت مدرسة الاسكندرية ، التحول من علم له خصوصية الانتماء لمدنية من المدنيات القديمة ، الى علم تحلى بانفتاح سجل خطوة رائدة فى مجال العالمية . وقد تجمع فيها العلماء وطلب العلم من كل حدب وصوب

(٣) تولى بطليموس فيلادفيوس مسئولية تزويد مكتبة الاسكندرية بالكتب التى تزخر بالتراث الفكرى العالمى كما تولى أيضاً مهمة تقديم الحوافز والعطاء السخى لاستقطاب المفكرين إلى الاسكندرية .

حقول الفكر بصفة عامة ، ولكى ينجلى الابداع فى حقل الفكر الجغرافى بصفة خاصة (١) .

هذا وقد أفلحت شخصية مصر فى تمصير المفكرين الوافدين إليها، واذابتهم وصهرهم فى سبيكة البناء البشرى المصرى بعد وقت قليل . ومن ثم كان الاجتهاد الجغرافى والفكر الذى تدبر ثمرة هذا الاجتهاد مصرياً من حيث الانتماء ، ويونانيًا من حيث اللغة التى سجلت ابداعه واضافته إلى رصيد الفكر الجغرافى (٢) . بل لقد تفتحت مدرسة الاسكندرية الفكرية وتولت تنشئة أجيال من المفكرين الجغرافيين ، الذين اعتزوا بهويتهم المصرية ، وتحملوا مسئولية تطوير وتحويل مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه الصحيح .

ويصرف النظر عن دور المدرسة الفكرية الاسكندرانية الوظيفى البناء ، الذى ساق الفكر الجغرافى فى الاتجاه السوى ، ينبغى أن نتصور كيف استفاد الفكر الجغرافى من وجوده فى الاسكندرية مرتين . مرة وهو يستثمر العمق الحضارى والثراء الحضارى ، الذى صنعه الاجتهاد الحضارى المصرى المبدع على المدى الطويل ، ومرة أخرى وهو يستثمر المناخ الفكرى العلمى الآمن فى أحضان الاسكندرية . بل

(١) ازدهار الفكر فى أحضان الاسكندرية ، كان معناه – بكل تأكيد – تحول الفكر من الاطار الاغريقى القومى المحدود الذى ساد فى أحضان أثينا ، إلى الاطار الواسع العالمى الفضفاض . وهذا معناه التفتح والانفتاح من غير حدود على العالم لحساب الانسان . ومعناه أيضًا أن اجتماع العلماء فى أحضان الاسكندرية وتكوين مدرسة الفكر الاسكندرانى ، قد جعل من الاسكندرية بوتقة ، ينصب فيها الاجتهاد الفكرى الواعى ، الذى أطلع على أهم تراث الانسان فى مصر وبابل وفارس واليونان والهند ، لكى يكون الصهير فكراً متجدداً عالمياً ، ومعناه مرة ثالثة أن الفكر الاسكندرانى قد تولى – بكل الكفاءة والثقة – زمام المسيرة الفكرية ، لكى تكون الاضافة فى كل علم وفى كل فن .

(٢) أشاع انتصار الاسكندر الامبراطورى ودوره الأسطورى الرائع ، الذى تألق فى الأقطار التى سجل فيها انتصاره الباهر ، الثقافة اليونانية على أوسع مدى . بل لقد ازدهرت هذه الثقافة اليونانية ، وأفلحت فى تثبيت جذورها ، لكى تصبح اللغة اليونانية ، وهى لغة العلم فى هذه الأقطار على مدى حوالى ثلاثة قرون كاملة بعد وفاة الاسكندر .

وينبغى أن نستشعر أيضاً كيف استثمر الفكر الاسكندرانى المتألق فى ظل مصر ، عز البطالمة وسخاء عطائهم من العلوم الطبيعية والرياضية، وكيف بصر هذا الاستثمار المفكرين الذين تحملوا مسئولية الفكر الجغرافى ، وعملوا على تزويد رصيده بكل جديد .

هذا وقد كرس التفكير الجغرافى الموضوعى ، الذى ترعرع فى أحضان المدرسة الفكرية الاسكندرية ، كل اهتمامه ، لكى يتولى الاضافة المجددة والابداع . إلى رصيد كل فرع من فروع الجغرافية ، التى أسفر عنها الفكر الفلسفى الاغريقى فى أحضان اثينا . وصحيح أن نشأة التفكير الجغرافى الموضوعى فى رحم فلسفى أغريقى مفكر ، قد أنجب وليداً سوياً وشرعيًا . وصحيح أن هذا الوليد السوى الشرعى قد تولى أمره المفكرون الاسكندرانيون ، الذين سجلوا لأنفهسم الريادة فى التخصص الباحث – بكل العمق – فى كل فرع من فروع الجغرافية وفكرها المتجدد . ولكن المؤكد بعد ذلك كله أن هذا الفريق المفكر الذى تولى أمر ، وليد الفكر الفلسفى الاغريقى ، لم يسعفه الابداع أو التجديد، لكى يضيف أو يبتكر فرعًا جديداً يضاف إلى فروع الجغرافية ، التى أبدعها وأثار قضيتها وأثرى رصيدها ، هذا الفكر الفلسفى الاغريقى .

وهكذا ينبغى أن نستشعر كيف ساق التفكير الجغرافى الموضوعى من خلال الاضافة والابداع مسيرة الفكر الجغرافى إلى الأمام ، وكيف أحجم هذا التفكير فى نفس الوقت عن بذل أى اجتهاد ، يمكن أن يسفر عن اضافة فرع أو فروع مستحدثة جديدة ، لحساب الفكر الجغرافى وتوسيع دائرة بحثه . وهذا معناه أن فريق المفكرين الجغرافيين من مدرسة الاسكندرية ، الذين جنحوا إلى شكل فج من أشكال التخصص فى التفكير الجغرافى ، قد سجلوا ريادتهم لكى تتقدم بالتوازى ، مسيرة الفكر الجغرافى المؤلفة من حصاد أو رصيد الجغرافية الفلكية والجغرافية الطبيعية والجغرافية الوصفية . هذا بالاضافة إلى التجديد والتطوير والابداع فى رسم الخرائط وتحسين دلالتها الجغرافية .

وفى الجغرافية الفلكية ، اهتم البطالمة اهتمامًا خاصًا بدعم الرصد الفلكى ومظاهرته . ومن ثم انطلق التفكير والتدبر ، وهو

يحملق فى قبة السماء ، ويعاين الأجرام وحركاتها . وقد أسفر هذا التفكير والتدبر فى الرؤية الفلكية ، عن اضافات إلى رصيد الفكر عن الكون ومكان الأرض فيه . ومن الجائز أن ندرك كيف أن اعتماد التفكير والتدبر فى الرؤية الفلكية ، على الأساس الرياضى ، قد وجه الاضافة والتجديد فى الاتجاه الأفضل . ولكن المؤكد أن التطلع إلى السماء والاهتمام بالرصد وتسجيل الملاحظات الفلكية ، قد فجر بعض الأفكار الجريئة ، التى أسفرت عن تطوير واضافة وتجديد بصفة عامة .

ومن أهم هذه الأفكار الجريئة ، فكرة دوران الأرض فى حركة يومية ، وهى مركز الكون ، التى فجرها وتحمس لها فكر هيكتاس وتدبره . وقد صور فكر هذا الرجل أيضاً كيف تدور الشمس ، ويدور القمر، كل فى فلك حول الأرض ، فى الوقت الذى تكون النجوم ثابتة مستقرة فى مواضعها لا تتحرك . وبصرف النظر عن جسامة بعض الأخطاء، التى تردى فيها هذا الفكر الجرئ ، نذكر أنه قد أطلق عنان التدبر والتفكير من بعده ، وأثار قضية هامة تطلب مزيداً من التدبر .

وحول هذه القضية ، تفجر فكر هرقليدس ، لكى يتصور حركة الأرض ودورانها مرة كل أربع وعشرين ساعة . كما تصور أراتوس المحور الذى تدور من حوله السماء ، مع توازن الأرض فى القلب الوسط المركز للكون كله . بل لقد سجل فكر ارستاركوس سبقاً واضافة جريئة أخرى ، عندما تصور كيف أن الأرض هى التى تتحرك فى فلك دائرى حول الشمس ، التى تحتل المركز القلب الوسط فى الكون ، وأن هذا الدوران السرمدى حول محور يتم دورة كاملة يوميًا أمام الشمس .

ومن الجائز أن نذكر كيف رفض المفكرون فكر ارستاركوس رفضاً قاطعًا ، وكيف استحق التجريم والمحاكمة ، لأنه دنس بفكره وخطيئته أشياء مقدسة . ولكن المؤكد أن سليكوس قد أنصف ارستاركوس وتحمس لفكرته الجريئة ، وأيد رؤيته الفكرية الذكية ، عندما تصور أن الشمس بوصفها الكتلة الأعظم فى الكون ، ينبغى أن تكون فى مركزه . ووقفة الانكار – على كل حال – علامة على أن القضية قد شغلت

العقول ، وأن التفكير قد تولى أمر تعميق المعرفة بأبعادها .

والمهم أن كـفـة الفكر الـذى قـاد حـمـلة الرفض والانكار والاسـتنكار لتصـور ارسـتـاركـوس قـد رجـحت تمامًا . بل وقـد أيد الرفض والانكار هـيباركـوس ، من خلال ردة فكـرية استنكرت فكرة دوران الأرض حـول الشمـس من أساسـهـا . واستـهـجنت وضـع الشـمـس بديلاً عن الأرض فى مركـز الكون . وكان من الطبـيعى أن يسـتـمر هـذا الخـلاف والجدل ، بين أقليـة تتبنى الـفكر الصـحيح المرفـوض ، وأغلبيـة تدافع عن الفكر الخـاطئ الرافض ، حـتى يقضى فـيه اجـتـهـاد وتفكير وتدبر المفكرين فى مـرحلة لاحقة بعد مئات السنين .

ويقـــدر اســتـنكار فـكر **هيباركوس** الـذى ضـــيع وأهـدر الـفكـرة الصـحيحـة ، ينبغى انصاف اجتهاد هـيباركوس الاسكندرانى ، الذى وضـع الرؤية الـفلكيـة ، فى اطـار المنهج العـلمى السـليم . ومن الجـائز انـه أخطأ خطأ خطيراً عندما عارض ورفض فكر ارستاركوس الذى وضـع الشـمس فى مـركـز الكون وصـور حركـة ودوران الكواكب فى أفـلاك من حولـهـا ، وأجهض الـتقدم الجـزئى فى المسيـرة الفكرية . ولكن المؤكد أنـه قد طور جـهاز الأسطرلاب ، من أجل تحسين اسـتـخدامـه فى قـياس زوايا ارتـفـاع الأجـرام فى قبـة السـمـاء . كـمـا أنـه طور استـخدام الـرياضـيات ، من أجل تحديد درجات العرض . هذا بالاضافة إلى تأكيده على ميل المحور الذى تدور من حوله الأرض دورتها اليومية السرمدية .

وهـكذا التهب التـفكير الجغرافى ، وهـو يتطلع من خـلال رؤية فلكية كلية إلى استـشـعـار كنه الكون ومكان الأرض فـيـه . كـمـا التـهـب الفكر الجـغـرافى أيضـًا ، وهـو يتطلع من خـلال حـسـابات رياضـيـة فـلكـيـة إلى قـياس أبعـاد الأرض . وهـذا معـناه اتجاه المدرسـة الفكـرية الجغـرافـيـة فى الاسـكندرية ، إلى توسيع قاعدة بحثها واهتمامها ، وإلى تكثيف اجتهادها وتدبرهـا فى خدمة هذا القطاع الـعريض من المعرفة الجغرافـية . ومعناه أيضًا بداية مبكرة فى تأهيل التفكيـر الجـغرافى تأهـيـلاً ، يكسـبه حـسـن اسـتـخـدام نتائج بعـض العلوم (الرياضـة)وتـأسـيس اضـافـاتـه وابداعـه عليها .

وفى مجال قياس أبعاد الأرض ، الذى برهن على حسن استخدام المنطق التركيبى ، اقتحم ديكاركس هذا الميدان لأول مرة ، عندما عقد العزم على هدفين هما ، تحديد خط العرض المركزى ، وقياس طوله الكلى . ومن شأن الهدف الأول الذى استهدف تقسيم متكافئ ، يحدد نصف الكرة الشمالى ونصف الكرة الجنوبى ، أن يحدد بالضبط محيط الأرض الحقيقى ، ضمناً فى نفس الوقت .وهذا معناه أن التوفيق فى الهدف الأول ، يقود الاجتهاد فى تحقيق وانجاح الهدف الثانى .

ونذكر بكل الانصاف أن ديكاركس قد فتح الباب على مصراعيه واكتسب فضل الريادة فى هذه المسألة . وقد توالت من بعده محاولات واجتهادات طوعت الحساب الرياضى من أجل قياس محيط الأرض (١). وما من شك أن كل هذه الاجتهادات قد رشدت ايراتوستين ، الذى اضطلع بمهمة هذا القياس ، وسجل قمة التفوق بمقاييس عصره فى هذا المجال(٢) . كما أنها سجلت ابداعًا واضافة ، طالما زهت به مدرسة الفكر الجغرافى فى أحضان الاسكندرية .

---

(١) تضاربت الأقوال حول من اضطلع بهذه المهمة ، من خلال تطويع الاعتماد على الحساب الرياضى . وفى رواية ينسب الفضل إلى يودوكسوس . وفى رواية اخرى ينسب هذا الفضل إلى ارتسياكوس . ومن خلال حساب التسامت النجمى بين بلدتى أسوان ولزمشيا والتى قدرت المسافة فيما بينها بما يساوى حوالى ١ : ١٥ من طول محيط الأرض ، انتهى التقدير الحسابى إلى أن طول المحيط يقدر بحوالى ٢٠٠ الف ستاديا .

(٢) ومن خلال حساب الزاوية المحصورة بين الشمس العمودية على بلدة أسوان والشمس غير العمودية على بلدة الاسكندرية فى لحظة واحدة معينة والتى بلغت ٧ درجات ، ١٢ دقيقة ، وتعادل فى نفس الوقت ١ : ٥٠ من محيط الدائرة ، استخلص ايراتوسنين طول محيط الأرض . ذلك انه تصور أن طول محيط الأرض يمثل حاصل ضرب المسافة بين الاسكندرية وأسوان وهى ٥٠٠٠ ستاديا فى ٥٠ . ومن ثم أصبح محيط الأرض فى تقدير ايراتوستينى – بصرف النظر عن احتمال الخطأ فى تقدير المسافة بين أسوان والاسكندرية – ٢٥٠ الف ستاديا . وعلى اعتبار أن الاستاديا هى المقياس الطولى المستخدم فى ذلك الوقت تساوى ١٨٥ متراً ، فإن تقدير طول محيط الأرض حسب قياس ايرانوستين يبلغ حوالى ٢٦٦٠٠ ميلاً . وهذا الرقم قريب جداً من الطول الحقيقى لمحيط الأرض ، الذى استخدمت فى قياسه وسائل أحدث ، ويبلغ بالضبط ٢٥,٠٠٠ ميل .

وفى الجغرافية الطبيعية . نتبين اتجاه التفكير الجغرافى الذى زاد تمرسه فى استيعاب الرؤية الجغرافية على سطح الأرض إلى دراسة بعض الظاهرات الطبيعية ، وتصويرها تصويراً فنياً وصفياً وكان التركيز على صور التضرس ، الذى عاينه بعض المفكرين ولفت انتباههم على امتداد سطح الأرض الرؤية الجغرافية ، والتى ميز فيها التدبر والتفكير بين أشكال هذا التضرس . وما من شك فى أن التضرس الموجب العالى الذى يتمثل على اليابس ، قد أوحى للعقل والتدبر شكل التضرس السالب الهابط الذى يحتوى البحار . ومن ثم استهوى التفكير الجغرافى تدبر موضوع اليابس والماء ، وتوزيع التضرس الذى ينتشر على سطح الأرض

ويبدو أن هذا الفكر قد انساق – بكل الجدية والاهتمام – إلى دراسة البحار ، دراسة كاشفة عن امتداد المسطحات المائية كيف يتخلل انتشارها كتل اليابس . ومن الطبيعى أن نتبين اتجاه هذا التفكير ، وهو يعاين البحر المتوسط والبحر الأسود نموذجاً لامتداد المسطحات المائية ، فى الاتجاه الباحث عن تكوين هذه البحار فى أحواض الهبوط السالف، وعلاقة منسوب الماء فيها بمنسوب الماء الذى ينساب جرياناً عذباً فى المجارى النهرية إليها . وربما قفز التفكير والتدبر بذكاء ، إلى تصور التغيرات فى منسوب ماء البحر وعلاقة ذلك التغيير بخط الساحل .

ومن الجائز أن أسفر هذا الفكر والتدبر فى أمر البحر ، عن بعض تفسيرات وتصورات فجة وغير واقعية ، فى معظم الأحوال . ولكن المؤكد أن التفكير الجغرافى الذى ينكب على رؤية البحر جغرافياً ، ويتصدى لاستطلاع أمور جوهرية هامة ، قد برهن على تطلع إلى تفسير مقنع ، وعلى رغبة حقيقية فى تعميق المعرفة الجغرافية ببعض العوامل من وراء التكوين التضاريسي للحوض ، الذى يحتوى البحر . وهذا معناه تحول التفكير من سطحية الرؤية المباشرة للصورة الجغرافية ، إلى محاولة تجسيد هذه الرؤية وتعميقها .

وأثار انتباه التفكير الجغرافى أيضاً رؤية الكساء النباتى وانتشاره الحيوى ، ومعنى نموه الطبيعى على امتدد صفحة الأرض . وما من شك

فى أن الملاحظة قد شدت هذا الانتباه . وأن المعاينة على المدى الواسع قد كشفت لهذه الملاحظة سوء التوزيع فى النمو وكثافته ، بقدر ما كشفت عن التنوع فى هذا النمو الطبيعى . وقد انكب هذا التفكير على تدبر ذلك كله ، وتطلع إلى ادراك واقعى كاشف لما شد الانتباه من تنوع فى الكساء النباتى الطبيعى . وهذا معناه تساؤل يبحث عن اجابة مرضية أو عن تفسير مقنع .

وقد سخر **ثيوفراسطوس** فكره وتأمله – بكل الامعان – فى تصور سوء التوزيع النباتى على صفحة الأرض . واعتمد – بالفعل – على أساس جغرافى توصيفى ، تابع مدى التغير فى التوزيع والتباين فى النمو ، من صورة نباتية طبيعية إلى صورة نباتية طبيعية أخرى . وانتهى من خلال التفكير والتدبر إلى انجاز مفيد ، تمثل فى تصور علاقة بين أحوال المناخ ، وخصائص ومواصفات النمو النباتى الطبيعى . وصدق هذا الانجاز لا غبار عليه بالطبع ، وعلامة على أن تدبر ثيوفراسطوس قد سار فى الاتجاه الصحيح . وينبغى أن نذكر كيف أن انجاز هذا المفكر من أبناء مدرسة أرسطو كان ناجحًا ، لأن من ورائه خبرة عميقة أثمرت عندما سجل نبض فكره عن المناخ ، وميز بين المناخ القارى الذى لا يتأثر بالبحر ، والمناخ الجزرى الذى يبين فيه صدى وتأثير البحر . بمعنى أن خبرة هذا المفكر بالمناخ قد ظاهرت فكره ، وهو يعالج سوء التوزيع النباتى الطبيعى على الأرض . وبمعنى أن خبرة هذا المفكر الناضج ، قد أفلحت فى استشعار وتلمس العلاقة والربط .

هذا ولا ينبغ تصاعد الاهتمام والتفكير فى الظاهرات الطبيعية تفكيراً جغرافياً ، أكثر من أن نشير إلى مدى حرص بعض الرحالة على امعان النظر فى هذه الظاهرات ، التى تشد انتباههم واطلاق عنان التدبر فى كنهها أثناء الرحلة . وكأن الرؤية والمعاينة فى أثناء الرحلة نقطة انطلاق التفكير انطلاقاً باحثًا ، وهو ينكب على تأمل الظاهرة الطبيعية . وفى اعتقاد بعض الباحثين أن مدرسة الاسكندرية الفكرية قد خطت خطوة موفقة بالرحلة ، عندما حررتها من الرؤية السطحية والزمتها بتأمل وتدبر هذه الرؤية . بل وفى اعتقاد بعض الباحثين أن هذه البداية

قد وضعت أول لبنة فى تبنى الفكر الجغرافى الدراسة والرؤية الميدانية. وادراك جدوى التأمل والتدبر فى أمر هذه الرؤية الميدانية ، لحساب البحث فى شأن الظاهرات الطبيعية على سطح الأرض .

وفى الجغرافية الوصفية ، أسفر الفكر الجغرافى من مدرسة الاسكندرية عن كتابة أدبية جيدة ، تولت توصيف الأقاليم توصيفاً مشبعاً ، ومعبراً عن أبعاد الرؤية الجغرافية والمسح الجغرافى لهذه الأقاليم. والمؤكد أن هذا التوصيف قد كشف عن مدى الاجتهاد فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بأقطار الأرض . ومن الطبيعى أن نذكر دور الرحلة البحرية والبرية فى هذا الاجتهاد ، وأن نذكر كيف أسفر حسن استخدام وسائل النقل ، وزيادة كفاءة تشغيلها عن تيسير مهمة الرحلة وتأمين اختراق حاجز المسافة ، وصولاً إلى المدى الأبعد والأوسع.

وتأسيساً على ذلك ، حدث التقدم الحثيث فى الكشف الجغرافى، الذى أماط اللثام عن مساحات وأقطار واسعة على صعيد جزيرة العالم . ومن الجائز أن خرج الكشف الجغرافى فى صحبة أو معية الرحلات التى خدمت التعامل التجارى أو التى واجهت الغزو ودرء العدوان . ولكن المؤكد أن ثمة رحلات قد خرجت تستهدف الكشف الجغرافى أصلاً ، وأن الرحلات تشبثت بالخبرة الجغرافية لكى ترشدها على دروب الأرض ، أو على صفحة البحر . والمؤكد أيضاً أن الرؤية الجغرافية والملاحظة كانت متيقظة ولم تجنح أو تستغرق كثيراً ، فى أوهام الخيال.

هكذا كانت روايات الرحالة وحكاياتهم ، النبع أو المعين الذى استقى منه التفكير الجغرافى فى مدرسة الاسكندرية ، معرفته وبياناته ومعلوماته . عن الأقطار والمساحات التى أطلت عليها الرحلة . ويبدو أن هذه الروايات قد تحرت التصوير الصادق إلى حد كبير وربما تناقص معدل الخلط بين الواقع والخيال ، وتقلص معدل الانبهار بالعجائب والغرائب ، وتغليب الحديث عنها تغليباً يطمس الحقائق الجغرافية ويضيعها وهذا معناه أن التوصيف الجغرافى أصبح أكثر واقعية ، وأقل تحريفاً وانغماساً فى أوهام الخيال الأسطورى ومعناه أيضاً أن

التوصيف الجغرافي ، ومن ورائه كل هذا التغيير في حصاد الرحلة ، أعطى التفكير الجغرافي فرصة العرض الجغرافي الأحسن . ومعناه أيضًا أن اجتهاد الرحالة والمفكرين المشترك (١) قد أسفر عن خطوات حقيقية ، طورت ووسعت دائرة المعروف من الأرض في جزيرة العالم .

وعلى الصعيد الأوروبي ، أفرغ الاجتهاد المقدوني الذي اتخذ شكل الرحلة أحياناً ، وشكل الغزو المسلح أحياناً أخرى ، في أنحاء من شرق ووسط أوروبا كل ما في جعبته ، عن رؤيته الجغرافية في أوعية الفكر الجغرافي في مدرسة الاسكندرية . وقد كفلت هذه الرؤية الجغرافية وضوح بعض جوانب المعرفة عن البحر الأسود ، وبعض مساحات الأرض في الظهير المباشر وغير المباشر من حوله ، في جنوب روسيا . ومن الجائز أن حفزت هذه الرؤية الجغرافية الفكر والتدبر ، لكي يناقش التصور الجغرافي مناقشة موضوعية . ولكن المؤكد أن هذا الفكر قد استثمر هذه الرؤية في رسم تصور أوضح للجريان النهري، وشكل الانحدارات وخاصة في القطاع الأوروبي ، الذي يحتوي حوض نهر الدانوب .

وما من شك في أن حصيلة هذا الاجتهاد قد أضاف بعض الاضافات المفيدة ، عن المعرفة الجغرافية بالأرض الأوروبية فيما وراء جبال الألب شمالاً . ويمكن أن نتصور كيف أتم هذا الاجتهاد صفحات ، كان الاجتهاد في مرحلة الفكر الاغريقي قد خط الخطوط الأساسية فيها ، وأهمل بعض أهم التفاصيل عنها . ولقد هيأ أيضًا للتقدم في الأرض الأوروبية في أحضان السهل الأوروبي العظيم في مرحلة تالية ، ووضع علامات مفيدة وبارزة على بدايات الطرق والدروب إليها .

وعلى الصعيد الآسيوي ، أسقطت أو اخترقت بعض الرحلات

---

(١) كانت مدرسة الاسكندرية – بكل ما شاع عن سمعة التقدم الفكري فيها – الوعاء الذي انصب فيه وتجمع عنده حصاد الرحلات وثمرة الكشف الجغرافي، الذي حققته هذه الرحلات بصفة عامة . وهذا معناه أن مدرسة الاسكندرية لم تكن إرادة الفكر الجغرافي فيها من وراء الرحلة أو الرحلات ، ولكنها كانت المكان الأنسب التي استقطب الرواية عن هذه الرحلات ، وأحسن استثمارها والانتفاع بحصادها الجغرافي بشكل أو بآخر .

البرية . التى مولها ملوك الدولة السلوقية حاجر المسافة ، وهى تميط اللثام عن بعض المساحات والأقطار التى حال موت الاسكندر دون التقدم إليها ، والتعرف على الواقع الجغرافى فى أنحائها [1]. وقد انطلقت هذه الرحلات بالفعل ، لكى تجمع أوصال الرؤية الجغرافية فى شبه القارة الهندية ، وفى الظهير المباشر من حول بحر قزوين . والمهم أن حصاد هذه الرحلات قد أعطى – بكل الصدق – ثمرة هذه الرؤية الجغرافية، لكى تشبع نهم المفكرين الجغرافيين فى مدرسة الاسكندرية ، ولكى تحفز التفكير الذى أحسن استخدام واستثمار هذه الرؤية ، فى تزويد رصيد المعرفة الجغرافية بهذه الأقطار .

ومن خلال العلاقات الطيبة والود أو الوفاق الذى خدم الانفتاح على الهند ، لعب ميجاستين دوراً بارزاً فى عملية أول مسح جغرافى كاشف ، عن بعض مساحات كبيرة ومتفرقة من شبه القارة الهندية . ومن الجائز أن تدوين مذكرات تزخر بالمعلومات والبيانات عن الناس ، وأوجه نشاطهم وأساليب حياتهم وعن الأرض ، التى تحتوى هؤلاء الناس قد هيأ الرصيد المكتوب الذى أشبع التطلع إلى المعرفة بالهند ، ويصر المفكرين الجغرافيين فى مدرسة الاسكندرية بها . ولكن المؤكد أن هؤلاء المفكرين قد أضافوا هذا الرصيد إلى ما لديهم من رصيد جغرافى سابق، وبشكل أسفر عن توسيع دائرة المعرفة الجغرافية .

أما عن بحر قزوين والظهير من حوله ، فقد تولى الرحالة عملية المسح الجغرافى التى كشفت عنه النقاب بشكل جزئى . ومن الجائز أن هذا المسح الجغرافى كان على مستوى أقل من أن ينتشل الرؤية الجغرافية من خطأ الاعتقاد عن امتداد البحر شمالاً . لكى يتصل بالمحيط الذى يطوق الأرض الأوروبية الآسيوية . ومع ذلك يجب أن نسجل الانجاز الجغرافى الجيد الذى أسفر عنه اجتهاد بتروكليس ، عن القطاع الجنوبى من هذا البحر والظهير من حوله . وما من شك فى أن المفكرين

---

(١) هذه دولة قامت على انقاض التمزق الذى أصاب ملك الاسكندر بعد وفاته ، واتفاق قواده على اقتسام الاسلاب فيما بينهم

من مدرسة الاسكندرية ، قد تبنوا هذا الانجاز وأحسنوا استثماره وإضافة الجديد ، إلى رصيد المعرفة الجغرافية عن قطاع آخر من الأرض الآسيوية .

ومن غير أدنى تحيز ، يجب أن تسجل حصافة الفكر الجغرافي في مدرسة الاسكندرية ، وهو يتبنى مسألة تزويد المعرفة الجغرافية برصيد ، حققته الرؤية الجغرافية على الأرض الآسيوية . ويجب أن نتصور أن هذا الانجاز كان مفيداً اقتصادياً وحضارياً ، لأنه فتح باب التعامل التجاري مع الهند من خلال دروب برية ، ورشد مسيرة الرحلات التجارية منها وإليها .

وعلى الصعيد الأفريقي ، تحملت مصر البطلمية مسئولية الرحلة البرية أو البحرية ، وفي صحبتها الاجتهاد الباحث عن المعرفة الجغرافية . ومن الجائز أن أصحاب هذا الاجتهاد قد بصروا الأهداف التجارية أو الأهداف العسكرية (١) . ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد قد تطلع إلى الرؤية الجغرافية ، والتزود بالمعرفة من خلال الملاحظة والمعاينة، ومعايشة الناس في مساحات بعينها من الأرض الأفريقية جنوب مصر.

هذا وقد انبرى هذا الاجتهاد الباحث عن المعرفة الجغرافية – بكل الهمة – لأداء واجبه على جبهتين ، هما جبهة البحر الأحمر (٢) ، وجبهة النيل الصاعد جنوباً ، للقلب الأفريقي . ومن خلال التغلغل على كل جبهة من هاتين الجبهتين ، أماط اللثام عن الواقع الجغرافي في مساحات كبيرة ، وحقق الرؤية الجغرافية واستثمر المسح الجغرافي

---

(١) ورث البطالمة الذين أقاموا دولتهم في أحضان مصر ، تراث مصر العريق . كما تشبثوا بتجارة البحر الأحمر ، والحصول على سلع ومنتجات بلاد بنت . كما ورثوا الاهتمام بتأمين حدود مصر الجنوبية ودرء عدوان البداوة شرق وغرب النيل في حوض النيل الأوسط الذي احتوى دولة مروى القديمة .

(٢) تسلل الاجتهاد البطلمي اليوناني إلى البحر الأحمر . كان تسللاً حريصاً على جني ثمرات الاشتراك في تجارة البحار الجنوبية ، بما في ذلك المحيط الهندي . وقد أفلح هذا التسلل والاصرار الذي تشبث بالملاحة الساحلية ، وصولاً الى باب المندب إلى تأكيد وجودهم وخلق شكل من أشكال التعامل والتعاون مع البحارة العرب ، أصحاب السيادة على ملاحة البحار الجنوبية .

الأولى ، استثماراً جيداً فى تلك المساحات الأفريقية .

وعلى جبهة البحر الأحمر ، أقامت رحلات البطالمة شبه المنظمة ، مراكز تجارية فى بعض مواقع منتخبة (١) على شروم وخلجان ، يسهل الوصول إليها والاقلاع منها إلى عرض البحر . وكانت هذه المراكز نقطاً للتعامل التجارى مع الناس فى الظهير (٢) بكل تأكيد . ولكنها كانت فى الوقت نفسه نقطاً أطلت منها العيون الخبيرة ، التى جمعت أوصال الرؤية الجغرافية . ومن الجائز أن اتخذت هذه المراكز التجارية شكل القلاع الحصينة ، لكى يتسنى الدفاع عنها ودرء أو احباط أى عدوان من الظهير عليها .ومن الجائز أيضاً أن تعرضت هذه المراكز والوجود البطلمى فى أحضانها ، للعدوان من حين إلى حين آخر . ولكن المؤكد أنها كانت النوافذ والأبواب المفتوحة ، التى تسللت منها العيون الخبيرة ، وأطلت على مساحات وأقطار فى الظهير المباشرة وغير المباشر ، على أوسع مدى .

وعلى جبهة النيل الصاعد جنوباً ، فى اتجاه القلب الأفريقى ، تسللت بعض الرحلات البرية فى دروب ومسالك عبر

---

(١) رغم انتشار الشعاب المرجانية بحذاء السواحل ، أحسن التحرك البحرى البطلمى ، وأجاد اختيار بعض شروم وخلجان مناسبة ، لكى تقام عندها مراكز تجارتهم التى لعبت دور رأس الجسر والتعامل مع الظهير . وربما وقع الاختيار على بعض مواقع شروم وخلجان طالما أمنت الملاحة فى فترات سابقة. وهذا معناه أنه التمس احياء وتطوير الدور الوظيفى العتيق للموقع المنتخب . وربما وقع الاختيار أحياناً أخرى على مواقع فى شروم وخلجان لم يسبق استخدامها من قبل . والمهم أن هذا الاختيار كان من وراء تأمين التحرك الملاحى البطلمى المستمر ، من وإلى عرض البحر .

(٢) قام التعامل التجارى مع الناس فى الظهير المباشر لهذه المراكز فى بعض الأحيان بكامل الارادة بين الطرفين . بمعنى أن استشعر الطرفان مصلحته وجدوى التعامل التجارى . كما لجأ التجار فى بعض الأحيان إلى فرض التعامل التجارى مع الظهير على غير إرادة الناس فيه . وهناك اكثر من دليل يحصيه التراث يصور كيف أن ميناء بطليموس ثيرون ، قد شهد توغل رجال البطالمة ، وكأنه الغزو رغم إرادة الناس فى أنحاء الظهير . وكان الهدف الوصول إلى مساحات يتسنى لهم فيها صيد الفيلة ونقلها حية إلى مصر ، لحساب العمل فى الخدمة العسكرية البطلمية .

الصحراء (١) وكان من الطبيعى أن تلتصق هذه الدروب بالنيل ، ولا تبتعد عن ضفافه لكى تجد مورد الماء ، ولكيلا تضل فى جوف الصحراء الكبرى. ويبدو أن هذا التسلل قد فتح الباب على مصراعيه لكى يزداد معدل الاتصال والحركة والتعامل مع دولة مروى ، وإلا فكيف نفسر اصطباغها بصبغة الحضارة الهلينية السائدة فى مصر . وما من شك فى أن الرؤية الجغرافية قد ألمت بما حولها من أرض مروى فى حوض النيل الغربى . وما من شك فى أن العيون الخبيرة قد أطلت من أرض مروى جنوبيا ، لكى تجمع بعض أوصال الصور الجغرافية عن بعض روافد النيل الحبشية (٢) .

هذا ويبدو أن جبهة البحر الأحمر على طريق ارتياد البحار الجنوبية، وجبهة النيل الصاعد جنوبيًا على طريق القلب الأفريقى ، قد استقطبتا كل الاهتمام البطلمى النشيط . بل لقد أشبع هذا الاجتهاد الحاجة الحضارية والاقتصادية ، بقدر ما أشبع نهم التطلع والمعاينة الجغرافية (٣). وقد انصبت هذه الرؤية الجغرافية فى معين الفكر

---

(١) لم يكن الجمل قد أمن التحرك البرى فى الصحراء فى ذلك الوقت . وتحكى رحلة داليون قصة تصور التسلل البطلمى إلى أرض دولة مروى ، وكيف سلكت دروبا لا تباعد بينها وبين النيل . وكان لا بد من مرور بعض الوقت لكى يشيع استخدام الجمل بعد استقدامه من وطنه الآسيوى ، ولكى يسهل على الرحلات اختراق حاجز المسافة الصحراوية بشكل أكثر سرعة وأمنا .

(٢) رحلات البطالمة إلى دولة مروى التى اتخذت شكل التسلل الفردى حينا والتسلل الجماعى أحيانا أخرى ، لم تجد مقاومة أو رفضا من ناس هذه الدولة، وما من شك فى أنها فتحت الباب على مصراعيه ، لكى يجمع طلاب المعرفة الجغرافية أوصال رؤيتهم الجغرافية بقدر كبير من الاطمئنان والتأنى . وربما استمع معظمهم إلى روايات محلية وقصص ، صور لهم الأرض وأحوال الناس فيها من حول مروى . وقد أسس طلاب المعرفة الجغرافية على سياق هذه الروايات تصورا جغرافيا من مساحات جنوب خط عرض الخرطوم . ومن ثم أصبح هذا الحصاد بصيرة حققت نجاح ايراتوستين ، عندما عكف على رسم خريطته المشهورة . وقد صورت هذه الخريطة بالفعل رؤية جغرافية لا بأس بها عن بعض منابع النيل الحبشية .

(٣) الاستغراق فى الاهتمام بالتوغل على الصعيد الأفريقى فى أحضان الاجتهاد البطلمى ، صرف الرحلات والبحث عن الرؤية الجغرافية عن الاتجاه غربا من=

الجغرافى فى مدرسة الاسكندرية . وما من شك فى أنها قد عكفت على استيعابها وإثراء الرصيد الجغرافى ، وعلى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية على الصعيد الأفريقى .

وهكذا ضمت الرؤية الجغرافية من خلال الاجتهاد البطلمى إلى رصيد المعرفة الجغرافية بعض مساحات كبيرة فى أحضان حوض النيل . ومن الجائز أن تكون هذه الرؤية واضحة جلية وكاشفة ، حتى خط عرض التقاء النيل الأبيض والنيل الأزرق . ولكن المؤكد أن مسألة الكشف عن منابع النيل قد شغلتهم ، وكانت الرواية عنها غامضة غير مشبعة أو غير كاشفة بالفعل . وهذا معناه أن التقدم فى الظهير من وراء مركز التجارة كان محدوداً ، وهو يواجه التحدى والرفض الذى أعلنه الناس فى هذا الظهير ، وأن التقدم جنوباً كان صعبًا ، وهو يواجه مشقة اختراق حاجز المسافات الصحراوية الوعرة الحارة ، والتحدى الطبيعى الذى حال دون الملاحة النهرية فى النيل .

وعن رسم وتجهيز وإعداد الخرائط ، تبنت مدرسة الفكر الجغرافى الاسكندرانى الاهتمام الفنى بها ، لأنها أدركت قيمة الخريطة وهى تخدم التعبير عن الرؤية الجغرافية . وينبغى أن نتصور مدى وحقيقة العلاقة التى أنبأت بأكبر قدر من التوافق ، بين توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض على صعيد جزيرة العالم وتسجيل رصيدها من ناحية ، وتطوير وتحسين صناعة وفن إعداد ورسم الخريطة التى تسجل وتجسد الرؤية الجغرافية على هذا الصعيد من ناحية أخرى .

ومن الجائز أن تكون أكثر من محاولة وأكثر من اجتهاد ، قد تحقق لحساب تطوير وتحسين ورسم وإعداد الخريطة . ولكن المؤكد أن ايراتوستين قد برهن على حسن استخدام الرياضيات ، وهى تبصره وتسعفه فى رسم خريطته المشهورة . وفى اعتقاد بعض المتخصصين أن فن رسم الخرائط ومدى تطورها فى أحضان المسيرة الفكرية

- مصر بحذاء الساحل الشمالى الأفريقى ، وربما افتقد هذا الاتجاه أيضًا وسيلة النقل التى تخترق حاجز المسافات الصحراوية إلى برقة وما يليها غرباً.

الجغرافية ، أن ايراتوستين هو الجغرافى الرائد الذى سخر خبراته وقدراته وفكره فى تجهيز شبكة خطوط الطول والعرض ، لكى يرسم خريطة العالم . ويؤكد هذا الفريق أنه بحق مؤسس مدرسة الجغرافية العملية .

ومن خلال مقارنة بين خريطة هيكاتيوس وخريطة ايراتوستين ، يمكن أن نتبين – بكل الوضوح – كيف أسفرت خبرة وصنع ايراتوستين الفنية المدعومة بالاجتهاد الرياضى ، عن ثورة حقيقية ونقطة تحول مثيرة ، فى رسم خريطة العالم . هذا بالاضافة إلى ما تأتى من تصحيح واضافات مفيدة ، جعلت خريطة ايراتوستين عن العالم فتحًا جديداً وسبقًا مهمًا فى حقل رسم الخريطة . بل أنها كانت النموذج الذى سار على دربه المجتهدين فى صناعة الخرائط من بعده ، فى المرحلة التالية .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فإن الفكر الجغرافى اليونانى المصرى قد تحمل مسئوليته بأكبر قدر من الأمانة . وما من شك فى أنه دفع أو قاد مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه الصحيح . بل يجب أن نسجل لهم الجهد الفكرى الذى حاول بقدر الامكان ، تخفيف حدة الخلط بين الواقع والخيال ، وتجنب التردى فى التصور الأسطورى المبهم . وهذا معناه مزيد من التفتح ، ومزيد من الانفتاح ، ومزيد من ومضات الفكر المضيئة ، وهى تبصر مسيرة الفكر الجغرافى .

* * *

الفكر الجغرافى الرومانى المصرى :

من بعد زوال حكم وسلطان البطالمة فى مصر ، ومن بعد افتقاد الدعم الذى ظاهر الفكر الجغرافى فى مدرسة الاسكندرية الفكرية ، ومن بعد الاجتهاد الفكرى اليونانى المصرى الذى أرسى قواعد عالمية الفكر الجغرافى ، ورثت روما (١) فيما ورثت مسئولية احتضان الحضارة

---

(١) سجل عام ١٥٣ قبل الميلاد قيام دولة روما من حول موقع مدينة روما . =

ورعـايتـهـا وولاية أمـرها . وهـذا مـعنـاه أن رومـا فى مكانـهـا المرمـوق سـياسـيًا، تبنت مـسيـرة الفكر بصـفـة عامـة ، والفكر الجغـرافى بصـفـة خاصة . ولـم يكن من شأن هـذا التبنى أن يضيع حق مصر ويهدرها ، ولا أن يسقط عن الاجتهاد المصرى مسئوليته واهتمامه وحرصه على مكانة المدرسة الفكرية العتيدة فى أحضان الاسكندرية (١) .

ولا غـرابة فى أن يحـتـفظ الفكر الجـغرافى لنفسـه بمكان ومكانة فى تراث الفكر المتفـجر من أبناء وعلمـاء مدرسة الاسكندرية الفـكرية ، جنبا إلى جنب مـع مكان ومكانة تراث الـفكر الجـغـرافى الذى تبنـاه الاجـتـهـاد الرومانى . وأن يصـبح الفكر الجغرافـى فى هـذه المرحلة رومانيا مـصريا دليل صدق على مـعنى عالمية هـذا الـفكر ، وعلامة على أن رؤيتـه وثمراته حق مشـاع ، لكل من يتعشق الفكر ويهواه ، ويعمل لحسابه ويسـهم فى اثراء رصيده .

ومعلوم - بالفعل - أن مسـيرة الفكر الجغرافى فى هـذه المرحلة لم تبدأ من فراغ ، بل هـى استمـرار لخطوات المسيرة التى بدأت فى أحضـان الفـكر الفـلسـفى الاغـريقى ، وتـطورت وتقـدمـت فى كنـف مـدرسـة الاسكندرية الفكرية . ولكن المؤكـد أن تبنـى الرومـان مـسـيـرة الـفكر الجغـرافى واسهامهم فـى قيادتهم ودعم تقدمـها لـم يبدأ أيضًا من فـراغ . .وفى اعتقادى أن هـذا التـبنى قد تأتى - بالفعل - تأسيساً على اسـتشـعار الرومان جـدوى المعرفة الجـغرافـية ، وقيـمة الفكر الجغـرافى الذى نهلوا من مـعينه العذب فى أثـينا . وفى اعتـقـادى أيضـًا أنهم تطلعـوا لأن تكون ثمرات هـذا الفكر الذى احتـضنوه بصيـرة ، تقود انتـصارهم وتوسـعهم الامبراطورى ، على أوسـع مدى فى جزيرة العالـم .

= وأفلحت هـذه الدولة المدينة فى جـمـع أوصـال ايطاليا فى سنة ٣٠٠ قـبل الميلاد، واتسـع سلطانها الامـبراطورى فى الـنصف الثانى من القرن الثـانى قبل الميلاد . وقـد ورثت حكمة وفلـسفـة الاغريق ، وحـضـارة وتراث مصـر ، وخـفة ونشـاط الفينيقين مجتمعة .

(١) وفى الوقت الذى انتـصـرت فـيه روما عـلى اليونان . اسـتسلم الرومـان للثقافة والعلـم اليـونانى . وهـناك من يـقول أن الرومـان هـزمـوا اليـونان عـسكريا ، وأن اليونان هـزموا روما ثقافيا

وهكذا وجدت روما فى الفكر الجغرافى دليلاً يرشد توسعها، ويبصر أهدافها السياسية التوسعية . وهى تتبوأ مكانة الدولة الأعظم فى مجتمع الدول ، ووجدت فيها أيضًا دليلاً يرشد اجتهادها الاقتصادى والتجارى . ويبصر أهدافها الاحتكارية ، وهى تسعى للامساك بزمام حركة التجارة الدولية ، على أوسع مدى فى جزيرة العالم . ومن ثم لم يكن بد من أن تتبنى الفكر الجغرافى ، وتسخره لحساب تطلعاتها وترسيخ مكانتها سياسياً واقتصادياً وحضارياً .

هذا ومن الطبيعى أن نستشعر مدى الانتفاع المتبادل بين الدور الرومانى الوظيفى العامل – بكل اجتهاد – فى خدمة التجارة براً وبحراً ، أو العامل فى خدمة التوسع الامبراطورى من ناحية ، والدور الرومانى النشيط العامل – بكل جدية – فى المسح الجغرافى وجمع أوصال الرؤية الجغرافية من ناحية أخرى . بمعنى أنه بقدر ما انتفع التحرك الرومانى بالرؤية الجغرافية ، وهو يضرب فى الأرض أو وهو يركب البحر ، انتفعت المعرفة الجغرافية بثمرات القصص والروايات أو بالرؤية المباشرة التى سجلها العاملون فى خدمة التحرك الرومانى النشيط فى البر أو البحر (١) .

والمنفعة المتبادلة على هذا النحو ، علامة تدل على أمرين هما :

أ– أن الرومان قد نهجوا النهج الصحيح ، عندما تبنوا الفكر الجغرافى اليونانى المصرى ، وعندما انتفعوا به انتفاعًا جاداً ، لحساب تفوقهم فى عمليات التجارة الدولية على أوسع مدى ، أو لحساب انتصاهم فى الغزو العسكرى وفرض سلطانهم على أوسع مدى (٢) .

---

(١) نذكر فى هذا المجال كيف استفاد اجاثاركيد، وهو يسجل دراسته فى الجغرافية البشرية فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد من متابعة ثمرات اجتهاد التجار والاغريق ومدى نشاطهم البحرى التجارى فى البحر الارتيرى ، راجع : Cary, M.Y. Warmington, E.H. The Ancient Explorers. London, 1929, p.225 .

(٢) نذكر على سبيل المثال بوليبيسوى المفكر العامل فى خدمة الجيش الرومانى فى القرن الثانى قبل الميلاد . وقد صعد هذا المفكر الرومانى الاهتمام بالفكر الجغرافى إلى درجة الريادة فى تأكيد جدوى المعرفة الجغرافية فى =

ب- أن الرومان قد نهجوا النهج الصحيح مرة أخرى ، عندما استثمروا الانفتاح على العالم ، وعندما قدموا الرؤية الجغرافية بأمانة ، لحساب تحريك ودفع مسيرة الفكر الجغرافي في الاتجاه السوي .

وتداخل الرومان في مسيرة الفكر الجغرافي ، وتسجيل اهتمامهم بها ، لا يتعارض مع الابقاء على مدرسة الاسكندرية الفكرية ، وهي تحافظ على مكانتها ومكانة المفكرين ، الذين أبقوا على زمام هذه المسيرة في أعناقهم مسئولية وأمانة . وهذا معناه أن الانجاز الروماني قد انصب في معين الفكر الاسكندراني ، وأن الفكر الاسكندراني تولى مسئولية التدبر والتفكير الذي طور الفكر الجغرافي في هذه المرحلة . وعندئذ ينبغي أن نتصور كيف ظلت الاسكندرية مقراً ، تنبعث منه ومضات الفكر الجغرافي المضيئة ، وكيف ظل العقل المصري من وراء هذه الومضات المضيئة ، التي أثرت رصيد المعرفة الجغرافية ، وطورت مسيرة الفكر الجغرافي القديم .

هذا ومن الطبيعي أن تستقطب مدرسة الاسكندرية صفوة المفكرين من المصريين والاغريق والرومان وغيرهم ، لكي تواصل أداء رسالتها الفكرية . ومن الطبيعي أن ينكب هذا الفكر على أداء دوره ، وأن تتولى هذه الصفوة من المفكرين ، مسئولية وأمانة الاضافة والتجديد واثراء مسيرة الفكر الجغرافي ، في اطار نظرة تجردت من قيود الانتماءات الضيقة ، وانفتحت على عالمية التراث ومصلحة الحياة فيه . وهذا معناه أن الفكر الجغرافي قد تخلص من كل نعرات الانتماء المحلية ، وقدم انتماءه إلى الحقيقة ، التي تكشفت له من خلال كل معاني وحدة الأرض، ووحدة الناس في الأرض ، أكثر من أي شيء آخر . ومعناه أيضاً أن تألق الفكر الجغرافي من مدرسة الاسكندرية الفكرية ، ونبغ صفوة المفكرين الذين كرسوا كل اهتمامهم وصعدوا عز انتمائهم إلى ما أسفرت عنه مفاهيم العالمية في هذا الفكر .

= تصور وإدراك مسيرة الأحداث التاريخية . كما نذكر أيضاً يوليوس قيصر الذي زج بفكره في الاجتهاد الجغرافي في القرن الأول قبل الميلاد . ومن الجائز أن فكره الجغرافي كان هزيلاً . ولكن المؤكد أنه استشعر قيمة الفكر الجغرافي في دعم تحركاته العسكرية ، وتأكيد سيطرته على الأرض .

ومن أبناء هذه المدرسة ، نذكر هيباركوس الاغريقى ، الذى عاش فى أحضانها بفكره فى القرن الثانى قبل الميلاد . وقد سخر فكره واهتمامه بالفلك واستطلاع الكون،والعمل على اثراء الجغرافية الفلكية. وقام هذا الاجتهاد كله على أساس محاولات جادة ، تطلع من خلالها إلى تطويع البحث الجغرافى الفلكى للأساس العلمى الرياضى . وكان أفضل ما انتهى إليه هيباركوس شجب وابطال مفعول الخرافات والأساطير ، التى شاعت عن الخسوف والكسوف ، وأشاعت الرعب فى نفوس الناس . أما اجتهاده الذى أسهم فى وضع أول لبنات فى أساس البحث الجغرافى البشرى ، فكان علامة على جهله ببعض أهم جوانب المعرفة الجغرافية عن الأرض التى تحتوى الناس من ناحية ، وعلى انبهاره واصغائه إلى تخريف الروايات والحكايات التى تفتقد الصدق والجدية وتشوه الحقيقة المجردة من ناحية أخرى .

ومن أبناء هذه المدرسة أيضاً ، نذكر سترابو الاغريقى ، الذى عاش فى أحضانها بفكرة القرن الأول قبل الميلاد (١) . وقد تعشق الرحلة واستفاد بها ، وهو يسخر فكره لاستيعاب رؤيته الجغرافية ، ولتسجيل ابداعه الجغرافى الوصفى الجيد عن عالم ذلك الزمان . ومن الجائز أن كتب سترابو خلاصة رؤيته بطريقة ، يصعب معها استيعاب وتذوق الحقائق الجغرافية التى يتناولها . ومن الجائز أيضًا أنه نقد بعض كتابات هيرودوت وايراتوستين على أساس سليم . ولكن المؤكد أنه كتب توصيفاً جغرافياً مفيداً للقارئ العام ، الباحث عن حقه فى المعرفة الجغرافية .

وعلى قمة التفوق المرموق ، تربع بطليموس الاسكندرانى ، الذى عاش فى أحضان مدرسة الاسكندرية الفكرية، وعمل على اعلاء مكانتها في القرن الثانى الميلادى . وهو مصرى الهوية والنشأة وكتب باليونانية أعظم انجازه لحساب الفكر الجغرافى القديم . وبصرف النظر عن

(١) سترابو رحالة وهو على شهر من أحسن استثمار رؤيته الجغرافية أثناء الرحلة . وقد استمتع بالرحلة وتذوق الواقع الجغرافى وكتب عنه فى اطار تعليمى يبصر طالب المعرفة الجغرافية فى ذلك الوقت ويشبعه .

عـصـارة فـكره الذى ورد فى كـتـابـيه المجـسطى وجـغـرافـيًـا ، نسـجل ريادةوتفـوق ومـضـات فـكره المضـيـئـة ، وكـيـف أثرت الفكر الجـغـرافى القـديم. وفى اعتـقاد كل الجـغرافـيين أن أداء بطليمـوس الاسكندرانى هـو أداء فكر ممتـاز فى عـصـره ، سـواء كان هـذا الأداء فـلكيًا ، يتـابع الكون ومكان الأرض فيه ، أو كان الأداء وصفيًا يسجل الرؤية الجغرافية لأقطار الأرض ، أو كـان هـذا الأداء فنيًا يحـسن اعـداد ورسم الخـريطة وتسـجيل البيانات الجغرافية عليها .

وإلى جـانب هـذاه الريادة الفكرية التى أمـسكت مـدرسـة الاسكندرية بزمامها ، عن رضـا وقبول من الرومان أصحاب السـلطة ، شاع الاهـتمام بالجـغـرافـيـة على أوسـع مـدى فـى رومـا فى أحـضـان الامـبـراطورية الرومـانيـة. وأسفـر عن هذا الاهـتـمـام الذى نال دعم السلطة ومظاهـرتهـا صـفوة من المفكرين والـعاملين فى حـقل الفكر الجـغرافى . ومن الجـائز أن نشـأت علاقـة بينهم وبـين مدرسـة الفكر الجـغـرافى فى الاسكندرية . ولكن المؤكـد أنهم أدلوا بدلوهـم فى قـضـية الفكـر الجـغـرافى ، وأسـهـمـوا برصيد فى تراث الفكر الجغرافى القديم .

ونذكر فى هـذا المجال ، اسـهام ماركوس اجرنيا الرومـانى الجغرافى المجـتـهـد الذى أشـبـع اجـتـهـاده وتدبره وفكره الجـغـرافى المتنـور نهم الامبـراطور أغسطس . كـما نشـير إلى اسـهام قـراطسى الذى انكب بكل التدبر اليقظ على الرؤية الجغرافية ، لكى يسجل دراسات فلكية وطبيعية وبشرية . أمـا بلينى فقـد أفرد للـجـغرافـيا والـفكر الجـغرافى مكانـًا خـاصـًا مرموقـًا فى موسـوعته التى هـى أقرب ما تكون إلى دائرة المعارف (١). بل وفى أحـضـان رومـا عـاش سلوكـوس الاغـريقى الأصل ، البـابـلى النشـأة وسـجل نبض فكره ، وهـو يبحث عن مكان الشـمـس فى مركز الكون(٢) وعن عـلاقـة القمـر بالمد والجـزر . وفى أحـضـانهـا أيضـًا عـاش مـارينوس

---

(١) تتـألف هـذه الموسـوعـة من ٣٧ كـتابـًا . ويخص الجـغرافـيـة منها اربع كـتب من الثالث إلى السادس .

(٢) ذهب فى تلك التصـور ، إلى الأخذ بالرأى الذى وضـعـه ارستاكوس ، واسـتحق عليه العقاب ، لأنه كان مرفوضـًا رفضـًا قاطعـًا .

الصـورى ، وهـو يجمع حـصـاد الرؤية الجغـرافية التى يـدلى بها الرحـالة والتـجـار ، لـكى يصـور أو يجسـد هذه الرؤية فى خدمـة اتسـاع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض على صعيد جزيرة العالم .

ومن خـلال هذا الاجـتـهـاد المزدوج الذى شـهـدتـه أروقة مـدرسـة الاسكندرية ، وأروقة المدرسة الرومانية ، ومن خـلال وحدة الهـدف بين المفكرين فى هاتين المدرستين ، تأتى ثراء الفكر الجغرافى وتقدمه تقدماً حقيقياً ، لحسـاب الناس . ومن المفيد - على كل حال - أن نتعرف على أبعاد هذا الثراء ، لكى نتصور أقصى ما أسفر عنه التدبر والتفكير من اضافات مجددة إلى الـفكر الجغرافى . ومن الطبيعى أن تكون الاضـافات إلى كل فـرع من فـروع الجـغـرافـيـة التى ضـمـتـهـا المسـيـرة الفكرية الجـغـرافـيـة فى المراحل السـابقة . ولـكن المؤكد أن هناك اضـافـة جـديدة بالفـعـل ، تمثلت فى بداية مـتـواضـعـة لاجـتـهـاد انكب على الجـغـرافـيـة البشرية .

ومـولد هذه البـدايات المتواضـعـة ، التى عـبـرت عن التـفـات الفكر الجـغرافى إلى الواقع البـشـرى ، انجاز يسـتـحـق الاهتـمـام بالفـعل ، لأنه علامـة على استـشـعار مـسئولية الفكر الجغـرافى عن الاهتمـام المتوازى، بالواقع الجغرافى الطبيعى ، والواقع الجغرافى البشرى فى المكان . وربما كـان فكر بولبـسوس الذى لـفت النظر إلى العـلاقة بين الواقـع الجـغـرافى وحـركة الأحـداث التـاريخـيـة ، من وراء الخطوة التى أينعت هذه البـدايات المتـواضـعـة . وقـد اجتـهـد هيـباركـوس فى أحـضـان المدرسـة الفكرية فى الاسكندرية ، وهـو يبـحـث عن حـياة الشـعـوب فى اطار الواقع الجـغـرافى على الأرض التـى تحـتـويهـا . ومن ثـم يمثل بالفـعـل ، شكل هذه البـداية المتـواضـعـة . كـمـا نذكـر فى هـذا المجـال اسـهـام قـراطس فى هـذه البـدايات المتواضـعة ، التى وضـعت الأسـاس للجغرافية البشرية .

ومن الجائز أن كان غرس نبتة الجغرافية البشرية فى هذه المرحلة ، التى عاشتها المسيرة الفكرية الجغرافية ، فى أحضان الوجود الرومانى ، مفيداً ، وهـو يمثل اضافة مهمة إلى الفكر الجغرافى القديم . ولكن المؤكد أن المفكرين الجـغرافيين الذين انكبـوا على تطوير فروع الجـغرافـيـة التى

نالت الاهتمام فى المراحل السابقة ، قد حجب اهتمام هؤلاء المفكرون، ولم يتفرغوا بالفعل للتدبر فى الواقع البشرى والاهتمام بالبدايات المتواضعة للجغرافية البشرية . وهذا معناه أن حصاد الفكر الجغرافى الحقيقى ، قد تمثل فى الاضافات التى طورت فروع الجغرافية الرئيسية التى عاشت فى المراحل السابقة .

وفى الجغرافية الفلكية التى استحقت أن تعرف بالجغرافية الفلكية الرياضية بحكم الاعتماد على الرياضة فى ابداعها الفكرى المتجدد، واصل المفكرون اهتمامهم بالكون الفسيح ومكان الأرض فيه . وقد تشبث المفكرون بفكرة خلود الكون ، وسرمدية وجوده من الأزل إلى الأبد ، وبفكرة تأثير النجوم على حظوظ الناس ومصائرهم وأحوالهم الحياتية . كما أكد المفكرون على مكانة الشمس فى الكون ، وعلى دورها الوظيفى الحيوى ، من وراء نبض واستمرار الحياة على الأرض . وعن القمر أدرك الفكر آنذاك علاقته بالأرض ، وكيف يكون وضعه فى السماء من وراء حركتىّ المد والجزر . بل وكشف هذا الفكر – بذكاء وفطنة – معنى الخسوف ، وكيف تحجب الأرض أو تعترض ضوء الشمس عن القمر كلياً أو جزئياً .

هذا وقد واصل الفكر الجغرافى اصراره على وضع الأرض فى مركز الكون . وتلمس هذا الفكر الجغرافى الأدلة على كروية الأرض . وربما أحسن الفكر الجغرافى استخدام الحسابات الرياضية ، وهو يتلمس قياس أبعاد الأرض . ومن الجائز أن هذا القياس قد جافى الحقيقة، وحاد عنها بدرجات متفاوتة من مفكر إلى مفكر آخر . ولكن المؤكد أن الحساب الرياضى كان المنطلق الوحيد ، الذى اعتمد عليه التفكير فى ضبط وتحقيق هذا القياس . وهذا معناه أن الأخطاء ليست فى الأسلوب والنظرية الرياضية ، ولكن فى حسن تطبيقها وبناء الحقيقة عليها .

وقد ثار جدل شديد عن توزيع اليابس والماء على سطح الأرض الكروية . وقد تبنى الفكر الجغرافى تصوراً غريباً دعا إلى اعتقاد جازم يؤكد خلو نصف الكرة الأرضية الجنوبى من اليابس ونبض الحياة ،

ويصـور وضع اليـابس فى نصف الكرة الأرضـيـة الشـمـالى ، وتشـبث الحياة به . ويلغ أمر الفكر الجغرافى فى هذا الشأن حد تصور الحد الذى يحـدد أبـعـاد القطاع المعـمـور من الأرض ، ويفـصـله عن القطـاع غـيـر المعمـور. ومن الطبيعى أن ينبئ كل ذلك الرصيد الذى أضـافه المفكرون ، بمدى الاجتهاد وبجدية التدبر الذى أسعف التقدم فى التصورات الفكرية الجغرافية وهذبها .

وتربعت على قمة هذا التقدم الحقيقى فى الفكر الجغرافى ، عملية انشاء شبكة خطوط الطول والعرض لأول مـرة . وكان هذا الانشاء وليد اجتهاد وحسن استخدام الحسابات الرياضية أكثر من أى شئ آخر . وما من شك فى أن هذا الانجاز الذى تحقق على يدى بطليموس الاسكندرانى ، قد رفع قدره ومكانته إلى مسـتوى الرواد فى صناعة وتطوير الفكر الجـغـرافى (١). وفى مـجـال الاسـتـخـدام الاصـطلاحى لخطوط الطول والعرض ، قاد بطليمـوس التفكير الجغرافى قيادة رشيدة أسـفرت عن تقسيم سطح الأرض تأسيساً على خطوط العرض إلى اقاليم مناخية(٢).

وهكذا شـهـدت هذه المرحلة من مـراحل الفكر الجـغـرافى القـديم تطوراً حقيقـيا فى مجال التدبر والتفكير فى الكون . وليس المقصـود من التطور الحـقـيـقى تلك الاضـافـات الجيـدة أو تلك الأفكار المسـتنيـرة ، التى أبدعت هذه الاضافات فقط . ولكن المقصود بالفعل هـو انصراف بعض المفكرين بكل الاهتمـام ، إلى التدبر والتـفكيـر فى الكـون بشكل يبـشـر بالتخصص، فى هذا الفرع من فروع الفكر الجغرافى وقرب مولده (٣).

---

(١) فى كتاب الفلك لبطليموس ورد ذكر ٢٩ من خطوط العرض . وقد رتب هذه الخطوط ابتداء من خط الاستواء فى اتجاه الشمال بفارق زمنى فى أطول النهار مقداره ربع ساعة حتى وسط بريطانيا التى يتحقق فيها أطول نهار ومقداره ١٧,٥ ساعة من ساعات اليوم الكامل ، ثم بفارق زمنى بعد ذلك مقداره نصف ساعة حتى جزيرة تولى . ويعدل بطليموس فى كتاب جغرافيا عن هذا الرأى وقد أورد فقط ٢١ خطاً من خطوط العرض مع بعض تعديلات طفيفة فى الفارق الزمنى بين أطوال النهار عند كل خط من هذه الخطوط .

(٢) عاش هذا التقسيم وعمل به الفكر الجغرافى إلى القرن العشرين . ثم توصل الجغرافيون إلى أساليب افضل فى تقسيم وبيان هذه الأقاليم المناخية .

(٣) لو سارت مسيرة الفكر الجغرافى بنفس معدلات الاجتهاد والتقدم، ولو لم =

وفى الجغرافية الطبيعية ، أدلى التفكير الجغرافى بدلوه ، وأمعن النظر فى رؤية بعض الظاهرات الطبيعية على الأرض ، وهو يتطلع بقسط كبير من التأمل والتدبر ، لكى يعبر عن هذه الظاهرات ويستوعب ماهيتها . ومن الجائز أن ندرك كيف تجنب هذا التأمل والتدبر بعض العمق ، الذى يلقى الأضواء الكاشفة عن كنه وماهية الظاهرة الطبيعية ، التى أمعن النظر فيها . ومن الجائز أيضاً أن نتبين كيف أسفر هذا التأمل والتدبر عن التعبير الضحل غير المشبع عن هذه الظاهرة الطبيعية . ولكن المؤكد أن هذا التعبير قد أظهر فى ثناياه ميلاً وانعطافًا إلى تقصى بعض الحقائق ، وكأن الفكر يتلمس قدراً من التفسير الكاشف عن هذه الظاهرة الطبيعية . وقد يكشف ذلك عن قدر من الواقعية فى التفكير ، وعن قدر آخر من الاستجابة للتساؤلات التى راودت المفكر ، وهو يتأمل ويتدبر الظاهرة الطبيعية . ويبدو أن التخوف من الانزلاق فى البحث الفلسفى العميق ، هو الذى منع انطلاق الفكر الجغرافى انطلاقاً كليًا ، إلى كل أبعاد التفسير الكاشفة عن الظاهرة الطبيعية المعنية .

وعن الزلازل والبراكين ، نذكر اجتهادات المفكرين الجغرافيين وكيف تطلعت إلى تفسيرها . ومن الجائز أن نستشعر كيف تخبط الفكر ، وهو يورد التفسير الساذج أو التفسير المبتور أو التفسير الجاهل. ولكن المؤكد أن البحث عن التفسير علامة على درجة من درجات النضج الفكرى ، وأن التخبط فى التفسير علامة على الافتقار إلى الخبرة والكفاءة ، فى الخلفية العقلية ورصيدها العلمى . وكان سترابو واحداً من المفكرين الجغرافيين الذين ناقشوا حدوث الزلازل والبراكين، وربط هذا الحدث بحركات رفع وحركات هبوط على المستوى الرأسى . وهذا معناه أنه سار فى الاتجاه الصحيح ، ولكنه لم يفطن بالقطع إلى ما يكمن وراء حركات الرفع وحركات الهبوط ، والكيفية التى تحدث بها .

= تتعرض للمحنة التى واجهتها على أيدى رجال الكنيسة ، لتأتت الفرصة لكى يتحقق هذا التخصص فى وقت يسبق الوقت الذى ظهر فيه بالفعل بحوالى عشرة قرون كاملة أو تزيد

ويصـرف النظر عن الاعـتقـادات التى صـورت الزلازل والبـراكين فى صـور الجرائم البشـعة ، التى تدمر وتعتدى على نبض ومسـيرة الحياة ، كانت محـاولات جادة وتفكير موضـوعى يـتأمل هذه الزلازل والبراكين . ويوزنيـاس مـثلاً تلمس بفكره أسالـيب ودلو أرشدت الـتنبؤ بحـدوثهـا ، لكى تتـجنب الحياة المضـرة والتدمير . كما حـاول أن يصنفهـا تأسـيسـاً على حجم الدمار الذى يصيب الحـياة من جراء حدوثها . ولكن المؤكد أنه فسـر حدوثها بمشـيئة الآلهـة ، عندما تغضب عـلى الحياة وتصب عليها لعنة ودماراً . وحـاول غيره مـثل سنيكا أن يفسـر حـدوثها ، فتصـور أنها تحـدث عندمـا ينطلق هـواء مـحـبـوس مـن باطن الأرض ، وكـأنه زفـيـر عنيف.

وعن الجريـان النهرى ، استـعشـر الفكر الجغـرافى فى هذه المرحلة مـسـألة الاطـمـاء وتكوين البناء الرسـوبى ، وانبـرى للتـأمـل وهـو يتـدبر حقـيقـة هذا التكوين . ومن الجـائز أن انكب سـترابو مثـلاً بكل الاهـتمـام على تفـسـيـر هذا التراكم الرسـوبى فى الـبـحـر ، وتـأمل وتدبر نمو هـذا البناء الرسوبى ، حتى يطفح الماء ويغير طفحه مع الخط الساحل الفاصل بين اليـابس الماء . ولـكن المؤكـد أن هـذا التـفكيـر الذى سـار فى الدرب الصـحيح ، كان أعجـز من أن يتفهـم أو يدرك حقـيقـة العلاقـة بين الجريان النهرى والنحت والارسـاب ، لكى يصل بالفعل إلى تفـسير يصـور ويعلل ظاهـرة البناء الرسـوبى . ومع نلك ينبـغى أن نطرى هذا الاجتـهاد الجـاد ، الذى وضع التـفكير فى مـواجهـة الجوانـب الغـامـضة ، وحمله مسـئوليـة التفسير . والفشل فى التفسيـر ليس علامة على التقصير ، ولكنه علامة على أن النضـج العلمى ليس علـى المسـتـوى الذى يسـعـف الفكر ، وهـو يتحمل مسئولية التفسير .

وعن البـحـر المحـيـط ، اسـتـشـعـر الفكر الجـغـرافى فـى هـذه المرحلة أيضـاً ، مسـألة المد والجـزر وحـدوث هـذه الظاهـرة . ومـن الجـائز أن تدبر الفكـر هذه الظاهـرة ، وهـو يدرك الانتـظام الذى تحـدث فـى اطاره . ومن الجـائز أن أوحى هذا الانتظام إلى الفكر ، لكى يتـصـور بسـذاجة أن الجـزر شـهـيق البـحـر ، وأن المد زفـيـره . ولـكن الحـاح بعض المفكرين مـثل

سترابو قد رشده وقاده إلى استشعار علاقة ما بين ، اكتمال القمر بدراً وحركة الجزر . والمؤكد أن استشعار هذه العلاقة قد وجهت الفكر الجغرافى إلى الاتجاه الصحيح . وقد سلك طريق هذا الاتجاه الصحيح بعض المفكرين من أمثال مانيلوس وسلكيوس وغيرهم ، بكل التطلع والأمل لكشف النقاب عن تفسير مشبع ، يعلل ظاهرة المد والجزر .

وعن المناخ ، خاض الفكر الجغرافى تجارب ومحاولات جيدة استهدفت تفهم التغير الذى يطرأ على المناخ من مكان إلى مكان آخر . ومن خلال هذه المحاولات الجادة ، ومن خلال التفكير والتدبر فى معنى التغير المناخى ، كانت أول محاولة لتقسيم الأرض إلى أقسام مناخية ، كما كانت أقدم محاولة للربط بين حركة الرياح الجنوبية ، وسقوط المطر مدراراً وجريان أعظم الأنهار . ومن الجائز أن بعض محاولات الربط بين التغيير المناخى وخطوط الطول قد انتهت إلى الفشل الذى منى به سترابو ، ولكن المؤكد أن محاولة الربط بين التغيير المناخى وخطوط العرض ، قد أفلحت وهيأت لبطليموس أن يقسم العالم بالفعل، إلى أقاليم مناخية .

ولم يقف الفكر الجغرافى وهو يتدبر المناخ عند هذا الحد . بل لقد خاض تجربة مفيدة عندما انبرى بكل التدبر الحكيم إلى تلمس واستشعار العلاقة بين المناخ والحياة . ولدينا تصور ممتاز عن انطلاق فكر بليبوس الجغرافى انطلاقة واعية ، حيث أوصله التدبر إلى تصور سجل فيه ، كيف يؤثر المناخ على صفات الناس وعلى طباعهم وأمزجتهم ، وأنماط حياتهم وتعايشهم فى المكان . بل لقد تصور من خلال هذا التصور كيف يكون المناخ من وراء الاختلاف ، بين الشعوب فى الأقطار التى تحتويها . وهذا معناه – بكل الانصاف – اجتهاد سجل فيه الفكر خطوة وبداية متواضعة فى استشعار العلاقات وعوامل الربط ، بين الظاهرة الجغرافية والظاهرة الجغرافية الأخرى . ومعناه – بكل الانصاف أيضاً – أنه اجتهاد سجل فيه الفكر الجغرافى بداية متواضعة، فى الاحاطة بالظاهرة البشرية ووضعها موضع التأمل والتدبر .

وفى الجغرافية الوصفية التى أطلت على الأرض وحياة الناس

فى أنحائها ، انبرى الفكر الجغرافى وتفرغ بعض المفكرين الجغرافيين - بكل الهمة - لأداء الدور الوظيفى المناسب فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض . وينبغى أن نؤكد فى هذا المجال على جدوى الاجتهاد الحضارى أو الابداع الحضارى ، الذى طور وسائل النقل ، وحسن أساليب استخدامها ، لاختراق حواجز المسافات بين المكان والمكان الآخر. وما من شك فى أن هذا التطوير فى البر والبحر ، قد أسعف التحرك الذى كان مطية الكشف الجغرافى ، فى كل اتجاه كاشف عن الأرض ، فى أنحاء متفرقة من جزيرة العالم .

وفى معية الرحلات التى انطلقت فى البر والبحر ، لحساب التعامل التجارى ، أو فى معية حملات الغزو العسكرى الامبراطورى لحساب التوسع والأمن الرومانى ، تلمست الخبرة الجغرافية الرؤية أو الرواية المنقولة عن الأرض التى وطئتها الرحلة التجارية أو الحملة العسكرية . وقد زودت هذه الخبرة الفكر الجغرافى الذى تطلع إلى حصد هذه الرؤية ، لكى ينمى رصيد المعرفة الجغرافية ويوسع احاطته بالمعمور من الأرض حول الدولة الرومانية ، بل لقد انكب الفكر الجغرافى على هذا الرصيد بنهم شديد ، وانتهى إلى وضع نواة التصور الذى أخرج بدايات متواضعة للبحث الجغرافى الاقليمى ، وكيف يستوجب الاحاطة بالأرض وبالناس ، وهو يتأمل ويتدبر التفاعل الحياتى بين الناس والأرض . وفى كتابات سترابو اكثر من دليل على هذا التصور ووضوح أهدافه ، وهو يعطى التوصيف الطبيعى والبشرى عن بعض أقطار الأرض .

ومن غير استغراق كلى فى البحث الكاشف عن أبعاد الرؤية الجغرافية، التى زودت المعرفة الجغرافية باضافات مفيدة أثرت رصيدها، نطرى الاجتهاد الحضارى الرومانى الذى تصاعد ، تأسيسًا على حسن استيعاب الميراث الذى ورثه عن المصريين والبابليين والفينيقيين والاغريق . ولا نشك أو نشكك فى جدوى الدعم الحضارى الرومانى، الذى ظاهر اجتهاد الفكر الجغرافى الذى وسع دائرة المعرفة الجغرافية على امتداد جزيرة العالم . ومن الجائز أن تفاوت هذا الرصيد الذى أسفر عنه اجتهاد الفكر الجغرافى من قارة إلى قارة أخرى. ولكن المؤكد

أن الاضافات قد تحققت على كل الجبهات فى أنحاء جزيرة العالم ، وأن مدى الرؤية الجغرافية كانت أبعد مما وصلت إليه فى المرحلة السابقة .

وعلى **الصعيد الأوروبى** ، لعب الغزو الرومانى الذى استهدف التوسع الامبراطورى حينًا أو تأمين التوسع الامبراطورى حينًا آخر ، ودوره الايجابى فى حماية الوجود الحضارى ، من العدوان البربرى المخرب ، وأسهم فى خدمة الاجتهاد الفكرى الجغرافى لأنه أتاح الرؤية الجغرافية من قرب بشكل أثار واستنفر التأمل والتدبر فى أبعاد هذه الرؤية وما تنبئ به . ومن خلال بعض كتابات المفكرين التى حوت توصيفاً جغرافياً جيداً ، نتبين كيف اتضحت الرؤية الجغرافية الكاشفة التى عاينت عن قرب شبه جزيرة ايبريا وبلاد الغال والجزر البريطانية(١) . بل قد نستشعر أيضاً كيف مد الاجتهاد الفكرى أعناقه لكى يطل على أقطار أوروبية شمالية فى اتجاه المحيط المتجمد الشمالى ، أو لكى يعاين أقطاراً فى سهول أوروبا الشرقية شمال البحر الأسود ، وكيف سجل هذه الرؤية الجغرافية (٢) .

وعن نمط الكتابة التى جسدت الرؤية الجغرافية على الصعيد الأوروبى ، نتبين كيف تضمنت توصيفًا كاشفًا عن بعض خصائص الأرض ، وعن بعض جوانب الحياة فى أحضان هذه الأرض . وربما تمادى هذا التوصيف الجغرافى لكى يشمل عرضاً اقتصادياً سريعًا يصور التفاعل الحياتى بين الناس والأرض ، وهم ينتزعون حق الحياة منها . ومن الجائز أن نفتقد فى هذا التوصيف الجغرافى السياق الرتيب أو الحبكة الفنية التى تخدم موضوعية التعبير والوضوح . ولكن المؤكد أن هذا التوصيف الجغرافى قد تجنب بعض سقطات الخيال وسرد

---

(١) لفتت رحلات بثياس فى اتجاه شمال أوروبا الانتباه إلى قطاع كبير من أرض أوروبا ، الذى كان من وراء حجاب . وقد ظل مجهولاً حتى كشف النقاب عنه الاجتهاد الجغرافى فى عصر الرومان .

(٢) أشار بطليموس إلى أكثر من مركز من مراكز التجارة على طول نهر دنيبر، بما يوحى بمدى اتساع المعرفة الجغرافية اتساعاً خدم عمليات التبادل التجارى على هذا الصعيد الأوروبى . بل لقد أفرد بعض الصفحات لتوصيف هذا الصعيد الأوروبى توصيفاً جغرافياً عاماً

العجائب وتوخى بعض الصدق فى التعبير الكاشف للرؤية الجغرافية ، سـواء تأتت هذه الرؤية من خلال المعـايـنة أو من خـلال الرواية والاستماع.

وعلى الصعيد الآسيوى ، لعب الانطلاق الحر لحركة التـجارة والتعامل التجارى المدعوم بقوة وسلطان الدولة الرومانية ، ودوره الوظيفى الناجح فى خدمة الطلب الحضارى الاستهلاكى ، دوراً بارزاً فى خدمة الاجتهاد الفكرى الجغرافى ، لأنه أتاح الرؤية الجغرافية عن قرب بشكل أثار واستنفر التأمل والتدبر فى أبعاد هذه الرؤية وما تنبئ به . ومن الجائز أن نطرى الدعم الرومانى الرسمى ، الذى تولته من خلال وجودها فى مصر ، وهو يؤمن التحرك الذى حقق هذه الرؤية الجغرافية فى أنحاء من الأرض الآسيوية (١) . ولكن المؤكد أن المغامرة والجسارة ، هى التى أنجحت هذا التحرك بالفعل ، ووضعت الاجتهاد الفكرى الجغرافى فى مواجهة الرؤية الجغرافية وأعطته أطراف الخيوط، لكى يتحمل مسئوليته ويشبع نهمه . وربما عادت هذه المغامرة لكى تنتفع بهذه الرؤية الجغرافية التى تكفلت بخدمة الانفتاح على دروب برية ومسالك بحرية ، لحساب التعامل التجارى فى أنحاء واسعة من الأرض الآسيوية .

وهكذا كان التسلل الرومانى من باب المندب إلى عرض المحيط الهندى ، وكسر احتكار الوجود العربى فيه (٢) ، وحسن استخدام الرياح الموسمية وتطويع الملاحة لاتجاهاتها فى الصيف والشتاء ، منذ حوالى منتصف القرن الأول الميلادى نقطة تحول حاسمة من كل الوجوه ، تجارياً وحضارياً وجغرافيًا . ونقطة التحول فى اعتقاد أى

---

(١) تم العثور على عملات رومانية ، فى جنوب الهند ، وفى أطراف من الصين الهندية الجنوبية . وتحكى قصة التجارة الدولية فصلاً عن ورود السلع الهندية، لكى تشبع النهم الاستهلاكى الحضارى فى الدولة الرومانية .

(٢) كانت بعض الجزر فى باب المندب الموقع الأقصى لتقدم الملاحين فى البحر الأحمر . وعندما كان التبادل بين هؤلاء الملاحين والملاحين العرب الذين يحتكرون تجارة المحيط الهندى. وربما خفى على الملاحين من غير العرب سر استخدام الرياح الموسمية وخافوا على أنفسهم الضياع فى المحيط الهندى. وربما روج العرب الأساطير ، التى تبث الرعب فيهم وتخيفهم من المحيط الهندى .

جغرافى معاصر ، تصور كيف كانت البداية على طريق الانفتاح ، وصولاً إلى الهند [1] وإلى الصين الهندية وإلى الصين [2]، ومعاينة الواقع الجغرافى فى هذه الأنحاء عن كثب ، معاينة تجسد الرؤية الجغرافية وتتقصى أبعادها الحقيقية .

وبالاضافة إلى جمع أوصال الرؤية الجغرافية من خلال الانفتاح على امتداد الجبهة البحرية الآسيوية على المحيط ، تجمع أوصال رؤية جغرافية أخرى ، من خلال الانفتاح على امتداد جهة أرضية برية ، امتدت من جزيرة العرب إلى بحر قزوين . وقد مولت الدولة الرومانية الرحلات على هذه الجبهة ، لكى تعاين الواقع الجغرافى فى الأرض من حول بحر قزوين وفى القوقاز . كما مولت بعض الرحلات الأخرى على هذه الجبهة ، لكى تعاين الواقع الجغرافى فى جزيرة العرب [3]. وقد تكفل الفكر الجغرافى باستيعاب هذه الرؤية الجغرافية ، واثراء رصيد المعرفة الجغرافية بالأرض الآسيوية . وبصرف النظر عن مدى التشويه الذى عبرت عنه خريطة بطليموس ، وهو يسجل عليها هذه المعرفة الجغرافية بآسيا ، يجب أن نستشعر كيف أثمر هذا الانفتاح، وكيف أضافت الرؤية الجغرافية وكشفت النقاب عن قطاع كبير من الأرض الآسيوية .

وعلى الصعيد الأفريقى ، لعب الوجود الامبراطورى الرومانى ، الذى أدخل الأطراف الشمالية من القارة الشمالية ، بالاضافة إلى مصر ،

---

(1) أشرف بودكسس على رحلة إلى الهند فى عام ١٢٠ قبل الميلاد . ثم قام إليها برحلة أخرى فى وقت لاحق وقد تكشفت له بعد وقوع حادثة جرفت سفينته إلى رأس جوردفوى امكانية الطواف حول افريقية . وقد حاول الطواف بالفعل من الغرب إلى الشرق . ويقال أنه أوشك على النجاح ، لولا أن غرقت سفينته وهلك ومن معه تجاه ساحل المغرب

(2) رحلة الذهاب إلى الصين ، قيل عنها انها كانت فى عام ١٢٨ قبل الميلاد ، وقد استهدفت بالفعل طلب الحرير الذى انتهى إلى سمع الرومان حديثًا مشوقًا عنه.

(3) بعث الامبراطور اغسطس حملة قادها جالوس فى سنة ٢٥ قبل الميلاد لتأديب العرب . ومواجهة احتكار الحميريين للتجارة وتأديبهم

فى حوزته دوراً بارزاً ايجابياً فى خدمة المعرفة الجغرافية (١). وينبغى أن نتصور كيف هيأ هذا الوجود الرومانى الذى ورث التراث والأهداف البطلمية فى البحر الأحمر الفرص ، لكى يتسلل الاجتهاد الفكرى الجغرافى من أطراف الجبهة الشرقية ويطل على الأرض الأفريقية . ومن الجائز أن كان الرفض الذى أعلنه الأفريقيين فى مواجهة الوجود الرومانى على الساحل الأفريقى الشرقى من البحر الأحمر شمالاً إلى زنجبار جنوباً ، والذى أوقف التوغل أو الانتشار فى أنحاء الظهير ومعاينة الواقع الجغرافى فيه (٢). ولكن المؤكد أن بعض الباحثين عن رصيد لحساب المعرفة الجغرافية ، قد استمعوا إلى روايات التجار، الذى ألفوا التواغل فى الظهير الأفريقى ، لحساب تجارة الرقيق وسن الفيل .

ومن سياق هذه الروايات التى صورت الواقع الجغرافى تصويراً مبهمًا فى بعض الأحيان ، وتصويراً مبالغًا فيه فى بعض الأحيان الأخرى ، جمع الاجتهاد الفكرى الجغرافى أوصال رؤية جغرافية عن هذا الظهير الأفريقى . وما من شك فى أن هذه الرؤية الجغرافية كانت غير صادقة موضوعياً إلى حد كبير . بل ربما اتسمت بالخلط الشديد، بين الواقع والخيال . وربما ضللت التفكير الجغرافى وهو يسجل الاضافة إلى المعرفة الجغرافية بهذا القطاع من الأرض الأفريقية ، وإلا فكيف نتصور التخبط الذى تردى فيه التصور، الذى ارتأه الفكر الجغرافى الرومانى لمنابع النيل الاستوائية ؟ .

وهناك اعتقاد يؤكد أن انصراف الاجتهاد الرومانى التجارى إلى

---

(١) من مآثر الاهتمام الرومانى بأفريقية ، اشتقاق هذا الاسم من قبيلة بربرية عرفت باسم افرى . وقد أطلقوا هذا الاسم أولاً على تونس بالذات . وقد اتسع المدلول قليلاً لكى يستخدم للدلالة على قطاع كبير من القارة . واتسع هذا المدلول للمرة الثالثة لكى يستخدم للدلالة على القارة كلها .

(٢) بلغ هذا الرفض والعصيان فى بعض أجزاء الظهير حد حمل السلاح والتصدى للوجود الرومانى بكل العنف . وفى تاريخ البلميز الذين عاشوا فى ظهر الساحل السودانى صفحات كثيرة ، تصور الحرب التى لم تهدأ ضد الوجود الرومانى . وما من شك فى أن ضراوة هذه الحرب ، قد حرمت الوجود الرومانى بالفعل من التوغل فى الظهير .

الاهتمام برحلات التجارة إلى الهند وجنوب شرق آسيا والصين ، قد صرف انتباههم واهتمامهم عن اقتحام الظهير المباشر وغير المباشر من وراء الساحل الأفريقى الشرقى . ويؤكد هذا الاعتقاد بالتالى يأس الاجتهاد الفكرى وتخوفه من اقتحام هذا الظهير ، لحساب الرؤية الجغرافية . وربما حدث هذا التخوف بالفعل تأسيسًا على ما تحكيه الروايات التاريخية عن شراسة المقاومة ، التى واجهت الوجود الرومانى فى المراكز التى ورثوا معظمها عن أسلافهم البطالمة .

ومن الساحل الأفريقى الشمالى ومن مصر ، كانت أكثر من محاولة لاجتياز الصحراء الكبرى ، إلى الأرض الأفريقية فيما وراء الصحراء جنوبيًا . ومن الجائز أن كان الجمل قد عرف طريقه ، وانتشر استخدامه على الصعيد الصحراوى فى أفريقية ، ولكن المؤكد أنهم لم يحسنوا استخدام الجمل ، ولم يتخذوا منه مطية لاختراق حاجز المسافة عن الصحراء . وهذا معناه أن فرصة العبور قد واتتهم بداية من أرض مصر ، حيث أسعفهم النيل وساروا بحذائه فى اتجاه الجنوب . ومعناه أيضا أن قدرة الاجتهاد الفكرى كانت محدودة ، وأن رؤيته الجغرافية كانت فى أضيق اطار من حول النيل .

ومن الجائز أن أسعف النيل التوغل الرومانى عبر الصحراء ، سواء كان الهدف عسكريًا ، أو كان الهدف تجاريًا (١) . ولكن المؤكد أن الدولة قد مولت هذا التوغل لتأمين مصالحها . وعندئذ يمكن أن نذكر كيف انتفع الاجتهاد الجغرافى بهذا التوغل ، وكيف تحققت له الرؤية الجغرافية ، وهو فى صحبة هذا التوغل الرومانى . وفى كتابات بعض المفكرين تصوير سجل هذه الرؤية الجغرافية تسجيلاً يعبر عن اتساع المعرفة الجغرافية ، بمساحات من الأرض فى حوض النيل الأوسط . ومع ذلك

(١) كان العمل العسكرى ضد دولة مروى . وقد انهى هذا العمل العسكرى إلى تحديد واضح بين كيان دولة اكسوم الحبشية ، وكيان الوجود الرومانى فى مصر والنوبة السفلى . أما التحرك السلمى فقد تمثل على وجه الخصوص فى رحلة مولتها الدولة الرومانية على عهد الامبراطور نيرون ، لكشف النقاب عن النيل .

يجب أن نفطن إلى أن هذه المعرفة التى تضمنتها كتابات سترابو لا تحقق الاشباع لطلاب المعرفة الجغرافية .

هذا وكان بطليموس الجغرافى الذى كرس اجتهاده لاستثمار الاجتهاد الفكرى الجغرافى ، صاحب أحسن صياغة وصفية عن الرؤية الجغرافية الرومانية فى حوض النيل . وما من شك فى أن بطليموس قد أفلح فى تنسيق واستيعاب المعلومات الجغرافية ، التى نقلها إليه مارنيوس عن الأرض فى قلب أفريقية وهو يتحدث أو يصور منابع النيل الاستوائية (١) . ولعل أهم ما انتهى إليه بطليموس ، هو التمييز بين روافد النيل الحبشية متمثلة فى النيل الأزرق والسوباط والعطبرة(٢)، والروافد والمنابع الاستوائية من البحيرات فى أرض القمر .

وعن اعداد ورسم الخرائط ، نتذكر كيف كان التوسع الامبراطورى الرومانى من ناحية ، والأخذ بزمام التجارة والتعامل التجارى براً وبحراً من ناحية أخرى ، فى حاجة إلى استخدام الخرائط التى تبصر وترشد وتقود المسيرة الرومانية . وهذا معناه أن التحرك الرومانى قد اعتمد على الخريطة لكيلا يضل ، وهو فى طريقه إلى أهدافه فى البر والبحر . ومعناه أن الرومان لم يهتموا بالاجتهاد الجغرافى أو برسم الخرائط عبثاً . بل كأن هذا الاهتمام اهتمام العارف بقيمة الاجتهاد الجغرافى ، وبجدوى الخريطة .

وهناك اعتقاد صحيح ، يتصور أن مسألة رسم الخرائط ، التى كانت مسألة علمية بحتة فى مرحلة الفكر اليونانى المصرى ، قد أصبحت مسألة عملية بالفعل فى هذه المرحلة ، لحساب الانفتاح الرومانى على

---

(١) ثار جدل بين فريقين على مصدر المعرفة بهذه المنابع. ويتصور الفريق الأول أن ملاحًا مغامراً قد توغل من ساحل زنجبار فى رحلة استغرقت ٢٥ يوماً . ثم عاد يقص رويته الجغرافية عن بحيرتين كبيرتين ينبع منهما الجريان النيلى. ويستبعد الفريق الثانى أن يكون هذا الملاح قد توغل بالفعل ، ويؤكدون أنه استمع إلى رواية بعض التجار العرب عن هاتين البحيرتين ونسب لنفسه الرؤية كذباً .

(٢) ذكر بطليموس هذه المنابع الحبشية وسمى النيل الأزرق astasobas والسوباط astabos والعطبرة astaboras .

مساحات كبيرة من جزيرة العالم ولقد أسفر ذلك التحول ، عن رسم خرائط الطرق ، التى توجه هذا الانفتاح وتبصره . هذا بالاضافة إلى رسم الخرائط التى تعبر عن المعرفة الجغرافية ، وتصور مدى اتساع هذه المعرفة . وتبنى بعض المفكرين الجغرافيين مهمة رسم الخريطة، وانجاز البيان الذى تعبر عنه فى وضوح .

ومن أهم الخرائط التى عكف بعض الجغرافيين على انجازها ، خريطة العالم . ومن الجائز أن نتصور كيف كان هذا الانجاز استمراراً لنفس الانجاز الذى أسفرت عنه اهتمامات المرحلة السابقة من مراحل الفكر الجغرافى القديم . ولكن المؤكد أن الانجاز فى هذه المرحلة سجل خطوات واضحة ، وهو يرسم خريطة العالم ويعدها اعداداً أحسن . وقد أسعف هذا التطوير والتحسين ، زيادة الرصيد من المعرفة الجغرافية من ناحية ، وزيادة الخبرة الفنية والمهارة فى رسم الخريطة ودلالات التعبير من ناحية أخرى .

هذا وقد لعب هيباركوس دوراً مرموقاً فى مسألة رسم الخريطة . ذلك أنه وجه نقداً مراً ، جرح فيه وسفه أسلوب ايراتوستين الرياضى فى شأن قياس أبعاد الأرض ، وفى شأن رسم خريطة العالم . وتطلع هيباركوس إلى استخدام أساس رياضى آخر ، لانشاء شبكة خطوط الطول والعرض ، تكون أساساً لرسم خريطة العالم . ومن الجائز أن نتبين نجاح هيباركوس فى مهمته وريادته ، عندما عمل بأسلوب أنسب لرسم هذه الخريطة . ولكن المؤكد أنه واجه نقد سترابو ورفضه تسفيه طريقة ايراتوستين . وقد دعاه سترابو لكى يتبع طريقة ايراتوستين ويفضلها فى اعداد خريطة العالم .

وهكذا تعددت رسوم خرائط العالم . ونذكر منها خرائط قراطيس وجوبيا ومارينوس . وقد دعت النعرة الرومانية ، إلى تأكيد تصور وضع روما ، فى مكان المركز القلب للقرص المستدير ، الذى احتوى رسم خريطة العالم . ثم كانت خريطة بطليموس الاسكندرانى ، التى أصحبت أهم خرائط العالم التى أسفر عنها الاجتهاد فى كل مراحل الفكر الجغرافى القديم . بل هى – بكل تأكيد – انجاز رائد حتى أصبح

أساساً لكثير من المحاولات التى بذلت فى المرحلة التالية لرسم خريطة العالم .

وهكذا ، أصبح بطليموس الجغرافى الاسكندرانى صاحب مدرسة ورائد فكر ، وعلم من أهم أعلام الفكر الجغرافى القديم . وفى كتاباته دراسة ممتازة عن مسألة رسم الخريطة . وقد ناقش أهم الأسس النظرية لشكل الأرض وأبعادها فى مقدمة كتاباته ، عن مسقطين معدلين من المساقط المخروطية . وفى كتابه بعنوان « جغرافية » خريطة للعالم وست وعشرين لوحة لأجزاء هذا العالم (١) . وقد أودع فى هذه اللوحات كل خبراته الفنية ، التى أضافت وطورت فن رسم الخرائط (٢) .

ويشكك بعض الباحثين فى عمل بطليموس ، اعتقاداً منهم أنه اعتمد على خريطة مارينوس الصورى ، وأدخل عليها بعض التعديلات الطفيفة (٣) . وبصرف النظر عن هذا التشكيك الذى يفتقر إلى الدليل البيّن ، تعتبر خريطة بطليموس – بمقياس عصره – عملاً فذاً ومفيداً(٤). وكيف لا تمثل عملاً فذاً وهى الخريطة التى أحسنت وأجادت عندما صورت الرؤية الجغرافية لجزيرة العالم ، وعبرت عن جدية هذه الرؤية واتساعها . وبصرف النظر عن بعض الأخطاء التى تردى فيها هذا الانجاز الجيد ، أصبحت خريطة بطليموس وعلى مدى قرون

---

(١) اختص بطليموس أوروبا بعشر لوحات ، وافريقيا بأربع لوحات ، وآسيا باثنتى عشر لوحة .

(٢) هناك تشكيك أيضاً فى قدرة بطليموس الفنية . ويستبعد هذا التشكيك أن يكون بطليموس قد رسم بنفسه هذه الخرائط ، وينسبون إليه الاشراف على رسمها فقط . وينسب هذا التشكيك إلى فنان سكندرى ، هو اجاثومودن صناعة وتنفيذ هذه الخرائط .

(٣) خريطة بطليموس الأصلية مفقودة . وضياع الأصل سواء كان من خلال انكار واستنكار رجال الكنيسة للفكر الجغرافى القديم ، أو كان من خلال الاهمال فى عصر الظلام المسيحى قبل ظهور الاسلام ، اتاح فرص التهجم والقدح فى عمل بطليموس . بل ربما تعرضت الترجمة واعادة الرسم لبعض التحريف لدى اعداد هذا البديل .

(٤) عمل بطليموس يمثل عملاً فذاً . وهو يعد أساس رسم الخريطة ، وتجهيز شبكة خطوط الطول والعرض ، أو وهو يسجل المعرفة الجغرافية عليها .

طويلة ، المصدر الأهم من أى مصدر آخر للمعرفة الجغرافية عن العالم (١) .

هذا وينبغى أن نذكر ذلك التوجه المستجد ، الذى استوجب أو فرض على بطليموس ، الفصل بين الاهتمام بالكون ، وقد أفرد له كتاباً خاصاً يكاد يوحى بالتخصص ، والاهتمام بالأرض وقد أفرد له كتاباً خاصاً آخراً يؤكد على الايحاء بهذا التخصص . وقل أن هذا الفصل الذى نتبينه عندما نطالع كتاب بطليموس بعنوان المجسطى ، وهو يتحدث عن الكون الأجرام السماوية ، وعندما نطالع كتاب جغرافيا ، وهو يتحدث عن الأرض وأقسام الأرض . بل قل ينبغى أن يدلل ذلك على أمرين هما :

١- الاقدام المنطقى والموضوعى ، الذى يجسد التوجه المناسب والحميد ، إلى وجوب الفصل بين الاهتمام بالكون ، والاهتمام بالأرض ، على اعتبار أن كل اهتمام منهما ، له خصوصية تخصه . ومن هذه الخصوصية يولد التخصص . ومن أجل التخصص ، يكون المتخصص الذى يشغله هذا التخصص ، ويتحمل مسئوليته .

٢- الاعلان لأول مرة ، عن ولادة تخصص يهتم بخصوصية ، من تحت العباءة الجغرافية . وقل أن هذا الوضع يجسد المنطق السليم ، لأن النظرة الجغرافية نظرة تطل وتعاين المنظور الكلى ، وتهتم بهذه الكلية وهى توليفة تتداخل فيها عناصر كثيرة ومتعددة . وقل يكون فى وسع الاجتهاد الجغرافى أن يتبين الخصوصية التى تتميز بموجبها الأجزاء المتداخلة فى توليفة المنظور الجغرافى الكلى . بل قل أنه فى الوقت الذى يستشعر الجغرافى العلاقة بين الأجزاء المتداخلة ، مثل النبات والحيوان والمناخ وكثير غيرها ، من الأجزاء وتشغله ، يستشعر أيضاً أن

---

(١) من أهم الملاحظات على محتويات الخريطة تتمثل فى : أ - المبالغة الواضحة فى امتداد آسيا شرقاً وتضم مساحة جزيرة سيلان . ب- تحديد افريقية شرقاً جنوب خط الاستواء ، لكى تطوق المحيط الهندى وتظهر بحراً مغلقاً . جـ-زحزحة خط الاستواء جنوباً بعيداً عن موقعه الصحيح ، وبشكل يلفت النظر .

خصوصية كل جزء ، تستوجب أن تكون محلاً التخصص . ومن ثم يولد التخصص ، أولاً ، لكى يكون المتخصص الذى يشغله هذا التخصص بعد ذلك .

هذا ونضيف إلى ذلك كله ادراك أن اهتمامات الاجتهاد الجغرافى ، قد استغرقت فى التمعن ومعاينة وتدارس المنظور الجغرافى الطبيعى ، على صعيد الأرض ، وكان هو الشغل الشاغل . وربما أدى ذلك الاستغراق إلى اهتمام أقل بكثير ، بمعاينة المنظور الجغرافى البشرى على صعيد الأرض . ولا يعنى ذلك غير عدم التوازن ، فى تناول ومباشرة الاهتمام بالمنظور الجغرافى الطبيعى ، وبالمنظور الجغرافى البشرى . بل قل ربما وقع التفكير الجغرافى فى تصور أن وجود الانسان ، كان يمثل جزءاً من المنظور الجغرافى للأرض ، وأنه فى زحمة الاهتمام بالكلية ، يضيع أو يتواضع الاهتمام بالجزئية . والمهم أن نستشعر فقدان هذا التوازن ، بين الاهتمام بالأرض ، والاهتمام بحركة الحياة على صعيد الأرض . ومع ذلك ينبغى أن نقوله لم يكن الاهتمام بالأرض والاستغراق فيه ، هو بالضرورة لحساب الناس ووجودهم وانتشارهم ، ومباشرة علاقاتهم الايجابية مع الأرض ، فى المكان والزمان .

وقد اختتم ذلك الفصل المرحلة الطويلة ، التى سجلت توجه التفكير الجغرافى ، التوجه الذى جاوب نزعة الامعان فى عمومية العالمية . وقد أصبحت المعرفة الجغرافية قاعدة تضم توليفة مركبة ، تتداخل فيها عناصر كثيرة ومتنوعة . بل قل تهيأت هذه القاعدة لكى تنبثق منها أهم الاهتمامات الخاصة ، التى تعتنى بعنصر من عناصر هذه التوليفة ، وتتغلغل فى أعماق موضوعتها المتفردة . وهذا هو الأصل المبكر ، لمولد علوم متخصصة من قاعدة علم المعرفة الجغرافية.

* * *

وبعد ، هذا تصور سريع مركز ، يصور مسيرة الفكر الجغرافى منذ أن تبناه الفكر الفلسفى الأفريقى ، فى الاتجاه الصحيح . وما من شك فى أن الابداع الحضارى فى مصر وفى بابل ، وفى بلاد الاغريق ،

وفى روما ، قد أسعف الاجتهاد الذى حفز الفكر وأثراه واستنفر التدبر والتأمل ، لكى يجسد الرؤية الجغرافية ، وهى تتطلع إلى السماء وتتحسس الكون ، أو وهى تشاهد الظاهرات الطبيعية ، أو وهى تجوس فى الأرض. ومن ثم تحمل هذا التفكير الذى استنفزته الرؤية الجغرافية ، مسئولية الاضافة والتجديد والتسجيل ، الذى يشبع حاجة الانسان للتعرف على الكون مرة ، وعلى الأرض مرة أخرى . وينبغى أن ندرك كيف احتوى التراث الحضارى ، واعتز كثيراً بصفحات مثيرة ومضيئة ، تضم ثمرات الانفتاح المتفتح ، الذى استنفر الفكر الجغرافى ونماه وحافظ عليه ورعاه لحساب الانسان .

* * *

الفصل الثالث

الاسلام والفكر الجغرافى العربى

- المسيحية وضياع الفكر الجغرافى
- الاسلام يتبنى الفكر الجغرافى
- الاسلام واستنفار الحاسة الجغرافية
- الحاسة الجغرافية وتباشير التفكير الجغرافى عند المسلمين
- الاسلام يدعم الفكر الجغرافى
- احياء الفكر الجغرافى
- الفكر الجغرافى العربى الأنضج

الفصل الثالث

الاسلام والفكر الجغرافى العربى

المسيحية وضياع الفكر الجغرافى :

لئن كان الفكر الجغرافى القديم ، وليداً شرعيًا لاجتهاد الحس الجغرافى ، الذى أسفر عن كل شكل من أشكال الفكر الجغرافى ، الذى بصر الحياة قبل ابداع التسجيل وصياغة التراث ، فلقد تبنى الاجتهاد الحضارى والتفكير الفلسفى هذا الوليد ، وتحمل مسئولية تنشئته وتطويره والاضافة إليه . ولئن كان حصاد هذا الفكر الجغرافى القديم قد أشبع تطلع الانسان إلى توسيع دائرة المعرفة ، بكل مكان وبأى مكان من حوله ، فلقد تجلى – بكل الوضوح – مدى التزام أهل الفكر الذى تعشق التدبر فى صفات المكان من حولهم ، بقيادة وحسن توجيه مسيرته فى الاتجاه الصحيح . بل لقد تفرغ بعض أهل الفكر تفرغًا حقيقياً ، وانكب على اثراء الفكر الجغرافى والاضافة إلى رصيده .

وفى اعتقادى ، أن هذا الفكر الذى كان رفيق عمر الحياة على الأرض، ثم انتظم فى مسيرة فكرية جادة بالفعل ، ما انتظم فى هذه المسيرة ، إلا لكى تستمر وتتقدم ، وتجد الأيدى الأمينة التى تصونها وترعاها ، والعقول المتفتحة التى تمسك بزمامها وتؤمن حركتها وتقدمها . وما من شك فى التزام هذا الفكر بمصلحة الانسان فى الأرض، وبحرصه على اجابة الناس أصحاب الاجتهاد الحضارى المادى والمعنوى ، وهم يطوعون الأرض للحياة ، ويطوعون الحياة للأرض ، إلى ما يصبون إليه من معرفة بالأرض ، أو ما يتطلعون إليه من تعميق هذه المعرفة انتصاراً لإرادة الحياة فى الأرض .

وليس أروع من أن نتابع الاجتهاد الفكرى الجغرافى المثمر ، وكيف انتقل زمام المسيرة الفكر الجغرافية من جيل إلى جيل آخر من المفكرين أو من مرحلة إلى مرحلة أخرى . بل ومن المفيد أن نتبين كيف تبنت الحضارات والاجتهاد الحضارى هذه الاجتهادات الفكرية ، وقدمت له الحوافز ، وهى عاكفة على التدبر والتأمل فى الرؤية الجغرافية ، أو وهى

صانعة ومبدعة الاضافات ، التى أثرت رصيد المعرفة الجغرافية ، لحساب الحياة . ومن المفيد أيضاً أن نتحسس نقط التحول ، التى أطلقت العنان للتقدم بخطوات ثابتة ، إلى الفكر الجغرافى الأفضل أحياناً ، أو نقط التحول التى أوقعت الفكر الجغرافى أو أحياناً أخرى فى المحنة وجمدت التقدم .

وفى الوقت الذى نستشعر فيه ، كيف أسعف المعرفة الجغرافية حركة التعامل التجارى ، وهى فى أبسط صورة من صور التجارة الدولية ، وكيف وضعت هذه المعرفة العلامات على الطرق ، وهى تخدم الانفتاح والتكامل الاقتصادى بين المكان والمكان ، أو بين الناس فى المكان والناس فى المكان الآخر ، يجب أن نستشعر أيضاً ، كيف بصرت حركة التعامل التجارى حركة المعرفة الجغرافية ، وكيف أمنت السلطة التى انتفعت بالتعامل التجارى ، مسيرة الاجتهاد الجغرافى الكاشف ، عن المكان وعن الناس فى أى مكان على الأرض .

ومن الجائز أن أكثر من نقطة تحول حضارية ، مادية أو معنوية ، قد عظمت ونشطت حركة التعامل التجارى لحساب الانسان ، وحفزت واستنفرت الاجتهاد الكاشف عن رصيد يثرى المعرفة الجغرافية لحساب الانسان أيضاً . ولكن المؤكد أن هناك أكثر من نقطة تحول حضارية مادية ومعنوية ، قد لعبت دوراً بارزاً ، فى تحريك مسيرة الفكر الجغرافى قدماً ، وفى الهام وتنشيط التدبر والتفكير الذى يضيف إلى رصيد هذه المسيرة ، وفى تعديل مسار المفكرين القابضين على زمام تقدمها المثمر النشيط .

ومن أهم نقط التحول المادية ، نذكر الابداع الحضارى المادى الذى أسفر عن تحسين وسيلة النقل فى البر والبحر ، وكيف أسعف تحرك الاجتهاد الجغرافى لدى اختراق أو اسقاط حاجز المسافة ، بين المكان والمكان . كما نذكر التسلط السياسى الذى أسفر عن تطويع الاجتهاد الجغرافى وامتثاله ، لدى أداء دوره الوظيفى فى أرجاء المكان ، أو الذى حفز ومول الاجتهاد الجغرافى وطلب ثمرات أدائه الوظيفى فى المكان . ولكن أهم نقطة تحول بالفعل كانت من صنع الابداع الحضارى المعنوى

، يوم أن امـتثل الفكـر الجـغـرافى وانصـاع لضـغـوط وحـوافـز العـامل الدينى.

وامـتثـال الفكر الجـغـرافى للعـامل الدينى مـسـألة لا غـبار عليـها من وجـهة النظـر الموضـوعـية . بل ينبـغى أن نتصـور كـيف بدأ هذا الامـتثـال للضـغـوط التى أمـلاها العـامل الدينى منذ وقت بعـيـد ، وكان حـافـزاً من وراء الاجـتـهـاد الجـغـرافـى المفـيد . كـمـا ينبـغى أن نـتـصـور أيضـًا أن هـذا الامـتثـال لضـغوط العـقيدة الدينية الـراسـخة فى صـمـيم الانسان ، لا يعنى بالضرورة كبـتاً للاجتهاد الجـغرافى . وهناك أكثر من مثـال يصـور كيف كـان الضـاغـط الدينى حافـزاً اسـتنفـر الاجتـهـاد الجـغـرافى ، وهـو يتـرقب حصـاد وثمرات هـذا الاجتهاد .

ونذكر – بكل الصـدق – أن العقيدة الدينية لا يمكن ولا ينبغى لها أن تكبت الفـكر الحـر ، أو ترفض الفكر المجـتـهـد ، وهـو يتـأمـل فى ملكوت الله ، فى الأرض ، وفـى السـمـاء . ومن ثم يـنبـغى أن نتـصـور الضـاغـط الدينى ضـاغطاً ايجابيًا لا ينكر الفكر ولا يتنكر له ، طالما لم يتـعارض هذا الفكر مع ايمان العقيدة الصـحيح . وهـذا معناه أن الضـاغط الدينى لا يكون ضـاغطاً سلبياً ، يكبت الفكر الذى يتأمل فى ملكوت الله من غير تعارض مع العـقـيدة ، إلا إذا استل هـذا الضـاغـط – بجهل – من وراء ظهر العقـيدة السوية ، عصـا غليظة ، تطارد الفكر وتنكل بأهله .

هـذا ، ومن بعـد بطليـمـوس الجـغـرافى الاسكندرانى ، نتـبين هـذا الموقف الـغـريب ، عندمـا تـعـرض الفكر الجـغـرافى للضـاغط الديـنـى السلبى ، وأمـسك له الـعـصـا وود له طوعـه ، وسـيـره فى الاتجـاه غـيـر الصـحيح . ومن الجـائز أن يضع انتـشـار المسـيـحـية فـى أقطار البـحـر المتوسط ، نقطة تحـول حضـارية معنوية ، لحـساب عقيدة وايمان وحياة أفضل . ولكـن المؤكـد أن انتـصـار المسـيحـيـة قـد أعطى رجـال الكنيـسـة الأغبـياء ، قوة الضـغط الدينى على الفكر الانسانـى كله . وما من شك أن واجه الفكر الجـغرافى هـذا الضـاغـط الدينى . وكانت نقطة تحـول خطيرة ومـثـيـرة فى وقت واحـد . ذلك أن هـذا الفـكر انشطر شـطرين ؛ شطر صحيح تـخوف وانطوى وفر ، وتـخفى لأنه لم يمتثل للضـاغط الدينى ،

وشطر مزيف دجال امتثل وأسلم زمامه لإرادة الجهالة . وغباء رجال الكنيسة .

ويكل الانصاف النزيه الذى يسقط عن عقيدة المسيحية ، التى نؤمن بصدق وواقعية وطهارة رسالتها النقية لحساب الحياة الأفضل ، هذا الاتهام الشنيع ، نعلق كل الاتهام - بكل الاطمئنان - فى أعناق رجال الكنيسة ، الذين أخذوا مكانة الراعى من الرعية ، واستغلوا هذه المكانة أسوأ استغلال . بمعنى أنه ينبغى أن نوجه كل أصابع الاتهام - من غير تردد أو خوف - إلى التزمت الكنسى الجاهل ، لأنه هو الذى جعل من الضاغط الدينى ضاغطاً سلبيًا مرعبًا ، وأحبط اجتهاد الفكر الحر ، وحرم على التفكير الجغرافى نعمة التحرر . وكانت دعوة رجال الكنيسة الضاغطة والمتسلطة ، تعلن - بكل الجهل - أن الفكر الجغرافى القديم مرفوض ، ومطعون فى صدقه . بل لقد تمادى الضغط حتى صوره فكراً كافراً ، يروج للكفر بين الناس ، وينبغى مطاردته واجتثاثه من جذوره .

وهذا ينبغى أن نتبين كيف كان رفض رجال الدين المسيحى للفكر الجغرافى القديم رفضاً قاطعًا ، فهجره الناس ، وكيف أعطى رجال الدين المسيحى الناس الفكر الساذج البديل وباركوا التزامه ، فقبل به الناس . والفكر الساذج البديل كان وليد الخوف من رجال الدين والضاغط الدينى، فأشاع الجهل . وكان القبول به امتثالاً لارادة رجال الدين علامة على الخوف كل الخوف من رجال الدين .

واعتبر فريق من رجال الدين المسيحى ومنهم القديس امبروز ، أن قضية البحث عن كنه الأرض من خلال تقصى معالم الأرض ، قضية لا جدوى من ورائها اطلاقاً ، وأن الاجتهاد الجغرافى اجتهاد مرفوض ليس له ما يبرره. ونظر فريق آخر من رجال الدين أكثر تزمتاً وجهلاً إلى أن قضية البحث عن الأرض ومعالمها ، وإلى الاجتهاد الجغرافى الباحث من خلال الفكر والتدبر والتأمل ، نظرة انكار واستنكار شديدين ، لأن ذلك كله يعارض إرادة الله أصلاً ، أو لأنه - على أقل تقدير - بحث ضال وفكر مضلل ، نابع من معين الوثنية القديمة ، أو من منهل الكفر السائد قبل ظهور المسيحية .

وينبغي ، أن نفطن إلى خطورة هذا الضاغط الديني ، الذي شجب التفكير والتدبر وكبله ، وهذا التصدي العنيف الذي أوقف مسيرة الفكر الجغرافي وأهدر رصيدها . وما من شك في أن هذا الضاغط الديني والتصدي المتزمت العنيف ، كان كبتًا وإحباطاً للفكر الجغرافي ، على غير إرادة الحياة ، ولغير مصلحة الحياة . بل أنه – بكل تأكيد – كان على غير إرادة اللّه الذي أطرى التدبر والتفكير في الحقائق والسنن ، التي تجرى بها مسيرة الحياة في ملكوت اللّه . كما ينبغي أن نذكر كيف استل رجال الدين من التزمت الغبي الجاهل بما أراده اللّه ، عصا غليظة ، تضرب الفكر الجغرافي وكأنه الكفر بعينه ، وتطارد المفكرين صناع وحفظة الفكر الجغرافي ، الذي قدم رصيده بكل الرضا لحساب الحياة .

وفي ظل هذا الموقف الذي أعلن عن رفض واستنكار رجال الدين ، كانت النكبة أو الضياع . وقد أجهض هذا الضاغط الديني الفكر الجغرافي لأنه سعى إلى تفريغه من مضمونه ، وتعديل مساره في غير الاتجاه الصحيح . بل لقد ولدت في أحضان هذا التزمت الكنسي الضاغط، مدرسة الانكار العنيف الرافض للفكر الجغرافي القديم ، أو للاجتهاد الجغرافي الذي أسفر عن اضافات مفيدة على المدى الطويل . وتولت هذه المدرسة مطاردة الفكر الجغرافي وإهدار اجتهاده في أي مكان . كما تولى بعض المنتسبين لهذه المدرسة والعاملين على هدى إرادة وهوى رجال الدين ، اخراج وصناعة فكر جغرافي غريب ، يروج للجهل أكثر من أي شيء آخر .

وأصبح من شأن هذا الفكر الجغرافي الغريب الذي عرف باسم الجغرافية المسيحية لأنه يطاوع إرادة رجال الدين ، أن يسخر من الفكر الجغرافي القديم وينكره ، وأن يسخر في نفس الوقت من الناس وهو يزودهم بالزاد الفكر الجغرافي الغريب . ووجه الغرابة في هذا الفكر الجغرافي المسيحي المصطنع ، أنه طوع كل الأفكار تطويعاً بشعاً ، وكأن المطلوب امتثال هذه الأفكار ، لإرادة الجهل في رجال الدين أحياناً ، أو لمنطق التزمت في رجال الدين أحياناً أخرى . والمسيحية بعد ذلك كله بريئة كل البراءة من هذا الفكر المصطنع .

وإذا كانت القرون الأولى بعد ميلاد المسيح وانتشار المسيحية ورسوخ تعاليمها ، قد أطلقت عنان الضاغط الدينى الذى أعلنه رجال الكنيسة . لكى يطارد الفكر الجغرافى الصحيح ، فإن هذا الضاغط قد خلق فكر جغرافيًا مسيحيًا اعترض طريق الفكر الجغرافى القديم وأوقف مسيرته . وكان هذا الفكر الجغرافى المسيحى ساذجًا إلى أبعد الحدود وملتزمًا بمنطق ومفاهيم وتصورات رجال الدين . كما كان - بكل تأكيد - منقطع الصلة بكل ما احتواه التراث الانسانى ، من ثمرات الفكر الجغرافى القديم . وجدير بنا عندئذ أن نتصور كيف عبر هذا الفكر الجغرافى المسيحى عن كنه الحقائق بشكل صارخ ، وكيف انغمس فى عمق الجهالة بشكل فاضح . وكيف لا نتصور ذلك كله وهو فكر أبى واستكبر ورفض أن يبدأ من حيث انتهى الفكر الجغرافى القديم ، وأثر أن يبتدع من عنده - على هوى رجال الدين - خرافات غبية ، وحاول أن يكسوها بكساء الحقيقة . ولكن هيهات أن ينجح .

وهكذا نستشعر التغيير الذى طوى صفحة الفكر الجغرافى الصحيح القديم ، وأوقف مسيرته وأنكر عليه حرية التفكير ، والذى اصطنع وفتح صفحة الفكر الجغرافى المسيحى المزيف وسيره فى طريق مسدود . ولكن الأهم من ذلك كله أن نستشعر نتيجتين هامتين هما ، من قبيل المصائب أو النوائب التى انهالت على الفكر الجغرافى القديم .

والمصيبة الأولى تحمل وزرها أحد رجلين ، إما مسيحى جاهل أعماه جهله ، أو مسيحى انتهازى سيرته أطماعه . وقد انبرى هذان الرجلان - بكل الغباء أو الخبث - إلى لوى عنق الفكر الجغرافى القديم ،وكأنهما يطلبان ازهاق روحه . وكان هدف كل منهما ، تطويع الأفكار الجغرافية لكى تساير جهالة وتزمت رجال الدين ، أو ابتداع الأفكار الجغرافية ، التى تجاوب منطق وتصورات رجال الدين . وما من شك فى أن كليهما قد دس فى الفكر الجغرافى ، التخريب والأوهام ، وكأنها ردة إلى عهد بائد سيطرت فيه روح ومنطق التصورات الأسطورية . وما من شك أيضًا فى أن كليهما قد ابتعد تمامًا عن المسار الصحيح ، الذى طالما خدم الابداع والاضافة إلى الفكر الجغرافى القديم ، وهو يخدم

مصلحة الحياة . وقد انحرف إلى مسار غير صحيح ، لا يخدم الابداع والاضافة إلى الفكر الجغرافى المسيحى ، وهو لا يجاوب مصلحة الحياة .

والمصيبة الثانية تحمل وزرها رجال الدين بأنفسهم الذين أعماهم الغباء ، وسيطر على عقولهم المنغلقة الجهل . وقد انبرى رجال الدين – بكل العنف – إلى اهدار دم الفكر الجغرافى القديم ، وكأنهم يحرضون على سفك دماء المفكرين الذين لا يطاوعونهم . وكان الهدف الحقيقى كامناً فى توقيف مسيرة الفكر الجغرافى القديم ، على الطريق الصحيح . وقد اتخذ رجال الدين من التهديد والوعيد والحرمان ، مطية لارغام المفكرين والضغط عليهم ، وصولاً إلى التفريط فى الفكر الجغرافى القديم ، ونبذ تراثه والتنكر لها . بل هناك من طارد بعض المفكرين الذين رفضوا الامتثال ، وهناك من تكفل بطمس معالم الفكر الجغرافى القديم ، حتى يصبح فكراً كافراً مهجوراً .

وتأسيساً على ما تعنيه هاتان المصيبتان اللتان اشتركتا فى تحديد أبعاد النكبة ، ينبغى أن نستشعر كيف توقفت وتجمدت مسيرة الفكر الجغرافى القديم. وأصبح هذا الفكر فكراً مهجوراً ، مطلوب أن ينساه أو يتناساه الناس ، وكيف بدأت مسيرة فكر جغرافى مسيحى مصطنع ، وصنيعة رجال الدين . وأصبح هذا الفكر فكراً شائعاً مطلوباً أن يأخذ به وأن يروج له الناس . ومن ثم كان الخوف كل الخوف على الفكر الجغرافى من أن يضيع ويبلى شيئاً ، وكان الخوف كل الخوف على الفكر الجغرافى المسيحى المصطنع ، أن يشيع وهو منحرف منطقياً .

وفيما بين القرن الثالث والقرن الثامن الميلادى ، اتخذ الاجتهاد الجغرافى المزيف الذى طوعته وروضته إرادة رجال الدين ، وسيطرت على زمامه ، من الكتاب المقدس أساساً للكتابة وللتعبير عن الجغرافية والفكر الجغرافى المسيحى الملتزم . وما كان ينبغى أن يكون الكتاب المقدس وهو كتاب عقيدة ودين مصدراً لمعرفة جغرافية ، ونظريات قابلة للنقد والتغيير . ولكن يبدو أن الاجتهاد الجغرافى قد كرس اهتمامه ، وهو لا يستهدف أكثر من تثبيت وبث المعتقدات المسيحية فى نفوس الناس . ومن غير أى تجنى ، نفتقد فى حصاد هذا الفكر

الجغرافى المسيحى الملتزم بإرادة رجال الدين ، أى شكل من أشكال الاجتهاد الباحث عن حقائق جديدة عن الأرض . وقد لا نجد سوى رفض قاطع وصريح ، يهدر وينفى فكرة كروية الأرض ، وترويج لفكرة مضادة ، تؤكد فكرة الأرض المسطحة .

هذا ، ويصور كتاب الجغرافية المسيحية ، الذى نشره كوزموس الجغرافى المسيحى الملتزم فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى، أبعاد الاجتهاد الجغرافى الملتزم ، الذى أنكر واستنكر الفكر الجغرافى القديم ووصمه بالكفر والهرطقة (١). وتسجل بعض الكتب التى أوردت نشاط الرحلات وصورت رؤيتها الجغرافية ، مدى الانحدار فى التصور الجغرافى ، ومدى القصور فى الادراك الجغرافى الواقعى (٢). وهناك أكثر من دليل صارخ يكشف عن سوء استخدام الحس الجغرافى ، الذى افتقد الحرية فى استشعار الرؤية الجغرافية ، وكبله الالتزام الصارم بإرادة رجال الدين .

وهكذا نتبين الخطر الحقيقى الذى تعرض له الفكر الجغرافى القديم. ويكفى أن نتصور الكبت الشديد ، وكيف حرم هذا الفكر من حقه فى الأمن ، لكى يعطى وتتحرك مسيرته فى الاتجاه الصحيح . وهل ينكر البحث الموضوعى غير المتعصب ، أساليب رفض رجال الدين المسيحى ، وأساليب قمع الفكر الجغرافى القديم الذين أعلنوا تكفيره وأهدروا وجوده وحصاده ؟ وهل يخفى علينا أن رجال الدين المسيحى اعتبروا المجاهرة بفكرة كروية الأرض هرطقة صريحة ، وأن جزاء من يروج لهذه الفكرة الكافرة هو القتل ؟ (٣) وهل ننسى لو تتناسى أن رجال

---

(١) كتاب كوزموس كتاب فارغ من حيث المضمون ، وساذج من حيث التعبير . وقد اعتمد كوزموس على التوراه لكى يدلل على أن الأرض منبسطة ، وأن القدس تقع فى وسط العالم .

(٢) نذكر من هذه الرحلات ، رحلة ايسيدورو فى القرن السابع الميلادى ، ورحلة أركوف فى القرن الثامن الميلادى ورحلة ويلبارد فى نفس هذا القرن . ويبدو أنها كانت أعجز من أن تسجل اضافة مرضية تشبع النهم إلى المعرفة الجغرافية.

(٣) جلال مظهر : حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى القاهرة ١٩٧٤ صفحة ٣٩٨ .

الدين المسيحى قد افتروا - بكل التبجح - على الكتاب المقدس مرة ، وعلى القديس بولس مرة أخرى ، عندما حملوهما زوراً وبهتاناً ، مسئولية تجريم الفكر الجغرافى القديم ورفضه وانكاره ؟

والفكر الجغرافى القديم الذى واجه كل هذا التحدى ، يحفظ فى ضميره ويعرف جيداً ، أن لتكناشيوس المسيحى المتعصب كان واحداً من ألد خصومه . ويعرف أيضاً أن من بين رجال الدين المسيحى الذين غرقوا فى ظلام الجهالة ، فريق تلذذ بمطاردة الفكر الجغرافى القديم ، وتعقب الذين يحفظونه على مدى قرون طويلة من عمر الحياة . ومن ثم أفلح رجال الدين المسيحى ومن انصاع لإرادتهم وامتثل لجهالتهم - بكل التعصب الممقوت - فى توقيف أو فى تجميد مسيرة الفكر الجغرافى القديم ، وفى احباط اجتهاده وعطائه لحساب الحياة . ويبلغ نجاحهم حده الأقصى ، عندما تحول هذا الفكر الجغرافى القديم ، وهو تراث عزيز من صنع أجيال كثيرة ، إلى فكر جغرافى مهجور وملعون ، لأنه كافر .

وتأسيسًا على كل الاجابات الصحيحة التى تجيب عن موقف رجال الدين ، الذى اتسم بالتعصب الشديد ضد الفكر الجغرافى القديم المهجور(١) ، يمكن أن نتبين - من غير حرج - كيف أشاعت عداوة ووعيد رجال الدين الرعب والفزع بين أهل الفكر الجغرافى . كما يمكن أن نتبين - من غير تجنى - كيف حرمت صرامة رجال الدين المسيحى التفكير الجغرافى الحر أو المتحرر ، من مظلة الأمن ، عندما حكمت بالموت على كل من أبى الانصياع لإرادة التعصب والتزمت والجهل وأهدرت دمه . وهل يمكن أن يتلمس الفكر الجغرافى المهجور بعد ذلك ، غير البحث عن مأوى يلوذ به ؟

وهكذا يمكن أن نستشعر معنى ونتائج استسلام الفكر الجغرافى القديم لنقمة الكبت حتى أصبح مهجوراً يتهدده الضياع فى جانب ، ومعنى نتائج

---

(١) نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافية (ترجمة د/ فتحى عثمان) الألف كتاب القاهرة ص٢٠٠ .

اطلاق عنان الفكر الجغرافى المسيحى الممتثل لإرادة الجهل الكنسى فى جانب آخر ، حتى انطلق يعربد ويمحق الحقائق الجغرافية ، ويقود المسيرة الفكرية الجغرافية فى طريق مسدود . وهذا معناه أن مسيرة الفكر الجغرافى ، التى تولى أمرها نفر من المسيحيين ، لا تمثل فى اعتقاد أى جغرافى معاصر منصف ، مرحلة من مراحل المسيرة الفكرية الجغرافية السوية. ذلك أن تحول الفكر الجغرافى القديم إلى فكر مهجور ومرفوض ومطارد ، ينفى وينكر أى صلة تربط ، بين الفكر الجغرافى القديم الصحيح ، والفكر الجغرافى المسيحى الضال أو المضلل.

ولكى نورد الحقيقة وندرك معناها الصحيح ، ينبغى أن نتصور أن مسيرة الفكر الجغرافى القديم ، قد توقفت وتجمدت عندما حكم عليه بأن يصبح مهجوراً . ومن الجائز أنه تخفى وتنكر وطواه النسيان، وأوشك على الضياع فى صومعته التى اعتصم بها . ولكن المؤكد أن هذا الفكر المهجور ، لم يكون أبداً القاعدة أو الأرضية أو البناء الذى أضاف إليه الفكر الجغرافى المسيحى لبناته واضافاته . وهذا معناه أن الفكر الجغرافى المسيحى – إذا استحق أن يكون فكراً – قد احتوته مسيرة بدأت من رفض الفكر الجغرافى القديم المهجور . وقل أن هذه المسيرة التى انغمست فى التخريف والتحريف ، قد اغرقت أوروبا فى ظلمات وجهالات بالفعل ، إلى القرن السادس عشر الميلادى على الأقل .

ولولا أن تدارك الاسلام الفكر الجغرافى القديم المهجور ، ولولا أن انتشله المفكرون المسلمون من رقدة العدم ، ولولا أن أحيا التفكير الاسلامى الحر جذوته ، وقاد مسيرته مرة أخرى ، اعتباراً من القرن الثامن الميلادى ، لكانت مرحلة النكبة التى تفشت فيها جهالة وتضليل الفكر الجغرافى المسيحى أكثر من طويلة . بل ولكانت الصحوة والانتعاش ، لكى تبدأ مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، من حيث انتهت مسيرة الفكر الجغرافى القديم بعد بطليموس ، أكثر من صعبة أو مستحيلة .

وصحيح أن نقول أن اسهام بطليموس الاسكندرانى وكل الذين سبقوه ، واشتركوا بنصيب فى صنع التراث المفيد والرصيد الجغرافى ،

فى مسيرة الفكر الجغرافى القديم قد تجمد ، وبات مهجوراً وأوشك أن يتبدد . وصحيح أن الفكر الجغرافى المهجور ، قد افتقد من يطوره أو يصححه أو يضيف إليه ، وهو فى مواقع اعتصامه ، على مدى أكثر من سبعة أو ثمانية قرون مظلمة من عمر الحياة . ولكن الصحيح أيضاً ، أن نتبين - بكل اليقين - كيف أن كبت الفكر الجغرافى الصحيح والتصدى الجاهل الذى جعل منه فكراً مهجوراً ومرفوضاً ، وأجبره على الفرار إلى بعض مواقع الاعتصام ، لم يصرف التفكير المتحرر عن استشعار قيمة وفاعلية وجدوى هذا الفكر والتشبث به ، لأنه يجاوب إرادة الحياة ويبصر ويرشد التعايش مع الواقع الطبيعى فى المكان . وإلا فكيف يمكن أن نفسر عودة الروح إلى هذا الفكر الجغرافى المهجور ، وانطلاق مسيرته فى المسار الصحيح مرة أخرى ، وتسجيل التصحيح والابداع والاضافة ، فور التحرر من الخوف واستشعار الأمن فى ظل الاسلام ؟

هذا ويتعين عندئذ أن نتصور كيف كانت مسيرتان للفكر الجغرافى فى وقت واحد . وتسجل المسيرة الأولى تحرك الفكر الجغرافى المسيحى اعتباراً من القرن الثانى الميلادى . وتصور خطوات هذه المسيرة مدى الانحدار الفكرى فى الجهالة ، ومدى الضلال الذى تردت فيه المعرفة الجغرافية (١). ومن الجائز أن خطت هذه المسيرة

---

(١) تولى بعض المتحمسين الذين أخذوا بمنطق رجال الدين المسيحى ، وانصاعوا لجانبهم وتنازلوا عن حريتهم وتحرر تفكيرهم ، افراز وتسجيل فكر جغرافى مزيف ، يفتقد الصدق والموضوعية . وأصبح هذا الفكر الجغرافى الذى انتسب إلى المسيحية ، وشاع فى أنحاء أوروبا المظلمة ، فكراً ساذجاً وسخيفاً ، عندما يسخر من الفكر الجغرافى القديم المهجور ، ويتنصل منه ويرفضه . بل كان فكر جغرافياً مسيحياً جاهلاً ومرفوضاً ، عندما يروج لأوهام باطلة وتخريف، يلوث المسيحية وتستخف بعقول الناس . ونتذكر على سبيل المثال ، كيف تجلى جهل وتفاهة وتخريف ، القديس فيلاسطريوس ، عندما يصور - بكل السذاجة - أنه سبحانه وتعالى ، يخرج النجوم من خزانته فى كل ليلة ، ويعلقها فى قبة السماء. كما نتذكر مدى تفاهة وسذاجة الراهب الرحالة الجغرافى كوزموس، الذى روج فى كتابه المشهور بين كتب الفكر الجغرافى المسيحى، لأفكار فجة غبية تثير السخرية ، عندما يتصور أن شكل الأرض يحتويه مستطيلاً ويرفض فكرة الكروية . وامعاناً فى الاستخفاف بعقول الناس فى أوروبا، يتصور كوزموس أن فى شمال هذا المستطيل الذى يحتوى الأرض -

الضالة خطواتها من القرن الثانى الميلادى إلى القرن السادس عشر الميلادية ، وهى تمسخ وتشوه وجه الحقائق الجغرافية . ولكن المؤكد أن حصاد هذه المسيرة لم يكن أبداً نقطة بداية الفكر الجغرافى الحديث ، الذى فجرته النهضة الأوروبية . أما المسيرة الثانية التى توقفت على مدى سبع أو ثمان قرون طويلة ولم تجد من يدفعها أو يدفع عدوان رجال الدين المسيحى عنها ، فقد انطلقت فى حوالى القرن التاسع الميلادى . ومن الجائز أن نتبين اجتهاد المسلمين فى احياء وانعاش الفكر الجغرافى القديم ، وهو يقود التحرك ويسجل الاضافات ، ويطور الأفكار الجغرافية . ولكن المؤكد أن حصاد هذه المسيرة كان – بكل تأكيد – من وراء نقطة بداية الفكر الجغرافى الحديث ومسيرته المنتظمة ، اعتباراً من القرن السادس عشر الميلادى .

وهكذا ينبغى أن نسقط من الحساب مسيرة الفكر الجغرافى المسيحى الضالة ، لأنها لم تقدم الجديد ، ولم تسجل خطوة على الطريق السوى . بل أنها – بكل تأكيد – مسيرة أفقدها التعصب والجهل حق الوصل بين المراحل ، التى شهدت صناعة الحصاد الذى تتيه به مسيرة الفكر الجغرافى القديم . والمراحل التى شهدت صناعة الحصاد الذى فجره الفكر الجغرافى الحديث ، وتزهو به مسيرة الفكر الجغرافى الحديث . وهذا معناه – بالضرورة – أن نولى الاهتمام بمسيرة الفكر الجغرافى العربى ، التى هى – بكل تأكيد – حلقة الوصل الحقيقية ، بين الفكر الجغرافى القديم المهجور ، والفكر الجغرافى الحديث المتطور .

ويستحق الفكر الجغرافى العربى – بكل تأكيد – مزيداً من

– جبلاً شامخاً ، تختبئ من ورائه الشمس عندما تغيب أثناء الليل ، وتخرج من ورائه الشمس عندما تشرق أثناء النهار . وهل هناك استخفاف بالعقول أكثر من هذا التصور الجغرافى الساذج ، الذى يتصور الشمس وكأنها تلعب لعبة – الاستغماية – لكى يفسر مسألة تعاقب الليل والنهار ؟ ومن الجائز أن نقبل الأوهام والتخريف وأن نغفر السذاجة ، لو أن الأمر قد ترتب على جهل أو غباء . ولكن المؤكد أن نرفض ذلك كله على اعتبار أن الفكر الجغرافى المسيحى يستند فى تلك اللغو إلى الكتاب المقدس ، بشكل يلوث ويطعن فى أمانة رجال الدين على قدسية هذا الكتاب .

الاهتمام والعناية ، لا لكى نتيه ونزهو بحصاده ، ونجتر حلاوة الذكريات ، ولكن لكى نكشف النقاب من غير تعصب ، أو من غير تجنى، عن حقيقة الاجتهاد ، وهو يصنع هذا الفكر لحساب الحياة ، وعن حقيقة الفتور ، وهو يفلت زمام هذا الفكر من فرط التخلف . ويستحق المفكرون العرب المسلمون – بكل تأكيد – مزيداً من الاهتمام والعناية أيضًا ، لا لكى نسجل ونطرى حصاد فكرهم فقط ، ولكن لكى نكشف النقاب من غير تعصب أو من غير تجنى ، عن كفاءة الأداء والتدبر والتفكير ، سواء وهم يبعثون الفكر الجغرافى القديم المهجور من رقدة العدم ، أو وهم يضيفون ويبدعون ويطورون ويقودون مسيرة الفكر الجغرافى ، على مدى عدد من القرون من القرن التاسع الميلادى إلى القرن السادس عشر الميلادى . بل يستحق الاسلام الدين والدولة – بكل تأكيد – مزيداً من الاهتمام والعناية أيضًا ، لكى نتبين دوره وهو يحفز التفكير الجغرافى ، ويكفل له مظلة الأمن ، ويرشد مسيرته المتطورة على الطريق الصحيح .

* * *

الاسلام يتبنى الفكر الجغرافى الصحيح :

ولأن الاسلام قد أطلق – بكل التفتح – سراح الفكر الانسانى بصفة عامة ، وحرر الفكر الجغرافى السليم من عقدة الخوف بصفة خاصة ، ولأن الاسلام قد رفع – بكل الواقعية – الحظر المفروض على التفكير الحر البناء المهجور ، ولأن بعض الصفوة من أعلام الجغرافيين المسلمين ، أخذت بزمام الفكر الجغرافى ، وعملت على تطوير وتسجيل الاضافة إليه ، لحساب الانسان ، نقدم هذا التصور ، لكى نتبين كيف تبنى الاسلام الفكر الجغرافى الصحيح ، وكيف حفز الجغرافيين المسلمين على تطويره . ومن ثم يكون المطلوب التركيز على مسيرة الفكر الجغرافى، وصولاً إلى :

أولاً : أن نتبين دور الاسلام المتفتح البناء على المستوى الحضارى والثقافى ، وهو يسهم فى احياء الفكر الجغرافى المهجور ، ويحفز الجغرافيين المسلمين لتحمل مسئولياتهم ، ويتبنى مسيرته الصحيحة

المثمرة لحساب الانسان ، وصولاً إلى ما هو أفضل فى مجال المعرفة الجغرافية بالأرض ، وواقعية الحياة فى أنحائها .

ثانيًا : أن نرد رداً حاسمًا يسكت بعض الجغرافيين الأوروبيين، الذين أخذوا بالتزييف والتضليل ، بوحى من صليبيتهم ، وهو ينكرون اجتهاد الصفوة المرموقة من الجغرافيين المسلمين ، أو وهم يتنكرون للاضافات المبدعة ، التى سجلتها هذه الصفوة ، على مدى أكثر من سبعة أو ثمانية قرون من عمر الحياة ، أو وهم يستنكرون ريادة علماء المسلمين وتبنى الاسلام لمسيرة الفكر الجغرافى الصحيح ، فى المرحلة التى عاشت فيها أوروبا العصور الوسطى فى أحضان الجهالة والظلام، الذى أشاعته الكنيسة .

ولكى نتبين حرص الاسلام على العمل البناء ، وصنع التقدم ومظاهرة الابداع ، لحساب الانسان ، ينبغى أن نستشعر كيف كان الاسلام فور ظهور دعوته الخيرة ، حريصاً على احياء الفكر الانسانى بصفة عامة ، وعلى بعث الفكر الجغرافى الصحيح المهجور بصفة خاصة . بل وينبغى أيضًا أن نستشعر كيف كان الاسلام ، وهو يقوم الفرد لحساب المجتمع، ويقوم المجتمع لحساب الفرد ، أميناً – بكل الصدق – على الفرد والجماعة على السواء ، وحريصاً على مصلحة الانسان فى هذا الفكر البناء ، وصولاً إلى شكل أو نمط أو أسلوب الحياة الأفضل ، فى كل مكان على الأرض .

ومن أجل هذا الهدف الانسانى النبيل ، كان الاسلام حريصًا على التراث الحضارى الموروث ، وعاملاً على تطهيره من المبتذل ، وترشيده فى الاتجاه السوى ، وحافزاً على تنميته واثرائه ، وتبنى كل اضافة مثمرة إليه . ومن ثم هيأ الاسلام المدخل الموضوعى إلى كل ما من شأنه، أن ينفع الانسان ، صاحب المصلحة الحقيقية فى هذا التراث المفيد، وهو يطلب الحياة فى المكان ، أو وهو ينتقل من المكان إلى المكان الآخر . بل ومن أجل هذا الهدف أيضاً ، تولى الاسلام ريادة التقدم الحضارى ، واشاعة الممارسة الحضارية ، وترشيد التذوق الحضارى ، وتبنى الابداع الحضارى ، زهاء ثمانية قرون من عمر الحياة ، لحساب الانسان .

وهذا معناه أن الاسلام قد تبنى الفكر الانسانى - والفكر الجغرافى شريحة من هذا الفكر - لكى يمتلك الوسيلة التى تخدم أهدافه الحضارية .

ولكى يتبنى الاسلام الفكر المتفتح البناء ، الذى يضيف إلى التراث الحضارى البشرى كل جديد ومبتكر ، ولكى يكفل الاسلام مصلحة الناس جميعاً فى هذا التراث الحضارى البشرى ، الذى تتطلع له الحياة ، ولكى يتولى الاسلام حث الصفوة على الابداع وانجاب الاعلام الذين يطورون هذا التراث ، الذى يلبى إرادة الحياة إلى ما هو أفضل ، ينبغى أن يكون الاسلام - فى حد ذاته - ديناً حضارياً متفتحاً - وأن تكون نشأته حضارية سوية ، وأن تسلك دعوته بين الناس جميعاً سلوكًا حضارياً حقيقياً .

وفى القرآن الكريم آيات بينات كثيرة ، تدلل على أن الاسلام دين حضارى يخاطب المتحضرين . ويمكن أن نتبين كيف يتخذ الاسلام من الشريعة والأحكام والمثل العليا ، اطاراً سوياً يحتوى الواقع الحياتى المتحضر ، بعد أن يطهره من الخبث . كما نتبين أيضًا كيف يتخذ الاسلام من هذه المصادر ذاتها ، سبيلاً لوضع الضوابط الحاكمة ، التى تضبط مسيرة الممارسة الحضارية ، لكى تتجنب التردى فى المعصية ، ولفرض الروادع التى تكبح جماع الابداع الحضارى ، لكى يثمر أثماراً طيباً حلالاً . وهذا معناه أنه دين قويم يتبنى الحضارة ، لكى يطهرها من ناحية ، ولكى يضيف إليها من ناحية أخرى .

وفى التاريخ ، نذكر كيف ظهر الاسلام ونشأ وليداً ، فى حضن بيئة حضارية متفتحة ، وكيف عاش فى مناخ حضارى متفتح للأخذ والعطاء ، فى كل من المدينة ومكة (١) ، بل يجب أن نتذكر كيف حمل رايته رجال تذوقوا طعم الحضارة ، وصقلتهم الممارسة الحضارية ، وأشبعتهم التجربة الحضارية فى أحضان الاستقرار ، تشبثاً بالحضارة . كما نستشعر كيف توسع الاسلام من خلال دولته ، وانتقل من بيئة

---

(١) صلاح الدين الشامى : جغرافية العالم الاسلامى . الاسكندرية ، منشأة المعارف ، سنة ١٩٧٤ . صفة ١٩٣ .

حضارية متفتحة، إلى بيئات حضارية أكثر تفتحاً ، فى رحاب الاتساع العظيم ، حتى بلغت هذه الدولة مكانة الدولة الأعظم فى مجتمع الدول انذاك .

وعلى صعيد البيئة الحضارية المتفتحة ، التى ظهر فى أحضانها الاسلام ، نتذكر كيف كانت مكة – أم القرى – موقعًا من أهم مواقع الاستقرار ، فى رحاب جزيرة العرب . ومن شأن الاستقرار دائمًا وحيثما يكون ، أن يهيئ التربة الحضارية الطيبة ، والمناخ الحضارى الأنسب ، وأن يتولى – بكل التفتح – غرس نبته الحضارة فيها ، وأن يوفر الرعاية والحماية لهذا الغرس الحضارى ، طلباً وتطلعًا إلى ثمراته المفيدة . بل ومن شأن الاستقرار أيضاً ، أن يتصدى – بكل العزم – لدرء الخطر وردع العدوان ، الذى يهدد مسيرة الحضارة فى أحضانه ، وأن يتحمس – بكل الانفتاح – للاضافة إليها ، وصولاً إلى حد الانتفاع الأمثل بابداعها وثمراتها . وهكذا كان الاستقرار فى رحاب مكة ، منذ وقت طويل قبل الاسلام ، من وراء نشأة حضارية سوية ، فى مناخ حضارى مناسب .

وفى هذه البيئة الحضارية المتفتحة ، وفى هذا المناخ الحضارى المناسب ، ظهر الاسلام فى مكة المكرمة ، لكى يتمم الوجه الآخر من الحضارة المادية ، التى ترعرعت فى حضن هذا الاستقرار ، ولكى يطهرها وينقيها من الخطايا ، التى كانت قد ترددت فيها . وصحيح أن الاستقرار فى مكة . كان على المدى الزمنى الطويل ، من وراء مسيرة الحضارة المادية فيها ، ومن وراء نموها وتفتحها ، لحساب الحياة . وصحيح أن الانفتاح الذى أخذت به الحياة فى رحاب مكة ، وقبل به الاستقرار قبل الاسلام ، قد أثرى الحضارة المادية فيها ، وصقل الممارسة الحضارية بين أهلها . ولكن الصحيح أيضاً ، أن الاسلام الذى تبنى الحضارة فيها ، وتولى تطهيرها وتطويعها وترشيدها ، قد حبذ منطق الانفتاح لحسابها أو لحساب دورها الوظيفى . بل لقد استثمر الاسلام منطق الانفتاح استثماراً حسناً ، لحساب نشرة الدعوة على أوسع مدى من ناحية ، وتوسيع مساحة الدولة إلى أقصى حد ممكن من

ناحية أخرى . وهذا معناه أن الاسلام ، قد وضع الدعوة إلى الله والممارسة الحضارية ، على قدم المساواة ، عندما ترك للعاملين المخلصين على نشر الدعوة ، وعلى توسيع الدولة ، حرية استثمار هذا الانفتاح الحضارى على أوسع مدى ، والانتفاع بالاحتكاك الحضارى البناء ، روحياً واجتماعياً وحضارياً واقتصادياً .

والانفتاح الذى عاشت فيه مكة ، قبل الاسلام كان مهمًا ومفيداً بالفعل ، لأنه خدم نسيج القاعدة الحضارية ، التى ظهر عليها الاسلام . وسواء كان الانفتاح المتفتح ، من وراء المناخ الحضارى المناسب ، والمكانة الحضارية المرموقة ، التى حققتها مكة ، فى رحاب حزيرة العرب ، أو كانت المكانة الحضارية المرموقة ، والمناخ الحضارى المناسب ، من وراء الانفتاح المتفتح ، الذى عاشت فيه مكة ، فى رحاب جزيرة العرب ، فينبغى أن نتبين كيف فرض هذا الاستقرار المطمئن فى أحضانها ، الضوابط الحاكمة لهذا الانفتاح . وكان المطلوب من هذه الضوابط ، وأن تكسب الاستقرار القدرة ، لكى يصون باليد القوية الصارمة الحضارة، من عدوان البداوة التى تطوقها ، ولكى يقدم باليد المبدعة الأخرى الاسهام المثمر ، والاضافة المفيدة ، التى تطور وتنمى هذه الحضارة . وقد جنت الحضارة فى حضن مكة – على كل حال – ثمرات هذا الانفتاح المتفتح على العالم الخارجى ، وثمرات الانفتاح على جزيرة العرب ، فى وقت واحد . ومن ثم نسجت – بكل السخاء – من هذه الثمرات ، الأرضية الحضارية الصلبة ، التى وقف عليها الاسلام .

والانتفاح على العالم الخارجى فيما وراء جزيرة العرب ، كان – بكل تأكيد – مطلبًا حياتيًا مباشراً للاستقرار ، فى رحاب مكة ، قبل الاسلام. ومن خلال العملية التجارية والوساطة فى هذه العملية ، على مستوى مجتمع الشعوب والأقوام والدول ، أطل الاستقرار فى حضن مكة على العالم من حولها ، وأطل العالم من حول جزيرة العرب على الاستقرار فى حضن مكة . وصحيح أن هذه العملية التجارية ، قد حققت الربح المادى لأهل مكة ، فى دنيا المال والاقتصاد ، وأرست قواعد أولية ، فى هذه الصورة التجارية الدولية ، وفى دور العامل الوسيط فيها .

وصحيح أن حركة التجارة المنتظمة وغير المنتظمة ، قد أسقطت ستار العزلة ، بين مكة والعالم المتحضر ، الذى تعامل فى شكل ما مع حركة التجارة الدولية ، قبل الاسلام . ولكن الصحيح أيضًا ، أن حركة التجارة الوافدة إلى مكة من الجنوب ، وحركة التجارة الوافدة إلى مكة من الشمال ، قد حققت صوراً متنوعة من صور الانفتاح المباشر وغير المباشر ، على حضارات الهند وحوض المحيط الهندى من ناحية ، وعلى حضارات حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى ، فى وقت واحد .

هذا وكانت مكة عندئذ وعاء ينصب فيه هذا النشاط ، الذى يشهد لها بالانفتاح . وكان من أهم ثمرات هذا الانفتاح الواسع المدى ، الاحتكاك الحضارى البناء ، لحساب الاستقرار فى رحابها . وقد أفلحت البيئة البشرية المتحضرة فى رحاب مكة – بكل التفتح – فى أن تنتفع بهذا الانفتاح ، لكى تدعم ثمراته ، مكانة مكة الحضارية ، فى الجزيرة العربية على الصعيد المحلى ، وفى العالم الخارجى على الصعيد الاقليمى .

أما الانفتاح على جزيرة العرب من حول مكة ، فقد كان للاستقرار معه شأن آخر . ذلك أن مكانة مكة الروحية والاقتصادية والاجتماعية قبل الاسلام ، قد ألزمت الاستقرار فيها ، بأن ينفتح – بكامل ارادته – على كل انحاء جزيرة العرب ، وبأن يفتح صدره لكل الناس فيها ، من بدو أو حضر . وصحيح أن مكة كانت أكبر سوق تجارية فى جزيرة العرب ، من أجل التبادل والتعامل التجارى ، لحساب كل العرب سكان الجزيرة . وصحيح أن مكة كانت تمتلك المكانة الروحية ، التى تستهوى أفئدة كل العرب فى أنحاء جزيرة العرب . وصحيح أن الاستقرار فى مكة قد تجاوب مع الناس فى جزيرة العرب ، ووضع الضوابط الحاكمة ، التى التزم بها الدخول إليها والخروج منها ، لكى يؤمن ذاته ، ويحمى المصالح الروحية والتجارية ، فى رحاب مكة . وصحيح أن أهل الجزيرة من البدو والحضر ، قد انصاعوا والتزموا بهذه الضوابط الحاكمة للانفتاح ، والتعامل مع الاستقرار المطمئن فى رحاب مكة . ولكن الصحيح أيضاً ، أن انفتاح مكة وأهل مكة على هذا النحو ، قد قدم إلى كل الوافدين إليها ، والراحلين عنها، جرعات مفيدة من الزاد الحضارى .

هذا وكانت مكة عندئذ مركز اشعاع حضارى بناء ومثمر ، فى أنحاء جزيرة العرب . وكان من أهم ثمرات هذا الاشعاع الحضارى ، أن تذوق العرب طعم الحضارة ، واستشعروا جدوى الممارسة الحضارية . وقد أفلحت البيئة البشرية المتحضرة فى رحاب مكة – بكل التفتح – فى أن تنتفع وتنفع العرب فى أنحاء الجزيرة بهذا الانفتاح ، لكى تدعم ثمراته ، دورها القيادى البناء بين العرب ، روحياً واجتماعياً وحضارياً واقتصادياً .

ولأن من وراء الاسلام ، وهو وليد فى رحاب مكة المكرمة والمدينة المنورة ، هذا العمق الحضارى العريق ، ولأن فى أعماق العقيدة قوة دفع حضارية أصيلة ، تنشط وتحفز الاجتهاد البناء ، ولأن فى جوهر الاسلام تقويم موضوعى للابداع الحضارى ، وتطلع إلى جدواه ، ولأن تحت أقدام الاسلام أرضية حضارية صلبة ومتفتحة للأخذ والعطاء ، تبنى الاسلام الحضارة . وأصبح من شأنه ، أن يتولى أمر الحضارة ، وأن يعمل على تطهيرها من الخبيث العالق بها ، وأن يحفز الابداع على تطويرها وتنميتها . كما أصبح من شأنه أيضًا ، أن يحتضن الفكر الانسانى البناء ، الذى يصنع الابداع الحضارى ، ويضيف إليها ويرشد مسيرتها ، فى الاتجاه الصحيح إلى ما هو أفضل ، لحساب الانسان .

وفى القرآن الكريم ، آيات بينات (١) ، فيها خطاب صريح لأولى الألباب ، ودعوة ملحة لاعمال العقل وشحنه ، وتحريض حافز على التدبر وحسن التفكير ، وتكريم واعلاء لشأن أهل الكفر والمفكرين ، وصولاً إلى الفكر والصواب ، لحساب الانسان . والخطاب والدعوة والتحريض والتكريم ، كلها علامات تدل على أن الاسلام ، قد أطلق سراح الفكر – بكل التفتح – ، وأعطاه الأمان ، لكى يتحرر من عقدة

---

(١) جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى (يرفع اللّه الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات) وقوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقوله تعالى (قل ربى زدنى علماً) .
وجاء فى الحديث الشريف ، عن رسول اللّه ص (الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج) و (من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل اللّه حتى يرجع) .

السوف ، وحفظه وكرمه ، لكى يطلق ويستجيب لإرادة الحياة ، ولكى يبدع ويبتكر ويضيف كل جديد مثمر ، وكل مفيد متفتح إلى التراث الحضارى ، لحساب الانسان فى الحياة الأفضل .

وعندما فتح الاسلام الأقطار والأمصار ، وكتبت الغلبة والنصر والتفوق للدولة ، وعندما انتشر الاسلام على الصعيد العالمى فى أسيا وأفريقيا وأوروبا ، وكتبت الريادة والقيادة للعقيدة ، قبل الاسلام بالانفتاح ، اقبل - بكل التفتح - على التراث الحضارى المادى فى هذه الأقطار والأمصار ، وأمن بالفكر الذكى البناء ، الذى تولى صنع وابتكار الاضافة والابداع المثمر ، إلى هذا الرصيد من التراث . وصحيح أن الاسلام خلع عن هذا التراث الحضارى والمادى رداء الكفر ، وجرده من الرجس والخطيئة والضلال . وصحيح أن الاسلام ألبس الحضارة المادية عندئذ ، لباس الايمان والطهر والعفاف . ولكن الصحيح أن الاسلام الذى أبقى على هوية هذا التراث فى كل قطر من الأقطار ، وأقر له الاعتزاز والتشبث بذاته ، قد بلغ الذروة عندما تولى :

أولاً : تربية وتأمين المفكرين المسلمين ، وصقل الصفوة الممتازة من رجال الفكر ، الذين أخذوا - من غير أن تلوى أعناقهم - باللغة العربية وعاء ، يحتوى فكرهم البناء وابداعهم المرموق ، لكى تكون الثقافة عربية اسلامية .

ثانياً : حفز ومظاهرة هذه الصفوة الممتازة ، على مواصلة المسيرة الفكرية ، وتسجيل الاضافات ، لكى يتحقق التقدم لحساب النمو الحضارى والثقافى والعلمى ، ومصلحة الانسان الحقيقية فيه .

وهكذا ، يجب أن نتبين كيف كان الاسلام - بكل التفتح - من وراء الحوافز ، التى لها قوة الدفع الديناميكية الفعالة ، وهى تنشط الفكر الانسانى كله . ومن بعد أن أعاد الاسلام الفكر إلى صوابه ، ومن بعد أن أطلق الاسلام سراحه ، أمنه على ذاته ، وأجزل له العطاء ، لكى يثمر ويعطى لحساب الحياة . كما يجب أن نتبين كيف اقبل الاسلام على استثمار حصاد أو عطاء هذا الفكر الانسانى الثمين . بل أنه من بعد أن تطهر الفكر الذى ينمي العلم ويطور الحضارة من الكفر ، وتملص من

الرذيلة ، تبنى الاسلام هذا الفكر ورشده ويصر مسيرته إلى ما هو أفضل .

وهكذا ، يجب أن نتبين مرة أخرى ، كيف أن موقف الاسلام الايجابى من الفكر والمفكرين ، والقبول الحسن لحصاد الفكر المفيد ، قد ألزم التفكير بمسيرة الخير والرشاد ، وألزم المفكرين بالطهر والنقاوة . ومن ثم يحق لنا أن نبحث عن اجابة عن السؤالين الآتيين :

« أولاً : هل صحيح أن الاسلام قد اهتم بالفكر الجغرافى ، وأن الفكر الجغرافى قد استحق حصة من قوة دفع الاسلام ، وأنه نال بالفعل هذه الحصة من الوقت المناسب ، لكى يسجل الاضافة ؟

ثانيًا : هل صحيح أن الاسلام قد تطلع من خلال احياء الفكر الجغرافى وتنشيطه وتوجيهه فى الاتجاه السليم ، إلى أهداف بعينها ، لحساب الدين والدولة ؟ » .

وبهذا المنطق ، ينبغى أن نتبين كيف ومتى استحق الفكر الجغرافى، وهو قطاع من الفكر الانسانى العام – اهتمام الاسلام الدين والدولة ، وكيف تجلى هذا الاهتمام ، لكى يدفع المسيرة فتمضى قدماً إلى الأمام ، ولكى تسجل الاضافة والابداع إلى رصيد الفكر الجغرافى الصحيح المهجور ؟ كما ينبغى أن نستشعر أيضاً ، ماهية وكنه الأهداف التى تطلع إليها الاسلام ، وكيف تشوق إلى جنى ثمراتها الطيبة ، من خلال الابداع الذى يسجله الفكر الجغرافى العربى البناء ، لحساب الدين والدولة ، وهى تطلب انتشار الاسلام على أوسع مدى ، وتأمين علاقتها ومكانتها وسلامتها فى مجتمع الدول ، ولحساب الحياة ومصلحة الانسان فيها ، وهو يطلب التعايش والحياة الأفضل فى كل مكان على الأرض .

ومن أجل ذلك – على كل حال – يكون المطلوب أن نتبين كيف تولى الاسلام اثارة الحاسة الجغرافية عند المسلمين ، لكى تكون نقطة البداية . ومن ثم نتبين بالتالى :

١– كيف تولى الاسلام تكوين وتربية أجيال ، من صفوة المفكرين الجغرافيين المسلمين ؟

٢- كيف بث الاسلام فيهم حب الفكر الجغرافى والاهتمام به ؟ .

٣- كيف حمل الاسلام هذه الأجيال من الصفوة المرموقة ، مسئولية ريادة الفكر الجغرافى ، وقيادة مسيرته الخيرة ، وصولاً إلى الأهداف المثلى التى تطلع إليها ، بشكل أو بآخر ؟ .

ولكى نجيب على ذلك ، يجب أن نفطن إلى أن الفكر الجغرافى ، كان محظوراً زهاء ثمانية قرون من عمر الحياة ، وأن حصاد الفكر الجغرافى الصحيح كان مهجوراً ، لأن الكنيسة كانت تطارده وترفضه . كما ينبغى أن نفطن أيضًا إلى أن الفكر الجغرافى المسيحى السائد كان سانجًا ترفضه العقلية الاسلامية المتنورة . وهذا معناه أن الاسلام الذى استشعر هذا الواقع واختار طريقه بكل الحصافة ، قد تبين كيف أن مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح متوقفة ، عند النقطة التى وصل إليها بطليموس الاسكندرانى بعد ميلاد المسيح ، وكيف أن جذوة انجاز الفكر الجغرافى اليونانى القديم ، قد خبت وضاع توهجها ، فى مواجهة الانكار والاستنكار المسيحى العنيد . وهذا معناه أيضاً ، أن الاسلام استشعر ، كيف افتقد الانسان ثمرات الفكر الجغرافى الصحيح وانجازاته المفيدة ، وكيف اقتنع – على غير إرادة الحياة – برصيد الحاسة الجغرافية الكامنة فى ذاته ، لكى تبصر التعايش فى المكان ، أو لكى ترشد الخطوات والانسان يسعى فى الأرض ، وينتقل من المكان إلى المكان الآخر .

هذا ، وحال ظهور الاسلام ، وإطلاق سراح الفكر وتأمينه ، لم يجد الاسلام الفكر الجغرافى الصحيح المهجور ، لكى يتبناه مباشرة ويعيد إليه صوابه ، ولم يجد أيضاً الفكر الجغرافى غير المسلم أو المسلم جاهزاً، لكى يتلقفه ويؤمنه ويهيئ له المكان المناسب ، فيواصل مهمته ويستأنف دوره الفكرى وانجازه ، ويقود مسيرة الفكر الجغرافى . ومن ثم أصبح الاسلام مسئولاً عن مستويين ، قبل الفكر الجغرافى الصحيح ومسيرته .

وعلى المستوى الأول ، كان الاسلام مسئولاً عن اثارة الحاسة الجغرافية من جديد ، ومسئولاً عن تنشيطها ، لكى يتفجر فى الانسان الاستشعار الحيوى البناء بالعوامل الجغرافية فى المكان . وهذا – فى حد

ذاته – سبيل أمثل لانعاش الفكر الجغرافى الصحيح المهجور ، ويعثه من رقدة العدم .

وعلى المستوى الثانى ، كان الاسلام مسئولاً عن تنشئة وتكوين وتربية الصفوة من المفكرين المسلمين ، الذين يتذوقون حلاوة المعرفة الجغرافية . وينكبون على طلبها ، ويتولون احياء الفكر الجغرافى المهجور وتصحيح أخطائه ، لكى تمضى المسيرة الجغرافية قدماً ، عربية اسلامية ، فى الاتجاه الصحيح لحساب الانسان .

وفى اعتقادى أن الاسلام ، قد تولى بالضرورة – اثارة أو استنفار الحاسة الجغرافية فى المسلمين ، وهم يواجهون التحدى الكافر فى داخل الجزيرة وخارجها ، أو وهم يجريون الأرض فى أنحاء الدولة الاسلامية ، أو وهم ينشرون الدعوة إلى الله على الصعيد العالمى ، فيما وراء الأرض الاسلامية . وكان المطلوب من اثارة أو استنفار الحاسة الجغرافية ، أن يجنى المسلمون ثمرات نافعة ، من خلال الانفتاح على الأرض وعلى الناس فى كل مكان . وكان المطلوب أيضاً – بكل تأكيد – أن تظهر الصفوة الممتازة من بين صفوف المسلمين ، وأن تنكب هذه الصفوة على احياء الفكر الجغرافى الصحيح المهجور ، وأن تتولى الاضافة إليه واثرائه بكل جديد ومبتكر ، لحساب الانسان .

* * *

الاسلام واستنفار الحاسة الجغرافية :

فى القرآن الكريم آيات كونية كبيرة (١) ، تثير الحاسة الجغرافية ، وتستنفر الادراك الجغرافى ، عندما تتحدث عن خلق السماوات والأرض، وتصور ابداع الخالق من وراء التفاعل بين الانسان والأرض . ومن شأن هذه الاثارة والاستنفار أن تلهب التفكير الجغرافى ، وتحفز التدبر فى خلق الله وتفتح باب الاجتهاد فى ادراك حقائق عن جغرافية المكان . بل

(١) نذكر من هذه الآيات قول الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

ومن شأنها أيضًا ، أن تمثل دعوة ملحة الى اعمال العقل وشحذ الفكر ، وتفتح باب الاجتهاد فى ادراك حقائق عن وتدبر وضع ومكان الأرض ، فى اطار الكون الفسيح . وفى حديث رسول الله ﷺ (١) ، تلميح كاشف لقيمة المعرفة الجغرافية ، التى تحققها اثارة الحاسة الجغرافية فى الانسان .

وهذا معناه أن اثارة واستنفار الحاسة الجغرافية ، كان من أجل طلب المعرفة الجغرافية ، وأن طلب المعرفة الجغرافية من وجهة نظر الاسلام هدف فى حد ذاته . ذلك أن طلب هذه المعرفة الجغرافية يفتح باب الاجتهاد ، فى توسيع دائرة المعرفة بالأرض والناس فى المعمور من كل الأرض . ويفتح باب الأمل فى تبليغ دعوة الاسلام إلى الناس ، فى هذه الأرض على أقل تقدير . ومعناه مرة أخرى أن الاسلام ، كان صاحب مصلحة مباشرة فى المعرفة الجغرافية ، لحساب الدين والدولة.

وهكذا نتبين كيف كانت اثارة واستنفار الحاسة الجغرافية ، التى تستشعر الأرض التى يقف عليها الاسلام ، وتحتوى دولته الصغيرة الوليدة فى حضن المدينة المنورة ، أو دولته الكبيرة فى أسيا وأفريقيا وأوروبا ، مطلوبة – بكل الضرورة – لكى تكون الثمرة التى تخدم الاسلام ، وهو يتعايش ويقبض على زمام الواقع الحياتى ، روحيًا واجتماعيًا واقتصادياً وسياسياً ، فى أى مكان . بل أن اثارة واستنفار الحاسة الجغرافية ، التى ترصد الأرض والناس ، وهى مسألة يتطلع إليها الاسلام ، كانت مطلوبة – بكل الحاح – لكى تقدم الثمرة التى تسعف انتشار الاسلام وابلاغ دعوته الخيرة إلى الناس فى كل مكان . وهذه كلها علامات لا تخطئ ولا تضلل ابداً ، لأنها تنبئ – بكل الصدق – كيف تطلع الاسلام إلى الفكر الجغرافى الكاشف عن الأقطار والأمصار ، وإلى حصاد هذا الفكر البناء ، وإلى انجازه المفيد عن الأرض والناس فى أنحائها .

---

(١) جاء فى حديث رسول الله ﷺ انه قال (اطلبوا العلم ولو فى الصين) . وجميل أن يحمل دعوة إلى العلم . ولكن الأجمل أن يكشف عن حقيقة معرفة الرسول بالصين . ولو كان مقصد الرسول (صلعم) من ذكر الصين المسافة والمشقة التى يتكبدها المسافر إلى الصين ، فقد صدق حسه الجغرافى بموقع الصين الجغرافى . وأن كان مقصد الرسول (صلعم) من ذكر الصين الناس والتقدم العلمى والحضارى فيها ، فقد صدق حسه الجغرافى أيضاً بالواقع البشرى الحضارى فيها .

وفى مجال استشعار أهمية الحاسة الجغرافية وجدوى استنفارها ، لكى تفجر الفكر الجغرافى ، وفى مجال استثمار ثمرات هذه الحاسة وانجازها المفيد الذى لا يضلل أو يخذل الواقع الحياتى ، نذكر ثلاث ثمرات ، من وراء ثلاثة مواقف حاسمة فى سيرة الاسلام ، لكى نتبين، كيف رشدت هذه الحاسة كل موقف من هذه المواقف ، وكيف قدمت الانجاز الذى وجه التحرك الاسلامى فى الاتجاه الأفضل . وتتمثل هذه المواقف الحاسمة فى :

أولاً : الموقف الأول ، كان يوم أن عقد الرسول ﷺ النية على الهجرة، لكى يتحرر الاسلام من بطش الكفر فى مكة ، ولكى يتخذ الاسلام فى المهجر وضع الاستعداد لمواجهة الكفر فى مواجهة حاسمة ورادعة . وصحيح أن الرسول (صلعم) ، فضل موقع الطائف ، لأنه الموقع الجغرافى الحاكم الأمثل ، فى مواجهة مكة والتحدى الكافر فيها . ولكن الصحيح أيضاً ، أن الهجرة كانت إلى المدينة ، وهى الموقع البديل الحاكم ، بعد أن تجلى رفض الطائف القاطع ، لتحمل المسئولية والاستجابة لنداء الاسلام . والمهم أن حسن استثمار الحاسة الجغرافية ، التى تنبئ بمكانة وجدوى كل المواقع الجغرافية الحاكمة للحركة من وإلى مكة ، كانت – فى الغالب – من وراء اختيار الموقع الأنسب ، والموقع البديل للهجرة (١) .

ثانيًا : الموقف الثانى ، كان يوم أن عقد الرسول ﷺ النية ، على ضرب التحدى الكافر فى مكة . وقد اختار الاسلام موقع بدر الجغرافى، من أجل هذه المواجهة ، التى انتصر فيها الاسلام بالفعل . ومن وراء هذا الاختيار ، ينبغى أن نستشعر صدق الحاسة الجغرافية ، وهى لا تضلل المسلمين ، لدى استشعار خصائص المكان عند بدر ، وكيف ظاهر الموقع الجغرافى جيش المسلمين ، وكيف حاربت معهم الأرض ، وكيف دعمت حملة الايمان على الكفر فى المكان المنتخب . وبالمقارنة ، نتبين كيف أن افتقاد صدق هذه الحاسة الجغرافية ، وعدم اختيار مكان

---

(١) محمد سليم العوا : النظام السياسى للدولة الاسلامية ، صفحة ٢٢ .

المعركة ، يوم أن فرض التحدى الكافر على المسلمين ، وقتها ومكانها فى موقع أحد ، يتحمل بعض المسئولية فى خسارة الايمان ، لأن خصائص جغرافية الأرض لم تدعمهم ولم تحارب معهم .

ثالثًا : الموقف الثالث ، كان يوم أن فتح الله على المسلمين ودخلوا مصر ، وقد عقد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه النية ، على ضمها إلى بنيان الدولة الاسلامية المظفرة . وصحيح أن صدق الحاسة الجغرافية ، كان من وراء اصرار عمر بن العاص وتوصيته – بكل الالحاح – بفتح مصر . ولكن الصحيح أيضًا ، أن حسن استثمار صدق وجدوى ما أملته الحاسة الجغرافية ، كان من وراء انجاح الحملة عليها ، ومن وراء الحكم الاسلامى الرشيد فيها . وخطاب عمر بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، تصوير جغرافى موجز ، واعلام مركز صريح ، يكشف عن شخصية مصر . وقد تضمن هذا التصوير الجامع وصف الأرض والناس ، وطبيعة وجدوى التفاعل الحياتى بين الناس والأرض . وهو – بكل تأكيد – تصوير ممتاز ، نابع من الاستشعار الذكى ، الذى أملته الحاسة الجغرافية . وهو بكل تأكيد – تصوير مفيد ، لأنه بصر الحكم الرشيد بشخصية مصر والواقع الجغرافى بشقيه الطبيعى والبشرى ، وهو يتولى صياغة أسلوب الحكم الأنسب ، لكى يؤدى دوره البناء ، لحساب الدين والدولة ، فى وقت واحد .

وبهذا المنطق ، تطلع الاسلام دائمًا إلى ثمرات الحاسة الجغرافية ، وطلب الادراك الجغرافى للمكان ، الذى تنبئ به هذه الحاسة ، لحساب الدين والدولة ، فى وقت الحروب وردع العدوان ، أو فى وقت السلم وصنع السلام . وفى اطار التلاحم العضوى بين الدين والدولة ، بصرت هذه الحاسة – بكل الصدق – الادراك الجغرافى وطلب المعرفة بالمكان وخصائصه الطبيعية والبشرية ، وكشف النقاب عن الضوابط الحاكمة للواقع الحياتى فى المكان ، لحساب المصلحة المشتركة بينهما .

وصحيح أن انتصار الدين كان انتصاراً لحساب الدولة ، وأن انتصار الدولة كان انتصاراً لحساب الدين . ولكن الصحيح أيضًا ، أن حسن

استثمار المعرفة الجغرافية ، التى تنبئ بها الحاسة الجغرافية عن المكان ، وعن الضوابط الجغرافية الحاكمة لخط سير الحياة فى المكان ، كان – بكل تأكيد – من وراء كل العوامل الايجابية ، التى اشتركت فى صناعة الانتصار والتفوق ، فى الحرب والسلام . بل أن هذا الاستشعار الذكى كان – بالضرورة – من وراء التحرك الاسلامى الموفق ، إلى ما وراء حدود الدولة الاسلامية فى مسيرة الخير ، أهم العوامل التى انجحت انتشار الدعوة الاسلامية بين الناس ، على صعيد أوسع كثيراً من الصعيد الذى شغلته الدولة فى أوج قوتها . وهذا معناه أن الحاسة الجغرافية ، كانت بصيرة الاسلام ، وهو يتصدى للعدوان ويبطل مفعوله الخطر ، أو وهو يتصدى للحكم الرشيد ، ويفرض النظام فى دولته العظمى ، أو وهو يتصدى لنشر الدعوة على المدى الأوسع فى جزيرة العالم .

وفى الحرب الوقائية ، كانت المعرفة الجغرافية مفيدة ، وهى تضع الأرض فى وضع الاستعداد ، لكى تحارب مع المسلمين . وكان من شأن الحاسة الجغرافية ، أن تبصر وترشد القيادة ، وهى توجه المعارك ضد الكفر المعلن ، الذى يرفض الدين ، وضد الرفض السياسى ، الذى يعادى الدولة . ويمكن أن نجد المثل ، والاسلام يحارب أمجد معاركه ويتصدى للكفر فى جزيرة العرب على الصعيد المحلى . كما نجد المثل مرة أخرى ، وهو يخوض أعظم معاركه ويتصدى للرفض السياسى فى مجتمع الدول ، فيما وراء جزيرة العرب على الصعيد الاقليمى .

وفى جزيرة العرب ، تطلعت دولة الاسلام ، وهى وليدة تواجه التحدى ، إلى ثمرات الحاسة الجغرافية ، لكى تحبط التحدى وتكسب المعركة . ومن أجل البيان الكاشف لهذا المعنى وموضوعيته ، نذكر كيف تحول الاسلام وهو فى خضم المعارك الشرسة ضد التحدى الكافر المتشبث بشكل مفاجئ ، وقبل أن يفرغ – بعد أن فتح مكة – تماماً من تنظيم أوضاعه الجديدة ، لكى يتحرك بكل الحسم إلى تبوك . وهناك على أرض تبوك خاض معركة هامة ، وانتزع النصر فيها لحساب الدين والدولة .

وصحيح أن الانتصار فى تبوك قد وسع من قاعدة الدولة الوليدة ،

فى حضن المدينة المنورة الحانى . وصحيح أن هذا الانتصار فى تبوك قد أضاف اضافة هامة ومطلوبة ، إلى رصيد العزة للدين والدولة فى وقت واحد . ولكن الصحيح أيضاً أن هذا التحرك ، وهذه الحرب ليست من أجل العدوان ، وأن هذا الانتصار كان مطلوباً فى هذا الوقت بالذات ، لكى يؤمن الاسلام ذاته ، الذى استشعر ريح التحدى تهدد من خارج الجزيرة ، مصير دولته ووجوده . وهذا معناه انه عندما تخوف من أن ينقض على ظهره خطر مفاجئ ، وهو ينظم دولته بعد أن فتح مكة وضمها إلى قبضته ، آثر أن يأخذ بزمام المبادرة، وينتصر فى يوم تبوك.

وفى اعتقادى على كل حال أن استشعار ما تنبئ به الحاسة الجغرافية عن موقع تبوك الجغرافى ، فى شمال غرب جزيرة العرب ، وكيف أنه موقع جغرافى حاكم للحركة ، قد حفز الرسول القائد ﷺ ، لأنه يخوض هذه المعركة فى هذا الموقع ، لكى ينتصر الاسلام ويضيف جدوى هذا الانتصار ، إلى رصيد الاستعداد والتجهيز ، من أجل مواجهة مرتقبة ، على الصعيد الاقليمى خارج جزيرة العرب ، لحساب الدين والدولة . ذلك أن الانتصار فى تبوك ، وحيازة هذا الموقع الجغرافى الحاكم ، معناه ثمرة مفيدة عسكرياً وسياسياً . ومن شأن هذه الثمرة المفيدة ، أن تحقق هدفين متكاملين هما :

أولاً : أن يمسك الاسلام بزمام السيطرة والتحكم فى الطريق ، من وإلى جزيرة العرب ، سواء كان التحرك سلمياً اقتصادياً ، أو حربيًا عدوانياً .

ثانيًا : أن يمتلك الاسلام نقطة الانذار المبكر ، التى ترقب التحرك الوارد والشارد على صعيد التخوم ، ضد الدين والدولة ، وهو يضمر الشر والرغبة فى العدوان ، من خارج جزيرة العرب .

ومن صفحات التاريخ السياسى المضيئة لدولة الاسلام المظفرة ، التى تحكى صور التصدى للتحديات ، نعلم بالضبط جدوى هذا الانتصار الحاسم فى تبوك . بل وندرك معنى تواجد القوة الاسلامية فيها ، على الطريق إلى الشام . وحيازة هذا الموقع الجغرافى الحاكم للحركة ، قد أمن مصالح الاسلام فى الوقت المناسب ، وغطى ظهره

وهو يتأهب لخوض أخطر معاركه النفسية ، ضد فلول الكفر بعد فتح مكة ، وصولاً إلى تثبيت وجود دولته المظفرة ، في كل أنحاء جزيرة العرب .

وخارج جزيرة العرب ، تطلعت دولة الاسلام ، وهي تخوض الحرب ضد الفرس والروم ، لكي تحبط التحدى المعلن صراحة ، إلى ثمرات الحاسة الجغرافية التي ترشد المواجهة ، وتسعف المسلمين في حسم المعارك والانتصار . ومن أجل البيان الكاشف لهذا المعنى وموضوعيته ، نذكر كيف اقتحم الاسلام - بكل الجسارة - أرض فارس، وأخذها عنوة ، وهو يعرف بأن الأرض وعرة وشديدة التضرس، لكي ينتزع النصر المبين . والمعرفة بالأرض معناه ، أن تحارب الأرض مع المسلمين ، وليس ضدهم . ونذكر في نفس الوقت ، كيف أحجم الاسلام عن التوغل في آسيا الصغرى ، وضرب الروم في عقر دارهم بعد انتصاره في الشام ، وكيف فضل أن ينازل الروم وأن يقهرهم في موضع آخر .

وصحيح أن الاسلام أحجم عن اقتحام آسيا الصغرى ومواجهة بيزنطة في عقر دارها ، من غير أن يتخوف خوض المعركة في الأرض الوعرة ، وهو صاحب التجربة في أرض فارس الأكثر وعورة . وصحيح أن دولة الاسلام قد التزمت بمواجهة دولة بيزنطة التزاماً قاطعاً لا رجعة فيه ، لكي تقهرها وتبطل مفعولها السياسي . ولكن الصحيح أيضاً أن القائد المظفر عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أعطى دولة الاسلام حق اختيار أرض المعركة ، ضد بيزنطة . ولأن عمر بن العاص كان عارفًا بمكان مصر ومكانتها ، فقد آثر أن يحارب هذه المعركة الأهم والأجدى ضد بيزنطة في مصر .

وفي اعتقادي ، أن الخبرة الجغرافية بمصر (١) ، قد ألهمت عمرو

---

(١) هناك من يقول أن عمرو بن العاص ، كان على اتصال ومعرفة بمصر قبل الاسلام . ويقول البعض الآخر أنه كان صاحب وكالة تجارية مقرها في مدينة الاسكندرية .

بن العاص رضى الله عنه ، بقيمة أن يحارب وتحارب فى صفة الأرض والناس فى هذه المعركة . وبجدوى الانتصار فى مصر وما يمكن أن يتأتى تأسيسًا على هذا الانتصار ، لحساب الدين والدولة . ذلك أن الانتصار على بيزنطة فى مصر ، يعنى خصمًا ونقصاناً من حساب بيزنطة ، ومصلحتها الاقتصادية وعمق الدولة الاستراتيچى فى مصر . ويعنى فى نفس الوقت اضافة وزيادة إلى مصلحة الاسلام الاقتصادية وعمق الدولة الاستراتيچى فى مصر . هذا بالاضافة إلى أن ضم مصر إلى كيان الدولة الاسلامية ، يكفل فرصة الانطلق غرباً ، طلباً للتوسع على الساحل الافريقى .

هذا ومن شأن الحاسة الجغرافية ، التى بصرت ورشدت هذا التحرك العسكرى الحصيف ، أن تبصر التوسع الاسلامى على الساحل الافريقى غرب مصر ، لكى يحقق المسلمون هدفين متكاملين هما :

أولاً : مطاردة الوجود البيزنطى المهزوز فى شمال أفريقية ، وانهاك واستنزاف قوة هذه الدولة الهرمة ، وحرمانها حرماناً كليًا من قاعدتها الاقتصادية الافريقية ، ومن تفوقها البحرى فى البحر المتوسط .

ثانياً : امتلاك جبهة عريضة على البحر المتوسط ، وتوسيع قاعدة الدولة الاسلامية ، ودعم بنيانها الاقتصادى ، ودعم وجودها البحرى فى البحر المتوسط .

ومن صفحات التاريخ السياسى المضيئة لدولة الاسلام المظفرة ، التى تحكى صور التصدى للتحديات المعلنة من خارج جزيرة العرب ، نعلم بالضبط جدوى فتح مصر كنانة الله فى أرضه ، وجدوى حيازة جبهة عريضة على البحر المتوسط ، على المدى القصير والبعيد معاً . هذا وقد أمن هذا الوضع الاسلام – بكل تأكيد – وهيأ له أن ينطلق – بكل المرونة – لكى ينتشر جنوبياً عبر الصحراء الكبرى ، إلى القلب الافريقى ، ولكى يتحرك شمالاً عبر البحر المتوسط ، إلى أطراف من الجنوب الأوروبى .

وبهذا المنطق ، نقول هل من حقنا أن نتصور كيف كانت إرادة

تأمين الاسلام فى الحرب على كل المستويات ، تستنفر الحاسة الجغرافية ، لكل تجنى ثمرات المعرفة الجغرافية التى تبصر وترشد القيادة المتنورة ، وكيف كانت هذه القيادات المتنورة ، تضع العامل الجغرافى فى الحسبان ، لدى خوض المعارك والتطلع إلى الانتصار فيها؟

ولأن هذه القيادات المتنورة ، قد رافقت الاسلام ، منذ أن كانت دولته وليدة ، وهى تواجه التحدى الكافر فى مكة وتنازله ، إلى أن حازت مكانة الدولة الأعظم فى مجتمع الدول ، نتبين كيف كان استنفار الحاسة الجغرافية ، لكى ترشد المعارك وتبصر الحرب الوقائية ، دليلاً لا يكذب ولا يضلل . بل أنه كان - بكل تأكيد - الاستنفار الموفق الذى أثمر ، عندما تولى ترشيد إرادة تأمين الاسلام فى الحرب لحساب الدولة ، وترشيد إرادة تأمين الدولة فى الحرب لحساب الاسلام . كما كان هذا الاستنفار الحافز الأعظم ، الذى أطلق العنان للفكر ،وأنجب الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، ونشط الاهتمام بثمرات الفكر الجغرافى الصحيح ، لحساب الانسان .

وفى السلم ، الذى يجنح إليه الاسلام ، كانت المعرفة الجغرافية أيضاً ، دليلاً لحساب الدولة ، وهى تباشر الحكم الرشيد وتخدم مصالح الأمة أو هى تؤمن الذات ، وتؤكد السيادة الاسلامية على الأرض فى أنحاء واسعة ، على الصعيدين الأفريقى والآسيوى . وكان من شأن الحاسة الجغرافية ، أن ترشد هذه المعرفة الجغرافية ، وأن تقدم الثمرات لحساب الحياة الأفضل فى الدولة . ومن أجل البيان الكاشف لهذا المعنى وموضوعيته ، نذكر كيف أدخل الاسلام فى حوزة الدولة والأقطار والأمصار ، وكيف ضم إلى بنية الدولة مساحات كبيرة من الأرض . وتطلعت الدولة عندئذ إلى ثمرات الحاسة الجغرافية ، لكى تكفل تماسك نسيج الدولة المادى والاقتصادى . كما نذكر كيف انتشر الاسلام بين الناس فى الدولة وخارج الدولة ، ومن غير عنف أو قهر . وقد تطلعت الدولة مرة أخرى إلى ثمرات الحاسة الجغرافية ، لكى تعمل على تلاحم مصالح الناس فى الدولة ، ويشتد ويقوى بنيانها البشرى . وهذا معناه أن الاسلام تلمس القوة للدين من خلال المعرفة الجغرافية ، التى تكفل

تماسك بنيان الدولة طبيعيًا وبشرياً ، وأن الاسلام تلمس القوة للدولة من خلال المعرفة الجغرافية ، التى تستكشف مصالح الناس المشتركة فى وجود الدولة .

وصحيح أن الاسلام قد باشر فى الدولة الحكم بالشرع ، وجعل من الفكرة الدينية السامية نواة مثلى ، تستقطب الولاء ، الذى يعلى إرادة الله فى الأرض ، وتؤكد سيادة الدولة على الأرض ، وتؤمن مصالح الأمة المشتركة فى الأرض . وصحيح أن الاسلام أخذ من الشرعية وبالشريعة، طلبًا للعدل والمساواة بين الناس ، لكى يدعم دور وأداء الحكم الرشيد ، ويقوى ساعد النظام الحاكم . فى أنحاء الدولة . ولكن الصحيح أيضاً ، أن استنفار الحاسة الجغرافية ، وحسن استثمار الانفتاح على المعرفة الجغرافية بالأرض وبالناس فى أقطار الدولة ، وقبول الدين بهذا الاستثمار ، قد أيد وظاهر الحكم الرشيد ، وبصره وسدد خطاه ، وجعل منه الحاكم الموفق ، الذى يتشبث به الولاء ، والذى يجد فيه هذا الولاء مصالحه المشتركة العليا ، فى الحياة الأفضل .

وفى اعتقادى – على كل حال – أن المصلحة المشتركة فى هذا الحكم الرشيد فى الدولة الاسلامية ، الذى التزم بأقصى قدر من التوفيق ، بين مصالح الناس الخاصة فى الأقطار ، ومصالح الناس العامة فى الدولة ، قد عززت ولاء الناس للدين ودوره البناء فى الدولة . وكان ذلك – من غير شك – من وراء دعم صرح الدولة وتأكيد وجودها السياسى السوى ، وترسيخ مكانتها الممتازة فى مجتمع الدول .

هذا ، ومن خلال الاستشعار الجغرافى الذكى الكاشف ، لأوضاع وأحوال الناس فى كل قطر من أقطار الدولة المتباينة ، ومن خلال الاستشعار الجغرافى الحصيف العارف ، بالضوابط الحاكمة لأنماط الحياة المتنوعة ومسيرتها ، فى كل قطر من أقطار الدولة ، تخير الحكم الرشيد الواعى فى الدولة – بكل الحنكة – الأسلوب الأنسب للحكم القطرى ، فى كل قطر من أقطار الدولة . وكان المطلوب – بكل تأكيد – التزام العلاقة المثلى التى تنسق بين ، الحكم القطرى الذى يقوده الوالى ، والحكم المركزى العام الذى يقوده أمير المؤمنين . بل وكان المطلوب

أيضاً ، الحد الأمثل من التوفيق الحقيقى بين ، حرص كل قوم فى كل قطر على ذاته الخاصة من ناحية ، وحرص الأمة التى تجمع أوصال هذه الأقوام من ناحية أخرى ، لكى يتماسك بناء الدولة ، وتتأكد ذاتها الكلية .

واستشعار شخصية كل قطر أو مصر ، فى اطار شخصية الدولة ، واستشار مكانة كل قطر أو مصر فى اطار مكانة الدولة ، واستشعار الضوابط الحاكمة لأوضاع ومصالح وآمال كل قوم من الأقوام فى الاطار الجامع لكيان الدولة ، بقصد التوفيق وعدم التعارض بين الأقوام فيها ، لا يتأتى إلا من خلال حسن استخدام ثمرات الحاسة الجغرافية ، التى لا تخطئ ، ولا تضلل . ومن شأن هذه الحاسة الجغرافية – على كل حال – ، أن تتحسس المكان فى كل قطر ، وأن تتلمس الشخصية الذاتية فى كل قطر ، وأن تقوم وجود ومصالح القوم فى أحضان المكان فى كل قطر ، لكى ترشد – بكل الفطنة – الحكم الاسلامى الرشيد فى كل قطر ، لحساب الترابط والتكامل بين الأقطار المتباينة فى الدولة .

وهكذا ، كان اختيار وتطبيق الأسلوب الأنسب للحكم القطرى فى كل قطر ، تحت رعاية الدولة ، وكان تجاوب الأقوام – بكل الولاء – مع الحكم المركزى فى قبضة الدولة ، حصاد حقيقى مفيد للتفكير الجغرافى السليم ، الذى يحسب حساب كل العوامل التى تؤكد أحقية كل قوم فى قطره ونمط حياته ، وينسق بين اعتزاز كل قوم بذاتهم فى حضن الوطن الصغير ، واعتزاز كل الأقوام بالتداخل والاشتراك فى ذات الدولة ، فى حضن الوطن الكبير (١) .

ويهذا المنطق مرة أخرى ، هل من حقنا أن نتصور أن إرادة تأمين

---

(١) لقد حافظت الدولة الاسلامية الكبرى على وجودها السوى المتماسك إلى اليوم، الذى صرفت فيه الحكومة النظر عن التوفيق ، بين ذات الأقوام التى تنخرط فى بنيانها البشرى فى جانب ، وذات القوم التى تقبض على زمام السلطة فى الدولة فى جانب آخر . وهذا معناه أن رفض الانصات إلى ما أملاه الادراك الجغرافى ، هو الذى فجر الصراعات الداخلية بين الأقوام ، وتسبب فى اضعاف السلطة ، وأدى إلى تمزيق أوصال الدولة فى نهاية المطاف .

الاسلام فى السلم ، كانت تستنفر الحاسة الجغرافية ، طلبًا لثمرات مفيدة ، ترشد الفكر القائد المتفتح وتبصره ، لكى يضع العامل أو العوامل الجغرافية فى الحسبان ، لدى بناء وترسيخ الحكم الرشيد ، ولدى تأمين مسيرة الحياة فى الدولة ؟

ولأن هذه الإرادة الملهمة قد رافقت الاسلام ، منذ أن كان وليداً فى حضن دولته الصغيرة فى المدينة المنورة ، إلى أن صنع الدولة الكبرى فى اتساعها الأعظم ، على الصعيد الآسيوى والافريقى والأوروبى ، نتبين كيف كان استنفار الحاسة الجغرافية ، لكى ترشد السلم البناء ، دليلاً لا يكذب ولا يضلل . بل أنه كان الاستنفار الموفق الذى أثمر ، عندما تولى ترشيد إرادة تأمين الاسلام فى السلم لحساب الدولة ، وترشيد إرادة تأمين الدولة فى السلم لحساب الدين . كما كان الاستنفار الحافز الملهم، الذى أنجب الصفوة من الجغرافيين المسلمين . ونشط الاهتمام بثمرات الفكر الجغرافى ، لحساب الانسان .

الحاسة الجغرافية وتباشير التفكير الجغرافى عند المسلمين :

من الطبيعى – على كل حال – أن نتبين كيف أن استنفار الحاسة الجغرافية ، وطلب ثمراتها المفيدة ، وحسن استخدامها واستثمارها ، لم ينشأ من فراغ فى المجتمع الاسلامى . بل يجب أن نفطن إلى أن العرب فى جزيرتهم قبل الاسلام ، قد امتلكوا الحس الجغرافى ، الذى بصرهم فى المرعى ، ويصرهم فى اشتغالهم بالوساطة التجارية . وهذا معناه أن الاستعداد موجود والرغبة كامنة ، وأن الحاسة الجغرافية مهيأة ، وكيف أن هذا الاستنفار كان مطلوباً بكل الالحاح – لكى يقدم ثمرات حيوية وبناءة ، استجابة لإرادة تأمين الدولة فى الحرب والسلم على السواء .

ولئن دعا داعى استنفار هذه الحاسة الجغرافية – بكل تأكيد – إلى جنى الثمرات وحسن استخدامها ، بالشكل الذى أمن الدولة ، وخدم انتشار الاسلام ، فهل نتصور كيف كان الاسلام ، وهو يستنفر هذه الحاسة الجغرافية ، ويستثمر ثمراتها ، مسئولاً عن تكوين وتنشئة

وتربية الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، الذين تولوا أمر الفكر الجغرافى الصحيح المهجور ، وتحملوا مسئولية بعثة من رقدة العدم ، وصنعوا باجتهادهم ثمرات طيبة ، أضافت إلى الرصيد الجغرافى العالمى المفيد شيئاً جديداً ، لحساب الانسان ؟

وصحيح أن الصفوة المرموقة من المفكرين المسلمين قد تكونت ونشأت ، تحت مظلة الأمن التى نشرها الاسلام ، على كل طلاب العلم والمعرفة بصفة عامة . وصحيح أن الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، قد نضجت نضجاً حقيقيًا فى أحضان الممارسة والتجربة المطمئنة ، التى أتاحها لهم الاسلام ، لكى تخرج أعلامًا شامخًا تقود مسيرة الفكر الجغرافى – بكل التفتح – إلى ما هو أفضل . ولكن الصحيح أيضاً ، إن هذه الصفوة المرموقة من علماء الجغرافية المسلمين قد تلمست – بكل الحنكة – أطراف الخيوط التى كانت قد انقطعت ، عندما تصدت الكنيسة لمسيرة الفكر الجغرافى المهجور ، وطاردت صناع هذا الفكر ووصمتهم بالكفر والهرطقة ، وصبت عليهم اللعنة والعذاب الأليم .

وهكذا ظهر العلماء المسلمون الذين تحملوا مسئولية البحث والاضافة إلى المعرفة الجغرافية ، فى أحضان الاسلام . وكان المطلوب من علماء الجغرافية المسلمين ، أن تصل اجتهادتهم بين جغرافية الماضى، وجغرافية الحاضر ، استشعاراً منهم بالتكامل المثمر ، لحساب المسيرة الفكرية الجغرافية المستمرة ، وتطلعًا إلى الترابط البناء بين خطوات هذا الفكر الجغرافى المثمر ، لحساب الحياة . ولقد كان الاسلام – بكل تأكيد – من وراء هذه الصفوة يدعمها ويشد أزرها . ويكفى أن نتبين ثلاث مسلمات مهمة ، تصور موقف الاسلام من الفكر الجغرافى ، ومن دور الجغرافيين المسلمين العاملين على تطويره والاضافة إليه . وتتمثل هذه المسلمات فى :

أولاً : أن الاسلام لم يستنكر الفكر الجغرافى العتيق المهجور ، ولم يرفضه ويتنكر له شكاً فى معصيته أو كفره .

ثانيًا : أن الاسلام لم ينكر على الصفوة من علماء الجغرافية المسلمين حقهم فى الأخذ بالانفتاح ، على كل الرصيد المهجور ، من

الفكر الجغرافى العتيق ، وحقهم فى استيعابه والاضافة إليه .

ثالثًا : أن الاسلام لم يسلب الجغرافيين المسلمين حق التفكير الحر، بقصد التجديد والتطوير وتسجيل الاضافة ، وبقصد التصدى لقيادة مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح وتوجيهه فى الاتجاه الصحيح .

وهكذا نتبين – بكل الموضوعية – كيف أن الاسلام قبل بهذه المسلمات بداية ، لأنه يطلب ثمرات الفكر الجغرافى الصحيح – بكل الالحاح – ، ولأنه يقدر جدواها – بكل الواقعية – ، لحساب الانسان . وفى اعتقادى أن الاسلام ، قد استهدف – بكل التفتح – الخير ، من وراء اجتهاد علماء الجغرافية المسلمين . وأن هذا الخير يتمثل فى ثلاثة أهداف متكاملة ومتداخلة فى وقت واحد . وهذه الأهداف هى :

أولاً : اخراج الفكر الجغرافى من الطريق المسدود ، التى ارتضتها له الكنيسة ، وانتشاله من الضياع فى الحضيض ، الذى تردى فيه بعد بطليموس الاسكندرانى ، على مدى حوالى ستة قرون من عمر الحياة .

ثانيًا : تصحيح المسار الفكرى الجغرافى فى الاتجاه المثمر ، الذى يخدم الواقع الحياتى ، فى أحضان المكان فى المعروف ، أو فى المعمور من الأرض .

ثالثًا : تسجيل الاضافة المفيدة ، إلى هذا الفكر الجغرافى البناء ، من حيث انتهى الجغرافيون القدامى ، أو من حيث توقف وتجمد التفكير الجغرافى المرفوض والمهجور فى ظل الارهاب الكنسى ، وتطويع المعرفة الجغرافية لمصلحة الانسان ، دينياً واجتماعياً وحضارياً واقتصادياً .

ومن وراء كل هذه الأهداف المتداخلة والمتكاملة ، التى تسخر الجغرافية وتنميها لحساب الانسان ، ينبغى أن نستشعر الانفتاح الاسلامى الحقيقى على المعرفة الجغرافية . ذلك أن الاسلام ، كان من شأنه أن يطلب من الصفوة الممتازة من الجغرافيين المسلمين حسن استخدام الحسن الجغرافى ، وصولاً إلى :

١- توسيع دائرة ، المعرفة بالأنحاء المعمورة من الأرض .

٢- تعميق المعرفة بالأنحاء المعروفة من الأرض ، في وقت واحد . وهذا يعني انفتاح الاسلام على هذا النحو ، وقبوله بفكر جغرافي مهجور ، جرحته الكنيسة ، وشككت في صدقه ، واستنكرت فحواه ، وطاردت من يروج له .

وفي اعتقادي - على كل حال - أن قبول الاسلام الحسن بالفكر الجغرافي المهجور ، علامة من أهم العلامات التي تصور ، كيف رفض الاسلام التسليم بمنطق الكنيسة ، والتصديق على زعمها الباطل رفضاً قاطعًا من ناحية ، وكيف أمن الاسلام البحث الحر وتقصي الحقائق عن الرصيد الجغرافي المشكوك فيه من ناحية أخرى . وفي اعتقادي أيضاً أنه قبول وانفتاح وتفتح في وقت واحد ، يعني تقويماً سليمًا وادراكًا واعياً ، عن مدى استشعار الاسلام حقيقة وجدوى الفكر الجغرافي بصفة عامة ، لحساب الانسان في الحياة .

وبهذا المنطق الموضوعي ، نؤكد أن الاسلام ، وهو الدين الحضاري القيم ، قد عقد العزم على تنشيط الصفوة من علماء الجغرافيين المسلمين ، التي انكبت - بكل الصدق - على العمل البناء في الحقل الجغرافي ، وعلى بذل الجهد والاجتهاد في ميادين التفكير الجغرافي والكشف الجغرافي . وهذا معناه أن الاسلام قد تبنى الجغرافية بالفعل ، واحتضن الفكر الجغرافي البناء ، الذي يخدم المعرفة الجغرافية . ومعناه أيضًا ، أن هذا التبني كان من وراء الدعم ، الذي قدمه الاسلام إلى مسيرة الفكر الجغرافي ، والابداع الجغرافي العربي .

الاسلام يدعم الفكر الجغرافي الصحيح :

عندما نتبين أن الاسلام قد ظلل الفكر الجغرافي المتفتح ، بمظلة الأمن والأمان ، لكي يواصل مسيرته الخيرة ، لأنه يقدر وقع خطواته البناءة - بكل الرتابة - لحساب الحياة . وعندما نتبين أن الاسلام قد تبنى الفكر الجغرافي لأنه يستشعر جدوى وفاعلية النتائج والثمرات ، التي يقدمه الحساب الحضارة البشرية . يكون ذلك كله ، من أجل البحث الهادف ، الذي يتحسس شكل الدعم الذي قدمه الاسلام إلى الفكر الجغرافي ، وهو يرنو إلى جمع الرصيد القديم المهجور ومراجعته

واستيعابه وتصحيحه ، أو وهو يتطلع إلى تسجيل الاضافات عن المعرفة الجغرافية بالمكان وبالانسان ، وعن التفاعل بين الانسان والأرض فى المكان والزمان ، لحساب الواقع الحياتى وأنماطه المتنوعة ، من مكان إلى مكان آخر، فى أنحاء المعروف ، أو المعمور من الأرض . ويستوى فى ذلك أن يجتهد الباحث عن هذا الدعم وعن كنهه وماهيته ، لكى يجده أحياناً دعماً مباشراً أو دعماً غير مباشر ، أو لكى يجده دعماً مادياً أو دعماً معنوياً .

· وأن يطلق الاسلام سراح الفكر الجغرافى الصحيح المهجور بكل الوعى ، وأن يقبل الاسلام باستيعاب رصيد الفكر الجغرافى القديم المهجور بكل التفتح ، وأن يؤمن الاسلام اضافات كل المجتهدين من رجال الفكر الحغرافى العرب والمسلمين بكل التفتح ، وأن يبارك الاسلام تقدم مسيرة الفكر الجغرافى المتطورة بكل الصدق ، وأن يستثمر الاسلام حصاد هذا الفكر الجغرافى العربى الاسلامى بكل الواقعية ، فتلك كلها علامات مضيئة ، يجب أن تلفت النظر لدى استشعار الباحث ، جدوى الدعم الاسلامى وفاعليته ، وهو يتبنى الفكر الجغرافى .

وصحيح أن استشعار جدوى الدعم أمر مطلوب ، لدى الحديث عن دور الاسلام ، وهو يظاهر الفكر الجغرافى المتطور . وصحيح أن هذا الاستشعار ينبئ بصدق وجدية هذا الدعم ، الذى قدمه الاسلام باختياره إلى الفكر الجغرافى ، وإلى الصفوة الممتازة العاملة فى هذا الحقل . ولكن الصحيح أيضاً ، أن ذلك كله ، لا يمكن أن يجسد هذا الدعم الاسلامى ، تجسيداً واقعياً ملموساً ، وهو يحفز المفكرين والكتاب والرحالة ، لكى تنكب هذه الصفوة من المجتهدين ، على أداء دورها الوظيفى البناء ، فى خدمة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى .

وبكل أمانة ، ينبغى أن نؤكد على أن اطلاق سراح الفكر ، وتأمين المفكرين ، أمران مهمان مطلوبان – بكل الالحاح – لكى يتأتى التحرر الصريح من عقدة الخوف التى تكبت الفكر . وصحيح أن التحرر من عقدة الخوف التى تطارد الفكر والمفكرين ، هو – فى حد ذاته – أمر جوهرى وحيوى ومفيد ، لكى يتحرر الفكر ، وينطلق التفكير

الجغرافى، وتبدأ مسيرته الخيرة فى الاتجاه الصحيح . ولكن - والسؤال هنا فى غاية الأهمية - هل يكفى تحرير الفكر وحده من الخوف ، وتأمين المفكرين ، لكى يتفجر التفكير ويثمر الابداع ، ولكى يتولى التجديد والاضافة ، إلى رصيد الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ؟

وفى اعتقادى - على كل حال - أن التحرر من الخوف وحده ، لا يصنع شيئًا سوى تهيئة المناخ الأنسب للفكر ، وللتفكير الحر البناء . بمعنى أنه تحرير يضع المفكر فى وضع الاستعداد فقط ، ودون أن يتولى تحريكه ومطالبته بأن يفكر . وفى اعتقادى أن الممارسة وتقصى الحقائق، التى تسفر عن افراز الفكر والتجديد والاضافة ، تكون فى حاجة ملحة إلى :

أولاً : استعداد المفكر ذاته ، وتشوقه لأن يفكر تفكيراً موضوعياً ، وصولاً إلى اخراج أو افراز الفكر والتجديد والاضافة .

ثانياً : الحافز أو الحوافز التى تنشط وتحث وتحفز الباحث أو المفكر أو الرحالة إلى الاجتهاد بداية ، لكى تنبثق من بين صفوفهم الصفوة الممتازة ، التى تمتلك القدرة على الابداع ، وتتولى قيادة وريادة مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح .

وإذا كان استعداد المفكر مسألة نابعة من ذاته أصلاً ، فإن التجربة والممارسة تكون مطلوبة ، لكى تصقل هذه الموهبة ، وترفع مستواها إلى ما هو أفضل . أما الحافز أو الحوافز فإنها تكون ألزم ما تكون ، لكى تكتشف هذا الاستعداد وتفجره ، ولكى تصقل الموهبة . بل ينبغى أن تصل هذه الحوافز ، إلى حد اغراء الصفوة من المفكرين واشباعهم ، حتى يتفجر ما فى داخلهم من ابداع وتجديد وفكر متطور .

ولأن الاسلام الدين الحضارى القيم المتفتح ، قد تطلع - بكل الأمل - إلى ثمرات الفكر الجغرافى البناء ، لحساب المعرفة الجغرافية والانفتاح الجغرافى على العالم ، الذى يخدم نشر العقيدة على أوسع مدى فى المعمور من الأرض ، ويؤمن مصلحة الدولة فى فرض السيادة وحيازة الحصة الأكبر من الأرض ، فقد قدم الاسلام هذا الدعم عن طيب خاطر إلى الفكر الجغرافى ، فى كل شكل من أشكال الدعم الحافز . وقد يتجلى هذا الدعم الحافز ، من خلال الدولة وقوة ومكانة الحكم الرشيد

فيها ، أو من خلال قادة الدولة وأولى الأمر فيها . ومن حسن حظ الفكر بصفة عامة ، والفكر الجغرافى بصفة خاصة ، أن الاسلام قد أحبط اى تسلط غاشم أو غشيم ، يعارض صوت الفكر وحرية الفكر الجغرافى ، وانطلاقته البناءة بيد قوية صارمة ، وأنه فى نفس الوقت حفز الابداع والتجديد والاضافة إلى هذا الفكر ، بيد سخية كريمة أخرى .

وهكذا أصبح هذا الدعم الاسلامى الحافز فى كل صوره ، وهو يؤمن بقوة ، ثم وهو يغدق بسخاء ، قوة الدفع الفعالة ، من وراء حصاد الفكر الجغرافى العربى ، فى كل مرحلة من مراحل مسيرته المثمرة ، على مدى أكثر من سبعة أو ثمانية قرون من عمر الحياة ، لحساب الانسان ، ومصالحه المباشرة أو غير المباشرة فى هذا الفكر .

ووصولاً إلى حقيقة هذا الدعم الحافز ، الذى قدمه الاسلام ، والتزمت به الدولة وبعض القيادات الرشيدة فيها قبل الصفوة المرموقة من اعلام الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، ينبغى أن نتبين أمرين هما :

أولاً : صيغة أو صيغ هذا الدعم الحافز ، وكيف تحول إلى قوة دفع فعالة ، وكيف تبنى تحريك مسيرة الفكر الجغرافى العربى إلى ما هو أفضل ، من وجهة النظر الموضوعية .

ثانياً : جدوى هذا الدعم الحافز ، وكيف نشط افراز الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، وهو يتولى تعميق المعرفة بالمعروف من الأرض ، أو وهو يتولى توسيع دائرة المعرفة بالمعمور فى الأرض .

هذا ، وفى اعتقادى – على كل حال – أن هناك مرحلتين متواليتين ومتكاملتين – على أقل تقدير – فى مسيرة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، التى تولى أمرها الجغرافيون المسلمون . ومن شأن كل مرحلة من هاتين المرحلتين ، أن تشهد الخطوات الايجابية البناءة ، وهى تسجل الاضافات والابداع والتجديد ، إلى رصيد الفكر الجغرافى فى أحضان الاسلام .

وفى اعتقادى مرة أخرى ، أن التكامل بين الخطوات الايجابية البناءة، فى هاتين المرحلتين فى هذه المسيرة الناجحة ، منطقى

وضـروري . بل قل أنه التكامل المثـمـر ، الذي ينفي وينكر الانفـصـال بينهما تمامًا ، والذي لا يعارض التداخل الحتمي المفيد فيما بينهما . وتتمثل هاتان المرحلتان في :

أولاً : مرحلة احياء الفكر الجغرافي الصحيح المهجور ، واعادته إلى صوابه ، وتحريكه في الاتجاه الصحيح .

ثانيًا : مرحلة نضج الفكر الجغرافي العربي الاسلامي ، وتسجيل الابداع والاضافة إليه ، وتولي أمر ريادته .

هذا ، ومن الطبيعي أن يكون التقدم في المرحلة الأولى ، لكي يظاهر التقدم والريادة في المرحلة الثانية . ومن الطبيعي أيضًا ، أن نستشعر مدى التكامل بين التقدم في هاتين المرحلتين ، لحساب الفكر الجغرافي العربي الاسلامي ، وهو يقدم الحصاد والاضافات إلى الانسان في كل مكان . ولكن من الطبيعي بعد ذلك كله ، أن نتبين دور الاسلام في كل مرحلة من هاتين المرحلتين المتكاملتين ، وهو يقدم الدعم الحافز الأنسب ، ويحفز التفكير المتنور ، ويجزل العطاء السخي للمفكرين ، ويرعى مسيرة الفكر الجغرافي العربي الاسلامي ، ويجني ثمراتها المفيدة لحساب الدين والدولة .

احياء الفكر الجغرافي الصحيح المهجور :

في هذه المرحلة الأولى ، لا ينبغي أن نسأل متى بدأت حركة احياء الفكر الجغرافي بكل الالحاح ، ولكن الذي يستحق السؤال بكل الالحاح ، هو كيف بدأت حركة احياء الفكر الجغرافي ، وكيف صححت هذه الحركة الاتجاهات ، التي تسير فيها مسيرة الفكر الجغرافي ؟

ومن أجل الاجابة على هذا السؤال ، ينبغي أن نشير صراحة إلى مسألتين جوهريتين وهامتين ، تأسيساً على الرفض والانكار والتنكر ، الذي اعلنته الكنيسة — بكل التزمت — ضد الفكر الانساني بصفة عامة ، وضد الفكر الجغرافي القديم ، غير الملتزم بمنطق وروح الكنيسة بصفة خاصة . ومن شأن هاتين المسألتين ، الاسهام في بلورة الموقف ، حتى تتهيأ الأوضاع المناسبة ، ويتأتى المناخ الأنسب ، لكي يتحمل الاسلام والمسلمون مسئولية الفكر كله ، في الوقت المناسب . وصحيح أن هاتين

المسألتين الجوهريتين قد حدثتا قبل ظهور الاسلام . ولكن الصحيح أنهما حملتا الاسلام مسئولية الفكر الانسانى كله ، بعد أن رسخ وجوده فى أحضان دولته الأعظم . وتتمثل هاتان المسألتان الجوهريتان(١) فى :

أولاً : فى سنة ٤٨٩ ميلادية ، فراراً من رفض الكنيسة ، ومطاردة رجال الدين المسيحى المتزمتين ، لجأ بعض حملة العلم والمفكرين النصارى من الدولة الرومانية إلى فارس . وقد عرف هذا الفريق الهارب من بطش الكنيسة ، وتعصبهم المذهبى ، باسم النساطرة أو السريان الشرقيين . وحمل هذا الفريق معهم إلى المهجر ، بعض حصاد الفكر الانسانى القديم الذى تطارده الكنيسة ، والفكر الجغرافى جزء من هذا الفكر .

ثانيًا : فى سنة ٥٢٩ ميلادية ، صدر أمر حاسم من الامبراطور جستنيان الرومانى ، يقضى باغلاق أكاديمية أفلاطون فى أثينا ، وانهاء الجدل العلمى والفلسفى فيها . وكان هذا الأمر استجابة لإرادة رجال الدين ، الذين تحملوا مسئولية قفل باب الاجتهاد ، ومعارضة أى تفكير غير ملتزم بإرادة الجهل التى كانت تخيم على الكنيسة .

وصحيح أن فرار النساطرة إلى فارس ، أنقذ بعض التراث الفكرى القديم من الضياع فى عالم مسيحى ، جاهل يرفضه ويتنكر لأصحابه . وصحيح أن استيطان النساطرة فى فارس هيأ الموقع الأمين ، الذى حافظ على جذوة مشتعلة من الفكر الجغرافى القديم . ولكن الصحيح أيضاً ، أن اغلاق أكاديمية أفلاطون ، أدى إلى تردى الناس فى حضيض من الجهالة ، ورفض التفكير الحر غير الملتزم بجهل وتزمت الكنيسة . ومن ثم أصيب التفكير بالشلل ، وتجمد الفكر ، وتوقفت مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح توقفاً كلياً .

هذا ، ومن شأن الجمع بين نتائج كثيرة ترتبت على هاتين المسألتين الجوهريتين ، أن يجسد نتيجة هامة ومفيدة على المدى البعيد، لحساب الفكر الانسانى بصفة عامة ، ولحساب الفكر الجغرافى بصفة

---

(١) جلال مظهر : المرجع السابق صفحة ١٦٦ .

خاصة . ذلك انه لو لم يفر النساطرة من نقمة وجهالة وتزمت رجال الكنيسة ، ولو لم يلجأ فريق منهم إلى فارس ، ولو لم يحمل هذا الفريق معه إلى المهجر جذوة مشتعلة من الفكر الجغرافى القديم ، ولو لم يحافظ النساطرة على هذه الجذوة متوهجة ، لأصبح من شأن الاهتمام الاسلامى بالفكر الانسانى عامة ، والفكر الجغرافى خاصة ، أن يبدأ قصته مع الفكر ، ويسجل اجتهاده فى متابعة الفكر وتطويره من نقطة الصفر .

وصحيح أن السريان النساطرة تشبثوا فى المهجر بالعلم وطلبه ، وحافظوا على توهج جذوة الفكر الجغرافى المرفوض من الكنيسة . وصحيح أن مدرسة جنديسابور فى فارس ، كانت أمينة على التراث الجغرافى اليونانى ، لحساب طلاب المعرفة فى العالم . ولكن الصحيح أيضاً أن المحافظة على التراث الجغرافى مئات السنين ، من خلال الفكر اليونانى شئ مهم ، حتى يجد من يطوره ، وهو الشئ الأهم . وهذا معناه – على كل حال – أن العلم فى أحضان النساطرة عاش فى المهجر، واحتفظ بنبضه دون أن تسجل إليه اضافة . ومعناه أيضاً ، أن الفكر الجغرافى فى مدرسة جنديسابور ، لم يسجل تطوراً أو ابداعاً ، يستحق الاهتمام ، لأنهم أعجز من تحمل هذه المسئولية . ومعناه مرة ثالثة ، أن الفكر الجغرافى المهجور ، كان فى انتظار العقول ، التى تتلقفه ، لكى تكشف عنه الغطاء ، وتبعثه من رقدة العدم ، وتتولى أمر تطويره والاضافة إليه .

وفى اعتقادى – على كل حال – أن هذا الوضع الذى أبقى على الفكر الجغرافى متجمداً ، لا ينبغى أن يدعو إلى انكار دور النساطرة ، وهم يصونون التراث ، ويحافظون على المعين . بل ربما استحق النساطرة الشكر والتقدير ، مرتين . وهم مشكورون فى المرة الأولى ، لأنهم تولوا حراسة رأس الجسر ، التى ربطت الأوصال ، بين الفكر القديم والفكر الاسلامى . ثم هم مشكورون فى المرة الثانية ، لأنهم قدموا بكامل ارادتهم – فى الوقت المناسب – إلى الصفوة من أهل الفكر عامة ، والفكر الجغرافى خاصة ، أطراف الخيوط ، التى أتاحت لهذه الصفوة من علماء المسلمين الفرص الثمينة ، لكى يتحملوا مسئولية الوصل والربط بين ، مسيرة الفكر الجغرافى المهجور ، ومسيرة الفكر الجغرافى

العربى الاسلامى المتفتح . وبمعنى آخر ، ينبغى أن ندرك عندئذ ، كيف سلم هذا الفريق من النصارى ، الذى رفض كليًا الانصياع للكنيسة وجهلها الصارخ باختياره ، أمانة الفكر الجغرافى القديم المهجور ، إلى الصفوة من الجغرافيين المسلمين باختياره أيضاً . وقبول الجغرافيين المسلمين بهذه الأمانة ، معناه بداية حركة احياء الفكر الجغرافى الصحيح . ومعناه أيضًا استئناف مسيرة هذا الفكر فى الاتجاه الصحيح.

وهكذا كانت نقطة البداية ، عندما تلقفت الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، أمانة الفكر الجغرافى ، من النساطرة ، حفظه هذه الأمانة ، أو عندما التزم بعض الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، بحمل هذه الأمانة ، والعمل من أجل تطويرها . وقد كان من شأن هذه الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، أن تحرص كل الحرص ، على أن تسير المسيرة فى الاتجاه الصحيح ، وعلى أن تبدأ من حيث انتهى الفكر الجغرافى القديم المهجور ، كما سجله من الجغرافيين اليونانيين المصريين ، ومنهم استرابو وماريئوس وإيراتوستين وبطليموس القلوذى الاسكندرانى .

ومن وراء هذا الالتزام بالأمانة ، والحرص على احياء الفكر الجغرافى وتطويره ، تطلعت الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، إلى معين الفكر الجغرافى اليونانى المهجور ، واستشعر ضرورة الاطلاع على ما ورد فيه من أبواب المعرفة الجغرافية . ومن وراء هذا التطلع الشديد إلى المعين ومحتواه ، تجلى الدعم الذى قدمه بعض من القادة المسلمين المتفتحين ، وصولاً إلى الهدف العاجل ، لحساب الفكر الجغرافى الاسلامى الأفضل . وقد تمثل هذا الهدف العاجل ، فى الترجمة والنقل إلى اللغة العربية ، من اللغات اليونانية والبهلوية وغيرها من اللغات ، التى استخدمت فى عصر من العصور الغابرة ، لكتابة وتسجيل التراث الفكرى ، الذى كان متداولاً قبل أن يفرض عليه الحظر المسيحى .

هذا ، وقد كان النساطرة السريان ، من أهم الفئات ، التى قدمت العون كله إلى العلماء المسلمين ، عندما تولت – بكل الأمانة – عمليات

الترجمة ، ونقل الفكر الجغرافى القديم المهجور ، إلى اللغة العربية ، وصحيح أن النساطرة السريان ، كانت الفئة المسيحية التى بصرت الجغرافيين المسلمين ، لدى الاطلاع على الفكر الجغرافى اليونانى المهجور ، والتى تحملت المسئولية ، لدى كشف الغطاء عن الرصيد الضخم القديم ، والاحاطة بمحتواه . ولكن الصحيح أن خلفاء بعينهم من قادة الدولة العباسية ، قد فتحوا الباب واقدموا على الاغداق السخى والعطاء المغرى ، إلى العاملين فى عملية الترجمة ، التى تخدم الجغرافيين المسلمين ، وتشبع تعطشهم ونهمهم إلى استطلاع واستيعاب الفكر الجغرافى اليونانى المهجور . بل لعلهم أضافوا إلى الاغداق السخى بالمال والذهب ، التكريم والاكبار والاحترام ، فى مجالس العلم والخلفاء .

وهكذا نتبين بجلاء ، كيف كان الاغداق السخى والعطاء المغرى ، والتكريم والاكبار ، شكلاً من أهم أشكال الدعم المادى الحافز ، للترجمة والنقل إلى اللغة العربية . وما من شك فى أن الترجمة ، قد فتحت الباب على مصراعيه ، لكى يتسنى للصفوة الممتازة ، من أهل الفكر العربى الاسلامى المتفتح ، الاطلاع على التراث اليونانى القديم . بل أنها فتحت باب الأمل ، لكى تتأهل هذه الصفوة الممتازة ، من أهل الفكر العربى الاسلامى ، للقيام بمهمة احياء هذا التراث العتيق المهجور ، بالشكل الذى ينميه ويطوره ويضيف إليه كل جديد . وهذا معناه أن الترجمة كانت خطوة هامة وضرورية . ومعناه أيضًا أن الترجمة حملت الجغرافيين المسلمين ، أمانة انتشال التراث الفكرى الجغرافى من الضياع، الذى كان قد تردى فيه ، على مدى أكثر من ثمانية أو تسعة قرون طويلة مظلمة ، من عمر الحياة . ومعناه مرة ثالثة ، أن الترجمة العربية أطلقت العنان للفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، وأعطت زمام المسيرة للجغرافين المسلمين .

حركة الترجمة واحياء الفكر الجغرافى :

لئن كانت الترجمة إلى العربية ، قد نشطت وجددت حيوية الاطلاع على التراث الجغرافى القديم المهجور، وحفزت الجغرافيين المسلمين

في البحث الجغرافى الموضوعى ، من أجل الاضافة ، فلا ينبغى أن ننسى فى هذا المجال ، الاشادة بالرجل العربى المسلم الفطن الأول خالد بن يزيد (١) ، الذى نشأ فى أحضان الدولة الأموية ، واستشعر قيمة العلم ، ونبه الأذهان إلى جدوى المعرفة القديمة ، التى حجبتها أو شوهتها جهالة الكنيسة ، ورجعية رجال الدين المسيحى . وما من شك أن خالد بن يزيد قد فجر الحاجة إلى الترجمة ، ونبه إلى حتيمة الاطلاع على الفكر القديم المهجور . بل لقد تصور ان كشف الغطاء عن هذا المعين الزاخر بالمعرفة مطلوب – بكل الالحاح – ، لكى تبدأ مسيرة العلم والمعرفة ، فى أحضان العلماء المسلمين ، من حيث انتهى السابقون فى المسيرة الخيرة ، على الدرب الطويل ، لحساب الانسان .

وصحيح أن خالد بن يزيد ، الذى فجر الاهتمام بالترجمة العربية ، لم يهتم أصلاً بالفكر الجغرافى فى أى يوم من الأيام ، وأن صيحته الكبرى كانت – بكل تأكيد – لحساب الفكر الانسانى بصفة عامة . ولكن الصحيح أيضًا ، أن الفكر الجغرافى الاسلامى كان على استعداد كامل ، للافادة من الترجمة وحسن استثمارها ، من أجل توجيه الحركة الفكرية الجغرافية ، فى الاتجاه الصحيح . ذلك أن خالد بن يزيد كان مقنعاً عندما أوضح قيمة دق ابواب المعرفة القديمة السابقة لظهور المسيحية ، وجدوى استطلاع صفحات الفكر المهجور ، وأهمية استكشاف حصاد هذا الفكر ، ومراجعة التراث الانسانى فى الفترة السابقة لظهور الاسلام من عمر الحياة . وهذا معناه أن النصف الأول من القرن الثامن الميلادى ، قد سجل أول علامة بارزة على الطريق ، التى تكشف أبعاد التطلع وطلب الاحاطة ، بالتراث الفكرى الانسانى قبل الاسلام ، من أجل مسيرة فكرية اسلامية متنورة ، تضيف إلى هذا التراث ، لكى تصححه ، أو لكى تثريه .

ومن بعد هذه الصيحة ، التى نبهت الأذهان إلى الترجمة ، ووضعت أول علامة مضيئة على الطريق ، تطلعًا إلى الهدف الأمثل من عملية

---

(١) جلال مظهر : المرجع السابق صفحات ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الترجمة ، غرس أبو جعفر المنصور ، الخليفة العباسى ، النواة الحقيقية، على هذه الطريق . وعلى عهد الخليفة الأعظم ، هارون الرشيد ، فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، بدأ العصر الذهبى لحركة الترجمة والنقل إلى العربية ، فى بيت الحكمة فى بغداد . ومن بيت الحكمة فى بغداد ، كانت نقطة التحول . وقد شهد هذا العصر الذهبى ، كيف تحول الأمل إلى حقيقة ، وكيف انتفع الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، بحصاد المعرفة الجغرافية ، التى أحتواها الرصيد اليونانى المهجور .

وفى الوقت الذى أدار فيه صاحب بيت الحكمة ، والأمين على الاجتهاد فيه عملية الترجمة إدارة ممتازة ، وألحق به أمهر وأشهر المترجمين والنساخين ، فعل الاغداق السخى والعطاء المغرى ، الذى كلف بيت مال المسلمين الكثير من الهبات والعطايا ، فعل السحر للشئ المثير. وقد تمثل هذا الشئ المثير فى ترجمات جيدة ، ونقل ممتاز إلى اللغة العربية كشف النقاب عن أبعاد وحقيقة التراث الفكرى الانسانى القديم ، بما فى ذلك الفكر الجغرافى المهجور . كما تمثل أيضًا ، فى اشباع نهم العلماء المسلمين ، وتطلعهم إلى استيعاب هذا التراث وتصحيحه والزيادة عليه .

وفى بداية القرن التاسع الميلادى ، أصبحت بغداد كعبة العلم والمعرفة ، ومقصد كل عالم ودارس وباحث عن المعرفة . كما أصبحت المكتبة العربية الاسلامية فيها ، عامرة بالكتب المترجمة إلى العربية . بل قل أنها احتوت آنذاك ، على أمهات الكتب الهامة المنقولة ، عن اليونانية والفارسية والهندية ، وغيرها من اللغات ، فى كل العلوم والفنون . وكانت الجغرافية – بكل تأكيد – من بين مجموعة العلوم ، التى نالت حصة مناسبة من الاهتمام . وقد ترجمت بعض أمهات الكتب الجغرافية اليونانية ، التى تسجل خلاصة جيدة للفكر الجغرافى القديم المهجور . وقد انتفع فريق من الجغرافيين المسلمين بهذه الترجمات ، وهو يطلب المعرفة والاستيعاب . كما انتفع هذا الفريق أيضاً بالاغداق السخى ، الذى أطلق عنان الاجتهاد ، وهو يتطلع إلى تسجيل الاضافة عن الواقع الحياتى ، فى المعروف من الأرض فى كل مكان ، أو الكشف عن الواقع الحياتى فى المعمور من الأرض فى أى مكان .

وصحيح أن التزام الدولة بالاغداق السخى على حركة الترجمة ، ونقل الكتب إلى العربية ، وعلى العلماء والباحثين ، كان فى مقابل التزام الصفوة المرموقة من العلماء باستيعاب العلم والمعرفة ، والعمل على التطوير والابداع . وصحيح أن ترجمة بعض امهات الكتب الجغرافية القديمة ، قد فتح شهية الباحثين عن المعرفة الجغرافية بالمكان ، والواقع الحياتى فى كل مكان . ولكن الصحيح أيضاً ، أن هذا الرصيد الثمين من الكتب الجغرافية المترجمة ، قد شد انتباه أو استقطب اهتمام أو استهوى فريق كبير من الدارسين والباحثين ، فتخصصوا فى الجغرافية . وهذا معناه أن هذا الرصيد من المعرفة الذى تفجر تأسيساً على حركة الترجمة ، قد أحيا فى النفوس شغفًا عربيًا قديماً قبل الاسلام بالمعرفة الجغرافية ، التى كانت تمثل حاجة نابعة من صميم الواقع الحياتى ، فى أحضان الجزيرة العربية (١) .

وهذا ومعناه – على كل حال – أن حركة الترجمة كانت حركة مفيدة إلى أبعد الحدود . ذلك أنها أكسبت الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، معرفة واضحة وصحيحة . عن جغرافية الماضى ، واجتهادات الذين سجلوا تراثها . كما أنها أكسبت الجغرافية أنصاراً من الباحثين المتحمسين للمعرفة الجغرافية ، والذين اجتهدوا ، وعملوا على تطوير وابداع واضافة مفيدة أثرت الفكر الجغرافى العربى الاسلامى . وفى اعتقادى أن هذه المكاسب كانت جوهرية ، لأنها حولت بعض الجغرافيين من مجرد هواة متطلعين ، إلى جغرافين محترفين ومتخصصين .

واضافة هذا الفريق المحترف من الباحثين والمجتهدين ، الذى يستهويه الفكر الجغرافى ، ويشد انتباهه وتفكيره ، علامة أخرى مهمة

---

(١) قبة السماء التى طالما شدت انتباه العربى فى الجزيرة ، لكى يتابع النجوم والأجرام ، أو لكى يستشعر صفات الطقس وما يطرأ عليه من تغير من يوم إلى يوم آخر ، كانت تفجر فيه الحاسة الجغرافية . بل ان المعرفة بالمراعى والبيئة الطبيعية ، كانت قد نمت فيهم الادراك والحس الجغرافى .
راجع نفيس أحمد : المرجع السابق صفحة ٢٥ .

على الطريق . ذلك أن هذه الاضافة تمثل زيادة فى كم ونوعية المكاسب ، التى حققتها الجغرافية العربية الاسلامية ، اعتباراً من القرن التاسع الميلادى . ومن شأن هذا الرصيد المكتسب ، من الجغرافين المسلمين المحترفين ، أن يمثل – فى تقديرى – شكلاً من أشكال الدعم غير المباشر ، للفكر الجغرافى العربى الاسلامى . ولماذا لا يكون دعمًا حقيقيًا غير مباشر ، وهم الذين أسهموا فى تحريك المسيرة وتطوير الحصاد وتسجيل الاضافات إلى الفكر الجغرافى العربى الاسلامى .

الفكر الجغرافى العربى الاسلامى :

من الطبيعى أن ننظر إلى الفكر الجغرافى نظرة موضوعية ، على اعتبار أن هذا الفكر كل لا يتجزأ . ومن الطبيعى أن نستشعر كيف تنتظم مسيرة الفكر الجغرافى ، لكى تتضمنها ثلاث حلقات متواليات ، الأولى يونانية مصرية ، والثانية عربية إسلامية ، والثالثة أوروبية حديثة . وعندما نتابع ريادة الجغرافيين المسلمين لمسيرة الفكر الجغرافى ، على مدى أكثر من خمسة قرون من عمر الحياة ، نتبين أنهم كانوا بنائين ، لأنهم أضافوا وأبدعوا وأسهموا فى تحريك المسيرة إلى الأمام ، وكانوا أمناء ، لأنهم افلحوا فى الربط والمحافظة على الجسور التى تربط بين الفكر الجغرافى الصحيح القديم ، والفكر الأوروبى الحديث .

هذا ، وعندما نتابع ريادة الجغرافيين المسلمين ، لمسيرة الفكر الجغرافى الصحيح ، ينبغى أن نستشعر كيف تولى المسلمون أمر الفكر الجغرافى بعد بعث الفكر اليونانى من رقدة العدم . كما ينبغى أن نلتزم فى هذه المتابعة بالاحاطة بدور الجغرافيين المسلمين ، فى اطار مرحلتين متكاملتين ، هما مرحلة الاحياء ، ومرحلة النضج والتطوير . ومن المفيد أن نتابع الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، فى كل مرحلة من هاتين المرحلتين على انفراد . ومن غير اخلال بالتكامل أو التداخل بين هاتين المرحلتين ، يجب أن نتبين كنه وماهية الاجتهاد فى كل مرحلة ، وأن نتبين أيضًا كنه وماهية جسن الانتقال والتطوير من مرحلة الاحياء ، إلى مرحلة النضج .

مرحلة احياء الفكر الجغرافي :

تأسيساً على الدعم الحافز المادي والمعنوي ، الذي التزمت به الدولة الاسلامية ، وقدمته من خلال بعض القيادات الرشيدة ، إلى الفكر الجغرافي العربي الاسلامي ، بدأت مرحلة احياء الفكر الجغرافي ، في أواخر القرن الثامن الميلادي ، واحياء الفكر الجغرافي — في تصوري — معناه ، انعاش هذا الفكر بعد أن طاردته الكنيسة ، ولم تسمح إلا للنمط الساذج فقط ، الذي استسلم لأوهامها الغريبة والجاهلة ، ومعناه أيضاً ، اعادة الفكر الجغرافي إلى صوابه ، بعد أن انحرف عن الخط الصحيح ، ومعناه مرة ثالثة ، الأخذ بزمام الفكر الجغرافي ، وقيادته في الاتجاه الصحيح .

هذا وقد شهدت هذه المرحلة ، الجغرافيين المسلمين ، هم يعكفون على ترجمات الكتب الجغرافية الجيدة ، ويتفرغون لاستيعاب الفكر اليوناني المهجور ، ثم شهدتهم مرة أخرى ، وهم ينصبون للكتابة الجغرافية ، ويدلون بدلوهم في الاضافة إلى الفكر الجغرافي ، بل أن هذا الجيل من الجغرافيين المسلمين ، أصبح رائداً المفضل ، عندما وضع أساس المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية ، وصحيح أن هذه المرحلة كانت قصيرة ، ولم تستغرق أكثر من حوالي قرن ونصف من الزمان ، ولكن الصحيح أيضاً ، أنها حددت معالم الطريق — بكل الوضوح ، ومهدت تمهيداً حقيقياً للتطور والاضافة والتجويد ، في مرحلة النضج .

ومن أجل التعرف على اجتهاد الصفوة من الجغرافيين المسلمين في هذه المرحلة ، ومن أجل الاحاطة بحصاد الفكر الجغرافي ، وكيف مهد للانطلاقة الكبيرة ، التي سجلتها الجغرافية في مرحلة النضج ، ينبغي أن نناقش مسألتين جوهريتين ، وهاتان المسألتان الجوهريتان في صميم الفكر الجغرافي هما :

أولاً : مسألة الكتابة الجغرافية ، والتسجيل الجغرافي في كافة فروع الجغرافية .

ثانياً : مسألة خط سير مسيرة الفكر الجغرافي ، وقيادة الجغرافيين المسلمين لها .

وصحيح أن كل مسألة من هاتين المسألتين ، تمثل وجهاً من وجهى قضية واحدة . وصحيح أن هناك أكثر من علاقة عضوية بين هاتين المسألتين ، لا يجب أن ننكرها ، ولا ينبغى أن نتنكر لها . ولكن الصحيح أيضًا ، أن كل مسألة من هاتين المسألتين ، تستحق الدراسة – بكل العمق – وصولاً إلى الموضوعية والتركيز ووضوح الرؤية ، التى تحدد أبعاد وماهية وجدوى هذه العلاقة ، فى مجال تسجيل الاضافات ، إلى الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، بصفة عامة .

الكتابة الجغرافية :

مسألة الكتابة الجغرافية ، لا نقصد منها مجرد تصوير ، كيف اصبحت اللغة العربية وسيلة التعبير والتسجيل ، أو كيف أبدع الجغرافيون المسلمون بعض الاصطلاحات الفنية الجغرافية ، نحتًا واشتقاقاً من الألفاظ والكلمات والأفعال العربية . بل ولا نريد أيضاً ، أن نصور كيف استعرب وكتب باللغة العربية ، فريق كبير من الجغرافيين المسلمين من غير العرب . ولكن الذى نرمى إليه بالفعل ، هو تصوير حصافة الجغرافى المسلم ، وهو يكتب الجغرافية . لكى يصور الظاهرة الجغرافية موضوع الدراسة والاهتمام . كما نرمى إلى تصوير حصافة التحول فى الكتابة الجغرافية ، من دائرة ضيقة مغلقة ، تحتوى جزيرة العرب ، إلى دائرة أوسع غير محدودة ، تحتوى على أقطار العالم الاسلامى ، وبعض الأرض فيما وراء العالم الاسلامى ، على الصعيد الآسيوى الأفريقى والأوروبى . كما نرمى مرة ثالثة إلى تصوير عمق التحول من الكتابة الضحلة السطحية ، إلى الكتابة العميقة الهادفة .

ومن خلال المقارنة الموضوعية السريعة بين ، كتابات جغرافية سجلت فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومنها ما كتبه أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، وأبو حنيفة الدينورى ، وكتابات جغرافية أخرى ، سجلت فى بداية القرن الرابع الهجرى ، ومنها ما كتبه ابن خرداذبة ، وقدامة بن جعفر ، ينبغى أن نتبين أو أن نستشعر – حقيقة – أبعاد ومعنى ونتائج هذا التحول . وهذا معناه – على كل حال – أن التحول يمثل انطلاقة حقيقة بناءة ومفيدة ، لأنها وسعت – على أقل

ـــدير – دائرة المعرفة الجغرافية ، وهي تعرف بالأرض . ومعروف أن كتابات القرن الثالث الهجرى فى الجغرافية ، قد انحصرت –فى الغالب– فى شبه جزيرة العرب . ولم تخرج عنها كثيراً . أما كتابات القرن الرابع الهجرى ، فقد حلقت وتوسعت ، فى آفاق العالم الاسلامى .

وصحيح أن حركة الترجمة والنقل إلى اللغة العربية ، التى وضعت خلاصة الفكر الجغرافى القديم المهجور ، بين يدى الجغرافيين المسلمين، قد وسعت دائرة الرؤية الجغرافية ، وأسعفت هذا التحول المفيد ، وفتحت الباب للانطلاقة الحرة ، فى آفاق رحبة على مستوى المعروف من الأرض ، وحفزت التطلع إلى الكشف عن المعمور من الأرض. ولكن الصحيح أيضاً ، أن الرحلة أو السفرة فى أنحاء الأرض فى العالم الاسلامى ، أو فيما وراء العالم الاسلامى ، قد ألهمت هذا التحول ، وزودته بالمعرفة الجغرافية ، الطازجة، ووجهت الكشف الجغرافى فى الاتجاه السليم . وهذا معناه – على كل حال – أن الكتابة الجغرافية ، وجدت أكثر من معين ثرى ، تتزود منه بالمعلومات عن الأقطار والأمصار . ومعناه أيضًا ، أن الجغرافيين المسلمين لم يعتمدوا على مجرد النقل والمحاكاة ، بل بدأ الاجتهاد الشخصى ، بعد أن حققت لهم الرحلة فرصة الدراسة الميدانية فى المكان ، ومعايشة واستشعار خصائصه الطبيعية والبشرية .

وفى هذه المرحلة الأولية ، التى سجلت الاجتهاد الاسلامى ، وهو يعيد الفكر الجغرافى إلى صوابه ، نذكر كيف أسعف الرحلة بعض الجغرافيين المسلمين ، وهم يكتبون بقصد أحياناً ، أو من غير قصد أحياناً أخرى . بل ينبغى أن نتبين كيف كانت الرحلة ، بشكل أو بآخر ، فى خدمة الفكر الجغرافى المتفتح على العالم الاسلامى ، والانفتاح على معرفة الواقع الطبيعي والبشرى فى أنحائه الواسعة . وسواء كانت الرحلة (١) ، رحلة اقتصادية من أجل لتجارة ، أو رحلة روحية من أجل

---

(١) من رحلات السفارة الرسمية ، نذكر رحلة ابن فضلان فى القرن الرابع الهجرى ، الذى أوفده الخليفة العباسى إلى بلغاريا . وقد دون ابن فضلان مشاهداته ، لكى ينتفع بها بعد ذلك ياقوت والمسعوى والاصطخرى . راجع ، زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى سنة ١٩٤٥ صفحة ٣٦ وما بعدها .

الحج ، أو رحلة علمية من أجل طلب العلم ، أو رحلة رسمية من أجل مصالح الدولة (١) فإنها قدمت المعرفة وفتحت العيون ، على كثير من الأقطار ، التي مرت بها . وكان من شأن المسافر أو الرحالة ، أن يجد نفسه وجه لوجه ، مع الواقع الجغرافي - بكل أبعاده - في المكان ، وأن يعايش ويستشعر خصائص المكان وحياة الناس فيه .

وينبغي أن نذكر كيف كانت الرحلة على الطريق ، من بلد إلى آخر، تتحرك متأنية وترصد الطريق لحساب المعرفة الجغرافية . بل ربما كانت الرحلة أحياناً كثيرة أكثر من متأنية ، عندما يجد المسافر حاجة تدعو ، إلى الاقامة لبعض الوقت في البلدان التي يمر بها ، لكي يتكسب قوته من عمل يديه ؛ أو يروج بضاعته ، أو لكي يجالس العلماء . وهذا معناه أن الرحلة حققت أشكالاً من التعامل والتعايش والاختلاط بالناس، وجمعت التفاصيل الكثيرة من الأرض والناس ، التي أثرت الكتابة الجغرافية الوصفية عن الأقطار والأمصار . كما أنها عصمت الكتابة الجغرافية الوصفية ، من التردي في خلط الواقع بالخيال ، ومزج الحقائق بالأكاذيب ، ومن الاستطراد في ذكر الغرائب وتضخيم العجائب ، إلى حد يطمس الواقع الجغرافي ويخفي ملاحمه .

هذا ، وعندما نراجع رصيد هذه المرحلة من الكتابة الجغرافية بصفة عامة ، نتبين أنه يجمع بين الكتابة الجغرافية الوصفية ، والكتابة الجغرافية الفلكية الرياضية . وصحيح أننا قد نجد الخلط الشديد، بين الكتابة الوصفية ، والكتابة الفلكية في بعض الكتب الجغرافية . وصحيح أن هذا الخلط يعني افتقاد التخصص والكتابة المتخصصة . ولكن الصحيح أيضاً ، أن هذا الخلط علامة على الاجتهاد، الذي يفتقد الضابط الحاكم لنتائجه وثمراته . ذلك أن الجغرافيين المسلمين - في الغالب -

---

(١) لم تكن هناك رحلة للرحلة ، أو هيئة تنظيم الرحلة وتمولها . بمعنى أن الرحلة كانت اجتهاداً شخصيًا . ومن ثم كانت بالضرورة هادفة . وإلى جانب الهدف الأصلي الذي تكون من أجله الرحلة ، تنشأ أهداف ثانوية أو أهداف جانبية . ومن هذه الأهداف الجانبية ، الرؤية الجغرافية للمكان ، أو الرؤية الجغرافية التاريخية المختلطة ، أو الاسهام في نشر الاسلام وابلاغ دعوته إلى الناس .

قد دفعهم الفضول الشديد ، إلى الجمع بين تطلع ونهم إلى معرفة الأرض من حولهم فى اطار الاحساس الصادق بوحدة الأرض ووحدة الناس على الأرض فى جانب ، وتطلع ونهم إلى معرفة مكان الأرض ومكانتها فى اطار الكون فى جانب آخر ، فى وقت واحد . من الجائز أن هذا الجيل الأول من الجغرافيين المسلمين قد تأثروا بجغرافية الماضى . ولكن المؤكد أن التخصص لم يكن قد اتضحت معالمه ، وأن الضابط أو الضوابط التى تحكم هذا التخصص ، لم تكن قد تبلورت بعد .

ويحلو لبعض الكتاب بحسن نية أحياناً ، وبسوء نية أحياناً أخرى ، ذكر هذه الزمرة من الجغرافيين المسلمين فى هذه المرحلة الأولية (١) – على أنهم أبناء غير شرعيين للمدرسة الجغرافية اليونانية ، وأنهم حريصون على ترديد أفكار هذه المدرسة . وهذا القول مرفوض أولاً ، ومردود عليه ثانياً . واسقاط هذا القول ورفضه ، يدعو إلى الاشارة إلى أن ترجمة كتابى بطليموس القلوذى الاسكندرانى ، وهما ، جغرافية بطليموس والمجسطى ، قد اطلع الجغرافيين المسلمين – بكل تأكيد – على حصاد الفكر الجغرافى اليونانى المهجور (٢) ، وأثر هذا الاطلاع – من غير شك – على فكرهم (٣) وكتاباتهم . ولكن الصحيح أن الانتفاع

---

(١) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب . بيروت سنة ١٩٦٢ .

(٢) كتاب المجسطى كتاب جامع وممتاز . لبطليموس القلوذى الاسكندرانى . ويسجل بطليموس فى هذا الكتاب ذروة ما بلغه الفكر اليونانى عن كوكب الأرض . ويضم دراسات موضوعية عن شكل الأرض ، وعن كرويتها ، عن اختلاف عروض البلدان . كما يضم فيضاً غزيراً عن حركة الشمس ، وأوقات نزولهما فى نقطتىّ الاعتدال ، ونقطتىّ الانقلاب ، وغير ذلك من أبواب المعرفة عن الجغرافيا الفلكية والرياضية .
راجع د. شريف محمد شريف : المرجع السابق .

(٣) هناك روايتان بشأن ترجمة المجسطى فى القرن الثالث الهجرى . وتنسب الرواية الأولى إلى الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب . وتنسب الرواية الثانية الترجمة إلى سهل بن ربان الطبرى ، وإلى الحجاج بن يوسف مراجعة هذه الترجمة . وقيل أن حنين بن اسحق ، قد راجع بنفسه الترجمة فى أول مرة ، ثم راجعها من بعده ثابت بن قرة مرة ثانية ، ثم محمد ابن جابر بن سنان مرة ثالثة .
راجع نفيس أحمد : المرجع السابق ، صفحة ٢٦ .

بهذه الاضافات الجيدة . لا يجوز أن يحرم هذه الزمرة المجتهدة منهم ، من ثمرات اجتهادهم الخاص . وهي تتصدى للكتابة الجغرافية عن وصف الأقاليم ، أو وهي تسجل الحقائق عن بعض الجوانب الفلكية عن الأرض . ولا يعيب الكتابة الجغرافية – في تصوري – أبداً ، الاعتماد على أفكار وحقائق مأخوذة من جغرافية الماضي بشرط توثيقها ، واضافة أفكار جديدة حققها الاجتهاد الشخصي ، من خلال الدراسة الميدانية أو التجربة الذاتية . بل أقول وهل نفعل الآن غير ذلك ؟

وفي الجغرافية الوصفية ، نسجل كتابات الجغرافيين المسلمين عن الأقطار والأمصار ، في هذه المرحلة ، بعض الاضافات الجيدة ، التي تشبع مطالب المعرفة الجغرافية . وهذه الاضافات الجيدة ، هي حصاد الاجتهاد ، وثمرة الرحلة وتقصي الحقائق ، في تلك الأقاليم . وفي بعض الأحيان تكون هذه الاضافات ، من خلال المعاينة والمشاهدة في أثناء الرحلة الشخصية ، انطباعاً صادقاً ومفيداً . وفي بعض الأحيان الأخرى، تكون هذه الاضافات ، من خلال الاستماع إلى رواية واحد أو أكثر ، من أولئك الذين زاروا في رحلاتهم هذه الأقاليم ، تصويراً جيداً ومثمراً .

وصحيح أن هذه الاضافات ، قد جمعت في الكتابة الجغرافية الوصفية بين الغث والثمين ، وخلطت بين المهم وغير المهم من وجهة نظرنا . صحيح أن الكتابة الجغرافية الوصفية ، لم تحافظ على التوازن ، بين الحديث عن الأرض والناس ، وعن التفاعل الحيوي بين الناس والأرض في الأقاليم . ولكن الصحيح أيضاً ، أن هذه الرؤية الجغرافية ، التي حققتها هذه الاضافات في القرن التاسع الميلادي ، لا ينبغي أن نقومها أو أن نحكم عليها ، بمنطق ومقاييس القرن العشرين الميلادي . بمعنى أنه يجب أن نتقبل هذه الرؤية الجغرافية ، على أساس أنها تصور شكلاً من أشكال الاجتهاد المشكور ، وأنها تعطي أفضل صورة جغرافية ، بمقاييس ذلك الوقت . بل ويجب أن نتقبل الخلط بين الجغرافية والتاريخ ، أو الاستطراد إلى تفاصيل كثيرة ، على أساس أن التخصص الدقيق لم تكن أصوله قد وضعت واتفق عليها بعد .

وفي الجغرافية الفلكية أو الرياضية ، تسجل الكتابة عن الأرض

وشكل الأرض ووضع الأرض فى الكون . ولا يقف الأمر عند حد الأخذ أو النقل المباشر من فكر وكتابات بطليموس الاسكندرانى . وقد نجد عند ابن رستة ، فى كتابه الاعلاق النفسية ، أكثر من علامة على هذا الاجتهاد الشخصى والاضافة (١) . وصحيح أن الأثر اليونانى يمكن أن نتعقبه – بكل الوضوح – فى هذا الكتاب عن الجغرافية الفلكية . وصحيح أن الأثر اليونانى يعنى الافادة بما ورد فى الترجمات ، التى اطلع عليها . ولكن الصحيح أيضًا ، أن تعقب الأثر اليونانى لا يخفى كيف اجتهد ابن رستة ، وكيف أورد من صميم اجتهاده ، تفسيراً خاصاً ، عن كروية الأرض . وهذا التفسير – بكل تأكيد – تفسير مستقل ومختلف تماماً ، عن التفسير العتيق ، الذى أوردته الاجتهادات اليونانية فى الفكر الجغرافى القديم (٢) .

وهذا معناه – من غير تحيز – أنه لا ينبغى أن ننكر جهد زمرة من الجغرافيين المسلمين ، أو أن نتنكر لاجتهاد المجتهدين منهم ، فى هذه المرحلة المعاصرة لحركة الترجمة . وصحيح أن الترجمة الجيدة الأمينة ، قد بصرت بعض الجغرافين المسلمين فى أداء دورهم ، وفى تجسيد اجتهاداتهم ، لحساب الفكر الجغرافى العربى الاسلامى . ولكن الصحيح أيضًا ، أن الترجمة ، لم تحرم أى جغرافى مسلم من حسن استخدام البيانات ، التى وفرتها الرحلات إلى الأقطار والأمصار ، فى كتابه وتسجيل الجغرافية الوصفية ، أو من حسن استخدام الأساليب الرياضية المتطورة ، فى كتابة الجغرافية الرياضية والفلكية .

---

(١) ابن رستة ، هو أبو على أحمد بن عمر ، صاحب كتاب الاعلاق النفسية ، وهذا الكتاب كبير يضم تسعة مجلدات . وقد حقق دى جويه هذا الكتاب ونشره ضمن منشورات المكتبة الجغرافية .

(٢) يذكر الدكتور حسين مؤنس فى بحث قيم عن الجغرافية والجغرافيين المسلمين فى الأندلس ، أن ابن رستة ، كان مستقلاً برأيه ، عندما صور باجتهاد شخصى ، تفسيراً عن كروية الأرض . ولم يلتزم ابن رستة اطلاقًا بالرأى اليونانى القديم .

راجع د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس . صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلدان ٦ ، ٨ سنة ١٩٥٩ – ١٩٦٠ .

وهذا معناه مرة أخرى – من غير تجنى – أنه ينبغى أن نستشعر جدوى الاجتهاد الشخصى ، الذى حققه الجغرافيون المسلمون ، من خلال الدراسة الجادة الموضوعية . ومن شأن هذا الاجتهاد ، أن يتمثل فى :

أولاً : اعادة الفكر الجغرافى القديم إلى صوابه ، وانتشاله من الضياع ، وتحريكه فى الاتجاه الصحيح .

ثانيًا : اقامة الجسور القوية من أجل الترابط والتكامل الموضوعى، بين الفكر الجغرافى القديم المهجور بدون وجه حق ، والفكر الجغرافى العربى الاسلامى المتفتح على الحق .

ثالثًا : التمهيد والاعداد للتطور والابداع ، الذى شهدته مرحلة النضج وتسجل الاضافات إلى الرصيد الجغرافى .

وفى اعتقادى – على كل حال – أن هناك فرق كبير – بكل تأكيد – بين ، أن يتأثر الجغرافيون المسلمون فى هذه المرحلة ، بالفكر الجغرافى اليونانى القديم ، وأن ينقل الجغرافيون المسملون ، عن هذا الفكر نقلاً حرفيًا أو مباشراً . والنقل الحرفى والصريح ، عن الفكر الجغرافى اليونانى القديم أمر مرفوض ، لأنه ينفى الاجتهاد من أساسه. بل انه يسقط الجغرافيون المسلمين من زمرة القادرين على الابداع والاضافة والتجديد والتطوير ، وصولاً بالفكر الجغرافى العربى الاسلامى إلى ما هو أفضل . أما قبول الجغرافيين المسلمين بالتأثير اليونانى ، فهذا أمر مقبول بكل تأكيد ، لأنه علامة على الانفتاح والتفتح. بل أنه يمثل الدليل على أن الجغرافيين المسلمين قد أحسنوا استطلاع جغرافية الماضى ، وأتقنوا استيعاب جوهر الفكر الجغرافى اليونانى القديم ، لكى تكون من جانبهم الاجتهادات الذاتية ، التى تضيف الاضافات الأنسب إلى البناء الفكرى الجغرافى ، لحساب المسيرة الفكرية المتكاملة (١) .

---

(١) عبقرية الجغرافيين المسلمين ، والمنافسة الحامية فيما بينهم فى أقاليم الدولة الاسلامية التى ينتمون إليها ، تؤكد على أنهم طلبوا النجاح والتوفيق ، فى =

وحتى نكون منصفين وموضوعيين فى وقت واحد ، يجب أن نؤكد – بكل الثقة – على أن المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية المتأثرة بالفكر الجغرافى اليونانى ، قد وجهت مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه الصحيح ، وقدمت إلى المعرفة الجغرافية اجتهاداً مفيداً ، يخدم التطور والتجديد . بل لقد سجلت الصفوة الممتازة من رجال هذه المدرسة ، فى القرن الثالث الهجرى أو نصفه الأخير بالذات ، مسئولية الاسلام الدولة ، عن تقديم الدعم الحافز المادى والمعنوى ، من أجل تحريك وقيادة وحسن توجيه المسيرة الفكرية الجغرافية المتطورة . كما فتحت باب الاجتهاد على مصراعيه ، ومهدت لانطلاقة الفكر الجغرافى العربى المتطور ، فى المرحلة التالية ، وهى مرحلة النضج الفكرى والانتاج الجغرافى الناضج .

هذا ، وتصور كل الأبحاث والدراسات الموضوعية المنصفة ، عن الجغرافيين المسلمين ، جدوى الكتابات والتآليف الجغرافى العربى الاسلامى فى هذه المرحلة ، وجديتها لحساب المعرفة الجغرافية. ونذكر عندئذ ، كيف تجاويت هذه الكتابات والمؤلفات الجغرافية ، فى هذه المرحلة تجاوباً حقيقياً مع حاجة العصر ، فى اطار التطلع الباحث عن :

١– المعرفة الجغرافية بالأقطار والأمصار على أوسع مدى .

٢– المعرفة الجغرافية بوضع الأرض فى الكون الفسيح .

ومن ثم كان الحصاد مؤلفًا من كتب جغرافية مفيدة فى الجغرافية الوصفية ، وكتب جغرافية مفيدة فى الجغرافية الفلكية . هذا بالاضافة إلى الاجتهاد الحقيقى فى تجهيز واعداد الخرائط ، وحسن استخدامها وبيان وتسجيل بعض المعلومات والبيانات المتنوعة عليها .

ومن خلال مراجعة بعض هذه الكتب الجغرافية المتنوعة ، قد نلمح فيها التأثير اليونانى ، وهو أمر غير مرفوض . ولكن الأهم من ذلك ،

= تطوير الفكر الجغرافى الاسلامى . بل أنهم لم يتشبثوا أبداً بالدوران فى فلك الفكر الجغرافى اليونانى .
راجع نفيس أحمد : المرجع السابق صفحة ٢٦ و٣٦ .

هو أن نتبين فى بعض هذه الكتب ، اتجاه ذكى باحث ، عن التفسير الكاشف والمقنع ، عن بعض الظاهرات الجوهرية ، موضع الدراسة والكتابة والتسجيل . ومن خلال مراجعة الخرائط الجغرافية العربية الاسلامية من نتاج هذه المرحلة ، قد نلمح أيضًا التأثير اليونانى وهو أمر غير مرفوض . ولكن الأهم من ذلك هو أن نتبين التصحيح الواضح، الذى يتجنب بعض الأخطاء الصارخة ، فى الخرائط اليونانية القديمة . ومثل هذه الملاحظات التى تصور معنى الاجتهاد الشخصى ، من أهم العلامات المفيدة ، التى تبشر بالتطور والتجديد والاضافة من ناحية ، وتنفى الانسياق الأعمى ، وراء الفكر الجغرافى اليونانى القديم نفياً قاطعاً من ناحية أخرى .

وهكذا ، نستشعر كيف ظهرت فى الكتابة الجغرافية العربية الاسلامية النزعة التى تنبئ ، بالتحول من الكتابة التسجيلية التى تلتقط الصور الجغرافية ، وتعبر عنها وتعرضها عرضًا صامتًا تفتقد فيه الحيوية ، إلى الكتابة التحليلية التى تلتقط الصور ، وتبث فيها النبض الحيوى ، وهى تبحث عن العمق وتتلمس التفسير ، الذى يكمن فيها وراء هذه الصور ، لكى تصورها تصويراً مجسداً . وصحيح أن هذا التحول الذكى البارع ، لم يكتمل ويتخذ الشكل الواضح فى هذه المرحلة الأولية . ولكن الصحيح أيضًا ، هو أن هذا الاجتهاد قد فتح الباب على مصراعيه على أمل ، أن تكتمل مظاهر التحول إلى الكتابة التحليلية فى كتابات المرحلة التالية ، التى شهدت النضج الفكرى الجغرافى العربى ، فى وقت لاحق .

ومن الجائز أن نتبين فى كتابة الجغرافى المسلم ، كيف يجنح وهو يبحث عن التفسير إلى ما شأنه أن يخلط بين الحقيقة والخيال ، على غير ارادته . وقد يتشبث التفسير أحياناً بشئ غير معقول أو غير منطقى من وجهة النظر الموضوعية . ولكن الذى لا شك فيه ، هو أن البحث عن التفسير – فى حد ذاته – خطوة سليمة ، وادراك واقعى فى الاتجاه الصحيح . بل ومن شأن هذا الاتجاه الذى يجاوب البحث عن كنه الحقائق ، ويرضى تطلع الانسان إلى المعرفة وتعليلها ، أن يوجه مسيرة

الفكر الجغرافى فى ظل الريادة العربية الاسلامية ، إلى الوضع الذى ينبئ بالتطور البناء . بمعنى أن الكتابة الجغرافية ، تحاول التخلص من السرد المجرد وجموده ، وتجتهد من أجل تجسيد حيوية الظاهرات موضع الدراسة والبحث .

وفى اعتقادى – على كل حال – أن هذا الاتجاه الباحث عن التفسير، يمثل اتجاهاً محموداً من وجهة النظر العلمية . وهو فى – الأصل والجوهر – جزء من حصاد الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، قبل أن يلتقط الأوروبيون أطراف الخيوط من الجغرافيين المسلمين ، ويتولون أمر مسيرة الفكر الجغرافى ، فى عصر النهضة الأوروبية بوقت طويل. وهذا معناه أن بعض الصفوة من الجغرافيين المسلمين – على الأقل – قد فجروا مبدأ السببية ، ووضعوا قاعدة البحث عن التفسير المقنع الواضح والموضوعى ، لأى ظاهرة جغرافية موضع الدراسة ، قبل أن يتبنى الأوروبيون هذه القاعد الجوهرية ، وينسبوها إلى اجتهاداتهم الفلسفية ، بحوالى خمسة أو ستة قرون كاملة .

وهكذا ، حاول الاجتهاد العربى الاسلامى ، أن يضع الكتابة والتسجيل الجغرافى فى وضع أفضل . وقد تجلت بعض المحاولات ، التى توخت الجمع بين التوسع الأفقى للمعرفة الجغرافية من خلال الرحلة أو التقويم العلمى ، وما تجنيه من ثمرات مفيدة ، لحساب الكشف والتفسير الجغرافى ، والتعميق الرأسى ، من خلال التدبر والتأمل ، وما يكفله البحث العميق من ثمرات مفيدة ، لحساب الفكر الجغرافى الصحيح .

المسيرة الفكرية الجغرافية :

تمثل مسألة المسيرة الفكرية الجغرافية ، الوجه الآخر من قضية الفكر الجغرافى العربى ، فى المرحلة الأولية ، التى شهدت الاجتهاد العربى الاسلامى ، لاحياء وتطوير هذا الفكر . ومسألة المسيرة الفكرية، فى أحضان الجغرافيين المسلمين ، قد تدعو أولاً – وقبل أى شئ – إلى اثارة موضوع الخلط بحسن نية والتدخل العفوى ، بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى . ومعلوم أن قطاع الجغرافية الوصفية ،

يكشف أو يصـــور ، كيف يكون الخلط والتداخل أمراً عادياً ، وإلى الحد الذى يجـعل من الكاتب ، جـغـرافـيًا ومـؤرخـًا ، فى قت واحد . بل قـد يتـمـادى الخلط ، ويـضـيف إلى الوصـف الجـغـرافى والوصـف التـاريخى معلومات متنوعة كثيرة ، لا ينبغى أن تكون فى اطار أى منهما .

وصـحيح أن الجغرافى يلتزم أصلاً بدراسة المكان وخصائص المكان وحياة الانسـان فى المكان ، وأن المؤرخ يلتـزم بدراسـة مـسـيرة الأحداث التى تسـجلها قصـة الحياة فى المكان . وصـحيح أن هناك فرق جـوهرى ومـوضـوعى ، بين اسـتطلاع الواقع فى المكان ، وهى مهـمـة الجـغـرافى ، واستطـلاع أحداث الزمان الذى يـطوى صفحات الحياة فى نفس المكان ، وهى مهمة المؤرخ . وصحيح أننا بمقاييس العصر الذى نعيش فيه الآن ، نميز تمييـزاً كلياً ، بين مهمة الجغـرافى ، وهو يستطلع الواقع فى المكان فى الزمن المعـين ، ومـهـمـة المؤرخ ، وهـو يسـتطلع الماضـى الذى يسـجله مـروراً فى الزمان والمكان . ولكن الصـحيح أن هذا التمـييـز (١) ، فى ذلك الوقت الذى خـلط فـيـه الصــفـوة من علمـاء المسـلمين بين الجـغـرافـيـا والتاريخ ، كان بكل تأكيد أمراً صعباً .

وهكذا ، لا يمثل هذا الخلط أو التداخل بين مسـيرة الفكر الجغرافى ومسيرة الفكر التاريخى شيئـًا خطيراً ، ينبئ بالخلل أو عدم الموضـوعية ، لدى الكتـابة والتـسـجـيل . بل أن الخلط والتـداخل فى تلك الوقت ، هو مـسـألة أسلوب أو نمـط سـائد ، يمليه منطق الاسـتطـراد وتداعى الأفكار والمعــانـى . وكــان من شــأن هذا الاســتطـراد ، أن يربط بـين اهتــمــام الجغـرافى بالمكان والتفاعل الحيـاتى فيه ، فى الزمن المعين ، وهذا معناه أن مـسـألة الخلط لا تمثل بدعـة ، فى مـسـيـرة الزمـان . وهذا مـعناه أن مسـألة الخلط لا تمثل بدعة ، ابتداعهـا المفكرون والكتاب المسـلمـون ، بل أنهـا وليدة نمـط فكرى جرى مـجـرى العرف السـائد عليـه ، لدى الكتـابة عن جغرافية المكان ، أو تاريخ المكان .

---

(١) التمـيز بين الجغـرافية والتـاريخ والفصل بينهمـا ، أمر مـسـتحـدث منذ حوالى ثلاثة قرون فقط . وقد تأتى هذا التمييـز تأسيساً على اتفاق بنى على تخـصص واضح صـريح ورؤية سليمـة ، تضع - بكل الحنكة - الفاصل بين اسـتشـعار عامل المكان ، واستشعار عامل الزمان .

هذا ، ولا ينبغي أن نتصور أن التأثر بالفكر اليوناني ، الذي خلط بين الجغرافية والتاريخ ، قد أصاب الصفوة من علماء المسلمين بعدوى النمط الفكري ، فساروا على نفس الدرب . بل يجب أن نتذكر كيف أن ما جرى عليه العرف عند العرب ، من حيث متابعة الأنساب ، التي تصور شغفهم بملاحقة الحياة وحكاية الحياة ، على درب الزمان ، كان من شأنه أن يلح على الفكر العربي ، وهو يستطلع الواقع الحياتي في المكان ، وينغمس في الخلط بين الجغرافية والتاريخ . بمعنى أن الأصل في الفكر والكتابة الجغرافية ، أن يصور الكاتب الواقع الحياتي في المكان، لكي تجد في هذا التصوير وصفًا جغرافيًا للمكان . ولكن لا يلبث الاستطراد أن يدع الكاتب إلى ملاحقة الواقع الحياتي في الزمان ، لكي تتسلل إلى التصوير الجغرافي ، حكاية ووصفاً لتاريخ الحياة في المكان . وقد يحدث العكس تماماً ، ويتحول الكاتب من التصوير التاريخي في المكان، إلى الوصف الجغرافي ، في نفس المكان .

ويكون الاستطراد مرة أخرى من وراء تسلل بعض المعلومات ، التي تلفت انتباه الكاتب ، ويستهويه ذكرها ، في موضع يحس أنه الأنسب ، في العرض الذي يخلط بين الجغرافية والتاريخ . ومن الجائز أن تكون هذه المعلومات والبيانات مفيدة في حد ذاتها ، ولكن المؤكد أنها تشوه الفكرة الجغرافية أو الفكرة التاريخية ، التي ينبغي التركيز عليها . وقد يبدو الاستطراد عند بعض الكتاب ملحًا ، إلى الحد الذي يضيع فيه معالم الموضوع ، أو الذي تفتقد فيه الكتابة سياق العرض الموضوعي الرتيب .

وصحيح أن الاستطراد من هذا النوع ، يحول الخلط إلى شكل من أشكال الخلل في الكتابة ، ويفقدها جديتها وجدواها الموضوعية . ولكن هل صحيح أيضًا أن الاستطراد الذي يتسبب في الخلط بين الجغرافيا والتاريخ ، يمثل عيبًا فكرياً ، أو عجزاً في استشعار الحد الفاصل بين ، عامل المكان الذي يصور الواقع الحياتي في الوقت المعين ، وعامل الزمان الذي يصور سياق الواقع الحياتي ورتابة أحداثه مع مرور الوقت ؟

وعندما نتحسس الخلط الذي تحتويه الكتب والمؤلفات ، التي قدمها

المفكرون المسلمون ، إلى الكتابة العربية الاسلامية ، نجده واضحاً ، فى الكتب الوصفية عن أقطار وأمصار العالم الاسلامى ، ونفقده فى الكتابة الفلكية ، التى تعالج شكل الأرض وأوضاعها الفلكية . هذا معناه أن الخلط والداخل بين الجغرافية والتاريخ ، لا يتأتى إلا فى حالة الكتابة الوصفية فقط ، حيث يحدث الاستطراد من جغرافية المكان إلى تاريخ المكان أحياناً، ومن تاريخ المكان إلى جغرافية المكان أحياناً أخرى .

وفى اعتقادى – على كل حال – أنه فى تلك الوقت الذى زاد النهم فيه على طلب المعرفة عن الأقطار والأمصار ، انكبت الكتابة على الوصف المجرد ، تجاوباً مع هذا النهم - وعندئذ يكون الخلط بين التسجيل والوصف الجغرافى والتسجيل والوصف التاريخى أمراً متوقعًا . وهو خلط يعيب الكتابة ، ولكنه لا يمثل عيبًا فى الفكر نفسه ، ولا يعبر عن عجز فى رؤية أو استشعار الحد الفاصل بين الجغرافى والتاريخ . وبمعنى أوضح لا يجب أن نعتبر هذا الخلط عيباً فكرياً حقيقيًا ، إلا بعد انسلاخ الجغرافية عن التاريخ ، واستغراق كل منهما فى تخصصه الصريح (١) .

ومن غير أن نأخذ بمنطق وروح وأهداف التخصص الصارم ، الذى تولد بعد أن انسخلت الجغرافية عن التاريخ،وسار كل منهما فى طريقه، وصولاً إلى الأهداف التى حسبها كل تخصص صريح ، ينبغى أن نصرف النظر – بكل اطمئنان – عن هذا الخلط بين ، التسجيل التاريخى والتسجيل الجغرافى ، عند المفكرين المسلمين . ذلك أن الخلط والتداخل – كما قلنا – لا يمثل عيبًا فكريًا ، أو تقصيراً فى الادراك

---

(١) فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، يعلق الجغرافى الانجليزى بنكرتون ، على انسلاخ الجغرافية من التاريخ قائلاً (الجغرافية مثل التاريخ لا تتطلع إلا إلى توضيح التاريخ ، ولكن بعد أن واجهت الجغرافية مهام جديدة ، وازدادت مادتها العلمية يومًا بعد يوم ، كسرت الرباط الذى كان يربطها بالتاريخ ، واحتلت الجغرافية مكانها اللائق بها كعلم مستقل . وقد تحولت من خادم للتاريخ إلى معلم ، وهو معلم موهوب له نظر ثاقب وبصيرة نفاذة وقدرة على التنبؤ بالمستقبل) راجع مقالة چورج تاتهام فى كتاب الجغرافية فى القرن العشرين ترجمة د. غلاب ص٥٠ و٥١ .

الفنى ، أو تجاهلاً للفاصل ، بين هدف الفكر الجغرافى ، وهدف الفكر التاريخى . بل انه لا يصور عجزاً فى تصور الحد الفاصل بين المكان وهو يحتوى الحياة ، والزمان وهو يطوى صفحات الحياة فى المكان . ومن شأن هذا الخلط - فى تصورى - عدم الطعن فى جدية وموضوعية الدراسة والبحث والتسجيل ، الذى يعبر عن حصاد التفكير البناء ، لأنه يمثل - بكل تأكيد - استطراداً مجرداً ، يتجاوز فيه فكر الكاتب الفاصل بين الرؤية الجغرافية للمكان ، والرؤية التاريخية للمكان، والعكس صحيح .

وبهذا المنطق الواقعى ، لا ينبغى أن نستشعر خطيئة الخلط بين الجغرافية والتاريخ ، وفوضوية التداخل بين مسيرة الفكر الجغرافى ومسيرة الفكر التاريخى ، حتى ولو تخبط هذا الخلط تخبطاً شديداً ، وتشوهت الصور التى تحتويها الكتابة . ومن ثم لا يجب أن نستنكر هذا الخلط ، أو هذا التداخل ، لأنه سواء كان بقصد أو من غير قصد ، لا ينطوى على اخلال بهدف التسجيل الجغرافى عن الواقع الحياتى فى المكان ، ولا ينطوى على اخلال أيضاً بهدف التسجيل التاريخى عن سياق أحداث التحرك الحياتى فى الزمان .

وبهذا المنطق الواقعى أيضاً ، ، يبدو الخلط مطلوباً - بكل الالحاح - فى بعض الأحيان ، لكى يبصر المصلحة المشتركة ، بين الهدف الذى تتبناه الجغرافية ، والهدف الذى يتبناه التاريخ . وحتى بعد الانسلاخ بين الجغرافية والتاريخ ، وبعد التخصص الصريح ، والفصل الموضوعى الذى التزم به الفكر الجغرافى والفكر التاريخى ، منذ حوالى القرن التاسع عشر الميلادى ، تظل الفكرة الجغرافية من غير حرج فى حاجة إلى استشعار ذكى وحسن استخدام البعد التاريخى فى اطار الدراسة التحليلية ، وتظل الفكرة التاريخية من غير حرج أيضًا فى حاجة إلى استشعار ذكى وحسن استخدام البعد الجغرافى فى اطار الدراسة التحليلية .

وفى اعتقادى - على كل حال - أن هذا الخلط الذى فرضه الاستطراد فى المعالجة ، والانسياق فى تداعى المعانى ، يعنى - بكل

تأكيد – أن الفكر الجغرافى والفكر التاريخى ، كانا يمثلان فى ذلك الوقت ، وجهين لعملة واحدة . ومن شأن هذه العملة التى كانت مقبولة ، أن تمثل قمة الاهتمام الذى ينصرف إلى البحث الموضوعى ، لحساب التكامل والاستمرار للواقع الحياتى فى المكان ، وفى الزمان ، فى وقت واحد . وينبغى أن نفطن – بالضرورة – إلى أن عملية الخلط بين التسجيل الجغرافى ، والتسجيل التاريخى شئ ، وأن الخلط بين فلسفة الفكر الجغرافى وفلسفة الفكر التاريخى شئ مختلف تماماً . ولكن هل كانت هذه الفلسفة قد تبلورت ، وفى ذلك الوقت ؟ وهل آن الأوان فى هذه المرحلة ، التى انكب فيها الكتاب على احياء الفكر الجغرافى وتطويره ، لكى نستشعر مبلغ الخلط بين فلسفتين متباينتين وغير متبلورتين ؟

وصحيح أن فلسفات العلوم فى ذلك الوقت ، لم تكن قد تبلورت بعد ، لكى نستشعر مدى التداخل فيما بينها . ولكن الصحيح أيضاً ، أننا نفتقد العلامات ، التى تشير إلى احتمال التداخل والخلط بين ارهاصات هذه الفلسفات غير الناضجة . وهذا معناه أنه ربما يسجل صاحب الفكر الجغرافى بعض الأحداث التاريخية ، فى سياق كتابته ودراسته الجغرافية الوصفية الهادفة ، من غير أن يتخلى – بالفعل – عن فلسفة الخط الجغرافى السليم ، فى العرض الذى يسجله ، لأنه جغرافى قبل أى شئ آخر . ومعناه أيضًا ، أنه ربما يسجل صاحب الفكر التاريخى الصور الجغرافية ، فى سياق متابعة الأحداث التاريخية ، من غير أن يتخلى عن فلسفة الخط التاريخى السليم ، فى العرض الذى يسجله ، لأنه مؤرخ قبل أى شئ آخر . ومن شأن الباحث البارع فى الوقت الحاضر ، الذى يطالع الكتابة والتسجيل ، فى أى من الكتب العربية الاسلامية القديمة ، أن يميز بين الجغرافى الذى يتسلل التاريخ إلى كتابته ، والمؤرخ الذى تسلل الجغرافية إلى كتابته .

وهكذا – نتبين – بكل الوضوح – أن مسيرة الفكر الجغرافى قد تأبطت ذراع مسيرة الفكر التاريخى ، أو أن مسيرة الفكر التاريخى قد تأبطت ذراع مسيرة الفكر الجغرافى على الطريق ، من غير حرج .

وكأن الأخاء حاجة ملحة ، والترابط هدف أصيل ، والمصير أساس مشترك . وسواء كان الجغرافية عاملة فى خدمة التاريخ ، أو كانت الجغرافية مسئولة وهى تبصر التاريخ وتوجهه فى أداء دوره ، فإن الزمرة المرموقة من المفكرين المسلمين ، من جغرافيين ومؤرخين قد أفاضوا واجتهدوا وأسهموا بكل الجدية ، فى اثراء المكتبة العربية الاسلامية. كما أسهموا اسهاماً مشتركًا فى تنشيط وتطوير مسيرة الفكر الجغرافى ومسيرة الفكر التاريخى المشتركة . ولم يفرق بين هذه الزمرة ، سوى اتجاه الجغرافيين واتجاه المؤرخين ، كل على انفراد ، إلى وضع حجر الأساس فى المنطق الفلسفى ، من وراء كل من الجغرافية والتاريخ .

هذا ، ولكى نبلور الموقف ، ونقيم انتاج هذه المرحلة الأولية ، التى شهدت وسجلت نشاط المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية ، المتأثرة بالفكر اليونانى القديم ، يجب أن نذكر اجتهاد بعض الرواد المرموقين ، من أبناء هذه المدرسة ، ومدى إقبالهم على تأليف الكتب الجغرافية . وفى اطار الاجتهاد ، ينبغى أن نميز بين فريقين من هؤلاء الرواد ، فى الكتابة الجغرافية . ذلك أن كل فريق من هذين الفريقين ، أصبح صاحب فضل فى أكبر قدر من التوازن بين ، حصاد الجغرافية الوصفية العامة ، وحصاد الجغرافية الفلكية الرياضية المتخصصة .

والفريق الأول ، من رواد هذه المرحلة ، انكب على دراسة الأرض ، وصرف الاهتمام كله إلى التعريف الجغرافى بالمكان فى الأقطار والأمصار على الأرض . ومن ثم كان اجتهاد هذا الفريق ، لحساب الكتابة الجغرافية الوصفية العامة ، والتسجيل الجغرافى فى هذه الكتابات الجغرافية الوصفية ، الذى يختلط بالتسجيل التاريخى عن الأقطار والأمصار ، وهو موضوع الدراسة والاهتمام ، الذى يصور مدى انتفاع الكتاب بالرحلة . وهذا معناه أن حصاد الرحلة سواء تأتى من خلال المعاينة المباشرة ، أو من خلال الاستماع إلى الرواية عنها ، أعطى ثمرة الرؤية الجغرافية للمكان واستشعار خصائصه . ومن ثم اتسمت الكتابة بقدر معقول من الصدق ، لدى عرض الصور الجغرافية .

وصحيح أن بعض الكتاب اجتهد وركز كل اهتمامه على قطر بعينه، كما فعل أحمد بن محمد الرازى (١) ، الذى سجل كتاباً ، هو - بكل تأكيد - أول كتاب بالعربية ، عن جغرافية الأندلس . وصحيح أيضاً، أن بعض الكتاب الآخرين اجتهد وركز اهتمامه على قطاع كبير من الأرض ، يشمل مجموعة من الأقطار والأمصار ، كما فعل ابن فقيه الهمذانى ، الذى أفاض فى كتابه عن جغرافية الأرض والبحار . بذكر الهند والصين والعراق وجزيرة العرب . ولكن الصحيح - بكل تأكيد - أن معظم الجغرافيين المسلمين من هذا الفريق المجتهد ، قد أفاض فى كتابته عن المسالك والممالك ، كما فعل ، ابن خردذابة (٢) ، وجعفر بن احمد المروزى ، وأحمد بن محمد السرخسى ، وأحمد بن واضح اليعقوبى (٣) ، وأبو الفرج قدامه بن جعفر . وهؤلاء جميعاً من أصحاب الكتب والمؤلفات الجغرافية الوصفية ، التى تصور الواقع الجغرافى المخلوط بالتاريخ والقصص والحكايات والطرائف ، عن أقطار وأمصار كثيرة فى اطار العالم الاسلامى .

هذا ، وقد شهدت هذه الفترة أو المرحلة فى فجر القرن الرابع الهجرى ، اهتمام الجغرافيين المسلمين ، من أصحاب المؤلفات فى الجغرافية الوصفية ، برسم واعداد الخريطة الجغرافية . وقد ألحق

---

(١) الرازى جغرافى اندلسى ، سجل كتابه عن جغرافية الأندلس بعنوان (أخبار الأندلسى) . وفى هذا الكتاب عرض جغرافى وصفى عام ، وتصوير جيد جغرافيا وتاريخياً عن بلاد الأندلس .

راجع ، السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٦ ، صفة ١٨٨ .

(٢) ابن خردذابة ، هو أبو القاسم عبيد الله . وهو جغرافى من أصل فارسى . وقد اشتغل عاملاً على البريد ، وقد أفاد من عمله فى البريد ، فى انجاز كتابه عن الشرق الأقصى والطرق البرية إليه .

(٣) اليعقوبى من أصل عربى . استهوته الرحلة واشتغل بالجغرافية . وقد أفاد من الرحلة وهو يجوب الأرض ، فى انجاز كتابه البلدان . ويعرض هذا الكتاب وصفاً جغرافياً لأقطار من الشرق مثل ايران وطوران ، ولأقطار من الغرب مثل المغرب، ولأقطار من قلب العالم الاسلامى مثل الشام ومصر والنوبةوجزيرة العرب . ويتضمن هذا العرض الجغرافى قصصاً وحكايات ، فى سياق مناسب عن تاريخها ، وخط سير الأحداث التاريخية فيها . وقد يضيف إلى ذلك كله بعض الطرائف والمسائل الاجتماعية .

بعض الجغرافيين بكتابة الخريطة الجغرافية ، لكى تبصر وترشد متابعة التسجيل الجغرافى عن المكان ، فى الأقطار والأمصار ، التى كانت موضع الاهتمام . وصحيح أن بعض الجغرافيين المسلمين قد اعتمد على خريطة بطليموس اعتماداً كلياً ، لكى يجهز خريطة كتابه . ولكن الصحيح أيضًا ، أن معظم الجغرافيين المسلمين ، قد أجرى التعديل والتصحيح ، لكى يتجنب فى خريطته ، بعض الأخطاء ، التى تكشفت له فى خريطة بطليموس .

وهكذا ينبغى أن نسجل لحساب هذا الفريق من الجغرافيين المسلمين ثلاثة نتائج هامة ، حققها الاجتهاد الحقيقى فى حقل الجغرافية الوصفية . وتمثل هذه النتائج – فى نفس الوقت – الدليل على أن هذا الفريق لم ينقل عن الفكر اليونانى نقلاً مباشراً ، يحرمهم من حق تسجيل اجتهاداتهم الذاتية . وهذه النتائج هى :

أولاً : أظهر الجغرافيون المسلمون فى حقل الجغرافية الوصفية ، مهارة ، فى استخدام الكلمة واستخدام الصورة فى وقت واحد ، لكى يصبح التعبير عن الصور الجغرافية الوصفية ، تعبيراً موضوعياً .

ثانياً : أظهر الجغرافيون المسلمون فى حقل الجغرافية الوصفية ، مهارة فى استخدام حصاد الرحلة ، لكى يصبح التعبير عن الصور الجغرافية الوصفية ، نابعًا من الحس الجغرافى ، وكأنها دراسة ميدانية .

ثالثًا : أظهر الجغرافيون المسلمون فى حقل الجغرافية الوصفية ، مهارة فى دفع مسيرة الجغرافية ، والتمهيد الحقيقى للتطور الذى يسجله ويكشف عنه، اعداد الكتاب الجغرافى الوصفى الأفضل ، وتجهيز الخريطة الأجود ، فى المرحلة التالية التى تمثل مرحلة النضج والتفوق .

والفريق الثانى ، من رواد الجغرافية فى هذه المرحلة الأولية ، تطلع إلى السماء واجتهد ، وصرف الاهتمام كله إلى معرفة وضع الأرض فى الكون . ومن ثم صب كل اجتهاده الجغرافى المثمر ، فى الكتابة الجغرافية الفلكية . وفى مثل هذه الكتابة الجغرافية الموضوعية ، ينتفى الخلط ويفتقد التداخل بين التسجيل الجغرافى الذى يستطلع

وضع الأرض فى الكون ، والتسجيل التاريخى الذى يتابع قصة الحياة ومسيرتها على الأرض . وقد انتفع هذا الفريق بالمراصد التى أقيمت ، لكى يرقب العلماء منها أجرام السماء . ونذكر من هذه المراصد ، مرصد جنديسابور ، ومرصد المأمون فى سهل تدمر ، ومرصد جبل قيسون فى الشام . كما انتفع هذا الفريق أيضًا ، بثمرات التقدم فى علوم الرياضيات والحساب . وقد هيأت هذه المراصد والعلوم الرياضية، لهذا الفريق الفرص ، لكى يخوض التجربة الفلكية ، لاخراج تسجيله عن الأرض .

وصحيح أن بعض الجغرافيين المسلمين اجتهد ، واسترشد بكتابات بطليموس الجغرافى فى كتابه المجسطى ، واقتبس منه لكى يخرج كتابه ، كما فعل أبو يوسف يعقوب الكندى المعروف بعنوان ، رسم المعمور من الأرض . ولكن الصحيح أيضاً ، أن بعض الجغرافيين المسلمين ، قد اجتهد وتحرر من الأخذ عن بطليموس ، وأثر أن يسجل اجتهاده الشخصى ، كما فعل أبو على أحمد بن رستة ، فى كتابه الاعلاق النفسية ، لكى يحقق تفسيراً ذاتياً عن كروية الأرض .

هذا وقد خاض بعض الجغرافيين المسلمين – بكل الثقة – التجربة الحية ، التى حدثت فى أواخر هذه المرحلة ، حوالى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، على عهد الخليفة المأمون ، الذى أجزل لهم العطاء . وقد تمثلت هذه التجربة الممتازة ، فى محاولة فذة وجريئة ، لقياس الأرض . وكان المطلوب من هذه التجربة الفذة ، اجراء التصحيح على أى خطأ محتمل فى القياسات اليونانية السابقة ، وهى قياسات ايراتوستين وبطليموس القلوذى الاسكندرانى (١) .

---

(١) يصف كراتشكوفسكى هذه التجربة على أنها ممتازة . وبالمقارنة مع تجربة بيسل الذى انتشر قياسه ، وأخذ العالم به فى القرن التاسع عشر الميلادى ، نتبين كيف كان القياس العربى على عهد المأمون سليمًا إلى حد يلفت النظر . والفرق بين القياسين لا يتجاوز أكثر من كيلومتر واحد فقط . ويعتقد كراتشكوفسكى أن الجغرافيين المسلمين ، قد امتلكوا الوسيلة الجيدة، والخبرة الرياضية الفنية ، التى انجزت وأنجحت هذا القياس . —

وخوض التجربة الحية ، وممارسة الدراسة الميدانية واستطلاع السماء من المراصد ، واستخدام الأساليب الرياضية المتطورة ، وصولاً إلى النتائج الأصح وتداركاً للأخطاء التى ترددت فيها التجارب اليونانية من قبل ، معناه :

أولاً : أن الجغرافيين المسلمين رجال بحث وعمل وانجاز واجتهاد شخصى ، يستهدف الاضافة والابداع .

ثانيًا : أن الجغرافيين المسلمين لم ينقلوا عن الفكر اليونانى نقلاً حرفياً ، ولم يلتزموا التزام الناسخ الآلى بما ورد فى هذا الفكر .

ثالثًا : أن الجغرافيين المسلمين ، قد شكوا فى التجربة اليونانية ، وأنهم أخذوا من التجربة الذاتية سبيلاً لقطع دابر هذا الشك ، والوصول إلى الحقيقة .

وتأسيساً على هذه التجربة ، كانت الاضافة التى تمثلت فى خريطة المأمون المشهورة . وصحيح أن هذه الخريطة مفقودة . ولكن الصحيح أيضًا ، أن المعلومات المتوفرة عنها ، تصور كيف تضمنت بعض التصحيح الهام لبعض الأخطاء ، التى ترددت فيها خريطة بطليموس الجغرافى . وقد اشترك أكثر من خمسين عالمًا متخصصًا فى رسم وانجاز التصحيحات ، التى أكسبت هذه الخريطة المرسومة فى القرن التاسع الميلادى ، الشهرة الحسنة .

* * *

وهكذا ، نتبين الجغرافية وقد بعثت من رقدة العدم . وندرك كيف تتخذ لها مكاناً ومكانة ، بين أبواب المعرفة . كما نستشعر كيف تخطو مسيرة الفكر الجغرافى خطوات منتظمة ، بعد أن أعاد الجغرافيون المسلمون إلى الجغرافية صوابها . بل ودب النشاط وسجلت الكتابات الجغرافية الوصفية والفلكية اضافات كثيرة ، تنبئ بالتقدم على الطريق وصولاً إلى ما هو أفضل . وأصبح الجغرافيون المسلمون رواد هذا

= راجع الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، صفحات من ٨٢ إلى ٨٤ .

الفكر المتطور من غير منازع ، وقيادة هذه المسيرة الفكرية الجغرافية الموفقة .

وعندما تتكشف لنا هذه الحقيقة – بكل الوضوح – ينبغى أن نتبين أو أن نستشعر ، كيف قدم الاسلام الدين ، وكيف قدم الاسلام الدولة ، الدعم الحافز للفكر الجغرافى فى هذه المرحلة الأولية . وأنعم بالاسلام الدين الذى قدم الدعم الحافز للفكر الجغرافى ، عندما أطلق سراحه ، وأمن التفكير الحر المنطلق ، بحثًا عن الحقائق الجغرافية ، لحساب المعرفة الجغرافية الأفضل . وأنعم بالاسلام الدولة ، التى أغدقت ماديًا ومعنويًا بكل السخاء على حركة الترجمة ، لكى تدعم الانفتاح على الفكر الجغرافى القديم المهجور ، ولكى تحفز أهل الفكر العاملين لحساب المعرفة الجغرافية الأوسع والأفضل .



الفكر الجغرافى العربى الأنضج :

فى حوالى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، أو ما يعادل حوالى القرن العاشر الميلادى ، تبدأ مرحلة جديدة ، هى مرحلة الفكر الجغرافى الأنضج . ومن شأن هذه المرحلة ، أن تسجل التقدم الذى أحرزه الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، فى أحضان الصفوة المرموقة من الجغرافيين المسلمين . بل انها تصور كيف سارت الجغرافية فى ركب الحضارة الاسلامية ، التى سجلت صعودًا وتعاظمًا ، وصولاً إلى قمة المجد والتفوق والابداع .

وصحيح أن هذه المرحلة ، التى سجلت الفكر الجغرافى الاسلامى الأنضج ، تمثل الوليد الشرعى ، للمرحلة السابقة ، التى سجلت الاجتهاد الاسلامى فى الجغرافية . ولكن الصحيح أيضاً ، أن النضج فى هذه المرحلة ، معناه تحرر الفكر الجغرافى العربى تحررًا كليًا ، من التأثر بالفكر الجغرافى القديم . وهذا معناه – بكل تأكيد – أن الاجتهاد على مدى قرن من الزمان فى المرحلة السابقة ، قد أثمر ثمرة عظيمة . وتتمثل هذه الثمرة فى تكامل مقومات الشخصية العربية الاسلامية

للفكر الجغرافى ، تكاملاً حقيقيًا . ومن ثم أصبحت رؤية المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية واضحة ، وهى تأخذ بزمام مسيرة الفكر الجغرافى المتطور ، على طريق التقدم فى الاتجاه السليم .

وصحيح أن الاسلام الدين والاسلام الدولة ، كانا - بكل تأكيد - من وراء الدعم الحافز ، الذى أنعش الفكر الجغرافى ويعثه من رقدة العدم ، وأعاد مسيرته إلى الخط السليم . وصحيح مرة أخرى ، أن هذا الدعم الحافز ، قد حث الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، لكى تحترف التفكير الجغرافى وتتصدى للفكر الجغرافى ، وتصنع التطور فى المرحلة الأولية ، التى استغرقت حوالى قرن من الزمان . ولكن الصحيح أيضًا ، أن الاسلام الدين والاسلام الدولة ، قد واصل أداء دوره البناء ، لكى يدعم النضج الفكرى ، ويكفل الفكر الجغرافى المتطور الأنضج ، وصولاً إلى القمة أو الذروة . ومن ثم يكون المطلوب ، أن نتبين كيف واصل الاسلام الدين والدولة أداء هذا الدور بكل التفتح ، وكيف كان شكل الدعم الحافز لتطوير الفكر الجغرافى الناضج ، ونتاج الدراسات والأبحاث والكتابات الجغرافية الأنضج .

ولئن كانت مواصلة الاسلام الدين والدولة ، أداء دوره البناء ، لدعم الفكر الجغرافى ، ولحفز الجغرافيين المسلمين ، على تحمل مسئولياتهم فى خدمة الفكر الجغرافى الأنضج ، مسألة استمرار منطقى لا يقبل الجدل ، ولا يبحث عن الدليل ، فينبغى أن نتبين كيف تأتى هذا الاستمرار ، من خلال التجاوب الحقيقى مع دورين وظيفين متداخلين ومتكاملين . وهذان الدوران الوظيفيان هما :

أولاً : دور الدولة الوظيفى ، التى يشد بنيانها الدين ، وهى تهيمن وتفرض النظام وتقيم العدل ، وتشيع الأمن ، فى أنحاء العالم الاسلامى، على الصعيد الأفريقى الآسيوى ، أو وهى تتمتع بهيبة وسمعة ومكانة الدولة الأعظم ، فى مجتمع الدول الأقزام فيما وراء العالم الاسلامى .

ثانياً : دور المسلمين الوظيفى ، الذين انطلقوا بكل الايمان والنشاط إلى تجربة الرحلة ، التى تجوب الأرض ، لأكثر من هدف ، وتتعرف على الأقطار من ديار المسلمين ، أو فيما وراء ديارهم فى كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا .

هذا ، وكان من شأن هذين الدورين المتكاملين ، تقديم الدعم الحافز للفكر الجغرافي على مستويين ، هما ١- الرحلة وهى تجمع الحصاد، وتقدم الاضافة إلى قطاع المعرفة الجغرافية الوصفية و٢- المراصد وهى ترقب قبة السماء وتطالع الأجرام وتقدم الاضافة إلى قطاع المعرفة الجغرافية الفلكية . وهذا معناه أن الاسلام الدين والدولة بكل الوزن السياسى والاقتصادى والحضارى ، كان من وراء تهيئة المناخ الأفضل للبحث الجغرافى ، الذى حقق الفكر الجغرافى المتطور الأفضل .

١- *الرحلة والفكر الجغرافى :*

صحيح أن الرحلة ، تكون من أجل هدف ووصولاً إلى غاية بعينها . ولكن الصحيح أيضًا أن تأمين الرحلة على الطريق ، هو دعم وحافز ، من وراء التحرك وصولاً إلى هذا الهدف أو تلك الغاية . وفى اعتقادى أن اشاعة الأمن والطمأنينة فى ديار المسلمين ، وفرض النظام فى ربوعها ، واشاعة هيبة الدولة فيما وراء هذه الديار ، فى أنحاء واسعة من جزيرة العالم (١) ، كان – فى حد ذاته – أهم دعم تطلبه الرحلة ، لكى تؤمن ذاتها ، وتطمئن مسيرتها الهادفة ، فى أى اتجاه .

وهكذا قدم الاسلام الدين والدولة ، من خلال اليد القوية الحاسمة ، التى تمثلت فى السلطة والسلطان الحاكم فى الأرض ، الدعم ، لكى يكون أهم عين يقظة تحرس الرحلة ، وأهم حافز مغر يحفز الرحالة على الطريق ، وأهم دعوة صريحة تدعو إلى جنى ثمرات متنوعة ، فى كل أرض وطئتها أقدام الرحالة المسلمين ، فى الدولة الاسلامية . ويجب أن نذكر أن الرحلة اعتباراً من القرن العاشر الميلادى، انطلقت على أوسع مدى ، وتجاوزت ديار المسلمين ، على أمل أن تحقق أهدافًا متنوعة ، **اقتصادية** وهى تعمل لحساب التجارة ، **ودينية** وهى تعلم لحساب فريضة الحج ، **وادارية** وهى تعمل لحساب العلاقات بين الدولة الاسلامية ومجتمع الدول الخارجى ، **وعلمية** وهى تعمل لحساب العلم وطلب العلم والمعرفة .

---

(١) جزيرة العالم تضم آسيا وافريقيا واوروبا .

ولأن الرحلة تبنت الهدف العلمى ، وتطلعت إلى المعرفة وطلب العلم، ينبغى أن نتبين ما إذا كانت الرحلة قد أفادت ، وقدمت الثمرة إلى المعرفة الجغرافية . وصحيح أن الرحلة هيأت الفرص فى كل اتجاه ، ولأى هدف، لكى يتعرف الرحالة على الأقطار والأمصار ، ولكى يحيطون علمًا بالمسالك والسبل والدروب منها وإليها . وصحيح أن الرحلة عايشت الحياة فى هذه الأقطار ، وهى تجوب ربوعها ، وجنت ثمرة التجربة فى أنحائها . ولكن الصحيح أيضًا ، أن رحلة من هذه الرحلات لم تكن معنية أصلاً بالهدف الجغرافى . وهذا معناه أن الرحلة من أجل أى هدف أصلى، كانت أيضًا من أجل هدف ثانوى ، تمثل فى خدمة المعرفة الجغرافية ، لحساب الجغرافية الوصفية .

ولأن الرحلات المنتظمة وغير المنتظمة ، أصبحت النافذة العريضة ، التى أطل الفكر الجغرافى من خلالها على العالم ، ولأن الفكر الجغرافى العربى الاسلامى قد انتفع بثمرات هذه الرحلات المتنوعة فى البر والبحر ، نذكر كيف أفادت هذه الرحلات ، التى تمثل جهداً ذاتياً خاصاً ، من مظلة الأمن التى نشرتها الدولة الاسلامية فى ربوعها . ومن ثم قدمت هذه الرحلات المتنوعة غير الجغرافية ، إلى الفكر الجغرافى الزاد المفيد ، الذى تزود به الكتاب والمفكرون ، وهم يعكفون على التسجيل الجغرافى الأنضج ، فى هذه المرحلة من مراحل الفكر الجغرافى العربى الاسلامى المتطور .

وعندما تكون الرحلة مهمة حيوية إلى الحد الذى دعا إلى تحمل المشقة ، لحساب هدف أصيل ، وعندما تكون ثمرات الرحلة من وراء التفكير والتسجيل الجغرافى الأنضج ، يتعين طرح ثلاثة أسئلة جوهرية بشأنها . كما يتعين الاجابة عنها ، لكى تتكشف لنا جدوى الرحلة أو الرحلات ، فى خدمة المعرفة الجغرافية ، وتوسيع دائرة المعرفة بالأرض المعمورة ، وتعميق المعرفة بالأرض المعروفة . وهذه الأسئلة هى :

١- هل كانت الرحلة رحلة تتطلع تطلعًا اضافيًا إلى المعرفة الجغرافية ، وهل تجشم الرحالة المشقة والعناء ، من أجل معرفة

وحصاد يتزود به الفكر الجغرافى ، ويسعفه فى أداء مهمته فى التسجيل الجغرافى ؟

٢- هل تولت هيئة رسمية أو غير رسمية تبنى أو تمويل ، أو تحديد خط سير الرحلة ، وهل ألزمت الرحلة بأهداف وترقبت الصفوة نتائج الرحلة فى البر والبحر ، لحساب المعرفة الجغرافية ؟

٣- هل اتخذت الرحلة المنتظمة شكلاً من أشكال الدراسة الميدانية الهادفة ، لدى زيارة الأقطار والأمصار ، وهل تبنى الرحالة هذه الدراسة وجمع الحصاد ، لحساب المعرفة الجغرافية ؟

ولكى تكون الاجابات موضوعية بالفعل ، ينبغى أن نؤكد أن الرحلة فى أى شكل ، وعلى اى نحو ، ومن أجل أى هدف أصلى ، لم تتخذ صفة الرحلة التى تستهدف الكشف الجغرافى صراحة . ولكن عندما نستطلع كنه وماهية هذه الرحلات ، فى البر أو فى البحر ، نتبين كيف كان من شأنها ، أن تقدم الزاد والحصاد إلى الفكر الجغرافى ، حتى ولو لم تكن قد استهدفت الكشف الجغرافى أصلاً ، أو تطلعت إلى جنى ثمرات هذا الكشف الجغرافى ، على الصعيد الأفريقى والآسيوى والأوروبى .

وباستثناء رحلات معينة ، أولتها الدولة الاهتمام ، وتولت تمويلها ، وتحديد أهدافها الرسمية ، كانت الرحلة فى البر أو البحر جهداً ذاتياً ، واجتهاداً شخصيًا بحتًا ، لحساب هدف أصلى معين . وهذا معناه بالضرورة أن الرحلة كانت تفتقد الهيئة الرسمية ، التى تمول الرحلة أو تحدد خط سيرها ، أو تتبنى أهدافها الأصلية والثانوية . ومعناه أيضاً ، أن الهدف الجغرافى ، لم يكن أبداً الهدف الوحيد ، أو الهدف الأصلى ، الذى تتحرك من أجله الرحلة فى البر والبحر .

وهكذا ، يكون الهدف الجغرافى ، فى معظم الأحيان ، هدفاً ثانوياً ، من بين أهداف الرحلة . بمعنى أننا نفتقد الرحلة الجغرافية من أجل المعرفة الجغرافية فى البر أو البحر . وفى اعتقادى أن تمويل الرحلة والصرف عليها من أجل المعرفة الجغرافية مسألة صعبة . وربما كانت صعوبات التمويل ، من وراء التحرك البطئ ، لأن الرحالة كان يلتزم بحط الرحال من حين إلى حين ، لكى يعمل ويتكسب ويمول الرحلة .

ومع ذلك ينبغى أن نستشعر قيمة هذا البطء والتأنى ، الذى يميز الرحلة، وكيف كان من شأنه أن يهيئ الفرص للتعايش ، وجمع المعلومات ، لحساب المعرفة الجغرافية بالمكان .

وهناك - على كل حال - اكثرمن سبب وجيه يبرر الرحلة ، واكثر من هدف يدعو إلى النهوض بها ، واكثر من ثمرة يجنيها التفرغ الكلى لها . وقد تكون الرحلة من أجل التجارة وطلب الربح من التجارة والعمل بالوساطة فى العملية التجارية . وقد تكون الرحلة على أمل الحج إلى بيت اللّه الحرام فى مكة المكرمة ، والزيارة إلى المدينة المنورة . وقد تكون الرحلة فى طلب العلم والانتساب إلى مجالس العلم والعلماء . ولكن قلماً تكون الرحلة من أجل الدراسة الميدانية وجنى حصاد المعرفة ، التى تتزود بها الكتابة عن الأقطار والأمصار ، التى تزورها أو تمر بها الرحلة . وهذا معناه أن طلب المعرفة وجنى حصادها ، لم يكن السبب أو المبرر المنطقى الوجيه الذى يتحمل من أجله الرحالة مشقة الرحلة .

وصحيح أن الرحلة كانت ، لكى تحقق الهدف الأصلى قبل أى شئ أخر . ولكن الصحيح أيضاً ، أن الرحلة كانت ، لكى تخدم بعض الأهداف الجانبية . وقد تمثلت هذه الأهداف الجانبية فى ،

١- نشر واشاعة الدعوة إلى الاسلام ،

٢- جمع بعض البيانات والمعلومات التى تتزود بها المعرفة الجغرافية والتاريخية والاجتماعية .

هناك أكثر من دليل على أن الرحالة قد أفلحوا فى نشر الاسلام ، وابلاغ دعوته إلى الناس فى الأقطار ، التى وصلوا إليها وتعاملوا مع سكانها . وهناك أكثر من علامة على أن الرحالة قد أفلحوا فى تسجيل بعض مشاهداتهم عن الأقطار ، التى زاروها وتجولوا فى ربوعها .

وهذا - على كل حال - هو المعنى الذى نقصده بالفعل ، عندما نقول أن الهدف الجغرافى لم يكن أصلاً من بين أهداف الرحلة، فى البر والبحر . وهنا نؤكد أن المعرفة وطلب العلم قد استثمر الرحلة استثماراً جيداً ، عندما نتبين أن المعرفة الجغرافية بالذات ، قد وجدت وراء الرحلة معيناً زاخراً تتزود منه ، لحساب الفكر الجغرافى الاسلامى . وفى اعتقادى أن هذا المعين الذى قدم الزاد المشبع ، يقصد أحياناً ومن غير

قصـد أحيـاناً أخـرى ، الى المعـرفة الجـغـرافـيـة ، كـان بكل تأكـيـد من وراء الاضـافـات والتـطور ، فى أحـضـان المدرسـة الجـغـرافـيـة العـربيـة الاسلامـيـة ، التى تحـررت – كما قلنا – من الـتأثير اليـونانى ، اعتـباراً من القرن العاشر الميلادى .

ولأن هذه الرحـلات لم تنظم أصـلاً ، لحـسـاب الكشف الجـغـرافى والمعرفة الجغرافية ، فقد يسـتشـعر البحث الموضوعى عن مسيرة الفكر الجغرافى الاسـلامى الحرج الحقيقى ، لدى تصوير أبعـاد دورها الحيوى الفعـل ، وهى تسجل الاضـافة ، وتقـدم الزاد المشبع والمعـرفة ، بقـصد أو من غـيـر قـصـد ، إلى كل مـن يهـمـه أمـر الفكر الجـغـرافى ، ويتـولى تطويره. ولأن هذه الرحـلات لم تجـد هيـئـة مـسـئـولة عن تمويلهـا وتوجـيهـا لأداء دورها الحـيوى ، لحـسـاب الكشف الجـغرافى والمعرفة الجـغـرافية ، فـقـد يقع البـحث الموضـوعى عن مـسـيـرة الفكر الجـغـرافى الاسـلامى فى الحـرج مـرة أخـرى ، لدى تقـويم جـدوى وفـاعليـة هـذه الرحـلات ، من وراء التسـجـيل والكتـابة الجـغـرافية الوصـفـيـة الأفـضـل . وعندئذ ، يجب أن نتبين بالفعل ، كيف نفتقـد فى الجغرافية ، الدراسة أو البحث الموضوعى الجيد ، الذى يولى هـذه الرحلات المتنوعة ما تسـتحقه من اهتـمـام وعمـق وتحقـيق ، لكى تتكشـف كل الحـقائق الجـازمـة ، لدى تقـويم دورهـا الوظيـفى فى اثراء المعـرفة الجـغـرافية ، وفى دعم مـسـيـرة الفكر الجغرافى العربى الاسـلامى الأنضـج .

الرحلة البحرية والمعرفة الجغرافية :

فى البـحـر الأحـمـر ، وفى المحـيط الهـندى ، كـانت الريادة فى الكشف الجغرافى (١) ، وجمع أوصـال المعرفة الجغـرافية عن الأقطار والأمـصـار ، التى تبلغها الرحلة البحرية ، للعرب من أهل جنوب الجزيرة ، منذ وقت قديم سـابق للمـسـيـحـيـة . وقـصـة المـلاحـة فى البـحـر الأحـمـر والمحـيط الهندى ، تفـرد فصـولاً كـثيرة ومـثيـرة ، لكى تحكى كيف أقـدم الملاحون

---

(١) اعتـمـد الكشف الجـغـرافى الأوروبى فى أرجـاء المحـيط الهندى ، على الخـبـرة العـربيـة الاسـلامـيـة ، وقـد اسـتـخـدم البـحـارة الأوروبيـون الخـرائط التى درج البحارة العرب على استخدامها للتحرك المطمئن فى عرض البحر .

العرب . بكل الجسارة على ركوب البحر . وتصور هذه القصة كيف صنعوا السفينة وطوروها وأبدعوا فى استخدامها ، وكيف أنجزوا الرحلة إلى الحبشة والقرن الأفريقى . وكيف اقتحموا عرض البحر المحيط إلى ساحل شرق أفريقية . وكيف طوروا التحرك فى المحيط وصولاً إلى شبه القارة الهندية . ثم تؤكد الرواية أو القصة على حسن استخدام حركة الرياح ، التى توجه الرحلة . وتؤكد أيضًا على أن الملاحين العرب احتكروا الملاحة فى المحيط الهندى ، فى الوقت الذى لم يجرؤ غيرهم على تجاوز باب المندب .

وتواصل القصة حكاية الرحلة العربية فى البحر، بعد ظهور الاسلام ، وتصور دورها البارز ، وتحركاتها المنضبطة فى خدمة التجارة الدولية ، وهذا معناه أن الهدف الأساس أو الأصلى للرحلة فى البحر ، كان هدفًا اقتصادياً ، لحساب التجار المسلمين . ومعناه أيضاً أن التجار المسلمين كانوا أصحاب المصلحة المباشرة ، وهم يتحملون مشقة الرحلة ويمولونها ، أو وهم يجنون ثمرات وأرباح الرحلة المنتظمة أو شبه المنتظمة ، إلى شرق أفريقية ، وإلى الهند وجنوب شرق آسيا .

وصحيح أن هذه الرحلات البحرية ، كانت على المدى الطويل ، من وراء تطوير أساليب ركوب البحر ، وتطويع البحر ، وحسن استخدام السفينة ، لحساب الهدف الاقتصادى . وصحيح أن الجهد العربى الذاتى قبل الاسلام وبعده ، قد أحسن استخدام هذه الرحلات واستثمار الوساطة التجارية بين الشعوب والأمم ، وأرسى بعض قواعد عامة فى أصول التجارة الدولية . وصحيح أن الانفتاح على البحر فتح الباب على مصراعيه ، للاحتكاك الحضارى البناء ، بين حضارات حوض المحيط الهندى والشرق الأقصى من ناحية ، وحضارات حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى ، لحساب الانسان ، ولكن هل صحيح أن هذه الرحلات البحرية ، بقصد أو من غير قصد ، قد خدمت أهدافاً ثانوية أخرى غير التجارة ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال ، ينبغى أن نذكر كيف أن الرحلة البحرية ، هى انفتاح واتصال مع أقطار ، وأن الانفتاح رؤية ومعاينة ، وأن

الاتصال معايشة وتعامل مع الناس فى تلك الأقطار . ومن ثم نستشعر كيف تكون الرؤية والمعاينة . وكيف يكن التعامل والمعايشة ، من وراء ،

١- نشر الاسلام وابلاغ دعوته إلى الناس .

٢- جمع المعلومات والزاد الذى قدمته الرحلة البحرية إلى المعرفة الجغرافية .

وهذا معناه أن الرحلة البحرية ، قد تبنت أهدافاً ثانوية ، اجتماعية ودينية وحضارية وثقافية فى وقت واحد . ومعناه أيضاً أنها حققت الانجاز الأنسب ، الذى يؤكد جدوى هذه الرحلات بصفة عامة ، لحساب الانسان .

هذا ، وقد قدمت الروايات عن هذه الرحلات البحرية ، بعض جوانب المعرفة عن الأقاليم ، التى وفدت إليها ، وتعاملت مع سكانها ، إلى الفكر الجغرافى القديم ، قبل الاسلام . كما قدمت الرحلات البحرية هذا الزاد مرة أخرى ، إلى المعرفة الجغرافية لحساب الجغرافيين المسلمين ، والفكر الجغرافى العربى الاسلامى . ثم واصلت الرحلات العربية فى المحيط الهندى هذه المهمة الحيوية ، عندما قدمت المعونة الايجابية للكشف الجغرافى الأوروبى المنظم ، الذى اتخذ من البحر مطية لهذا الغرض ، فى القرن السادس عشر الميلادى .

ومن خلال المعاينة التى وضعت الرحالة فى اطار الرؤية المباشرة، والاستشعار الحقيقى للواقع الجغرافى فى بعض الأقطار ، ومن خلال الاستماع إلى الرواية التى ألقت الأضواء على الواقع الجغرافى فى هذه الأقطار ، قدمت الرحلات البحرية المنتظمة وغير المنتظمة فى المحيط الهندى ، الزاد إلى الباحثين عن المعرفة الجغرافية . وقد كان هذا الزاد الجغرافى مفيداً للتسجيل الجغرافى الوصفى إلى أقصى حد . ومن ثم ينبغى أن نستشعر جدوى هذا الزاد ، ومدى انتفاع الجغرافيين المسلمين به ، وهم يكتبون فى الجغرافية الوصفية ، عن بعض أقطار المحيط الهندى . وهذا معناه بالضرورة ، أن نستشعر ، كيف اتخذت هذه الرحلات البحرية شكلاً من أشكال الدراسة الميدانية ، وكيف كان حصاد هذه الرحلات الميدانية مثمراً ، لحساب المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية .

هذا ، ويجب أن نتوقع من هذا الحصاد معرفة ، تجمع بين الغث والثمين ، وتمزج بين الصواب والخطأ ، وتخلط بين الجغرافية والتاريخ. بل ويجب أن نتوقع أيضًا ، أن تكون المعاينة على الطبيعة فى بعض الأحيان ، من وراء الاهتمام ببعض التفاصيل ، وإلى الحد الذى يطغى فيه الجزء من غير قصد على الكل ، حتى نفتقد التوازن والتكامل والانسياب ، فى التصوير الجغرافى للمكان ، ونستشعر ضياع بعض الحقائق الهامة فى خضم زاخر بالسرد الممل . كما يجب أن نتوقع أيضًا ، أن تكون الرواية المنقولة فى بعض الأحيان الأخرى ، من وراء التشويه الذى يمسخ الحقائق ، ويسئ إلى عرض وتسجيل الوصف الجغرافى عن المكان .

ولأن المعاينة والرواية ، قد تولى أمرها – فى الغالب – فريق من الناس ، الذين يشغلهم الهدف الاقتصادى الأصلى ، فقد يفوت صاحب الرواية والمعاينة – بحسن نية – الادراك الموضوعى المطلوب للظاهرة الجغرافية ، التى تتناولها الرواية ، ويتداولها النقل والحديث . وصحيح أن عدم الادراك الموضوعى الظاهرة الجغرافية يؤدى إلى الخطأ والتسجيل الجغرافى غير الصحيح . ولكن الصحيح أيضًا ، أنه لا ينبغى أن ننكر جدوى هذه الرحلات البحرية وحصادها الشيق ، ولا يجب أن نتنكر للجهد الايجابى الذى قدم هذا الزاد ، إلى المعرفة الجغرافية الاسلامية .

وبهذا المنطق ، نتبين كيف أفلح أصحاب هذه الرحلات المنتظمة وغير المنتظمة ، فى فتح آفاق رحبة ، للكشف الجغرافى ، فى شرق أفريقية ، وفى جنوب شرقى آسيا ، من غير قصد فى معظم الأحيان . هذا بالاضافة إلى جنى ثمرات التجارة ، واستثمار الاحتكاك الحضارى ، ونشر الدعوة الاسلامية (١). وقد كان الانفتاح الذى حض عليه الاسلام، من وراء النجاح الحقيقى ، الذى سجلته هذه الرحلات

---

(١) نشر الدعوة الاسلامية فى الدكن فى شبه القارة الهندية ، وفى جنوب شرق آسيا ، كان مسئولية هذه الرحلات البحرية . كما كان الاسلام الذى توطن فى الملايو مسئولاً عن نشر الاسلامى فى الفلبين والشرق الأقصى .

البحرية ، وهى تحقق الهدف الاقتصادى الأصلى ، وتضيف إليه ثمرات الأهداف الثانوية الأخرى .

وبهذا المنطق أيضًا ، نتبين كيف أفلت من أصحاب هذه الرحلات المنتظمة وغير المنتظمة ، فى أثناء الرواية والنقل عن المعاينة والرؤية ، بعض الأمور الهامة ، لحساب الكشف الجغرافى من غير قصد . هذا بالاضافة إلى التشويه وخلط الواقع الجغرافى بالخيال . وقد كان الانهماك فى العمل التجارى من وراء الفشل الحقيقى الذى سجلته هذه الرحلات ، وهى تحقق الهدف الأصلى ، وتفلت منها ثمرات الأهداف الثانوية الأخرى .

ولكى نتبين ماهية وكنه هذا التناقض ، نذكر كيف أفلح البحارة والتجار فى الوصول إلى الأرض الاسترالية، وفى اقامة علاقات حقيقية مع هذه الأرض من جانب واحد ، وكيف أفلت منهم فى نفس الوقت استشعار أبعاد هذه العلاقات ، وإعلان أو تأكيد حق الريادة المطلق فى الكشف الجغرافى عن هذه الأرض ، منذ وقت سابق بقرون كثيرة لوصول رحلات الكشوف الجغرافية الأوروبية إليها (١) . هذا دليل على

---

(١) فى مذكرات ماركوبولو التى سجلها ، لدى زيارته جنوب شرق آسيا ، اشارة صريحة لا تخطئ ولا تضلل ، عن حقيقة العلاقة بين التجار العرب المسلمين ، والأرض الاسترالية . وصحيح أن هذه العلاقة اقتصادية ، من جانب واحد. ولكن الصحيح أيضًا ، أنها فتحت الباب لعلاقات انسانية مع سكان استراليا القدماء . ويذكر ماركوبولو أنه علم من التجار العرب فى ملقا ، الذين يقبضون على زمام تجارة التوابل ، انهم يملكون المستودعات ، التى تختزن فيها البضائع تحت الطلب فى جزيرة كبيرة ، تقع جنوب جزيرة جاوة . وقد أطلقوا عليها جاوة الكبرى . وبالنظرة إلى الخريطة الحالية ، تتكشف حقيقة العلاقة بين جزيرة جاوة الكبرى التى عرفت بهذا الاسم ، والجزيرة التى كشف كوك الانجليزى النقاب عنها فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأطلق عليها استراليا (الأرض الجنوبية) . والطريف أن الوجود العربى الاسلامى فى حراسة المستودعات، أو الوجود المؤقت لدى الشحن والتفريغ منها، يمكن أن يفسر المعضلة التى حاول البحث الأوروبى أن يحلها حلاً سانجًا . ويتصور البحث أن الأثر السلالى القوقازى الطفيف فى الاستراليين القدماء ، قد تأتى نتيجة لنجاة رجلين من بحارة سفينة استكشاف أوروبية ، غرقت تجاه ساحل استراليا الغربى ، فى القرن السابع عشر . وفى اعتقادى أن التفسير الأصدق ، يكون لو —

أن الهدف الجغرافي كان غير واضح ، أو كان – على أقل تقدير – في ذيل قائمة الأهداف الحيوية ، التي تطلعت إليها الرحلات العربية في البحر . وربما استنفدت هذه الأهداف الأصلية جل اهتمام الرحلة البحرية في معظم الأحيان ، حتى لم يعد للعاملين فيها أي اهتمام بالهدف الجغرافي (١) .

هذا ، وينبغي أن نذكر – بكل الصدق – أن الدولة الاسلامية ، قصرت في حق الرحلة البحرية ، بشكل يلفت النظر . ذلك أنها لم تقدم للرحلة البحرية إلا الحد الأدنى من الدعم الحافز ، للتحرك المطمئن في عرض البحر . وصحيح أن الدولة الاسلامية كانت لا تملك – في معظم الوقت – القوة البحرية ، التي تفرض سلطانها على البحر ، أو التي تتولى تأمين حركة الملاحة البحرية العربية الاسلامية في المحيط الهندي. ولكن الصحيح أيضًا ، أن هذه الملاحة ، قد أحسنت استثمار هيبة الدولة ومكانتها العظمى في مجتمع الدول ، لكي تؤمن مصالحها في البحر ورحلة البحر .

ومن ثم أصبحت الرحلة في البحر ، وأهداف الرحلة البحرية ، مسئولية العاملين في البحر . وأصحاب المصلحة المباشرة في ثمرات الرحلة البحرية اقتصادياً . هذا بالاضافة إلى مسئولياتهم المباشرة أيضًا ، عن كل الأهداف الجانبية الأخرى ، بما فيها جمع المعلومات ، لحساب المعرفة الجغرافية . بل أن هيبة الاسلام الدين وهيبة الاسلام الدولة ، في البحر أصبحت موكولة إلى هذا الفريق العامل في الرحلة البحرية . وقد أثبت هذا الفريق – على كل حال – جدارة في تحمل هذه المسئولية ، اقتصادياً ودينياً وحضارياً .

وهكذا ، نتبين أن الاسلام لم يحرص ، من خلال الدولة الاسلامية

= تصورنا معنى الوجود العربي الاسلامي الدائم أو المؤقت على ساحل استراليا الشمالي ، واستشعرنا معنى الانفتاح على الناس ، وهو ما درج عليه المسلمون في كل مكان .

(١) ربما أخفى التجار البحارة أمر هذه المعرفة بالأرض الاسترالية، تخوفًا على مخازنهم وتحسباً لخطر المنافسة في مجالات التجارة مع جزر الهند الشرقية .

فى مرحلة معينة ، أو من خلال الدول الاسلامية فى مرحلة تالية ، على تقديم الدعم الحافز الأنسب إلى الرحلة البحرية . وصحيح انه استشعر جدوى الرحلة البحرية ، عندما تطلع إلى دورها الوظيفى البناء ، فى خدمة التجارة ، ونشر الاسلام ، وجمع حصاد المعرفة الجغرافية ، واستثمار الاحتكاك الحضارى . ولكن الصحيح أن الاسلام افتقد الوسيلة ، لكى يقدم هذا الدعم ، وترك مصير هذه الرحلة البحرية للجهد الذاتى أو الشخصى . وهذا معناه أن الدعم الحافز الحقيقى ، الذى انتفعت به الرحلة البحرية ، قدمه الاجتهاد والتطلع الفردى إلى ثمرات هذه الرحلة . ومعناه أيضًا ، أن الدعم الحافز الذى انتفع به الفكر الجغرافى ، عن البحر وعن الأقطار فى حوض المحيط الهندى ، قد تأتى من خلال التجار المسلمين ، واجتهادهم الشخصى فى رحلة البحر .

وفى اعتقادى أن هذا الدعم الذى تفضل به الرجال أصحاب الاجتهاد الشخصى فى رحلة البحر ، وأصحاب المصلحة فى تجارة البحر وحركة الملاحة المنتظمة وشبه المنتظمة فى البحر ، قد تأتى فى شكل من أشكال المنفعة المتبادلة ، بينهم وبين الفكر الجغرافى . بمعنى أن اجتهاد التجار والرجال العاملين فى خدمة الرحالة البحرية ، كان بمثابة العين التى أبصر من خلالها الجغرافيون المسلمون ، لكى يتعرفوا على الأقطار التى تتعامل معها رحلة البحر ، وأن التسجيل الجغرافى عن المعرفة بالأقطار فى حوض المحيط الهندى ، والخرائط التى رسمها بعض الجغرافيين المسلمين ، كانت البصيرة التى رشدت وبصرت ووجهت الرحلة البحرية والتعامل مع أقطار فى أحضان المحيط الهندى .

الرحلة البرية والمعرفة الجغرافية :

لئن كان الرحلة فى البحر احترافًا أكثر منها هواية ، لحساب التجارة والتجار ، فإن الرحلة فى البر كانت هواية واحترافًا فى وقت واحد ، لحساب فريق كبير ومتنوع ، من الناس الذين ينتفعون بالرحلة البرية . ومن الطبيعى أن نتبين كيف تنوعت هذه الرحلات البرية بشكل يلفت النظر ، وكيف تحركت وانطلقت فى أنحاء متفرقة من العالم الاسلامى ، وكيف اقتحمت بعض المجهول من الأرض ، فيما وراء العالم الاسلامى فى آسيا وأفريقيا وأوروبا .

هذا وقد تكون الرحلة رحلة من أجل التجارة . لحساب التجار والعمل المربح في الوساطة التجارية وقد تكون الرحلة . رحلة من أجل الحج لحساب المؤمنين المتشوقين لأداء فريضة عزيزة من فرائض الاسلام وقد تكون الرحلة رحلة من أجل الاستيطان . لحساب الباحث أو الباحثين عن فرصة الحياة الأفضل في مواطن جديدة . وقد تكون الرحلة . رحلة من أجل العلم . لحساب الباحثين عن مجالس العلماء والمتطلعين إلى حصاد الفكر في كل مكان . وقد تكون الرحلة ، رحلة من أجل الرحلة ، لحساب الذين تستهويهم الرحلة ، ويطلبون معاينة ومشاهدة ومعايشة الحياة . في أنحاء متفرقة من الأرض. ومن شأن كل رحلة برية من هذه الرحلات المتنوعة ، أن تضرب في الأرض ، وأن تجوب الأقاليم ، وأن تعايش الناس ، وهي تبتغي الهدف الذي خرجت الرحلة من أجله .

والهدف الذاتي الذي ابتغته الرحلة البرية ، في أي شكل من أشكاله ، كان من شأنه أن يمثل نقطة البداية في التعامل مع الناس ، والتعايش مع الأرض ، بعض أو كل الوقت ، وفي الاحتكاك الحضاري البناء بين الرحلة التي تضم الفرد أو الجماعة من ناحية ، والناس والأقوام في الأقطار التي استقطبت واستقبلت هذه الرحلة من ناحية أخرى . ومن شأن التعامل والتعايش والاحتكاك الحضاري ، أن يفتح الباب على مصراعيه ، لكي يتجمع الرصيد من المعرفة الجغرافية – بقصد أو من غير قصد – . عن الأقطار التي وطئتها الرحلة البرية ، في أنحاء العالم الاسلامي . أو فيما وراء العالم الاسلامي ، على حد سواء .

وبهذا المنطق . ينبغي أن نستشعر ، كيف كانت الرحلة البرية ، التي تصاعد نشاطها ، اعتباراً من القرن الرابع الهجري ، رحلة هادفة ومثمرة. بل أن هذه الرحلات المتنوعة ، في كل حالة على انفراد ، وفي كل شكل من الأشكال . وفي كل وقت من الأوقات ، لم تبدأ في الأصل من فراغ . لكي تنتهي إلى فراغ . ولكنها كانت تصور دائمًا التحرك الهادف . في اتجاه غاية أصلية وغايات ثانوية . كما كانت تتطلب بالضرورة جني ثمرات هذه الأهداف كلها أو بعضها ، على أقل تقدير .

وتأسيسًا على هذه الغايات ، ووصولاً إلى تلك الأهداف ، سواء كانت الرحلة البرية ، اقتصادية ، أو دينية ، أو استيطانية ، أو ادارية ، أو سياسية ، أو علمية ، أو ترفيهية ، لا يجب أن نتصور أن رحلة برية واحدة من هذه الرحلات ، قد بدأت ، وهى تتطلع فى الأصل إلى جمع حصاد المعرفة الجغرافية على الطريق ، أو على الأقطار التى وطئتها الرحلة البرية ، وعايش الرحالة الواقع الجغرافى فى ربوعها . ومع ذلك ، فإن رحلة من هذه الرحلات البرية ، لم يحدث أن انتهت ، وحققت اهدافها كليا أو جزئيًا وهى تجوب الأرض ، من غير أن تضيف اضافة مشكورة ، بقصد أو من غير قصد ، إلى المعرفة الجغرافية .

وصحيح أن الانفتاح الذى حض عليه الاسلام ، والتزم به المسلمون فى الحياة ، على مستوى العلاقات مع الناس ، كان من وراء كل رحلة برية حافز يرشدها ، وفى ركاب كل رحلة برية دليلاً يهديها . وصحيح أن هذه الرحلات البرية ، قد حققت إلى جانب الأهداف الأصلية أهدافًا ثانوية ، تمثلت فى :

١- نشر دعوة الاسلام بين الناس والأقوام فى الأقطار التى وطئتها الرحلة .

٢- ممارسة الاحتكاك الحضارى وصقل التجربة الحضارية الاسلامية .

٣- جمع بيانات ومعلومات لحساب المعرفة الجغرافية والتاريخية .

ولكن بعد ذلك كله هل صحيح أن الاسلام قدم الدعم الحافز لهذه الرحلات البرية ، وهى تتحرك على أوسع مدى ؟ وما هى الصورة أو الشكل الذى كان عليه هذا الدعم الحافز للرحلة البرية على الطريق ، وصولاً إلى الهدف أو الأهداف المعنية ؟

وفى مجال البحث عن هذا الدعم الحافز للرحلة البرية وكيف كان ، ينبغى أن نمتنع تماماً عن تصور هذا الدعم فى شكل اغداق سخى وعطاء كريم يحث الرحالة ، أو فى شكل تمويل يلتزم بتكاليف الرحلة على الطريق ، أو فى شكل توجيه رشيد يرعى دور الرحلة الوظيفى الملتزم ، وصولاً إلى الهدف المباشر ، والأهداف الثانوية . وفى اعتقادى - على كل حال - أن الرحلة التى كانت تستهدف غاية شخصية ، لا تطلب الدعم

الحافز طلبًا مباشراً ، لأن الغاية أو الهدف ، يمثل – فى حد ذاته – حافزاً مباشراً ومهمًا . ومع ذلك ، فإن هناك دعم حافز قدمه الاسلام الدين والاسلام الدولة للرحلة البرية ، فى شكل معنوى أكثر من أى شكل آخر .

هذا ، وقد تمثل هذا الشكل المعنوى من الدعم الحافز للرحلة البرية ، وصولاً إلى الهدف ، فى صورتين هما :

أولاً : صورة تنشأ تأسيساً على سلطة الدولة المباشرة ، وضوابط الحكم السوية فى أنحائها . وتصور هذه الصورة ، كيف كان سلطان الدولة ، الذى يفرض الأمن ، ويكفل الأمان على الطريق ، فى خدمة الرحلة فى الحل والترحال . وقد انتفع الرحالة المسلمون بهذا الأمن ، فى أحضان الدولة ، أو الدول الاسلامية . لأنه كان من وراء سلامة كل رحلة على الطريق ، وسلامة كل رحلة فى كل قطر تزوره ، وتعايش الواقع فيه . وقد تصور هذه الصورة أيضاً ، كيف كان الاعمار والتعمير، الذى كفلته الدولة أو الدول الاسلامية ، فى الأقطار والأمصار ، من وراء تأمين حاجة الرحلة على الطريق ، وفى اتجاه الهدف .

ثانيًا : صورة أخرى تنشأ تأسيسًا على سمعة الدولة ، ومكانتها المرموقة فى مجتمع الدول . وتصور هذه الصورة ، كيف كانت هيبة الدولة أو الدول الاسلامية ، من وراء الأمن والأمان فى ركاب الرحلة . وقد انتفعت الرحلة بهذا الأمن والأمان ، وهى تتحرك أو تنطلق بحرية فيما وراء العالم الاسلامى ، لأنه حقق لها السلامة فى الذهاب وفى الاياب . وقد تصور هذه الصورة أيضًا ، كيف كان استيطان المسلمين وانتشار الاسلام ، فيما وراء أرض الدولة أو الدول الاسلامية ، على الصعيد الأفريقى والآسيوى ، من وراء روح الأخاء التى أمنت حاجات الرحلة ، وكفلت سلامة الرحلة لدى التحرك أو الاقامة ، فى أوطان غير المسلمين .

وهكذا ، نتبين دور الاسلام الايجابى ، من خلال وجود الدولة الرسمى فى مكانها على الصعيد الأفريقى والآسيوى ، أو من خلال انتشار سمعتها وهيبتها فيما وراء حدودها ، أو من خلال انتشار ووجود المسلمين خارج حدودها فى جزيرة العالم ، وهو يدعم الرحلة

البرية ، ويؤمن الرحالة على أنفسهم وأموالهم ، وينشط التحرك إلى الهدف ، فى أى اتجاه . كما نتبين اقبال الرحالة ، كل بحسب الهدف والغاية على الرحلة البرية ، وهم يحصدون ثمرات هذه الرحلات البرية ، سواء كانت رحلات منتظمة أو غير منتظمة . وفى اعتقادى - على كل حال - أن مثل هذه الرحلات البرية الهادفة ، التى تبناها الجهد الذاتى ، لم تتطلع لأكثر مما قدم إليها من دعم معنوى ، وهى تجوب الأقطار ، لكى تحقق أهدافها .

ومن غير أن نكترث كثيراً بكل الثمرات التى جنتها الرحلات البرية ، وهى تجوب الأقطار فى أحضان الدولة أو الدول الاسلامية ، أو وهى تتجول على المدى الواسع فى ربوع العالم الاسلامى الكبير ، أو وهى تنطلق على المدى الأوسع فى المعروف من الأرض فى جزيرة العالم، يجب أن نستشعر كيف أن الرحلة البرية لحساب أى هدف، كانت تواجه الواقع الجغرافى الطبيعى والبشرى ، وكانت تمارس الواقع الحياتى الاجتماعى ، فى هذه الأقطار ، أو فى تلك الأرجاء . كما ينبغى أن نستشعر أيضاً ، كيف تداخلت الرحلة البرية فى كيان كل قطر تداخلاً حقيقياً ، وهى آمنة لا تتخوف خطراً معيناً يتهددها ، أو يحرمها من حرية الحركة وتحقيق أهدافها العريضة المعنية .

ومن خلال مواجهة الواقع الجغرافى ، وممارسة الواقع الحياتى ، ومن خلال الانخراط فى حركة الحياة ، انفتح باب الاحاطة بالأرض وبالناس ، وباب المعرفة بالتفاعل الحيوى بين الناس والأرض ، فى كل قطر من الأقطار ، التى وطئتها الرحلة البرية . وهذا معناه أن الرحلة البرية إلى أى قطر من الأقطار أصبحت - بقصد أو من غير قصد - العين المبصرة ، التى أسعفت الرؤية الجغرافية والتسجيل الجغرافى الوصفى بشكل مباشر . كما أصبحت أحياناً ، اللسان الفصيح ، الذى يحكى ويقص ويروى عن المعرفة الجغرافية ، فى خدمة التسجيل الجغرافى الوصفى بشكل غير مباشر . ومعناه أيضاً ، أن الرحلة البرية ، أخذت شكل الدراسة الميدانية ، التى تبصر الكتابة الجغرافية عن الأقطار التى تزورها .

هذا ، وقد كان من شأن الرحلة البرية فى ذلك الوقت ، أن تتحرك ببطء ، وأن تلتزم بالتأنى الشديد ، وهى تجوب الأرض من مكان إلى مكان آخر . وكان من شأن البطء والتأنى ، أن يوسع دائرة التعامل والتعايش مع الناس . ومن ثم امتلكت الوقت والأسلوب ، الذى حقق التسجيل الجغرافى الواقعى غير المتعجل . وأصبح من شأن التسجيل الواقعى غير المتعجل ، سواء اعتمد على المعاينة المباشرة للواقع الجغرافى ، أو اعتمد على الرواية المسموعة عن الواقع الجغرافى ، فى المكان ، أن يخدم الكتابة الجغرافية الوصفية . وفى الوقت الذى بصر هذا التسجيل الواقعى غير المتعجل الجغرافيين بالصحيح ، جنب الكتابة الجغرافية الوصفية معظم الخطأ . بل أن الرؤية المباشرة ، حالت فى كثير من الكتابات الجغرافية ، دون التردى فى التهويل والمبالغات ، التى تشوه العرض الجغرافى الوصفى بقصد أو من غير قصد .

* * *

وبهذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن نتصور كيف أعطى الاسلام الحد الأدنى من الدعم للرحلة فى البر والبحر . ومع ذلك فقد تجلى نشاط الرحلة ، بشكل يلفت النظر . كما تجلى الانجاز الجيد الذى حققته الرحلة فى البر والبحر ، لحساب الاقتصاد الاسلامى ورواج التجارة ، ولحساب الدين وانتشار الدعوة ، ولحساب العلم والمعرفة وجنى ثمرات الاحتكاك الحضارى . وفى اعتقادى أن نشاط أو تنشيط الرحلة ، كان نقطة تحول جوهرية ، فى قطاع الفكر الجغرافى الوصفى . بل أن هذا الاسهام قد أطلق العنان للتقدم الذى أحرزته مسيرة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى .

وصحيح أن هذا التحول ، قد تجلى - بكل الوضوح - من خلال توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، لكى تشمل مساحات كبيرة من جزيرة العالم ، فيما وراء العالم الاسلامى . وصحيح أن هذا التوسع الأفقى للمعرفة الجغرافية فى جزيرة العالم ، كان - بكل تأكيد - من وراء استشعار حقيقة ومدى التنوع الجغرافى بين الأقاليم ، واستشعار أثره المباشر على التباين ، بين الواقع الحياتى من اقليم إلى اقليم آخر .

ولكن الصحيح أيضًا ، – وهو الأهم – أن التحول إلى ما هو افضل ، قد تجلى فى ، الكتابة الجغرافية الوصفية واعداد الخرائط ، التى غطت المعرفة الجغرافية ، بأكبر قدر من التوازن ، فى اطار الدائرة الواسعة ، التى باتت معروفة من الأرض ، فى جزيرة العالم .

وفى اعتقادى معظم الباحثين المنصفين ، أن أهم نتائج هذا التحول الحقيقية ، قد تمثلت فى نتيجتين جوهريتين ، هما :

أولاً : تملص الكتابة الجغرافية تملصًا نهائياً من التأثير اليونانى ، واعتماد الجغرافيين المسلمين على النفس اعتماداً كليًا ، وفى وضع الاطار ، وتصور الضوابط الحاكمة للتفكير الجغرافى العربى الاسلامى .

ثانياً : حسن استخدام المعرفة الجغرافية ، التى جمعتها الرحلات فى البر والبحر ، فى الكتابة الجغرافية الوصفية ، عن الأقطار والأمصار ، فى اطار المعروف من الأرض فى جزيرة العالم .

* * *

تأسيس المرصد والفكر الجغرافى :

لئن كان الفكر الجغرافى اليونانى القديم ، قد ألهب الاهتمام الاسلامى بالجغرافية الفلكية ، فقد أسهم الرصد بالعين المجردة ، الذى تطلع إلى قبة السماء ، لكى يرقب الكواكب والنجوم والأجرام السماوية ، ولكى يتلمس العلاقة بين الأرض والأجرام فى الكون ، ولكى يتحسس حقيقة شكل الأرض وقياسها ، فى توجيه الفكر الجغرافى إلى جدوى تأسيس واستخدام المراصد الفلكية . ومن ثم كان الاقبال على تأسيس المراصد ، وتجهيزها بالأجهزة المناسبة للرصد ، واعدادها لاستطلاع قبة السماء ومراقبة الأجرام السماوية ، نقطة بداية فى الاتجاه الصحيح .

وصحيح أن تأسيس واستخدام المراصد ، قد أدى إلى تخصص بعض الصفوة من علماء المسلمين فى علم الفلك . وصحيح أن التخصص فى علم الفلك ، قد اقترن بنهضة علمية فى الرياضيات ، التى

خدمت البحث الفلكى فى مداه الواسع . ولكن الصحيح أيضاً ، أن حسن استخدام المعلومات والبيانات ، التى توصل إليها الرصد فى المراصد الاسلامية ، قد أطلق العنان ، للكتابة الجغرافية الجيدة ، فى الجغرافية الفلكية . وكان من شأن هذه الكتابة الجغرافية الفلكية ، أن تصور الادراك الجغرافى الأفضل لشكل الأرض ومكانها فى الكون ، وأن تعبر عن جدوى التسجيل الكاشف عن مكانها فى المجموعة الشمسية .

هذا ، وينبغى أن نفطن بداية ، إلى أن عملية تأسيس المرصد تطلب البحث عن المكان الأنسب ، الذى يكفل الرؤية الكاشفة لقبة السماء ، كما ينبغى أن نفطن أيضًا ، إلى أن البناء والتجهيز بالأجهزة الأفضل للرصد ، تطلب تكاليف باهظة . وهذا معناه أن العلماء ، سواء كانوا من الهواة أو من المحترفين ، لم يكن فى مقدورهم تحمل أعباء التمويل بصفة عامة . ومعناه أيضًا ، أن هذه التجربة العملية ، كانت فى حاجة حقيقية إلى من يتبناها ، ويغدق بكل السخاء عليها .

وهكذا ، نتبين أن الاسلام الدولة ، قد تولى تقديم الدعم الحافز ، لعمليات تأسيس وتجهيز وتشغيل المراصد . واعتباراً من القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) ، تأتى هذا الدعم الحافز المباشر ، فى صورتين متكاملتين على النحو التالى :

فى الصورة الأولى ، تأتى الدعم عندما قدم بعض الخلفاء والقادة من رجال الدولة الاسلامية التمويل المطلوب ، لتأسيس المراصد وتجهيزها فى بعض المواقع المنتخبة . وكان الاغداق السخى علامة على تبنى الأبحاث الفلكية ، والحرص على استخدام المراصد ، وعلى تطوير الأجهزة المستخدمة فى الرصد .

فى الصورة الثانية ، تأتى الدعم عندما قدم بعض الأعيان الوجهاء الأثرياء المسلمين ، التمويل المطلوب ، لتأسيس المراصد وتجهيزها فى بعض المواقع المنتخبة . وكان الاغداق السخى علامة على تبنى الأبحاث الفلكية ، والحرص على تهيئة المرصد المناسب ، لحساب أصدقائهم من العلماء المسلمين العاملين فى هذا التخصص .

هذا ، وكان استخدام مرصد جنديسابور ، فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، نقطة الانطلاق فى استثمار الرصد ، وما يكشف عنه من نتائج لحساب الجغرافية الفلكية . وقد اقترن ذلك الاتجاه بحركة عقلانية ، تتعقب الحقائق العلمية ، التى تستشعر جدواها ، لحساب التقدم العلمى بصفة عامة . وقد نال الفكر الجغرافى من هذه الحركة حصة ، دعت الجغرافيين المسلمين إلى ، استخدام أو استثمار النتائج والحقائق التى كشف عنها الرصد واجتهاد بعض علماء الفلك .

والمأمون الخليفة العباسى المتنور ، كان أول من تولى مسئولية تأسيس مرصد الشماسية ، فى سنة ٢١٦ هجرية . وقد اهتم المأمون بتجهيز هذا المرصد بأحسن أدوات الرصد ، وعنى بتشغيله ، لحساب لفيف من كبار رجال الفلك والرياضة المرموقين المحترفين . ثم أضيف إلى هذا الرصيد ، مراصد أخرى فى بعض المواقع المنتخبة فى الشام والعراق وفارس . وقد تمثلت فى مرصد جبل قيسون قرب مدينة دمشق ، ومرصد باب الطاق فى بغداد ، ومرصد خاص أهلى هو مرصد الدينورى فى أصفهان .

ويسجل القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، الذى شهد بداية مرحلة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى الأنضج ، مزيداً من اهتمام بتشغيل المراصد ، وتسجيل النتائج الفلكية المتطورة . وقد اشترك فى هذه الانطلاقة البتانى وحبش الحاسب ، وثابت بن قرة وابن الأعلم والصوفى والرازى وكلهم من الأعلام المرموقة التى سجلت الاضافات والنتائج الفلكية الباهرة ، لحساب علم الفلك والجغرافية الفلكية . كما أسهم بعضهم فى ادخال بعض التعديلات على أجهزة الرصد ، لحساب الرصد الأفضل . بل لقد صنع أبو محمد الخجندى بنفسه بعض هذه الأجهزة الفلكية المتطورة . وهذا معناه أن مدرسة بغداد ، التى نشأت وازدهرت على عهد المأمون ، إلى نهاية القرن العاشر ، قد قادت التقدم فى تأسيس المراصد ، وفى حسن استخدامها واستخلاص النتائج وتسجيل الاضافات ، إلى المعرفة الفلكية والجغرافية .

وفى القرن الحادى عشر الميلادى ، ينضم بعض الخلفاء المتنورين

من الفاطميين فى مصر ، إلى الفريق الذى يرعى المراصد ويمول تأسيسها وتشغيلها . وقد أغدق الخلفاء الفاطميون على تأسيس هذا المرصد بأحسن الأجهزة ، واستخدموا فيه لفيفًا لامعًا من العلماء . ويسجل هذا الفريق استخدام خبرته الرياضية والجغرافية والفلكية ، فى البحث الجغرافى الفلكى ، وكتاب القانون المسعودى الذى يضم خلاصة الأبحاث وحصاد الدراسات ، التى قام بها البيرونى ، فى الجغرافية الفلكية ، من الكتب الممتازة التى تشهد له بالتفوق والتوفيق . كما تمثل اضافات ابن سينا اسهاماً جيداً أيضاً ، فى الجغرافية الفلكية .

وفى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) ، ينضم إلى الركب لفيف من علماء الأندلس . وقد سجل علماء الأندلس من أمثال جابر الاشبيلى وابن باجة ، وابن رشد والبطروجى ، اهتماماً كبيراً بالأبحاث الفلكية . وبلغ التقدم فى الرصد وحسن استخدام الأجهزة ، التى يتولى العلماء تطويرها بأنفسهم حداً بعيداً . وتجلى أثر هذا التقدم فى :

١- تفجير حملة رفض حقيقية ضد آراء كثيرة كان بطليموس قد أوردها فى كتابه المجسطى .

٢- تحسين أسلوب الكتابة والعرض لدى معالجة أو كتابة الأبحاث فى الفلك والجغرافية الفلكية .

وقد أفلح هذا التقدم الذى فجر الرفض لآراء بطليموس فى تقديم الآراء البديلة ، التى تصحح الأخطاء التى تردى فيها بطليموس . وكانت النتيجة أو التجربة المبنية على الرصد ، هى الأساس الذى اعتمد عليه الرفض أولاً ، وتقديم البدائل ثانياً .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، وبعد أن تفرغ المشرق الاسلامى من كثير من المتاعب السياسية التى فرضتها عليه التحديات والغزو والاجتياح ، يعود الاهتمام بالمراصد والرصد إلى سابق عهده . وقد بنى هولاكو خان الذى اعتنق الاسلام ، وعمل لحسابه ، البحث الفلكى ، وأنشأ مرصداً كبيراً من أفخم المراصد وأكثرها تفوقًا فى الأجهزة المستحدثة ، فى المراغة قرب مدينة تبريز فى فارس . وشهد هذا المرصد أكبر حشد من العلماء ، الذين تولوا مهمة الرصد واجراء

الدين المغربي وفخر الدين الخلاطي . كما أضيفت إليه مكتبة كبيرة ، جمعت فيها أعداداً كبيرة من المراجع في الفلك والجغرافية الفلكية .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) ، شهد العالم الاسلامي أضخم مرصد في سمرقند . وقد أقام هذا المرصد أولوغ بك ، لكي يسجل اهتمامه الشخصي بالفلك. واشترك فريق من العلماء في استخدام هذا المرصد . وقيل أن الأمير أولوج كان يستخدمه بنفسه ، وأنه اشترك مع فريق الباحثين المؤلف من جمشيد الكاشي وقاضي الرومي ومعين الدين كاشاني في اصدار الزيج الجديد السلطاني . ويجب أن نذكر أن هذا المرصد شهدْ نهاية مرحلة طويلة ، تشهد بتفوق العلماء المسلمين . ذلك أن التقدم في هذا العلم وفي استخدام المراصد ، لم يحقق أي خطوات اضافية ، إلا بعد أن اخترع التلسكوب في وقت ولاحق .

هذا ، ويجب أن نلاحظ كيف تصاعد الاهتمام بالمراصد وتمويل البحث العلمي الفلكي ، في القطاع الشرقي من العالم الاسلامي . فقد كان نصيب العالم الاسلامي على الصعيد الآسيوي أكثر من مرصد ، وكان نصيب العالم الاسلامي على الصعيد الأفريقي مرصد واحد فقط ، وهو مرصد المقطم . وهذا معناه أن المغرب الاسلامي لم يجد من يتحمل تكاليف تأسيس المراصد ، أو يتكفل بتمويل تشغيل واستخدام المراصد . ومع ذلك فقد أسهم الاجتهاد الشخصي في المغرب الاسلامي في الرصد دون استخدام المراصد ، واشترك المسلمون المغاربة في تسجيل بعض الاضافات إلى البحث الفلكي .

ومهما يكن من أمر ، فإن تأسيس المراصد استقطب العلماء ، وألهب اهتمامهم بالرصد واستطلاع قبة السماء . وقد تهيأت الفرص لكي يتجلى الاجتهاد الاسلامي في البحث الفلكي الرياضي ، لحِساب علم الفلك . كما تهيأت الفرص أيضًا ، لكي يتجلى الاجتهاد الاسلامي في البحث الكوني ، لحساب الجغرافية الفلكية (١). ومن ثم أصبحت نتائج

---

(١) يعتبر اجتهاد الاخوة ، ابناء موسى شاكر، وهم محمد وأحمد وحسن، نقطة=

هذه الأبحــاث ، المعين الـذى تزود منه الجــغــرافــيين المسلمــون . وهـم يمارسـون الكتابة فى الجغرافية الفلكية .

* * *

وهكذا ، اشـتـركت الرحلة فى البر والبحر ، مع الرصـد الفلكى الذى أسـسـت من أجلـه المراصـد ، فـى تطويـر الفكـر الجـغـرافى العـربى الاسـلامى، وأصـبح التـحـول الذى تأتى فى القـرن الرابع الهـجرى ، لكى يكشـف عن الاسـتـقلال الفكرى عن المدرسـة اليونانية ، عـلامة بارزة على مولد المدرسة الجغرافية العـربية الاسلامية . ويمكن القول أن مـولد هذه المدرسة الجـغرافية ، التى أخـرجت الأعلام المرموقـة فى الجغرافيـة ، كان – بكل تأكيد – من وراء :

١– ترسـيخ بعض الاتجاهات المهـمـة ، التى كـان نبتـهـا الطيب ، قد غرس فى المرحلة السـابقة .

٢– تجـديد وانفتـاح على مـفاهـيم واتجاهـات جـديدة ومـتـجـددة ، فى الفكر والكتابة الجغرافية .

وفـى الحـالتين ، يصـبح الترسـيخ والتـجـديد ، من أهـم العـلامـات البـارزة ، التى تنبئ بالنضـج الفكـرى ، وتصــور التــحـول فى الاتجـاه الصـحيح ، إلى الابداع والاضـافة والابتكار ، فى البحث الجغرافى والدراسة الجغرافية ، ومضـى مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه السليم .

* * *

اتجاهات جديدة وفكر جغرافى متطور :

من شـأن الاسـتـقـلال الفكرى والنضـج ، أن يكون من وراء ، الكشـف الجغرافى والاجتهاد الذى انتهى إلى توسيع دائرة المعرفة الجـغـرافية ، أو تعميق المعرفة الجغرافية بـبعض مسـاحات الأرض . وقد كشـفت رحـلات

= الانطلاق الأوليـة ، فى التـحـرر من الأفكار اليـونانيـة القـديمـة ، التى أوردها بطليموس الجغرافية فى كتابه المجسطى . بل لقد أفلح حسن استخدام المراصد فى اجراء تعديلات جوهرية على حسابات أو قياسات بطليموس .

المسلمين النقاب عن أرض أوروبا ، وعمق التعامل معها وانتشار الاسلام فيها المعرفة الجغرافية ببعض مساحات الأرض . كما كشفت رحلات المسلمين النقاب عن أرض الصين ، والتعامل معها وانتشار الاسلام فيها المعرفة الجغرافية عنها قبل أن يفد إليها من أوروبا ماركوبولو ، فى القرن الثالث عشر الميلادى . كما كشفت رحلات المسلمين الجماعية ، التى عبرت الصحراء الافريقية ، واستطونت فى النطاق السودانى النقاب عن مساحات كبيرة ، وعمقت المعرفة الجغرافية بها . بل لقد أفلحت الرحلات الفردية التى أوغلت جنوب نطاق السودان ، فى كشف النقاب عن القلب الأفريقى ، قبل أن يفد إليه الكشف الجغرافى الأوروبى فى القرن الثامن والتاسع عشر الميلادى .

ومن شأن الاستقلال الفكرى والنضج أيضًا ، أن يكون من وراء مفاهيم جديدة واضافات وتجديد فى الجغرافية . وقد تولى بعض الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، ابداع وترسيخ هذه المفاهيم الجديدة ، فى كتاباتهم الجغرافية . وهذا معناه أن الجغرافيين المسلمين تحولوا من القبول الصامت للظاهرة الجغرافية ، إلى أعمال العقل واثارة التساؤل ، الذى يبحث عن السبب أو التفسير المعقول . والتفسير حس واستيعاب وادراك وفهم للظاهرة الجغرافية أولاً ، ثم هو اجتهاد وبحث واضافة مثمرة إلى الخبرة الجغرافية ثانياً .

هذا ، وقد تلمس فكر واجتهاد وبحث بعض الجغرافيين المسلمين التفسير المعقول ، من خلال نتائج بعض العلوم المتخصصة ، حتى يتسنى للابداع أن يعمق المعرفة بالظاهرة الجغرافية . وهذا معناه أن التفسير انفتاح على علوم – ومعارف غير جغرافية ، وأن الانفتاح تفتح وحسن التقاط واستخدام النتائج ، التى يعتمد عليها التفسير . وهذا معناه أيضًا اتجاه واضح ، إلى تعميق المعرفة الجغرافية ، من خلال التسلل إلى ما وراء الصورة الجغرافية بحثًا عن كل العوامل التى تشترك فى تجميع وتكوين أوصالها .

ولكى نضرب المثل ، فنتبين ماهية التفسير ، وكيف يتجه إلى تعميق الفكرة الجغرافية ، نذكر ثلاثة نماذج معينة من صميم اجتهادات

الجغرافيين المسلمين والكتابة الجغرافية التى يحتويها التراث العريق . وهذه النماذج هى :

١ – من كتابات البيرونى [١] ، نورد التفسير الذى ذكره ، وهو يكتب عن سهول الهند . وقد صور – بكل المهارة – كيف كان دور الارساب فى تكوين هذه السهول ، فى بعض المساحات التى كانت غاطسة تحت مستوى سطح البحر .

٢ – من رسائل اخوان الصفا فى بعض الدراسات الجغرافية ، نتبين كيف تتلمس الدراسة التفسيرية . وهناك أكثر من تفسير ممتاز ، نذكر منها الاجتهاد الذى يفسر المطر التضاريسى ، والاجتهاد الذى يفسر دور الارساب البحرى فى تكوين سلاسل الجبال ، والاجتهاد الذى يفسر كسوف الشمس وخسوف القمر .

٣ – من كتابات المسعودى ، التى تناولت البحر وظاهرة المد والجزر ، نجد تفسيراً جيداً . ويقود هذا التفسير إلى ادراك حقيقة الاتصال بين البحار والمحيطات ، وكيف تنتشر فيها المياه على منسوب واحد . كما نجد التفسير مرة أخرى ، وهو يظهر اجتهاده لدى الربط وترسيخ العلاقة بين الرياح واختلاف سرعاتها من ناحية ، وحالة البحر وارتفاع الموج من ناحية أخرى .

ومن الاتجاهات والمفاهيم الجديدة ، التى تولى بعض الجغرافيين المسلمين ابداعها ، وتوجيه البحث إليها ، هو الاتجاه الهادف إلى التصنيف الموضوعى ، فى دراسة الظاهرة الجغرافية . وهناك أكثر من محاولة جادة ، استهدفت التمييز الموضوعى ، بين الكتابة الجغرافية عن الظاهرة الفلكية ، والكتابة الجغرافية عن الظاهرة الطبيعية ، والكتابة الجغرافية عن الظاهرة البشرية . وهذا معناه استشعار الحاجة إلى قدر من التخصص فى دراسة الأرض ودراسة الانسان . ومعناه أيضاً ، انفتاح حقيقى – بكل الوعى – على الاتجاه الذى أصبح فيما بعد ، من وراء التمييز الموضوعى بين ، الجغرافية الفلكية التى تدرس الأرض ، وهى

---

(١) نفيس احمد : المرجع السابق صفحة ٢٤٧ .

جزء من الكون ، والجغرافية الطبيعية التى تدرس الأرض وطن الحياة ، والجغرافية البشرية التى تدرس الانسان فى موطنه الأرض من ناحية ، ومن وراء التكامل الموضوعى بين دراسة الأرض وطن الحياة ودراسة التفاعل الحياتى على الأرض من ناحية أخرى .

ولكى نضرب المثل ، فنتبين ماهية التصنيف الموضوعى ، وكيف تبنى الفكر الجغرافى الاسلامى هذا التصنيف ، نذكر ثلاثة نماذج معينة ، من صميم اجتهادات الجغرافيين المسلمين ، والكتابة الجغرافية التى يحتويها التراث العريق . وهذه النماذج هى :

١- من كتابات البيرونى وابن سينا وغيرهم . نتبين كيف كان الاهتمام بالكتابة التى تعالج الظاهرة الفلكية ، والاتجاه الهادف إلى دراسة الأرض فى اطار الكون . ومناقشة البيرونى لشكل الأرض وتحديد حركاتها ، وتقدير خطوط الطول والعرض ، يعطى الانطباع الذى يصور جدوى البحث وهو يعالج هذه الظاهرات الفلكية . وكتابة ابن سينا عن خط الاستواء ، وهو يصور خصائصه ، فيها تصوير عن جدية البحث والادراك الجغرافى لهذه الظاهرة التى نالت الاهتمام .

٢- من كتابات اخوان الصفا والبيرونى والمسعودى وغيرهم من الجغرافيين المسلمين ، نتبين كيف كان الاهتمام بالكتابة الموضوعية ، التى تعالج الظاهرة الطبيعية ، والاتجاه الهادف إلى دراسة الأرض موطن الحياة . ودراسة البيرونى لتضاريس آسيا ومتابعة امتداد السلاسل الجبلية ، ومناقشة سقوط المطر وطبيعته فى الهند ، تعطى الانطباع الذى يصور جدية البحث ، وهو يعالج هذه الظاهرات الطبيعية .

٣- ومن كتابات ابن خلدون فى مقدمته ، ومن غيره من الجغرافيين المسلمين ، نتبين كيف كان الاهتمام بالكتابة الموضوعية ، التى تعالج الظاهرة البشرية ، والاتجاه الهادف إلى دراسة الانسان فى أحضان الأرض . ودراسة ابن خلدون فى البيئة وحياة الانسان فى هذه البيئة ، ومدى خصائص هذه البيئة ، تعطى الانطباع ، الذى يصور جدية البحث ، وهو يعالج الظاهرة البشرية .

ومن الاتجاهات والمفاهيم الجديدة ، التى تولى بعض الجغرافيين

المسلمين اثارتها ، وتوجيه البحث إليها ، هو الاتجاه الهادف إلى دراسة البيئة الجغرافية ، وتقصى حقيقة العلاقة بين البيئة والانسان . وهناك محاولات جادة ، لاستشعار مكانة الانسان فى أحضان المكان فى البيئة . بل لقد صعد ابن خلدون هذه المحاولة ، وهو يستطلع حقيقة العلاقة بين البيئة والانسان ، إلى حد الافراط فى تصوير مدى تأثير البيئة على حياة الانسان (١) . وقد يصور هذا الافراط فى تأثير البيئة واذعان الانسان لهذا التأثير ، بداية مبكرة لانزلاق الفكر الجغرافى ، إلى الحتمية ، وهى الفكرة التى لم تتضح معالم فلسفتها ، التى تكبل إرادة الانسان وتسلم زمام مصيره إلى البيئة ، إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فى فكر وفلسفة الجغرافية الحديثة .

ومهما يكن من أمر ، فقد شهدت مسيرة الفكر الجغرافى فى مرحلة النضج ، اعتباراً من القرن العاشر الميلادى إلى حوالى القرن الرابع عشر الميلادى ، هذه الانطلاقات المجددة ، وهذا التحول الفكرى المبدع البناء . وقد برهن الجغرافيون المسلمون على التفوق ، فى أداء المهمة ، وأضافوا الاضافات الجيدة والمجددة إلى الفكر الجغرافى . وتزخر المكتبة العربية الاسلامية ، برصيد كبير جيد ، من انتاج الجغرافيين المسلمين فى هذه المرحلة . وهذا الرصيد الكبير من التراث الجغرافى العربى الاسلامى ، يحكى صور التقدم ومدى التطور فى الجغرافية . بل أنه يمثل الاسهام الممتاز الذى يخدم المعرفة الجغرافية ، لحساب الانسان صاحب المصلحة الفعلية فى المعرفة الجغرافية .

* * *

التراث الجغرافى العربى الاسلامى :

الكتابة الجغرافية ، التى تمثل حصاد الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، فى مرحلة النضج والتطور ، ثروة حقيقية ، تزهو بها المكتبة العربية . وهى – من غير شك – ثمرة الاجتهاد والنشاط الذى

---

(١) راجع رأى دكتور حزين فى كتاباته عن ابن خلدون فى مقال منشور بعنوان :
Some Arab Contributions to Geography, Geography. 1932

أسهم به فريق مرموق من الجغرافيين المسلمين ، في القاء الأضواء على الواقع الجغرافي بكل أبعاده . بل أنها علامة من العلامات ، التي لا تضلل ، لدى تصوير مدى وجدوى التقدم الحضاري الذي أمسك بزمامه المسلمون في العالم ، على امتداد أكثر من سبعة أو ثمانية قرون من عمر الحياة على الأرض .

وصحيح أن الكتابة الجغرافية ، في الكتب والمعاجم والموسوعات ، تكون مخلوطة بالكتابة التاريخية ، وبمعلومات كثيرة ومتنوعة أخرى . ولكن الصحيح أيضًا ، أن الاعتماد على حصاد الرحلات ، من خلال المعاينة أو الرواية ، كفل العمق والأصالة والتحقيق ، لدى دراسة وضع الأرض في الكون . ومن ثم كانت الكتابة الجغرافية كتابة جيدة ، لا يضيرها الاختلاط بالكتابة التاريخية ، ولا تتضرر بكل ما يمليه الاستطراد ، الذي يسجله الكاتب .

هذا ، ويبدو أن الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، والتطلع إلى تطوير الفكر الجغرافي ، كان متسلطاً – بكل الالحاح – على الأذهان ، في هذه المرحلة . وإلا فكيف نفسر تسلل المعرفة الجغرافية والأفكار الجغرافية ، إلى الكتابات والكتب المهمة ، التي لم تكتب أصلاً ، لحساب الفكر الجغرافي ؟ وهذا معناه أن المعرفة الجغرافية كانت تفرض نفسها على الكاتب أحياناً ، أو كانت تندس على غير إرادة الكاتب أحيانًا أخرى ، وتحتل المكان المناسب في كتب بعض المؤرخين أو غيرهم من الكتاب والباحثين . والغريب أن الكتاب كانوا يتعمدون هذا الخلط ، ولا يتحرجون منه. كما انسحب اهتمام الجغرافيين المسلمين بالمعرفة الجغرافية ، على رسم الخرائط والحاقها بالكتب . بل لقد فجر بعض الجغرافين المسلمين ، الاهتمام باعداد وتجهيز الأطالس ، التي تضم مجموعات متكاملة من الخرائط .

ولكي نتبين قيمة هذا التراث العلمي الضخم ، الذي أثرى المكتبة العربية الاسلامية ، ولكي نتحسس جدوى هذا التراث الثري ، الذي برهن على خصوية الفكر الجغرافي ، ينبغي أن نقومه تقويماً موضوعياً . وفي اعتقادي أن التقييم ، يدعو إلى تصنيف هذا التراث

تسنيفاً فنياً موضوعياً . وفى اعتقادى أيضاً ، أن عملية تصنيف هذه الكتب الكثيرة المتنوعة ، التى تحتوى المعرفة الجغرافية ، وتولى الجغرافيون المسلمون اعدادها ، تكون كفيلة بأن تميز بين :

أولاً : كتب فى الجغرافية الفلكية .

ثانياً : كتب فى الجغرافية الوصفية العامة .

ثالثاً : كتب فى الجغرافية الوصفية الخاصة .

رابعاً : كتب فى شكل معاجم جغرافية .

خامساً : كتب فى شكل موسوعات عامة .

سادساً : كتب فى الرحلات الجغرافية .

كتب الجغرافية الفلكية :

هذا الصنف من الكتب التى تصور البحث الجغرافى ، وهو يتلمس الحقائق عن الأرض فى اطار الكون ، يمثل انتاجاً متخصصاً . ومن شأنه أن يصور كيف فجر الاطلاع على الفكر الجغرافى اليونانى القديم ، الرغبة فى تقصى الحقائق الفلكية . ومن شأنه أيضاً ، أن يبين كيف أحسن الجغرافيون المسلمون استخدام حصاد الرصد ، الذى تطلع إلى قبة السماء ، فى معالجة وتسجيل الاضافات الجيدة فى الجغرافية الفلكية . وهذا معناه أن بعض الجغرافيين المسلمين ، الذين تفجرت فيهم رغبة الكتابة فى الجغرافية الفلكية ، قد استشعروا قيمة أو جدوى هذه الكتابة ، مرتين ، مرة وهم يعملون فى خدمة المعرفة الجغرافية ، وأخرى وهم يجرون التعديلات ، التى تصحح بعض الأخطاء التى تردى فيها الفكر الجغرافى اليونانى .

وصحيح أن الكتابة الجغرافية الفلكية ، قد تسللت إلى كثير من كتابات الجغرافيين المسلمين ، وهم يكتبون لحساب الجغرافية الوصفية. ولكن الصحيح أيضاً ، أن هناك بعض الجغرافيين المسلمين الذين ، اهتموا كثيراً بتخصيص كتاب أو جزء من كتاب للكتابة فى الجغرافية الفلكية . وفى الحالتين يكون الاهتمام بشكل الأرض فى اطار الكون ، وبحجمها وحركاتها ، والاجتهاد فى تحديد خطوط الطول

والعرض اهتماماً موضوعياً خالصاً . بل لقد حاول بعض الجغرافيين المسلمين اخراج كتابه فى الجغرافية الفلكية ، على نفس النمط الذى أخرج فيه بطليموس الاسكندرانى كتابه المجسطى .

ومن الكتب المتخصصة فى الجغرافية الفلكية ، كتاب القانون المسعودى للبيرونى ، الذى يصور اجتهاده فى الفلك والرياضيات . وقد اهتم بدراسة شكل الأرض واستدارتها ، وتحديد تحركاتها ، وعن خطوط الطول والعرض . ويقدم ابن سينا مجموعة رسائل ، تمثل أبحاثاً جيدة فى الجغرافية الفلكية . ويسجل ابن رشد كتاباً عن حركة السموات وكتيبًا مختصراً لكتاب المجسطى . كما أسهم البطروجى بكتابات تناقض بطليموس وتعارض فكره عن الجغرافية الفلكية . ولعله أول من قال بالحركة الدائرية للكواكب ودورانها حول الشمس .

كتب الجغرافية الوصفية العامة :

هذا الصنف من الكتب ، التى تسجل المعرفة الجغرافية عن الأقطار والأمصار ، يمثل انتاجًا عامًا . وتبدو هذه الكتب كثيرة ومتنوعة ، بشكل يلفت النظر . ومن شأن هذه الكتب الجغرافية العامة ، أن تصور كيف شاع الاهتمام بتسجيل المعرفة الجغرافية ، عن الأقطار والأمصار ، سواء كانت فى اطار العالم الاسلامى ، أو كانت فيما وراء هذا العالم ، على صعيد جزيرة العالم . وقد تجمع بين الوصف الجغرافى ، والسرد التاريخى . كما يضيف الاستطراد إليها بعض أبواب المعرفة الأخرى . ومع ذلك فلا تفتقد فيها الاجتهاد ، لدى محاولة التفسير أو الربط والتعليق الشيق .

وصحيح أن بعض هذه الكتب الجغرافية الوصفية مفقودة ، ولم نعثر عليه بين كتب التراث الجغرافى العربى الاسلامى . ولكن الصحيح أيضًا ، أن معظم هذه الكتب الضائعة ، قد اعتمد عليه بعض الكتاب ، ونقلوا عنها أهم ما فيها ، من معرفة جغرافية . وهذا معناه أن بعض هذه الكتب يعيش بالفعل فى أحشاء بعض الكتب الجغرافية العربية الاسلامية ، التى نتداولها .

ومن الكتب المشهورة الشائعة ، كتاب المسالك والممالك ، لصاحبه

ابو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى . وهناك اعتقاد بين الباحثين ، أن ابن فقيه ، قد اختصر كتاب الجيهانى فى كتابه المعروف باسم كتاب البلدان (١) . وكتاب الجيهانى الذى نفتقده ، أعد فى أحضان الأسرة الثمانية ، فى القرن العاشر الميلادى . وهو كتاب جيد فى الجغرافية الوصفية . وقد انتفع به فى وقت لاحق الادريسى ، عندما أخذ عنه ، لدى كتابته فى الجغرافية الوصفية عن بعض أقاليم من آسيا .

ومن الكتب المشهورة الضائعة أيضاً ، كتاب المسالك والممالك ، الذى كتبه وأخرجه أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، فى القرن العاشر الميلادى ، وهناك اعتقاد جازم ، أن الأصطخرى الجغرافى ، قد أحسن استثمار هذا الكتاب لدى اعداد واخراج كتابه عن المسالك والممالك . والبلخى – على كل حال – مشهور أيضًا ، بأنه صاحب أطلس جيد ضائع(٢) . ولكن اعتماد الأصطخرى وابن حوقل على هذا الأطلس ، يحفظ هذا الانجاز من الضياع الكلى ، ويصور كيف يستحق بالفعل ، أن يعرف بين أهل عصره بأطلس الاسلام ، وأن يحافظ على هذه التسمية فى الوقت اللاحق أيضاً .

أما الكتب الوصفية المشهورة ، التى يضمها التراث العربى الاسلامى والمتداولة بين أيدينا ، فهى كثيرة ، ومتفاوتة من حيث الجودة والجدوى فى وقت واحد . ونذكر من هذه الكتب ، كتاب عجائب البلدان لليتبعى وكتاب المسالك والممالك للأصطخرى ، وكتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك لابن حوقل ، وكتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ، وكتاب نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق للادريسى ، وكتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ، وكتاب تقويم البلدان لأبى الفدا . وكل هذه الكتب فى الجغرافية الوصفية ، تعكس مدى الاهتمام بتسجيل

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت ، الطبعة السابعة ، دار العلم للملايين .

(٢) أطلس البلخى يضم خريطة للعالم ، وأخرى لجزيرة العرب والمحيط الهندى . وخرائط للمغرب والشام ومصر والبحر المتوسط ، ومجموعة من اثنتى عشرة خريطة أخرى عن وسط وشرق العالم الاسلامى .

المعرفة الجغرافية ، والاضافة إليها . كما تصور مدى الاعتماد على حصاد الرحلة فى هذا التسجيل الجغرافى الوصفى .

هذا ، ويعتبر كتاب عجائب البلدان ، الذى سجله أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجى الينبعى ، فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، كتاباً جغرافيًا وصفيًا جيداً . ويصور هذا الكتاب رؤية جغرافية واسعة وواعية ، فى أثناء الرحلة فى أنحاء الهند وقطاع كبير من شرق فارس . وقوة الملاحظة ، والحس الجغرافى الذكى عند الينبعى، وهو يتجول فى هذه الأرض ، كانت – بكل تأكيد – من وراء تسجيل التفاصيل الدقيقة بدقة تلفت النظر . والكتابة فى هذا الكتاب جيدة ، والعرض واضح والرؤية الواقعية ، تصور حساً جغرافيًا حاداً . وقد اعتمد على كتاب الينبعى ، فى وقت لاحق ، بعض الجغرافيين المسلمين ، ومنهم ياقوت والقزوينى .

وكتاب المسالك والممالك الذى كتبه أبو اسحق ابراهيم بن محمد الأصطخرى الفارسى ، فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) كتاب من الكتب الجغرافية الجيدة . ويغطى هذا الكتاب الدراسة الجغرافية الوصفية فى قطاع كبير من العالم الاسلامى . وهناك اعتقاد أن الأصطخرى قد اعتمد اعتماداً كبيراً على كتابة البلخى التى سجلها فى كتابه المفقود . بل يبدو أن أفاد كثيراً من مراجعة كتاب البلخى وخرائطه ، لدى انتهاء البلخى من اعداده . كما أفاد الأصطخرى أيضاً ، من اتصاله بابن حوقل الذى عاصره . وكتابه الأصطخرى – على كل حال – كتابة جيدة وواضحة ، وتصور مهارة فى التسجيل ، وحسن استخدام المراجع واستيعاب المعرفة الجغرافية التى يسجلها .

ويستحق أبو القاسم محمد بن حوقل [1] وقفة متأنية ، لكى نتبين كيف كان من فريق الجغرافيين المسلمين ، الذين اعتمدوا على الرحلة ،

---

(١) اتهم ابن حوقل بالتجسس ، على الأمويين فى الأندلس ، لحساب الفاطميين . وذلك أمر لا ينبغى أن نلتفت إليه ، ولا يجب أن يقلل من قيمة انتاجه الجغرافى الجيد .

اكثر من اعتمادهم على استيعاب الانجاز الجغرافى المكتوب فى الجغرافية الوصفية وقد كانت رحلة أو رحلات ابن حوقل فى طلب العلم والمعرفة . وقد استغرقت هذه الرحلات حوالى ثلاثين عاماً ، وهو يجوب الأرض . وصحيح أنه درس ما كتبه ابن خرداذبة والجيهانى . واطلع على كتابات الأصطخرى . ولكن الصحيح أيضاً ، أنه انتفع كثيراً برحلاته فى أنحاء العام الاسلامى ، وبزيارة بلغاريا . ومن ثم هيأت له هذه الرحلات اخراج كتابه المشهور ، بعنوان المسالك والممالك والمفارز والمهالك ، اخراجًا جيداً . وينبئ العرض الوصفى فى هذا الكتاب بقيمة الرحلة ، وجدوى المعرفة التى اكتسبها من الرحلة من ناحية ، وبحسن استثمار حصاد الرحلة فى التسجيل الوصفى الجيد من ناحية أخرى .

وأبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ، صاحب كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، جغرافى عربى أصيل من القرن العاشر الميلادى . وقد اعتمد المقدسى على الرحلة ، التى شحذت حسه الجغرافى ، وهو يطوف فى أنحاء العالم الاسلامى ، من أجل المعاينة وجمع المادة العلمية ، التى سجلها فى كتابه . وصحيح أنه رجع إلى كتابات بعض الجغرافيين المسلمين ، ومنهم ابن خرداذبة والجيهانى والجاحظ والبلخى والهمدانى وابن رسته . ولكن الصحيح أيضًا ، أنه وجه إلى كل هؤلاء النقد المر ، ورفض مناهجهم رفضاً قاطعًا ، وسجل كتابه فى اطار المنهج الأفضل الذى ابتكره . وفى كتاب المقدسى نتبين كيف فصل القول عن جوانب طبيعية ، وعن جوانب بشرية وكأنه الارهاص المبكر الذى ينبئ بالحاجة إلى تقسيم الجغرافى إلى ، جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية . كما نتبين كيف كانت كتابة المقدسى ، فى أسلوب أدبى جيد . وقد ألحق بالكتاب خرائط جيدة ، واستخدام فيها الرموز المناسبة للتعبير عن الظاهرات التى تسجلها (١) .

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن الادريسى الشريف ، صاحب

---

(١) استشعر المقدسى أهمية الكتابة الجغرافية للناس بصفة عامة . وكأنه يريد أن يقول أن الجغرافية معين للثقافة المفيدة لكل الناس . لأنها تبصرهم فى الحل والترحال .

كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، واحد من أشهر الجغرافيين المسلمين . بل أنه قمة مرموقة من بين أعلام القرن الثانى عشر الميلادى (السادسة الهجرى) . وقد اكتسب الادريسى الخبرة فى الرحلة الطويلة ، وهو يجوب الأرض فى أنحاء العالم الاسلامى ، ويزور بعض مساحات من أوروبا . ويبدو أن مقامه فى بلاط الملك روجر ملك صقلية المسيحى فى مدينة بالرمو ، والاغداق السخى الذى انهال عليه ، قد حفزه إلى اخراج انتاجه الجيد فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر ، لكى يسجل التفوق فى العرض والتصوير الجغرافى الوصفى الممتاز ، اعتماداً على الحسن الجغرافى الذكى الحاد فى أثناء اسفاره ورحلاته (١). وقد أضاف الادريسى إلى ذلك مهارة فى صناعة واعداد الخرائط ، حيث أعد كرته الفضية التى نقشت عليها الأقاليم السبعة ، وألحقها برسم عشر خرائط جيدة ، لكل قسم من هذه الأقسام .

وزكريا بن محمد بن محمود أبو يحيى القزوينى ، جغرافى عربى لامع آخر من مجموعة الجغرافيين المسلمين ، فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) . وصحيح انه أصدر كتاباً جغرافياً ، عن عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، يتناول نظام الكون ووضع الأرض فيه . ولكن الصحيح أيضاً ، أنه أصدر الكتاب الجغرافى الأهم ، فى مجلدين كبيرين ، عن الجغرافية الوصفية . وفى المجلد الأول ، يكتب عن عجائب البلدان ، وفى المجلد الثانى يكتب عن آثار البلاد وأخبار العباد. وفى هذا المجلد الأخير ، يعطى القزوينى كل اهتمامه ، لدراسة وصفية ، تخلط خلطاً شديداً بين الجغرافية والتاريخ . وقد اعتمد اعتماداً كبيراً ، على الاطلاع الواسع على كتابات أكثر من خمسين كتاباً جغرافياً من كتب الجغرافيين المسلمين ، وأخذ منهم بمهارة . وتمثل كتابة القزوينى – على كل حال – دراسة دسمة وجيدة . ويحتوى كتابه الوصفى على

---

(١) الادريسى عربى أندلسى ، ولد فى سبتة ، وتعلم فى قرطبة . ويعد رحلات طويلة ، اغراه الملك روجر بالمال لكى يقيم فى بلاطه ، ويشبع نهمه وحبه للمعرفة الجغرافية . وقد عرف كتابه بالرجاوى . وفى اعتقاد البعض انه أعظم جغرافى من العصور الوسطى . وقد اطلق عليه البعض استرابون العرب .

مادة غزيرة ومشبعة ، عن العالم الاسلامى ، وعن أقطار أخرى ، فيما وراء العالم الاسلامى ، ومنها أقطار فى أوروبا ، والصين والشرق الأقصى .

وأبو الفدا ، صاحب كتاب تقويم البلدان ، هو السلطان الملك المؤيد عماد الدين بن اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، صاحب حماة فى الشام . وانتساب أبو الفدا إلى الدوحة الأيوبية ، لم يحرم الفكر الجغرافى العربى الاسلامى من اهتمامه الشديد بالجغرافية ، ومن اجتهاده فى الكتابة الجغرافية الوصفية العامة . وقد اطلع أبو الفدا – بكل شغف – على الكتب الجغرافية الكثيرة ، التى أصدرها عدد كبير من الجغرافيين المسلمين ، لكى تشحذ فيه الحاسة الجغرافية . وعندما استشعر قيمة وجدوى الدراسة الجغرافية تطلع إلى الاسهام فى الكتابة الجغرافية . وقد أخرج بالفعل كتابين مفيدين ومتكاملين . وكان الكتاب الأول ، بعنوان المختصر فى أخبار البشر ، وهو فى التاريخ بصفة خاصة ، والكتاب الثانى بعنوان تقويم البلدان ، وهو فى الجغرافية .

هذا وتصور كتابات أبى الفدا (١) ، نمط الكتابة الجغرافية الوصفية السائدة ، فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) . كما تصور مدى اهتمام الجغرافيين المسلمين بالتسجيل الجغرافى الوصفى ، فى هذه الفترة المتأخرة عند المسلمين ، والتى شهدت بداية مرحلة الاضمحلال السياسى والحضارى والعلمى (٢). وقد نال أبو الفدا – على

---

(١) طبع كتاب أبى الفدا فى أوروبا . وقد قدم له المستشرق الفرنسى مقدمة جيدة، صور فيها مفهوم الجغرافية عند الجغرافيين المسلمين . وقد أفاض فى التعليق الجيد على كتاباتهم الوصفية . ومن ثم أصبح كتاب أبى الفدا (تقويم البلدان) ، فى متناول الأوروبيين . وهم يتأهبون للأخذ بأسباب البحث الجغرافى ، وتطوير الفكر الجغرافى وريادته ، وتجديد وتطوير مسيرته .

(٢) لم يعاصر أبو الفدا سوى حمد الله المستوفى ، وأبو عبد الله الدمشقى . والمستوفى فارسى كتب كتابه (نزهة القلوب) ، لكى يكون بيانًا جغرافيًا طبيعيًا وبشريًا عن العالم الاسلامى . أما الدمشقى الأنصارى فهو جغرافى عربى ، كتب كتابه تحفة الدهر فى عجائب البر والبحر ، لكى يحتوى دراسات جغرافية وصفية متنوعة ، وفيها دراسات عن الهند وإشارات إلى اليابان .

كل حال – اهتمام أوروبا أكثر من أى جغرافى مسلم آخر . بل لقد قامت بنشر كتابه ، لكى يطلع عليه العالم ، فى حقل الدراسة الجغرافية. وفى اعتقادهم أنه يمثل صورة جيدة من الصور المنتخبة التى تصور الفكر الجغرافى العربى الاسلامى المتطور ، الذى شد انتباه أوروبا . والمهم أن أبى الفدا كان حصيفًا ، عندما أحسن اختيار المعلومات من المراجع والكتب التى اطلع عليها . وكان خبيراً عندما أحسن استخدام هذه المعلومات وأجاد عرضها . بل أن الكتابة التى سجلها تبين كيف كان أبو الفدا صاحب حس جغرافى صادق . وقد أسعفه هذا الحس الجغرافى ، ولم يضلله ، وجنبه كل ما استشعر فيه الخطأ أو المبالغة أو التشويه فى الكتب التى نهل منها .

كتب الجغرافية الوصفية الخاصة :

وهذه كتب جغرافية عربية أخرى ، من انتاج الجغرافيين المسلمين ، الذين استملحوا الكتابة الجغرافية الوصفية المتخصصة . وقد تخصص هؤلاء الجغرافيون المسلمون ، فى عرض وتسجيل الدراسة الجغرافية الوصفية عن قطر بعينه . ومن شأن هذا النوع الخاص من الكتب ، أن يصور مدى الاهتمام فى مرحلة النضج ، بالبحث الجغرافى المتخصص العميق . الذى يعتمد على الخبرة والمعاينة والتجربة الشخصية ، فى الكتابة الجغرافية عن القطر المعين .

وهذا معناه أن الكاتب عاش فى أحضان القطر المعين ، وتجول فى أنحائه ، وخالط الناس فيه ، واستشعر الرغبة فى الكتابة . ومن ثم سجل الكتابة الجغرافية تأسيساً على زيارته التفقدية ودراسته الميدانية ، وهى التى تصور بأكبر قدر من الصدق شخصية هذا القطر ، وتعتبر عن رؤيته الجغرافية والتاريخية فيه .

وصحيح أن بعض هذه الكتب الجغرافية الخاصة عن قطر معين مفقود ، ولم يصل إلى أيدينا . ولكن الصحيح أيضًا ، أن بعض الجغرافين المسلمين ، قد اعتمد على هذه الكتب ورجع إليها ، وأفلح فى أن يحفظ ويصور أهم ما تضمنته هذه الكتب الضائعة فى كتبهم المتداولة بين أيدينا . وهذا معناه أن الحكم على قيمة هذه الكتب ، يكون

من خلال كتابات الجغرافيين المسلمين ، الذين أدخلوها فى صلب كتاباتهم ، فى وقت متأخر نسبياً . وقيمة هذه الكتب - على كل حال - تكون مبينة على أسلوب اعدادها ، ومدى الاعتماد على الرحلة والمعاينة فى أنحاء القطر الذى يوليه الجغرافى الاهتمام ، واستشعار حسن استخدام حصاد الرحلة فى اطار المنهج الذى يتبعه الكاتب .

ونذكر من هذه الكتب ، التى يفتقدها التراث العربى الاسلامى ، كتاب جيد عن جغرافية السودان - بمعناه الجغرافى (١) - . وصاحب هذا الكتاب الضائع ، هو أبو الحسن بن أحمد المهلبى . وقد أعد هذا الكتاب الجيد فى أواخر القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) . وقد عرف هذا التقرير باسم الكتاب العزيزى ، نسبة إلى شخص الخليفة الفاطمى ، الذى قدم إليه هذا التقرير العلمى . وطلب تقرير من جانب الخليفة معناه ، تمويل البحث من ناحية ، والاهتمام الموضوعى بالمعرفة الجغرافية على مستوى قمة الحكم فى الدولة الاسلامية من ناحية أخرى . وقد انتفع بهذا الكتاب الخاص المتخصص ، فى وقت لاحق ، بعض الجغرافيين المسلمين ، عندما نقلوا عنه معلومات قيمة عن السودان ، كما فعل ياقوت الحموى .

ومن الكتب الجغرافية الخاصة بين أيدينا ، والتى خصصها أصحابها للكتابة الجغرافية الوصفية عن أقطار معينة ، نذكر كتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى ، وكتاب الهند للبيرونى ، وكتاب المسالك والممالك للبكرى . وكلها كتب جيدة ومفيدة ، لأنها تصور كفاءة الكاتب الجغرافى ، فى عرض الصور الجغرافية عرضاً منهجياً ، يحدد ملامح الشخصية الجغرافية ، ويبرز ماهيتها ، ويعبر عن موضوعيتها . هذا بالاضافة إلى الاتجاه الذى انكب على تجسيد المنهج الاقليمى ، فى وقت مبكر ، لدى اخراج واعداد الكتابة الجغرافية الوصفية .

وكتاب صفة جزيرة العرب ، الذى كتبه أبو محمد الحسن بن

---

(١) السوادن جمع الجمع لكلمة أسود ، ويشمل الأرض التى تلى الصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً ، فى اطار المطر الصيفى ، من السنغال غرباً ، إلى الحبشة شرقاً .

يعقوب الهمدانى (١) ، يمثل كتابًا جغرافياً وصفياً جيداً . وهو كتاب متخصص ، فى جغرافية جزيرة العرب . ويتضمن الكتاب دراسة موضوعية ، عن خصائص الأرض ومظاهر الطبيعية ، وعن الناس وفرص الحياة فى البادية وفى الحضر ومواقع الاستقرار . كما يتضمن دراسة عن موارد الثروة الحيوانية والمعدنية فى جزيرة العرب . وصحيح أن الهمدانى أفرط كثيراً ، فى الكتابة عن جنوب جزيرة العرب ، واليمن على وجه الخصوص ، وإلى الحد الذى نفتقد فيه التوازن بين حصص الأقاليم . ولكن الصحيح أيضًا ، أن مثل هذا الكتاب ، الذى يصدر فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، يصور تصويراً مفيداً ، كيف اعتمد الكاتب على الرحلة فى أنحاء الجزيرة ، وكيف أحسن استخدام البيانات التى صورت الواقع الجغرافى ، تصويراً مقبولاً ، فى هذا الوقت المبكر . ولا يقلل من شأن أو قيمة هذا الكتاب الجيد ، سوى الخلط الواضح بين الكتابة الجغرافية والكتابة التاريخية عن جزيرة العرب .

وكتاب الهند الذى كتبه أبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى ، من أهم وأروع الكتب الجغرافية المتخصصة الممتازة فى حقل الدراسة الجغرافية الوصفية ، فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) . وفى هذا الكتاب الجيد أول دراسة اقليمية موضوعة ، تكشف عن مهارة البيرونى وابداعه المنهجى ، وتصور حسن استخدام ثمرات الرحلة وتوظيف الحاسة الجغرافية ، فى عرض الظاهرات الجغرافية وتصويرها ، وفى وضوح الرؤية وانجاز التفسير المنطقى العلمى الجيد. وصحيح أن البيرونى كان موفقًا – بكل تأكيد – فى دراسة الظاهرات الطبيعية وتفسيرها . ولكن الصحيح أيضًا ، انه ألحق هذا الابداع ، بدراسة مكثفة ومفيدة ، للظاهرات البشرية والواقع الحياتى فى الهند . ومن ثم يجب أن نتصور كيف أن كتابة البيرونى ، وهو يتابع هذين المجالين الرئيسيين ، الطبيعى والبشرى ، تمثل علامة أو مؤشراً

---

(١) الهمدانى ، هو ابن الحائك . وقد عرف بصفته أديباً ومؤرخًا وجغرافياً فى وقت واحد . والهمدانى عربى من أهل اليمن . وله كتاب آخر هو كتاب الاكليل فى مفاخر قحطان وذكر اليمن .

إلى أسلوب ومنهج الدراسة الجغرافية الاقليمية (١) .

وكتاب المسالك والممالك ، الذى كتبه أبو عبيد الله بن عبد العزيز الكبرى القرطبى ، يمثل اسهاماً جيداً ، فى الكتابة الجغرافية الوصفية ، فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) . ويبدو أن البكرى قد عكف على استيعاب المادة العلمية الغزيرة ، التى وردت فى كتابات بعض الكتاب (٢) ، من أمثال محمد التاريخى ، وأبو عبيد الله محمد بن يوسف الوراق ، وابراهيم بن يعقوب ، لكى يصنف كتابه تصنيفاً جيداً . ويصور العرض العام فى هذا الكتاب مهارة البكرى فى الاقتباس ، وفى تنظيم المادة العلمية ، وفى حسن استثمار المراجع والمصادر ، التى أعفته من مشقة الرحلة ، من أجل المشاهدة والمعاينة . كما يصور الكتاب أيضاً ، مهارة البكرى فى عرض الموضوع عرضاً جيداً ومشوقاً . وقد أصبح كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، وهو الكتاب المستل من كتاب البكرى الكبير ، أعظم كتاب جغرافى خاص ، يتخصص فى جغرافية المغرب . بل لقد وضع هذا الانجاز الجيد ، البكرى فى المكانة المرموقة ، بين الجغرافيين المسلمين فى الأندلس .

المعاجم الجغرافية :

المعاجم الجغرافية ، تمثل نمطاً من أنماط الكتابة الجغرافية ، التى تورد المعرفة الجغرافية ، فى تصنيف رتيب . وفى اعتقادى أن انجاز المعجم الجغرافى ، يعتبر ابداعاً أو ابتكاراً عربياً اسلامياً ، فى التسجيل

---

(١) البيرونى مؤرخ وجيولوجى وفلكى ورياضى ، قبل ان يكون جغرافيًا مرموقاً ، ويبدو أن الخبرة المتنوعة قد افلحت فى تزويده بقدر من التطلع إلى الابداع ، ويقدرة على البحث التركيبى التحليلى فى الدراسة الجغرافية . كما أن الرحلة ومعايشة الناس وحسن استخدام المعرفة ، التى حصل عليها فى أحضان الهند، قد أسعفته فى اخراج كتاباته الجيدة ودراساته الممتازة . وقد سجل اكثر من اضافة فى الجغرافية الفلكية ، وصنع نصف كرة أرضية ورسم عليها عروض وأطوال البلدان . وكل من ترجم للبيرونى ، يقول انه أجاد فى أى موضوع ادخله فى اطار اهتمامه . بل لقد برهن دائماً على سعة الأفق والتفوق .

(٢) محمد التاريخى صاحب كتاب عن افريقية الشمالية . وابن يعقوب تاجر نخاسة يهودى ورحالة فى المانيا وروسيا على عهد اتو الأكبر .

الجغرافى فى مرحلة النضج . وكتابة أو انجاز المعجم الجغرافى ، يتطلب مهارة وكفاءة وسعة اطلاع ، لكى يضم المادة العلمية الجغرافية ، ويحتويها حسب الترتيب الأبجدى . وهذا التفتح أو الابداع فى الكتابة الجغرافية ، الذى يمثل شكلاً من أشكال الفهرسة والتبويب ، فجر الثورة الحقيقية ، فى الوقت المناسب ، لحساب لم شمل وجمع وتصنيف المادة الجغرافية الغزيرة ، التى هى حصاد البحوث والاجتهادات على مدى القرون ، منذ أن بدأت خطوات المسيرة الجغرافية العربية الاسلامية .

هذا ، وقد توفرت فى أصحاب المعاجم الجغرافية ، القدرة على حصر المادة الجغرافية ، والقدرة على التمييز بين الغث والثمين ، من هذه المادة العلمية قبل تصنيفها . ومن ثم كانت سعة الاطلاع على الرصيد الهائل من التراث الجغرافى مطلوبة . كما كانت الخبرة فى عملية التصنيف والفهرسة أساسية ، لكى ينجح الاعداد والاخراج . ثم كانت الأمانة العلمية أهم ما تشبث به أصحاب المعاجم الجغرافية . ومن أصحاب المعاجم الجغرافية المشهورة ، نذكر البكرى القرطبى من أبناء المدرسة الجغرافية الأندلسية ، ونذكر أيضًا ياقوت الحموى من أبناء المدرسة الجغرافية العربية فى المشرق العربى .

ومعجم ما استعجم هو أول معجم عربى جغرافى على الاطلاق ، إن لم يكن أول معجم جغرافى فى التراث الجغرافى الانسانى بصفة عامة. وقد أصدر البكرى هذا المعجم الجغرافى ، فى القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) . وقد أورد البكرى فيه (جملة مما ورد فى الحديث والاخبار والتواريخ والاشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والأمصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة) . ومعجم البكرى[1] – على كل حال – دليل جيد للباحث الجغرافى وغيره من

---

(١) للاطلاع على مهارة البكرى فى انجاز معجمه ، راجع هذا المعجم الذى حققه الأستاذ مصطفى السقا فى القاهرة سنة ١٩٤٥ .

الباحثين ، فى كثير من فروع المعرفة المختلفة ، بالاضافة إلى المعرفة الجغرافية . ذلك أنه أحاط واطلع على كل الكتابات السابقة المفيدة ، واعتمد عليها ، لكى يصنف هذا المعجم الجيد .

ومعجم البلدان ، هو معجم القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ، الذى سجل اضافة التسجيل والتصنيف الجغرافى. وقد أعد هذا المعجم وأخرجه فى الصورة الجيدة ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ، المشهور باسم ياقوت الحمودى (١) . وينبغى أن نشير إلى أن ياقوت ، من خلال الرحلة من أجل التجارة ، اكتسب الخبرة والتجربة التى حببته فى المعرفة الجغرافية على وجه الخصوص. ومن ثم طلب العلم ، وتفرغ للبحث عن المعرفة الجغرافية ، لكى يتأهل للكتابة والانجاز الجيد ، فى الجغرافية التى استهوته كثيراً . ولكى يجهز ياقوت هذا المعجم المشهور ، رجع إلى كثير من الكتب المتنوعة ، ونقل منها بكل الأمانة والثقة . وفى هذا المعجم وحسب الترتيب الأبجدى ، أورد ياقوت الحموى ، وصفًا جيداً لكل ما استطاع أن يصل إلى علمه ، عن المدن والمواضع (٢). وأضاف إلى ذلك كله ، كتابة وصفاً جيداً عن ديار الاسلام ، من الأندلس غرباً ، إلى بلاد ما وراء النهر والهند شرقًا ، بالحال الذى كانت عليه هذه الديار ، فى القرن الثالث عشر الميلادى .

جغرافيات الموسوعات العامة :

الموسوعة العامة ، تمثل شكلاً من أشكال الكتابة والتسجيل الموضوعى العلمى ، التى تجمع شمل كل أبواب المعرفة . وقد تكون الموسوعات العامة العربية الاسلامية ، أقرب شكلاً إلى ما بين أيدينا من

---

(١) كان ياقوت فى الأصل روميا . وقد وقع فى الأسر صغيراً ، فاستعرب . وعمل لصاحبه فى التجارة ، حتى أعتقه . وقد عكف ياقوت عن اخراج معجمه ، فى مدينة الموصل التى لجأ إليها ، لدى سماعه بنبأ زحف جحافل التتار على ديار المسلمين . ولياقوت له كتاب آخر بعنوان معجم الأدباء ، وفيه بعض المعلومات الجغرافية المفيدة .

(٢) اختصر هذا المعجم وأضاف إليه صفى الدين عبد المؤمن بن البغدادى ونشره باسم مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع . كما اختصره أيضًا السيوطى فى كتابه مختصر معجم البلدان .

الانسكلوبيديات ، فى الوقت الحاضر . ومن شأن أصحاب الموسوعات العامة الاسلامية ، الالتزام الموضوعى ، بجمع كل شاردة وواردة من العلم والمعرفة ، وإفراد باب خاص لها فى اطار التسجيل الموضوعى فى الموسوعة .

وفى لطار هذه الموسوعات العامة ، التى تفرغ بعض العلماء على انجازها ، أفرد الكتاب فصولاً وأبواباً عن الجغرافية والمعرفة الجغرافية . وصحيح أن كاتباً من هؤلاء الكتاب ، أصحاب الموسوعات العامة ، لم يكن من بين المتخصصين فى الجغرافية بصفة عامة . ولكن الصحيح أيضاً ، أنهم اطلعوا على كل أو معظم كتابات الجغرافيين المسلمين ، وأخذوا عنهم بذكاء وحنكه ومهارة ، تصور صدق وجدوى الحاسة الجغرافية الذكية ، التى أسعفتهم ، وهم يؤدون هذه المهمة الصعبة .

ومن الموسوعات العامة المشهورة . تذكر موسوعة النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وموسوعة العمرى مسالك الابصار فى ممالك الأقطار ، وموسوعة القلقشندى صبح الأعشى فى صناعة الأنشا . وفى التصنيف والكتابة فى هذه الموسوعات ، نتبين كيف تناول الكتاب – بكل ذكاء – دراسة الأرض وظاهرات الأرض ،وكأنه يعالج الموضوع فى ضوء فهمنا العصرى للجغرافية الطبيعية ، وكيف يتناول – بكل ذكاء – دراسة الناس وظاهرات الحياة ، وكأنه يعالج الموضع فى ضوء فهمنا العصرى للجغرافية البشرية .

وموسوعة شهاب الدين أحمد النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب، موسوعة جيدة من أهم الموسوعات العربية . وقد صدرت هذه الموسوعة فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) ، فى واحد وثلاثين مجلداً كبيراً (١). وتضم موسوعة النويرى مواد متنوعة ، تجمعها خمسة أقسام ، فى الأدب واللغة ، وفى الادارة ، وفى الدين ،

---

(١) طبعت من مجلدات هذه الموسوعة ، ثمانية عشر مجلداً فقط . هذا ، وما زالت المجلدات الباقية مخطوطة ، تنتظر من يتولى تحقيقها ونشرها ، فى دار الكتب المصرية .

وفى التاريخ ، وفى الجغرافية . وحصة الجغرافية فى القسم الذى خصصه النويرى لها فى الموسوعة ، تحتويها خمسة فصول . وقد عالج فى هذه الفصول - بكل العمق والاتساع - موضوعات فلكية ، وموضوعات طبيعية عن اليابس والماء، كما عالج موضوعات بشرية، عن الناس وحياتهم وطبائعهم ومساكنهم (١). هذا، ولم يترك شيئاً يستحق الذكر، إلا وفصل الحديث فيه، حتى يشبع القارئ ويغطى الموضوع .

ومسالك الابصار فى ممالك الأمصار (٢) ، من انتاج شهاب الدين بن فضل اللّه العمرى ، ، موسوعة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، وقد صدرت هذه الموسوعة الهامة ، فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) ، فى عشرين مجلداً كبيراً . وتضم هذه الموسوعة قسمين كبيرين ، نستشعر التكامل فيما بينهما موضوعياً ، من وجهة النظر الجغرافية . وينفرد القسم الأول من هذين القسمين ، بدراسة الأرض . ويهتم القسم الثانى بدراسة سكان الأرض فى الشرق والغرب . ودراسة الأرض تبدو متكاملة ، حيث يورد العمرى وصف الأقاليم والمسالك ، ويتحدث عن اتجاهات الرياح والمناخ ، وعن مواقع المدن والبلدان . ودراسة الانسان تبدو متكاملة أيضًا ، حيث يضمنها الحديث عن موارد الثروة الحيوانية والنباتية والمعدنية (٣) .

---

(١) فى حصة الجغرافية من موسوعة النويرى ، يتحدث الفصل الأول عن السماء والكواكب ، والفصل الثانى عن السحاب وتكوينه والصواعق والنيازك والرعد والبرق والرياح وعن النيران ، والفصل الثالث عن الأيام والليالى والأعوام والأعياد والفصول . وأهم الفصول - بكل تأكيد - هما الفصل الرابع والخامس . ذلك أنه، يتحدث فى الفصل الرابع عن توزيع اليابس والماء . وعن الأرض والتضاريس والأنهار والعيون ، وعن اقاليم الأرض السبعة . وفى الفصل الخامس ، يتحدث عن الناس وطبائعهم فى البلدان ، وعن السكن فى المدن .

(٢) نشر أحمد زكى باشا الجزء الأول من موسوعة النويرى فى القاهرة سنة ١٩٢٤ ، ونشر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب منها القسم الخاص بأفريقية والمغرب والأندلس فى تونس . وهناك قسم كبير ما زال مخطوطاً ، ينتظر من يحققه ويتم نشره .

(٣) اهتمام العمرى بمصادر الثروة ، لدى الحديث عن السكان ، يوحى بأن =

وصبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، من انتاج أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ، موسوعة قيمة عامرة بأبواب المعرفة المتنوعة . وقد صدرت هذه الموسوعة ، فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، فى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة . وفى زحمة العرض الغزير الموضوعى ، الذى تحتويه هذه الموسوعة القيمة ، يخصص القلقشندى للجغرافية حصة مناسبة فيه (١) . وتتمثل هذه الحصة بصفة خاصة ، فى المقالة الثانية . وتورد هذه المقالة حديثاً مستفيضاً عن الأرض . ويظهر فى هذا الحديث ، التركيز الموضوعى على اليابس والماء، وعن الأقاليم الطبيعية .

كتب الرحلات :

لئن ذكرنا – من قبل – أن الرحلة كانت حركة مرنة فى البر والبحر من أجل أهداف متنوعة ، وأن سلطة الدولة أحيانًا وهيبتها ومكانتها فى مجتمع الدول أحياناً أخرى ، قد أمنت هذه الرحلات على الطريق وصولاً إلى أهدافها ، فيجب أن نؤكد على أن هذه الرحلات كانت كثيرة وأكثر من أن تعد أو أن تحصى . ومع ذلك ، فيجب أن نفطن أيضًا ، إلى أن حصاد هذه الرحلات من المعرفة والكشف الجغرافى ، ينقسم قسمين ، قسم نال الاهتمام لكى يسجل وقسم أخر أهمل تسجيله كلية . وهذا معناه أن حصاد الرحلات الكثيرة فى البر والبحر ، لم يسجل بعضه على الأقل .

هذا ، وقد تأتى التسجيل الذى يصور مشاهد الرحالة وحصاد الرؤية وثمرات التعايش مع الناس ، وهم يجربون الأرض ، أو وهم يستقرون فى الأقطار والأمصار لبعض الوقت ، أو وهم يتعاملون مع الناس فى هذه الأقطار ، فى صورتين .

فى الصورة الأولى ، يكون التسجيل فى كتاب ، يهتم صراحة

- العمرى كان قد استشعر معنى التفاعل بين الناس والأرض ، طلبًا لاستخدام الموارد المتاحة فيها . وهذا – بكل تأكيد – بحث وارد الآن فى الدراسة الجغرافية الحديثة .

(١) نشرت هذه الموسوعة فى القاهرة سنة ١٩١٣ و١٩١٥ .

بالرحلة ، ويحتوى بالفعل حديثًا يتناول كل ما يحرص الكاتب على تسجيله .

في الصورة الثانية ، يكون التسجيل فى كتاب جغرافى يهتم صراحة بالجغرافية الوصفية ، ويلتقط من حصاد الرحلة ما يناسب الصور الوصفية الجغرافية .

وهكذا ينبغى أن نشير إلى أن حصاد الرحلة الذى يسجل فى العادة ، هو تصوير للانطباعات التى يستشعرها الرحالة ، وتعبير عن ادراك الذى يجنيه بشكل أو بأخر ، تطلعاً إلى :

١- الكتابة عن الرحلة وتسجيل مسيرتها فى البر أو فى البحر .

٢- خدمة المعرفة الجغرافية الوصفية .

وصحيح أن هذه الرحلات كثيرة ، وأن أسبابها متنوعة فى أنحاء العالم الاسلامى ، أو فيما وراء العالم الاسلامى فى جزيرة العالم . وصحيح أن هذه الرحلات ، قد تأتت فى كل الأوقات ، لكى تحقق أهدافًا أساسية ذاتية أولاً ، ولكى تضيف إلى المعرفة عن الواقع فى الأقطار التى وطئتها ثانيًا ، ولكى تعبر عن منطق الانفتاح العربى الاسلامى البناء على العالم ثالثًا . ولكن الصحيح أيضًا ، أن ليس كل من سلك سبيل الرحلة ، قد أوتى الرغبة والفطنة معًا ، لكى يسجل المعلومات والبيانات ، التى تهيأت له فرصة الاحاطة بها أثناء الرحلة . وهذا معناه أن الرحلة وايجابياتها شئ ، وأن استثمار الرحلة لحساب المعرفة بصفة عامة ، ولحساب المعرفة الجغرافية على وجه الخصوص شئ أخر .

وفى مجال تقويم الرحلة والرحالة ، واستشعار ما توفر لهم من حصاد أضيف إلى المعرفة ، وجدوى هذه الاضافة ، يتعين أن نميز تمييزاً موضوعياً بين ثلاثة أنماط من الرجال .

والأول ، رجل فطن يكاد يرقى إلى مرتبة الاحتراف ، وهو يسافر من بلد إلى بلد أخر ، لكى يشاهد ويعاين ويعايش . ثم هو يهتم بما يصادفه فى أثناء الرحلة ، ويدون مشاهداته ، ويعرضها عرضًا واقعياً ، فى شكل من الأشكال ، فى كتاب يحكى قصة الرحلة ويصور الانطباعات عن الرحلة .

والثانى رجل عالم يحترف المعرفة الجغرافية ، قبل أن تستهويه الرحلة ، والتى يستشعر قيمتها الفعلية للمعرفة الجغرافية . وهو يسافر ويشاهد ويعايش ويدون مشاهداته الخاصة ، لكى يدسها فى كتاباته الجغرافية . ومن ثم هو يعبر أو يصور تصويراً ، يكشف عن مهارة وفطنة حسه الجغرافى الواعى ورؤيته الصادقة ، من خلال تقويمه الموضوعى لهذه الرؤية .

والثالث رجل تشغله أهدافه الذاتية من الرحلة أكثر من أى شئ آخر . وهو يسافر ويعاين ويعايش الواقع ، ولكن دون أن يبالى بالتسجيل ، أو استشعار قيمة رؤيته . ومع ذلك فقد يقص الكثير ، لو سأله سائل عن مشاهداته ، ولكن الخوف كل الخوف من أن يحكى حديثًا مغلوطاً أو مخلوطاً ، لا يخدم المعرفة ، بقدر ما يضللها أو يسئ إليها ، من غير قصد أو من غير تعمد .

وفى مرحلة النضج ، نضج الفكر الجغرافى الاسلامى ، وتقدمت مسيرته ، إلى ما هو أفضل . ويهمنا أن نتبين ، كيف أسهم كل واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة ، الذين قاموا بالرحلة ، فى اثراء الفكر الجغرافى بالمعرفة عن الأقطار والأمصار ، ويهمنا أيضًا ، أن نقيم فى نفس الوقت هذا الاسهام ، الذى اتخذ شكلاً من أشكال الدراسة الميدانية، لحساب المعرفة الجغرافية ، تقويماً موضوعيًا من وجهة النظر الجغرافية .

والرجل النشيط الذى مارس الرحلة بشغف ، واستشعر قيمة المعاينة والمشاهدة ، واعتمد عليها وزج بها فى كتاباته الجغرافية الوصفية ، رجل مجتهد وحصيف . ذلك أنه برهن على ادراك حقيقى لماهية الدراسة الميدانية ، وعلى مهارة وكياسة فى حسن استخدام رؤيته الحقيقية للواقع الذى سجله فى أثناء الرحلة . وينبغى أن نؤكد على أن هذا الرحالة ، قد أفلح فى اتخاذ الرحلة وحصاد الرحلة مطية إلى الهدف الذى يعنيه ، وهو تسجيل الاضافة إلى الجغرافية الوصفية بالفعل . ومن الجغرافيين المسلمين المرموقين الذين حققوا هذا الانجاز ، عندما تحملوا مشقة الرحلة ، نذكر البيرونى والمسعودى والمقدسى . ما من شك فى أن كتاباتهم قد تبوأت المكانة المرموقة ، لأنهم أحسنوا استخدام

ثمرات رحلاتهم الشخصية ، فى بعض الأقطار ، لحساب المعرفة الجغرافية .

والرجل النشيط ، الذى مارس الرحلة واحترفها ، وشغلته أهدافه الذاتية كلية ، حتى لم يستشعر قيمة أو جدوى المشاهدة والمعاينة ، أثناء الرحلة ، رجل مجتهد لحساب مصلحته الخاصة ، وغير مفيد من وجهة النظر الجغرافية . ومن الجائز أن يصبح هذا الرجل ، مصدر رواية أو قصة ، يعتمد عليها طالب المعرفة الجغرافية ، بشرط أن تتهيأ الظروف التى تدعوه إلى أن يقص أو أن يحكي . ولكن قد يعجز هذا الرجل عن أداء هذه المهمة أحياناً ، أو قد يشوه الحقائق ويقذف بالمعرفة الجغرافية إلى الخطأ بحسن نية ، أو من غير قصد أحياناً أخرى . وهناك بالفعل آلاف الرحالة من هذا الصنف ، الذى كان أكثر من مضلل ، وهو يقدم اسهامه إلى المعرفة الجغرافية ، ويوقعها فى الخطأ الجسيم .

أما الرجل النشيط ، الذى مارس الرحلة حبًا فى الرحلة ، وانكب بكل الاهتمام على جمع حصادها ، تسجيله فى كتابات تحكى قصتها ، وتدون مشاهداتها ، فهو رجل مجتهد ومفيد . وهو مجتهد لأنه قام بالرحلة وتحمل المشقة ، لكى يغطى مساحات هائلة ، ويزور أنحاء كثيرة. ثم هو مفيد لأنه سجل مشاهداته وما وصل إلى علمه ، من المعرفة الجغرافية أو التاريخية وغيرها ، أثناء أو بعد انتهاء الرحلة . وينبغى أن نستشعر كيف كان اهتمام هذا الرحالة علامة صادقة ، على أن الهدف الأساسى للرحلة ، هو جمع الحصاد ، الذى تولى تسجيله ، فى كتاب . وهذا معناه أن هذا الرجل من الرحالة ، صاحب كتاب من كتب الرحلات . ومعناه أيضًا أن كتاب الرحلة ، كتاب من نوع خاص ، يسجل اجتهاد الرحالة ، وهو يمارس هوايته فى الرحلة .

هذا ومن شأن الرصيد من المعرفة التى سجلها الرحالة فى هذا الصنف من الكتب ، أن يمثل شكلاً من أشكال التسجيل المفيد ، لحساب المعرفة الجغرافية ، والمعرفة التاريخية ، وغير ذلك من أبواب المعرفة المتنوعة . وصحيح أن هذا الصنف من الكتب الذى عرف باسم أدب الرحلات قد أفاد الجغرافيين المسلمين ، وأسعفهم بالمعرفة الجغرافية ،

التى تحتويها مؤلفاتهم الجغرافية الوصفية عن الأقطار . ولكن الصحيح أيضًا ، أن تسجيل الرحلة قد أدى فى بعض الحالات إلى اثارة الحس الجغرافى أو الحس التاريخى عند بعض الرحالة ، لكى يتحول من مجرد رحالة إلى جغرافى أو مؤرخ . وهذا معناه أن الرحلات لم تقدم حصادها المفيد إلى الجغرافية فحسب ، بل لقد قدمت أيضاً فريقاً من المجتهدين ، انضموا إلى فريق الجغرافيين المسلمين .

هذا ، ومن الرحالة المجتهدين ، الذين خرجوا إلى الرحالة وجابوا الأرض وتحملوا المشقة ، نذكر ناصر خسرو والهراوى ، والبغدادى ، وابن جبير ، وابن سعيد ، والغرناطى ، وابن رشيد ، وابن بطوطة . وقد ترك كل واحد منهم كتاباً جيداً ، يسجل رحلته ، ويحكى قصة هذه الرحلة ، ويصور مشاهداته . وينبغى أن نذكر أن الرحالة الذين خرجوا إلى الرحلة ، من أجل جنى ثمراتها وتسجيلها فى كتاب ، لحساب المعرفة الجغرافية ، فريقين . وقد خرج الفريق الأول من المشرق الاسلامى ، وخرج الفريق الثانى من المغرب الاسلامى ، تطلعاً إلى زيارة الأقطار فى العالم الاسلامى ، أو فيما وراء العالم الاسلامى .

وصحيح أن الهدف كان واضحًا من الرحلة ، قبل أن يغادر الرحالة دياره ، وبعد أن يغامر فى سبيل هذا الهدف . ولكن الصحيح أيضاً ، أن عوامل كثيرة متداخلة ، قد اشتركت ، فى رسم خط سير الرحلة . وفى اعتقادى أن افتقاد الهيئة التى تمول أو توجه الرحلة ، قد ترك الأمر كله للظروف ، لكى تلعب هذه العوامل بالرحلة . ومع ذلك فلقد كانت الرحلة مفيدة ومثمرة ، لحساب المعرفة بصفة عامة . وقد تحققت هذه الفائدة ، من خلال اخراج الكتاب الذى يحكى قصة الرحلة ، ويسجل مشاهدات الرحلة وانطباعاتهم أثناء الرحلة .

رحلات المشارقة وكتبهم :

ومن الرحالة المشارقة المسلمين ، ناصر خسرو علوى الفارسى . وهو من رحالة القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) . ومنهم أيضًا على ابن أبى بكر الهراوى من رحالة القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) . هذا بالاضافة إلى عبد اللطيف البغدادى من رحالة القرن الثانى عشر الميلادى أيضًا . وقد تعشق كل واحد من هؤلاء

الرحلة ، وقام بالرحلة فعلاً ، وسجل مشاهداته أثناء الرحلة ، فى الأقطار التى زارها ، بطريقته الخاصة . ومن خلال الاطلاع على كتب هذه الرحلات ، نتبين كيف تفاوتت المستويات ، وكيف يختلف ما يحتويه كل كتاب من حصاد الرحلة . ذلك أن الرحالة يسجل انطباعه ، ولا يخضع لنمط معين من حيث جمع المعلومات ، أو من حيث تسجيلها .

هذا ، وقد أمضى ناصر خسرو علوى الرحالة الفارسى ، فترة طويلة من العمر ، وهو يجوب الأرض ويستمتع بالرحلة . وشملت زيارات ناصر خسرو ، ايران وتركستان والهند . كما واصل الرحلة ، مروراً بالشام والقدس الشريف ، إلى الحجاز ، لكى يؤدى فريضة الحج فى مكة المكرمة . وبعد الحج استهوته مصر ، فعرج عليها ، ومكث فيها لبعض الوقت . وبعد حوالى خمسين عامًا من الرحلة فى هذه الأقطار فى أنحاء المشرق الاسلامى ، وبعد معايشة الناس ومعاينة الواقع الجغرافى ، عاد ناصرخسرو إلى موطنه فى خراسان .

وفى موطنه ، تفرغ ناصر خسرو لتسجيل انطباعاته ومشاهداته فى الرحلة تفرغاً كاملاً . وقد اتخذ التسجيل شكل اليوميات . ولقد أفلح ناصر – بكل الذكاء والحنكة – فى تقويم مشاهداته تقويماً جيداً . كما أفلح فى التسلل إلى أعماق الناس فى البلاد التى زارها ، وكتب انطباعاته عنهم وعن تقاليدهم . بل لقد أعطى ناصر خسرو تصويراً جيداً ، عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، فى تلك البلدان (١) .

وأبو الحسن على بن أبى بكر الهراوى ، واحد من الرحالة المشارقة المسلمين ، الذين استهوتهم الرحلة والأسفار ، حبًا فى الرحلة أكثر من أى شئ آخر . وكان الهراوى الذى عرف عنه حب الرحلة وكثرة الأسفار ، وحسن معاشرة الناس فى الأقطار التى زارها ، معاصراً للرحالة ابن جبير من الرحالة المغاربة المسلمين . وفى أسفاره زار الهراوى العراق والشام والحجاز . كما زار مصر والمغرب، وطاف ببعض

---

(١) ناصر خسرو فارسى كتب رحلته بالفارسية . وقد ترجمها د. يحيى الخشاب فى القاهرة .

جزر البحر المتوسط ، وعاش فى جزيرة صقلية (١) لبعض الوقت . ثم عرج على بلاد الروم ، وأشبع حب استطلاعه إلى مشاهدة أرض الروم وحياة الروم .

وصحيح أن الهراوى سجل رحلته أو رحلاته فى هذه الأقطار ، فى كتاب من كتب الرحلات . وصحيح أن الهراوى زج فى وصفه وكتاباته القصص الخرافية ، وشرد إلى ذكر الأساطير . ولكن الصحيح أيضاً ، أن كتاب الهراوى عن أسفاره بعنوان الاشارات إلى معرفة الزيارات ، لا يهتم إلا بذكر أهم المزارات والمساجد ودور العبادة التى شاهدها فقط . ومن ثم كانت العاطفة الدينية التى تأججت فى نفس الهراوى ، وحولت رحلته إلى شكل من السياحة الدينية فى الأقطار ، من وراء هذه النزعة ، التى حرمت قلمه من تقديم بعض الزاد المفيد ، لحساب المعرفة الجغرافية . ومن أجل ذلك يسقط بعض الجغرافيين المسلمين كتابات الهراوى من حسابهم ، وهو ما لا ينبغى أن يحدث ، لأن المهارة والحنكة ، تكون كفيلة باستخلاص بعض الحقائق من كتاباته ، لكى تنتفع بها الكتابة الجغرافية .

وعبد اللطيف البغدادى ، واحد من الرحالة المشارقة المسلمين ، الذين عرف عنهم حب العلم وطلب المعرفة . ومن أجل المعرفة والعلم . أحب البغدادى الرحلة والأسفار فى أنحاء الأرض . بمعنى أنه أخذ بالانفتاح سبيلاً، لكى يتحلى بالمعرفة،وينهل من معنيها الثرى فى كثير من الأقطار والأمصار . وقد جاب البغدادى فى أنحاء المشرق الاسلامى ، وزار الشام ومصر والعراق وأذربيجان وارضروم ، طلباً للمعرفة فى مجالس العلم فيها . وكان من شأنه أن يعايش الناس ، وأن يقف على أحوالهم ، وهو يطلب المعرفة ويتقصى الحقائق عن الأرض والحياة .

وقد سجل البغدادى تفاصيل رؤيته فى كتب مفيدة عن الرحلات التى قام بها . ومن أهم كتب البغدادى، كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر . وفى هذا الكتاب الجيد ، يمكن

---

(١) نفيس أحمد : المرجع السابق ص٨٥ .

أن نتبين صدق وذكاء الحس الجغرافى والتاريخى ، وهو يذكر ويسجل صوراً صادقة عن الحياة فى مصر . كما نتبين كيف يحرص على تسجيل التعليقات التى تظهر أنه صاحب رأى ، وهو يعلق ويكتب انطباعاته الخاصة الذكية ، عن الأحوال الاجتماعية والعمرانية فى مصر.

رحلات المغاربة وكتبهم :

كان المغاربة – فى الواقع – أكثر اهتمامًا بالرحلة ، واخراج كتب الرحلات . وفى اعتقادى أن التشوق إلى زيارة المشرق الاسلامى ، الذى كان يمثل مركز الثقل الاقتصادى والسياسى والدينى فى العالم الاسلامى ، كان من وراء الرحلات الكثيرة التى خرجت من المغرب فى اتجاه الشرق . ويذكر من الرحالة المغاربة المسلمين ، ابن جبير ، وابن سعيد المغربى ، والبلنسى العبدرى ، وابن رشيد الفهروى وأبو البقاء البلوى ، وأبو حامد الغرناطى ، وأبو عبد اللّه بن بطوطة ، وأبو محمد التيجانى .

هذا ، وقد كان كل هؤلاء الرحالة ، من هواة الرحلة والأسفار فى انحاء العالم الاسلامى . بل لقد كان كل واحد منهم ، ناجحًا ، وهو يحسن استثمار المشاهدة والمعاينة فى الأقطار والأقاليم التى شهدتهم، وهم يجوبون الأرض ، ويخالطون الناس ويتحسسون الواقع الجغرافى . وقد سجل هؤلاء الرحلة اهتمامهم بالمعرفة ، فى اطارها الواسع وحرصهم على طلبها فى انحاء الأرض . ولكنهم برهنوا فى الوقت نفسه على ذكاء الحس الجغرافى والتاريخى والاجتماعى ، أكثر من أى شئ آخر ، وهم يخرجون كتبهم المشهورة عن الرحلات .

وقد تحمل الرحالة المغاربة مشقة الرحلة الطويلة ومتاعبها ، وهم ينتقلون من قطر إلى قطر آخر ، فى المشرق أو فى المغرب الاسلامى . بل لقد تحمل الواحد منهم أعباء وتكاليف الرحلة ، فى أقطار تقع خارج العالم الاسلامى ، على الصعيدين الأفريقى والآسيوى . وصحيح أنهم انتفعوا بالأمن الذى حققته سلطة الدولة على الطريق . وصحيح أنهم استثمروا هيبة الدول ، وسمعتها فيما وراء العالم الاسلامى . ولكن الصحيح أيضاً ، أنهم اعتمدوا على الاجتهاد الشخصى ، وعلى الموارد

الخاصة ، وفى تحديد خط سير الرحلة ، وفى تمويل الرحلة . وهذا معناه أنهم افتقدوا الهيئة التى تمول الرحلة ، وافتقدوا الجزاء السخى والمثوبة المادية العاجلة ، التى ينبغى أن تكون فى مقابل الرحلة . ومع ذلك ، فقد كانت كتب الرحلات ، التى سجل فيها الرحالة مشاهداتهم ، وهم ينتقلون من قطر إلى قطر آخر ، معيناً زاخراً بصور ممتازة ومفيدة ، لحساب المعرفة الجغرافية ، والمعرفة التاريخية ، والمعرفة الاجتماعية ، والمعرفة السياسية .

وأبو الحسن محمد بن أحمد البلنسى ، المشهور بابن جبير رحالة من المغاربة المسلمين المرموقين فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) . ولقد قام ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق الاسلامى ، لكى يشبع شغفه بالرحلة ، ويجمع حصاد المعرفة من خلال الرحلة ، والتعامل والتعايش مع الناس ،وينتفع بزيارة بعض الأقطار والأمصار . وكانت الرحلة الأولى رحلة حج إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة . وكانت الرحلة الثانية رحلة شوق إلى الرحلة والتزود بمزيد من المعرفة ، التى تشغله ويبحث عنها فى الأقطار والأمصار . أما الرحلة الثالثة ، فلقد كانت رحلة فرار من الملل والحزن والأسى ، بعد أن افتقد زوجته التى ماتت ، وكره الحياة بدونها فى سبتة . وفى كل رحلة من هذه الرحلات ، كان من شأن ابن جبير ، أن يعاين ويشاهد ويستشعر الواقع الحياتى للناس الذين يختلط بهم ، وأن يتقصى الحقائق الحية التى تشبع تطلعه وحبه للمعرفة .

هذا ، وقد جاء تسجيل ابن جبير على شكل يوميات للرحلة ، وهو يجوب الأرض ويستشعر المكان ويتعامل مع الناس ، فى كتاب بعنوان (تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الأسفار) ، التى عرفت برحلة ابن جبير(١). وفى هذا الكتاب من كتب الرحلات ، يسجل ابن جبير رؤيته وملاحظاته عن المكان ، وعن الأحوال الاقتصادية والحياة الاجتماعية ، ويصور أنماط العمران والمساجد والأضرحة والآثار التى زارها (٢) . ومهما قيل بشأن

---

(١) تعرف رحلة ابن جبير بين الجغرافيين المسلمين ، برحلة الكنانى .

(٢) كانت نظرة ابن جبير تتبدل من قطر إلى قطر آخر . فقد اهتم بالأحوال –

كتابة ابن جبير فى كتابه عن الرحلات ، من حيث ركاكة التعبير أحياناً ، وعدم ترابط الجمل والأفكار أحياناً أخرى ، ومهما تكشف العجز فى بنية وتكوين وتركيب الصور والانطباعات ، التى يمكن أن يستخلصها القارئى من كتاب ابن جبير ، فإن كتابة ابن جبير كانت – بكل تأكيد – المنهل أو المعين الذى أفاد منه لفيف من الكتاب ، الذين اطلعوا عليه ، من أمثال العبدرى والمقريزى وابن بطوطة .

وأبو الحسن على بن موسى ، المشهور بابن سعيد المغربى ، رحالة اندلسى من غرناطة . وهو واحد من أولئك الذين أحبوا الرحلة ، وانغمسوا فى متاعبها لحساب المعرفة . وهو أيضاً واحد من أولئك الذين حببتهم الرحلة فى الجغرافية والكتابة الجغرافية . ولقد كان حظه وتوفيقه فى الرحلة وتسجيل حصاد الرحلة فى كتاب من كتب الرحلات ، أفضل بكثير من حظه فى الجغرافية والكتابة الجغرافية الوصفية . وهذا معناه أنه لم يوفق فى تطويع المعرفة التى تجمعت له، تطويعاً يخدم الكتابة الجغرافية الوصفية ، ومع ذلك ، فينبغى أن نتبين كيف أن حاسة ابن سعيد الجغرافية الذكية ، قد وجهت اهتمامه فى الرحلة صوب المعرفة الجغرافية .

هذا ، وابن سعيد المغربى من رحالة القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) ، الذين استهوتهم الرحلة إلى المشرق الاسلامى . وقد خرج إليه بالفعل فى رحلتين . وفى الرحلة الأولى اتجه ابن سعيد إلى مصر والشام والعراق وأرمينية ، وتجول فى أنحائها على مدى أكثر من عشر سنوات كاملة ، قبل أن يعرج على جزيرة العرب ، ويؤدى فريضة الحج ، قبل العودة إلى تونس . وفى الرحلة الثانية ، خرج ابن سعيد إلى مصر وأرمينية وايران ، وتجول فيها على مدى ثلاث سنوات ، قبل أن يعاوده الحنين للوطن فيعود إلى تونس مرة أخرى .

= الاجتماعية والاقتصادية عن مصر ، واهتم بالأحوال الدينية عن جزيرة العرب، واهتم بالوعظ والوعاظ عن العراق ، واهتم بالأحوال السياسية والحربية عن الشام .

وقد ضمن ابن سعيد المغربي ، كتابه فلك الأدب المحيط بحلي لسان العرب ، خلاصة جيدة تجمع الحصاد الذى جمعه أثناء هاتين الرحلتين . وينقسم الكتاب إلى كتابين بالفعل والكتاب الأول بعنوان (المغرب فى حلى المغرب) وهو الذى تولى اتمامه واخراجه من بعد أبيه (١). أما الكتاب الثانى فهو بعنوان (المشرق فى حلى الشرق) ، وهو من تأليفه . ويبدو أن ابن سعيد قد أوتى القدرة على حسن تصوير رؤيته عن الأقاليم ، وتجسيد صور الحياة فيها . ومع ذلك فليس فيه اضافة مهمة تلفت النظر ، سوى ما أفاد به من رحلات رحالة مغمور ، عرف باسم ابن فاطمة ، كان قد رحل وجمع بعض المعلومات عن افريقية جنوب الصحراء . أما قيمة كتابات بن سعيد المغربى للمعرفة الجغرافية ، فهى محدودة ، لأنه كان يخلط بين الأقاليم ، ويخطئ الوصف فى مواضع كثيرة .

ومحمد بن محمد على البلنسى ، المشهور بالعبدرى ، رحالة أندلسى عربى ، من بين رحالة القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) ، وقد ورث العبدرى عن أبيه حب الرحالة والأسفار ، طلبًا للعلم والمعرفة . وكان من وراء العبدرى فى رحلته ، هدفًا دينياً ، حيث تطلع إلى السفر إلى الحجاز وتأدية فريضة الحج . وسار العبدرى فى طريق الحجاج الشمالى ، الذى يمر من المغرب إلى مصر عن طريق ليبيا. ومن مصر ، واصل العبدرى مسيرته فى الطريق البرية ، إلى مكة المكرمة . ثم عاد أدراجه بعد الحج بنفس الطريق إلى موطنه فى المغرب.

هذا ، وكانت رحلة العبدرى متأنية بشكل يلفت النظر ، لأنه تطلع إلى اشباع هوايته من المعرفة ، وهو يمر بالأقطار التى مر بها فى

---

(١) اجتهاد ابن سعيد فى اخراج كتاب المغرب فى حلى المغرب ، هو اجتهاد يتمم اجتهاد أربعة رجال من أسرته . بمعنى أنه نشأ فى أسرة عرفت بطلب العلم وحب المعرفة . وقد بدأ فى اعداد هذا الكتاب عبد الملك ابن سعيد ، ثم أضاف إليه ولده محمد بن عبد الملك ، وزاد عليه مرة أخرى موسى ابن محمد ابن الملك والد ابن سعيد وأخيراً أقبل ابن سعيد على هذا الكتاب ، وأخرجه فى صورته النهائية

رحلتيّ الذهاب والعودة . ومن خلال المعاينة والمشاهدة والاستماع إلى العلماء ، استطاع العبدرى ، أن يتعلم ، وأن يسجل رحلته فى كتاب من كتب الرحلات ، و هو المعروف بالرحلة المغربية . كما استطاع أن يبرهن على أن الهدف الأساسى للرحلة كان هدفًا نابعًا من التطلع إلى المعرفة العامة بصفة عامة ، والمعرفة الجغرافية بصفة خاصة .

وفى الرحلة المغربية ، صور العبدرى كل الصور التى تصور رؤيته ومشاهداته ، على الطريق من المغرب إلى مصر ، وقد ذكر أهم الآثار والمعالم ، التى عاينها فى الأقطار التى مر بها . ومع ذلك ينبغى أن نفطن إلى أن العبدرى كان أكثر اهتمامًا بالناس منه بالأرض ، وتصوير خصائص الأرض فى هذه الأقطار . واهتمام العبدرى بالناس وحياة الناس كان – بكل تأكيد – من وراء تصوير شامل وجيد ، لكثير من صور الحياة الاجتماعية ، التى تعبر عن سلوك الناس على مستوى الفرد والجماعة . كما أولى العبدرى الحياة العلمية ، ومجالس العلم اهتمامًا كبيراً ، لكى يعرض الصور الجيدة عن الأحوال العلمية ، فى الأقطار التى زارها (١) . ومن ثم كان تسجيل العبدرى تسجيلاً عن الجوانب البشرية ، يعبر عن انطباعاته الشخصية وهو يختلط بالناس ويتعرف ويحكم على سلوكهم (٢) .

وأبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ، المشهور بابن رشيد السبتى الفهرى ، رحالة من القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) . وهو مغربى من سبته . وقد اشتغل ابن رشيد بطلب العلم أصلاً ، وتخصص فى الحديث . ومن أجل العلم وطلب العلم والاتصال بمجالس العلماء ، ومن أجل أداء فريضة الحج ، كانت رحلة ابن رشيد الأولى إلى المشرق الاسلامى . وقد حقق من هذه الرحلة هدفه ، قبل أن يعود إلى المغرب . ثم استهوته الرحلة مرة ثانية ، فخرج فى الرحلة الثانية إلى الأندلس ، يطلب العلم والمعرفة . وفى الرحلتين تجلى حرص

---

(١) نقولا زيادة : الرحالة العرب صفحة ١٠٥

(٢) كان العبدرى شديد التحامل وهو يسب أهل مصر ، وشديد الافراط وهو يطرى أهل تونس . وفى الحالتين يخرج العبدرى عن حدود الموضوعية ، التى ينبغى أن يلتزم بها الكاتب .

ابن رشيد السبتى ، على المشاهدة والمعاينة واشباع هوايته إلى المعرفة . وفى كتاب جيد عن رحلته إلى الأندلس بعنوان (رحلة المغرب والأندلس) ، سجل ابن رشيد مشاهداته وصور انطباعاته . ومع ذلك يبدو أنه كان أكثر اهتماماً بالأدب والتاريخ الطبيعى ، أكثر من اهتمامه بأى شئ آخر . وتكاد لا تتحقق رحلة ابن رشيد اضافة ، يمكن أن تنتفع بها المعرفة الجغرافية بشكل مباشر .

وأبو البقاء خالد بن عيسى ، المشهور بالبلوى ، رحالة آخر من رحالة القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) . وهو أندلسى الأصل من غرناطة . وقد عرف عن البلوى حب العلم ومجالسة العلماء ، والتطلع إلى المعرفة والبحث عن مصادرها . ومن أجل طلب العلم والاتصال بالعلماء ، ومن أجل اداء فريضة الحج ، كانت رحلة البلوى إلى المشرق الاسلامى . وقد خاض تجربة الرحلة البرية ، لكى يمر فى المغرب ، وتجربة الرحلة البحرية من تونس ، لكى يصل إلى الاسكندرية. وكانت رحلته من الاسكندرية إلى مكة المكرمة بطريق البر أيضاً . ولدى عودته تلكأ كثيراً فى الاسكندرية ، وعاش فيها فترة طويلة ، لكى ينهل منها ، قبل أن يغادرها بحراً إلى تونس ، ثم إلى موطنه مرة أخرى .

وفى كتاب بعنوان (تاج المرفق فى تحية أهل المشرق) سجل البلوى مشاهداته وانطباعاته عن الرحلة . وصحيح أنه أخذ عن بعض الرحالة ونقل عنهم فى كتاباته . ولكن الصحيح أيضاً ، أن البلوى أعطى صورة جيدة عن مشاهداته أثناء الرحلة ، وسجل انطباعاته عن البلاد التى مر بها ، بشكل يخدم طالب المعرفة . ومع ذلك كان جل اهتمام البلوى مركزاً على مصر ومشاهداته فى القاهرة وأهل العلم فيها ، وعن مشاهداته فى الاسكندرية التى افتتن بها ، وسحره تاريخها العريق . ومن ثم يمكن أن تمثل كتابته عن مصر بالذات مصدراً جيداً للمعرفة الجغرافية فى الفترة التى عاشها البلوى بين أهل مصر ، فى القرن الرابع عشر الميلادى .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى ، المشهور بأبى

حامد الغرناطى ، رحالة مغربى من رحالة القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) . وهو أندلسى من غرناطة ، يحب العلم . وقد استهوته الرحالة لكى يطل على العالم طلباً للعلم والمعرفة . وقد حفزت هذه الهواية الغرناطى للسفر إلى المشرق الاسلامى ، فى رحلتين متواليتين . وفى كل مرة ، كانت مصر التى وصل إليها طلبًا للعلم، والجلوس فى مجالس العلم نقطة الانطلاق فى كل رحلة من هاتين الرحلتين .

وقد خاض الغرناطى تجربة الرحلة البرية والرحلة البحرية ، وصولاً إلى مقصده . ففى الرحلة الأولى طاف الغرناطى براً بالشام والعراق ، ثم ركب البحر إلى صقلية ، لكى يعود منها بعد ذلك إلى مصر . وفى الرحالة الثانية خرج الغرناطى مرة أخرى ، لكى يجتاز الأرض ، وصولاً إلى ما حول بحر قزوين . وقد طاف بضفاف نهر الفولجا ، وبلاد البلغار وخوارزم ، قبل أن يعود أدراجه إلى مصر .

وفى بغداد ، يبدأ الغرناطى فى اعداد أول كتبه بعنوان (المغرب عن بعض عجائب المغرب) . ثم عكف على اعداد كتاب أخر بعنوان (تحفة الألباب ونخبة الأعجاب) . وفى هذا الكتاب الأخير دراسة تضم مقدمة وأربعة أبواب ، الأول عن صفة الدنيا وسكانها ، والثانى عن عجائب البلدان وغرائب البنيان ، والثالث عن صفة البحار وعجائب حيواناتها، والرابع عن الحفائر والقبور . أما الكتاب الذى سجل فيه رحلاته فى الأندلس وأفريقية والشام وبحر قزوين وما حوله ، فقد أخرجه الغرناطى بعنوان (نخبة الأذهان فى عجائب البلدان) . وفى هذا الكتاب ، كتابين أخرين عن مشاهداته فى الرحلات . ومن هذين الكتابين ، كتاب المغربان ، بعد عجائب البلدان ، وهو عن المغرب بصفة خاصة ، وكتاب تحفة الكبار فى اشعار البحار ، وهو عن الرحلات البحرية (١) .

وأخيراً نذكر شيخ الرحالة أبى عبد الله محمد بن محمد اللواتى الطنجى ، المشهور بابن بطوطة . وابن بطوطة رحالة مغربى مسلم فذ ،

---

(١) المادة التى سجلها الغرناطى بكل ما فيها من حقائق وخرافات ، كانت المصدر الذى أخذ عنه القزوينى الجغرافى. راجع نفيس أحمد: نفس المصدر صفحة ٧٦.

من بين رحالة القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) . وقد أغرت الرحلة ابن بطوطة بشكل يلفت النظر . ومن ثم عاش الرحلة أكثر من ثلاثين سنة ، وهو يجوب الأرض ويسافر من بلد إلى بلد آخر فى أنحاء العالم الاسلامى ، على الصعيدين الأفريقى والآسيوى .

وقد خاض ابن بطوطة تجربة الرحلة شاباً فى البر والبحر . وكانت أكثر من رحلة ، بل رحلات متعددة ، لدرجة أنه حج إلى مكة المكرمة ثلاث مرات . وفى هذه الرحلات ، قطع ابن بطوطة - بكل تأكيد - أكثر من مائة ألف من الكيلومترات ، فى البر والبحر على السواء . وكانت رحلات ابن بطوطة لا تخضع - فى الغالب - لخطة معينة . بل ربما كانت حركة ابن بطوطة ، واتجاهات الرحلة البر والبحر ، وليدة الظروف التى فرضتها الرحلة نفسها .

وفى الرحلة البرية ، وعلى الصعيدين الأفريقى والآسيوى ، زار ابن بطوطة كل أقطار العالم الاسلامى تقريبًا ، وعايش الناس فيها وجرب الاقامة فى بعضها لبعض الوقت ، وتعامل مع الناس . كما زار ابن بطوطة أيضاً ، بعض الأقطار خارج اطار العالم الاسلامى ، ومنها سيلان والصين فى آسيا ، وبلاد القرم وأوكرانيا والبلقان فى أوروبا .

وفى الرحلة البحرية خاض ابن بطوطة فى رعاية بعض التجار المسلمين التجرية باطمئنان ، وركب البحر فى المحيط الهندى ، وزار جزر ملديف وبعض الجزر فى جنوب شرق آسيا .

وفى الحالتين ، فى رحلات البر ، وفى رحلات البحر ، كان الرحالة المشهور ابن بطوطة حريصًا على المشاهدة والمعاينة ، فى كل الأقطار التى مر بها . وقد أسعفته حاسته الجغرافية وحاسته التاريخية ، لكى يستشعر بعض الحقائق الهامة الصادقة ويسجلها ، لحساب المعرفة ، وهو يتجول فى الأقطار ويتابع أحوال الناس اقتصادياً واجتماعيًا وسياسياً وتاريخياً .

وفى تسجيلات رحلات ابن بطوطة ، فى كتاب بعنوان « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، المشهور برحلة ابن بطوطة ، تصوير جغرافى جيد للبيئة الطبيعية والبشرية ، للبلدان التى

زارها . بل قل أنه أفلح فى تسجيل عرض مشوق لأحوال الناس فى هذه الأقطار ، اقتصاديًا واجتماعيًا وتاريخيًا وثقافيًا ودينيًا . وصحيح أن التسجيل يصور كيف يكون الخلط الشديد ، بين المادة العلمية المفيدة من ناحية ، والقصص والحكايات والروايات ، التى لا تمثل استطرادًا ، بل شرودًا غير مفيد من ناحية أخرى . وصحيح أننا قد نكتشف كيف انزلق ابن بطوطة إلى المغالطات أو الأخطاء (١) ، التى تضلل الباحث الجغرافى وهو يجرى بحثًا موضوعيًا . وصحيح أننا قد نستشعر كيف أخذ ابن بطوطة عن الرواية بعض المعرفة ، لكى ينسبها إلى نفسه ، ويتحمل وزر غيره ، ثم يتردى – بحسن نية – فى الخطأ الشنيع . ولكن الصحيح أيضًا ، أن ابن بطوطة شيخ الرحالة العرب ، قد سجل حصادًا مفيدًا عن رحلاته الطويلة ، وجمع بيانات مفيدة ومطلوبة – بكل تأكيد – لحساب المعرفة الجغرافية ، والمعرفة التاريخية ، والمعرفة الاجتماعية ، فى هذه الفترة المتأخرة من العصر ، الذى ما زال الجغرافيون المسلمون فيه ، حريصون كل الحرص على التشبث بزمام الفكر الجغرافى ، وقيادة مسيرته .

* * *

هذا ، ومن بعد ابن بطوطة واعتبارًا من القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، حدث التحول الخطير من وجهة النظر الحضارية والعلمية والسياسية فى وقت واحد . ولم يحتمل هذا التحول أكثر من معنى واحد فقط . ذلك أن الرحالة المسلمين قد فتر عزمهم ، واضمحل اجتهادهم فى الرحلة ، وفى جنى ثمرات الرحلة ، لحساب المعرفة الجغرافية . واعتبارًا من القرن الخامس عشر ، يتواضع الاسهام العربى الاسلامى ، فى الرحلة . كما يتواضع الاسهام العربى الاسلامى

---

(١) أملى بن بطوطة بيانًا برحلته على ابن جزى بعد أن أفرغ من هذه الرحلات وقد كان الكاتب أمينًا فى التسجيل . والسقطات والأخطاء فى التسجيل من صنع ابن بطوطة نفسه بقصد أحيانًا ، ومن غير قصد أحيانًا أخرى . ومع ذلك فقد دافع عنه بعض المعاصرين ، وأسقطوا عنه تهمة التلفيق أو التزوير والغش ومنهم ابن خلدون وابن جزى .

فى جمع الزاد والمعرفة، وتقديمها إلى الزمرة العاملة فى صياغة الوصف، ومعالجة الفكر الجغرافى .

* * *

ومن رحالة يخرج عن القاعدة ، ويكتب رحلته بالفارسية بدلاً من العربية ، إلى رحالة يعالج التسجيل بأسلوب سقيم ، نفتقد فيه معنى التجديد والاضافة المفيدة ، نستشعر كيف يتواضع الاسهام وكيف يضمحل الاجتهاد ، وكيف يبدأ الانحدار لغير مصلحة المعرفة الجغرافية.

وعن هذا التحول ، نقول أن العوامل التى فرضت هذا الاضمحلال والتردى ، قد نبعت من داخل البنية البشرية المتصارعة ، والبنية السياسية المتهالكة فى العالم الاسلامى بصفة أساسية . هذا بالاضافة إلى عوامل أخرى تسللت من خارج العالم الاسلامى ، فى ركاب التحديات الصعبة ، التى واجهت الاسلام فى أوطانهم . وكان المسلمون أعجز من أن يحبطوا مفعولها الهدام . وينبغى أن ندرك كيف أن هذا الاضمحلال الذى أصاب الرحلة فى الصميم ، قد أدى بالضرورة إلى اضمحلال الاجتهاد فى الجغرافية بصفة عامة .

* * *

ومن بعد هذا الاجتهاد الاسلامى البناء ، والتقدم العلمى الموضوعى ، ومن بعد الدعم الحافز الذى قدمه الاسلام الدين والاسلام الدولة لحساب الريادة الممتازة التى أحيت وطورت وأثرت الفكر الجغرافى ، على مدى أكثر من ستة قرون من عمر الحياة ، ينبغى أن نستشعر كيف أفلت الزمام من أيدى المسلمين ، وكيف نفتقد اجتهاد الصفوة الممتازة من الجغرافيين المسلمين .

هذا ، واعتباراً من القرن السادس عشر الميلادى ، أمسك الأوروبيون بزمام الفكر الجغرافى . وقد تحمل فريق منهم مسئولية تطوير النظرية ، لحساب الفكر الجغرافى الأفضل ، وتحمل فريق آخر مسئولية الرحلة فى البر والبحر ، لحساب الكشف الجغرافى الذى يزود

الجغرافيين بالمعرفة الجغرافية أما المسلمون فقد استسلموا لأسباب الاضمحلال والتردي . لكي يسجل الفكر الجغرافي العربي . التحول من القمة إلى الحضيض وصحيح انه على مدى القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر هناك اجتهاد عربي اسلامي في الرحلة . وفي الكتابة الجغرافية ولكن الصحيح أن هذا الاجتهاد لم يفلح في أن يحافظ على مكانة الفكر الجغرافي العربي . أو أن يساير التطور في النظرية والتجديد والاضافة

الاضافات الجغرافية العربية الاسلامية :

هذا ولا ينبغي أن تحتتم هذه المرحلة التي سجلت اهتمامات الجغرافيين العرب من غير ذكر اضافاتهم المهمة ، في مجالات المعرفة الجغرافية ، وهم رواد مسيرة الفكر الجغرافي وإذا كنا نعتبر دور الجغرافيين العرب يجسد توجهًا محمودًا ، وهم ينتشلون الفكر الجغرافي الصحيح المهجور ، من رقدة العدم ، فإنه يمثل الاضافة أيضاً . بمعنى أن هذا التوجه السليم يجسد التصحيح ، ويجسد الاضافة في نفس الوقت . وبمعنى أن الاضافة أو الاضافات تجسد شيئًا مهمًا يستجد . وهو يطور مسيرة التفكير الجغرافي .

وتتمثل الاضافات التي تستحق التسجيل ، وهي من صنع وانجاز الجغرافيين العرب فيما يلي :

١ - الاضافة التي حققت الشئ المناسب من التوازن الموضوعي ، بين الاهتمام بالمنظور الجغرافي الطبيعي . والاهتمام بالمنظور الجغرافي البشري وقل أن الاهتمام الجغرافي القديم ، قد تعود على التمعن في المنظور الجغرافي الطبيعي بشكل ضم الانسان ، وكأنه عنصر من العناصر المتداخلة في توليفة هذا المنظور . وجاء الاهتمام الجغرافي العربي . لكي يفصل بين المنظور الجغرافي الطبيعي (الأرض) ، والمنظور الجغرافي البشري (الناس) . وتلك هي البداية الفعلية ، التي استوجبت وضع بذرة الثنائية في التخصص الجغرافي .

٢ - الاضافة التي قدمت الاهتمام بالرحلة . ومعاينة المنظور الجغرافي الطبيعي . والمنظور الجغرافي البشري . لكي يكون من بعد

ذلك الوصف الجغرافى الأحسن . عن أى من هذين المنظورين ويعنى ذلك شيئاً مناسباً من التدقيق . وحسن استيعاب المنظور الجغرافى الطبيعى . أو المنظور الجغرافى البشرى . بقصد تحرى الصدق والموضوعية . فى الوصف الجغرافى التصويرى ومع ذلك نقول أن هذه المبادرة تعنى أيضاً . ترسيخ قيمة وأهمية الزيارة التفقدية . وهى الخطوة الأولى التى وجهت أو رسخت الاهتمام الجغرافى بالدراسة الميدانية .

٣- الاضافة التى وسعت قاعدة الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، بأن شدت انتباه كل الناس ، واستهوت بعض الناس . ولقد اشترك فريق المتخصصين مع فريق الهواة ، فى مباشرة الاهتمام الجغرافى . وربما توجه الهواة الأثرياء إلى تمويل العمل الجغرافى ، وتوجه الهواة غير الأثرياء إلى مباشرة الرحلات ، التى أنجزت الوصف الجغرافى عن الأقطار ، التى شهدت جولات الرحالة الهواة . ويجب أن نميز بين رحلة المتخصص ، وهى زيارة تفقدية ، ورحلة الهواة ، هى رحلة تجاوب الرغبة ، فى طلب المعرفة الجغرافية .

وقل أن الاجتهاد الجغرافى العربى قد رسخ هذه الاضافات ترسيخاً استوجب أن تكون جزءاً من الرصيد الجغرافى ، الذى ورثه الاجتهاد الجغرافى الأوروبى . بمعنى أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، الذى آلت إليه ريادة مسيرة الفكر الجغرافى ، بعد أن اضمحل وانتكس الاجتهاد الجغرافى الإسلامى العربى ، أخذ بهذه الاضافات وحافظ عليها ، وتعمد تطويرها ، وهو يلتمس وضع المعرفة الجغرافية فى اطارها العلمى الموضوعى .

* * *

الفصل الرابع

بدايات الفكر الجغرافى الحديث

- النهضة الأوروبية وتبنى الفكر الجغرافى الصحيح
- الاجتهاد الأوروبى وتطوير الفكر الجغرافى
- مرحلة استيعاب الفكر الجغرافى القديم
- مرحلة جديدة واجتهاد يلتمس أصول العلم

الفصل الرابع

بدايات الفكر الجغرافى الحديث

تمهيد - الاقتراب الأوروبى ووراثة التراث الجغرافى :

أتاحت الاتصالات بين العالم الأوروبى والعالم الاسلامى سواء كانت على دروب السلام وحسن التعامل والأخذ والعطاء ، أو كانت على درب الحرب والعدوان وسوء التعامل فى الأخذ والعطاء ، شيئًا مثيراً يشد الانتباه . وقب انها هى ، التى هيأت فرص الانفتاح المتبادل . وأفضى هذا الانفتاح المتبادل ، إلى الاحاطة والاطلاع الأوروبى ، على رصيد الاجتهاد الجغرافى العربى الاسلامى . ويبدو أن المقارنة بين رصيد الفكر الجغرافى الصحيح ، الذى تبناه ، وأضاف إليه الاجتهاد الجغرافى العربى الاسلامى من ناحية ، ورصيد الفكر الجغرافى المسيحى ، الذى استغرق فى استسلامه لإرادة رجال الدين المسيحى من ناحية أخرى ، انتهت إلى استشعار التزييف والخطأ ، والبعد عن الصدق فى مجالات الموضوعية الجغرافية .

وقد بدأ التحول الذى صرف اهتمام الأوروبى ، عن رصد الفكر الجغرافى المسيحى الضال ، لكى يتوجه الاهتمام الأوروبى ، إلى رصيد الفكر الجغرافى العربى الاسلامى الصحيح . وأذكر على سبيل المثال ، كيف فتح الملك روجرز بلاط قصره ، لكى يضم الادريسى الجغرافى ، حتى يزوده بمعطيات ونتائج العمل الجغرافى العربى الاسلامى . وربما تأتى ذلك دون علم الكنيسة ، بعد أن استشعر الملك روجز ، مبلغ صدق وموضوعية الاجتهاد الجغرافى العربى ، ومبلغ سذاجة الاجتهاد الجغرافى الأوروبى وبعده عن الموضوعية .

ومع مضى الوقت الذى شهد الصحوة الأوروبية ، التى قدمت للنهضة الأوروبية على الصعيد الأوروبى فى جانب ، وشهد الاضمحلال العربى الاسلامى على الصعيد العربى الاسلامى فى جانب آخر ، تهيأت الظروف التى انتقلت بموجبها ، ريادة مسيرة الفكر الجغرافى ، من

الأيدى العربية الاسلامية إلى الأيدى الأوروبية .

ويستحق البحث أن يتحرى التحول الأوروبى ، من ظلمة وجهالة العصور الوسطى ، إلى تنور وتفتح عصر النهضة . وعن مقدمات هذا التحول والتجهيز لانتهاء العصور الوسطى ، نذكر الخطوات المتأنية ، التى مضت أوروبا بموجبها على درب التوجه الرشيد إلى النهضة . وقد استغرقت هذه الخطوات قروناً متعددة ، اعتباراً من القرن العاشر على أحسن تقدير . وتمثلت هذه الخطوات فيما يلى :

١- كانت الخطوة الأولى على المدى الذى أفلحت فيه الجهود الأوروبية فى سد الطريق ، وايقاف الاجتياح البربرى على ظهور الخيول ، الوافد إليها من وسط آسيا ، وحماية البناء الحضارى الأوروبى على صعيد السهل الأوروبى العظيم . ومثل هذه الحماية أتاحت مناخ الأمن والاستقرار ، وشئ مناسب من التفرغ ، لنمو وتعظيم البناء الحضارى الأوروبى . وفى اعتقادى أن قيام ونشأة بعض الدويلات الاسلامية ، فيما حول بحر قزوين ، قد أسهم فى غلق هذا الباب الشرقى ، الذى طالما شهد مع كل نوبة جفاف فى وسط آسيا ، اجتياح رعاة الخيل ، ومباشرة الكر والفر ، واجهاض أى تقدم أو اضافة إلى البناء الحضارى الأوروبى .

٢- كانت الخطوة الثانية على المدى الطويل ، الذى شهد الانفتاح الاسلامى ، وهو الذى دق أبواب جنوب أوروبا ، وشهد الانفتاح الأوروبى الحربى والسلمى فى المقابل . وقل أن هذا الانفتاح المتبادل ، أتاح شيئًا كثيراً من اليقظة التنور ، على الصعيد الأوروبى . كما أتاح شيئًا من القدرة ، على استيعاب سبل الانتفاع الحقيقى بهذا التنور . وفى ظل هذا التنور ، مضت الاجتهادات التى عملت فى مجالات نمو البناء الحضارى الأوروبى ، على كل المحاور الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والسياسية .

٣- كانت الخطوة الثالثة التى جسدت شيئًا من التحرر ، فى ظل الاحساس بالأمن والتنور . وتمثل هذا التحرر الذى نعنيه فى محصلة المواجهة ، التى تمثلت فى ثورة الاصلاح الدينى . وقل أن هذه الثورة قد

تمردت على الكنيسة الكاثوليكية ، حتى كان الانسلاخ ونشأة الكنيسة البروتستنتية ، التى فصلت بين موجبات التدين ، وموجبات مباشرة حق الحياة فى الدنيا . ومن ثم كفل هذا الفصل ، مساحة كبيرة من الحرية ، فجرت التفكير الأوروبى الحر ، والمتحرر من الخوف الذى طالما فرضته السلطة الكنسية الكاثولوكية . وقل مرة أخرى أن تحت مظلة الأمن ، والتنور ، والتحرر العقلى ، اكتملت كل دواعى اليقظة الأوروبية ، وهى مقدمة مناسبة للنهضة .

٤- كانت الخطوة الرابعة والأخيرة ، التى أعلنت عن مولد النهضة الأوروبية ، هى محصلة نجاح التوجه الأوروبى ، على درب الخروج فى رحلات الكشوف الجغرافية فى المحيط الأطلنطى ، على المحور الطولى ، وصولاً إلى رأس الرجاء الصالح ، وعلى المحور العرضى وصولاً إلى كشف النقاب عن الأرض الجديدة (أمريكا) . وقل كان هذا النجاح فى الوقت المناسب فى القرن الخامس عشر ، وفى نهايته المتأخرة ، لكى تبدأ المسيرة الأوروبية على درب التفوق والتألق والانتعاش ، وهى تنتشر على الصعيد العالمى . وتلك حقيقة ما تعنيه النهضة الأوروبية ، التى فجرتها وأعلنت عنها ، حالة النجاح فى مباشرة الكشوف الجغرافية الكبرى .

النهضة الأوروبية وتبنى الفكر الجغرافى الصحيح :

من الضرورى أن ندرك كيف دعا التردى والاضمحلال ، الذى انساق فيه الفكر الجغرافى العربى ، إلى وضع خطير هدد المسيرة الجغرافية ، وأهدر بعض أهم انجازاتها الجيدة . وما من شك فى أن هذه المسيرة الفكرية ، قد أصبحت منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، فى حاجة إلى من ينتشلها من التردى والضياع ، أو إلى من يتولى أمرها ويقود خطواتها ويرشد تطويرها فى الاتجاه الصحيح .

ويمكن أن نتصور - ببساطة - كيف أقدم الاجتهاد الأوروبى على تبنى هذه المسيرة وولاية أمرها ، وكيف أفلح فى تحمل المسئولية . ولكن المؤكد أن انطلاقة هذا الاجتهاد الأوروبى ، قد تأتت على غير إرادة رجال الدين المسيحى ، لكى تنهى الوضع الشاذ الذى أسفر عن فكر

جغرافى مسيحى مضلل . وهو يضرب على غير هدى فى الطريق المسدود ، على المدى الطويل إلى القرن السادس عشر الميلادى ، ولكى يبدأ الوضع الجديد السوى ، الذى أنجز فلسفات الفكر الجغرافى الحديث .

هذا ، ولقد كانت انطلاقة عصر النهضة الوثابة فى أوروبا ، بداية التحرر والتحول الحقيقى البناء ، الذى أنهى منطق الفكر الجغرافى المسيحى الضال . كما أرادت له الكنيسة فى العصور الوسطى أن يكون . بل أن هذه الانطلاقة المتحررة ، قد وضعت - بكل تأكيد - أول علامات بارزة . وهى تعيد الفكر الجغرافى الصحيح المتحرر إلى الطريق السوى ، وتحرك مسيرته وتنشط خطواتها فى الاتجاه الصحيح إلى ما هو أفضل. بل قل أنه هذا هو الذى مضى على الدرب ، لكى يولد علم الجغرافية فى نهاية المطاف .

وهكذا ، ينبغى أن نتبين كيف انهار الفكر الجغرافى المسيحى وانفرط عقده ، عندما رفضته وتنكرت له إرادة النهضة الأوروبية المتحررة . كما ينبغى أن نؤكد على أن الاجتهاد الأوروبى المتحرر فكرياً ، قد تحول - بكل الفطنة والرشاد - إلى تبنى الفكر الجغرافى الاسلامى العربى ، بعد أن افتقد هذا الفكر قوة دفع الابداع العربى الاسلامى ، فى حوالى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

وصحيح أن هناك أكثر من مسألة أو قضية من وراء افتقاد قوة دفع الابداع العربى الاسلامى ، وتردى مسيرة الفكر الجغرافى فى وضع غير سوى . ولكن المؤكد أن هناك مسألتين أو قضيتين موضوعيتين ، كانتا من وراء تصاعد قوة دفع الابداع الأوروبى ، وتحرر الفكر الأوروبى من تسلط رجال الدين المسيحى . وإلا فكيف تأتى اسقاط كل حصاد الفكر الجغرافى المسيحى ، والتملص منه ورفض كنهه ومضمونه جملة وتفصيلاً . وكيف تأتت العودة إلى صلب جوهر الفكر الجغرافى الصحيح واستيعابه والاضافة إليه ، لحساب الانسان ؟

هذا ، وتتمثل هاتان المسألتان أو القضيتان الموضوعيتان فى نتائج جوهرية أسفر عنها التحول الذى اشترك فى صنعه أو صياغته الفشل

أو الاحباط الذى منيت به الروح الصليبية الأوروبية ، والنجاح الذى أنجزته الثورة الدينية . وهذا معناه أن نتائج الحروب الصليبية وهزيمة حملاتها الشرسة على الاسلام والمسلمين ، ونتائج حركة الاصلاح الدينى ، وعدم الامتثال للكنيسة الكاثوليكية ، قد فتحت أبواب التحول على مصراعيه . ومعناه أيضًا أن هذا التحول قد حرر الفكر الأوروبى، وأطلق له العنان لكى يصبح قوة دفع فجرت الابداع الأوروبى العلمى والحضارى الاقتصادى . ومعناه مرة ثالثة أن النهضة الأوروبية قد وضعت الفكر الأوروبى فى وضع الاستعداد ، لكى يتبنى الفكر الجغرافى العربى الاسلامى الموضوعى الصحيح ،ويحدثه ويطوره .

وعن الحروب الصليبية وحملاتها العدوانية الشرسة ، التى تحكيها قصة المواجهة العسكرية ، بين أوروبا المسيحية المتعصبة والعالم الاسلامى على مدى عدد من القرون ، لا ينبغى أن نتصور - بصرف النظر عن حسابات الهزيمة والانتصار - أنها قد أسفرت فقط ، عن انفتاح مصير وتفتح مثمر ، على ركب التفوق الحضارى أو على حصاد الاجتهاد الفكرى الذى صنعه وأمسك بزمامه المسلمون . بل يجب أن نستشعر أيضاً - بكل اليقين - أن من حصاد هذه المواجهة العسكرية التى أحبطت أمل أوروبا المسيحية فى الانتصار ، وخيبت الرجاء فى التشبث بالأرض فى الشام ومصر ، قد تفجرت دوافع وتولدت حوافز ، ألهبت الحماس والتطلع الأوروبى - بكل الأمل - إلى خوض معركة الكشوف الجغرافية على أوسع مدى .

ومن الطبيعى أن نستشعر كيف كانت الكنيسة الأوروبية وسلطانها المتسلط الحاكم بكل التعصب ضد الاسلام والمسلمين ، من وراء ضراوة الحروب الصليبية ، بشكل مباشر وغير مباشر . ومن الطبيعى أيضاً أن نتبين كيف تطلعت الكنيسة بكل الحماس ، إلى هزيمة الاسلام والمسلمين فى عقر دارهم ، وإلى اجهاض التفوق الحضارى والسياسى والاقتصادى ، الذى كان قد أحرزه العالم الاسلامى على الصعيد العالمى . ولكن المؤكد أن سلطان الكنيسة الأوروبية التى طعنت الهزيمة هيبتها ، كان - بكل الغل والحقد - من وراء معركة الكشوف الجغرافية ، على المدى الواسع . ولعلها قد تطلعت من خلال حفز ودعم وتحريك

الاجتهاد الجغرافى الأوروبى – بكل الأمل – إلى حيازة الأرض الجديدة على الامتداد العظيم ، الذى يطوق العالم الاسلامى المتحكم فى قلب جزيرة العالم على الصعيد الأفريقى والآسيوى والأوروبى ، وإلى التبشير بالمسيحية وتنصير الوثنيين فى هذه الأرض الجديدة . ولعلها رنت إلى استثمار هذه الأرض الجديدة وانتصار الوجود المسيحى فيها، فى فرض الحصار الحاكم من حول العالم الاسلامى ، وصولاً إلى اجهاض النفوذ الاسلامى وتوقيف انتشار الاسلام .

ومن الجائز أن ندرك مدى النجاح الذى تحقق من وراء هذه الكشوف الجغرافية ، وهى تكشف النقاب بعد اجتهاد عظيم والحاح مستمر ، عن رأس الرجاء الصالح ، لكى تطوف السفن الأوروبية حول افريقية وصولاً إلى الهند وجنوب شرق آسيا ، أو وهى تميط اللثام عن الأرض الجديدة فى الأمريكتين واستراليا ، لكى ينتشر الاستيطان الأوروبى وينتصر التمدد المسيحى . ولكن الأهم من ذلك كله ، أن ندرك كيف حققت معارك الكشوف الجغرافية الكبرى الحد الأقصى من الانتفاح الأوروبى على العالم من حولها . وما من شك فى أن هذا الانفتاح قد استنفر الحس الجغرافى الأوروبى ، وأثار التفكير الجغرافى المتفتح على أوسع مدى . بل وكيف لا ندرك ذلك كله ونحسب حسابه ، والكشوف الجغرافية الكبرى ، قد وضعت العقل الأوروبى فى مواجهة الرؤية الجغرافية المباشرة ، وهيأت له أن يتأمل ويتدبر ويفكر ، فى كنه وماهية وموضوعية هذه الرؤية الجغرافية الواضحة ، وما تنبئ به .

ومن الجائز أن اندفاع الاجتهاد الأوروبى على طريق الكشوف الجغرافية كان اندفاعاً محموماً ومتصاعداً ، لحساب المصلحة الأوروبية. ومن الجائز أيضًا أن هذا الاندفاع المحموم قد أسفر عن توسيع دائرة الرؤية الجغرافية ، على المدى الواسع ، فى القرون التالية للتعرف على رأس الرجاء الصالح . ولكن المؤكد أن هذه الرؤية الجغرافية قد بصرت الاستيطان الأوروبى فى أحضان الأرض الجديدة ، وقد انتصرت لإرادة التعايش والاقامة والانتفاع لهذه الأرض . بل لقد أصبحت هذه الرؤية الجغرافية على المدى الواسع فى أنحاء الأرض ، رافداً من أهم الروافد التى أيدت الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، وساندته ، وهو يتولى احياء الفكر الجغرافى القديم ويتبنى أهدافه ، بعد أن نضب معين الاجتهاد

العربى الاسلامى ، وافتقد القدرة على مواصلة الانجاز والابداع والاضافة، لاثراء وتحريك وترشيد مسيرة الفكر الجغرافى الموضوعى الصحيح وتطويرها ، لحساب الانسان .

وعن الثورة الدينية وحركة الاصلاح الدينى المتنورة ، التى تحكيها قصة الرفض القاطع لجبروت الكنيسة الكاثوليكية ، وحسر سلطان رجال الدين المتسلط على الفكر ، لا ينبغى أن نتصور - بصرف النظر عن كل حسابات الهزيمة والانتصار - انها قد أسفرت فقط عن انهاء حالة الخوف ، التى طالما كبلت التفكير الحر ، وطاردت المفكرين وجمدت انجازتهم الفكرية المتحررة . ولكن ينبغى أن نستشعر أيضاً - بكل اليقين - أن من أهم حصاد انتصارات حركة الاصلاح الدينى ، التى وضعت ورسخت دعامات الكنيسة البروتستنتية ، قد تفجرت دوافع وتولدت حوافز ، ألهبت التطلع الأوروبى إلى خوض معركة التفكير الحر والبحث المتحرر ، وصولاً إلى الحقيقة الصادقة وإلى ترسيخ المعرفة والعلم ، من غير أن تلوى عنقه وتطوعه ، إرادة رجال الدين الجامدة والمتزمتة .

ومن الطبيعى أن ندرك مدى مقاومة ورفض الكنيسة الكاثوليكية رفضاً قاطعاً إرادة تحرير الفكر ، وتأمينه . ومن الطبيعى أيضاً أن ندرك مدى معارضة رجال هذه الكنيسة قبل أن يمتثلوا لمشيئة التغيير ، والقبول باطلاق العنان للتفكير الحر المتفتح . ولكن المؤكد أن الكنيسة البروتستنتية ، قد فتحت صدرها وعقلها ، وتقبلت - بكل الرضا - حركة التفكير الحر . بل والأهم من ذلك كله ، أن ندرك كيف منح هذا التغيير وحقق مناخ الأمن والأمان ، لحساب التفكير المتحرر ، وكيف دعم هذا التفكير المتحرر النهضة الأوروبية ، وكفل الحد الأقصى من الانفتاح على الحقائق ، وحفز صياغة التقدم الأوروبى الحضارى والاجتماعى والعلمى والاقتصادى ، لحساب الانسان .

ومن الجائز أن نتبين كيف اندفع الاجتهاد الأوروبى على طريق التفكير الحر المتحرر اندفاعاً محموماً ، يحقق توسيع دائرة الرؤية الفكرية على أعمق مدى ، فى القرون التالية لانتصار حركة الاصلاح الدينى . ومن الجائز أيضاً أن نستشعر كيف بصرت هذه الرؤية الفكرية التراث الفكرى الأوروبى المجدد ، وكيف انتصرت لإرادة الانفتاح

والتفتح على حصاد الفكر الانساني العالمي وأساليب الانفتاع به . ولكن المؤكد أن أصبحت هذه الرؤية الفكرية المنفتحة والمتفتحة ، رافداً من أهم الروافد التي زودت الاجتهاد الأوروبي ، وساندته وهو يتبنى الفكر الانساني العالمي القديم ، بعد أن نضب معين الاجتهاد العربي الاسلامي في القرن الخامس عشر ، وافتقد القدرة على مواصلة الانجاز والابداع والاضافة ، وعلى الاستمرار في ريادة واثراء وتطوير هذا الفكر بصفة عامة ، والفكر الجغرافي بصفة خاصة ، لحساب الانسان .

ولئن كان تحرير الفكر وانطلاقته المتحررة من تسلط رجال الدين المسيحي عليه ، قد دعا إلى رفض الفكر الجغرافي المسيحي الملتزم وعدم الالتفات إليه لأنه كان يروج للجهالة ويستخف بعقول الناس ، فإن خوض معركة الكشوف الجغرافية والانتصار الحاسم فيها ، كان – بكل تأكيد – من وراء استنفار الحس الجغرافي ، على أمل أن يثرى معين الادراك الجغرافي ، وأن يفجر الفكر الجغرافي الأوروبي ويصقله . وهذا معناه أن استنفار الحس الجغرافي وحسن استخدام الادراك الجغرافي ، كان – بكل ثقله – من وراء التحول الأوروبي الحقيقي ، عن ضلالة الفكر الجغرافي المسيحي وسذاجته ، إلى صدق الفكر الجغرافي العربي السوي وموضوعيته .

وهكذا تهيأت الظروف التي أسفرت عن تفجير إرادة التغيير على صعيد الفكر الأوروبي في حوالي القرن السادس عشر الميلادي . ولقد أثمرت إرادة التغيير بالفعل ، عندما بدأ التفكير الجغرافي الأوروبي الحر المتحرر من عقدة الخوف بداية هادئة ، وعندما أعطى هذا التفكير عطاء موضوعيًا وصادقًا . وهذا معناه أن أخذ الفكر الأوروبي المتطور النشيط ، بزمام مسيرة الفكر الجغرافي ، ورعى خطواتها ، بعد أن فتر حماس ونشاط وقدرات الفكر العربي ، وافتقد الجغرافيون العرب قدرتهم على الابداع والاضافة والتطوير .

ولقد شغل الفكر الجغرافي الأوروبي المتجدد ، صفحات كثيرة من معين التراث الفكري العالمي اعتباراً من القرن السابع عشر الميلادي . وقد عكف الاجتهاد الأوربي على الابداع ، وتطلع إلى اشاعة المعرفة الجغرافية ، وتنشيط الحركة الجغرافية العلمية ، وهذا معناه أن الاجتهاد الفكري الأوروبي قد انتشل أوروبا من جهالة وتضليل وتخريف الفكر

الجغرافى المسيحى ، الذى أسهم فى تكثيف ظلمة العصور الوسطى . ومعناه أيضًا أنه قد تبنى الفكر الجغرافى القديم ، ووضعه فى الموضع الصحيح ، وهو يواجه الرؤية الجغرافية ، ويعكف على تدبرها والتفكير فيها .

الاجتهاد الأوروبى وتطوير الفكر الجغرافى :

لم يكن أخذ الاجتهاد الأوروبى الفكرى المتفتح ، بزمام مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح أمراً سهلاً ، أو مهمة هينة . كما لم يكن التحول من مفاهيم واهتمامات جغرافية العصور الوسطى ، إلى مفاهيم واهتمامات الجغرافية المستجدة مسألة متاحة ، يمكن أن يكفلها الفكر الحر أو أن يسفر عنها الاجتهاد الأوروبى فى وقت مبكر سريع ، فى أحضان صحوة وانبلاج عصر النهضة الأوروبية . بل لقد كان من الضرورى انجاز أعمال أولية وخطوات متزنة متأنية ، تستنفر الاجتهاد الأوروبى وتحفزه وتعده الاعداد السوى – بكل الوعى – قبل أن يتأتى هذا التحول والتغيير ، أو قبل أن يتفجر وينشأ الاتجاه الحديث فى التفكير الجغرافى، أو قبل أن يتولى العقل الأوروبى ، مهمة بناء وتطوير وتحديث الفكر الجغرافى وصياغة وترسيخ علم الجغرافية ، لحساب الانسان .

ومن أجل أن ندرك – بكل الوعى – معنى وأبعاد وماهية الانصراف والتحول عن حصاد الفكر الجغرافى المسيحى ، واستنكاره ورفضه جملة وتفصيلاً . ومن أجل أن نتفهم – بكل الوضوح – كيف كانت البداية ، وكيف تسلم الاجتهاد الأوروبى طرف الخيط من الاجتهاد العربى الاسلامى ، وهو يتبنى الفكر الجغرافى السوى . ومن أجل أن نتصور – بكل الصدق – كيف ولد الفكر الجغرافى الحديث ولادة طبيعية ، وكيف انبلج فجر الصياغة الصحيحة وصناعة علم الجغرافية صناعة سوية . ومن أجل أن نتابع مسيرة الفكر الجغرافى الحديث فى رعاية الاجتهاد الأوروبى ، وهى تتقدم خطوة بخطوة اعتباراً من القرن السابع عشر فى الاتجاه الصحيح، وصولاً إلى أهداف علمية أفضل ، ومن أجل أن نتبين كيف تممت هذه المسيرة الفكرية الجغرافية الحديثة، مراحل المسيرة الفكرية الجغرافية العربية الاسلامية ، دون اكتراث بمسيرة الفكر الجغرافى المسيحى الذى عاصرها فى العصور الوسطى .

ومن أجل ذلك كله ، ينبغى أن نميز على أقل تقدير بين أداء وكفاءة وجدوى الاجتهاد الأوروبى المثمر ، الذى تبنى الفكر الجغرافى ، على ثلاثة مراحل متوالية ومتكاملة .

ومن الجائز إن كانت مراحل الاجتهاد الأوروبى ، الذى انكب على مسئوليته قبل التفكير الجغرافى ، مراحل متوالية ، إلى حد يصعب معه وضع الخيط الرفيع الفاصل ، بين كل مرحلة وأخرى من هذه المراحل . ومن الجائز أيضاً أن تتداخل هذه المراحل تداخلاً واضحًا وصريحًا ، لا يسفر عن خلل موضوعى ، يتضرر به التفكير الجغرافى . ولكن المؤكد أن التكامل الموضوعى بين هذه المراحل الثلاثة ، قد أسفر عن نجاح حقيقى فى ميدان البحث الجغرافى . وكيف لا يتأتى هذا النجاح ، والاجتهاد الأوروبى المرحلى قد سار على الدرب السوى ، وأعطى حصاده وأضاف ابداعاته وأرسى لبناته ، التى أنجزت بنية سوية لفكر جغرافى حديث ومتطور إلى ما هو أفضل .

هذا وتتمثل هذه المراحل المتوالية المتكاملة ، فى انطلاقة الاجتهاد الأوروبى الحر انطلاقاً متفتحاً لتأصيل المعرفة الجغرافية ، وصنع الاطار الذى يجسد ويحدد أبعاد وأهداف علم الجغرافية ، ويضعه فى مكانه الصحيح بين زمرة العلوم . ومن الطبيعى أن ندرك كيف تحمل هذا الاجتهاد الفكرى الأوروبى ، مسئولية تسديد وقع خطوات مسيرة الفكر الجغرافى الحديث المتطور ، على المدى الزمنى من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين الميلادى .

ولقد كان وقع هذه الخطوات المرحلية المتوالية ، فى مسيرة الفكر الجغرافى الحديث على النحو التالى :

١- خطوة مرحلية أولية ، تولى الاجتهاد الأوروبى الفكرى فيها - بكل الهمة والانفتاح - مسئولية استيعاب الفكر الجغرافى القديم اليونانى والفكر الجغرافى الاسلامى العربى ، لكى تبدأ المسيرة الفكرية من حيث انتهت المسيرة الفكرية الجغرافية وتأسيساً عليها . كما تولى أيضًا استيعاب ثمرات الكشوف الجغرافية الكبرى ، لكى ينتفع بها ويتخذ منها سبيلاً من أهم السبل للاضافة والتطوير .

٢- خطوة مرحلية جوهرية ، تولى الاجتهاد الأوروبى الفكرى فيها - بكل الوعى والتفتح - مسئولية تكوين وصياغة وتنشئة قواعد وأصول التحول العظيم لكى تولد أو تخرج من تحت العباءة الجغرافية علوماً متخصصة كثيرة ، ثم لكى تنسلخ الجغرافية والفكر الجغرافى من التاريخ والفكر التاريخى ، ولكى يتحدد شكل الاطار العلمى الموضوعى الذى يحتوى الفكر الجغرافى ويجسد مغزاه ومرماه ، ولكى تتكشف أهداف البحث الجغرافى ودوره الوظيفى التخصصى ، فى خدمة الانسان ومصلحته فى التعامل مع الأرض .

٣- خطوة مرحلية بناءة ، تولى الاجتهاد الأوروبى الفكرى فيها - بكل الادراك والتفتح - مسئولية تطوير بنية علم الجغرافية وتصنيف اهتماماته بالأرض والناس ، والتفاعل الحياتى بين الناس والأرض فى أى مكان . كما تولى الاجتهاد الأوروبى الفكرى الذى تفتح على صعيد الأقطار الأوروبية وغير الأوروبية مسئولية تعميق وتطوير البحث الجغرافى المتخصص ، وتطويع الخبرة الجغرافية على أمل حسن توظيف النظرية الجغرافية العلمية فى خدمة الاجتهاد الجغرافى التطبيقى .

* * *

مرحلة استيعاب الفكر الجغرافى القديم :

هذه مرحلة مبكرة أولية ، تحكى البداية المنطقية . ولقد أسفرت عنها ومضات وتباشير التفتح الأوروبى المبكر فى عصر النهضة . وشهدت هذه المرحلة الأولية فجر الاجتهاد الأوروبى ، وهو يتنكر للفكر الجغرافى المسيحى ويتكره ، ويرفض منطقة ويطعن فى فلسفته وتخريفه . كما شهدت - بكل تأكيد - هذا الاجتهاد الأوروبى المتفتح ، وهو يحفز ويتهيأ للأخذ بزمام التغيير والتحول البناء ، إلى فكر جغرافى أفضل ومتجدد يعتمد على استيعاب رصيد الجغرافية العربية الاسلامية ، بنية الاضافة اليه.

ولقد استغرقت هذه المرحلة الأولية ، التى انكب الاجتهاد الأوروبى فيها ، على استيعاب الفكر الجغرافى القديم ، والتمعن فى رؤيته الجغرافية وفى حصاده ، وقتاً طويلاً . وربما كان هذا الاستيعاب فى

حاجة بالفعل إلى كل سنوات القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ، لكى يتزود الاجتهاد الأوروبى ، بالقدرة على الانطلاق إلى أهداف وغايات المرحلة التالية .

هذا ، وينبغى أن ندرك كيف تولى هذا الاجتهاد الأوروبى البناء – بكل الصبر والتفتح – المهمة على هذا المدى الطويل . ومن غير عجلة ، تفرغ ثلاثة أنواع من الرجال المجتهدين تفرغًا جاداً لأداء هذه المهمة . وكان من الضرورى أن يسفر هذا الأداء الجيد المتأنى عن تقدم مسيرة الفكر الجغرافى الحديث . كما أسفر أيضاً عن بعض ارهاصات مبشرة، بولادة علم الجغرافية فى أحضان القارة الأوروبية المتطورة ، ولادة طبيعية فى المرحلة التالية .

والنوع الأول من زمرة الرجال المجتهدين فى حقل العمل الجغرافى فى هذه المرحلة ، تولى وهو جسور مغامر يتعشق الرحلة مهمة الكشوف الجغرافية ، ومعاينة الأرض والحياة فى الأنحاء التى كشف النقاب عنها . كما تولى أيضًا تجميع أوصال الرؤية الجغرافية ، التى تحدد أبعادها ، وتصور مكانها على الأرض ، وتستشعر حاجز المسافة بينها وبين الأماكن الأخرى على الأرض .

ولقد خاضت هذه الزمرة المجتهدة التجربة الصعبة ، وتصدت للرحلة والمغامرة والمخاطرة ، فى البر والبحر على حد سواء . ومن الطبيعى أن نتصور كيف أسعفت وسائل النقل المتطورة اجتهاد هذه الزمرة المغامرة ، وكيف اخترقت وأسقطت حاجز المسافات وضربت فى المجهول من الأرض ، وواجهت المشقة على الطريق . ولكن المؤكد أن فتح نجاح هذه الزمرة المجتهدة من الرحالة الأوروبيين ، الباب على مصراعيه ، لكى تنفتح أوروبا على العالم ، ولكى يجنى الفكر الجغرافى ثمرات هذا الانفتاح ، لحساب التقدم الأوروبى .

ومن الجائز أن حفز الانفتاح الأوروبى على العالم ، العامل الاقتصادى ، لكى يدب النشاط ويعمل بكل الايجابية على توسيع وترويج وتنمية حركة التجارة الدولية ، لحساب أوروبا وتقدمها الاقتصادى ، ودعم مكانتها فى العملية التجارية . ومن الجائز أن حفز الانفتاح الأوروبى على العالم ، العامل الاستعمارى ، لكى يدب النشاط

وتخرج الهجرات وتحوز الأرض ، لحساب أوروبا ، وتقدمها السياسى ودعم مكانتها السياسية . ولكن المؤكد أن هذا الانفتاح الأوروبى على العالم ، قد زود الاجتهاد الفكرى الجغرافى ، برصيد مفيد ومهم عن العالم . بل قل لا بد أن حفز التفكير الجغرافى الأوروبى ، على تدبر الرؤية الجغرافية الموسعة ، التى وضعت صورة العالم كله بين يديه .

وهكذا أفلح هذا الفريق أو هذه الزمرة المجتهدة ، من خلال الرحلة، فى كشف النقاب عن الأرض الجديدة ، وفى اماطة اللثام عن البحار والمحيطات ، وفى اسقاط جواجز الخوف ، أو التخوف من الابحار فيها . كما أفلحت هذه الزمرة المجتهدة ، فى جميع المعلومات وتجميع أوصال الرؤية الجغرافية ، وفى تنمية رصيد المعرفة الجغرافية الصحيحة عن أنحاء كانت مجهولة من الأرض . وهذا – بالفعل – زاد مفيد ومثمر فى حد ذاته ، جغرافياً . بل أنه – بكل تأكيد – رصيد ثمين ، انكب الاجتهاد الفكرى الجغرافى الأوروبى على الانتفاع به ، فى هذه المرحلة الأولية . ثم بعد ذلك كله ، كان أضافه إلى الرصيد الذى احتواه الفكر الجغرافى العربى الاسلامى القديم .

ومن ثم ينبغى أن نطرى اجتهاد هذه الزمرة المغامرة ، وأن نتصور كيف أسفر نجاحها عن اسهام ولو بشكل غير مباشر ، فى تأكيد حقيقة شكل الأرض الكروى ، وفى اجهاض ورفض فكرة الشكل المستطيل التى روج لها ، الفكر المسيحى الضال والمضلل . كما ينبغى أن نتصور أيضاً ، كيف أسفر نجاح هذه الزمرة المجتهدة ، من بعد مغامرات مثيرة ورحلات طويلة فى البر والبحر ، عن اسهام ولو بشكل غير مباشر ، فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، وفى تنشيط حركة الاستيطان والعمران فى الأرض الجديدة . وهذا معناه – فى الحقيقة – اسهام هذه الزمرة اسهاماً مفيداً ، لحساب الانفتاح الأوروبى وجنى ثمراته ، جغرافياً واقتصادياً وسياسياً .

هكذا نتبين كيف ولدت الرحلة الجغرافية المتخصصة ، التى تخرج فى البر أو فى البحر ، لحساب الهدف الجغرافى ، بل قل لحساب الكشف الجغرافى . بمعنى انهاء الاعتماد على الرحلات المتنوعة غير المتخصصة فى الكشف الجغرافى ، واعتماد رحلة متخصصة معنية فقط

بالكشف الجغرافى ، ولا شئ أهم من تحقيق هذا الهدف الجغرافى . وقل أن ولادة هذه الرحلة المتخصصة فى الكشف الجغرافى ، قد تحققت على أيد المغامر الأوروبى ، الذى أقدم بكل الحاح على الضرب فى غياب المجهول . ونجح هذا الفريق المغامر ، مرة فى قيادة وحسن توجيه الرحلة المتخصصة لحساب الكشف الجغرافى عن القارات المجهولة، ونجح ومرة أخرى فى قيادة وحسن توجيه الرحلة المتخصصة الجغرافية ، فى التمهيد لكل أنماط الاستعمار الاستراتيجى والاستيطانى والاستغلالى ، والأخذ بزمام السيطرة على حركة التجارة الدولية .

وقل أن هذه الرحلات ، وهى محصلة أقدام المغامر الأوروبى ، يسرت الانتشار الأوروبى على الصعيد العالمى . واكتسب هذا الانتشار الأوروبى ، الحق فى مباشرة الاستعمار وزرع وجود أوروبى على صعيد القارات ، التى تكشف عنها النقاب . كما اكتسب أيضاً الحق فى السيطرة على حركة التجارة الدولية ، وألح فى التبشير بالحضارة الأوروبية وفرض التبعية الحضارية والاقتصادية ، على أوسع مدى فى ربوع العالم الفسيح . وأفلح أداء المغامر ، وهو يباشر رحلات الكشف الجغرافى ، فى كسب ثقة الأوروبيون وترسيخ اهتمامهم بعلم الجغرافية ، وهو يبصر ويرشد التفوق الأوروبى على الصعيد العالمى . بل قل مع مضى الكشف الجغرافى الأوروبى على درب النجاح ، والانتقال من نجاح إلى نجاح أهم وأجدى ، رسخ التقدير الأوروبى والاحترام ، لمعطيات ونتائج الاجتهاد الجغرافى بصفة عامة .

وهناك رصيد عظيم يجسد محصلة تسجيلات ومدونات الرحلات الجغرافية ، **المتخصصة** فى الهدف الجغرافى ، **وغير المتخصصة** فى القيادة . ويحتل هذا الرصيد الذى سجله الرحالة المغامرون ، مكاناً مناسبًا فى المكتبة الجغرافية الأوروبية . وما زالت أسماء الرحالة الذين سجلوا هذه التسجيلات ، وكتب الرحلات محل ذكر وتقدير الناس ، والمجتمع الانسانى بصفة عامة .

والنوع الثانى من زمرة الرجال المجتهدين فى حقل العمل

الجغرافى ، تولى وهو مفكر ، يتعشق التأمل والتدبر والتفكير ، مهمة أعمال العقل واستيعاب حصاد الفكر الجغرافى السابق ، الذى أسفر عنه الاجتهاد الاغريقى والمصرى والرومانى فى مرحلة ، والاجتهاد العربى الاسلامى فى مرحلة أخرى (١) . ولقد انكبت هذه الزمرة المفكرة على تذوق اهتمامات هذا الرصيد القديم من الفكر الجغرافى ، وعلى تفهم أهدافه وحساب جدواه ومدى التزامه بالرأى السديد أو بالطريق الصحيح ، وصولاً إلى اشباع حاجة الانسان إلى المعرفة الجغرافية السوية .

ومن الطبيعى أن نتصور مدى صعوبة التجربة ووعورة المهمة التى خاضها هذا الفريق . ومن الطبيعى أيضاً أن نتبين كيف تلمس الاجتهاد الأوروبى أطراف الخيو ط ، لكى تبدأ مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، بداية منطقية ، من حيث انتهت هذه المسيرة فى أحضان الاجتهاد العربى الاسلامى ، فى حوالى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى . ولكن المؤكد أن فحص واستيعاب وتذوق رصيد البشرية من التراث الجغرافى الصحيح ، والتصدى لحصر وإدراك وتفهم الحقائق الجغرافية، قد أسفر - بكل تأكيد - عن وضع الاجتهاد الأوروبى فى وضع الاستعداد الصحيح ، لانطلاق الفكر الجغرافى الحديث ، فى الاتجاه الصحيح .

---

(١) ليس صحيحاً أن يتصور بعض الجغرافيين الأوروبيين - بقصد أو من غير قصد - أن الفكر الجغرافى الحديث قد بدأ من حيث انتهى الفكر الجغرافى اليونانى القديم ، الذى سجل بطليموس الاسكندرانى آخر وأهم سطر فى تراثه . والصحيح أن الاجتهاد الأوروبى قد انكب على الاجتهاد الجغرافى العربى الاسلامى ، وأدرك كنهه ، وانتفع بالاضافات التى أسفر عنها على مدى أكثر من سبعة قرون . وهل ينكر هذا التصور الأوروبى التعصب كتب الأدريسى واضافات البيرونى وغيرهم وكيف انتفعوا بها ؟ وهل يتنكر هذا التصور الجاهل مدى اطراء الخرائط البحرية ، التى رسمها العرب على المسقط الاسطوانى ، والذى جاهر به وأعلنه واعترف بفضله فاسكودى جاما ؟ أما القول الذى يتجنى على الكتابة الجغرافية عند العرب ، ويحمل على الخلط الشديد بين الجغرافية والتاريخ ، أو الذى يطعن فى القصص الجغرافى التاريخى وما حفل به من غرائب وعجائب فهذا قول مردود عليه . وما من شك فى أن هذا الخلط قد تأتى بشكل أقل كثيراً من الاستغراق فى السرد الاسطورى ، الذى انزلق فيه الفكر الجغرافى القديم السابق للاسلام .

ومن الجائز أن نتصور كيف كان التحرر من عقدة الخوف من رجال الدين وتسلطهم ، وانطلاق موجات التدبر والتفكير انطلاقًا متحرراً ومتوثبًا ، من وراء انجاز أهداف هذه الزمرة ، التى تحملت مسئولية الاجتهاد الفكرى المتفتح ، وهو ينفتح من غير تعصب أو حرج على حصاد الفكر الجغرافى السابق كله . ولكن المؤكد أن الابداع الفلسفى الفكرى الأوروبى ، الذى أثار التساؤل فى الناس واستنفر العقول والتفكير الباحث عن التفسيرات المقنعة ، قد ألهب التفكير الجغرافى وحفزه ونشطه ، لكيلا يقتنع بمجرد حصر الحقائق الجغرافية فقط . بل لقد دعا - بكل تأكيد - إلى التطلع للتفسير المقنع الكاشف ، عن ماهية وكنه هذه الحقائق الجغرافية ، الذى يجاوب تساؤل الناس عنها .

ومن خلال التمعن والتدبر والتفكير العميق ، فى مجالات تقصى الأسباب التى تكمن من وراء الحقيقة الجغرافية أو الظاهرة الجغرافية ، أو التى تتجلى من وراء أوصال الرؤية الجغرافية العامة ، أفلح اجتهاد هذه الزمرة التى استهواها التفكير الجغرافى ، وتفرغت له تفرغًا حقيقياً مفيداً . بل لقد أنجز اجتهاد هذه الزمرة انجازاً مفيداً بالفعل . ولعله استهدف - بالضرورة - تأصيل أو تعميق المعرفة الجغرافية من ناحية ، وتوسيع المعرفة الجغرافية من ناحية أخرى . وما من شك أن اجتهاد هذه الزمرة ، قد بلغ - بكل الوعى - حد تجسيد أو استشعار كنه وماهية العمل الجغرافى ، الذى يسفر عنه ويدعمه ويظاهره التفكير الجغرافى السوى .

وهكذا ، ينبغى أن نطرى الاجتهاد الأوروبى ، الذى طرق أبواب الفكر الجغرافى من خلال التأمل الفلسفى الواقعى ، وهو يطالع الفكر الجغرافى السابق . وما من شك فى أنه قد تحسس قواعد البناء فى الفكر الجغرافى القديم كله ، قبل أن يرفع ويضيف إليه لبنات مهمة ، رسخت منطق التفكير الجغرافى الصحيح . وما من شك أيضاً فى أنه قد استحق عن جدارة واستحقاق ريادة مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، فى كنف التقدم الحضارى المادى الأوروبى .

هذا ، وينبغى أن نتصور كيف كان اهتمام التفكير الجغرافى الأوروبى ، وهو يضطلع بدراسة الظاهرة الجغرافية ، أو وهو يستطلع

الرؤية الجغرافية ، بالبحث عن التفسير المقنع والتعليل المقبول عقلاً ، والكاشف فيما يكمن من وراء هذه الظاهرة أو تلك الرؤية ، علامة على منتهى الانفتاح أو التفتح الموضوعى . ومعنى ذلك أن كانت بداية مبكرة وراسخة فى صياغة المنهج التركيبى ، الذى بنى على أساسه تأصيل الفكر الجغرافى الحديث ، وما أسفر عنه من انجاز مفيد .

ويصور هذا الانجاز المفيد ، من بعد ذلك كله ، أبعاد وجدوى وفاعلية اسهام هذه الزمرة من المفكرين الأوروبيين . ويستوى فى ذلك أن يكون الانجاز اسهامًا مباشراً فى تحمل مسئولية تحريك مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه الصحيح ، الذى يشبع ويجاوب حاجة الناس إلى المعرفة الجغرافية ، أو أن يكون الانجاز اسهامًا مباشراً فى الاعداد لتحديث هذا الفكر الجغرافى والأخذ بزمامه وتطويعه ، وصولاً إلى ما هو أفضل ، لحساب حاجة العصر ومصلحة الناس فيه .

هذا ، ويمكن أن نتبين جانبًا من حصاد ذلك الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فى هذه المرحلة الأولية ، عندما نستطلع بعض المحاولات المبكرة التى بذلت فى حوالى القرن السابع عشر الميلادى . ومن الجائز أن كانت معظم هذه المحاولات فجة إلى حد كبير . ولكن المؤكد أنها قد أفلحت فى كشف الغطاء ، عن مدى الاستعداد لانجاز العمل الجغرافى فى صورة أفضل . ولعلها أسفرت عن تصوير مدى تشبث الاجتهاد الأوروبى بتسجيل الاضافة المفيدة ، التى جسدت مدى استيعاب الفكر الجغرافى القديم قبل الزيادة عليه ، أو الاضافة إليه .

ولقد استهدف نفر من المفكرين انجاز هذه المحاولات الجغرافية انجازاً جيداً ومجدداً فى وقت واحد . وانبرى هذا النفر أصلاً ، وانكب على اعادة كتابة الجغرافية القديمة من خلال حسن تذوق واستيعاب وادراك معنى ومغزى الحقائق الجغرافية. وما من شك فى أن هذا النفر قد أفلح تماماً فى احياء بعض أهم أبواب التراث الجغرافى القديم . ولكن الأهم من ذلك كله ، أن برهن هذا النفر على مهارة فى الصياغة ، وعلى مهارة فى تحديث الكتابة وابراز الموضوعية الجغرافية المفيدة .

ومن الجائز أن نتبين كيف سيطر التوصيف بصفة عامة على هذه

الكتابة الجغرافية (١)، وكيف كانت هذه الكتابة وهى تستعرض الصورة الجغرافية ، وكأنها تسجل الرؤية الجغرافية تسجيلاً جامداً . ولكن المؤكد أن هذا التوصيف كان مشوقًا وجيداً ، وهو يفتح باب الاجتهاد الجغرافى على شكل فج من الجغرافية الوصيفة الاقليمية ، وكان صادقاً ومعبراً ، وهو يتجنب العجائب والغرائب والسرد الأسطورى الخيالى ، وكان دقيقاً وحساسًا ، وهو يسعف الباحث فى دراسة التاريخ أو فى دراسة الجغرافية فى أحضان المكان .

ومن الجائز أن نلمح مدى اختلاط الكتابة الجغرافية ببعض السرد التاريخى . ومع ذلك فهناك أكثر من علامة أو مؤشر تعبر بوضوح عن مدى الرغبة فى تخفيض معدلات هذا الخلط . وهذا معناه أن نتبين كيف كانت بدايات التحول عن كتابة الجغرافية فى العصور القديمة والوسطى ، إلى كتابة الجغرافية الحديثة المتطلعة إلى التجديد والتطوير. ومعناه أيضاً أن ندرك كيف بدأ التملص من السياق القصصى والانسياق فى سيل المبالغات أو الأوهام الكاذبة ، التى تضلل الفكرة الجغرافية أو تطمسها .

وهكذا ، ينبغى أن ندرك – بكل الثقة – كيف قاد اجتهاد الجغرافى فارينوس حركة الانفتاح والتجديد الجغرافية المبكرة ، وكيف تولى غرس أقدم نبتة فكرية جغرافية مفيدة ، وكيف عمل لحساب التحول أو الانصراف عن منطق الفكر الجغرافى القديم ، وكيف تولى ريادة التقدم

---

(١) من هذه الكتابة الجغرافية المجددة، نذكر ما ورد فى كتابين هامين من كتب القرن السابع عشر الميلادى. ولقد صدر الكتاب الأول الذى أنجزه كلوفيروس فى سنة ١٦٢٦ ، تحت عنوان « مقدمة الجغرافية العالمية » . وصدر الكتاب الثانى الذى انجزه فارينوس فى سنة ١٦٥٢ تحت عنوان « الجغرافية العامة » وفى الكتاب الأول ، انكب الاجتهاد الجغرافى على التوصيف الاقليمى لأقطار العالم بشئ كبير من التوصيف الجيد وحسن العرض . بل يمكن أن نتبين كيف أجاد الكاتب وحقق المستوى الجيد ، وهو يورد التطوير الجغرافى الذى عبر وجسد الرؤية الجغرافية آنذاك . أما الكتاب الثانى فلقد سجل فيه فارنيوس خطوة من خطوات التقدم المهمة التى برهنت على تجديد وتجويد ، فى شكل وماهية الفكر الجغرافى الحديث . بل لقد برهن فارينوس أيضًا على كفاءة حقيقية ، فى تجسيد الصيغة التركيبية التى دللت على حسن استخدام نتائج البحوث الرياضية ، لدى عرض التوليفة الجيدة عن رؤيته الجغرافية الفلكية .

الفكرى الجغرافى الحديث ، اعتباراً من القرن السابع عشر الميلادى . بل لقد أكد فارينوس – من غير شك – أحقية الاجتهاد الفكرى الأوروبى فى ريادة المعرفة الجغرافية ، وفى أداء دورها البناء الذى كشف عن جانب من جوانب النهضة الأوروبية المتفتحة ، والمنفتحة على العالم من حول أوروبا .

وما من شك فى أن حصاد الاجتهاد الأوروبى فى حقل الفكر الجغرافى الحديث ، والذى عكف على تسجيله فى كتابه « الجغرافية العامة » (١) قد أصبح دليلاً على التجديد فى الصياغة ، وعلى الوضوح فى بيان وتصوير الرؤية الجغرافية (٢) . بل لقد أصبح هذا الكتاب ، على مدى أكثر من مائة سنة ، المرجع الجغرافى الأهم والأصدق والأوفى ، لكل طلاب المعرفة الجغرافية . وربما زهت بهذا الانجاز الجيد وتاهت جموع المجتهدين العاملين فى حق الفكر الجغرافى الحديث ، وهى تعتز وتفتخر بريادة الاجتهاد الأوروبى لهذا الفكر الجغرافى المتطور .

والنوع الثالث ، من زمرة الرجال المجتهدين فى حقل العمل الجغرافى ، تولى وهو فنان مبدع ، يتعشق الابداع والابتكار ، مهمة

---

(١) فى كتاب « الجغرافية العامة » ، تناول الاجتهاد الجغرافى ثلاثة موضوعات ، فى ثلاثة أجزاء متكاملة . وفى الجزء الأول ، عرض فارينوس دراسة عن الأرض عرضا فلكيا . وقد صور رؤيته لها من حيث الشكل والحجم والقياس الرياضى لأبعادها . وفى الجزء الثانى عرض عرضاً مشوقاً وكاشفاً عن العلاقة بين الأرض والأجرام السماوية . وقد حدد مكان الأرض فى اطار الكون الفسيح من حولها . وفى الجزء الثالث ، عرض فارينوس دراسة وصفية للأقاليم فى أنحاء الأرض. وقد سجل فيها أبعاد المعرفة الجغرافية الكاشفة عن خصائصها .

(٢) لولا أن قضى هذا الجغرافى المجتهد نحبه فى سن مبكرة ، لأتم اجتهاده الذى تطلع إلى تسجيله فى كتاب بعنوان « الجغرافية الخاصة » . ولقد تمنى فارينوس أن يسجل هذا العمل فى ثلاثة موضوعات تحتويها ثلاثة أجزاء الأخرى . ولعله تطلع إلى أن يحتوى الجزء الأول دراسة عن خواص الماء بما فى ذلك المناخ ، وأن يحتوى الجزء الثانى دراسة عن خواص السطح والتضاريس وصور الحياة النباتية والحيوانية فى أحضان هذا السطح ، وأن يحتوى الجزء الثالث دراسة عن خواص البشر الذين يعمرون الأرض وصور حياتهم ونظم حكمهم وأساليب معيشتهم وتجارتهم . وربما كان هذا التصنيف أول شكل من أشكال الاجتهاد الأوروبى التى كشفت عن رؤية الفكر الجغرافى الحديث بشأن تقسيم مجالات البحث والعمل والاهتمام فى حقل العمل الجغرافى .

ترجمة حصاد المعرفة الجغرافية ، وحصر رصيدها ورسم أو توقيع هذا الرصيد على خرائط . ولقد خاض هذا الاجتهاد الأوروبى البناء أكثر من تجربة صعبة ، وهو يتصدى لنشر أو اخراج هذه الخرائط ، وتجسيد هذا الشكل المهم من أشكال التعبير .

وكان من شأن هذه الخرائط ، أن تسجل مدى النمو وحسن البيان ، وأن تصور مدى الوضوح وحسن التعبير ، الذى جاوب التوسع فى دائرة المعرفة الجغرافية ، على امتداد الأرض . بل لقد كشفت هذه الخرائط – فى نفس الوقت – عن مدى التقدم والابداع والتجديد والتجويد ، فى أساليب العمل الفنى والرسم ، وصولاً إلى حد تجسيد الرؤية الجغرافية تجسيداً سوياً وواضحاً .

ومن الجائز أن أغرى الاغداق السخى والعطاء المجزى هذه الزمرة من الرجال المجتهدين ، وألهب حماسهم وحفز روح الابداع فيهم ، لانجاز بعض الخرائط الجيدة . ومن الجائز أيضًا أن صورت هذه الخرائط الجيدة حقيقة الرؤية الجغرافية الكاشفة ، لتوزيع اليابس والماء تصويراً كاشفاً وجيداً . ولكن المؤكد أن تطور الرياضيات ونمو الخبرات الرياضية وحسن استخدامها ، هى التى بصرت وأسعفت وساندت انجازات هذه الزمرة المجتهدة من رسامى الخرائط ، وهم يعدونها ويبدعون فى انشائها ، وتجسيد ما تحتويه من بيان جغرافى جيد ، وتعبير جغرافى صحيح .

ومن خلال هذا الرسم الفنى الجيد ، الذى ضبطته ضوابط رياضية سوية حاكمة ، أفلح هذا الفريق أو تلك الزمرة المجتهدة ، فى مواكبة الاجتهاد الفكرى الأوروبى ، الذى انكب على تطوير وتجديد الفكر الجغرافى الحديث . وهذا معناه أن تأتى التوازى والتوازن بين التعبير عن مفاهيم ورؤية الفكر الجغرافى ، مرة من خلال الكتابة الجغرافية ، ومرة أخرى من خلال الرسم الجغرافى ، على حد سواء . بل ومعناه أيضاً أن تشترك الكلمة المكتوبة مع الرسم الفنى ، فى تصوير وتجسيد الرؤية الجغرافية تجسيداً واضحاً مرئياً .

ولقد تمثل ذلك التجسيد المرئى بالفعل ، عندما صورت الخرائط

الجيدة امتداد الأرض ، وحددت شكل القارات ، وبينت توزيع البحار والمحيطات من حولها ، توزيعًا صادقًا وواقعيًا . كما تمثل ذلك مرة أخرى عندما سجلت الخرائط الرؤية الجغرافية الكلية - فى ضوء ما أسفرت عنه الكشوف الجغرافية الكبرى - لليابس والماء على سطح الكرة الأرض ، تسجيلاً واضحًا وصحيحًا . وليس أصدق من هذا الاجتهاد الفنى ، وهو يحترم الواقع فلا يسجل إلا الصحيح . بل أنه لم يخجل أو يستحى من ترك بعض المساحات المجهولة بيضاء ، من غير أن يستوحى خياله أو أوهامه ، لكى يملأ هذا الفراغ .

وهكذا ، شد الاجتهاد الفنى أزر الاجتهاد الفكرى الجغرافى ، وكان أمينًا وصادقًا ومعبراً ، لدى تصوير حقيقة الرؤية الجغرافية على أى مستوى من مستويات الأرض . ولقد أشاع هذا التصوير الجيد والصادق الذى عبرت عنه الخرائط ، الاهتمام الجغرافى بين عامة الناس، لأنه يسر عليهم الاطلاع والادراك ، لدى متابعة اتساع المعرفة باليابس والماء على الأرض ، من خلال معاينة الخرائط الجيدة ، التى سجلت وبينت الرؤية الجغرافية ، التى تكشفت عنها رحلات المغامرين فى عرض البحر .

هذا وما من شك فى أن اشاعة هذا الاهتمام بين عامة الناس ، قد فجر حسهم الجغرافى . بل لقد غرس فيهم جدوى استشعار الاجتهاد الجغرافى الأوروبى وتقديره ، وهو يواصل مهمته ويسجل انجازاته لحساب الانسان . وهذا معناه فى الحقيقة أن اسهام هذه الزمرة من المجتهدين ، قد استنفر الناس وكسب دعم ومظاهرة حسهم الجغرافى ، لحساب الاجتهاد الجغرافى الأوروبى وتمويله فى المراحل التالية . .

* * *

ومن بعد اجتهاد كل هذه الزمرة من المجتهدين ، كل فيما يخصه فى حقل العمل الجغرافى ، ومن بعد نشر واشاعة واستيعاب وتقبل حصاد التجديد أو التجويد فى الفكر الجغرافى ، الذى اعتصره فارينوس وعرضه عرضاً موضوعياً مشوقاً ، من بعد هذا وذاك لم تتقدم مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، تقدماً حقيقياً إلى ما هو أفضل إلا بعد وقفة

متأنية طويلة . وصحيح أن الأمر قد تجاوز حد احياء واستيعاب التراث الجغرافى السابق ، ولكن المؤكد أن هذا التأنى فى التفكير الجغرافى الأوروبى الحديث كان مطلوباً . ويبدو أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قد طلب التأنى ، ولم ينطلق انطلاقة متوثبة سريعة ، تخونه أو تفسد فحواه أو تهوى به فى سقطات وزلات تلوثه وتضيع أهدافه .

وفى اعتقادى أن التأنى والتمهل فى التفكير الجغرافى الحديث، الباحث عن أسباب التجديد والتجويد ، كان فى انتظار نضج وتقدم بعض العلوم الأساسية . ويبدو أن التفكير الجغرافى كان فى حاجة إلى ولادة علوم من تحت العباءة الجغرافية حتى يتخفف منها ،وفى حاجة مرة أخرى الى بعض نتائج هذه العلوم الواقعية ، لكى يتخذ منها سبيلاً يشد أزره ، ومنطلقاً علمياً واقعياً يرشد اضافاته ويبصر تجديده وتجويده .

وهذا التريث الذى استمر إلى حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، معناه – بكل الوضوح – أن بدأت الانطلاقة الفكرية الجريئة التى أضافت وجددت وأبدعت صلب النظرية فى الفكر الجغرافى الحديث ، بعد ذلك التاريخ . ومعناه أيضًا أن قرنين كاملين من حساب الزمان قد ولت وانقضت والاجتهاد الجغرافى الأوروبى عاكف – بكل الأناة – على صياغة وتجهيز قاعدة أو أساس التحول الحقيقى ، الذى اكسب الفكر الجغرافى قدرات صياغة الاطار العام والمحتوى والأهداف، التى حددت شكل علم الجغرافية ومكانه الصحيح بين زمرة العلوم الأخرى .

وهكذا ، ينبغى أن نستشعر كيف أدرك الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فى هذه المرحلة الأولية ، وهو يتحمل مسئولية الاحياء والتجديد والاضافة مسألتين هامتين . ومن الجائز أن اشتركت هاتان المسألتان فى تعميق الفكر الجغرافى الحديث . ولكن المؤكد انهما معًا كانا من وراء ولادة علم الجغرافية ولادة سوية فى المرحلة التالية . وتتمثل هاتان المسألتان الجوهريتان فى :

١- قيمة أو جدوى التريث والتأنى ، لكى يتسنى للاجتهاد

الجغرافى الأوروبى استيعاب الفكر الجغرافى القديم كله استيعاباً كاملاً ، قبل أن يدفع أو يحرك مسيرة الفكر الجغرافى الحديث فى الاتجاه الصحيح ، وقبل أن يطور ويصوغ النظرية الجغرافية تطويراً قائماً أو مبنياً على أسس وقواعد واقعية صحيحة .

٢- قيمة أو جدوى التفتح والانفتاح ، لكى يتسنى للاجتهاد الجغرافى الأوروبى اجادة وتحسين منطق الأساس التركيبى ، الذى يقوم عليه الفكر الجغرافى الحديث ، تأسيساً على حسن استخدام أو حسن استثمار نتائج العلوم الأخرى ، وعلى مهارة الأخذ من معين عطائها الثرى المثمر .

وبهذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن ندرك كيف كانت البداية الحاذقة، فى ترسيخ البناء الجغرافى الحديث على أساس تركيبى سوى ، مبنية على نهاية ما قد أسفر عنه البناء الجغرافى القديم السابق . بل وينبغى أن نطرى الاجتهاد الجغرافى الأوروبى، الذى تولى البناء والتجديد على قواعد وأصول التراث الجغرافى العربى الاسلامى السابق العريق .

ومن غير افتعال فجوة ، تفصل بين الفكر الجغرافى السابق والفكر الجغرافى الحديث ، نجح الاجتهاد الأوروبى ، فى صياغة الصلات واختيار اللبنات التى جعلت مسيرة الفكر الجغرافى مسيرة مستمرة موصولة الحلقات والمراحل . ولقد كان أفضل ما توصل إليه الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فى هذه المرحلة الأولية ، هو اضافة ذكية برهنت على حسن ومهارة تلمس العلاقات المنطقية ، بين نتائج بعض العلوم الأساسية ، لحساب الصياغة الجغرافية الأجود ، أو لحساب التوليفة الجغرافية الأفضل .

وهذا معناه - بكل تأكيد - أن اتجاه الفكر الجغرافى الحديث على الطريق ، كان اتجاهاً سوياً وفى المسار الصحيح . ولقد كان من شأن هذا الاتجاه السوى أن يسعف الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، وهو يتحسس الواقع الجغرافى ، أو وهو يدرس الظاهرة الجغرافية المعنية . بل لقد بصر هذا الاتجاه السوى الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، وهو يبحث عن

تفسير ماهية الظاهرة الجغرافية والضوابط الحاكمة لها ، أو وهو يسفر عن التوليفة الجغرافية الصادقة ، التى تستخلص النتيجة الجغرافية المفيدة، من صلب النتائج العلمية الأصولية الصحيحة .

وفى اعتقادى – على كل حال – أن القرن الذى انقضى من بعد نشر عمل فارينوس الجغرافى الرائد فى هذه المرحلة الأولية ، لم يضيع هدراً ، ولم تفلت قيمته من بين أصابع الاجتهاد الجغرافى الأوروبى . ومن الجائز أن شهد هذا القرن تطور بعض العلوم الأساسية ، ولكن المؤكد أنه قد شهد أيضًا نشاط الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، وهو يسفر عن بداية المنطق الحاكم لحركة التفكير الجغرافى الحديث ، عندما يدتبر أمر الظاهرة الجغرافية المعنية أو عندما يسجل رؤيته المتخصصة لها فى أحضان المكان .

هذا ولقد تمثل هذا المنطق الحاكم لحركة انسياق التفكير الجغرافى الحديث فى استشعار وتقصى حقيقة وواقيعة ثلاثة أمور هى :

أ– توزيع الظاهرة الجغرافية المعنية فى الاطار الضيق المحدود أو فى الاطار الواسع الفضفاض فى العالم ، ورصد مدى انتشارها على أى من هذين الصعيدين .

ب– تفسير وتعليل منطقى كاشف عن معنى هذا التوزيع أو الانتشار ، وعن ماهيته وكنهه وما ينبئ به وما يمكن أن تترتب عليه من نتائج معينة .

جـ– تجسيد العلاقة أو العلاقات التى تكون أو التى تربط بشكل أو بآخر بين الظاهرة الجغرافية المعنية والظاهرات الأخرى فى المكان .

وفى اعتقادى مرة أخرى ، أن هذا القرن الذى انكب الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فيه ، على صياغة وابداع المنطق الحاكم لحركة التفكير الجغرافى الحديث ، قد حقق بذلك الارهاص المبكر الذى مهد وبشر وهيأ كل أسباب المخاض ، لكى يلد التفكير الجغرافى علم الجغرافية. وربما كانت بعض البدايات المفيدة التى وضعت الاطار وجمعت أوصال القواعد والأسس ، التى جهزت المهد استعداداً لولادة علم الجغرافية . وربما تطلع الاجتهاد الجغرافى الأوروبى – بكل الأمل – إلى ميلاد هذا العلم ، لكى يطل من خلاله على الواقع الجغرافى من

حوله . ولكن المؤكد أن هذه الولادة قد تأخرت بعض الوقت ريثما ، يتم الانسلاخ بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى .

وقل تعود الاجتهاد الجغرافى على أن لا يعارض أو يعترض أبداً ، على ولادة علوم كثيرة ، وقد خرجت من تحت العباءة الجغرافية . بل قل من تحت هذه العباءة الجغرافية ، ولدت علوم طبيعية كثيرة ، منها علم الچيولوچيا وعلم الفلك وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم التربة . كما ولدت أيضًا علوم انسانية ، منها علم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم الحضارة وعلم الانثروبولوچيا . ولكن كان أمر الانسلاخ بين التاريخ والجغرافية ، كان مسئولاً عن تفجير قضية حوار وجدل شديد بين المفكرين .

وقد جسد هذا الحوار والجدل ، مبلغ الاختلاف بين فريق اعترض على هذا الفصل أو الانسلاخ ، الذى ينتهى إلى الفصل ، بين موضوعية الاهتمامات الجغرافية والاهتمامات التاريخية ، وفريق آخر تحمس لمباشرة هذا الفصل ، الذى يحرر التوجه الخاص والمتخصص لكل منهما . وكانت حجة الفريق الذى استحسن ، بل واستوجب حتمية هذا الفصل ، مبنية على استشعار الفرق الكبير ، بين الجغرافية وهى تعتنى بدراسة المكان ورصد خواصه الطبيعية والبشرية فى الزمان ، والتاريخ وهو يعنى بدراسة الزمان ومستجداته وأحداثه ومعطياته فى المكان . وقويت حجة هذا الفريق ، حتى أسفر هذا الحماس ، عن الانتصار الموضوعى الحاسم ، الذى أكد وزكى هذا الانسلاخ . وكان هذا الانسلاخ، وكأنه البداية الرشيدة التى جهزت وأعدت الوضع المناسب ، لولادة علم الجغرافية وتحديد أهدافه ، ومناهجه العلمية الأنسب .

وعن هذا الانسلاخ ، نذكر كيف كانت بدايات مبكرة وارهاصات مفيدة ، بنيت على استشعار مدى التناقض ، بين عالمية الفكر الجغرافى فى معالجة الرؤية الجغرافية فى أى مكان وفى كل مكان من ناحية ، واقليمية أو محلية الفكر التاريخى فى معالجة الحدث التاريخى فى المكان المعين من ناحية أخرى . بل لقد جسد هذا التناقض درجة من التعارض بين رؤية جغرافية تتسلل من الكل إلى الجزء أو من الجزء إلى الكل ، ورؤية تاريخية تفتقد هذه المرونة .

وهذا معناه – بكل تأكيد – أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قد استشعر فى نهاية هذه المرحلة الأولية ضرورة الانسلاخ بين مسيرة الفكر الجغرافى ، ومسيرة الفكر التاريخى . وأصبح المطلوب أن تنطلق كل مسيرة منهما فى حال سبيلها انطلاقاً حراً ومتحرراً يخدم الهدف الموضوعى فى المكان ، أو الهدف الموضوعى فى الزمان لحساب الانسان ، ويكون ذلك دون افتقاد العلاقة الأصولية بين المكان والزمان ، فى أى المكان وفى كل مكان .

وهذا معناه أيضًا أن هذه المرحلة الأولية التى انتهت مع نهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر ، قد أضافت كل هذه الارهاصات والبدايات المبكرة إلى ما جددت به الفكر الجغرافى السابق . ولكن المؤكد أنها تركت أمر التحول والتغيير للاجتهاد الجغرافى فى المرحلة التالية . وما كانت هذه النهاية بالفعل ، إلا لكى تبدأ المرحلة الجديدة التى شهدت انطلاقات التحول الحقيقى ، والتى تمثلت فى صياغة الفكر الجغرافى الحديث ، وفى ترسيخ مهمته ، وفى ولادة علم الجغرافية وتحديد أهدافه وتجميع أوصال الاطار العلمى الحاكم لدوره الوظيفى التخصصى .

* * *

مرحلة جديدة واجتهاد يلتمس أصول العلم :

هذه مرحلة هامة وحيوية ، لأنها – بحق – مرحلة الانجاز العظيم . والمقصود بالانجاز العظيم ، هو انطلاق الاجتهاد الجغرافى الأوروبى – بكل الرشاد – انطلاقات متوثبة وناجحة . ولقد استهدفت هذه الانطلاقات الابداع والاضافة ، إلى رصيد الفكر الجغرافى الحديث ، مثلاً.

كما استهدفت أيضاً صياغة العلم الذى يحتوى ويجسد هذا الفكر، ويحقق أهدافه . ويبدو أن حاجة الفكر إلى العلم كانت ملحة . بل لعلها

كانت كمثل حاجة الروح إلى الجسد . ومن الطبيعى أن يؤدى الفكر إلى ولادة علم يحتوى ويحقق أهدافه . وكان المؤكد أن هذا العلم يظل فى حاجة إلى هذا الفكر ، وهو عمق فلسفى ، لكى ينميه ويدعم التجديد والتجويد فى أدائه .

وسجل القرن الثامن عشر اجتهاداً جغرافيًا رشيداً ، وهو يكاد يتطلع لاستشعار وتحديد الهدف الجغرافى . ولقد قاد المفكرون الألمان هذه الاجتهادات ، فى اطار الحظيرة العلمية الجامعية – الأكاديمية . وما أفلت منهم أبداً ، هذا الدور الريادى فى هذه المرحلة الحاسمة . وما وهنت عزيمتهم قط ، وهم الذين باشروا استشعار قيمة الاجتهاد الجغرافى ، وبلغوا مبلغ العلم وحسن بيان الهدف الجغرافى . وقل أنها مرحلة التجهيز للمخاض ، الذى بشر بقرب ولادة علم الجغرافية ، فى ثوبه العلمى .

وانتهاء المرحلة الطويلة الماضية والتجهيز لمرحلة جديدة ، معناه انهاء الاهتمام الجغرافى بمباشرة **الوصف الجغرافى التصويرى** ، الذى كان من شأنه المعاينة والملاحظة ، وتصوير الرؤية الجغرافية للمنظور الجغرافى الطبيعى ، وهو يصور الأرض ، أو المنظور الجغرافى البشرى ، وهو يصور حركة الحياة على صعيد الأرض ، فى المكان والزمان . وقد انتهى التجهيز فى المرحلة الجديدة ، أو المستجدة ، عناية الاهتمام الجغرافى بمباشرة **الوصف الجغرافى التصويرى التفسيرى** . وكان من شأن الجغرافى ، عندئذ أن يعاين ويلاحظ ويصور الرؤية الجغرافية ، ثم **يعقب على ذلك** بالتفسير ، والتماس الدواعى والأسباب التى تفسر هذه الرؤية الجغرافية ، وتتحرى العلاقات بين عناصرها وتلتمس التداعيات ، التى تترتب عليها على صعيد المساحة المعنية فى المكان والزمان .

هذا ويمكن أن نؤكد على أن الفترة من النصف الثانى من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، قد شهدت أكثر

من نقطة تحول مثيرة . وصحيح أن نقط التحول قد ضاعفت من خطوات التقدم ، التى سارت بها مسيرة الفكر الجغرافى ، ولكن المؤكد أنها لم تغير من الاتجاه العام السوى الذى تسير فيه . ولقد كان من شأن كل نقطة من نقط التحول المثيرة ، التجهيز الحقيقى والاعداد السوى لتلك الانطلاقات المتوثبة الجوهرية ، التى انتهت إلى صياغة الانجاز ، بل الانجازات الموضوعية العظيمة .

ونقطة التحول الأولى ، قد تمثلت فى تسخير الفكر الجغرافى الأوروبى تسخيراً موضوعياً بناء . وتولى بالضرورة أمر صياغة وتنشئة القواعد والأصول ، التى ارتكزت عليها بعض أهم مفاهيم الجغرافية الأصولية . ولقد انجلى الموقف وتحقق الانجاز الحقيقى ، عندما أسفر الاجتهاد الجغرافى الأوروبى أنذاك ، عن تهيئة أو تجسيد الشكل العلمى الموضوعى ، الذى احتوى مضامين التفكير الجغرافى ، احتواء كفل موضوعيته وحدد أدائه الوظيفى التخصصى وجسد أهدافه .

وهذا معناه ولادة علم موضوعى ، له أصوله وقواعده ، وله مناهجه وأهدافه ولادة طبيعية استجابة وتحقيقياً للتحول الذى أراده وسعى إليه الفكر الجغرافى الحديث (١) . ومعناه أيضاً أن عرف الفكر الجغرافى من خلال معرفة مكان علم الجغرافى بين العلوم الأخرى ، مكانته فى اطار المحتوى العام الذى يحتوى الفكر الانسانى كله . أما علم الجغرافية الذى جسد الفكر الجغرافى الحديث ، كما انتهى إليه الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فقد حدد مكانته من خلال أهدافه الحيوية ، ومدى تجاوبها مع مصلحة الانسان فى الحياة على الأرض .

ونقطة التحول الثانية ، لا تقل أهمية عن الأولى إن لم تكن هى الأهم بالفعل ، من وجهة النظر الموضوعية . وقد تمثلت فى مجاوبة

---

(١) لعب الاجتهاد الجغرافى الألمانى الدور الرائد فى صياغة علم الجغرافية ، وفى تجهيز شكله العلمى وأصوله وقواعده .

التناقض بين الفكر الجغرافى ودوره الوظيفى التخصصى فى المكان ، والفكر التاريخى ودوره الوظيفى التخصصى فى الزمان . ولقد انجلى الموقف ، وتحقق الانجاز الحقيقى ، عندما انبرى الاجتهاد الفكرى الأوروبى إلى الفصل والتمييز بين ، عالمية الفكر الجغرافى فى جانب ، واقليمية الفكر التاريخى فى جانب آخر . وأدى ذلك إلى تهيئة عملية الانسلاخ العلمى بين الجغرافية والتاريخ (١) .

* * *

وهذا معناه تحقيق التحول والتغيير الموضوعى من فكر جغرافى طالما اختلط بالفكر التاريخى ، إلى وضع جديد ظهر فيه الخيط الرفيع الفاصل ، بين علم الجغرافية الذى احتوى مضامين الفكر الجغرافى واهتماماته ، وعلم التاريخ الذى احتوى مضامين الفكر التاريخى واهتماماته . ومعناه أيضاً أن الجغرافية فى شكلها العلمى ، قد تحولت من خادم مطيع للتاريخ إلى معلم له يبصره ويرشده فى تفسير ومتابعة الأحداث التاريخية .

وهناك اتفاق عام على أن سنة ١٧٥٤ ميلادية ، قد شهدت بعض هذه التحولات وما أسفرت عنه من انجازات مثيرة ، فاتجه عهد الانطلاق

---

(١) الجغرافية مثل التاريخ تتطلع لتوضيح التاريخ ، ولكن مهام الجغرافية المتعددة وزيادة مادتها العلمية يوماً بعد يوم كسر الرباط الذى ربطها بالتاريخ دائماً . واحتلت الجغرافية مكانها اللائق بها كعلم مستقل . وتحولت الجغرافية عندئذ من خادم للتاريخ إلى معلم له ، وهو معلم موهوب له نظر ثاقب وبصيرة نفاذة وقدرة على التنبؤ بالمستقبل .
راجع هذا القول فى كتاب (الجغرافية فى القرن العشرين) الترجمة العربية للدكتور محمد السيد غلاب والأستاذ محمد مرسى أبو الليل – الجزء الأول صفحة ٥٠ .

الفكرى الجغرافى الحديث . وينبغى أن نذكر كيف تولى فريق العلماء الألمان بالذات مهمة هذا الانطلاق ، وكيف كان الاجتهاد الجغرافى الألمانى هو الفارس فى الميدان . بل أنهم - بكل تأكيد - هم الذين أمسكوا بزمام المسيرة الفكرية الجغرافية . ولقد تولوا - بكل الاهتمام - مسئولية ترسيخ الفكر الجغرافى الحديث ، ودعم صياغة علم الجغرافية ، وتجسيد مغزاه ومرماه .

هذا ، وكان من شأن الاجتهاد الجغرافى الألمانى ، فى حقل البحث الجغرافى العلمى ، أن يسفر عن ولادة مدرستين متميزتين من مدارس الفكر الجغرافى الحديث . ومن الجائز أن هاتين المدرستين كانتا فى وقت لم يكتمل فيه بعد نضج الشكل العلمى للجغرافية نضجاً سوياً وكاملاً . ولكن المؤكد ان الاجتهاد الجغرافى فى أحضان كل مدرسة من هاتين المدرستين ، قد تبنى التطوير ، التحديث والتجديد فى المعالجة الجغرافية ، وتجسيد الرؤية العلمية الجغرافية . بمعنى أن الهدف الموضوعى قد أوضح مدى تطلع الاجتهاد الجغرافى ، إلى ترسيخ موضوعية البحث الجغرافى فى الاطار السوى .

والمدرسة الأولى من هاتين المدرستين العلميتين الجغرافيتين ، قد عرفت تحت اسم **المدرسة الاحصائية السياسية** (١) . وقد جمع تصور هذه المدرسة العلمية زمرة من الجغرافيين المحترفين المجتهدين ، الذين انكبوا - بكل الاهتمام - على البحث الجغرافى الموضوعى ، فى اطار الوحدة السياسية . بمعنى أن الوحدة السياسية ، كانت الوعاء الذى احتوى اهتمامهم الجغرافى ، أكثر من أى شئ آخر . ولقد اعتمدت هذه الزمرة على الاحصاء الجيد ، والحصر الصحيح ، وتقصى الحقائق ، لانجاز البحث الجغرافى ، الذى يجسد الرؤية الجغرافية فى الوحدة السياسة المعنية .

---

(١) كان بوشنج صاحب الكتاب الجغرافى الذى نشر سنة ١٧٥٤ رائد هذه المدرسة. ولقد أصر على أن اجتهاده ينبغى أن ينصب على الوصف الجغرافى . أما منتل فهو الذى حدد أبعاد هذا الوصف فى اطار الوحدة السياسية .

ومن الجائز أن الوصف الشامل أو التوصيف الجغرافى العام ، قد أتخم هذه البحوث الجغرافية بشكل يلفت النظر ، دون أن يكسبها الأبعاد الموضوعية العلمية . ولكن المؤكد أنها قد نهضت بمهمتها الجغرافية ، من غير أن تتردى فى المبالغة ، أو التضخيم ، أو من غير أن تنزلق فى خضم الخيال . وكان من أبناء هذه المدرسة **بوشنج ومنتل** . وربما نأخذ عليهم جميعًا الاستغراق فى الوصف الممل ، والتجرد من متابعة التفسير والتحليل المقنع ، الذى يعمق البحث الجغرافى ويجسد موضوعيته علمياً .

هذا ولقد اعترض بعض الجغرافيين بالفعل على اجتهاد زمرة الجغرافيين من المدرسة الاحصائية السياسية ، اعتراضاً موضوعياً . وقاد ليزر هذا الاعتراض أو الرفض الموضوعى ،على أساس أن الدولة أو الوحدة السياسية اقليم مصنوع ، وأن حدوده قابلة للتغيير . وهذا معناه أن البحث الجغرافى والدراسة الجغرافية الموضوعية ، يجب أن يحتويه حدود ثابتة وغير قابلة للتغيير . ولقد وجد هذا الاعتراض فى الحدود الطبيعية بديلاً جيداً ، لأنها الحدود التى لا تقبل التغيير بالفعل .

والمدرسة الثانية من هاتين المدرستين العلميتين الجغرافيتين ، قد نشأت تحت اسم **المدرسة الجغرافية البحتة** . ولقد سجل الربع الأخير من القرن الثامن عشر ظهور هذه المدرسة ، التى وجهت البحث الجغرافى والدراسة الجغرافية الموضوعية . وحصرت اجتهاده فى اطار الاقليم الذى تصنعه الحدود الطبيعية .وكان هومابر الألمانى أمهر أبناء هذه المدرسة ، عندما تصدى إلى تقسيم العالم إلى أقاليم طبيعية ، متخذاً من أحواض الأنهار أساساً لهذا التقسيم .

وفى أحضان رؤية هذه المدرسة الجغرافية البحتة (١) ، سلك الاجتهاد الجغرافى سبيلاً مجدداً لانجاز البحث الجغرافى الموضوعى ،

---

(١) حيرت هذه التسمية بعض الجغرافيين لدى تفسير أهداف هذه المدرسة . ويبدو أن المقصود بالجغرافية البحتة ، التأكيد على حرص المعالجة الجغرافية على عدم الخلط بين الوصف الجغرافى والسرد التاريخى .

فى اطار الاقليم . ولقد انغمس البحث فى الوصف الشامل الذى يجسد الرؤية الجغرافية . وتضمن هذا الوصف الجغرافى الذى تحرى الصدق والتصوير الجيد ، بياناً شاملاً يعالج سطح الأرض وما تحتويه من نمو نباتى وحياة حيوانية . والتزمت هذه الكتابة بالفصل الحقيقى بين الوصف الجغرافى والسرد التاريخى ، وتجنبت التداخل الذى يخل بجدية وموضوعية المعالجة الجغرافية ، التى تجسد الرؤية الوصفية فى الاقليم .

ومن الجائز أن هذا الوصف قد تجرد من البيان التاريخى ، والخلط الذى يشوه التصوير الجغرافى الوصفى . ولكن المؤكد أن البيان التاريخى لم يستبعد تماماً ، بل قل كان له مكانه وحصة تحتويه وتورده فى مقدمة البحث الجغرافى . والأهم من ذلك كله ، أن المعالجة الجغرافية قد أضافت إلى الوصف الجغرافى شيئاً مهماً . ذلك أنها تصدت للتفسير والتحليل ، بقدر ما تصدت إلى تصور العلاقات التى تربط بين النبات والحيوان والانسان فى الاقليم . وهذا معناه اتجاه الاجتهاد الجغرافى والتزامه التزاماً موضوعياً ، بالمنطق الحاكم لحركة انسياق التفكير الجغرافى الحديث . ومعناه أيضاً تأكيد القدرة الجغرافية على حسن استخدام التركيب والتحليل ، من أجل تجسيد الرؤية الجغرافية فى الاقليم .

ومن الجائز أن حقق الاجتهاد الجغرافى الألمانى - على وجه الخصوص - فى اطار أى من هاتين المدرستين الفكريتين ، اللتين توالى ظهورهما فى هذه المرحلة ، بعض التجديد فى الكتابة الجغرافية لكى تجسد الرؤية الجغرافية . ولكن المؤكد ان هذا الاجتهاد الجغرافى الألمانى ، قد قاد مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، وأنه نشط وحفز واستنفر روح المنافسة العلمية والتجديد بين المفكرين الجغرافيين بشكل واضح . وهذا معناه أن جدوى هذا الاجتهاد يتجلى من خلال تقييم صادق ، يحدد حقيقة وكفاءة الوثبات البناءة فى الكتابة الجغرافية ، فى أثناء الفترة التالية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى .

هذا ، ومن أرباب الفكر الجغرافى الذين انبروا - بكل الواقعية - للبحث الجغرافى الموضوعى ، من خلال الرحلة والمسح الجغرافى ، **فورستر الأب ، وفورستر الابن** . ولقد سجل كل واحد منهما قدرته على الملاحظة أو المعاينة ، وحسن تجميع أوصال الرؤية الجغرافية . بل لقد توخى كل منهما اتباع الأسلوب العلمى فى عرض هذه الرؤية الجغرافية عرضاً موضوعياً ، وفى استخلاص بعض النتائج الجيدة التى جسدها البحث .

ومن الطبيعى أن نتبين كيف صور بحث أى من هذين الرجلين ، تركيزاً جسد العلاقة بين البيئة والانسان ، إلى حد افتعال التفسير الحتمى لنتائج هذه العلاقة . ولكن الأهم من ذلك كله ، أن تصوير الرؤية الجغرافية ، وتجسيد العلاقة بين البيئة والانسان فى اطار هذه الرؤية ، قد أسفر عن عمل فكرى جغرافى علمى ، فى بحث أصولى منهجى مفيد . وهذا ارهاص - بالفعل - أعلن عن تبنى الفكرة ، التى أسفرت - فى وقت لاحق - عن البحث الجغرافى الاقليمى ، أو ما عرف بعد ذلك بالجغرافية الاقليمية .

هذا ، ولقد انتفع الفكر الجغرافى الحديث ، وهو يبنى ويجسد علم الجغرافية غاية الانتفاع ، بفكر واجتهاد وعمق الفيلسوف الألمانى ابمانويل كانت ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى . ومن حسن الطالع أن تبنى كانت الفكر الجغرافى الحديث ، وأطل عليه موضوعيًا ، من خلال تأمل فلسفى عميق ومجتهد . وفيما بين سنة ١٧٥٦ ، وسنة ١٧٩٦ ، وكانت يحاضر فى الجغرافية الطبيعية فى جامعة كوجنز الألمانية ، تهيأت له الفرصة - على أوسع مدى -.لكى يطلق العنان لفكره وتأمله الفلسفى ، لكى يودع علم الجغرافية أمانة ومسئولية فى أحضان العلم الأكاديمى .

وأهم انجاز من الانجازات التى حققها كانت ، قد تمثل فى اجتهاد حصيف ، وهو يحاول تحديد أهداف علم الجغرافية ، ومجالات البحث الجغرافى . وتأسيسًا على ذلك التحديد ، استشعر كانت ، العلاقة الموضوعية الحقيقية ، بين علم الجغرافية والعلوم الطبيعية الأخرى . بل

لقد اهتم كانت ، بترديد ذلك التصور الذى جسدته فلسفته الواقعية التجريبية على الطلاب ، الذين استمعوا إلى محاضراته ، ونهلوا من معينه العلمى فى الجغرافية الطبيعية ، وهى تتكرر من سنة إلى سنة أخرى على مدى أربعين عاماً .

وتركيز كانت فى تفكيره ، على انتماء الجغرافية إلى طائفة العلوم التجريبية ، مسألة ينبغى أن تلفت النظر بالفعل . ولقد تصور أن علم الجغرافية الذى يرصد الظاهرات ، وهى تحدث بعضها وراء بعض فى المكان ، علامة على صدق وواقعية وموضوعية هذا الانتماء (١) . كما أكد على قيمة علم الجغرافية كمصدر من مصادر الخبرة ، التى ترشد حياة الناس فى أى مكان . بل لقد أكد أيضاً على أن الفكر الجغرافى قديم قدم حاجة الحياة إليه. ولعله أقدم من الفكر التاريخى فى نظر كانت ، لأنه يتصور أن مجرد أحداث التاريخ القديم وهى تتوالى على مسرح معين ، علامة على وجود هذه الجغرافية القديمة ، التى توضح بعض ضوابط أحداث هذا التاريخ .

وصحيح أن فلسفة كانت ، وعمق تفكيره الفلسفى قد فتح بصيرته الجغرافية ، وهو يؤكد على أن الجغرافية الطبيعية التى تعالج الواقع على الأرض ، تمثل الأساس والأصل الذى يتعين انطلاق كل مفاهيم الفكر الجغرافى منها ، وصحيح أيضاً أن فلسفة كانت وعمق تفكيره الفلسفى، قد ألهم اجتهاده الجغرافى الأكاديمى ، وهو يجسد جدوى المفاهيم الجغرافية ، من وراء حركة التاريخ وسياق أحداثه فى المكان . ولكن المؤكد أن ذلك كله ، قد حفزه علميًا ، لكى يحدد أبعاد العلاقة بين الجغرافية والتاريخ ، من غير إعراض ، أو اعتراض على الانفصال الموضوعى بينهما(٢).

---

(١) الجغرافية فى تصور كانت ، تهتم بالوصف ، شأنها فى ذلك شأن التاريخ . ولكن فى الوقت الذى تتصدى الجغرافية فيه لوصف الظاهرات فى المكان ، فإن التاريخ يصف حركة الأحداث فى الزمان فى هذا المكان . وفى اعتقاده أن الجمع – وليس الخلط - بين الوصف الجغرافى فى المكان ، والوصف التاريخى فى هذا المكان يصنع الصورة المتكاملة عن ادراك المكان .

(٢) العلاقة بين التاريخ والجغرافية ، تنظم الصلة بينهما وتحول دول الخلط =

وإلى جانب ذلك الاهتمام الفلسفى والأكاديمى ، الذى أولاه كانت للجغرافية الطبيعية ، فلقد اهتم كانت أيضًا بالتفاعل الحياتى بين الانسان والبيئة التى تحتويه (١). وهذا معناه أنه لم يهمل الجانب البشرى ، الذى يتدارس أمر وجود الانسان على الأرض . ومعناه أيضًا أنه سجل خطوة على الطريق الصحيح ، الذى وجه الفكر الجغرافى الحديث، وجهة تقسيم علم الجغرافية إلى قسميه الكبيرين ، الطبيعى والبشرى (٢) .

ولقد أسفر اجتهاد كانت الجغرافى فى نهاية المطاف ، عن تصور مجموعة من الفروع التى تندرج تحت مظلة علم الجغرافية . وتمثلت هذه الفروع فى ، الجغرافية الرياضية والجغرافية الاجتماعية والجغرافية السياسية والجغرافية التجارية والجغرافية الدينية . وبصرف النظر عن مدى تمسكنا أو اقتناعنا ، من بعد كانت بهذه الفروع ، نذكر أن هذا التصنيف علامة على استشعاره ، مدى اتساع مجالات البحث ، التى يتصدى لها علم الجغرافية ، استجابة لإرادة الفكر الجغرافى الحديث .

ومهما يكن من أمر هذه المرحلة التى شهدت ولادة علم الجغرافية استجابة لإرادة الفكر الجغرافى الحديث ، فإن الاجتهاد الجغرافى قد أولاه الرعاية فى المهد وعمل على نموه نمواً مطرداً . ومن خلال زمرة من المفكرين ، أنجز الاجتهاد الجغرافى انجازات مفيدة . ولقد برهنت هذه الانجازات على أن الفكر الجغرافى الحديث، قد استنفر فى علم

= المخل . وهى علاقة مبنية على أساس أنهما معاً من العلوم التجريبية .

(١) استشعر كانت من خلال عمله الجغرافى ، مدى التباين بين البيئات ، وأدرك أن هذا التباين مبنى على اختلاف حقيقى ، فى خواص ومواصفات الواقع الطبيعى . ومن ثم أدرك جدية هذا التباين ، وأنه من غير شك السبب الحقيقى فى الاختلافات الجوهرية فى أنماط الحياة من بيئة إلى بيئة أخرى .

(٢) لم يورد كانت فى دراساته الجغرافية أو فى رؤيته للواقع الجغرافى أى تعبير واضح ، يصور مدى اهتمامه بالدراسة الجغرافية الاقليمية . وحتى ما قال عنه أنه دراسة فى الجغرافية الاقليمية لا يكاد يضيف شيئاً مهماً أو مفيداً ، ولا يكاد ينبئ بادراكه حقيقة وأهداف وقيمة ، مثل هذه الدراسة الجغرافية الاقليمية.

الجغرافية اهتماماته بالبحث الجغرافى الموضوعى .

هذا وينبغى التأكيد على أن هذا الاجتهاد الجغرافى الذى التزم بموضوعية علم الجغرافية ودوره الوظيفى ، فى الدراسة الميدانية ، أو فى الدراسة المكتبية ، قد مهد تمهيداً حقيقياً ، لنمو مطرد وتقدم حثيث على المسار الصحيح وصولاً بأهداف الجغرافية وتطلعاتها إلى ما هو أفضل . وما من شك فى أن أعمال فورستر الأب ، وفورستر الابن ، وكانت الجغرافية ، قد ألهبت الاجتهاد الجغرافى . بل لعلها أفلحت فى ريادة التحرر من نمطية الفكر الجغرافى التقليدى الجامد . وهذا معناه أن هذه الصفوة قد أطلقت العنان ، لكى يتولى بعض رجال الفكر الجغرافى الحديث ، مهمة ترسيخ التركيب الهيكلى لبنية الجغرافية العلمية فى القرن التاسع عشر الميلادى .

* * *

الفصل الخامس

ترسيخ الفكر الجغرافى وولادة علم الجغرافية

- توجه حميد واعداد مناسب لولادة علم الجغرافية
- ولادة علم الجغرافية فى القرن التاسع عشر
- ترسيخ البنية العلمية للجغرافية الحديثة
- التقدم العلمى الجغرافى والمدارس الجغرافية الوطنية

الفصل الخامس

ترسيخ الفكر الجغرافى وولادة علم الجغرافية

هذه المرحلة مرحلة غاية فى الأهمية ، لأنها شهدت وحققت النضج الحقيقى من خلال ترسيخ بنية الجغرافية العلمية ، التى عرفت طريقها إلى أهدافها السوية . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى قد انكب فى هذه المرحلة على استنفار علمية وموضوعية العمل الجغرافى . بل قل عمل الاجتهاد الجغرافى الألمانى على انجاز المنهجية التى تخدم هذا الترسيخ . ومعناه أيضاً أنه من بعد أن فرغ الاجتهاد الجغرافى الألمانى ، فى المرحلة الماضية من وضع قواعد الشكل العام لعلم الجغرافية ، كان من الضرورى أن يتحمل الاجتهاد الجغرافى فى هذه المرحلة مسئولية رفع هذه القواعد وتأكيد الترسيخ ، وانجاز التركيب الهيكلى لبنية علم الجغرافية السوية . ولقد استغرقت هذه المرحلة المهمة ، التى حفلت بهذا الاهتمام والاجتهاد الموضوعى ، جزء من القرن التاسع عشر كله وفجر القرن العشرين .

وفى هذه المرحلة ، تولى الاجتهاد الجغرافى الألمانى مسئوليته البناءة منفرداً لبعض الوقت . وأنجبت المدرسة الجغرافية الألمانية التى نشأت فى أحضان العمل الأكاديمى الجامعى نفراً من أعلام الفكر الجغرافى والجغرافيين ، الذين تعتز بهم مسيرة الفكر الجغرافى الحديث . ثم توالى مولد بعض المدارس الجغرافية فى وقت متأخر من هذه المرحلة ، لكى تشترك بدورها فى المسئولية . ولقد تولى هذا النفر المرموق من المفكرين العلميين الجغرافيين مهمة اثارة الجدل واستنفار النقاش الموضوعى ، لكى يجنى الفكر الجغرافى الحديث ثمرات هذه الموضوعية العلمية من ناحية ، ولكى يتأتى النضج الحقيقى الذى رسخ قواعد علم الجغرافية ، وبلور أو جسد أهدافه ، من ناحية أخرى ، لحساب الانسان .

هذا ولم يكن غريباً - بالفعل - أن يتأتى هذا الاجتهاد الجغرافى ، وأن يثمر أثماراً جيداً ، فى أحضان دول أوروبية وغير أوروبية فى القرن التاسع عشر . وسواء عاش ونما وأثمر هذا الاجتهاد ، فى كنف الرجال المحترفين الذين انكبوا على العمل الأكاديمى فى الجامعات فى جانب ، أو فى كنف الرجال الهواة الذين استهوتهم الجغرافية ورؤيتها الموضوعية فى جانب آخر ، فإنه قد أعطى قوة الدفع لترسيخ التركيب الهيكلى لبنية الجغرافية العلمية . ومن الجائز أن هيأت الجامعات المناخ الأنسب للاجتهاد الجغرافى ، لكى يؤدى مهمته . ولكن المؤكد أن الجمعيات الجغرافية التى جمعت وحفزت الهواة ، قد هيأت بدورها لهذا الفريق الفرص ، لكى يقدم اسهامه الجغرافى العلمى المناسب فى هذه المهمة .

وفى نفس هذا الوقت الذى انكب فيه الاجتهاد الجغرافى المحترف والهادف على أداء المهمة ، وانجاز الترسيخ ، انبرى الاستعمار الأوروبى الذى غزا مساحات كبيرة من العالم وفرض وجوده فى أشكال مختلفة ، وإلى استقطاب الفكر الجغرافى الحديث المتفتح ، والخبرة الجغرافية العلمية إلى صفه . ومن الجائز أن الفكر الجغرافى وعلم الجغرافية كانا ضحية الاغراء المادى لبعض الوقت . ومن الجائز أن مطاوعة الاستعمار وأهدافه فى المستعمرات ، قد أهدر الاجتهاد الجغرافى وصرفه عن مهمة ترسيخ بنية الجغرافية العلمية لبعض الوقت . ولكن المؤكد أن مهمة الاستعمار التى حققت أقصى درجات الانفتاح على العالم ، قد أغرت الاجتهاد الجغرافى وأفادته ، وهو يتطلع من خلال هذا الانفتاح على الرؤية الجغرافية المركزة على أوسع مدى ، لحساب تراكم وتعظيم الرصيد الجغرافى (١) .

---

(١) تمثل الوجود الاستعمارى فى القرن التاسع عشر فى ثلاثة أشكال ، هى الاستعمار الاستيطانى ، والاستعمار الاستراتيجى والاستعمار الاستغلالى . ويصرف النظر عن الاختلاف الجوهرى فى هدف كل شكل من هذه الأشكال ، فلقد اتفقت جميعها على حيازة الأرض ، وتطلعت إلى كل ما من شأنه أن يؤكد هذه الحيازة ويدعم السيطرة والتسلط . وكانت اللهفة على معرفة الواقع الجغرافى الكاشف عن الأرض ، وعن الناس على هذه الأرض ، متوقعة لتأكيد الوجود الاستعمارى فى هذه المستعمرات .

وصحيح أن الاستعمار الأوروبى ، قد قدم دعمه للاجتهاد الجغرافى ولم يبخل عليه اطلاقًا ، وهو يؤدى دوره الوظيفى ، فى صياغة الرؤية الجغرافية ، التى بصرت ورشدت خطوات هذا الاستعمار ، ومكنت له فى السيطرة على الأرض والناس فى المستعمرات (٢) . ولكن الصحيح أيضًا أن الاستعمار قد أحسن استثمار حصاد الاجتهاد الجغرافى إلى أبعد الحدود ، وبنى وجوده وأداء دوره السياسى والاقتصادى على أكتاف العلم الجغرافى ، والعمل الجغرافى النشيط الكاشف عن الواقع الطبيعى والواقع البشرى ، فى هذه المستعمرات . وهذا معناه انتفاع متبادل ، ومصلحة مشتركة ، قد جمعت بين الاستعمار والامبريالية العالمية فى جانب والفكر الجغرافى وعلم الجغرافية فى جانب آخر ، فى مواجهة هدف واحد ، يخدم الأغراض السياسية والاقتصادية والعلمية فى وقت واحد .

ولقد تجلى هذا الدعم المتبادل ، بين الاستعمار والجغرافية ، لحساب المصلحة المشتركة ، من خلال انشاء وتمويل وتنشيط العمل الجغرافى فى أحضان الجمعيات الجغرافية ، التى انضم إليها بعض غلاة الهواة من جيل الاستعماريين . وما من شك فى أن معظم الجمعيات الجغرافية ، التى تبنت الاجتهاد الجغرافى ، قد ازدهرت فى كنف الدول الأوروبية، التى انغمست فى حلبة المنافسات والصراعات على حيازة المستعمرات فى أفريقية على وجه الخصوص . وقد تولت هذه الجمعيات

---

(١) قدم الاجتهاد الجغرافى هذه الرؤية اسهامًا منه فى عدم الاستعمار فى معالجة جغرافية نطلق عليها الجغرافية الاستعمارية . وهذه المعالجة شكل من اشكال الكتابة الجغرافية ، التى لا ينبغى أن ندخلها فى بنية الجغرافية السياسية . بل انها لا يمكن أن تمثل مرحلة أولية من مراحل نشأة وتكوين هذا التخصص الجغرافى الدقيق . وفى اعتقادى انها صورة من صور الجغرافية الوصفية العامة ، فى اطار اقليمى ، وانها هادفة ، وهى تجاوب حاجة المرحلة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر الميلادى .

الجغرافية - بكل الاهتمام والجدية - مهمة تنشيط البحوث الجغرافية العلمية على صعيد المستعمرات . وتكفلت دائمًا بتمويل هذه البحوث وتوجيهها ، بقدر ما تحملت مسئولية نشرها والعمل بموجب نتائجها فى المستعمرات .

وهكذا حظى الاجتهاد الجغرافى بكل الاهتمام والرعاية ، فى كنف الأكاديمية العلمية الملتزمة بمنهجية البحث وتأصيله ، وفى كنف الجمعيات الجغرافية الملتزمة بالانتفاع العملى بهذا البحث المنهجى . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى قد سار فى خطين متوازيين فى وقت واحد . وقد انتفع برعاية مركزة ، وهو يسجل ثمراته لحساب علم الجغرافية ودوره الوظيفى . وربما نشأ شكل من أشكال التعاون وقنوات الاتصال ، بين العمل الجغرافى النظرى فى الحقل الأكاديمى ، والعمل الجغرافى التجريبى فى الحقل الاستعمارى . ولقد أسفر هذا التعاون عن تعاظم الاهتمام بالفكر الجغرافى الحديث ، وعلم الجغرافية بصفة عامة .

وقبل أن نتبين كيف تعاظم الاهتمام بالجغرافية ، وكيف أفلح هذا الاهتمام عمليًا ، فى استنفار النقاش الموضوعى ، الذى أسفر عن ترسيخ البنية العلمية للجغرافية وتصنيف فروعها وتحديد الأبعاد الأساسية التى كفلت وبلورت هذا التصنيف ، ينبغى أن نستعرض اجتهاد بعض المفكرين الجغرافيين الذين واضعوا علامات بارزة ، رشدت الاتجاهات الحديثة فى الجغرافية . بل قد نتبين كيف أسهمت هذه الزمرة المرموقة ، فى وضع أساس بعض فروع علم الجغرافية . ومن ثم ندرك مدى النجاح أو التوفيق الذى حققته هذه الريادة ، فى قيادة مسيرة الفكر الجغرافى الحديث فى الاتجاه الصحيح ، وفى ترسيخ التركيب الهيكلى للبنية العلمية الجغرافية .

وصحيح أن كل هؤلاء المفكرين الأعلام من أمثال كارل ريتر وأسكندر همبولت وفريدريك راتزل ، من أبناء المدرسة الجغرافية

الألمانيــة ، التى عـاشـت فى أحـضــان الـعــمل الأكـاديمـى ، وتبنت الـفكر الجغرافى الحديث على مدى عـدد من القرون ، وفجـرت الاهتمـام بعلم الجغرافية وتطويره ولكن الصحيح أيضاً أن دور هذه المدرسة العلمية كان دوراً رائداً وبناء ، عندما نتصور جدوى هذا الدور البناء ، فى انسلاخ الفكر الجـغـرافـى عن الفكر التـاريخى ، وفى وضع اهتـمـامـات الـفكر الجغرافى فى القوالب العلمية والمضامين الموضوعية الهادفة . بل هى – بكل تأكيـد – المدرسة العلمية المسئولة عن اثارة أهم القضـايا الفكرية الجغرافية ، وتوجيه واستنفار الجدل العلمى الرشيد ، وصـولاً إلى حد ارساء وترسيخ قـواعد علم الجـغرافـية الحـديثة ، وتطويرها لحـسـاب الانسان ، وسيادته وسيطرته علـى زمام مصيره فى الأرض . ولعل من حق هذه المدرسة الجغرافية الألمانية التى تولت هذه المسئولية على مدى طويل ، وسبق وجـودها المدارس الجغـرافية الأخـرى ، أن تزهو باجتـهاد تلك الصفوة المرموقة من أبنائها الجغرافيين .

* * *

وكارل ريـتر (١) ، علم من أعـلام المدرسة الجغـرافيـة الألمـانية ، وواحد مـن ألمع المفكرين الجغرافيين المرموقين فى القرن التـاسع عـشر الميلادى . ولقد أحدث اجتهـاد ريتر الجـغرافى العـلمى وفكره الرشيـد ، ضجة علمية كبرى ، بين أوساط الجغرافيين فى عصره ، عندما اعتصر فكره ونشر بعض كـتبه الجغـرافية ، التى كشـفت عن ثمرات هذا الفكر العلمى الجغرافى المتفتح .

وصـحيح أن اسـهام كارل ريتـر كـان اسـهامًا مـباشـراً ، فى صـقل وتحسين أداء الاجتهـاد الجغـرافى ، الذى أمـسك بزمام الـفكر الجـغـرافى الحـديث ، وتولى ريـادة مـسـيـرته الجـادة المتوثبة . ولـكن المؤكـد أن هذا

---

(١) تعشق كارل ريتر الجغرافية فى عز صباه المبكر . ولقد عكف على دراسة واستيعاب الفكر الجغرافى دراسة عميقة وأسفر اجتهاده الموفق علمياً عن العمل فى الحقل الأكاديمية ، حيث شغل وظيفة أستاذ الجغرافيـة فى جامـعة برلين

الاسهام قد أسفر عن اضافة لبنات سوية ، فى البناء الجغرافى العلمى .
وربما كان أهم وجه من وجوه الابداع فى هذه الاضافة السوية ، أنها كانت مؤثرة وفعالة ، من حيث الشكل ، ومن حيث الهدف ، فى وقت واحد .

ومن الجائز أن نتبين كيف انساق اجتهاد كارل ريتر الجغرافى ، بكامل ارادته ، فى اتجاهات غلفت فكره أو كسته ببعض الغموض ، وعدم وضوح الرؤية من وجهة النظر العلمية ، ولكن المؤكد أن هذا الغموض لم يكن وليد الجهل أو التخبط فى ماهية الفكرة المعنية . وفى اعتقاد أى جغرافى منصف لدى تقويم أعمال كارل ريتر، كيف أن هذا الغموض وليد إرادة التطور وعدم الجمود ، ورفض التشبث برأى واحد لا يعدل عنه أو لا يفرط فيه .

وهكذا ، ينبغى أن نتصور كيف اتخذ كارل ريتر من المرونة سبيلاً من أهم سبل التجديد أو التجويد فى أدائه . بل لعله لم يصل إلى شكل نهائى معين يجسد رؤيته الجغرافية ، ويجمد فكره المتفتح ، ويحوله إلى مدافع شرس يدافع بعناد الجسور عن مغزاه ومرماه . وهذا الاجتهاد الجغرافى المرن ، ليس علامة على التردد أو القلق الفكرى أو العلمى ، بقدر ما هو دليل لا يضل ولا يضلل على نزعة الانطلاق الحر عند ريتر، وصولاً من خلال التفتح والانتفاح والمرونة ، إلى الاتجاه الأفضل المجدد .

وأول ما ينبغى أن نستشعره من خلال متابعة أعمال كارل ريتر الجغرافية وقرأة فكره الخاص ، وتصورما يكمن وراء هذا الفكر الذى تفرغ للعمل الجغرافى العلمى البناء ، هو رفضه الحقيقى واستنكاره فكرة الجغرافية البحتة شكلاً وموضوعاً . ولقد أكد على التملص من أفق هذه الفكرة الضيق ، ومن التزامها المتزمت . كما اعترض ريتر اعتراضاً جريئاً على الاستغراق فى التوصيف الجغرافى ، وهو يصور الرؤية الجغرافية الشاملة ، ورفضه . وربما اعتبر ذلك التوصيف أعجز من أن يسعف الغاية التى تنشدها الدراسة الجغرافية العلمية .

ولقد اتجه كارل ريتر – بكل الاهتمام – إلى ترسيخ فكرة جديدة ،

قوامها العرض الجغرافى الشامل ، الذى يحمل بين جوانبه الاهتمام المتوازن موضوعيًا ، بالمظاهر الطبيعية والمظاهر البشرية فى وقت واحد. وفى هذا العرض لا يجب أن يكون التوصيف الجغرافى أكثر من سبيل يشفعه التفسير والتعليل ، ويبصر بالعلاقات التى ينبغى أن يتلمسها ويتداركها البحث الجغرافى الموضوعى .

وكان ذلك الاتجاه الذى أسفر عنه فكر كارل ريتر الثاقب (١) ، -بكل تأكيد – من وراء اجتهاده الجغرافى الممتاز ، الذى ركز على عمق وأصولية العلاقة الحقيقية والواقعية بين الانسان والأرض ، وعلى جدوى التأثير المتبادل بينهما ، فى أى مكان يحتوى الحياة على الأرض . ولعله قد أفلح إلى حد بعيد ، عندما صور كيف ينبغى أن يكون البحث الجغرافى الموضوعى بحثًا هادفًا ، لحساب الانسان . بل ومن خلال استعشار ذكى ، ينبغى أن يدرك الجغرافى وضع الانسان ، وأن يوفق فى تصور مكانته وقدراته على التعامل مع الأرض .

وهذا معناه أن جعل كارل ريتر من الانسان ومصلحته فى الأرض أو من الظاهرة التى تعبر عن وجود الانسان وتسيده على الأرض ، نقطة بداية ، تبدأ من عندها دراسة الأرض دراسة موضوعية . وقد تكون فى بعض الأحيان محور تحرك ، يفضى إلى أبعاد وموضوعية وعمق البحث الجغرافى . وفى كل حالة ، يجب أن تتجاوز الدراسة الوصف والتصوير الكاشف للرؤية الجغرافية ، تجاوزًا كلياً إلى التفسير والتعليل المعبر والمناسب ، عن مدى ديناميكية التفاعل الحياتى الذى يباشره الانسان ، فى أحضان الأرض (٢) .

---

(١) كرس كارل ريتر حياته فى العمل الجغرافى . وكان معلمًا ومفكراً وكاتبًا مؤلفاً من طراز مثابر ممتاز . ولقد تولى ريتر قيادة وادارة معهد الجغرافية طول حياته العلمية والعملية . ومن خلال اجتهاده الجغرافى المكتبى ، أصدر ريتر أول كتاب جغرافى له عن أوروبا فى صوره جغرافية وتاريخية واحصائية فى سنة ١٨٠٤ . ثم أصدر كتاب علم الأرض الذى كشف عن تفجر ريادته الفكرية فى ترسيخ علم الجغرافى فى سنة ١٨١٧ . أما كتابه عن آسيا فلقد أصدره فى السنة التالية مباشرة فى سنة ١٨١٨ .

(٢) فى كتاب علم الأرض ، حاول كارل ريتر أن يصل من خلال فكر جغرافى متفتح إلى تصور حقيقى ومقنع ، يحدد مكان ومكانة علم الجغرافية . كما حاول أيضاً أن يحدد بواقعية وموضوعية ، طبيعة علم الجغرافية وأهدافه .

كما ينبغى أن ندرك أيضاً - من خلال متابعة انجازات كارل ريتر وأعماله الجغرافية - وهو يؤدى مهمته الأكاديمية - كيف اعترض اعتراضاً موضوعياً على حتمية الفصل بين الجغرافية التى تنكب على دراسة المكان ، والتاريخ الذى يتابع حركة أحداث الحياة فى الزمان بين أحضان المكان فصلاً حاداً (١) . وما من شك فى أنه لم يعترض عبثاً على هذا الفصل القاطع للعلاقة بينهما . بل لقد أسس هذا الاعتراض على ادراك موضوعى للحقيقة الواقعية التى تؤكد على كيف تؤثر الأرض فى حياة الانسان ونبض وجوده ، وكيف يؤثر الانسان فى الأرض لحساب حياته ونبض وجوده . وهذا معناه أن التأثير المتبادل بين الانسان والأرض ، هو الذى يصنع الصلة بين المكان وحركة الأحداث فى المكان ، ويشجب الفصل الحاد بينها .

ومن الجائز أن تمادى كارل ريتر فى معارضته لهذا الفصل الحاد بين الجغرافية والتاريخ ، من خلال تفنيد آراء بعض المعاصرين من الجغرافيين ، الذين تشبثوا بحتمية هذا الفصل . ومن الجائز أيضاً أنه قد بث فى ثنايا هذا التفنيد منطقه ودليله وهدفه من الاعتراض على الفصل، وكيف أن غاية الجغرافية التى تتولى معالجة وتصوير المسرح الذى يشهد حركة الأحداث ومسيرة التاريخ ، لا تبرر حتمية الفصل ، ولا تكاد تنتفع به . لكن المؤكد أنه لم يكن من بين أهداف هذا الاعتراض تصعيد الحملة إلى حد يعيد التلاحم بين الجغرافية والتاريخ .

ولعل كارل ريتر قد اكتفى بأن جسد اعتراضه ، واستخلص من ورائه غاية من أهم غايات البحث الجغرافى . ولقد تمثلت هذه الغاية ، فى دعوة مفتوحة إلى دراسة المكان دراسة موضوعية ، تحدد أبعاد الواقع الجغرافى ، وكيف يحتوى هذا الواقع حركة الحياة ويؤثر على نبضها ، وكيف يتبنى تفاعل هذه الحركة ، ويؤمن مسيرتها فى الزمان ، بين

---

(١) تشبث كارل ريتر - وهذا حق - بواقيعة العلاقة بين الانسان والبيئة الطبيعية التى تحتويه وتشهد تاريخه وفى اعتقاده أن دراسة الأرض مقدمة تستهدف معرفة القوانين والسنن الحاكمة لحركة الحياة ولذلك طالما ردد ريتر ينبغى أن نسأل الأرض عن قوانينها

أحضانه . ولا يمكن أن تسفر هذه الغاية ، عن أقل من صلة وعلاقة بين الجغرافية والتاريخ ، من غير تجاوز الفاصل الموضوعى الذى بنى عليه انسلاخهما فى وقت سابق .

وهكذا ينبغى أن ندرك كيف أطلق كارل ريتر عنان غاية من غايات البحث الجغرافى الموضوعى ، وكيف طوعها من كونها غاية مجردة ، إلى كونها غاية هادفة وموجهة . وهذا معناه أن كارل ريتر قد حمل الجغرافية من خلال هذه الغاية الهادفة الموجهة مسئولية صياغة الأرضية الموضوعية للبحث التاريخى ، الذى يتابع ويتدارس وقع خطوات الحياة فى المكان من ناحية ، ومسئولية تجسيد دور العامل الجغرافى الذى يكمن مع غيره من المعالم - غير الجغرافية - من وراء وقع هذه الخطوات والأحداث التاريخية نتائجها من ناحية أخرى .

وتلك - فى حد ذاتها - اضافة ابداع من حصاد فكر واجتهاد كارل ريتر . وما من شك فى أن هذه الاضافة قد فسرت ما يقال بشأن دور الجغرافية الوظيفية ، وكيف أنه دور فعال ومفيد ، لأنه يرشد ويبصر التاريخ . وهذا معناه أن كارل ريتر قد طور اعتراضه على الفصل بين الجغرافية والتاريخ بحصافة شديدة ، وأعطى البديل الممتاز الذى أغنى عن اعادة الالتحام فيما بينها .

ولقد تجلى هذا البديل الممتاز فى قنوات اتصال ، وعلاقات على نحو يصور كيف ينبغى أن تكون الجغرافية من وراء التاريخ ، وهى التى تدعم موضوعيته وتفسر حركته . وتطوير الاعتراض على هذا النحو ، علامة لا تضل ولا تضلل عندما نذكر أن كارل ريتر قد برهن على عدم التشبث برأى واحد ، لأنه لم يرض لأفكاره بالتجمد . وهو - بكل تأكيد - قد برهن على تفوق شديد فى تطوير الفكرة أو تطويعها - بذكاء - لكى يتجنب اعادة التلاحم بين الجغرافية التاريخ لأنه مرفوض ، ولكى يجنب الجغرافية التاريخ سوءات القطيعة والانفصال لأنه مطلوب ، فى وقت واحد . بل لقد أسفر ذلك الانجاز الجيد عن هدف جديد ، تحملت مسئوليته الجغرافية العلمية ودورها الوظيفى ، لحساب الانسان .

أما عن الطريقة التى أخذ بها كارل ريتر ، واحتوت وجسدت

اجتهاده الجغرافى الجيد ، فقد تمثلت فى اتباع خطوات وأساليب ومنطق وواقعية المنهج التجريبى . وهو لم يعتمد أبداً ، على جمع وتبويب وسرد الحقائق الجغرافية . كما أنه لم يلجأ إلى التوصيف وحده لكى يعبر عن الرؤية الجغرافية . بل لقد تطلع كارل ريتر بفكره وتأمله واجتهاده دائماً ، إلى استخلاص القواعد واستنباط السنن الحاكمة، للظاهرات المعنية على الأرض ، استنباطاً رشده ، وهو يجسد ويعمق هذه الرؤية الجغرافية فى إطار الوصف التفسيرى .

ومثل هذا الاتجاه الذى اعتمد فيه ريتر على المنهجية الموضوعية ، علامة على أنه سخر التفكير الجغرافى تسخيراً مفيداً ، لحساب التفسير ، الذى يعلل ويتلمس العوامل من وراء الظاهرة الجغرافية المعنية. كما أنه علامة أيضًا ، على تقصى العلاقات السببية بكل الالحاح[1] ، وعلى رفض واستنكار استغراق البحث الجغرافى فى التوصيف المجرد بكل التأكيد .

وقمة ما توصل إليه اجتهاد كارل ريتر ، وفكره الجغرافى المتألق فى أدائه الأكاديمى ، هو البحث الجغرافى الأصولى الذى جسد فيه مفهوم الشخصية الجغرافية الاقليمية . وما من شك فى أنه قد كد واجتهد ، لكى يتقصى العوامل الجغرافية التى تسهم أو تشترك فى تحديد ملامح ومميزات هذه الشخصية الجغرافية المتفردة . وهذا – بكل المقاييس – انجاز جديد وابداع مجدد فى العمل الجغرافى الموضوعى . بل أنه قد أضاف – بالفعل – اضافة جديدة إلى أهداف وغايات العمل الجغرافى ، ينبغى أن تلفت النظر . بل وكيف لا تلفت النظر، وهو قد استشعر

---

(١) اعتنق كارل ريتر وتشبث بالنظرية الغائية ، التى قالت أن الكون قد خلق لغاية، وأنه لم يكن فى الصورة التى هو عليها عبثاً . وكانت هذه الغائية التى اقتنع بها ريتر – بكل تأكيد – من وراء استشعار جدوى البحث عن السبب ، أو الأسباب الكاشفة لهذه الغاية المطلقة . والتى أراد بها الخالق للكون ، وما يحتويه أن يكون . وهذا – فى حد ذاته – علامة على أن تقصى العلاقات السببية، فى مجال دراسة الظاهرة الجغرافية وتحليلها ، كانت غاية بحث وتأمل وتفكير كارل ريتر الجغرافى .

معنى وماهية الشخصية الجغرافية الاقليمية ، وكيف تتباين ملامح الرؤية الجغرافية فيها ، عن ملامح الرؤية الجغرافية فى غيرها .

وهكذا فطن كارل ريتر – بثاقب فكره – إلى أن التقسيم الاقليمى الواقعى ، إنما هو وليد استشعار كنه وماهية وفاعلية وجدوى تأثير كل العوامل ، التى تشترك مجتمعة ، فى صياغة وتشكيل شخصية الاقليم وتفرده جغرافياً . وفى اعتقاد كارل ريتر أن العوامل الطبيعية التى تضفى على الاقليم صفاته وتكسبه تفرده الجغرافى ، هى بعينها العوامل التى تشترك فى تجسيد الشخصية الجغرافية الاقليمية المتميزة، من اقليم إلى اقليم آخر . وهو بذلك قد أغفل دور الانسان ، ولم يعتد به أصلاً – وهذا ما نأخذه عليه ونعترض على الانسياق فيه – فى صياغة أو تجسيد هذه الشخصية الجغرافية الاقليمية .

وهكذا كان اجتهاد كارل ريتر على المستوى الأكاديمى ، اجتهاداً جيداً ومحدداً . بل وكان معين فكره الجغرافى معيناً غنيًا بالاثارة والتألق . ولقد برهن – بكل الثقة – عن رغبة ملحة فى الابداع والاضافة، إلى الرصيد الجغرافى . ومن الطبيعى أن ندرك كيف أسعفه هذا الاجتهاد، وهو يعكف على تجديد وترسيخ حيوية الجغرافية ، وعلى دعم سبيلها وأهدافها العلمية . ومن الطبيعى أيضًا أن نطرى ريادته ، وأخذه بزمام مسيرة الفكر الجغرافى فى عصره . ولكن المؤكد أن عقليته الجغرافية المتفتحة ، قد رفضت وتنكرت واستنكرت بعض ثمرات الاجتهاد الجغرافى السابق ، فى القرن الثامن عشر الميلادى . ومن ثم اعتصر خبرته ومهارته الجغرافية وأعطى البديل الأجود ، وعدل بعض أوضاع ما لم يقبله فى العمل الجغرافى العلمى ، من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون .

وفى اعتقاد الجغرافين المنصفين من أبناء القرن العشرين ، أن كارل ريتر قد شرف قدره العلمى الأكاديمى بأبوة مسئولية ، هى التى تحملت بكفاءة وإخلاص أمانة الفكر الجغرافى الحديث ، وتبنت بصدق واقتدار مسئولية ارساء قواعد الجغرافية الحديثة فى طابعها التقليدى . ولقد بنى وأسس هذه الأبوة ، على منطق يدين للبحث التجريبى

والأسلوب المقارن ، فى صياغة اجتهاده وتجسيد فكره الجغرافى تجسيداً علميًا . ومن ثم فتح كارل ريتر الأبواب ، لكى تلج منها الاجتهادات الجغرافية الحديثة ، ولكى تؤدى دورها الوظيفى التخصصى الصحيح .

وهكذا ركز كارل ريتر كل اجتهاده فى حقل البحث الجغرافى تركيزاً موضوعيًا هادفًا ، من خلال حسن استخدام المنطق الحاكم لأبعاد الرؤية الجغرافية ، وتدارك ما ينبغى أن تنبئ به . بمعنى أنه لم يوقف اجتهاده الجغرافى عند حد توزيع الظاهرة المعنية ومدى انتشارها، وتصوير رؤيته لها بالوصف . بل لقد انكب على تلمس التعليل الذى يفسر هذا التوزيع والانتشار ، ويبرره فى اطار جملة العوامل الحاكمة . هذا بالاضافة إلى استخلاص العلاقة أو العلاقات التى تربط بين هذه الظاهرة المعنية والظاهرات الأخرى . وهذا معناه أن ريتر قد قبل بما توصل إليه الاجتهاد الجغرافى من قبل ، سبيلاً لدراسة تحليلية وتركيبية فى وقت واحد ، تعرض الرؤية الجغرافية وتجسدها فى أحسن تصور جغرافى علمى معبر عنها ، فى إطار الوصف الجغرافى التفسيرى .

وبصرف النظر عن تألق دور كارل ريتر البناء ، وهو يكد فكره الجغرافى ويعتصره ، فى ترسيخ بنية علم الجغرافية ، فى تأصيل نتائج أبحاثه المثمرة ، من خلال التوزيع والتعليل والربط ، الذى يجسد الرؤية الجغرافية ، ينبغى أن نذكر كيف أفلح حقيقة ، فى اضافة لبنة جديدة إلى أساس أو إلى قاعدة الدراسة الجغرافية الاقليمية . ولقد حددت هذه الاضافة أقصى ما يمكن أن تصبو إليه الجغرافية فى المجال الاقليمى . كما ينبغى أن نثنى على اجتهاد ريتر الجغرافى ، الذى وضع الجغرافية فى تركيبها الهيكلى العلمى ، ورشد بحثها وغاياتها إلى الأسلوب المنهجى السليم .

وقد نضيف إلى ذلك كله الاشادة بفضل كارل ريتر ، وهو يبث فى العمل ، وفى التفكير ، وفى الانجاز الجغرافى ، روح ومنطق التجديد والتطوير ، أو وهو يضع القاعدة التى حددت مكان ومكانة الجغرافية

بين زمـرة العلوم الطبـيـعـيـة، فى جـانب ، وزمـرة العلوم الانسـانيـة فى جـانب آخر . كـمـا نطرى اهـتـمـامه بتنمـيـة قـدرات العمل الجـغـرافى من خلال الأسلوب التركيبى التحليلى ، الكاشف عن أبعاد الرؤية الجغرافية وتجسيدها .

* * *

واسكندر فون همبولت ، علـم آخـر من ألمع أعـلام المدرسـة الجـغـرافـيـة الألمانية فى القـرن التاسع عـشـر الميـلادى . وهـو – من غير شك – واحد من أصـحـاب الاجتـهـاد الفكرى الجغرافى ، الذين انكبوا على ترسيخ التركيب الهيكلى للبنية العلمية الجغرافية . ولقد عكف همبولت على أداء هذا الـدور الحـيـوى البناء ، بعـد أن أشـبـعـتـه الرحلة وحـفـزت واسـتنفـرت حسـه الجـغـرافى ، لكى يتذوق حلاوة الرؤية الجـغرافية ، وهـو يباشـر العرض والتصـوير والتفسـير والتدبر فى كنهها وماهيتها .

ويبدو أن اهـتـمـام همـبولت المبكر بدراسـات متنوعة من بينهـا النبات والطبيعة والكيمياء والتشريح والچيولوچيا والتاريخ ، قد أكسبه خبرات متـعـددة وأثرى جـعـبـتـه العلمـيـة ، قـبل أن يتـحـول إلى الفكر الجـغـرافى الحديث ، ويحترف العـمل الجغرافى العلمى [١] . فى اعتـقـادى أن حصاد ونتائج هذه الدراسات المتنوعة قد أثرت خلفيته العلمية والثقافية ، اثراء أسـعف ودعـم اجتهـاده الجـغـرافى ، عندمـا سـجل اضافـاته المجددة المفـيدة فى مـجـالات الـفكر الجـغـرافى المتنوعـة ، أو عندمـا انبـرى لتـرسـيخ علم الجغرافية ترسيخاً كاشفاً لمغزاه ومرماه .

ومن الجائز أن ندرك مـدى المام همبولت بفـلسـفة وفكر الفـيلسـوف كانت ، وكيف التزم ببعض آرائه العلمية الجغرافية الرائدة . ومن الجائز أن نتصـور أيضـاً مـدى انتفـاع همـبـولت بثمـرات فكر كانت الجـغـرافى ،

---

(١) فى اعتقاد الجغرافيين الذين نهلوا من معين فكر واجتهاد همبولت الجغرافى، أن مـشـاهداته ورؤيتـه الجـغـرافـيـة الفـضـفـاضـة ، التى جمع أوصـالهـا فى أثناء رحـلات كـثـيـرة ، قـد رشـدت واسـتنفـرت حسـه الجـغـرافى الـذى بصـر فكره الجغرافى الخاص ، وهـو يحترف العمل الجغرافى العلمى .

وكيف سخر اجتهاده الفكرى لحساب علمه الجغرافى . ولكن الذى لا نشك فيه أن اجتهاد همبولت الجغرافى ، كانت اجتهاداً بناء ، وهو يطور ويطوع ويضيف ، إلى الفكر الجغرافى اضافات مجددة . وهذا معناه أنه استوعب حصاد دراسات كانت ، ليس لأنه كان مبهوراً به ، بل لكى يتحسس مواضع الاضافة إليه والزيادة عليه (١) .

وربما اعتمد همبولت فى أداء هذه المهمة الموضوعية ، التى أسفرت عن التجديد ، على الرؤية الجغرافية الكلية . ويبدو أن هذه الرؤية الجغرافية التى استقطبت اهتمام همبولت ، قد فجرت حسه الجغرافى وشحذت ادراكه المتفتح . ولقد تعالت صيحات هذا الحس الجغرافى ، فى ضمير وفكر همبولت ، وكأنها تدعوه – بكل الالحاح – لاعتصار خبراته المكتسبة العلمية ورصيده العلمى ، ولاستثمار حصاد رحلاته ورؤيته الجغرافية ، فى صياغة وتشكيل فكره الجغرافى ، وفى اقتحام مجالات الاحتراف العلمى الجغرافى (٢) .

ومن الجائز أن أسفر اجتهاد همبولت الجغرافى عن تنمية ودفع المسيرة الفكر الجغرافى دفعًا فى سبيلها التقليدى . ولكن المؤكد أنه استطاع أن يضع بعض علامات بارزة ، ترشد الاجتهاد الجغرافى السائد ، وهو ينصب فى القوالب الفكرية والعلمية . بل لقد أسفر اجتهاده علمياً عن ارساء بعض القواعد والأسس، التى جسدت اسهامه فى ترسيخ علم الجغرافية وبلورة أهدافه ، لحساب الانسان ومصلحة حياته فى الأرض . ورغم استيعاب فكر كانت، واطلاعه على فكر ريتر، نتبين أن همبولت لم يفقد ذاته ومقومات فكره الخاص ، ولم ينساق إلى حد يطمس ذاتية الاجتهاد الذى فجر فكره الجغرافى ، أو الذى بنى عليه احترافه العلمى الجغرافى .

هذا ، ومن خلال ادراك جغرافى مستنير كاشف لمفهوم وحدة

---

(١) هناك من يتصور أن تمحيص الظاهرات التى تضمنتها الرؤية الجغرافية قد استقطبت اهتمام همبولت وشكلت فكره الجغرافى . وما من شك فى أن هذا الاهتمام قد وجه اجتهاده الجغرافى العلمى فى الوجهة ، التى جعلت منه جغرافياً مجدداً .

(٢) وضع همبولت كل خبراته العلمية فى المجالات المتنوعة فى ظهير اجتهاده الجغرافى ، على أمل أن تشد أزره ، وتسعف انجازه الجغرافى المجدد .

الطبيعة ، أكد همبولت تأكيداً حاسماً على أهمية الجغرافية الطبيعية ، على وجه الخصوص . ولقد تبين له كيف أنها تتولى مهمة تجسيد معنى وماهية هذه الوحدة ، والقاء الأضواء على أبعادها الحقيقية . ومن ثم كرس اهتمامه ودراساته واجتهاده فى المعالجة الجغرافية الطبيعية ، وفى تحليل رؤيته الجغرافية الطبيعية للمكان .

ولكى يقيم همبولت رؤيته الكاشفة جغرافياً لمفهوم وحدة الطبيعة ، وكيف انها تكمن وراء التجانس البديع فى الكون ، وفى الخلق الذى يحتويه ، انبرى - بذكاء - لتحرى الروابط التى تفرض ابعاد العلاقة أو العلاقات بين الأرض من ناحية ، والحياة على الأرض من ناحية أخرى . وكان همبولت عندئذ مقتنعًا - بكل تأكيد - اقتناعًا من غير حدود بأهمية الاجتهاد الجغرافى ، وهو ينكب على تجسيد هذه الروابط أو على تصور هذه العلاقات ، تأسيساً على استشعار جملة العناصر ، التى تدخل أو تتداخل فى تركيب الأرض فى جانب ، وفى تكوين الوجود الحيوى على الأرض فى جانب آخر .

وعندما سلك همبولت مسلك كارل ريتر ، وسار فى درب الاتجاه الفكرى ، الذى ركز على جدية وجدوى الطريقة التجريبية فى ميدان العمل الجغرافى العلمى ، كان حريصاً - بكل تأكيد - على أن يجلو من خلال التجربة والمنطق التجريبى ، السبب أو الأسباب التى تفسر الظاهرة الجغرافية المعنية ، موضع الدراسة والبحث . كما تشبث همبولت تشبثاً موضوعياً بالمقارنة والبحث المقارن ، فى مجال البحث الجغرافى العلمى . ولقد استهدف من خلال ذلك السبيل السوى من أجل تعميق البحث الجغرافى تعميقًا علميًا ، أن يستخلص أو يتبين ملامح وسمات الشخصية الجغرافية الذاتية للمكان .

ومن خلال دراسة الظاهرة المناخية ، أضاف همبولت - بكل تأكيد - اضافة ابداع وتجديد مفيد إلى الجغرافية . ولقد تمثلت فى رسم خطوط الحرارة المتساوية لأول مرة . وهذا - من غير شك - ابتكار حقيقى ، ومدخل أنسب لدراسة المناخ . بل انه فى اعتقاد الجغرافيين ، اجتهاد ممتاز لأنه أسفر عن نقطة تحول هامة ومثيرة فى موضوعية

الدراسة الجغرافية المناخية . وكانت نقطة التحول من وراء ثورة حقيقية فجرت التغيير على صعيد البحث الجغرافى . ولقد نفض الجغرافيون من بعدها أيديهم من الاعتماد على الفكرة اليونانية العتيقة ، فى تقسيم العالم إلى أقاليم مناخية . وهذا معناه أن خطوط الحرارة المتساوية ، كانت سبيلاً أفضل لتقسيم العالم ، إلى أقاليم حرارية أولاً ، وإلى أقاليم مناخية ثانياً .

وفى الأطلس الجغرافى المنشور فى الفترة من سنة ١٨١٤ إلى سنة ١٨١٩ ، وضع همبولت قاعدة ابداع واضافة مفيدة أخرى . ولقد تمثلت هذه المرة فى مجموعة من الخرائط الجيدة ، التى احتوت على أسس تقسيم المناطق التى ارتادها ، إلى أقاليم نباتية طبيعية . وبصرف النظر عن أبعاد وقيمة هذه الاضافة جغرافيًا ، ينبغى أن ندرك كيف اهتم همبولت بصناعة الخرائط . وما من شك فى أنه قد تحمل مسئولية تصعيد الاجتهاد ، الذى انكب على تجهيز الخرائط ، لحساب الوضوح التعبير الكاشف للرؤية الجغرافية عن الظاهرة المعنية . كما أضاف إلى ذلك كله الاهتمام برسم القطاعات التضاريسية والچيولوچية ، على أمل أن تتيسر أبعاد الاجتهاد العلمى فى الدراسة الجغرافية المقارنة .

هذا ، وينبغى أن ندرك كيف كان الاتفاق بين همبولت وريتر فى النظرة الجغرافية الكلية ، التى بلورت مسألة أو قضية وحدة الطبيعة ، اتفاقاً مظهرياً ، من حيث الشكل فقط . ومعنى ذلك – بالتأكيد – أن كان الاختلاف وعدم التوافق بين نظرة همبولت الكلية لوحدة الطبيعة ونظرة ريتر لها ، اختلافاً جوهرياً وموضوعيًا ، من حيث المضمون . وهذا معناه أن همبولت قد سار فى خط فكرى مستقل وهو مؤمن بموضوعية وجدية رأيه الذى يؤسس عليه اجتهاده الجغرافى .

ويكفى أن نتبين ذلك الاستقلال الفكرى ، لكى ندرك كيف حرر همبولت فكره الجغرافى تحريراً حقيقياً ، ولم يساير تصور كارل ريتر تحرى مركزية الانسان فى الكون . وفى اعتقاد معظم الجغرافيين المنصفين ، أن تحرر فكر همبولت واستقلال اجتهاده الجغرافى ، كان مطلوباً ومفيداً . ذلك أنه التحرر الذى هيأ له فرص الابداع من ناحية ،

وجنبه ترديد ما لم يقبله من الأفكار الجغرافية من ناحية أخرى . ومن غير هذا التحرر ، ربما لم يكن فى مقدوره أن ينجح فى مهمة ترسيخ علم الجغرافية ، النجاح المرموق الذى تتيه به المدرسة الجغرافية الألمانية .

واجتهاد همبولت وأدائه الجغرافى العلمى كان جاداً ومثمراً ، بقدر ما كان منطلقًا ومتحرراً ، ولكن من غير أن ينحرف عن الاتجاه الصحيح فى عصره ، أو من غير أن يشذ ويتردى فى الخطأ . ولعله لم يساير كارل ريتر ويجاريه دائماً ، لأنه – على سبيل المثال – لم يكن فى مقدوره أن يقبل أو يوافق على نظرية ريتر الغائية ، فى مجال تصوير أو تجسيد نظرته للكون من قريب أو من بعيد . بل وربما لم يكن فى مقدور همبولت أيضاً أن يستوعب هذا المنطق الفلسفى المثالى السائد آنذاك ، والذى بلور مفاهيم هذه الغائية .

ولقد دعا ذلك البعض إلى تصور أن اجتهاد همبولت وفكره الجغرافى بشأن وحدة الطبيعة ، لا يرتكز فى جذور العميقة ، إلى أى أرضية دينية ايمانية . وبصرف النظر عن الطعن فى عقيدة همبولت وايمانه بالله ، يمكن أن نتصور أن همبولت ربما كان أعجز من أن يدرك ، كيف أن وحدة الطبيعة تدبير إلهى أراده الله وأبدعه ، لحساب الانسان ، ومصلحته فى الحياة على الأرض . وإلا فكيف نفسر ما أكده همبولت أكثر من مرة ، وهو يصف الكون بأنه مملكة الله العليا . ومن الجائز أن رفض همبولت هذا الطعن ، الذى انطوى على كثير من التجنى . ولكن المؤكد أن الاجتهاد العقلى الذى تلمس الروابط بين الأرض والوجود الحيوى فيها ، وتصور مفهوم وحدة الطبيعة المبنى على هذه الروابط ، لا ينبغى أن يؤخذ قرينة على أن همبولت ، قد أنكر ذات الله وكفر به .

والاختلاف بين همبولت ريتر فى بعض القضايا الفكرية ، لا يتعارض مع الاتفاق بينهما فى المنهجية العلمية . ولقد تابع همبولت الدراسة إلى حد تصور الرؤية الجغرافية وفقاً لأسلوب العصر . ومع ذلك ينبغى أن ندرك أن الأخذ بمنطق وأسلوب الدراسة المقارنة ، أو البحث

من خلال التوزيع والتعليل الربط ، علامة على أن همبولت قد رسخ قواعد البحث المنهجي ، ولم يتمرد عليها . بل ولا ينبغي أن نأخذ ذلك الالتزام على أنه من قبيل المحاكاة أو متابعة خطى ريتر . بل لقد برهن همبولت واجتهاده الجغرافي المجدد على أنه كان متحرراً تحرراً حقيقياً ، وأن الالتـزام بقـاعـدة لا يمكن أن يطعن في تحـرره ، أو في الابداع والاضافة التجديد الذي يسفر عنه هذا التحرر .

هذا ولا ينبغي أن نشك في أن تحرر فكر همبولت الجغرافي ، هو الذي وجه اجتهاده الجغرافي وتفكيره المحدد ، إلى الدراسات والبحوث الأصولية بصفة خاصة . وهذا معناه أن تفكيره في هذا الاتجاه ، كان أبعد ما يكون عن اتجاه اجتهاد ريتر، إلى البحث والدراسة الجغرافية الاقليمية . وما من شك في أن تنوع واختلاف اتجاه كل من ريتر وهمبولت ، كان مفيداً ومطلوباً لحساب العمل الجغرافي الموضوعي . بل أنه لا ينفي مسئولية أي منهما في ارساء وترسيخ دعامات وقواعد الجغرافية الحديثة . بل ربما كان التنوع مطلوباً ، لكي يتأتى الترسيخ على أوسع مدى ، وفي كل مجالات البحوث الجغرافية .

والاختلاف والتناقض بين همبولت وريتر في قضايا وأمور فكرية جوهرية ، والاتفاق والتوافق بينهما في مبادئ وقواعد جغرافية ، كان من الممكن ان يمثل شيئًا عادياً . ولكن المؤكد انه اثار عاصفة من الجدل الجغرافي العلمي . ومن شأن هذا الجدل بين زمرة المجتهدين والعاملين والمتخصصين في حقل العمل الجغرافي دائمًا ، ان يكون منهجيًا ، لحساب العلم وموضعيته . ومن شأنه أيضًا ان يبلور بعض الأفكار ويجلوها ويرسخها ، أو أن يعصف ببعض الأفكار الأخرى ، ويطمسها ويصرف الاهتمام عنها . بمعنى أنه جدل مفيد شريطة أن يكون موضوعيًا وهادفًا ، وأن يترفع عن التعصب كلية . وبمعنى انه جدل هادف ، لأنه يسفر في نهاية المطاف عن ترسيخ بعض القواعد والأسس الجغرافية الهامة . ولكن هل أدى الجدل إلى هذه النتائج هـذا هـو السؤال ؟

ولقد اشترك في معرفة هذا الجدل الفكري الجغرافي ، نفر من

المجتهدين الألمان المتحمسين لآراء همبولت ، نذكر منهم فروبل الذى فجر اشتراكه موجة الرفض العام والاستنكار العاصف ببعض أفكار ريتر مثل فكرة الغائية . بل لقد استهجن فروبل فكرة البحث الشامل الكلى ، الذى يتخذ من التركيب والتحليل وسيلة للدراسة الاقليمية الجغرافية . وفى اعتقاد فروبل الذى انغمس فى التعصب أن اهتمام الدراسة الجغرافية ، ينبغى أن يقتصر أو أن ينكب على دراسة الجغرافية الطبيعية دراسة منهجية موضوعية . ولا بأس عنده فى أن تكون دراسة الأرض كوطن للانسان دراسة فلسفية فقط . أما أن تجتمع الدراسة المنهجية ، مع الدراسة الفلسفية ، فى أحضان علم واحد ، فهذا اجتماع صعب وغريب ، ويعترض عليه فروبل اعتراضاً شديداً وصارماً .

واشترك فى معمعة هذا الجدل الفكرى الجغرافى نفر آخر من المجتهدين الألمان المتحمسين لآراء ريتر . ولقد تحمس هذا النفر لكارل ريتر وتعصب لآرائه ، وحاول تطويرها والترويج لها . وربما استهجن لود أسلوب ريتر ومفهومه عن الجغرافية المقارنة وأدخل تعديلات كثيرة عليها لكى يقومها . وربما سار وابوس فى نفس المسار الذى انتهجه لود تحمساً وتعصباً لأفكار كارل ريتر . ولكن المؤكد أنهما استغرقا فى التعصب استغراقاً مخيفاً . وتأثر آخرون بذلك التعصب وامتدحوا نظرة ريتر إلى مركزية الانسان فى الكون . ولقد تمادى هؤلاء جميعاً إلى حد دعا إلى جعل علم الأرض المقارن ، علماً يقتصر على دراسة الانسان فى اطار علاقته بالبيئة الطبيعية .

هذا ولا نشك فى أن الجدل الفكرى الجغرافى بين المتحمسين لآراء همبولت فى جانب ، والمتحمسين لآراء ريتر فى جانب آخر ، قد أثرت الفكر الجغرافى الحديث . كما لا نشك فى أنه قد طور المعالجة الجغرافية. ولكن المؤكد أنه قد تصاعد تصاعداً آثار البلبلة والتشكك إلى حد أشاع التخوف ، من أن يعصف هذا الجدل أو يهدر كل أو بعض التقدم ، الذى حققته مسيرة الفكر الجغرافى الجغرافية العلمية . ولولا أن تدارك بشل هذا الجدل المتعصب ، لتضررت الجغرافية تضرراً كثيراً فى ذلك الوقت .

وبشل المفكر الجغرافى الألمانى ، اقتحم ساحة هذه المعمعة الجدلية فى الوقت المناسب بالفعل . ولقد سخر اجتهاده الجغرافى لانتشال الجغرافية من معمعة الجدل الفكرى المحتدمة . ويعتقد أنه قد أفلح فى حسم الموقف وتدارك الجغرافية ، قبل أن تضل أو يضللها هذا التعصب. وفى حوالى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، أصدر فارس هذا الميدان كتابين هامين عن علم الجغرافية المقارن (١). وهما – بكل تأكيد – اضافة مفيدة إلى رصيد علم الجغرافية التى صورها بشل تصويراً واقعيًا ، وبين كيف يمثل **العلم التجريبى المنظم** ، لأنه يعتمد على **الملاحظة والمعاينة** ، بقدر ما يعتمد على الاستنباط ، الذى تتبناه المعاينة وتفجره الملاحظة (٢) .

ويعتقد بعض الجغرافيين المنصفين ، أن بشل قد أنقذ الاجتهاد الجغرافى من التشتت والضياع ، وانتشل الجغرافية من سوء الفهم الذى تردى فيه الجدل المتعصب ، وهو يكرس النقد والسخرية من فكر ومنهج وأراء كارل ريتر . وهذا معناه أنه انتصر للجغرافية أكثر من أى شئ آخر ، وأنه لم يحاول أن ينتصر لريتر أو يتعصب له . وما من شك فى أن بشل قد أنصف عندما اتخذ هذا الموقف ، لأنه صحح أوضاع مسيرة الفكر الجغرافى فى اتجاهها الصحيح ، قبل أن يسهم باجتهاده الحصيف فى ترسيخ علم الجغرافية على نحو يرتضيه الفكر الجغرافى الحديث الذى عرف أهدافه (٣) .

ويصرف النظر عن مدى النجاح الذى حققه بشل ، فى تخفيف حدة الجدل المتعصب ، وفى حسم القضية الجدلية لصالح علم الجغرافية ، وفى تعديل أوضاع مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه

---

(١) نشر بشل كتابًا يعالج ماهية علم الجغرافية المقارن فى سنة ١٨٦٧ . ونشر كتابه الثانى الذى يعالج فيه مسائل حديثة فى علم الجغرافية المقارن سنة ١٨٧٠ .

(٢) وجه بشل الاهتمام إلى الدراسة الميدانية ، على اعتبار انها تجمع أوصال الرؤية الجغرافية، وأنها تنشط استخدام الحس الجغرافى فى اداء مهمة البحث فى الميدان .

(٣) لم يتردى بشل فى الغائية ، التى انغمس فيها فكر كارل ريتر . لقد اعتبرها شكلاً من اشكال التهرب من تقصى الأسباب ، لحساب التفسير الجغرافى .

السوى ، ينبغى أن نذكر كيف أنه أدى – من غير قصد – إلى انحراف من نوع جديد . وكان من شأن هذا الانحراف أن هز الفكر الجغرافى هزة عنيفة ، وزلزل بنية علم الجغرافية . ولقد بنى ذلك الانحراف على الاهتمام والتركيز كلية على دراسة **الجغرافية الطبيعية وحدها** . بمعنى أنه وجه الاجتهاد الجغرافى إلى دراسة الأرض ، وأعفاه من دراسة الانسان وحياة الانسان ، فى أحضان هذه الأرض .

وهكذا فتح بشل – عن غير اقتناع شديد – الباب على مصراعيه من جديد ، لكى يعصف هذا التركيز باهتمام الاجتهاد الجغرافى بدراسة الظاهرات البشرية . والمؤكد أن بشل لم يكن مقتنعًا اقتناعًا فكريًا حقيقيًا بدراسة الانسان . بل لقد حض بالفعل على دراسة الأرض دراسة علمية جغرافية طبيعية فقط . وهذا معناه أنه قد اعترض بشكل غير مباشر على قاعدة جغرافية كانت قد أكدت على تقسيم الجغرافية إلى شقين متكاملين ، شق طبيعى يهتم بدراسة الواقع الجغرافى الطبيعى فى جانب ، وشق بشرى يهتم بدراسة الواقع الجغرافى البشرى فى جانب آخر .

وصحيح أن الاتجاه الذى ركز اهتمام الاجتهاد الجغرافى على الجغرافية الطبيعية قد تصاعد كثيراً . وصحيح أن هذا التصاعد لم يسفر فى نهاية الأمر على مساس يعصف – فعلاً – بالتقسيم الموضوعى الذى ميز بين قسمين كبيرين هما الجغرافية الطبيعية التى تدرس الأرض ، والجغرافية البشرية التى تدرس الانسان فى هذه الأرض . ولكن المؤكد أن دراسات بشل المنهجية الطبيعية، قد هيأت للاجتهاد الجغرافى الذى قام به جغرافى آخر، هو جيرلند أن يضل ويضلل العمل الجغرافى (١).

---

(١) لقد برر جيرلند رأيه الهدام – فى نظرنا – تبريراً غير مقبول . وجاء فى هذا التبرير أن الجغرافية علم طبيعى من العلوم التى تستشعر كيف تمتثل الأرض ووجودها لقوانين ثابتة غير قابلة للتغيير ، على حين أن دراسة الانسان ونمط حياته على الأرض الذى لا يخضع لقوانين ثابتة أو منضبطة ، لا يمكن أن تكون ممكنة فى اطار مهمة الاجتهاد الجغرافى . بمعنى انه استنكر أن يجمع الاجتهاد الجغرافى فى وقت واحد ، بين دراسة منضبطة تنظمها قوانين ثابتة ، ودراسة غير منضبطة وقابلة للتغيير . وفى رأيه انه لو تولت علوم =

ولقد تبنى جيرلند هذا التطرف ، واغرق اجتهاده الجغرافى فى الانحراف الذى فتح بشل الطريق إليه . وأعلن جيرلند صراحة عن استبعاد دراسة الانسان . وأصبح وكأنه يشن عدوانًا حقيقيًا على التركيب الهيكلى للبنية الجغرافية العلمية . وهذا – من غير شك – تهديد ينبئ بخلل وعدم توازن . وكان من الممكن أن يصدع هذا الخلل أو يهدم البناء الجغرافى من أساسه ، وأن يخرب ويهدر ويضيع مسيرة الفكر الجغرافى الحديث .

وهكذا حسم بشل شكلاً متعصبًا من الجدل ، الذى تخوف منه الفكر الجغرافى الحديث ، وأثار فى نفس الوقت انحرافًا وزلزلة تدعو إلى اهدار شق هام متداخل فى بنية الجغرافية وتركيبها الهيكلى العام . وكان المطلوب – عندئذ – والجغرافية فى مفترق الطرق وتكاد تضل ، أن تجد من يحسم هذا الموقف مرة أخرى ، وأن يقضى فى أمر هذا الانحراف ، الذى يتهدد كيان علم الجغرافية وبنائها الشامخ . ولقد ظهر بالفعل – فى ذلك الوقت – واحد من أبناء المدرسة الألمانية لكى يتولى هذه المهمة . وتحمل فريدريك راتزل المسئولية وسخر اجتهاده الجغرافى لآرائها . وما من شك فى أنه واجه هذا الانحراف وعمل على ابطال مفعوله ، لحساب الجغرافية ، وصيانة تركيبها العلمى الراسخ .

وفريدريك راتزل ، علم مرموق من أهم أعلام المدرسة الجغرافية الألمانية . بل هو – بكل تأكيد – جغرافى محترف من خيرة المفكرين

– لخرى مهمة دراسة الانسان ، مثل الأنثروبولوجيا والأنتولوجيا لكان ذلك أوقع . ولا بأس أن تسعف الدراسة الجغرافية المنهجية المنضبطة تلك العلوم ، بكل الحقائق الجغرافية عن الأرض ، التى تخدم أغراضها وتدعمها وتعينها فى دراستها المنهجية . وفى اعتقاد أى جغرافى منصف ، أن جيرلند يغالط الناس ويغالط نفسه ، لأن الثبات وعدم التغيير الذى تلتزم به الجغرافية لدراسة الأرض ، لا يمكن أن تعترض أو تتعارض مع التغيير الذى تلتزم به الجغرافية لدراسة الناس فى الأرض . بل أن التفاعل الحياتى بين الناس والأرض طلبًا واستجابة لمصلحة الحياة ، يفهمه ويدركه ويتدبر أمره التفكير الجغرافى فى ضوء هذا البعد الثابت والبعد المتغير ، بل وتكون مظاهر التغيير فى محصلة هذا التفاعل الحياتى، التى تقوى مكانه وتنمى تسيد الانسان على الأرض نتيجة حتمية لذلك .

الممتازين ، الذين كرسوا اجتهادهم الجغرافى العلمى ، لترسيخ علم الجغرافية الحديثة ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى . ومن الجائز أنه قد تأثر فى معظم الأحيان بنظرية النشوء والارتقاء ، التى فجرها دارون . ولكن المؤكد أنه أجزل العطاء للعمل الجغرافى العلمى ، وهو يكشف عن العلاقة ، بين الانسان والبيئة ، وهى مسرح حياته ونشاطه .

هذا ويكفى فريدريك راتزل أنه قد تبنى مسئولية صياغة البناء العلمى الجغرافى ، عندما تولى مواجهة الانحراف الذى تسبب فيه بشل وروج له جيرلند ، وأثار بلبلة خطيرة هزت الجغرافية هزاً عنيفاً تهدد صرحها الشامخ . ولقد تمثل هذا الحسم فى موقف صريح وقفه راتزل، ودعا فيه إلى التأكيد على ضرورة الجمع بين فكر وعمل واجتهاد جغرافى يستغرق بحثاً فى الرؤية الجغرافية الطبيعية على الأرض، وهى تحتوى الانسان ، وفكر وعمل اجتهاد جغرافى يستغرق بحثاً فى الرؤية الجغرافية البشرية التى تتأمل فى حياة الانسان ونشاطه على الأرض .

هذا ، ولقد اضاف راتزل إلى الاجتهاد الذى أحبط انحراف بشل وجيرلند وغيرهم ، اجتهاداً فكرياً مستنيراً ، ثبت دعامات الجغرافية البشرية بشكل قاطع . بل أنه عندما وضع اجتهاده الجغرافى وأحسن استخدام فكره المتفتح فى خدمة الاهتمام بالانسان، ودراسة نشاطه وأنماط حياته فى أى مكان على الأرض ، أحدث التوازى والتوازن فى وقت واحد ، بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية . ولقد قطع هذا التوازى والتوازن دابر أى خلل . بل أصبح التوازى والتوازن سمة هامة وقاعدة راسخة من أهم القواعد ، التى رسخت وقوت التركيب الهيكلى العام لعلم الجغرافية الحديثة .

ولقد تكشف اجتهاد فريدريك راتزل الجغرافى بالفعل (١) ، فى

---

(١) اهتم راتزل بالجغرافية الطبيعية قدر اهتمامه بالجغرافية البشرية . ويفسر هذا الاهتمام كيف أن راتزل ، عندما اتجه بكل فكره وجتهاده الجغرافى المجود إلى الظاهرات الجغرافية البشرية ، لم يفقد الاهتمام وتخصيص حصة مناسبة من اجتهاده لعوامل الطبيعة فى البيئة . ويقول Bruches كان لراتزل احساس قوى جداً . وقد نظر إلى الحقائق الانسانية على الأرض ، لا باعتباره =

كتابين مشهورين . وفى هذين الكتابين جسد راتزل أفكاره الجغرافية ، التى صححت أوضاع مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، وأمنت الجغرافية على تركيب كيانها الهيكلى وعلى أهدافها المتنوعة . وقد نشر راتزل كتابه الأول عن الجغرافية البشرية فى جزئين كبيرين . وصدر الجزء الأول منهما فى سنة ١٨٨٢ (١) ، وصدر الجزء الثانى فى سنة ١٨٩١ (٢) . أما كتابه الثانى الهام والمنشور فى سنة ١٩٠١(٣) ، فقد كان تحت عنوان الأرض الحياة علم الأرض المقارن .

وفى أى من هذه الكتب الجيدة ، التى أثرت رصيد الفكر الجغرافى وجسدت الاجتهاد الرزين ، سجل راتزل - بكل مهارة - العلاقة بين الانسان والعوامل الطبيعية فى الأرض التى تحتويه . وكان وكأنه يود

= فيلسوفاً أو مؤرخاً أو اقتصادياً أو مجرد اثنولوچى ، بل باعتباره جغرافياً . وقد استطاع أن يميز العلاقات العديدة المتغيرة والمعقدة ، بين الحقائق البشرية والحقائق الطبيعية ، من موقع وتضاريس ومناخ ونبات . وقد سجل ملاحظاته عن السكان الذين يعمرون الكرة الأرضية ، ويعملون على سطحها باحثين على الرزق ، وصانعين للتاريخ . وقد لاحظ ذلك كله بعين العالم الطبيعى الأصيل .

راجع الجغرافية فى القرن العشرين (الترجمة العربية) جـ١ صفة ٨٦ ، ٨٧ .

(١) فى هذا الجزء الأول من كتاب « الجغرافية البشرية » ، اهتم راتزل بتصوير العلاقة بين توزيع الناس فى انحاء الأرض من ناحية ، العوامل الطبيعية التى تفسر هذا التوزيع من ناحية أخرى . ويبدو أن رؤيته الجغرافية قد كشفت له عن كيف تضبط هذه العوامل توزيع الناس ، وتحكمه إلى حد بعيد .

(٢) فى هذا الجزء الثانى من كتابه « الجغرافية البشرية » طور راتزل اجتهاده الجغرافى حول نفس موضوع توزيع الناس فى الأرض . ولقد صور هذا التوزيع تصويراً جيداً مبنيًا على الطريقة العلمية . بمعنى أنه جسد رؤيته لمسألة الضوابط الحاكمة للتوزيع تجسيداً واضحاً ، على الأساس العلمى الكمى الصحيح .

(٣) فى هذا الكتاب الثانى « الأرض والحياة - علم الأرض المقارن » . ناقش راتزل بكل الموضوعية العلاقة بين الانسان والعوامل الطبيعية التى تتمثل فى الأرض وهى تحتويه . وربما انساق من غير أن يقصد تماماً ، إلى تصور نقطة البداية فى استشعار منطق الحتم الذى وجد لفيفاً من الجغرافيين ، الذى انتصروا له فى وقت لاحق . وما من شك فى أن نضج فكر راتزل كان أول من أكد حتمية قوى الطبيعة على نشاط الانسان ، وهو يتفاعل مع الأرض ويطلب أو يتطلع إلى الانتفاع بها .

أن يؤكد على الحاجة الملحة إلى التوازن والتوازى ،فى دراسة الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية . ولقد أفلح راتزل فى تجسيد فكرة التفاعل بين الانسان والأرض ، وما يمكن أن تعنيه أو تفصح عنه ، وفى تصعيد الاهتمام بدراسة مظاهر الأرض ، وعلاقتها بالانسان على أسس منظمة .

ومن الجائز أن نتبين كيف سار فكر راتزل على الدرب ، الذى سلكه فكر كارل ريتر فى الاتجاه الصحيح . ولكن المؤكد أن راتزل لم يلتزم أبداً الالتزام الكامل برأى ريتر . بل لعله لم ينساق أبداً فى تيار فكر كارل ريتر الجغرافى المتميز . وهذا معناه أن المحافظة على السير فى الاتجاه الصحيح ، لا ينبنى بالضرورة على المحاكاة والالتزام الفكرى الجامد . ومعناه أن راتزل كان متحرراً فى عطاء فكره وفى تجسيد رؤيته الجغرافية ، من غير تمرد على قواعد الجغرافية ، ومن غير خروج عن الموضوعية التى أسفرت عنها بنيتها المركبة .

وعدم التزام راتزل وعدم انسياقه فى تيار فكر كارل ريتر الجغرافى، قد أدى – بكل تأكيد – إلى اختلاف واضح بين رأى راتزل وريتر فى قضيتين جوهيتين . ولقد تمثل هذا الاختلاف فى تناقض ، وهو شكل يفجر الجدل ، ولكن من غير أن يدعو إلى تفجر الخوف من مضرة هذا الجدل وانعكاساته ، على الفكر الجغرافى أو على علم الجغرافية .

وفى القضية الأولى ، كان الاختلاف واضحًا جلياً ، عندما عالج راتزل دراسة الانسان فى المكان ، وكتب فى الجغرافية البشرية كتابة منهجية أصولية بحتة . ولقد كف وامتنع راتزل تمامًا عن مسايرة أسلوب ومنطق ورؤية كارل ريتر الذى عالج دراسة الانسان فى اطار دراسته الاقليمية . وهذا معناه أن اهتمام راتزل بالانسان التى تتفرع لها الجغرافية البشرية اهتمام منهجى موضوعى أصولى ، على حين أن اهتمام كارل ريتر به كان جانبياً وبشكل يفتقد الأصولية .

وفى القضية الثانية ، كان الاختلاف واضحًا جليًا ، عندما عالج راتزل الجغرافية البشرية ، الذى كرس لها معظم اجتهاده ، معالجة

تساير روح العصر ، والذى شاع فيه أمر التطور الذى وضع دارون أساسه العلمى . وعندما لم يقبل كارل ريتر على معالجة الجغرافية البشرية بنفس منطق واهتمام راتزل ، يبدو أن معالجته كانت فى وقت لم يتأثر فيه بمسألة التطور الحيوى على الأرض . وهذا معناه أن هناك تباين واقعى وحقيقى ، بين تصور العلاقة بين الانسان والطبيعة عند كل من راتزل وريتر ، لدى معالجة كل منهما الظاهرات البشرية وتكريس الاهتمام بها (١) .

وتأسيسًا على هذا الاختلاف بين كارل ريتر وفريدريك راتزل فى الاجتهاد الجغرافى ، بدأ انحياز فريق من الجغرافين إلى صف كل منهما. وكان من شأن كل فريق منهما أن يساير منطق وأسلوب كارل ريتر، أو أن يساير منطق وأسلوب راتزل فى المعالجة الجغرافية البشرية. وربما بدأ بعض الجدل الخافت الذى عبر عن مدى الاختلاف والتناقض بين هذين الفريقين ، لدى استشعار وإدراك وتذوق كنه وماهية ونتائج العلاقة ، بين الانسان والطبيعة فى اطار الممارسة الحياتية من حوله فى أى مكان (٢).

هذا ولم يقف اجتهاد راتزل الجغرافى المتحمس الرشيد ، عند حد صنع وإحلال التوازى والتوازن الفكرى والعلمى ، بين الجغرافية

---

(١) فى الوقت الذى صور فيه كارل ريتر العلاقة بين الانسان والطبيعة باعتبارها جزء من وحدة منسجمة تخضع لمشيئة الخالق ، صور فيه راتزل هذه العلاقة التى تكشف عن دور الطبيعة فى شكل آخر ، وهى تطوع الانسان وتفرض عليه أن يتلاءم معها .

(٢) لقد تحول هذا الجدل بعد ذلك إلى تناقض فكرى شديد ، بين هذين الفريقين . وربما اعتبرنا راتزل مسئولاً عن موقف فريق الحتم منها . ولكن يبدو أن مسئولية ريتر عن الفريق الآخر منعدمة . وواجه فريق الحتم الذى أخذ يروج للحتم الجغرافى ويجسد تأثير الطبيعة على الانسان ومدى انصياعه لها ، فريق الامكانية الذى اعترض على هذا الحتم ونادى بتفوق الانسان وقدرته على مواجهة أعباء الحياة وتطويع الطبيعة . وما من شك فى أن هذا التناقض الفكرى ، قد أثرى الفكر الجغرافى الحديث ، وفجر مزيداً من طاقات الاجتهاد الجغرافى المتحمس ، والباحث فى أمر التفاعل بين الانسان والأرض فى معركة الحياة .

الطبيعية والجغرافية البشرية ، من أجل تكامل موضوعى يدعم الجغرافية ودورها الوظيفى العلمى فقط ، أو عند حد اثارة الجدل الفكرى بين الباحثين الجغرافين عن مدى وجوهر العلاقة وأبعاد التفاعل بين الانسان والأرض ، من أجل تناقض موضوعى يتكشف بين الحتمية المتزمتة والامكانية المتحررة فقط ، بل لقد أدلى راتزل بدلوه أيضاً فى مجال مهم . لكى يعدل أوضاع الاجتهاد الجغرافى ، ولكى يرشد البحث الجغرافى ويبصره ، وهو يعالج الحقيقة السياسية للدول معالجة جغرافية .

هذا وكان اجتهاد راتزل فى هذا المجال اجتهاداً سوياً بنى على اعتبار أن الدولة تحتويها أرض ، وأن الأرض تحتوى الناس ، الذين يفرضون سيادتهم وحق وجودهم على هذه الأرض . ومن الجائز أن استشعر راتزل أحقية الجغرافية بدراسة الأرض ودراسة الناس التى يتألف منها كيان الدولة ووجودها . ولكن المؤكد أنه اهتم بالظاهرة السياسية التى استرعت انتباهه ، على اعتبار أنها ظاهرة بشرية بالدرجة الأولى، وتستحق أن تدخل فى اطار الاجتهاد الجغرافى . وما من شك فى أن موقف راتزل واجتهاده اصبح اجتهاداً رائداً ، وهو يتصور أن الدولة لها شكل الاقليم السياسى ، أو وهو ينشئ هذا النوع من فرع الجغرافية البشرية .

وفى كتاب الجغرافية السياسية ، برهن راتزل على أنه أهل لريادة هذا الفرع من فروع الجغرافية البشرية . بل لقد تصدى راتزل – بكل اجتهاده الجغرافى – لصياغة وابداع هذا التجديد ، الذى حقق اضافة مفيدة إلى علم الجغرافية ، ووسع دائرة أهدافه ، بمعنى أن أطل على الدولة جغرافياً ، وتطلع إلى تقصى بعض الحقائق الجغرافية من وراء وجودها السياسى .

ومن خلال هذا الابداع ، أتاح راتزل للجغرافية أن تتقصى مقومات الدولة ، وأن تتولى مهمة استطلاع وتصور الواقع الجغرافى الطبيعى المتمثل فى الأرض ، والواقع الجغرافى البشرى المتمثل فى الناس . كما أتاح للجغرافية أيضاً أن تستلهم كيف تكون هذه المقومات ، من وراء كنه

وماهية ودور الدولة الوظيفى ومكانتها فى اطار مجتمع الدول . ولقد أطلق ذلك العنان للجغرافية ، لكى تتدارس المشكلات التى تتضرر منها الدولة ، أو لكى تتبين احتمالات الخلل فى بنيتها من الداخل وكيف تتسبب فى مشاكل .

وهكذا ، ينبغى أن ندرك كيف عامل راتزل الدولة أو الوحدة السياسية ، معاملة الكائن العضوى ، ولقد بنى ذلك على اعتبار ان كيان الدولة لا يتألف من ارض فقط يحتوى وجودها ، بل انها تتألف ايضاً من ناس (شعب او امة) يفرضون سيادتهم ، ويشكلون مصالحهم الحيوية ويمارسون تفاعلهم الايجابى مع الأرض ، من خلال النظام الحاكم الذى يؤكد أدائهم، ويحفظ حقهم فى الأرض التى تحتوى الدولة . وربما حاول راتزل بالاضافة إلى ذلك كله ، تقصى بعض القوانين والسنن التى تتحكم فى قيام ونشأة الدولة ، أو تؤثر فى نموها ورسوخ مكانتها فى مجتمع الدول من حولها من ناحية ، أو التى تتحكم فى تجسيد شخصيتها ووزنها السياسى فى العالم من ناحية أخرى .

ويجب أن نثق فى أن فريدريك راتزل ، كان – بكل تأكيد – ثالث ثلاثة أعلام جغرافية مرموقة فى القرن التاسع عشر الميلادى . وهم جميعًا من ابناء المدرسة الجغرافية الألمانية ، التى قادت المسيرة الجغرافية بصفة عامة ، ولقد أسهم اجتهاد هؤلاء الأعلام ، العمل الجغرافى الفكرى المتوثب ، فى مجالين هما ، حفز مسيرة الفكر الجغرافى الحديث فى الاتجاه الصحيح ، وترسيخ قاعدة الجغرافية الحديثة . ولا بد أن نثق فى أن الجغرافية الحديثة فى ثوبها العلمى ، كانت فى حاجة إلى الفكر الجغرافى الحديث ، يدعمها ويظاهرها ويرعى تطورها وأداء دورها الوظيفى التخصصى لحساب الحياة .

وما من شك فى أن راتزل قد انتشل الشق البشرى من الجغرافية وأخرجه من وراء الكواليس ، وبث فيه كل القدرات ، لكى يتولى دوره الوظيفى فى حركة العمل والاتجاه الجغرافى على قدم المساواة مع الشق الطبيعى . بل أنه – من غير شك – صاحب الفضل فى ريادة التوازى والتوازن الموضوعى العلمى، بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية .

وما من شك مرة اخرى فى أن راتزل قد أشاع وأعلى شأن الدراسة المنهجية الأصولية بين زمرة المفكرين الجغرافيين ، إلى حد يلفت النظر ، سواء كانت الدراسة دراسة هادفة لحساب الشق الطبيعى ، أو كانت الدراسة هادفة لحساب الشق البشرى ، بل وربما كان هذا التركيز على المنهجية الأصولية – من غير قصد – سبباً من أسباب احباط الاهتمام بالدراسة الاقليمية احباطاً مؤقتًا ، ومعنى ذلك أن راتزل عندما شد الاجتهاد الجغرافى كله أو معظمه إلى الدراسة المنهجية الأصولية ، صرف هذا الاجتهاد كله أو معظمه عن تطوير الدراسة الجغرافية الاقليمية .

* * *

ولكى تكتمل قضية ترسيخ الفكر الجغرافى الحديث ، ودعم بنيان علم الجغرافية ، كان المطلوب أن يتأتى الاجتهاد الجغرافى الذى ينكب على تطوير مفاهيم الدراسة الاقليمية ، التى وضع أساسها كارل ريتر ، وتحديد أهدافها وغاياتها . وما من شك فى أن المدرسة الجغرافية الألمانية كانت تستشعر هذه المسئولية ، وتدرك قيمة العمل المطلوب لانجازها . ولقد عكف فريق من أبنائها نذكر منهم مارت ورشتهوفن ، على أداء هذه المهمة .

ومثلما أدرك الاجتهاد الجغرافى معنى النظرة الكلية والدراسة الجغرافية على مستوى العالم ، اهتم الاجتهاد الجغرافى بالدراسة الجغرافية على المستوى المحلى المحدود . ولم يكن من سبيل سوى البحث عن أبعاد الاقليم ، الذى يحدد معنى النظرة الجزئية فى الاطار المحلى الضيق ، ولقد حاول الاجتهاد الجغرافى الذى بذله مارت ورشتهوفن فى صياغة هذا التحديد ، بل لقد حاول كل منهما إيجاد أفضل أشكال التوافق وعدم التناقض ، بين الدراسة الجغرافية المنهجية الأصولية ، كما أراد لها الفكر الجغرافى الحديث أن تكون ، والدراسة الجغرافية الاقليمية . وهذا معناه أن أضاف هذا الاجتهاد لبنات مهمة فى تطوير الدراسة الاقليمية ، وترسيخ أدائها الوظيفى التخصصى بصفة عامة .

وما من شك فى أن هذه اللبنات قد حظت بالدراسة خطوة إلى

الأمام . وما من شك فى أن هذه الخطوة قد فتحت باب الاجتهاد الجغرافى الحقيقى على مصراعيه ، لكى يتمم مهمته . ولكن كان المطلوب أن يتحقق التوازن وعدم التعارض الموضوعى ، بين الدراسة المنهجية الأصولية فى جانب والدراسة الاقليمية فى جانب آخر. ولقد كرس الفريد هنتر اجتهاده واهتمامه الجغرافى لهذا الغرض. ونجح الفريد هنتر بالفعل فى صياغة هذا النقاش والتوازن ، لكى تتوازى أهمية الدراسة المنهجية الأصولية ، كما أراد لها همبولت ويشل وراتزل أن تكون مرتعًا للفكر الجغرافى ، ووعاء يحتوى أهدافه ، مع الدراسة الاقليمية كما تشبث بها مارث وريتر ورشتهوفن وجعلوا منها وحدة اجتهاد وانجاز جغرافى بناء ومفيد .

* * *

التقدم الجغرافى فى المدارس الجغرافية الوطنية :

وقبل أن نفرغ من سياق هذا العرض السريع ، الذى يصور كيف تبنى الاجتهاد الألمانى الفكر الجغرافى ، وكيف أبدع واجتهد وجدد فى صياغة علم الجغرافية ، على مدى أكثر من ثلاثة قرون كاملة ، وقبل أن نفرغ من سياق هذا الاجتهاد الجغرافى الألمانى ، الذى أمسك بزمام المسيرة الفكرية الجغرافية وريادتها ، فى الاتجاه العلمى الصحيح ، يجب أن نتذكر مدى انتشار الاهتمام بالجغرافية على مستوى العالم . ومن الجائز أن اشترك بعض الرحالة من دول أوروبية فى الكشوف الجغرافية . وكان اشتراكهم علامة على هذا الانتشار . ومن الجائز أن اشترك بعض الرسامين من دول أوروبية فى صناعة الخرائط الجغرافية ، وكان انتاجهم علامة على هذا الاسهام . ولكن المؤكد أن الاجتهاد الألمانى هو وحده الذى انكب على الفكر الجغرافى ، وكان صلب ما يبتغيه ، هو حسن صياغة علم الجغرافية .

وهذا معناه – على كل حال – أن الاهتمام بالجغرافية والاسهام فى تنمية رصيد المعرفة الجغرافية من خلال الكشوف ، أو من خلال رسم الخرائط شئ ، وأن الاهتمام بالفكر الجغرافى وصياغة قواعد علم الجغرافية شئ آخر . ومعناه أن الاهتمام بالفكر الجغرافى وصياغة قواعد علم الجغرافية ، لا يتأتى إلا فى أحضان مدرسة علمية ، سواء

احترف فيها العلماء العمل الجغرافى أو أخذوا به كهواية . وما من شك فى أن مولد هذه المدارس الجغرافية ، قد تأخر لبعض الوقت فى كل الدول الأوروبية ، وكانت المدرسة الجغرافية الألمانية الفارس الوحيد فى الميدان ، وكان علماء هذه المدرسة هم أصحاب الريادة الحقيقة فى ميدان العمل الجغرافى ، فكرياً وعلمياً .

ولقد شهدت سنوات النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى فقط ، مولد المدارس الجغرافية الوطنية فى معظم الدول الأوروبية ، وفى بعض دول غير أوروبية فى أنحاء متفرقة من العالم . كما شهدت هذه السنوات أيضاً مولد معظم الجمعيات الجغرافية ، التى ضمت المحترفين والهواة من العاملين فى ميادين العمل الجغرافى . ولقد برهنت هذه النشأة على أن العاملين فى ميادين العمل الجغرافى والمهتمين بالجغرافيين ، قد استشعروا الحاجة إلى ممارسة الاجتهاد الجغرافى ، وأن الوقت قد حان لاسهام هذا الاجتهاد الجغرافى فى الفكر الجغرافى وفلسفة أهدافه ، فى الدراسات الجغرافية العلمية .

ومن الطبيعى أن نتصور كيف أنهى مولد هذه المدارس الجغرافية العلمية ، فى أحضان الاحتراف الأكاديمى ، أو فى أحضان الهواية الميدانية، احتكار المدرسة الجغرافية الألمانية ، الفكر الجغرافى وصياغة علم الجغرافية منذ سنة ١٧٥٠ ميلادية على أقل تقدير . ومن الطبيعى أن ندرك كيف ارتوى الاجتهاد الجغرافى المتفجر فى هذه المدارس الجغرافية العلمية الوطنية ، من معين المدرسة الجغرافية الألمانية ، التى سجلت الابداع والاضافة إلى رصيد الفكر الجغرافى ، وإلى موضوعية علم الجغرافية . ولكن المؤكد أن هذا المولد ، قد أطلق العنان أو فتح الباب على مصراعيه ، لكى يتحقق الاسهام الأوروبى وغير الأوروبى ، فتألق الفكر الجغرافى الحديث ، وتعاظم علم الجغرافية رسوخاً وثراء وتطوراً إلى الأفضل .

هذا ولقد احتلت هذه المدارس الجغرافية على الصعيد الأوروبى وغير الأوروبى ، مكانها المناسب فى أحضان الجغرافيين المحترفين أحياناً، وفى أحضان الجغرافيين الهواة أحياناً أخرى . واكتسبت كل مدرسة من هذه المدارس الجغرافية حق الانتماء للدولة ، واعتزت بهذا

الانتماء ، فى ذلك الوقت الذى تسيدت فيه وقامت معظم الدول على الأساس الوطنى القومى . كما انتفعت الجغرافية بقوة الدفع التى تولى أمرها الجغرافيون المحترفون ، فى الجامعات والكليات الجامعية ومعاهد الدراسات العلمية الأكاديمية ، أو التى تبناها الهواة من الجغرافيين فى الجمعيات الجغرافية الوطنية .

ومن غير افراط فى التعصب الوطنى ، ومن غير تفريط فى عالمية الفكر الجغرافى ، أدت هذه المدارس الجغرافية دورها الوظيفى العلمى التخصصى ، على كل المستويات الأكاديمية وغير الأكاديمية بكفاءة واجتهاد . بل لقد حقق ذلك الانطلاق الجماعى المتفتح ، الذى قامت به الخبرات الجغرافية فى هذه المدارس نجاحًا حقيقيًا ، فى حقل العمل الجغرافى وانجاز البحوث الجغرافية العلمية وتطوير الفكر الجغرافى . وأصبح ذلك الاجتهاد المشترك كله ، من وراء تعاظم مكانة الجغرافية، وهى تقدم الانجازات المفيدة والانتاج الجيد ، الذى خدم التفاعل الحياتى المتطور بين الناس والأرض .

ولقد أشرنا – من قبل – إلى حرص الامبريالية العالمية على حسن استخدام حصاد العمل الجغرافى فى خدمة الاستعمار ، والتمكين له فى حيازة الأرض والسيطرة على الناس فى المستعمرات . وما من شك فى أن الاجتهاد الجغرافى قد لبى هذا النداء ، وأعطى خبراته التى بصرت ورشدت الاستعمار ، فى مقابل الدعم المادى والمعنوى الذى نشط العمل الجغرافى وقوى ساعده وشد أزره ، علميًا وعمليًا ، وهذا معناه أن علم الجغرافية قد انتفع بالواقع السياسى والحضارى والاقتصادى فى هذه المرحلة ، وأنه جاوب حاجة العصر وخاض تجربة التقدم ، وهو مطلوب بالحاح لحساب الحياة .

وقبل أن ننتقل إلى معالجة بعض القضايا التى أثارها ، وفجر النقاش فيها الاجتهاد الجغرافى المتوثب ، على المستوى الواسع فى القرن العشرين ، يجب أن نتابع بدايات الاهتمام بالجغرافية على المستوى العالمى ، فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى . وكيف لا نفعل ذلك ،

ونحن نعلم – بالفعل – أن هذا الاهتمام هو الذى صعد ودعم مكانة الجغرافية ، بين زمرة العلوم الطبيعية والانسانية .

وفى تقرير نشر سنة ١٩٥٨ (١) ، جاء فيه أن الاهتمام بالدراسات الجغرافية التى انكبت عليه الاجتهادات الجغرافية الوطنية فى بعض الدول الأوروبية وغير الأوروبية قد شاع . وقد تأتى فى حوالى ٩٢ معهداً علمياً عالياً . ولقد ضمت هذه المعاهد العليا ١٢١ مدرساً باحثاً فى حقل العمل الجغرافى الأكاديمى . وما من شك فى أن هذه الاهتمامات على المستويات العلمية الأكاديمية ، قد أنجبت الصفوة الممتازة من الجغرافيين فى القرن العشرين . وما من شك فى أن تأهيل وتنشئة هذه الصفوة من الجغرافيين ، قد أسفر عن توسيع وتعميق الاجتهاد الجغرافى بصفة عامة .

وعن الجمعيات الجغرافية التى ضمت الهواة جنبًا الى جنب الجغرافيين المحترفين ، نذكر أنها ظهرت لأول مرة فى باريس . ثم توالت فى الفترة التالية حتى وصلت الجمعيات الجغرافية إلى حوالى ١٣٠ جمعية فى سنة ١٩٣٠ (٢). وربما سجلت الفترة من

---

(١) جاء توزيع المعاهد الجغرافية العليا على النحو التالى :
أ– ألمانيا وتضم ٢٢ معهداً وبها ٣٢ مدرساً .
ب– فرنسا وتضم ١٦ معهداً وبها ٢٢ مدرساً .
جـ– روسيا وتم ١١ معهداً وبها ١٦ مدرساً .
د– النمسا وتضم ١٠ معاهد وبها ١٤ مدرساً .
هـ– ايطاليا وتضم ٧ معاهد وبها ٩ مدرسين .
و– بريطانيا وتضم ٦ معاهد وبها ٦ مدرسين .
ز– سويسرا وتضم ٤ معاهد وبها ٦ مدرسين .
حـ– الولايات المتحدة وتضم ٢ معاهد وبها ٣ مدرسين .
ط– دول أخرى وتضم ١٣ معهداً وبها ١٣ مدرساً .

(٢) عن نشأة الجمعيات الجغرافية فى القرن التاسع عشر نذكر انه فى الفترة من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٧٩ قامت فى أوروبا حوالى ١٥ جمعية . وأنه فى الفترة من ١٨٧٠ إلى ١٨٩٠ تأسست ٥٨ جمعية وفى الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ تأسست ١٠ جمعيات جغرافية . أما نصيب الثلاثين سنة الأولى من القرن العشرين لقد بلغ ٥٢ جمعية جغرافية . وفى سنة ١٩٣٠ كانت هناك ١٣٧ فى العالم منها ٩٢ فى أوروبا ، ٢٥ فى الأمريكتين ، ١٣ فى آسيا ، ٥ فى أفريقية ، ٢ فى استراليا . (راجع مقالة جون راتب مجال الجمعية الجغرافية « الجغرافية فى القرن العشرين » صفحة ٢٧٣) .

سنة ١٨٧٠ ، سنة ١٨٩٠ أكبر زيادة فى الوعى الذى أسفر عن انشاء عدد كبير من الجمعيات الجغرافية ، التى تبنى الهواة فيها الاجتهاد الجغرافى(١). ومن الجائز أن الهواية قد أفلحت فى التعبير عن بعض انجازات هذه الجمعيات الجغرافية فى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى (٢). ولكن المؤكد أن هذه الجمعيات قد تحول معظمها إلى أيدى المحترفين فى أثناء القرن العشرين (٣) وأنها تحملت مسئولية الاجتهاد الجغرافى العلمى ، بالتعاون مع الاجتهاد الجغرافى الأكاديمى .

هذا وينبغى أن نتصور كيف أن هذا الاهتمام بالدراسات الجغرافية على مستوى العمل الأكاديمى ، أو على مستوى الجمعيات الجغرافية لغير المحترفين ، قد سجل بداية مرحلة الانجاز فى أحضان علم الجغرافية الراسخ . ولقد اشترك فريق كبير من الجغرافيين فى البحث والنقاش والجدل ، الذى تأتى فى كل شكل من أشكال المعالجة والتفكير الموضوعى، فى أهم القضايا التى فجرها وتبناها الاجتهاد الألمانى فى القرن التاسع عشر ، ولم يحسمها حسماً فكرياً وعلمياً كاملاً .

والمهم أن الجغرافية قد وجدت كل هذا الاهتمام فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولقد تجلى هذا الاهتمام فى نشر البحوث، وتمويل الاجتهاد الذى يتفرغ لانجازها ، وفى النهوض بالخبرة الجغرافية وحسن تدريبها لتحسين مستوى التعليم الجغرافى . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى على هذا المستوى الموسع ، قد جهز بالفعل لوضع جديد ومكانة أهم وأعظم للجغرافية فى القرن العشرين .

ومن المفيد – على كل حال – أن نتبين هذا الاهتمام بشئ من الايجاز فى بعض الدول التى تفجر فيها الاجتهاد الجغرافى . ومن المفيد

---

(١) تأسست الجمعية الجغرافية المصرية فى سنة ١٩٧٥ .

(٢) كان أهم مجال لعمل هذه الجمعيات هو تمويل الرحلات التى أدت دوراً فى الكشوف الجغرافية فى أثناء القرن التاسع عشر . كما تولت أيضاً تمويل العمل فى انجاز وتجهيز الخرائط .

(٣) هناك بعض الجمعيات التى احتفظت بمكان للهواة وغير المحترفين فيها حتى الآن .

أيضًا أن نختار هذه الدول ، لكى نتبين بعض نماذج تفجر الاجتهاد الجغرافى فيها ، فى أحضان العمل الأكاديمى البحت المتخصص ، وبعض نماذج أخرى تفجر الاجتهاد الجغرافى فيها فى أحضان الجمعيات الجغرافية التى كفلها الهواة . وفى الحالتين ، يمكن أن نتبين أن هذا الاجتهاد الجغرافى كان متوثبًا ومفيدًا . وما من شك فى أن تقدم الجغرافية كان انجازًا مشتركًا ، تعاون فى تحقيقه الجغرافيون المحترفون والهواة .

وفى فرنسا ، تفتح أول برعم من براعم الاهتمام بالجغرافية فى حوالى سنة ١٨٢١ . ولقد تمثل هذا البرعم فى الجمعية الجغرافية الفرنسية ، التى هى أول جمعية جغرافية قاطبة (١). وما من شك فى أنها قد تبنت الاجتهاد الفرنسى الذى كرس الاهتمام كله لدراسة فرنسا دراسة جغرافية متكاملة . وهذا معناه أنها ولدت وهى تحمل النعرة الوطنية، والاعتزاز بفرنسا . وصبت هذا كله فى شكل من اشكال الدراسة الجغرافية الاقليمية . ومعناه أنها فتحت الباب على مصراعيه لكى يتوالى مولد الجمعيات الجغرافية الوطنية ، فى كثير من دول أوروبية ودول غير أوروبية .

أما الاهتمام الأكاديمى العلمى بالجغرافية فى فرنسا ، فقد تفجر بعد أن نهل بعض المفكرين الفرنسيين ، من علم وفكر كارل ريتر على وجه الخصوص . وكانت الجغرافية الطبيعية قد وجدت الاهتمام فى أحضان كلية العلوم مع زمرة العلوم الطبيعية . أما الجغرافية البشرية فقد وجدت الاهتمام فى أحضان كلية الآداب مع زمرة العلوم الانسانية . ومعنى ذلك فصل غريب ما كان ينبغى أن يكون، بين شقين يتألف منهما علم واحد ، ويتعين التكامل فيما بينهما . ولقد استمر هذا الفصل الغريب بين هذين الشقين الطبيعى والبشرى، لبعض الوقت

---

(١) ظهرت بعض الجمعيات فى القرن الثامن عشر ، ومنها جمعية ألمانية فى نوربوج ، وجمعية جغرافية فى هولنده ولكنها لم تعمر وانفرط عقدها . ويبدو أن الاجتهاد الجغرافى العلمى كان لا يجد فيها شيئًا مفيدًا ، يستوجب المحافظة عليه .

حتى اجتمع شملهما والتأم الكيان الواحد ، للتركيب الهيكلى فى البناء العلمى الجغرافى .

والفصل بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ، كان مظهراً من مظاهر الشذوذ . ويكفى أن نتصور كيف تعذر حفظ التوازن والتوازى بين الاجتهاد الجغرافى فى كل منهما . ولقد الحق الاجتهاد الجغرافى الجغرافية الطبيعية آنذاك بالدراسة الچيولوچية البحتة، وأغرقها فى خضم تخصصها العلمى الدقيق . كما الحق الاجتهاد الجغرافى البشرية على الجانب الآخر بالتاريخ ، الذى جنح بها إلى الوصف والتصوير الجامد للرؤية الجغرافية .

ومن الجائز أن ندرك كيف مضى الاجتهاد الجغرافى الفرنسى فى سبيله ، وهو قابل بهذا الفصل بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية لبعض الوقت فى القرن التاسع عشر . ومن الجائز أيضًا أن نتبين كيف نشأت المصلحة المتبادلة بين هذا الاجتهاد الجغرافى الفرنسى من ناحية ، والمنطق والتطلع الاستعمارى الفرنسى النشيط على الصعيد الأفريقى من ناحية أخرى . ولكن المؤكد أن انصراف الاجتهاد الفرنسى لأداء مهمته الوظيفية لحساب الاستعمار الفرنسى ، قد صرفته عن التفكير فى أمر هذا الفصل والرجوع عنه ، والجمع بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ، وهما وجهان لعلم واحد .

هذا ، وينبغى أن نتصور كيف حفز هذا المنطق الاستعمارى الاجتهاد الجغرافى واعتمد عليه ، لكى يكشف النقاب عن بعض المجهول من الأرض الأفريقة ، ولكى يرشد التحرك أو التوسع الاستعمارى وحيازة المستعمرات، فى أثناء النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وما من شك فى أن الخبرات الفرنسية قد جالت فى الميدان الأفريقى واكتسبت قدرات جديدة ، وأنجزت انجازات مفيدة من خلال الرؤية الجغرافية ، والانفتاح الجغرافى على هذه الرؤية فى أنحاء الأرض الأفريقية .

ولقد كانت الجغرافية الاستعمارية التى تطوعت بها الخبرات الجغرافية الفرنسية بعد الحرب السبعينية ، من أهم حصاد الاجتهاد

الجغرافى الفرنسى بصفة عامة . وما من شك فى أن هذه الدراسات الجغرافية فى المستعمرات الفرنسية ، قد أسهمت فى اشباع نهم فرنسا على الصعيد الأفريقى ، وفى دعم جودها الاستعمارى واستثماراتها . وكانت وكأنها تسعف الدولة الفرنسية ورأس المال الفرنسى ، لكى تعوض خسارته التى أسفرت عنها الهزيمة الساحقة فى الحرب السبعينية مع ألمانيا على الصعيد الأوروبى .

وهناك اتفاق عام فى أن رواداً من المدرسة الجغرافية الفرنسية - ومنهم ركلوس ولبيلية دى بريفيل وديمولان - قد سجلوا اجتهاداً جغرافيًا جيداً فى أواخر القرن التاسع عشر . ولقد أنجز كل واحد من هؤلاء الجغرافيين الفرنسيين كتاباً جغرافيًا ، يمثل ثمرة اجتهاده ويعبر عن رؤيته الجغرافية . والأهم من ذلك أنه يجسد المنهج أو الأسلوب الذى انتهجه البحث الجغرافى الفرنسى فى ذلك الوقت .

وانجاز دى بريفيل تمثل فى كتاب عن المجتمعات الأفريقية صدر فى سنة ١٨٩٤ . ومن الجائز أن نتبين كيف انتفع الكاتب بالوجود الاستعمارى فى المستعمرات الأفريقة ، وكيف أحسن استخدام رؤيته الجغرافية . ولكن المؤكد أنه بحث انتهج سبيل الوصف الجغرافى أكثر من أى شئ أخر . أما ديمولان صاحب كتاب كيف يخلق الطريق النمط الاجتماعى الصادر فى سنة ١٩٠١ ، فقد سجل بداية الفكر الجغرافى الحتمى ، وجسد الصرخات القوية التى صورت مدى التزام الانسان وامتثاله، لما يمليه الواقع الجغرافى الطبيعى فى المكان .

كما أسفر الاجتهاد الجغرافى الفرنسى الذى سار فى موكب الاستعمار وعمل فى اطار المصلحة المتبادلة بينهما ، عن موسوعة ضخمة جغرافية . ولقد أصدر هذه الموسوعة الجغرافية اليزيه وكلوس فى ١٩ مجلداً على مدى الفترة من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٩٤ . وتضم هذه الموسوعة مسحاً جغرافياً عن العالم . ولقد وضع الاجتهاد الفرنسى هذا المسح ، فى اطار دراسة جغرافية اقليمية وصفية .

ومن غير تجنى على الاجتهاد الجغرافى الفرنسى بصفة عامة ، ينبغى أن نذكر أن حصاد العمل الجغرافى ، وانجاز هذا الفريق من

الجغرافيين ، كان هزيلاً من وجهة النظر العلمية ، ولا يحقق المستوى الجيد . وهذا معناه أن الجغرافية في أحضان المدرسة الجغرافية الفرنسية في القرن التاسع عشر كانت في حاجة إلى ما ينشطها ويقيم مناهجها ويرسخ مكانتها ويحسن أدائها . ومن غير ذلك كان من الصعب أن تضارع الجغرافية الفرنسية الجغرافية الألمانية بصفة خاصة ، وحركة التقدم الجغرافي النشيطة في أحضان مدارس جغرافية أوروبية أخرى .

ومن حسن الطالع إن وجدت الجغرافية الفرنسية في اجتهاد فيدال دى لابلاش ضالتها المنشودة . وما من شك في أن لابلاش قد تحمل المسئولية بالفعل . ولقد أنجز بعض الانجازات المفيدة ، لحساب المستوى الأفضل ، أو لحساب الجغرافية الفرنسية الأحسن وبدأ لابلاش بأهم خطوة ناجحة ومفيدة ، عندما انتشل الجغرافية الفرنسية من التمزق في أحضان الاهتمام العلمي الأكاديمي .

وهكذا جمع لابلاش شمل الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية، وأعاد الالتحام والالتئام بين شقين متكاملين في البناء الجغرافي ، لا ينبغي الفصل بينهما . كما حمل لواء المعارضة والتصدي لكل أولئك الذين انحدروا إلى حضيض الحتم الجغرافي ، وسخر من تجاهل قدرات الانسان أو امتهانها . وهذا معناه أن لابلاش هو الجغرافي الفرنسي المرموق الذي تولى ترشيد مسيرة الفكر الجغرافي في أحضان المدرسة الجغرافية الفرنسية . ومعناه أيضاً أنه هو الذي سخر اهتمامه واجتهاده ، لترسيخ وشحذ كفاءة الاجتهاد الجغرافي في أحضان المدرسة الجغرافية الفرنسية . ومعناه أيضاً أنه هو الذي سخر اهتمامه واجتهاده لترسيخ وشحذ كفاءة الاجتهاد الجغرافي الفرنسي، في خدمة علم الجغرافية الحديثة في فجر القرن العشرين .

وفيدال دى لابلاش الذي كان له شرف التصدي لفكر الحتمية لأول مرة ، قد عز عليه انتهاك قدرة الانسان وامكانياته واهدار سعيه وفكره وحيلته ، التي ينتصر بها لإرادة الحياة في المكان . وربما قاد فكر لابلاش بعد ذلك ، الامكانيين الذين عالجوا العلاقة بين الانسان والبيئة ، من غير

تحيز لأثر العوامل الطبيعية وامتثال الانسان لضوابها الحاكمة . وقد بلور ذلك كله اضافة للمدرسة الفرنسية ، حيث انها استنكرت البحث عن القوانين الجغرافية وتعميمها فى الأقاليم المتشابهة . وفى نظرهم أن شخصية الاقليم الذاتية ، لا ينبغى أن يغفلها الفكر الجغرافى . وهو يتصور أن هذه القوانين الجغرافية لها يمكن تطبيقها تطبيقًا مطلقاً فى مجال دراسة مقومات الوحدة الجغرافية على صعيد أى اقليم .

وفى بريطانيا ، التى احتلت مكانة الدولة العظمى فى القرن التاسع عشر الميلادى ، سياسيًا واقتصادياً ، تحملت الجمعية الجغرافية التى تألفت من فريق استهواه الفكر الجغرافى فى سنة ١٨٣١ . وقد استشعر هذا الفريق قيمة الجغرافية ، وما يمكن أن نسفر عنه من نتائج تخدم الأغراض الامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار . وما من شك أن هذه الجمعية الجغرافية قد تولت تمويل حركة الكشوف الجغرافية . وقدمت ثمراتها اسهاماً مهماً ونافعاً ، لحركة الاستعمار البريطانى بكل أشكاله على الصعيد الأفريقى . كما تولت أيضًا تمويل البحوث الجغرافية من المستعمرات ، التى رشدت الهدف أو الأهداف التى تبناها الوجود الاستعمارى البريطانى فى هذه المستعمرات .

ومن الجائز أن يصور ذلك كيف انساق الفكر الجغرافى البريطانى فى اتجاه عملى ، وضع الاجتهاد الجغرافى بشكل مباشر فى خدمة الاستعمار . ولكن المؤكد أن نجاح الاجتهاد الجغرافى فى هذه المهمة ، قد حفز الجمعية الجغرافية البريطانية ، لكى تتولى مسئولية تفجير وتوجيه الاهتمام الأكاديمى إلى الجغرافية . وما من شك فى أن هذه الجمعية كانت – بكل وزنها – من وراء انشاء اقسام للدراسة الجغرافية الأكاديمية ، فى جامعتىّ كمبردج واكسفورد فى سنة ١٨٧٧ . وعندئذ كانت بداية فعلية أو حقيقية فى الحقل الجغرافى الأكاديمى ، وفى بلورة فكر جغرافى بريطانى .

ويمكن أن نؤكد أن خبرات الاجتهاد الجغرافى العملية ، التى رافقت وبصرت الاستعمار البريطانى ، وخبرات الاجتهاد الجغرافى النظرية التى أسفر عنها العمل الأكاديمى ، قد تجمعت لكى تعلن ميلاد المدرسة

الجغرافية البريطانية فى فجر القرن العشرين . وما من شك فى أن اجتهاد بعض الرواد من أمثال ماكندر وأولدهام وهربرتسون وما أسفر عنه من فكر جغرافى ، قد وضع دعامات المدرسة الانجليزية الجغرافية . بل أنهم – بكل تأكيد – قادوا مسيرة الفكر الجغرافى الانجليزى، ورسخوا العمل الجغرافى ترسيخاً وضع هذه الدراسة، فى مكانة ممتازة بين سائر المدارس الجغرافية الوطنية الأخرى .

وفى **الولايات المتحدة الأمريكية** ، التى عاشت العزلة فى أثناء القرن التاسع عشر عن أوروبا ، لكى تتجنب الانغماس فى مشاكلها السياسية المعقدة ، لم تنغلق ثقافيًا وعلميًا ، بمعنى أنها انفتحت وتفتحت وتطلعت إلى مسايرة التقدم العلمى الأوروبى . وقد فتحت صدرها واستقطبت بعض المهاجرين إليها من أوروبا وامتلكت رافداً من أهم الروافد التي بصرت الفكر والعلم فيها . وكان من بين من استهوتهم الحياة فى الولايات المتحدة أرنولد جويوت السويسرى الأصل ، الذى نهل من المعين الجغرافى الألمانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .

وكان من الطبيعى أن يحمل معه خبرته الجغرافية واجتهاده ، الذى صقلته استيعاب فكر ريتر وهمبولت الجغرافى إلى المهجر . والمؤكد أن جويوت قد غرس بنته وليدة ، أشاعت الاهتمام بالفكر الجغرافى فى الولايات المتحدة . وقد تبنت الدراسة الأكاديمية هذا الاهتمام ، واستجابت له بشكل يلفت النظر . بل لقد دخلت أو انخرطت مناهج الدراسة الجغرافية فى برامج الدراسة الجامعية فى بعض الجامعات الأمريكية وكانت بداية فعلية ، عكفت على تربية جيل ، وتولت غرس الاهتمام بالفكر الجغرافى فيه .

هذا ولم يمض وقت طويل حتى كبر هذا الجيل ، وقد تعشق الفكر الجغرافى ، ونهل من المعين الأوروبى الذى شاع وانتشر عطاؤه على أوسع مدى . وقد أثار الاجتهاد الجغرافى الأمريكى حملة الاهتمام بالدراسة الميدانية الحقلية ، وطور ورسخ أساليب التمعن فى الرؤية الجغرافية .وما من شك فى أن هذا الاجتهاد الجغرافى ، الذى نما

وترعرع فى أحضان الاهتمام الأكاديمى ، قد أنجب جغرافياً أمريكيًا ممتازاً هو وليم ديفز . وقد تولى هذا الجغرافى الممتاز مسئولية انشاء وريادة المدرسة الجغرافية الأمريكية فى فجر القرن العشرين . بل لقد أشرك الاجتهاد الجغرافى الأمريكى الشاب ، فى هذا الوقت فى ملحمة ترسيخ علم الجغرافية .

وفى مصر ، التى صحت من غفلتها فى أحضان الوجود العثمانى فى القرن التاسع عشر ، تطلعت بعض براعم النهضة الفكرية والعلمية فيها باعجاب شديد إلى مصادر الفكر الجغرافى ، وتشوقت إلى اشباع تطلعها من المعين الجغرافى الأوروبى . وقد سار الاهتمام بالفكر الجغرافى على نفس الدرب التى سار فيه فى بريطانيا . ولم يكن ذلك من قبيل التقليد والمحاكاة أبداً . بل كان استجابة لأوضاع مصر، التى لم تكن قد امتلكت بعد ناصية العلم الأكاديمى .

هذا وقد عبر انشاء الجمعية الجغرافية المصرية ، عن الاهتمام بالفكر الجغرافى فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى . وكان من الطبيعى أن تضم إليها بعض ذوى الخبرة الجغرافية من الأوروبيين ، وأن تنتفع باجتهادهم فى مجالين هما ، تحمل مسئولية مصر فى المشاركة الفعلية فى كشف النقاب عن الأرض ، فى اطار حوض النيل على الصعيد الأفريقى ، وتربية جيل يتعشق الجغرافية ويتبنى الفكر الجغرافى الحديث ، ويستوعب مفاهيمه وأهدافه . وقد نجحت الجمعية الجغرافية المصرية – بالفعل – فى أداء دورها وحفزت الاجتهاد الجغرافى ، وهيأت لانشاء وولادة المدرسة الجغرافية المصرية فى القرن العشرين،فى أحضان العمل الأكاديمى عندما قامت الجامعة المصرية[1].

* * *

---

(١) أخذت مصر على عاتقها بعد أن غرست وأنشأت مدرستها الفكرية الجغرافية مسئولية اشاعة الاجتهاد الجغرافى على مستوى الوطن العربى كله . بل لقد صنعت رافداً من روافد هذا الفكر الجغرافى وحملته مسئولية تكوين المدارس الفكرية الجغرافية فى أحضان الاجتهاد الأكاديمى الوليد فى كل دولة من الدولة العربية . وهذا معناه أنها انفتحت على أمتها العربية، وتولت قيادة مسيرة فكرية جغرافية عربية متطورة ، تعيد إلى الأذهان الاجتهاد العربى الجغرافى المزدهر فى أحضان الاسلام .

ومهما يكن من أمر نشأة هذه المدارس الجغرافية الفكرية فى أحضان القوالب الوطنية القومية ، وكسر احتكار الاجتهاد الجغرافى الألمانى لعلم الجغرافية ، اعتباراً من النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فلا يجب أن يعبر ذلك عن اتجاه فكرى غير سوى ، نحو انغلاق واستغراق فى أنانية الذات الشخصية الضيقة ، لكل دولة من الدول وتطلعاتها الوطنية الخاصة . والأفضل أن ندرك جدوى تعدد المدارس الفكرية الجغرافية ، وكيف أطلقت العنان للاجتهاد الجغرافى ، الذى تألق وتولى التجديد والتطوير ودفع حركة المسيرة الفكرية الجغرافية دفعاً، إلى انتاج جغرافى علمى أفضل ، لحساب الانسان .

وهكذا ينبغى أن نؤكد على تشبث الفكر الجغرافى على هذا الصعيد المتسع بالانفتاح ، وعلى حرصه الشديد على النظرة الكلية، وتوسيع سياق البحث الجغرافى على المستوى العالمى الذى التزمته وتلتزم به الجغرافية دائمًا . من الجائز أن تحرص المدرسة الفكرية الجغرافية الوطنية على تكثيف البحث الجغرافى وتعميقه فى الدائرة الضيقة التى تضم الدولة ، لكى يكون علامة على الانتماء لذاتها الشخصية وعلى الاعتزاز بوجودها . ولكن المؤكد أن كل مدرسة من هذه المدارس الفكرية الجغرافية فى أى دولة من الدول – بلا استثناء –، قد أخذت على عاتقه مسئولية الجغرافية ومفهومها العالمى . وقد كانت البحوث الجغرافية التى تغطى جغرافية القارة ، التى تقع فيها الدولة ، أو التى تغطى العالم بأسره .

ومن غير أدنى تحيز ، نتبين عندئذ علامات التفتح والانفتاح ، بقدر ما نتبين مرونة الحس الجغرافى ، وكفاءة الاستشعار على كل مستوى من المستويات ، بداية من البحث الجغرافى فى أضيق اطار إلى البحث الجغرافى فى أوسع اطار . وهو بحث – فى كل اطار – موضوعى ، يعبر عن أو يصور قدرة الجغرافى على تركيز اجتهاده فى أضيق مساحة تحتوى الأرض فيها بعض الناس ، وفى أوسع مساحة تحتوى الأرض فيها كل الناس . هذا معناه أن الجغرافية فى أحضان المدارس الجغرافية الوطنية ، لم تتعصب ، ولم تغفل عن امتداد اجتهادها امتداداً بلا حدود على الصعيد العالمى .

وتأسيساً على الانفتاح الجغرافى على كل المستويات ، الذى تجنب التعصب ، يمكن أن ندرك كيف لم يتعارض التفكير الجغرافى فى أحضان المدارس الجغرافية الوطنية تعارضًا حقيقيًا تتضرر منه الجغرافية العلمية . بل سارت قافلة الفكر الجغرافى الحديث سيراً حثيثًا ، على درب واحد واضح المعالم ، نحو هدف واحد مشترك ، لحساب الانسان . وقد تمثل هذا الهدف بالفعل عندما تولى الفكر الجغرافى وضع وتطويع الخبرة الجغرافية وصقلها وتقديم تجربتها الحيوية لحساب الحياة فى الدولة ، أو فى القارة ، أو فى العالم كله .

وتأسيسًا على الانفتاح الجغرافى على كل المستويات الذى تجنب التعصب ، يجب أن ندرك كيف تفاعل التفكير الجغرافى فى أحضان المدارس الجغرافية الوطنية تفاعلاً حيوياً ومفيداً ، من خلال الاحتكاك الفكرى الرشيد . بل لقد أسفر هذا الاحتكاك الفكرى عن جدل ونقاش موضعى بناء ، فتح قنوات الاتصال للأخذ والعطاء من غير حدود . وقد أسفر ذلك كله عن فكر جغرافى أفضل ، وهو يستجيب لإرادة الحياة فى الدولة ، أو فى القارة، أو فى العالم كله .

الفصل السادس

الفكر الجغرافى وعلم الجغرافية فى القرن العشرين

- الإجتهاد الجغرافى العلمى وتوجهاته
- الإهتمامات الجغرافية الطبيعية والبشرية
- الفكر الجغرافى الحديث والمنهج التحليلى الأصولى
- الجغرافية الحديثة وبنية علم الجغرافية

الفصل السادس

الفكر الجغرافى وعلم الجغرافية فى القرن العشرين

الاجتهاد الجغرافى العلمى وتوجهاته :

دخلت مسيرة الفكر الجغرافى الحديث القرن العشرين ، وهى فى كنف إجتهادات كل المدارس الجغرافية الوطنية التى نشأت – بالفعل – ورسخت وجودها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وهذا معناه أنها ظفرت بأكثر من فريق مجتهد ، يوليها إهتمامه ويرعى خطواتها ، ويسجل الإضافة إليها وتنمية رصيدها وتحسين أدائها . ومعناه أيضًا أنها ظفرت بروج التعاون بين المدارس الجغرافية الوطنية، ولم تتضرر ببعض الإختلافات الفكرية فيما بينها.

ومن الجائز أن نلمس بعض الإختلاف بين إهتمامات المدارس الجغرافية الوطنية ، التى تولت مسئولية الفكر الجغرافى ، وخدمت أداء الجغرافية العلمية فى القرن العشرين ، ومن الجائز أيضاً أن نستشعر بعض التفاوت فى جدوى الإجتهادات الجغرافية التى أخلصت لها هذه المدارس الجغرافية الوطنية ، إخلاصاً حقيقياً لحساب أداء جغرافى علمى أفضل فى القرن العشرين . ولكن الذى لا نشك فيه ولا نتشكك فيه ، هو إلتزام كل هذه المدارس الجغرافية الوطنية إلتزامًا صريحًا وكاملاً بتطوير مسيرة الفكر الجغرافى الحديث . ومن وراء هذا الالتزام كان القبول بالاضافة والإبداع والتجديد ، دون خروج ، أو تمرد ، أو بعد عن الخط الصحيح وصولاً إلى الهدف ، أو دون المساس بالتركيب الهيكلى لبنية الجغرافية الأساسية ومجالاتها الوظيفية الموضوعية .

وفى المرحلة التى تمثلت فيها وسيطرت هذه الروح فى النصف الأول من القرن العشرين ، صعد الفكر الجغرافى صعوداً حقيقيًا إلى مكانة مرموقة ، وهو يحمل على عاتقه الأداء الجغرافى الممتاز ، ويضع علم الجغرافية فى مكان مناسب ، بين زمرة العلوم الطبيعية والانسانية المتخصصة . وقد بنى ذلك الفكر الجعرافى الحديث – بكل تأكيد – على كل أسباب ونتائج وأصالة الإجتهاد الجغرافى السابق فى كل مرحلة من

مراحل نمو ونضج وتطور مفاهيمه ، من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر . ومن ثم كرس إهتمامه ووظف علم الجغرافية فى توسيع وتنمية المعرفة الجغرافية ، طلبًا للرؤية الجغرافية الأفضل طبيعيًا وبشرياً .

وهكذا برهن الفكر الجغرافى الحديث على أنه فكر طيع ، لأنه اعتمد – بكل ذكاء – على حسن استثمار نتائج التطور العلمى الذى أسفر عنه الفكر البشرى بصفة عامة من ناحية ، ولأنه تشبث – بكل اقتناع – بأهم المفاهيم المنطقية الجغرافية الراسخة عن الأرض والناس من ناحية أخرى ، ولحساب اداء جغرافى عملى افضل . ومن ثم خلق علم الجغرافية فى القرن العشرين خلقًا جديداً وسوياً . واكتسبت الجغرافية وجهاً متميزاً ، لكى تعبر عن مدى كفاءة الإجتهاد الجغرافى العلمى ، وهو يطور إستخدام حسه الجغرافى الذكى بصدق ومرونة ، فى استطلاع ابعاد الرؤية الجغرافية الأفضل طبيعياً وبشرياً .

واشراقة قسمات هذا الوجه الجديد ، للفكر الجغرافى الحديث فى مطلع القرن العشرين ، كانت – بكل الصدق – غير متوافقة مع توتر قسمات الوجه القديم الذى عاش به هذا الفكر نفسه ، وهو يبلور ذاته ويجسد أهدافه على المدى الطويل السابق للقرن العشرين . وثمة عوامل متعددة وإجتهادات مستمرة قد أسفرت عن تحدد ملامح هذا الفكر الجغرافى الحديث ، وقادت أو وجهت مسيرته المتأنية ، ورشدت خطواته فى الوجهة الصحيحة ، بقدر ما بثت فيه روح ومنطق القبول بالتحويل وتعديل المسار ، والتطور التطلع إلى التغيير والتطوير إلى الأفضل .

هذا ولم يكن غريباً – على كل حال – والإجتهاد الجغرافى نشيطاً ، يلهث وراء الرؤية الجغرافية الأوسع والأعمق ، أن يصنع هذا الفكر الجغرافى الحديث من إنتاج أو حصاد المدارس الجغرافية الوطنية فى القرن العشرين ، علما مفيداً ، من حيث الصورة والشكل ، ومن حيث المنطق والأسلوب ، ومن حيث الجوهر والموضوع . بل ولم يكن غريبًا أيضًا ، أن تتخذ الجغرافية ، وهى الوعاء الجامع والمصور لهذا الفكر

الحديث ، سمة العلم المتخصص ، بكل ما يعنيه التخصص من حيث المظهر ، ومن حيث المضمون ، ومن حيث الهدف .

وما من شك فى أن التحول البناء ، الذى أدخل الفكر الجغرافى الحديث أو زج به فى أطوار التغيير ومراحل التطور ، قد بنى أساساً على ثمرات الإجتهاد الفكرى التجريبى ، والإجتهاد الفكرى الفلسفى ، على مدى أكثر من ثلاثة قرون سابقة للقرن العشرين . كما بنى أيضاً على تصاعد مبدأ التساؤل والالحاح فى طلب التفسير العقلى المقنع الكاشف، لكنه وماهية الحقيقة الجغرافية ، التى تدرك أبعادها الرؤية الجغرافية بالبصر والبصيرة ، فى أنحاء الأرض .

وقد فرض الإجتهاد الفلسفى على وجه الخصوص ، هذا المبدأ فرضاً حاكماً على الفكر البشرى ، وهو يستوعب ثمرات النهضة المادية والفنية والروحية بصفة عامة ، وكان هذا المبدأ خطيراً ، لأنه قد فجر بالفعل كل التحولات الإيجابية المثيرة ، التى أسفر عنها التفكير وأعمال العقل وشحذه ، وحسن إستخدامه وصولاً إلى تفسير كاشف مقنع . وهذا معناه أن فرض التحول من مجرد إدراك الحقيقة، إلى قبول العقل لجوهرها ، وتفهم النتائج التى تترتب عليها .

وفى الفكر الجغرافى ، بدلاً من أن كان الإجتهاد الجغرافى مكتفيًا بسرد الحقائق ، وقبولها استسلامًا لوجودها الفعلى ، وبدلاً من أن ينكب هذا الإجتهاد الجغرافى على عرض صورة أو رؤية هذه الحقائق الجغرافية عرضًا مشوقًا تعبيراً عن وجودها الفعلى ، أصغى هذا الإجتهاد بكل الإهتمام – إلى هدير التساؤلات الجادة ، التى مست صميم وجوهر هذه الحقائق الجغرافية . ومن قبيل الإستجابة لهذه التساؤلات الجادة ، بحث الإجتهاد الجغرافى بحثًا مستفيضاً واستنفر الفكر ، لكى يتدبر ويفكر ويدلى بما يراه الأنسب عن جوهر هذه الحقائق الجغرافية. والفرق كبير – بكل تأكيد – بين فكر جغرافى سطحى ، يعرض الصور ويدرك الحقائق التى تحتويها الرؤية الجغرافية ، وفكر جغرافى عميق ، يتسلل إلى الجوهر ويلتمس العوامل ، التى أسهمت فى صياغة جوهر الحقائق التى تنطق بها الرؤية الجغرافية فى المكان والزمان .

ولئن أشاع هذا التساؤل الملح فى الإجتهاد الجغرافى فى القرن الثامن عشر ، الرغبة والتطلع إلى تقصى الحقائق الجغرافية ، ودراسة الواقع الجغرافى دراسة تصل إلى التفسير ، فلقد وجه العمل الجغرافى فى القرن التاسع عشر هذا الإجتهاد فى الإتجاه الباحث عن العلاقة الواقعية، بين العوامل التى تكون متداخلة فى اطار الظاهرة الجغرافية المعنية . ومن الجائز أن الرغبة فى التفسير ، قد أحدثت إنقلاباً وتحولاً جغرافيًا علمياً مفيداً، وأدت إلى شحذ الفكر الجغرافى وتنشيطه . ولكن المؤكد أن البحث الجغرافى عن العلاقة أو العلاقات ، قد وجه الفكر الجغرافى وجهة الربط ، وربما كان ذلك من وراء إدراك تكشفت له معامل الإرتباط ، بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة البشرية . ومن ثم إستغرق هذا الإدراك بعد ذلك فى تقصى حقيقة التأثير المتبادل فيما بين هاتين الظاهرتين .

وهكذا ، أفلح الإجتهاد الجغرفى من خلال التفسير حيناً ، ومن خلال إدراك العلاقة حيناً آخر ، فى إضافة الجديد الكاشف عن الرؤية الجغرافية . بل لقد اضافت هذة الرؤية الجغرافية التى أسقط الفكر الجغرافى الحجب عن بعض أبعادها شيئًا مفيداً إلى رصيد البشرية من المعرفة الجغرافية . ومن ثم قدم هذا الإجتهاد الجغرافى إلى القرن العشرين مسيرة الفكر الجغرافى المدعومة بالقواعد والأصول ، التى صنعت من هذا الفكر علماً متخصصاً مفيداً .

وهذا معناه أن الاضافات التى أسفر عنها الاجتهاد الجغرافى على مدى أكثر من ثلاثة قرون ، أصبحت ميراثاً ثرياً للفكر الجغرافى الحديث فى القرن العشرين . وكان أهم ما احتواه هذا الميراث الشكل العلمى للجغرافية ، وقبول هذا الشكل للتطور والتجديد . وهذا معناه أيضاً أن الدراسة الجغرافية المتخصصة فى أحضان المدارس الجغرافية الوطنية ، التى ورثت هذا الميراث الثرى ، أصبحت – بكل للموضوعية – علماً هادفاً ، فى الإطار العلمى الأصولى الصحيح .

وكان من شأن علم الجغرافية المتخصص ، أن يتقصى الحقائق الطبيعية فى أحضان الواقع الطبيعى ، على أى مستوى من المستويات

فى المكان ، وأن يمحصها ويجلو الغموض عن ماهيتها ، من خلال التوزيع والتعليل والربط ، وأن يتبين الضوابط الحاكمة للتوزيع ، والعوامل الكاشفة للتعليل ، والعلاقات المبنية على الربط . كما كان من شأنه أيضاً ، أن يتقصى الحقائق البشرية فى أحضان الواقع البشرى، على أى مستوى من المستويات فى المكان ، وأن يمحصها ويجلو الغموض عن ماهيتها وإحتمالات التغير التى تتعرض لها ، من خلال التوزيع والتعليل والربط، وأن يتبين الضوابط الحاكمة للتغيير ، والعوامل الكاشفة لنتائجه ، والعلاقات المترتبة عليه .

بل تتجاوز الجغرافية ذلك كله ، وصولاً إلى حد دراسة وتمحيص العلاقة الموضوعية ، المبنية على التفاعل الحياتى بين الواقع الطبيعى بكل أبعاده وضوابطه الحاكمة فى جانب ، والواقع البشرى بكل إجتهاداته وإنجازاته المتطورة والمتغيرة فى جانب آخر . وهذا معناه أن الجغرافية قد وسعت أهدافها وتطلعاتها فى القرن العشرين . ومعناه أيضاً أنها لم تعد تقنع بدراسة الظاهرة الجغرافية الطبيعية أو البشرية دراسة منهجية أصولية لذاتها . بل قل كانت توجه البحث وأداءه الوظيفى فى إتجاه أهداف موضوعية متعددة ، لحساب الحياة والإنتصار لارادتها ، فى أحضان أى مكان على الأرض .

ولكى تكون دراسة الظاهرة المعنية موضوعية وهادفة من وجهة النظر الجغرافية ، التى حدد أبعادها الإجتهاد الجغرافى فى القرن العشرين ، تتعرف الجغرافية على هذه الظاهرة المعنية أولاً ، وتجلو الغموض عن كل ما يتأتى عمقاً وإتساعاً من ورائها ثانياً . وعندئذ تطلب الجغرافية وتحقق الهدف المثمر عن كنه وماهية هذه الظاهرة ، لحساب الحياة . وقد يتمثل هذا الهدف فى إدراك وإستشعار أثر هذه الظاهرة المعنية ، المباشر وغير المباشر ، على مصلحة الإنسان ومسيرة حياته فى المكان . وقد يتمثل هذا الهدف مرة أخرى ، فى إدراك وإستشعار ، كيف كانت هذه الظاهرة وليدة تفاعل حيوى وبناء . وعندئذ تتدارس الجغرافية هذا التفاعل ، وتحدد دور العوامل التى تصنع هذا التفاعل، وهو يترك بصماته على الظاهرة المعنية .

وهكذا تتجلى – بكل الوضوح – ميزة الدراسة الجغرافية

الموضوعية فى القرن العشرين . وهى – من غير شك – دراسة تنجح فى إستخلاص نتائج مفيدة ، مبنية على نتائج علمية طبيعية ، أو علمية إنسانية ، لكى تبصر وترشد مسيرة الحياة فى الأرض . وهذا معناه أن الفكر الجغرافى الحديث فى القرن العشرين قد اكتسب مرونة وعمقاً فى وقت واحد ، وهو يحسن إستخدام الإجتهاد الجغرافى ، فى تقصى الكل من خلال الجزء، أو فى تقصى الجزء من خلال الكل . بل لقد هيأ الفكر الجغرافى الحديث الفرص ، لكى يتفوق الإجتهاد فى صياغة البحث الجغرافى ، وتجسيد النتائج الكاشفة لحقيقة وكنه وجوهر ، أى ظاهرة معنية فى المكان والزمان .

ومن خلال القدرة على التحليل الكاشف عن الجوهر ، ومن خلال القدرة على التركيب المؤلف بين النتائج ، تؤكد جغرافية القرن العشرين جدوى وفاعلية ونجاح اجتهادها الجغرافى . ذلك أنها تسجل – من غير شك – الإضافات وتبدع النتائج المفيدة ، من بعد أن تصل العلوم المتخصصة الطبيعية أو البشرية إلى النقطة التى تتوقف عندها ، وتنهى مهمتها وأداء دورها العلمى الباحث . بمعنى أن تتخذ من نتائج هذه العلوم نقط إنطلاق وتوثب ، إلى نتائج حيوية مفيدة ، لحساب الحياة .

هذا وليس أصدق من المثل فى التعبير عن حقيقة تفوق الأداء الوظيفى العلمى ، والجغرافية تحقق ذاتها وتمارس من خلال القدرة على التحليل والتركيب ، البحث الذى يسفر عن نتيجة أو نتائج مفيدة ، تنتفع بها مصالح الحياة فى الأرض . وفى هذا المثل ، نتبين كيف تبدأ إهتمامات الإجتهاد الجغرافى – بالفعل – عندما تنتهى مهمة أى علم متخصص ، ويعطى خلاصة النتيجة التى توصل إليها الأداء الوظيفى المتخصص فى هذا العالم ، وكيف يطوع الجغرافى ويطور ويضيف إلى هذه النتيجة ، فتكون نتيجة جديدة .

ودراسة الحرارة وتسجيلها ورصدها اليومى ، وغير ذلك مما يهم الإجتهاد الجغرافى فى دراسة المناخ ، يدخل – بكل تأكيد – فى صميم إهتمام الاجتهاد المتخصص الباحث فى علم الميترولوجى . وقد يجد هذا الباحث المتخصص فى علم الميترولوجيا ، فى إنخفاض الحرارة لكى

تسـجل الدرجـة الدنيـا ، أو فى ارتفـاع الحـرارة ، لكى تسـجل الدرجـة العظمى فى اليـوم ، وفى كـل يوم ظاهـرة جـوية ، تسـتـوجب الرصـد والتسـجـيل والمتابعة ، بقـدر ما تسـتـوجب البـحث الميـترولوجى المجـرد . وقـد يسـعى هذا الباحث - بكل الخـبرة المتـخـصـصـة - إلى تفسـيـر هذا الإرتفـاع فى درجـة الحـرارة تارة ، وهذا الإنخـفـاض تارة أخـرى . وقـد يسـعى هذا الباحث أيضـًا - بكل الخـبـرة المتخـصـصـة - إلى الربط وتبين العلاقة بين هذه الظاهرة الجـوية ، وظاهـرات جـوية أخـرى ، مـثل حـالة الضـغط الجوى وتحـركات الهـواء أفقيًا ورأسـيًا . والباحث الميـترولوجى المتـخـصـص ، عندمـا يهـتم بذلك كله ، ويخـضـع هذه الظاهرة لقـواعد وأصـول علم الميترولوجى ، لا يكـاد يخرج من إطار دائرة محددة ، تطوق فكره ، ويفـرضـهـا التـخـصـص الدقيق مـن حـوله . ومن ثم يفـرغ من مـهـمـتـه وأداء دوره الوظيفى المتـخـصـص ، ويسـجـل النتـيـجـة أو النتـائج الجيدة ، وهـو مـقتنع اقتناعاً كاملاً أنه قـد أخلص فى أدائه ، وأنه قد أنجز ما ينبغى عليه إنجازه .

وعندئذ يتقدم الجغرافى الذى لا تقنعه قيمة هذه النتائج ، ويستنفر إجتهاده - بكل الخـبرة المتخـصـصـة - لكى يبنى علـى هـذه النتائج نتائج مـثمـرة ومـوضـوعية وقـيمـة ، لحـساب الحـياة . ولكى يحقق الإجتهاد الجـغـرافى مـا يصـبـو إليـه ، ويسـجل الإضـافـة التى يرتضـيـهـا الفكر الجـغـرافى الحـديث ، يجـتاز هذا الإجتـهـاد حـدود الدائرة الضـيـقـة التى طوقت فكر الميـترولوجى ولا يتقيد بقيودها . وعندئذ ، ينطلق الإجتهاد الجـغرافى - بكل الخـبـرة المتـخـصـصـة - إنطلاقاً بناء إلى تسـجيل ثمـرة أداء وظيفى يسـفر عن إضافة مفيدة . وقـد تكون الإضـافة لكى تعبر عن رؤية الجـغـرافى ومـتابـعة عن العـلاقـة بين إرتفـاع درجـات الحـرارة إلى النهايات العظمـى أو إنخفاضـهـا إلى النهايات الصـغرى من ناحية ، وحياة ومـصـالح الناس فـى الحـياة من ناحـية أخـرى . أو قد تـكون الإضافة لكى تعبر عن رؤية الجغرافى أثر هذه الظاهرة المعنية على الظاهرات الأخرى ، سـواء كـانت طبـيعـية أو بشـرية . وهذا مـعناه أن يتـعقب الإجتـهـاد الجـغرافى أثر هذه الظاهرة الجوية المعنية ، وأن يسـفر هـذا التعقب عن نتائج حـقيقـية تنتفع بها مـسـيـرة الحياة وتشـد أزر وجـودها فى المكان والزمان .

وبهذا المنطق الموضوعي ، ينبغي أن ندرك كيف أصبحت النظرة التي يطلبها الفكر الجغرافي من الإجتهاد الجغرافي ، وهو يحسن إستخدام قدراته التحليلية والتركيبية في دراسة ظاهرة معينة ، نظرة موضوعية وعلمية من حيث الجوهر ، ومطلقة بغير حدود من حيث الهدف . وإنخفاض درجة الحرارة مثلاً إلى ما دون الصفر المئوى مسألة لا تفوت الاجتهاد الجغرافي ، وهو يستشعر الأثر المباشر على حالة النمو النباتي وشكل الصورة النباتية ، أو وهو يدرك الخطر الذي يتهدد الزراعة ، أو وهو يحسب حساب معنى توقف الملاحة البحرية وتضرر التجارة الدولية . ومن شأن هذا الإجتهاد الجغرافي أن يتدارس مدى القدرة على ترشيد الحياة ، وهي تواجه كل النتائج التي يتسبب فيها الإنخفاض في درجة الحرارة إلى ما دون الصفر المئوى .

ودراسة تركيب طبقات الأرض وتركيبها الصخر ى وعمرها الچيولوچي ، وغير ذلك مما يهم الإجتهاد الجغرافي في دراسة التضاريس ، يدخل – بكل تأكيد – في صميم الإجتهاد المتخصص الباحث في علم الچيولوچيا . وقد يجد هذا الباحث في علم الچيولوچيا ، في دراسة الجبال والسهول والهضاب وغيرها من أشكال التضاريس الموجبة عل سطح الأرض ، أمراً يهمه ويستحق بحثه بكل العمق والموضوعية . ويكون ذلك الإهتمام – بكل تأكيد – من قبيل الإستجابة لأهداف البحث الچيولوچي العلمي المتخصص . ومن شأن الچيولوچي أن يسخر إجتهاده الچيولوچي ، في دراسة تكوين هذه الظاهرات التضارسية ، وتصور العوامل التي أدت إلى تكوينها . ومن شأنه أيضاً أن يسخر إجتهاده في دراسة متخصصة تبين وتقدر العمر الچيولوچي، الذي ينبئ به التركيب الصخرى للظاهرة التضاريسية المعنية . وقد يؤسس الچيولوچي ، على ذلك كله ، تصوراً مفيداً يحكي قصة وسياق التطور الچيولوچي التي انتهت إلى خلق وتكوين الظاهرة التضاريسية المعنية ، أو يبصر البحث عن الثروة المعدنية ومعينها الثرى في التراكيب الصخرية .

وعند هذا الحد ، يتوقف الإجتهاد الچيولوچي ، وهو مقتنع اقتناعاً

علمياً كاملاً ، أنه قد حقق كل النتائج ، التى يستهدفها دوره الوظيفى العلمى المتخصص . وما من شك فى أنه قد حقق بالفعل – أهداف التخصص الچيولوچى ، وأجرى بحثه حسبما تفرضه قواعد وأصول علم الچيولوچيا . ولكن المؤكد أن هذا الإجتهاد الچيولوچى المتخصص قد أدى دوره الوظيفى فى إطار دائرة محددة بفرض أبعادها التخصص الچيولوچى العلمى الدقيق . ومفهوم أن هذا الإجتهاد الچيولوچى قد كف أو توقف بعد أن حقق أهدافه الأصولية ، لأنه لا يجد سبباً وجيهاً يدعوه أو يلزمه بالخروج من إطار دائرة التخصص ، أو يحفزه لأن يفعل ويضيف أكثر مما أضاف .

وعندئذ يتقدم الجغرافى الذى لا تقنعه هذه النتائج . ويستشعر الإجتهاد الجغرافى المسئولية ، وهو يبنى على نتائج العمل الچيولوچى العلمى ، نتائجاً جديدة ومثمرة ، بقدر ما هى موضوعية وهادفة ، لحساب الحياة ، ولكى يحقق الإجتهاد الجغرافى ما يصبو إليه ، ويسجل إضافة وإبداع الفكر الجغرافى العلمى الهادف ، يتجاوز حد الدائرة الضيقة التى ضيقت الخناق على الچيولوچى ، فى إطاره التخصصى العلمى ، ولا يلتزم أو يتقيد بقيودها الصارمة . ورغم إهتمام إجتهاد الجغرافى بكل النتائج الممتازة التى أسفر عنها الإجتهاد الچيولوچى ، ورغم إستيعاب ما تعنيه وما تعبر عنه كل هذه النتائج الچيولوچية العلمية الأصولية ، واستشعار مدى الإنتفاع الحيوى والجاد بها ، ينطلق هذا الإجتهاد الجغرافى لأداء دوره الوظيفى التخصصى العلمى ، طلباً وتطلعاً إلى الإضافة المفيدة .

وقد يجد الإجتهاد الجغرافى أن يحقق هذه الاضافة ، من خلال دراسة العلاقة ، بين الظاهرة التضاريسية المعنية ، والنمو النباتى الطبيعى أو الزراعة فى أحضان التربة المشتقة من تركيبها الصخرى ، وقد يجد هذا الإجتهاد الجغرافى أيضاً أن يحقق هذه الاضافة ، من خلال تصور العلاقة الإيجابية أو السلبية بين شكل وتكوين الظاهرة التضاريسية المعينة ، وحركة النقل التى تخترق حاجز المسافة ودرجة وعورته فى أحضان هذه الظاهرة ، أو من خلال إدراك أثر هذا التضرس

ومقدار وعورته . فى الفصل بين السلالات ، أو المجموعات اللغوية ، أو فى دعم الحد السياسى وتأمين مهمته لدى الفصل بين سيادة الدول .

وإنطلاقة الفكر الجغرافى الحديث فى القرن العشرين ، إلى مثل هذه الدراسات الموضوعية الهادفة ، لكى يتجاوز الإجتهاد الجغرافى الأثر إلى المؤثر ، أو النتيجة إلى السبب ، يؤكد عمق وتخصص علم الجغرافية. كما أن إنطلاقة الفكر الجغرافى الحديث إلى مثل هذه الدراسات الموضوعية الهادفة ، التى تطور وتضيف إلى نتائج العلوم الطبيعية أو الى نتائج العلوم الإنسانية، يؤكد كفاءة الدور الوظيفى ومرونة علم الجغرافية ، هذا بالاضافة إلى أن إتساع رؤية الإجتهاد الجغرافى لكى يغطى أى مساحة وصولاً إلى مساحة العالم كله ، فإنه يؤكد مرونة علم الجغرافية مرونة كاملة .

وهكذا أصبح علم الجغرافية فى النصف الأول من القرن العشرين الأنسب [١] ، وهو يستوعب الفكر الجغرافى الحديث استيعاباً متخصصاً ، أو هو يسعف حركته المتطورة ومسيرته المتجددة ، إستجابة لإرادة الحياة . وما من شك فى أن الفكر الجغرافى الحديث قبل بالتطور والتجديد والإضافة ، لكى يساير التخصص العلمى الجغرافى، ويخدم النمو الحيوى المتطلع إلى الأفضل . وقد تبارت المدارس الفكرية الجغرافية الوطنية فى اثراء هذا الفكر ، وفى حسن صياغة التخصص العلمى الجغرافى . وتولى بعض الصفوة الممتازة من رجال هذه المدارس ، مهمة التطوير والإثراء من خلال تفكير جغرافى منفتح ومتفتح ، فى شكل بحث مكتبى ، أو فى شكل بحث ميدانى . والمؤكد أن هذين الشكلين من أشكال البحث كانا يتكملان وصولاً إلى الرؤية الجغرافية فى المكان والزمان ، التى تصور كفاءة الأداء الجغرافى العلمى المتخصص .

---

(١) من أجل تحديد جوهر العلاقة الحقيقية بين الفكر الجغرافى والجغرافية ، نذكر أن الفكر الجغرافى هو جغرافية بالقوة ، وأن الجغرافية هى فكر جغرافى بالفعل . بمعنى أن علم الجغرافية يمثل الإجتهاد العلمى الذى يتولى مهمة التعبير ، عن الفكر الجغرافى وتحقيق أهدافه

وتأسيساً على ذلك ، أصبح إهتمام التخصص الجغرافى بالبحث المكتبى أو البحث الميدانى ، وصولاً إلى التعميق على المستوى الراسى أو وصولاً إلى التوسيع على المستوى الأفقى ، مطلوباً . ومن ثم تحمل الإجتهاد الجغرافى هذه المهمة بكفاءة ، فى إطار عدد من الدوائر فى وقت واحد . وقد يواجه هذا الإجتهاد الجغرافى المشقة ، عندما تتداخل هذه الدوائر ، وتؤدى إلى درجة من درجات التعقيد . وقد تتجلى كفاءة الأداء الذى لا يعبأ بهذا التدخل ، ويتولى مسئوليته من غير إخلال أو خروج أو تمرد ، على قواعد وأصول التخصص العلمى الجغرافى الهادف .

ومن خلال الإلتزام بالموضوعية العلمية الجغرافية المتخصصة ، تتكامل ثمرات البحث الجغرافى فى هذه الدوائر، تكاملاً سليماً وسوياً ، لكى يفى الإجتهاد الجغرافى بتطلعات الفكر الجغرافى الطموحة ، ولكى يحقق هذا الإجتهاد ما يصبو إليه الفكر الجغرافى ، من إضافات إيجابية مفيدة . وهذا معناه أن الإجتهاد الجغرافى الذى إستجاب لإرادة الفكر الجغرافى الحديث ، قد أكسب الأداء الوظيفى العلمى الجغرافى مرونة وموضوعية .

ومن شأن المرونة فى الأداء الوظيفى التخصصى ، أن تكون مطلوبة – بكل الموضوعية – لكى تسعف الإجتهاد الجغرافى ، وهو يدرس الكل من خلال الجزء ، أو هو يدرس الجزء من خلال الكل ، إنجازاً للبحث بشقيه المكتبى والميدانى . ومن شأن الموضوعية فى الأداء الوظيفى التخصصى أن تكون مطلوبة – بكل المرونة – لكى تحيط الإجتهاد الجغرافى علماً بالرؤية الجغرافية ، وهو يعالج الظاهرة الجغرافية المعنية من خلال التوزيع والتعليل والربط ، إنجازاً للبحث بشقيه المكتبى والميدانى .

ويقدر الإهتمام الجغرافى بالظاهرات الطبيعية الكاشفة عن واقع وخصائص الأرض ، والإهتمام بالظاهرات البشرية الكاشفة عن واقع وإمكانيات الناس ، ينبغى أن يكون التصدى الباحث عن الحقائق الجغرافية موضوعياً ومرناً فى وقت واحد . والموضوعية والمرونة معاً ،

تكفلان ترشيد الإجتهاد الجغرافى ، وهو يجسد أبعاد الشخصية الذاتية المتميزة للمكان . كما تكفلان أيضاً ترشيد هذا الإجتهاد ، وهو يتلمس ويتقصى التأثير المتبادل ، بين الواقع الطبيعى بكل ضوابطه الحاكمة فى جانب ، والواقع البشرى بكل إمكانياته الفعالة فى جانب أخر .

وهكذا أصبح الفكر الجغرافى الحديث فى النصف الأول من القرن العشرين ، حريصاً على توجيه الإجتهاد الجغرافى - بكل المرونة الموضوعية - إلى دراسة متكافئة ومتوازنة ومتكاملة عن الأرض ، وإلى دراسة متكافئة ومتوازنة ومتكاملة عن الناس . كما كان هذا الفكر الجغرافى ، أشد حرصاً على إنطلاق الإجتهاد الجغرافى إنطلاقاً علمياً متخصصاً - بكل الموضوعية والمرونة - إلى كنه وجوهر التفاعل الديناميكى بين الناس والأرض ، إنتزاعاً لحق الحياة وتأمين وجودها فى المكان والزمان .

ومن خلال هذا الحرص ، بارك الفكر الجغرافى الحديث ، إنقسام الجغرافية علمياً إلى قسمين رئيسيين متكاملين . ومن الجائز أن غلبت بعض المدارس الفكرية الجغرافية الوطنية ، الإجتهاد الجغرافى ، فى قسم من هذين القسمين على الآخر . ولكن المؤكد أن مدرسة من هذه المدارس الكثيرة على مستوى العالم ، لم تنكر أو لم تتنكر لهذا التقسيم العلمى المتوازن ، الذى تمثل فى الجغرافية الطبيعية على وجه ، والجغرافية البشرية على الوجه الآخر .

الإهتمامات الجغرافية الطبيعية والبشرية :

وفى الجغرافية الطبيعية ، يوجه الاجتهاد الجغرافى كل العناية والإهتمام إلى دراسة الواقع الطبيعى دراسة موضوعية علمية كاشفة لخصائصه ، فى إطار أى مساحة من الاقليم إلى القارة إلى العالم كله .
وفى الجغرافية البشرية ، يوجه الاجتهاد الجغرافى كل العناية والإهتمام إلى دراسة الواقع البشرى دراسة علمية كاشفة لوجوده فى أحضان الواقع الطبيعى ، فى إطار أى تشكيل من الشعب إلى الأمة إلى الإنسانية كلها .

ومع ذلك فينبغى أن نفطن إلى أن التخصص فى أى من هذين القسمين ، لا يتعارض مع الترابط بين هذين التخصصين ، لأنه كان

وسيظل ترابطاً أصوليًا . وكأن هذين القسمين الكبيرين ، وجهان للعملة الواحدة . وبدون أى من هذين القسمين تكون الجغرافية غير واقعية وغير متكاملة . وهل من المعقول أن يدرس الإجتهاد الجغرافى الأرض ، من غير أن يستشعر مكان الناس ومكانة الناس وحياة الناس فيها ؟ وهل من المعقول أن يدرس الإجتهاد الجغرافى الناس من غير أن يستشعر مدى إرتباطهم الحيوى بالأرض ، وهم فيها يعيشون ، وبمواردها ينتفعون ،وفى ثراها يقبرون ؟

ومن ثم لم ولا ولن يطلب الفكر الجغرافى فى القرن العشرين من الإجتهاد الجغرافى ، إجتهاداً متخصصًا ، ينغمس إنغماسًا كليًا فى التخصص الدقيق الصارخ أو إجتهاداً منغلقاً يكرس كل إهتمامه بقسم معين من هذين القسمين ، إلى الحد الذى ينسيه أو يصرفه أو يغنيه عن الاحاطة وإستيعاب القسم الآخر . ولو فعل الإجتهاد الجغرافى ذلك لافتقد ذاته الجغرافية ، وهو ينزلق – على إرادة منه – إلى زمرة تخصص علمى آخر . والمطلوب من الجغرافى – عندئذ – من غير أى تفريط فى عمق وأصالة وموضوعية تخصصه الدقيق – أن يحيط بهذين القسمين معاً – من غير إفراط فى السطحية – إحاطة عامة كلية. ومطلوب منه أيضًا، أن يستشعر ويقدر مدى الترابط والتكامل الموضوعى والتداخل غير المحل فيما بينها .

وهكذا لا يحرر الفكر الجغرافى الحديث الإجتهاد الجعرافى فى أى دراسة جغرافية على مستوى المكان (إقليمية) ، أو أى دراسة جغرافية على مستوى المكان فى الزمان (تاريخية) ، من الترابط والتكامل الموضوعى ، بين الواقع الطبيعى والواقع البشرى . بل يتعين أن ينطلق الإجتهاد الجغرافى إنطلاقاً ملتزماً بالعلاقة التكاملية بين الأرض والناس. وهذا معناه أن التخصص العلمى الدقيق فى فروع الجغرافية الطبيعية ، أو فى فروع الجغرافية البشرية ، ينبغى أن لا يعفى إجتهاد الجغرافى المتخصص نفسه ، من الاحاطة الكلية بالقواعد والأسس التى تنظم هذه العلاقة التكاملية بين الأرض والناس . ولو فعل الجغرافى المتخصص ذلك ، وأعفى نفسه من الاحاطة الكلية ، يكون قد تنكر بالفعل للفكر الجغرافى ، أو قد أنكر على هذا الفكر موضوعيته الشاملة .

وعلى الرغم من الترابط والتكامل والتداخل الأصولى غير المخل ، بين الجغرافية الطبيعية ، والجغرافية البشرية ، فإن ثمة فروقات أصولية وإختلافات جوهرية تميز بينهما تميزاً موضوعياً . وقد نتبين هذا التمييز الموضوعى واضحاً عندما نستعرض ما يدخل من ظاهرات فى دائرة إهتمام كل منهما . ولكن الأهم من ذلك كله هو أن نتبين مدى التباين ، فى تركيب وصياغة الخلفية العريضة ، التى تخدم موضوعية وأهداف ورؤية كل منهما . بمعنى أنه تمييز موضوعى بالفعل ، لأنه يمس الجوهر فى صميم التخصص العلمى لكل منهما ، ويحدد طبيعة ونوعية الأهداف المطلوبة من كل منهما .

ومن المفيد – على كل حال – أن يفطن الإجتهاد الجغرافى إلى أبعاد وماهية هذا التمييز الموضوعى ، وأن يلتزم به إلتزاماً علمياً سوياً . ولكن لا ينبغى أن يتعارض هذا الإلتزام الموضوعى ، أو يخل بقواعد وأصول وأسس التكامل ، بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ، أو أن يكون التكامل بينهما مخلاً ومتعارضاً مع حد الإلتزام الموضوعى بينهما . وقد حدد الفكر الجغرافى الحديث – بكل الموضوعية – الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ، ووضع الحد الفاصل بين مجالات الإجتهاد الجغرافى فى كل منهما .

والجغرافية الطبيعية تخصص جغرافى علمى ، من شأنه أن يدرس كل الظاهرات التى تعتلى ظهر الأرض ، والتى لا يكون للانسان شأن فى تكوينها أو توزيعها . ومن وراء الإجتهاد الجغرافى الذى يعكف على البحث المتخصص فى الجغرافية الطبيعية ، ينبغى أن تكون خلفية عريضة ، ثرية ثراء يسعفه بنتائج ومفاهيم وحقائق من صنع وإنتاج العلوم الطبيعية المتخصصة . ومن شأن هذه الخلفية أن تظاهر الإجتهاد الجغرافى وتشد أزره ، وهو يدرس الظاهرة الجغرفية الطبيعية ، دراسة قوامها التركيب والتحليل فى وقت واحد ، وصولاً إلى النتائج .

ودراسة ظاهرة طبيعية معينة ، تدعو الإجتهاد الجغرافى إلى معالجة تخصصية موضوعية ، مبنية على ما يحسن استخدامه من نتائج بعض العلوم الطبيعية ، وصولاً إلى كنه أو ماهية أو جدوى مجموعة العوامل ، التى تشترك بشكل أو بآخر ، فى تكوين هذه

الظاهرة المعنية وتوزيعها ، أو فى اكسابها كل الخصائص المميزة لها . كما ينبغى أن يتعقب الإجتهاد الجغرافى وضع هذه الظاهرة المعنية ، فى إطار الواقع الطبيعى ، وكيف تؤثر فيه أو تتأثر به . ومن قبيل الإستجابة العلمية لارادة الفكر الجغرافى الحديث فى القرن العشرين ، يكون المطلوب من هذا الإجتهاد الجغرافى ، أن يعمق ويؤصل دراسة هذه الظاهرة الطبيعية المعنية ، تأصيلاً علمياً ، لحساب البحث الكاشف عن رؤية الجغرافى للواقع الطبيعى فى نهاية الأمر .

ومن شأن هذا التعميق العلمى الدراسى الهادف ، أن يتأتى من خلال البحث الجغرافى المتخصص ، الذى يسلك السلوك المنهجى العلمى الكاشف ، للظاهرة الجغرافية المعنية ، على الأرض . ومن الطبيعى أن يسفر هذا الإجتهاد الجغرافى المنهجى عن ولادة وترسيخ فروع جغرافية طبيعية متعددة . ومن ثم أسفرت هذه الفروع الدراسية المتخصصة ، عن صياغة القواعد والأصول والأسس ، التى خدمت هذا التخصص الجغرافى الموضوعى ، وحددت مسار الإجتهاد الجغرافى المنهجى الصحيح فى كل تخصص ، وصولاً إلى العمق العلمى المستهدف .

ومن شأن كل فرع من فروع الجغرافية الطبيعية ، أن يتناول جانباً من الجوانب أو ظاهرة من مجموعة الظواهر ، التى تؤلف فى جملتها الصورة الجغرافية الطبيعية على سطح الأرض . وعندئذ يتقصى هذا الفرع – بكل العمق والموضوعية – الحقائق التى تكشف عنها الرؤية الجغرافية لهذه الظاهرة المعنية . مع ذلك ، يجب أن يقترن هذا الإجتهاد الجغرافى التخصصى بالمهارة والحنكة ، لدى تجميع أرصال وتنسيق قطاعات الرؤية الجغرافية لكل الظاهرات الطبيعية ، لكى يسفر عن البحث المتكامل تكاملاً أصوليًا وموضوعيًا عن رؤية جغرافية كلية للواقع الطبيعى ، فى أى مساحة من الأرض ، أو على أى مستوى من مستويات إتساع هذه الأرض .

وجغرافية التضاريس ، فرع من فروع الجغرافية الطبيعية . ويحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الفرع التخصصى ، مسئولية

البحث فى الرؤية التضاريسية فى المكان . وفى إطار هذه الرؤية ، يعالج الإجتهاد الجغرافى مسألة تكوين وتشكيل السطح ، وما يعتلى ظهر اليابس من درجات التضرس المتنوعة . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الإجتهاد الجغرافى على بعض النظريات التى ابتدعها بعض الباحثين ، وهو يفسر النشأة والتكوين التضاريسى . كما يصور أو يتصور العوامل التى كانت من وراء صياغة الشكل التضاريسى ، الذى تفصح أو تعبر عنه الصور التضاريسية المتنوعة على أى المستويات . ويتمادى الإجتهاد الجغرافى فى متابعة مدى التغير فى هذا التضرس على المدى الچيولوچى . وقد يضيف إلى ذلك كله صياغة السياق الرتيب ، الذى يحكى ويصور التغيير فى الصور التضاريسية ، من عصر چيولوچى إلى عصر چيولوچى آخر .

والچيمورفولوچيا ، فرع آخر من فروع الجغرافية الطبيعية . ويحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الفرع التخصصى ، مسئولية البحث فى التشكيل التضاريسى . وفى إطار هذا البحث ، يعالج الإجتهاد الجغرافى الأشكال التضاريسية ، ويصور التفاصيل الدقيقة التى تشكل تضاريس السطح . ومن الطبيعى أن يعتمد الإجتهاد الجغرافى على نتائج العلوم الطبيعية ، التى تحدد قدرات العوامل المتنوعة ، وكيف تشكل التضاريس ، من خلال النحت والنقل والارساب . ويتمادى هذا الاجتهاد الجغرافى فى متابعة مدى التغير فى التشكيل التضاريسى ، من وقت إلى وقت آخر . وقد يتابع هذا التغير أيضًا على المدى الچيولوچى . ثم يضيف إلى ذلك كله صياغة السياق الرتيب ، الذى يحكى ويصور مراحل هذا التغير ، فى التشكيل التضاريسى المتغير ، من عصر چيولوچى إلى عصر چيولوچى آخر .

وجغرافية البحار فرع ثالث من فروع الجغرافية الطبيعية . ويحمل الفكر الجغرافى فى الحديث التخصصى ، مسئولية البحث فى تكوين البحار ، وما يخفى من درجات وأنواع التضرس السالب تحت سطح البحر . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الإجتهاد الجغرافى على بعض النظريات والافتراضات ، التى ابتدعها بعض الباحثين ، وهو ما

يفسر نشأة وتكوين الأحواض ، التى تحتوى البحار والمحيطات . كما يصور هذا الإجتهاد أو يتصور فاعلية العوامل التى كانت من وراء صياغة التنوع فى الأعماق ، الذى يسفر عن التضرس فى قاع البحر . وقد يتمادى الإجتهاد الجغرافى فى متابعة مدى التغير فى توزيع اليابس والماء على المدى الچيولوچى . وقد يضيف إلى ذلك كله البحث عن الماء، الذى يزخر به البحر ، ويصور خصائصه وتحركاته ونبض الحياة فى أحشائه .

وجغرافية المناخ فرع رابع من فروع الجغرافية الطبيعية . ويحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الفرع التخصصى ، مسئولية البحث فى عناصر المناخ فى المكان . وفى إطار هذا البحث ، يعالج الإجتهاد الجغرافى ما ينبئ به الرصيد المستمر أو الرتيب للحرارة والضغط الجوى وحركة الهواء والرطوبة والتكاثف والتساقط . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الإجتهاد على رصيد الباحثين فى علم المترولوچى ، فى تقصى أحوال المناخ ، ولكن المؤكد أنه يحصل على المتوسطات ، ويبنى عليها إستطلاع خصائص المناخ ، وأنه يستطلع مدى التنوع فى خصائص المناخ من إقليم إلى إقليم آخر . وقد يتمادى هذا الإجتهاد الجغرافى ، فى صياغة تقسيم إقليمى ، يعبر عن هذا التنوع فى المناخ على أى مستوى من المستويات . كما يتمادى أيضاً فى متابعة مدى التغير فى حالة المناخ على المدى الچيولوچى . وقد يضيف إلى ذلك كله صياغة السياق الرتيب الذى يحكى أو يصور هذا التغيير المناخى، وفاعليته فى الأقاليم ، من عصرچيولوچى إلى عصر چيولوچى آخر .

وجغرافية الحياة ، فرع خامس من فروع الجغرافية الطبيعية . ويحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الفرع التخصصى ، مسئولية البحث فى الرؤية الحيوية فى أنحاء الأرض . وفى إطار هذه الرؤية ، يعالج الإجتهاد الجغرافى نبض الحياة المتنوع ، سواء تمثل فى النمو النباتى ، أو فى الوجود الحيوى الحيوانى بكل مراتبه . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الإجتهاد الجغرافى على بعض النظريات والأفكار ، التى ابتدعها بعض الباحثين ، وهو يصور النشأة وتطور هذه الحياة . كما

يصور هذا الإجتهاد أو يتصور العوامل ، التى كانت من وراء إنتشار وتنوع الحياة فى أنحاء الأرض . وقد يتمادى هذا الإجتهاد الجغرافى فى متابعة الوجود الحيوى ، وما يطرأ عليه من تغيير وتطور على المدى الچيولوچى . ويضيف إلى ذلك كله صياغة السياق الرتيب ، الذى يحكى أو يصور مراحل تغيير وتطور الوجود الحيوى ، من عصر چيولوچى ، إلى عصر چيولوچى آخر .

هذا ، ويكون هذا التخصص العلمى الدقيق ، فى إطار كل فرع من هذه الفروع ، التى تندرج تحت مظلة الجغرافية الطبيعية ، موضوعيًا وهادفاً . ومن شأنه أن يصور مدى الحرص الذى يبديه الفكر الجغرافى الحديث ، وصولاً إلى اكبر قدر من التعميق . كما يكون أيضاً من قبيل التطلع الذى يرنو إليه الفكر الجغرافى الحديث ، وصولاً إلى الاحاطة الموضوعية بكل ما من شأنه أن يشترك ، أو يسهم فى صياغة وتجسيد رؤية الواقع الطبيعى وإدراك خصائصه ومميزاته . ومن ثم أصبحت الجغرافية الطبيعية من خلال هذه الفروع هادفة ، وهى تعمق المعرفة بالأرض كوطن للانسان ، أو كمسرح يحتوى الحياة ، ويشهد التفاعل الحياتى بين الإنسان والأرض .

ولئن دعا هذا التخصص العلمى الموضوعى الإجتهاد الجغرافى إلى قدر من الإفراط فى التأصيل والعمق الهادف ، فلا ينبغى أن يفرط هذا الإجتهاد– فى نهاية الأمر – فى صدق إلتزامه ووفائه ، الذى يدعوه إلى وضع كل النتائج التى يتوصل إليها فى خدمة الإنسان . بمعنى أن الجغرافية الطبيعية عندما تتصدى من خلال كل فروعها المتعددة ، لدراسة وتجسيد الرؤية الجغرافية الواضحة للواقع الطبيعى للأرض ، على أى من المستويات ، لا يجب أن تكون هذه الدارسة دراسة مجردة لذاتها . بل يتعين أن تكون – بكل الموضوعية – لحساب مصلحة الحياة فى الأرض. ولكى تكون هذه الدراسة لحساب مصلحة الحياة بالفعل ، يضع الإجتهاد الجغرافى العرض الموضوعى الكاشف للمسرح ، الذى يحتوى الحياة فى الشكل ، الذى يبصر ويرشد حركة ووجود وتفاعل الحياة مع الأرض ، فى أى مكان أو زمان .

والجغرافية البشرية تخصص علمي جغرافي ، من شأنه أن يتجه – بكل الإهتمام – إلى دراسة الظاهرات البشرية العامة ، في أحضان الأرض ، وأن يعالج الرؤية الجغرافية التي تجسد نشاط وفاعلية الانسان، وهو يؤكد وينتزع حق وجوده وسيادته على الأرض . ومن وراء الإجتهاد الجغرافي الذي يتفرغ للبحث العلمي المتخصص في الجغرافية البشرية ، ينبغي أن تكون خليفة عريضة وثرية ، قوامها ، معرفة بالواقع الطبيعي الذي يجسد المسرح ، ويشهد نشاط الإنسان ويحتوي وجوده ويجاوب إرادة حياته من ناحية ، ومعرفة بنتائج بعض العلوم الإنسانية الكاشفة عن حقيقة قدرات الانسان وإمكانياته من ناحية أخرى . ومن شأن هذه الخلفية الثرية أن تمثل المعين الذي يسعف الإجتهاد الجغرافي ويرشده ويبصر خبراته ، وهو يعالج الظاهرة البشرية المعنية ، دراسة تركيبية تحليلية في وقت واحد . وهذه هي الدراسة التي تجمع وتؤلف أوصال الرؤية الجغرافية البشرية الكلية ، ثم تحلل هذا التجميع أو التركيب تحليلاً علمياً .

ومن شأن الرؤية الجغرافية للظاهرة البشرية ، أن تدعو الإجتهاد الجغرافي دعوة صريحة ، إلى معالجة موضوعية كاشفة تستوعب ما تنبيء به هذه الرؤية . وهذا معناه أن تبنى هذه المعالجة الموضوعية ، على حسن إستخدام النتائج ، في تحديد أبعاد هذه الظاهرة البشرية المعنية . ومعناه أيضًا أن تتوصل هذه المعالجة الموضوعية ، إلى كنه وماهية العوامل التي تشترك بشكل أو بأخر ، في بلورة هذا النشاط البشري ومدى تأثيرها السلبي والإيجابي عليه .

هذا وينبغي أن يتعقب الإجتهاد الجغرافي من خلال الرؤية الجغرافية للظاهرة البشرية المعنية مسألتين هامتين هما ، مدى تأثر الإنسان وإستجابة نشاطه الحيوي بالعوامل الطبيعية من ناحية ، ومدى تأثير الإنسان وفاعلية نشاطه الحيوي على الواقع الطبيعي من حوله من ناحية أخرى . وقد يتعمد الإجتهاد الجغرافي أكبر قدر من المهارة في بيان التصور الذي يكشف عن كيف يصارع الإنسان الأرض ، وعن كيف ينبري لفرض إرادته عليها ، وعن كيف يصمد ويكبح أو يطوع الضوابط الطبيعية الحاكمة لإرادة الحياة على الأرض في المكان والزمان .

ومن قبيل الإستجابة لارادة الفكر الجغرافى الحديث ، يكون المطلوب من الإجتهاد الجغرافى ، تأصيل البحث والمعالجة الموضوعية للظاهرة البشرية المعنية . وربما كان للهدف فى بعض الأحيان ، نتائجاً تبصر الحياة ، وترشد انتصار الفكر الجغرافى لارادة الحياة فى المكان . ولكن المؤكد أن هناك هدف نهائى هام ، وهو تأكيد قدرة الإجتهاد الجغرافى على تحويل الرؤية الجغرافية لمجموعة الظاهرات البشرية ، إلى بيان أو بحث كاشف – بكل الوضوح – عن الواقع البشرى كله فى لحضان المكان والزمان .

وقد ترتب على الإطار الذى احتوى مسار التخصص الجغرافى فى الجغرافية البشرية وأهدافه ، ولادة أو نشأة فروع جغرافية متخصصة تخصصاً دقيقاً تحت مظلة الجغرافية البشرية . ثم أسفرت الدراسة الجغرافية المتخصصة فى كل فرع من هذه الفروع البشرية ، عن صياغة القراعد والأصول والأسس ، التى تخدم موضوعية البحث فى هذا التخصص الدقيق ، كما أسفرت أيضاً عن تحديد ووضوح رؤية الإجتهاد الجغرافى لأهداف هذا التخصص الدقيق ، وصولاً إلى النتائج العلمية المستهدفة لحساب حركة الحياة ووجودها فى المكان والزمان ..

ومن شأن كل فرع متخصص من فروع الجغرافية البشرية ، أن ينكب الإجتهاد الجغرافى فيه ، على جانب من الجوانب أو على قطاع من القطاعات ، التى تؤلف فى مجموعها الصور الحياتية على الأرض فى أى مكان . ومن شأنه أيضاً أن يتفرغ الإجتهاد الجغرافى فيه ، لتقصى الحقائق والعوامل التى تضع التفاصيل الحيوية فى هذه الصور . ومع ذلك ، فيجب أن يقترن هذا التخصص الدقيق ، فى كل فرع بالمهارة والحنكة ، لدى جمع وربط الأوصال التى تجسد الرؤية البشرية ، لكى يسفر الاجتهاد الجغرافى عن البحث المتكامل تكاملاً أصولياً وموضوعياً عن الواقع البشرى للناس فى أحضان الأرض ، فى أى مساحة من المساحات ، وعلى أى مستوى من المستويات .

وجغرافية السلالات ، فرع متخصص من فروع الجغرافية البشرية . ويحمل الفكر الجغرافى الحديث الاجتهاد الجغرافى مسئولية

البحث فى قضية الإنسان الأول وموطنه وإنتشاره فى أنحاء الأرض . عندئذ يكون استشعار مفهوم وحدة الأصل فى الزمان وفى المكان ، هدفاً مرحلياً تبنى عليه مسألة التمعن فى التنوع فى السمات والصفات فى مواقع الإنتشار . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الإجتهاد الجغرافى إعتماداً موضوعيًا على بعض النظريات والأفكار ، التى ابتدعها بعض الصفوة من الباحثين : لكى يعطى التصور عن النشأة ، وعن الوطن الأول فى المكان الأنسب لبداية قصة حياة الإنسان على الأرض . كما يناقش الإجتهاد الجغرافى العوامل البيئية التى كانت من وراء اكتساب الصفات ، التى ميزت بين السلالات الرئيسية . ويتمادى الإجتهاد الجغرافى فى متابعة التوزيع العام للسلالات وطرق الهجرات والضوابط الحاكمة لهذا الإنتشار على الصعيد العالمى . كما يتطلع هذا الإجتهاد الجغرافى إلى إستشعار مدى الإختلاط بين السلالات ، وكيف أسقط عنها مفهوم النقاوة السلالية . وقد يتخذ من هذا كله سبيلاً لمواجهة بعض انماط التعصب ، الذى يستعلى بالجنس ويحبط دعوته .

وجغرافية السكان ، فرع متخصص أيضًا من فروع الجغرافية البشرية . ويجعل الفكر الجغرافى الحديث الإجتهاد الجغرافى ، مطية للبحث فى قضية انتشار الناس ، وتوزيعهم فى أنحاء الأرض ، ومدى تنوع الكثافات السكانية فى المكان إلى المكان الأخر . وعندئذ يكون الإجتهاد الجغرافى حريصاً على دراسة الضوابط الحاكمة لهذا التوزيع ، والتنوع فى الكثافات ، قدر حرصه على دراسة الضوابط الحاكمة ، لمعدلات النمو والزيادة الطبيعية فى السكان . ومن الطبيعى أن تهمس الإحصاءات والتسجيلات الدورية فى أذن الإجتهاد الجغرافى همساً يجسد رؤيته للتنوع فى الكثافات ، ومعدلات النمو والهجرة والتحركات السكانية . ولكن المؤكد أن نتائج بعض العلوم الإنسانية تسعف الإجتهاد الجغرافى ، وهو يصور العوامل التى تكمن من وراء هذا كله ، وتتسبب فيه. ويتمادى الإجتهاد الجغرافى فى متابعة التوزيع الجغرافى للكثافات السكانية وتقصى حقيقة الضوابط الحاكمة لهذا النوع . كما يضيف هذا الإجتهاد الجغرافى فى الإقليم ، وهو يميز بين معدلات النمو فى أنحائها

ويجسد رؤيته لمدى التوازن ، بين ضغط السكان على الموارد ، وإستجابة الموارد لهذا الضغط . وقد يتسلل الإجتهاد الجغرافى إلى استشعار العلاقة بين حجم الكثافة ، وحجم قوة العمل ، وحجم الإستخدام للموارد المتاحة، وصولاً إلى هدف يقوم على الربط ، وهو يبصر الحياة بالوضع السكانى فى المكان والزمان .

وجغرافية السكن ، فرع متخصص آخر من فروع الجغرافية البشرية . ويوكل الفكر الجغرافى الحديث إلى الاجتهاد الجغرافى أمانة البحث فى قضية السكن ، الذى يأوى إليه الناس فى أنحاء الأرض . وعندئذ يتولى الإجتهاد الجغرافى التمييز بين السكن فى أحضان البداوة، والسكن فى أحضان الإستقرار . كما يتدارس مدى التباين والتنوع بين السكن ، فى المدينة فى أحضان الحضر ، وفى القرية فى أحضان الريف . ومن الطبيعى أن يعتمد الإجتهاد الجغرافى إعتماداً ذكياً على بعض النظريات والأفكار ، التى ابتدعها لفيف الباحثين ، لكى يعطى التصور الكاشف للرؤية الجغرافية لنوع السكن وأنماط المساكن . والمؤكد أن يلتمس هذا الإجتهاد الجغرافى العوامل الطبيعية والبشرية التى تسبب هذا النوع . وقد يتمادى الإجتهاد الجغرافى فى متابعة الضوابط الحاكمة ، لإنتشار المدن والقرن فى أنحاء الإقليم ، وتصوير العلاقة الحتمية بين المدن والقرى فى أنحاء الإقليم ، وتصوير العلاقة الحتمية بين المدن والقرى فى الحياة فى الظهير المباشر من حولها. وقد يتسلل الإجتهاد الجغرافى إلى نمو المدن والقرى ، وإستشعار العلاقة بين النمو من ناحية ، ومعدلات الزيادة الطبيعية من ناحية ثانية ، والتحرك ت السكانية بين الريف والحضر من ناحية ثالثة ، وصولاً إلى هدف يقوم على الربط ، وهو يبصر الحياة بمأواها فى المكان والزمان .

والجغرافية الإقتصادية فرع ضخم وعريق من فروع الجغرافية البشرية ، ويعتمد الفكر الجغرافى الحديث على الإجتهاد الجغرافى ، فى معالجة أنماط التفاعل بين الناس والأرض وأساليبه ومستوياته المتفاوتة والمتنوعة ، طلبًا لإستخدام موارد الأرض . كما يعالج هذا الإجتهاد عمليات الإنتاج بدرجاته الأولية والثانية ، وعلاقتها

التوازنية بعمليات الإستهلاك ومعدلاته المتفاوتة . ومن الطبيعى أن يأخذ هذا الإجتهاد الجغرافى ببعض النظريات والأفكار التى ابتدعها بعض الباحثين ، لكى يعطى التصور الذى يعبر عن الرؤية الجغرافية للعوامل ، التى تكمن من وراء أنماط التفاعل الحياتى بين الناس والأرض . وقد يعتمد أيضاً على بعض نتائج العلوم الطبيعية والإنسانية ، لكى يصور دور التجارة الدولية فى الربط للتوازن ، بين الإنتاج والإستهلاك . ويتمادى هذا الإجتهاد الجغرافى فى متابعة النشاط الإقتصادى على أى مستوى من مستويات بقصد إستشعار مدى التنوع فى محصلة التفاعل بين الناس والأرض . وقد يتسلل هذا الإجتهاد الجغرافى إلى حصر وتقصى حقيقة الضوابط الحاكمة ، للانتاج الإقتصادى وللاستهلاك البشرى ، ومدى التنوع فى معدلاته من حيث الكم والكيف على حد سواء .

وجغرافية النقل فرع حيوى من فروع الجغرافية البشرية . ويعهد الفكر الجغرافى الحديث للاجتهاد الجغرافى مهمة هامة ، تعالج تطور الجهد البشرى ، وهو يبدع الأساليب والوسائل لاسقاط أو لاختراق حاجز المسافة بين المكان والمكان الآخر . كما يعالج هذا الإجتهاد الجغرافى الرؤية الجغرافية الكاشفة عن كنه أو جوهر العلاقة الموضوعية ، بين عمليات النقل وتشغيل وسائله وحركة التجارة الدولية من ناحية ، وتهيئة أكبر قدر من التوازن بين العرض والطلب لحساب الانسان من ناحية أخرى . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الإجتهاد الجغرافى على بعض النظريات والأفكار ، التى ابتدعها البحث العلمى المتخصص ، وهو يصور دور العوامل أو الضوابط الحاكمة لعملية تشغيل وسائل النقل وإستخداماتها الإقتصادية ، لحساب الحركة والنقل التجارى ، لحساب مجتمع الدول . وقد يتمادى هذا الإجتهاد الجغرافى فى متابعة مدى التطور فى وسائل النقل وحسن إستخدامها ، وإستشعار المدى الذى تحقق عمليات النقل من خلاله أكبر قدر من التوازن ، بين الإنتاج والإستهلاك فى إطار شكل من أشكال التكامل الإقتصادى ، بين الأقاليم على مستوى الدولة ، أو مجموعة دول ، أو على مستوى العالم كله .

والجغرافية السياسية ، فرع بناء من فروع الجغرافية البشرية، ويتطلع الفكر الجغرافى الحديث إلى الإجتهاد الجغرافى ، لكى يخدم اللقاء الموضوعى بين الجغرافية والسياسية على طريق كاشف لأبعاد المشكلات السياسية . ومن شأن الإجتهاد الجغرافى أن يعالج بناء وتكوين الدولة وإستشعار مقومات وجودها المؤلف ، من أرض وناس ونظام ، يفرض سيادة الناس على الأرض فى الدولة ، وأن يصور كيف تلعب هذه المقومات دورها الحيوى فى تحديد مكانة الدول فى مجتمع الدول من ناحية ، وفى خلق أو تعقيد أو تفجير المشكلات من ناحية أخرى . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الإجتهاد الجغرافى على بعض النظريات التى يتوصل إليها البحث العلمى المتخصص ، وعلى بعض نتائج بعض العلوم الإنسانية ، لكى تتأتى الرؤية الجغرافية الكاشفة عن العوامل التى تكمن من وراء علاقة ووضع الدولة مع جيرانها ، ومكانتها الحقيقية فى المجتمع الدولى . ويتمادى هذا الإجتهاد فى متابعة تطور الدولة الحيوى ومدى تأثير المشكلات التى تعيشها الدولة على هذا التطور ، طلبًا وتطلعًا إلى مجالها الحيوى . وقد يتسلل هذا الإجتهاد الجغرافى إلى دراسة عوامل تفجير المشكلات من الداخل ، أو من الخارج، أو إلى متابعة مدى التأثر أو التأثير الذى يفرضه منطق التوازن بين القوى فى العالم على وضع وسياسة ومكانة الدولة .

هذا ويكون هذا التخصيص الدقيق ، فى إطار كل فرع من فروع كثيرة تندرج تحت مظلة الجغرافية البشرية ، علامة من أهم علامات حرص الفكر الجغرافى الحديث ، على دراسة وتقصى الظاهرات البشرية، رصولاً إلى أكبر قدر من العمق الموضوعى على كل المستويات . ومن الجائز أن يستهدف الفكر الجغرافى الحديث ، الاحاطة الموضوعية بما تعنيه الظاهرة البشرية ، وتعبر عنه وصولاً إلى استشعار مسيرة الحياة ووقع خطواتها فى المكان . ولكن المؤكد أن الفكر الجغرافى الحديث قد تطلع دائماً إلى إتخاذ الجغرافية البشرية مطية لتجسيد الرؤية الجغرافية للواقع البشرى وخصائصه فى أحضان المكان والزمان.

ومن ثم تكون الجغرافية البشرية ، من خلال فروعها المتخصصة الكثيرة هادفة بالفعل ، عندما تتولى هذه الفروع تعميق المعرفة بالناس والوجود البشرى السيد على الأرض ، وعندما تتولى من خلال البحث التركيبي والتحليلى فى وقت واحد ، تصوير أبعاد ونتائج التفاعل الحياتى بين الناس والأرض تفاعلاً مثمراً . ولئن دعا هذا التخصص العلمى الدقيق الإجتهاد الجغرافى إلى الإفراط فى التأصيل والتحليل والتعميق ، وصولاً إلى البحث الجغرافى البشرى الموضوعى الجيد ، فلا ينبغى أن يفرط الجغرافى أبداً فى صدق إلتزامه ووفائه الفعلى ، بوضع كل النتائج التى يتوصل إليها هذا البحث ، فى خدمة الإنسان ، الفرد والمجتمع على حد سواء .

وهذا معناه أن الجغرافية البشرية ، عندما تتفرع من خلال فروعها لدراسة الظاهرة البشرية المعنية ، أو عندما تنكب على جمع أوصال الرؤية الجغرافية للواقع البشرى ، على أى مستوى من مستويات الأرض، لا يجب أن تكون أهدافها مجردة لذاتها . بل يتعين أن تكون الدراسة الجغرافية البشرية هادفة – بكل الموضوعية – لحساب الإنسان وحياته فى الأرض . ولكى تكون هذه الدراسة الجغرافية البشرية لحساب الإنسان بالفعل ، يجب أن ينجح الإجتهاد الجغرافى فى تطويع نتائج البحث الجغرافى البشرى ، تطويعاً مفيداً لنشاط الإنسان ، ولنبض حياته على الأرض . ولا تكون هذه الفائدة حقيقية إلا إذا أفلحت هذه النتائج فى ترشيد تفاعل الإنسان الحياتى مع الأرض ، وانتصرت لارادة وجوده على أن مستوى من مستويات الأرض فى المكان والزمان .

وهكذا ، يلزم الفكر الجغرافى الحديث ، الإجتهاد الجغرافى ، فى مجال الدراسة الجغرافية الموضوعية لظاهرة من الظاهرات ، بضرورة استشعار الحد الفاصل – بكل الموضوعية – ، بين مفهوم الجغرافية الطبيعية وإهتمامات فروعها المتخصصة ، ومفهوم الجغرافية البشرية وإهتمامات فروعها المتخصصة ، لكى يتجنب الخلط أو التردى فى الخطأ الموضوعى ، ومن قبل أن يضع الإجتهاد الجغرافى الظاهرة المعنية فى إطار البحث المتخصص ، ينبغى أن يتحسس وضع أو مكان الإنسان فيها

وصولاً إلى حكم سوى ، عن جوهر التخصص فيها . وإذا تكشفت له أن للانسان فيها مكانًا ، كانت الظاهرة المعنية بشرية، ومن النمط الذى يدخل فى صميم إهتمام الجغرافية البشرية أو فرع من فروعها المتخصصة . أما إذا افتقد الإجتهاد الجغرافى مكان الانسان فيها ، كانت الظاهرة المعنية طبيعية ، ومن النمط الذى يدخل فى صميم إهتمام الجغرافية الطبيعية أو فرع من فروعها المتخصصة .

ومن خلال الحرص على الحد الفاصل ، بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية والإلتزام به ، يؤكد الفكر الجغرافى الحديث على موضوعية علم الجغرافية بالفعل . وهذا دليل صادق لا يضل ولا يضلل، عندما نصور الجغرافية على أن شأنها شأن العملة لها وجهين متكاملين . الأول طبيعى مجاله الأرض مسرح الحياة ، والثانى بشرى مجاله الإنسان صاحب الحق فى الوجود على هذا المسرح . وبهذين الوجهين المتكاملين – معًا – تكون الجغرافية كما أراد الفكر الجغرافى الحديث لها أن تكون . وما من شك فى أن إفتقاد وجه من هذين الوجهين ، يبطل مفعولها ويخل بواقعيتها ، ويفسد موضوعيتها ويضيع أهدافها . وإلا فما هى القيمة الفعلية لدراسة الأرض وخصائصها ، من غير أن تكون وطنًا للانسان ومرتعًا لنشاطه ومسرحاً لحياته ومورداً لعطائه ؟ وما هى القيمة الفعلية لدراسة الانسان ومتابعة قصة حياته وتفاعله ، من غير أن يكون ملتصقًا بوطنه ومتفاعلاً مع الأرض وطالباً لعطائها فى المكان والزمان ؟

وموضوعية الدراسة أو البحث الجغرافى المتخصص – كما يريدها الفكر الجغرافى الحديث – ، فى كل فرع من الفروع التخصصية فى الجغرافية الطبيعية ، أو فى الجغرافية البشرية على السواء ، تكون – من خلال أى منهج من مناهج البحث – مبنية بالضرورة على التأصيل والواقعية ، لدى معالجة رؤية الواقع الجغرافى الطبيعى ، أو رؤية الواقع الجغرافى البشرى ، ولدى صياغة وتجسيد أى منهما ، ومن ثم يملى الفكر الجغرافى الحديث إرادة الإلتزام ، بمفهوم التخصص الجغرافى الدقيق ، فى إطار التخصص العام ، لدى صياغة وتأصيل القواعد

والأسس ، كنتائج إيجابية يتوصل إليها البحث الجغرافى الموضوعى .

ومن شأن إرادة الإلتزام ، أن تصغى جيداً ، وأن تطاوع وتستجيب ، إلى حاجة البحث الجغرافى المتخصص ، لكيلا يضل فلا يحقق الهدف الموضوعى . وإلا فكيف يمكن التمييز بين القواعد والأسس التى يبنى الإجتهاد الجغرافى ، والنتائج التى يسفر عنها البحث الجغرافى لحساب رؤية الواقع الجغرافى البشرى ؟ ومن غير هذا التمييز لا يحقق البحث الجغرافى الموضوعية الحقيقية ، ولا ما يبتغيه التخصص الجغرافى الدقيق .

وتأسيساً على ذلك التقسيم الذى ارتضاه الجغرافيون ، وتأسيساً على ذلك التمييز ، بين القسمين اللذين حققا هدف الفكر الجغرافى الحديث ، لا ينبغى أن تمثل الدراسة الجغرافية الإقليمية ، ولا الدراسة الجغرافية التاريخية فرعاً من خلال هذا التقسيم الموضوعى للجغرافية . وليس من الصدق فى شىء ، أن يزج الإجتهاد الجغرافى بالبحث الهادف فى أى منهما ، فى إطار الجغرافية الطبيعية ، أو فى إطار الجغرافية البشرية . وفى تصورى أن الدراسة الجغرافية الإقليمية ، والدراسة الجغرافية منهجين ، أو أسلوبين من أساليب البحث الموضوعى الجغرافى أكثر من أى شىء آخر . بمعنى أن يصب الإجتهاد رؤيته الجغرافية فى قالب إقليمى ، أو أن يصب هذه الرؤية فى قالب زمنى تاريخى يتابع الأمر من جغرافية الماضى الى جغرافية الحاضر .

والجغرافية الإقليمية التى اختلف بشأنها الإجتهاد الجغرافى فى القرن التاسع عشر ، سبيل من سبل الدراسة الجغرافية الموضوعية . وفى إعتقادى أنها تمثل أسلوب عمل ، يعتمد عليه الإجتهاد الجغرافى بذكاء ومهارة وخبرة ممتازة ، لتغطية البحث الجغرافى المتكامل الهادف طبيعياً وبشرياً على مستوى المكان فى اقليم . ومن الطبيعى أن يعتمد الإجتهاد الجغرافى على خلفية ثرية وعامرة بحصاد التخصص الجغرافى الطبيعى والبشرى على حد سواء ، لإنجاز مهمته وأداء دوره الوظيفى فى البحث الجغرافى الإقليمى .

وإنطلاقاً من قواعد الجغرافية ، يهتم الإجتهاد الجغرافى بالأرض

فى المكان ، أو الإقليم إهتماماً مزدوجاً أو ثنائياً بأكبر قدر من التوازى والتوازن على محورين . ويستهدف الإجتهاد الجغرافى على المحور الأول تغطية الدراسة أو البحث الموضوعى ، الكاشف عن رؤية الواقع الجغرافى الطبيعى . ويستهدف على المحور الثانى تغطية الدراسة أو البحث الموضوعى الكاشف عن رؤية الواقع الجغرافى البشرى . وعندئذ تتكامل الرؤية الجغرافية فى إطار الإقليم تكاملاً موضوعياً ، من حيث الشكل ومن حيث الجوهر . وقد يحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الإجتهاد الجغرافى من بعد ذلك كله ، مسئولية حسن إستخدام هذه الرؤية الجغرافية المتكاملة فى الإقليم ، لابداع الأسلوب العلمى ، الذى يمكن أن تتخذه الجغرافية سبيلاً من أفضل سبل تقسيم العالم إلى أقاليم ، أو وحدات جغرافية متميزة (١).

وهذا معناه أن الفكر الجغرافى الحديث قد أنجز من خلال المنهج الجغرافى الإقليمى أكثر من هدف . ومن الجائز أن نتبين الهدف الأول، وكيف يتحقق من خلال دراسة جغرافية مكثفة ، تصور الرؤية الجغرافية المتكاملة بشقيها الطبيعى والبشرى فى إطار الإقليم . ولكن المؤكد أن هذا الإنجاز يفتح الباب لكى ينجز الإجتهاد الجغرافى الهدف الذى يحقق التقسيم الإقليمى الأفضل على صعيد الأرض .

والجغرافية التاريخية ، تمثل بدورها أسلوباً آخر من أساليب

---

(١) قد يركز الإجتهاد الجغرافى على ظاهرة بشرية معينة ، من أجل تصنيف أقاليم إقتصادية أو أقاليم سكانية أو أقاليم سلالية أو أقاليم سياسية أو أقاليم لغوية أو أقاليم إنتاجية . وقد يجمع بين عدد من الظاهرات البشرية من أجل تصنيف أقاليم بشرية . وهذا من غير شك إنجاز طيب ومشكور . وقد يركز الإجتهاد الجغرافى على ظاهرة طبيعية معينة ، من أجل تصنيف ، أقاليم تضاريسية أو أقاليم مناخية ، أو أقاليم نباتية أو أقاليم حيوانية ، أو أقاليم قارية أو أقاليم بحرية . وقد يجمع بين عدد من الظاهرات البشرية من أجل تصنيف أقاليم طبيعية . وهذا غير شك إنجاز طيب ومشكور أيضاً . ومن الجائز أن ينتفع البحث الجغرافى بالأقاليم البشرية والأقاليم الطبيعية . ولكن أن يجمع الإجتهاد الجغرافى بين الظاهرات البشرية والظاهرات الطبيعية معاً وأن يحسن إستخدام دلالتها ، من أجل تصنيف أقاليم جغرافية فهذا هو الإبداع بالفعل . وكيف لا يكون ذلك إبداعاً ، والاقليم الجغرافى وليد البحث المتكامل بشقيه الطبيعى والبشرى والمتميز طبيعياً وبشرياً عن الأقاليم الأخرى .

العمل الجغرافى الموضوعى ، ومن شأن الإجتهاد الجغرافى أن يعتمد على هذا الأسلوب بذكاء وخبرة ممتازة ، لتغطية البحث الجغرافى المتطور على المدى الزمانى . وقد يكون هذا المدى الزمانى قصيراً لا يتجاوز بضع سنوات معدودات أو طويلاً على إمتداد القرون الطويلة ، أو بلا حدود على المدى الجيولوجى . ولكن المؤكد أن التطور الذى يبتغيه البحث الجغرافى ، يعالج الظاهرة الجغرافية فى المكان وفى الزمان فى وقت واحد . وقد يحتاج الاجتهاد الجغرافى إلى حسن استثمار خلفية ثرية بحصاد التخصص الجغرافى ، لكى يتابع التطور وما ينشأ عنه من تغيير فى الرؤية الجغرافية للظاهرة المعنية بداية من المنظور الجغرافى فى الماضى ، الى المنظور الجغرافى فى الحاضر .

هذا وعندما يهتم الإجتهاد الجغرافى بظاهرة طبيعية فى المكان(١) ، إنطلاقاً من قواعد الجغرافية الطبيعية ، يغطيها البحث تغطية تطورية على المدى الزمنى المعلوم . وتعبر هذه التغطية التطورية ، عن معنى ومدى وماهية التغيير الذى يلحق بهذه الظاهرة المعنية ، من عصر إلى عصر آخر ، أو من وقت إلى وقت آخر ، ويكون البحث الموضوعى بحثاً فى الجغرافية الطبيعية التاريخية ، لأنه يدرس الظاهرة فى المكان ، وفى الزمان وفى وقت واحد .

ومن شأن الإلتزام بالتطور على المدى الزمنى المعلوم، الذى يسفر عن شكل من أشكال الجغرافية التاريخية ، سواء كنت طبيعية أو بشرية ، ألا يفرط الجغرافى ولا يسقط عنه الإلتزام الكامل بقواعد الجغرافية الطبيعية ، أو بقواعد الجغرافية البشرية . وهذا معناه إلتزام بمنهج وإلتزام بقواعد فى وقت واحد ، من غير تعارض بين هذين الإلتزامين . وقد يفلح الإجتهاد الجغرافى الملتزم ، فى معظم الأحوال ، فى تسجيل إضافة مفيدة ، من خلال رصد ومتابعة الرؤية الجغرافية المتغيرة طبيعياً أو بشرياً ، وتقصى العوامل التى أدت إلى هذا التغيير .

---

(١) من شأن الظاهرة البشرية أن تكون اقتصادية أو سكانية أو سكنية أو سلالية أو سياسية بمعنى أن تكون ظاهرة من مجموعة الظاهرت التى تجمع أوصالها، الرؤية الجغرافية فى المكان .

وفى بعض الأحيان ، يخلط الإجتهاد الجغرافى بذكاء وخبرة بين هذين المنهجين الاقليمى والتاريخى خلطاً جيداً ، لتغطية البحث الجغرافى الإقليمى التاريخى[1] . ويعتمد الإجتهاد الجغرافى على خلفية ثرية بقواعد الجغرافية الطبيعية والبشرية ، وهو يدرس جغرافية الاقليم دراسة تطورية على مدى زمنى معلوم ، ومن شأن الإجتهاد الجغرافى أن يلتزم بمنهج الدراسة التاريخية على مستوى الزمان وصولاً إلى الهدف . وهذا الإلتزام المزدوج هو السبيل الأمثل للخلط المتوازن ، بين المنهجين الاقليمى والتاريخى ، ومن غير أن يتحرر من قواعد الجغرافية بشقيها الطبيعى والبشرى ، ومن غير أن تتضرر عناصر وسياق البحث . ومن غير هذا التوازن ، بين عامل المكان ، وعامل الزمان ، قد يفتقد هذا البحث الجغرافى المركب موضوعيته .

الفكر الجغرافى الحديث والمنهج الجغرافى التحليلى الأصولى:

لقد أفلح الفكر الجغرافى الحديث ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، فى وضع الجغرافية فى المكان الصحيح ، بين زمرة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، فلقد انكب الإجتهاد الجغرافى على تأكيد موضوعية علم الجغرافية ، على صياغة وضعه التجريبى . ومن خلال البحث الموضوعى الجغرافى المتخصص . ومن ثم باتت الجغرافية علماً تركيبيًا تحليلياً فى وقت واحد . وقد استهدفت من التركيب والتحليل وصياغة وبناء النتائج ، التى تمثلت فى تجسيد الرؤية الجغرافية وتشريحها ، لحساب الإنسان ومسيرة حياته على الأرض وتفاعله معها طلباً لعطائها .

وكان من الطبيعى عندئذ أن يخضع علم الجغرافية ، وهو يعبر عن الفكر الجغرافى الحديث ، لكل ما يمليه المنطق العلمى الصحيح شكلاً وموضوعًا . بل وكان من المؤكد أن تتوافق أو تساير نتائج البحث

---

(١) تفضل الجغرافية هذا البحث المركب عندما تغطى دراسة جغرافية فى إطار دولة على وجه الخصوص . بمعنى أن يكون الدولة اقليماً سياسياً ، وأن يكون التطور ومتابعة سبيلاً ومنهجاً لتغطية البحث الجغرافى المتطور فى هذا الاقليم .

الجغرافى الموضوعى ، كل المفاهيم الموضوعية المتطورة . ومن ثم لم تتعارض أو لم تتناقض نتائج الأبحاث الجغرافية الموضوعية ، مع نتائج كل العلوم التى ينهل الإجتهاد الجغرافى من معينها المثمر . وكيف نتوقع التعارض أو التناقض ، والجغرافية تعتمد على هذه النتائج التى تعرف كيف تأخذها من العلوم الطبيعية أو من العلوم الانسانية وتطوعها علميًا وموضوعيًا لحساب البحث الجغرافى ، وهو يسجل إضافاته المفيدة .

وفى إطار أى منهج من مناهج البحث العلمى ، كان من شأن الإجتهاد الجغرافى أن يخطو خطوات أساسية لتجسيد الرؤية الجغرافية. وتتمثل هذه الخطوات فى التوزيع والتعليل والربط . بمعنى أن يتولى الإجتهاد الجغرافى مهمة أو مسئولية ، تطويع الظاهرة المعنية تطويعًا موضوعيًا لحساب البحث الذى يجسد رؤيتها جغرافيًا ، من خلال التوزيع والتعليل والربط . ومن غير ذلك التطويع ، لا تكون الدراسة التركيبية التحليلية للظاهرة الجغرافية المعنية ، متكاملة أو موضوعية . وهكذا أصبح الإلتزام بالتوزيع والتعليل والربط ، إلتزامًا مؤكداً وضرورياً ، لكى يحقق الإجتهاد الجغرافى أهداف البحث الجغرافى الموضوعى شكلاً وموضوعاً .

والتوزيع ، قضية ملحة تمليها طبيعة البحث على الإجتهاد الجغرافى ، وهو ينكب على دراسة أى ظاهرة جغرافية . ويمثل هذا التوزيع فى إطار المكان على أى مستوى من المستويات ، نقطة البداية الصحيحة لرصد ومتابعة مدى إنتشار الظاهرة الجغرافية المعنية فى المكان والزمان . ومن خلال التوزيع الذى تسفر عنه عمليات الملاحظة أو المعاينة أو الحصر على مستوى الدراسة الميدانية ، أو الدراسة العملية ، أو الدراسة المكتبية ، يستشعر الإجتهاد الجغرافى – بالضرورة – مسألتين هامتين موضوعياً .

وتصور المسألة الأولى ، مدى إنتشار هذه الظاهرة الجغرافية المعنية، سواء كانت طبيعية أو بشرية ، على مستوى المكان .

أما المسألة الثانية ، فتصور إحتمالات التكرار والتجانس فى

التوزيع، أو الإختلاف والتنوع فى الإنتشار ، على مستوى المساحة المعنية فى المكان.

ومن شأن المساحة التى يتعين توزيع الظاهرة الجغرافية المعنية فيها، ألا تخضع لضابط سوى ما يمليه البحث فقط . بمعنى أن ليس ثمة إلتزام بمساحة معينة ، فقد يستغرق التوزيع لحساب البحث الجغرافى إقليمًا بذاته أو قطراً بعينه ، أو قارة برمتها ، أو العالم كله . والمهم أن يتأتى التوزيع لكى يسجل أو يعبر – بكل الصدق والواقعية – عن مدى إنتشار الظاهرة المعنية ، فى أنحاء المساحة المنتخبة تعبيراً كاشفًا للرؤية الجغرافية . بل ينبغى أن يضع هذا الإجتهاد الجغرافى التوزيع بالشكل الأفضل ، الذى يكاد ينبىء بما يعنيه ، أو يفضى بما تتصوره الرؤية الجغرافية للظاهرة المعنية .

ولا يفلح الإجتهاد الجغرافى فى إنجاز هذه المهمة التى تجسد الرؤية الجغرافية ، إلا إذا بنى هذا التوزيع على معرفة راسخة ومعاينة مستمرة، تستوعب إنتشار الظاهرة الجغرافية المعنية ، على مستوى المكان فى المساحة المنتخبة . ومن الجائز أن تلهم المعاينة الإجتهاد الجغرافى التشابه الكاشف ، لمدى إنتشار الظاهرة الجغرافية المعنية . ولكن المؤكد أن إستخدام الخريطة لبيان هذا التوزيع ، يبصر الإجتهاد الجغرافى بهذا الإنتشار على مستوى المكان فى المساحة المعنية . .

ومن الضرورى أن يتناول الإجتهاد الجغرافى معنى وكنه هذا التوزيع ، ومدى الإنتشار بشىء كبير من المرونة ، إيماناً منه بحقيقة أن سنة الطبيعة لا تعرف التكرار من خلال التماثل ، ولكنها تكرر من خلال التشابه فقط . بمعنى ألا يلتزم بالتكرار المتماثل مادامت سنة الخلق والتكوين ، لا تعرف ولا تجيد ولا تحرص على هذا التماثل . ومعناه أيضاً القبول بالتشابه كحد أقصى فى متابعة إنتشار الظاهرة الجغرافية المعنية وتوزيعها ، على مستوى المكان فى المساحة المعنية ، سواء كانت طبيعية أو بشرية .

هذا ويكون التوزيع الذى يزداد وضوحًا وتعبيراً عن رؤية الظاهرة الجغرافية المعنية ، من خلال إستخدام الخريطة الجيدة الصحيحة ، مدخلاً مناسبًا ومفيداً . ذلك أنه يسعف الإجتهاد الجغرافى ، ويبصره

فى أداء دوره وإنجاز خطوة هامة وموضوعية ، لحساب البحث الجغرافى. ولدى دراسة الظاهرة الجغرافية المعنية ، على مستوى المكان فى المساحة المعنية أو المنتخبة ، لا يكاد ينطق التوزيع بالصدق تصويراً وتعبيراً ، أو أن يثير الإنتباه ذكراً ووصفاً فقط ، بل أنه يمثل – بكل تأكيد – المقدمة المنطقية واليقينية المطلوبة بالحاح ، لكى يتولى الإجتهاد الجغرافى مهمة تعميق البحث الموضوعى ، عن الظاهرة الجغرافية المعنية . بمعنى أن الفراغ من أداء أو إنجاز هذه المقدمة ، يفرض على الإجتهاد الجغرافى أن يخطو الخطوة الثانية ، التى تنشأ تأسيساً على ما تنبىء به هذه المقدمة ، التى أسفر عنها التوزيع الجغرافى للظاهرة المعنية فى المكان والزمان .

والتعليل قضية أخرى يفجرها عرض التوزيع الكاشف لمدى إنتشار الظاهرة الجغرافية المعنية تفجيراً مباشراً . ويكون هذا التفجير وكأنه نداء للعقل ، لكى يبصر الإجتهاد الجغرافى ويرشده ، فى مواجهة هذه القضية . ويستهدف الإجتهاد الجغرافى – عندئذ – التسلل إلى ما وراء الرؤية الجغرافية المعنية ، لكى يتلمس التفسير المعقول المقنع، بشأن هذا التوزيع والإنتشار على مستوى المكان . وكأن المطلوب أن يتفرغ الإجتهاد الجغرافى ، أو أن ينكب الإجتهاد الجغرافى على معين خبراته ، للبحث عن العوامل التى تشترك بشكل أو بآخر ، فى صياغة وتكوين الظاهرة المعنية ، أو التى تتحمل بشكل أو بآخر مسئولية إنتشارها ، الذى ينبىء به التوزيع الجغرافى على مستوى المكان فى الزمان .

ومن شأن الإجتهاد الجغرافى – على كل حال – أن يعمل –بكل المهارة – وأن يطوع خبراته المكتسبة ، وهو يتلمس السبب أو الأسباب التى تبدو بمثابة ضوابط حاكمة commanding factors ، للتوزيع الجغرافى للظاهرة الجغرافية المعنية ، ومدى إنتشارها على مستوى المكان . بل ينبغى أن يلتزم الإجتهاد الجغرافى إلتزاماً علمياً وموضوعياً، بتحديد وإستخلاص القواعد والأسس، التى تفرض هذه الضوابط الحاكمة ، وكيف تخضع توزيع وإنتشار الظاهرة الجغرافية المعنية لنظام معين . كما ينبغى أن يلتزم أيضاً بتفسير ، كيف يحدث الشذوذ فى بعض الأحيان، وكيف لا ينصاع التوزيع الشاذ، لهذه الضوابط الحاكمة.

ولكى يكون التعليل منطقياً وموضوعياً ، ولكى يكون مقبولاً شكلاً وموضوعاً ، يتعين أن تكون خبرة وإمكانيات الإجتهاد الجغرافى واسعة وفضفاضة . كما يتعين أن تكون خلفية هذا الإجتهاد ثرية ومدعومة، بنتائج العلوم الطبيعية والبشرية ، التى تسعف أداءه الموضوعى . وقد يستشعر الإجتهاد الجغرافى حاجة إلى المرونة التى تظاهر صدق حسه الجغرافى ، فى إطار الأسلوب التحليلى التركيبى ، الذى ينبغى أن يلتزم به ، إلتزاماً موضوعياً ، وهو يستخلص ويصوغ أو يجسد التعليل .

ونجاح أو توفيق هذا الإجتهاد الجغرافى فى إستخلاص وتجسيد التعليل ، وحسن صياغته من خلال الأسلوب التحليلى التركيبى فى وقت واحد ، لا يمثل غاية مجردة أو مطلقة مطلوبة لذاتها . بل ينبغى أن يتخذ الإجتهاد الجغرافى من هذا التوفيق مطية أو وسيلة ، لكى يخطو خطوات مهمة ، من خلال البحث العلمى ، وصولاً إلى تصور موضوعى، يجسد العلاقة بين السبب والنتيجة . ومن ثم تصبح هذه العلاقة نتيجة موضوعية تضيف إلى الجغرافية إضافة معنية ، وهى — من غير شك — عدة الإجتهاد الجغرافى وعدته ، وهو يرسى قواعد وأسس أصلية وأصيلة ، تكسب الجغرافية صفاتها العلمية . هذا بالإضافة إلى انها تحدد مكان الجغرافية ومكانتها الحقيقية ، بين زمرة العلوم الطبيعية والإنسانية .

والربط قضية ثالثة ينتهى إليها الإجتهاد الجغرافى بعد أن يشبعه التعليل ويرضيه علمياً . ويعبر هذا الربط عن هدف موضوعى ، يلتزم به الإجتهاد الجغرافى إلتزاماً جاداً ، من أجل إستكمال موضوعية البحث وعمقه ، عن الظاهرة الجغرافية المعنية . ومن شأن هذا الإلتزام الجاد ، أن يحفز الإجتهاد الجغرافى ، ويدعو إلى أقصى درجات المرونة والانفتاح ، لكى يتلمس العلاقة أو العلاقات ، بين الظاهرة الجغرافية المعنية، وبعض الظاهرات الجغرافية الأخرى على مستوى المكان . وبنفس القدر من الحوافز ، يتطلع الإجتهاد الجغرافى إلى إدراك العلاقة أو العلاقات الموضوعية ، بين الظاهرة الجغرافية المعنية، وبعض الظاهرات غير الجغرافية .

ومن خلال الإجتهاد الجغرافى المرن ، ومن خلال حسن إستخدام الخبرة الجغرافية فى تقصى العلاقات ، التى تسفر عنها دراسة الظاهرة الجغرافية المعنية ، قد يتأتى إدراك فاعلية العلاقة أو العلاقات ، بين الظاهرة الجغرافية المعنية وغيرها من الظاهرات الأخرى ، سواء كانت هذه العلاقات سلبية أو إيجابية . وعندما يفلح هذا الإجتهاد الجغرافى فى إستشعار سلبية أوايجابية ، العلاقات من خلال أسلوب كاشف لماهيتها الإيجابية أو السلبية ، تتكشف له رؤية الأبعاد الجغرافية التى تعمل عمل العامل المؤثر، أو الضابط الحاكم للظاهرة الجغرافية المعنية.

ومن خلال تأكيد قدرة الإجتهاد الجغرافى على رصد وإدراك معامل الإرتباط ، وتحديد العلاقة بين الظاهرة الجغرافية المعنية ، وغيرها من الظاهرات ، يحقق تفوقًا بالفعل ، فى صميم العمق الموضوعى العلمى الباحث بمرونة وكفاءة عن أصول الظاهرة الجغرافية المعنية ، ومدى تأثيرها أو تأثرها بالظاهرات الأخرى . ومن ثم يتخذ الإجتهاد الجغرافى من هذا التفوق فى الربط مطية ، لكى يسجل بالفعل الإضافة أو المهامة ، لحساب الجغرافية ودورها البناء ، فى خدمة الإنسان بصفة عامة .

ولئن كان التوزيع والتحليل والربط ، يقود الإجتهاد الجغرافى فى مراحل تسفر عن صياغة البحث الجغرافى العلمى عن الظاهرة الجغرافية المعنية على مستوى المكان ، فإن تنفيذ العمل البناء لحساب هذه الصيغة يبنى على ثلاثة أمور ، هى ١- الدراسة الميدانية ٢- حسن إستخدام الخريطة ٣ - الإطلاع الواسع فى الدراسة المكتبية . وهذا معناه أن يعتمد الإجتهاد الجغرافى على هذه الأمور ، فى التجهيز والإعداد ، لعملية صياغة أو إنجاز البحث الجغرافى عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، ومعناه أيضًا أن يبدأ الاجتهاد الجغرافى فى أداء مهمته ، من بعد اثارة واستنفار الحس الجغرافى ، وتنشيط استشعاره للظاهرة الجغرافية المعنية .

إنجاز البحث الجغرافى :

عندما يعكف الإجتهاد الجغرافى على إنجاز بحث جغرافى ، يتعين إستطلاع المكان وتحديد ابعاده ، ووضع الإطار العام التى يتفرغ له هذا البحث . كما يتعين رصد الظاهرة الجغرافية المعنية ، فى حدود هذا

الإطار العام . ومن ثم تبدأ الخطوات الرتيبة التى تسعف الإجتهاد الجغرافى ، وهو يتقصى كل الحقائق ، التى تكفل تنفيذ وإخرج هذا البحث الجغرافى العلمى أو إنجازه انجازاً موضوعياً علمياً .

والدراسة الميدانية ، خطوة ميدانية فى الحقل ، وهامة لحساب هذا الإنجاز . وقد تستوجب الدراسة الميدانية أكثر من زيارة للمكان . وتكون الزيادة الأولى زيارة عامة تستهدف الرؤية الجغرافية والمسح الجغرافى العام(١)، ومن الجائز أن يضع الإجتهاد الجغرافى خطة ترشد الزيارات التالية ، سواء كانت زيارات عابرة سريعة للميدان ، أو كانت زيارات مقيمة لبعض الوقت فى الميدان . ولكن المؤكد أن تكفل هذه الزيارات المتوالية على فترات ، والزيارات المقيمة لبعض الوقت معايشة الظاهرة الجغرافية المعنية ، وإطلاق العنان للحس الجغرافى لكى يستشعرها ، وللإجتهاد الجغرافى ، لكى يستثمر رؤيتها وتأملها عن كثب ، أو لكى يجسد الإنطباع عن وجودها فى الميدان ، فى أحضان الصورة الجغرافية الكلية .

ومن الجائز أن تكون المعاينة أو المشاهدة المباشرة فى الميدان ، من وراء الملاحظة وإستطلاع الظاهرة الجغرافية المعنية ، فى إطار الرؤية الجغرافية المباشرة(٢). ولكن المؤكد أن الأقامة (٣) ، هى التى تكفل معايشة

---

(١) قادت المدرسة الجغرافية الفرنسية حملة ترسيخ مكان ومكانة فى الدراسة الجغرافية ، لحساب البحث الجغرافى . وفى تقدير هذه المدرسة ، أن الدراسة الميدنية رؤية مباشرة ومعاينة ومعايشة . تعطى الإنطباع المفيد عن الواقع الجغرافى فى الميدان . ولو حقق الإجتهاد الجغرفى حسن إستخدام هذه الدراسة الميدانية ، لأفلح فى نهاية الأمر فى إنجاز البحث الجغرافى الممتاز . (ومن أقوال فيدال دى لا بلاش عن الدراسة الميدانية)

« لا تسطيع الكتب وحدها – بقصد الدراسة المكتبية التى تعتصر إجتهاد الجغرافيين السابقين ، أن تؤلف أكثر من جغرافية متواضعة . وإذا ما أضيفت الخرائط إلى هذه الجغرافية المتواضعة كانت أفضل . ولكن الجغرافية الجيدة أو الأفضل ، هى التى تؤخذ من معاينة الطبيعة – يعنى الرؤية الجغرافية – واستطلاعها » .

(٢) كان الفريد هتتر من رجال المدرسة الجغرافية الألمانية ، الذين اعتبروا الدراسة الميدانية والمعاينة نقطة الإنطلاق الحقيقية ، التى يبدأ من عندها البحث الجغرافى الجيد .

(٣) تكون الاقامة camping فى بعض الأحيان فى موقع منتخب فى معسكر –

الظاهرة الجغرافية المعنية لبعض الوقت ، وتكون كفيلة بالاجابة على كثير من التساؤلات ، التى تتدافع فى عقل الباحث الجغرافى ، وهو يرقبها ويتأمل وجودها فى إطار الرؤية الجغرافية الكلية المباشرة فى الميدان . وما من شك فى أن تكرار الزيارات يكون – بالضرورة – وليد الحاجة ، التى يمليها الحس الجغرافى ، ويستجيب لها الإجتهاد الجغرافى، وهو يطلب كشف النقاب أو إجلاء الغموض ، عن بعض الضوابط الحاكمة ، من وراء الظاهرة الجغرافية المعنية (١) .

وفى كثير من الأحوال ، يجهز الباحث الجغرافى قائمة تضم كل الأسئلة ، التى يتلمس الحصول عن أصدق إجابة صحيحة وواقعية عنها من الميدان . بمعنى أن الباحث الجغرافى يطل على الظاهرة الجغرافية، وكأنه يقرأ كتاباً مفتوحاً يبصر رؤيته لها ، ويجيب على التساؤل الحائر عنها . وقد يضيف الباحث الجغرافى إلى تلك كله ، بعض الملاحظات الجوهرية التى تسترعى إنتباهه ، ويفطن إليها حسه الجغرافى ، وهو يستشعر وضع الظاهرة الجغرافية المعنية ، فى إطار الرؤية الجغرافية الكلية فى الميدان . وعندئذ يمسك الإجتهاد الجغرافى بأطراف خيوط بعض العلاقات الإيجابية والسلبية ، بين الظاهرة الجغرافية والظاهرات الأخرى .

ومن خلال الرؤية الجغرافية المتكررة وتسجيل الملاحظات، وتقصى العلاقات ومعايشة الظاهرة الجغرافية المعنية ، وإجلاء الغموض عن بعض أو كل الضوابط الحاكمة لها ، فى إطار الرؤية الجغرفية الكلية فى الميدان ، ينجح الإجتهاد الجغرافى فى خلق وإنشاء قنوات إتصال بين التجربة الحية من خلال المعاينة على الطبيعة فى الميدان ،والتجربة

= عمل جغرافى ، سواء اشترك فى البحث جماعته أو انفرد به واحداً من هذه الجماعة .

(١) وضع ديمارتون الجغرافى الفرنسى ، مبدأ الرحلات الجغرافية الجماعية لطلاب البحث الجغرافى فى الجامعة . وفى اعتقاده أن رؤية الفريق تعمق الخبرة بالمعاينة وتسجيل الملاحظات ، وتنمى إستخدام وتوظيف الحس الجغرافى ، فى جنى ثمرات الدراسة الميدانية

العملية من خلال العمل فى المختبر ، هذا معناه أن الدراسة الميدانية لا تسعف الإجتهاد الجغرافى ، فى توزيع الظاهرة الجغرافية المعنية فى المكان ، ولا ترشد البحث عن التعليل المقبول لهذا التوزيع الجغرافى فقط، بل إنها تبصر الإجتهاد الجغرافى ، وهو يمسك بزمام الربط بينها وبين بعض الظاهرات الأخرى ، أو وهو يستشعر ماهية هذا الربط وما ينبنى تأسيساً عليه فى إطار الرؤية الجغرافية الكلية فى المكان والزمان .

وهكذا نتبين كيف يطرق الإجتهاد الجغرافى باب الدراسة الميدانية ، وكيف يجنى ثمرة الانفتاح على الرؤية الجغرافية الكلية فى المكان . وعندئذ يتسلل من خلال الكل إلى الجزء ، وهو يعاين ويعايش الظاهرة الجغرافية المعنية فيه . وهذا – من غير شك – سبيل من أفضل سبل تجهيز الإستبيان ، وتلقى الردود على الإستفسارات من الميدان . بل انه سبيل إستيعاب الظاهرة الجغرافية المعنية ، الذى يشحذ الحس الجغرافى ويستنفر التأمل فيه ، وصولاً إلى تجسيد الرؤية الجغرافية للظاهرة الجغرافية المعنية .

والظاهرة الجغرافية المعنية ، سواء كانت طبيعية أو بشرية ، لا تتكشف أبعادها أمام الباحث الجغرافى ، ولا تفشى أسرارها له ، إلا من خلال هذه الدراسة الميدانية . ومن الجائز أن تتنوع أساليب وخطط البحث والعمل فى الميدان ، من موضوع إلى موضوع آخر ، أو من باحث إلى باحث آخر . ولكن المؤكد أن هناك إتفاق على جدوى هذه الدراسة الميدانية ، وهى تفتح للإجتهاد باباً ، وتبصره وتلهمه ، وصولاً إلى ما ينبغى أن يكون عليه البحث، من حيث الشكل، ومن حيث الموضوع بل قد تسعف الإجتهاد الجغرافى ، وهو يسجل الإضافة المفيدة عن الظاهرة الجغرافية المعنية .

وإستخدام الخريطة ، ضرورة حيوية لإنجاز البحث الجغرافى . وقد يكون هذا الإستخدام مسألة مفيدة إلى أبعد الحدود ، لحساب الإجتهاد الجغرافى فى الدراسة الميدانية أو فى الدراسة المكتبية على حد سواء . بل أنها تتمم مهمة الإجتهاد الجغرافى ، لدى إنجاز البحث وإعداده فى الصورة النهائية . ذلك أنها تشترك اشتراكاً مفيداً مع الكلمة المكتوبة فى وضوح الرؤية الجغرافية والتعبير عنها . وهذا معناه أن

استخدام الخريطة يسعف الإجتهاد الجغرافى ، فى أداء ترتضيه موضوعية البحث الجغرافى .

وهناك نوعان من الخرائط التى يهتم بها الإجتهاد الجغرافى ، ويتعين عليه إستخدامها لإنجاز البحث الجغرافى ، عن الظاهرة الجغرافية المعنية . والنوع الأول من هذه الخرائط ، يكون قد أعد سلفاً ومن شأن هذا النوع أن يعين الإجتهاد الجغرافى ، ويرشد خطاه فى أثناء الدراسة الميدانية أحياناً ، أو أن يعين الإجتهاد الجغرافى وتطلعه على ثمرات الإجتهاد الجغرافى الذى سبقه ، فى أثناء الدراسة المكتبية أحياناً أخرى . أما النوع الثانى من الخرائط ، فهو الذى ينكب الإجتهاد الجغرافى على إعداده بنفسه ، فى أثناء الدراسة الميدانية والدراسة المكتبية. ومن شأن هذا النوع أن يودع الإجتهاد الجغرافى فيه رؤيته الجغرافية وحصاد بحثه ، عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، بمعنى أن إستخدام هذا النوع الأخير من الخرائط التى ينجزها الإجتهاد الجغرافى، يحقق إضافة تدعم دوره البناء ، فى إنجاز البحث الجغرافى عن هذه الظاهرة .

وبقدر ما يسفر الإجتهاد الجغرافى عن بعض إضافات مفيدة ، تزخر بها الخرائط ، أو الرسوم البيانية ، وتسجل ثمرات المسح الجغرافى ، لحساب التطور والتجديد ودفع مسيرة الفكر الجغرافى الحديث إلى ما هو أفضل ، يتطلع الإجتهاد الجغرافى إلى استخدام الخرائط المجهزة بالفعل ، فيطل من خلالها على الظاهرة الجغرافية المعنية فى البحث . ومجموعة الخرائط الجاهزة أو التى يتولى الإجتهاد تجهيزها ، تمثل - بكل تأكيد - سجلاً دقيقاً يصور الرؤية الجغرافية للظاهرة الجغرافية المعنية . بل ويكون لهذه الخرائط من النوعين دائماً، تفوق الإيجاز فى العرض والتعبير ، عن غير خلل فى البيان ، أو من غير عجز فى التجسيد .

وينبغى أن نشيد أو نطرى الإجتهاد الصادق ، الذى تعاون فى إنجازه زمرة كبيرة من الجغرافيين والمساحيين والرسامين فى القرن العشرين ، وصولاً إلى إعداد الخرائط الممتازة . وقد وضعت هذه الخرائط بمقاييس رسم متنوعة ، لكى تصور أو تعبر عن الرؤية الجغرافية على مستوى العالم ، أو مستوى القارة ، أو مستوى القطر .

هذا بالإضافة إلى إعداد اللوحات التى تبين التوزيع الطبوغرافى والجغرافى ، فى إطار المساحات الصغيرة ، سواء صار تجهيزها باليد الماهرة الخبيرة ، أو تأتى تصويرها من الجو . وما زال الإجتهاد الفنى والجغرافى يعكفان على تحسين أساليب إعداد الخرائط وتجهيزها ، لحساب المعرفة الجغرافية الأفضل .

ومن أجل ترشيد الإجتهاد الجغرافى فى حقل الدراسة الميدانية ، يكون إهتمام الجغرافى بالخرائط وحسن إستخدامها اهتماماً من غير حدود . ويحفز إهتمام الجغرافى الخبراء والفنيون ، لكى يتوالى ابداع أو ابتكار القواعد الأصولية الأفضل وأساليب التنفيذ الأحسن ، لبيان التوزيعات وحسن دلالتها وجودة التعبير على الخرائط . ويتفق الباحثون فى حقول الدراسات الميدانية ، على أن حسن وصدق التوزيع الجيد على الخرائط السابقة التجهيز ، لحساب الظاهرة الجغرافية المعنية ، أو حسن إنشاء وإعداد وبيان التوزيع على الخرائط التى يجهزها الباحث، يخدم البحث الجغرافى الموضوعى ، ويبصر الإجتهاد الجغرافى الذى يتصدى له .

ولا ينبغى أن ننكر أو نتنكر للخرائط الجيدة والدلالة التى تعبر عنها، وهى تقود الباحث الجغرافى وترشد إجتهاده البناء ، عندما تتكشف له من خلال الرؤية الجغرافية العلاقات الإيجابية أو السلبية ، بين الظاهرة الجغرفية المعنية ، والظاهرات الأخرى التى يعبر عنها التوزيع على الخرائط . ومن الجائز أن يصبح هذا البيان الموجود الكاشف للعلاقات ، هدفاً مطلوباً فى حد ذاته . ولكن المؤكد أن هذا البيان يخدم الربط الموضوعى ، وهو غاية من الغايات ، التى تتكامل بموجبها البنية أو الصياغة الموضوعية للبحث الجغرافى عن الظاهرة المعنية .

والمطلوب من الإجتهاد الجغرافى فى حقل البحث أو الدراسة الميدانية[١] ، أو فى حقل البحث، أو الدراسة المكتبية[٢] ، أن يسعى – بكل

---

(١) الدراسة الميدانية Field Work دراسة عملية تجريبية تطالع الصورة الجغرافية المعنية فى المكان .

(٢) الدراسة المكتبية Arm-chair Work دراسة نظرية تأملية تطالع ما تحتويه الكتب والمراجع والمصادر .

الفطنة – إلى حسن التعبير وجودة الدلالة ، لدى توزيع الظاهرة الجغرافية المعنية ، على الخريطة التى يعدها أو يجهزها ، لحساب البحث والإضافة العلمية . والمطلوب منه أيضًا أن يحسن إستخدام الخرائط سابقة التجهيز ، وهى التى تسعفه ، وهو يستخلص النتائج المنطقية لحساب التعليل ، أو لحساب الربط اللذين يوطدان أركان البحث الجغرافى . وإذا كانت قوة الملاحظة وذكاء الحس الجغرافى ، وتفوق الإدراك والإستشعار فى إستخلاص الكل من الجزء ، أو إستخلاص الجزء من الكل ، مسائل حيوية وضرورية ، ينبغى أن يتزود بها الإجتهاد الجغرافى لحساب التعليل والربط ، فإن الجغرافى مهما أوتى من هذا الزاد ، فلن يغنيه فتيلاً عن حسن إستخدام الخريطة سابقة التجهيز ، وعن حسن تجهيز الخريطة ، وهو يجمع أطراف النتائج ويصوغ منها بحثه الجغرافى ، عن الظاهرة المعنية .

وبهذا المنطق ، أصبحت الخبرة الجغرافية المتفتحة والمنفتحة ، من وراء حسن التجهيز وصناعة الخرائط ووضوح دلالتها ، كما أصبحت الخرائط الجيدة ودلالة تعبيرها الواضح ، من وراء الخبرة الجغرافية المجددة والمتطورة . والخرائط الجيدة من غير شك – تيسر للإجتهاد الجغرافى مهمته ، وترشد أداءه وهى توجز التعبير الجلى الناطق بعمق وأصالة الرؤية ، التى أعدت وجهزت هذه الخرائط . وكيف لا تكون كذلك ، وهى تفتح الباب على مصراعيه ، لكى يتقصى الإجتهاد الجغرافى من خلال الرؤية المركزة الفكرة المفيدة ، ولكى يسجل الإضافة المجددة ، لحساب الرصيد المتطور للفكر الجغرافى الحديث .

ومهما يكن من أمر ، فلا ينبغى أن يقف تعبير الإجتهاد الجغرافى وبيانه عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، عند حد إستخدام الكلمة المكتوبة وحدها . بل يتعين عليه أن يستخدم الخريطة والرسم البيانى ، لكى يدعم هذا التعبير ، أو لكى يجسد هذه الدلالة ، لدى معالجة وعرض الحقائق الجغرافية عن الظاهرة الجغرافية المعنية . ومن خلال الكلام المكتوب والخرائط المعبرة يكون البحث الجغرافى–بالضرورة – أفضل .

والإطلاع الواسع هو حصاد الدراسة المكتبية عن الظاهرة

الجغرافية المعنية . وسواء كان القصد أن يبدأ البحث من حيث انتهى كل الإجتهاد الجغرافى السابق ، أو كان الهدف إثراء الخلفية والتزود برصيد عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، فإن الدراسة المكتبية تكون هادفة ومفيدة، لأنها تشد أزر الإجتهاد الجغرافى وتسعفه وتظاهره فى أداء مهمته. وهذا معناه أن الإجتهاد الجغرافى الذى ينكب على إعداد بحث عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، لا يبدأ ولا ينبغى أن يبدأ من فراغ ، بل ينبغى أن يلتزم هذا الإجتهاد بما سبقه إليه بعض الباحثين ، ويحرص على أن يكون حصاد بحثه إضافة مجددة إليه .

ومن خلال الدراسة المكتبية التى تكفل الإطلاع على المدى الواسع ، يجد الإجتهاد الجغرافى فى جعبته ، رصيداً من المعرفة والمعلومات والبيانات ، التى يتزود بها وتنفعه فى أداء دوره الوظيفى البناء ، لدى إعداد وتجهيز البحث عن الظاهرة الجغرافية المعنية . ولئن كان توسيع دائرة الإطلاع على الإنجاز الجيد ، الذى يثرى به التراث الفكر الجغرافى بحكم التخصص مسألة مفروغ منها ، لحساب حسن الصنعة والأداء ، فإن توسيع دائرة الإطلاع على نتائج بعض العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية مسألة ينبغى أن يلتزم بها الإجتهاد الجغرافى ، لحساب التفوق فى الصنعة والجودة فى الأداء .

ومن شأن الدراسة المكتبية التى تزود الخبرة الجغرافية بهذا الرصيد من النتائج ، أن تخدم ديناميكية التحليل والتركيب ، وهو يبدع فى إنجاز البحث الجغرافى ، بل ومن شأن هذه الدراسة المكتبية، التى تعمق الخبرة الجغرافية ، أن تصعد كفاءة التعليل والربط وتجسيد العلاقات وهو يدعم إنجاز البحث الجغرافى . وهذا معناه أن الدراسة المكتبية ، تفتح الباب على مصراعيه ، لكى يستخلص الإجتهاد الجغرافى أسباب الإبداع والدعم للبحث الجغرافى ، ولكى يسفر عن النتائج الموضوعية التى تضيف الجديد الى البحث الجغرافى ، عن الظاهرة الجغرافية المعنية.

ومن غير الإطلاع الواسع وحسن إستيعاب ما يسفر عنه هذا الإطلاع ، يفتقد الإجتهاد الجغرافى واحدة من أهم وسائله . وهو يمارس

البحث الجغرافى الموضوعى عن الظاهرة الجغرافية المعنية . كما يفتقد الإضافة إلى الإنجازات السابقة ، وتجنب الزلات التى إنحدرت إليها هذه الإنجازات . وكيف لا يفتقد الإجتهاد الجغرافى ذلك كله ، إذا هو إنغلق وإمتنع بقصد أو من غير قصد عن إستيعاب رؤية غيره ، أو تطويع النتائج العلمية التى تلهمه أو تسعفه وتظاهره ، لدى التعليل والربط وصياغة حبكة الموضوع شكلاً وموضوعًا . وهذا معناه أنه يتعين أن يتدرب الاجتهاد الجغرافى من خلال الدراسة المكتبية ، على أن يجعل من الإطلاع الواسع منهلاً يزوده ، ويشبعه وهو يؤدى دوره الوظيفى . ومعناه أيضًا أنه يجب أن يتدرب الإجتهاد الجغرافى على تجميع أوصال بحثه ، من هذا المعين ، قبل أن يبدع ويضيف ، وهو ينجز البحث الموضوعى .

وحاجة الجغرافى للاحاطة بنتائج العلوم الطبيعية وإستيعابها وحسن الإنتفاع بها ، تكون ملحة ومتوازية ، مع حاجته أيضًا للاحاطة بنتائج العلوم الإنسانية واستيعابها وحسن الإنتفاع بها . ومن شأن البحث فى الشق الطبيعى ، أو الشق البشرى من الجغرافية ، أن يدعو – بكل الإلحاح – إلى إستشعار هذه الحاجة والتزود بها . ومن ثم يلتزم الإجتهاد الجغرافى بتنمية خلفيته ، وإثرائها وتزويدها بهذه النتائج العلمية الطبيعية والإنسانية . والمقصود أن يمتلك الجغرافى معينًا لا ينضب زاخر بالخبرات العلمية . والمتوقع دائماً أن يسعفه هذا المعين الإجتهاد الجغرافى ويشد أزره ، فى دراسة الواقع الطبيعى أحيانًا ، وفى دراسة الواقع البشرى أحيانًا أخرى . وقد يحتاج الإجتهاد الجغرافى إلى تدريب ، يكسبه القدرة على إستخدام حصاد هذا المعين ، التى يسفر عنه الإطلاع الواسع والدراسة المكتبية .

الفكر الجغرافى الحديث وبنية علم الجغرافية :

عندما بلور الفكر الجغرافى الحديث أهدافه ، وحمل علم الجغرافية مسئولية هذه الأهداف ، انتهى ذلك إلى صياغة بنية علم الجغرافية، صياغة تصور أكبر قدر من الإستجابة لأهداف الفكر الجغرافى وتطلعاته . ومن المفيد أن يتبين كيف كانت صياغة هذه البنية ، التى ربما

دعت إلى وضع الجغرافية فى مكان مستقل بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية . وصحيح أن بعض المدارس الجغرافية قد وضعت الجغرافية فى كليات الآداب مع زمرة العلوم الإنسانية ، وأن بعض المدارس الجغرافية الأخرى قد وضعتها فى كليات العلوم مع زمرة العلوم الطبيعية ، وأن فريق ثالث فضل لها مدرسة مستقلة ، بين الوجود الاكاديمى للعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية . ولكن المؤكد أن كل هؤلاء قد أدركوا بنيتها متميزة وأن لها مكان ومكانة منفردة ومتفردة ، بين سائر العلوم .

وسعة إطلاع الجغرافى وغزارة مادته وتنوع ثقافته ورصيده الثقافى ، وحسن إستخدامه نتائج العلوم الطبيعية والإنسانية فى وقت واحد يحقق هدفه ، وربما دعت المجتهدين فى مجال تصنيف بنية العلوم، الى تصور علم الجغرافية على إعتبار أنه علم تركيبى بحت . بمعنى أنه علم ليس من ورائه أكثر من إجتهاد وخبرة فى صياغة التوليفة البارعة والتركيب الجيد الذى ينسق بين نتائج العلوم الأخرى . وصحيح أن صياغة هذه التوليفة البارعة أو التركيب الجيد ، تشهد بمهارة وحنكة وكفاءة الجغرافى ، وتعترف بقدرته على أن يحسن الإنتفاع بنتائج العلوم الأخرى إنتفاعًا موضوعيًا . لكن المؤكد أن هذا التصور يجسد جانباً من بنية علم الجغرافى ، وينكر أو يخفى – بقصد أو من غير قصد – الجانب الآخر .

ومع ذلك فكون الجغرافية علماً تركيبياً لا يمكن ولا ينبغى أن يقلل من شأنها أو شأن الأداء الجغرافى . ذلك أن حسن صياغة التوليفة البارعة المنسقة ، تعنى مهارة لأنها تستهدف غاية مفيدة ، تتمثل من خلال النتائج التى تسفر عنها هذه الصياغة . وفى هذه الصياغة . وفى كل علم نتوقع هذه المهارة ونطلبها . ولكن احداً لا ينبغى أن ينكر حقيقة إجتهاد الجغرافى ، وهو يؤلف من هذه النتائج ويبنى عليها نتائجاً مفيدة . وهذا معناه أن الجغرافى يضيف من حيث انتهى غيره من الباحثين . ومن الطبيعى أن يعتز بهذه الإضافات التى يسفر عنها دوره فى صياغة التركيب الجيد[1] . بل قل أنه يجد فى التركيب قدرة على دعم

---

(١) كل وردة على عودها السوى ، تكون جميلة فى حد ذاتها . ومن وراء كل=

مكانته فى المكان ، الذى تقف فيه الجغرافية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية .

ولكى نتبين الجانب الذى انكره أو لخفاه التصور غير الكامل لبنية علم الجغرافية ، ينبغى أن نطل من زواية أخرى ، ونجد كيف يحرص الإجتهاد الجغرافى على التعليل والربط الموضوعى على تلمس العلاقات. وهذا علامة على أن الجغرافية علم تحليلى أيضاً . وكيف لا يكون التحليل وارداً ، والإجتهاد لا يكف عن البحث طلبًا وتطلعًا إلى تعميق المعرفة بالظاهرة الجغرافية المعنية رأسيًا وأفقيًا ، وإلى تقصى حقيقة الضوابط الحاكمة لها . بل أنه إجتهاد لا يكف ولا يفتر ، وهو يتلمس التعليل والربط ، الذى يعمق التعليل الكاشف عن علاقة الظاهرة الجغرافية بما حولها فى المكان .

وفى هذا المجال التحليلى ، ينبغى أن نشيد بمهارة الإجتهاد الجغرافى ، وهو يحلل الظاهرة الجغرافية المعنية تأسيسًا على خبرة يظاهرها الرصيد ، التى يتزود به الجغرافى من خلال إستيعاب نتائج العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية . وبنفس القدر من الكفاءة فى التركيب الجيد وصياغة التوليفة ، التى تبرهن على حسن استخدام نتائج العلوم الأخرى ، تكون كفاءة الجغرافى ، وهو يحلل الرؤية الجغرافية تحليلاً واقعيًا علميًا . وهذا معناه أن علم الجغرافيا علم تركيبى وتحليلى فى وقت واحد . وهو كما قلنا يبدأ من حيث إنتهى الباحثين ، لكى يتم المهمة ويسجل النتائج المتخصصة .

وإجتهاد الباحث الجغرافى ، وهو يحلل الظاهرة الجغرافية المعنية ، ويجرى تشريحًا كاشفًا للرؤية الجغرافية ، أو وهو يركب الأوصال ويؤلف الصياغة المركبة التى تجسد الرؤية الجغرافية ، لحساب

- الورود الجميلة إجتهاد البستانى الذى غرسها ورعى نموها وتفتحها لكى تنطق بالجمال . ولكن هل يمكن أن ننكر أو نتنكر لإجتهاد الإنسان الذى يجمع هذه الورود الجميلة ، ويصفها صفًا بديعاً كى يصنع منها الباقة اكثر جمالاً وفتنة ؟

البحث وتسجيل النتائج الجغرافية المتخصصة ، يضع الجغرافية والجغرافى فى مكان مرموق بين زمرة الباحثين العلميين . ومن شأن الجغرافية كعلم تركيبى ، ومن شأن الجغرافية كعلم تحليلى ، أن تقيم الجسر ، لحساب العلاقة أو الصلة الموضوعية البناءة ، بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية . وبناء على ذلك التصور الكاشف لدور الجغرافى وأداء الجغرافى الوظيفى ، ينبغى أن نتبين - بكل الصدق - مكان الجغرافية بين العلوم ، ومكانة الجغرافى بين الباحثين . وكيف ولماذا لا يكون المكان مناسباً ؟ وكيف ولماذا لا تكون المكانة مرموقة؟ .

وهذا ويمكن التأكيد على أن الفكر الجغرافى الحديث ، الذى تبلورت أهدافه ، واستوى عوده منذ أواخر القرن التاسع عشر ، قد أفلح تماماً عندما وجه الجغرافية ، لكى تتخذ شكل وسمة وموضوعية العلم التركيبى التحليلى فى وقت واحد . وعندئذ افلح علم الجغرافية فى تحمل مسئوليته ، وهو يؤدى دوره الوظيفى المتخصص ، لكى يبصر ويرشد مسيرة الحياة فى المكان على الأرض . وقد نجد السبيل أو الميدان الرحب لكى نفهم وندرك ونقدر جدوى هذا الدور الوظيفى المتخصص . ويستوى فى ذلك أن يكون هذا الدور ايجابيًا ، وهو يقيم الصلة بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية ، أو وهو يحسن صياغة وإستخلاص النتائج الموضوعية المفيدة ، تأسيساً على هذه الصلة .

وهكذا إلتزم الفكر الجغرافى الحديث فى مسيرته التى بدأت بداية متأنية فى القرن السابع عشر ، ثم سددت خطاها فى القرن العشرين بولاء شديد ، للمهمة التى تكفل بها لحساب الحياة . وقد تكشفت لهذا الفكر الجغرافى الحديث اغوار المعين الذى نهل منه . وتعلم الإجتهاد الجغرافى كيف يثرى خلفيته ثراء عريضاً ، وهو ينطلق فى ميدان البحث الجغرافى الفسيح .

والجغرافى الصحيح فى القرن العشرين هو الذى تعلم كيف ينتفع بالمعين ويتزود منه بالخبرة ، وكيف يثرى خلفيته وينميها لحساب

البحث الجغرافى . بل إنه قد عكف على إتقان مهمته وأداء دوره الوظيفى أداء أصوليًا ومفيداً ، من خلال التركيب والتحليل فى صياغة وتجهيز البحث الجغرافى . ولقد تعلم بعد ذلك كله ، كيف ينبغى عليه أن يضيف بداية من حيث انتهى غيره من الباحثين ، وتعلم كيف يطوع إضافته بمهارة ، لحساب الحياة . هذا بالإضافة إلى أنه تعلم كيف لا يكف عن طلب الأفضل ، حتى أنه إستطاع أن يطور الفكر الجغرافى الحديث ، فى الصورة التى يطالعنا بها الفكر الجغرافى المعاصر ، إعتباراً من حوالى منتصف القرن العشرين .



خاتمة

الفكر الجغرافى المعاصر والجغرافية المعاصرة

- مقدمات ودواعى التغيير
- التقييم الجغرافى وإنطلاقه التغيير
- إنجازات الجغرافية المعاصرة

أ - التجديد فى العطاء

ب - التجديد فى الأداء

الفكر الجغرافى المعاصر والجغرافية المعاصرة

مقدمات ودواعى التغيير :

من بعد أن أفلح الإجتهاد الجغرافى ، الذى دفع أو حرك مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، وأخذ بزمامها فى الإتجاه الصحيح وبلور أهدافها ، ومن بعد أن أفلح الفكر الحديث ، الذى سخر الإجتهاد الجغرافى فى ترسيخ مهمة علم الجغرافية إعتباراً من النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، كان على علم الجغرافية الحديثة ، أن يحفز العمل أو الإنجاز الجغرافى ، لكى يؤدى دوره الوظيفى التخصصى فى النصف الأول من القرن العشرين .

هذا وما من شك فى أن هذا الإجتهاد الجغرافى المتوثب ، كان قد استوعب – بكل الفطنة – على المدى القصير ، كل التحولات والتغيرات، التى جعلت من الجغرافية علماً متخصصاً ومتفرداً ، يحتل مكاناً خاصاً بين سائر العلوم فى الإطار العام الجامع لها . والمؤكد أن علم الجغرافية الحديثة قد سعى لتعديل مسيرة هذا الفكر فى الإتجاه الصحيح ، وصولاً إلى ما هو أفضل .

ومن الجائز أن نتصور كيف تولى الإجتهاد الجغرافى المتوثب ، تحريك هذه المسيرة الفكرية بأكبر قدر محسوب من التوازى والتوازن، بين الوجهين الجغرافيين المتخصصين ، الطبيعى الكاشف عن الأرض وماهية الواقع الطبيعى فى المكان ، والبشرى الكاشف عن الناس وماهية الواقع البشرى فيه ، تحريكاً رشيداً متانياً . وقد سجل الإضافات وأبدع الإنجازات واستوعب فحواها ، ولكن المؤكد أن هذا الإجتهاد الجغرافى المتوثب ، قد امتلك ناصية الحوافز التى لحسن إستخدامها ، من أجل تصعيد وإستمرار تحرك المسيرة الفكرية الرتيب ، لكى يطاوعه علم الجغرافية ، ويستجيب لحاجة العصر ، وما ينطوى عليه من تطور وتغيير .

وهكذا كان المطلوب – بكل تأكيد – مزيداً من التطور والتجدد فى الفكر الجغرافى وفلسفته الواقعية ، بالشكل الذى يجدد ويحدد الأهداف

الأفضل للإجتهاد الجغرافى ، وهو يعمل لحساب الحياة . ومن ثم تعين على هذا الإجتهاد أن يطوع علم الجغرافية تطويعًا بالشكل الذى يحسن ويكثف الأداء الوظيفى التخصصى الجغرافى ، وهو يجاوب إرادة التطلع إلى الأفضل فى خدمة مسيرة الحياة ، التى تتسيد على الأرض ، وتنتصر لمصيرها الأفضل فى ربوع الأرض .

ومن أجل دفع عجلة التطور وعمليات التجديد والتجويد فى الفكر الجغرافى ، ومن أجل تكثيف وتطويع الخبرة الجغرافية الأحسن لحساب الحياة ، ومن أجل تصعيد كفاءة الجغرافية وتحسين جدوى البحث الجغرافى فى أحضان المكان ، من أجل ذلك كله ، كان من الضرورى أن ينعطف الفكر الجغرافى المعاصر ، انعطافاً باحثاً عن نقطة التحول ، التى يمتلك عندها أو يتخذ بموجبها القدرة ، على صياغة الجغرافية العلمية الأنسب لروح العصر، وارادة الحياة الأفضل فيه .

وهذا معناه – من غير شك – أن تولدت فى اعطاف الفكر الجغرافى الحديث ، فى أثناء سنوات النصف الأول من القرن العشرين ، قوة الدفع التى نشطت وأثارت واستنفرت وفجرت فى فلسفته الواقعية ارادة التغيير ، لحساب التجديد والتجويد ، والأخذ بمنطق وروح العصر . ومعناه أيضاً أن هذا الفكر الجغرافى الحديث ، الذى لا ولم ولن يكف عن حسن ترشيد الإجتهاد الجغرافى ، وتوظيفه فى إتجاهات أكثر واقعية ، وأكثر إستجابة لإرادة الحياة المتطورة ، قد حمل فى أحشائه بنتة التغيير وروح التجديد وارادة التجويد ، وتطلع إلى مخاض يسفر عن شكل جغرافى معاصر .

وفى إعتقادى – على كل حال – أن الحصاد المفيد والإنجاز الذى انجزته الجغرافية الحديثة ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، قد جاوب الفكر الجغرافى الحديث وطاوعه وأثراه وأرضاه . ولكن الأهم من ذلك كله أنه قد نمى فى هذا الفكر نبتة التغيير الكامنة فى أحشائه ، واستنفر فيه روح التجديد ، وفجر فيه ارادة التجويد . ولأن الجغرافية تتزود من هذا الفكر وتنهل من معين فلسفته وتجاربه ، فلقد اكتسبت قوة الدفع وقدرات التغيير ، على طريق التجديد والتجويد .

هذا وما من شك فى أن علم الجغرافية قد سخر هذه المكتسبات ووجه الإجتهاد الجغرافى وحفر أدائه الوظيفى التخصصى ونشطه ، لحساب هذا التجديد والتجويد فى وقت واحد . وبكل المهارة والكفاءة ، استجاب الإجتهاد الجغرافى لقوة الدفع المكتسبة ، وأسفر عن تجديد فى العطاء والإنجاز ، وعن تجويد فى الأداء والعمل ، وفى الحالتين اتسم التجديد والتجويد الجغرافى ، بمزيد من المرونة ، والموضوعية ، والعمق والواقعية فى خدمة الحياة .

وفى إعتقادى أيضاً أن المرونة والموضوعية والعمق والواقعية ، قد أوصلت العمل الجغرافى والإنجاز المجدد إلى نقطة التحول الحقيقية . وعندئذ قفزت الجغرافية قفزتها الحقيقية ، وأطلقت عنان الإجتهاد الجغرافى المتوثب ، من جمود النظرية البحتة وقيودها ، إلى مرونة التطبيق الهادف وتحرره .

وهذا معناه أن التحول الذى ساق الفكر الجغرافى فى طريق التغيير، وفجر فلسفته الواقعية التى واكبت روح العصر ، لا يكاد ينبىء بطفرة. بل أنه وليد نبتة التغيير فى أحشاء هذا الفكر . ولقد تبنى الإجتهاد الجغرافى هذا الوليد، وأولاه الرعاية ، وهو يستشعر الحاجة العصرية إليه . ولقد تمثلت هذه الحاجة العصرية ، فى أداء وظيفى تخصصى تطبيقى رشيد ، لكى يربى الخبرة الجغرافية ويبصرها وينمى قدراتها ، وهى تخدم مسيرة الحياة ، وتبصر عمليات التفاعل الحياتى ، لحساب الحياة الأفضل على الأرض فى المكان والزمان .

ومن الجائز أن زمرة من الجغرافيين من أبناء الجيلين الماضى والحاضر، قد أسهموا فى إنجاح هذ التحول عن طريق التجديد والتجويد. ولكن المؤكد أن معظم هذه الزمرة لم تستمع إلى صوت، يشعرهم بألم المخاض ، لدى ولادة الفكر الجغرافى المعاصر من الفكر الجغرافى الحديث . ذلك أن الولادة لم تكن عسرة . ولقد تمت من غير توجع شديد يلفت الإنتباه ، أو من غير ضجيج وصياح ، يبشر بهذا الميلاد السعيد . وربما وجد بعض أبناء الجيل المعاصر نفسه وعمله وإجتهاده الجغرافى ، وقد انساق فى تيار هذ الفكر الجغرافى المعاصر،

وإستجاب لفلسفته. وأسهم عندئذ فى ترسيخ علم الجغرافية المعاصرة، على نحو يخدم التجديد فى الإنجاز ، والتجويد فى الأداء الجغرافى التخصصى لحساب الحياة .

هذا ، وكان من الطبيعى أن يتحرر هذا الفكر المعاصر ، الذى أسفرت عنه إرادة التغيير ، من كثير من القيود والإلتزامات التى فرضتها الأهداف العتيقة ، التى كان قد تبناها وتطلع إليها الفكر الجغرافى الحديث. بل وكان من الطبيعى أن يجسد الفكر الجغرافى المعاصر أهدافه وغاياته ، وأن يلتزم الإجتهاد الجغرافى بها إلتزاماً موضوعيًا ومنهجياً ، فى إطار الأداء الجغرافى التخصصى العامل لحساب الحياة .

ومن الجائز أن علم الجغرافية الذى إلتزم بهذه الإلتزامات الجديدة ، قد وضع الإجتهاد الجغرافى الأفضل ، فى الموضع الذى يرضى الناس ويخدمهم ويشبع تطلعهم إلى المعرفة العميقة بالأرض وبالناس . ومن الجائز أيضًا أن نجد هذا الإجتهاد الجغرافى الأفضل ، وقد حقق النجاح الأكيد عندما يؤدى دوره الوظيفى ، وهو يستطلع ويميز ويجسد رؤية جغرافية كاشفة عن العوامل والضوابط من وراء الصورة الجغرافية التى تجسد الواقع الجغرافى الطبيعى فى المكان أحياناً ، أو التى تجسد الواقع الجغرافى البشرى فى المكان أحيانًا أخرى . ولكن المؤكد أن علم الجغرفية المعاصرة ، الذى تحرر وتطور إستجابة للفكر الجغرافى المعاصر وفلسفته الواقعية ، قد أطلق العنان لكل إضافة تجدد، ولكل إبداع يجود . وكان سبيله الأداء الجغرافى التخصصى الأفضل ، الذى يزج بالخبرة الجغرافية ويوظفها فى مجالات العمل التطبيقى ، لكى ترشد التفاعل الحياتى الأفضل بين الناس والأرض فى المكان والزمان .

والجغرافية كوعاء احتوى الفكر الجغرافى وإلتزام بفلسفته وأهدافه ، وهو حديث فى مراحل متوالية ، أو وهو معاصر فى الوقت الحاضر ، قد برهن دائمًا على كفاءة وقدرة فى مطاوعة هذا الفكر وإحتوائه والإستجابة له . بل لقد سخر علم الجغرافية الحديثة الإجتهاد الجغرافى المتخصص وألزمه بمشيئة أو إرادة الفكر الجغرافى الحديث وفلسفته ، سواء وهو يحقق أهداف هذا الفكر ، أو يثريه ، أو وهو يعظم

جدواه ، أو وهو يجدد إنجازه ، ويجود أدائه ، اعتباراً من نهاية القرن التاسع عشر . ومن ثم سار علم الجغرافية المعاصرة على نفس الدرب والترم بتطويع الإجتهاد الجغرافى لإرادة الفكر الجغرافى المعاصر وفلسفته ، سواء وهو ينمى ويحسن الأداء الوظيفى التخصصى أو وهو يضيف الإنجازات المجددة المفيدة . وهذا معناه أن علم الجغرافية يعرف كيف يطوع نفسه ، وكيف يطاوع الفكر الذى يعمل لحسابه . ومعناه أيضاً أن علم الجغرافية المعاصر قد جاوب ارادة التغيير والتحول ، الذى إنتهى إليها الفكر الجغرافى المعاصر . ومعناه مرة ثالثة أن الإجتهاد الجغرافى الذى يضع أهداف الجغرافية موضع التنفيذ ، قد طور أدائه تطويراً حقيقياً ، لكى يحقق أهداف التجديد والتجويد .

وصحيح أن الجغرافية فى النصف الأول من القرن العشرين ، قد استجابت وأحسنت أدائها الوظيفى المتخصص، عندما تولى الإجتهاد الجغرافى إشباع نهم الناس وتطلعهم بكل الشغف إلى المعرفة بالأرض ، وكيف تحتوى الحياة ونبضها المتطور . وصحيح أيضاً أن الجغرافية ، قد جاوبت بمهارة على كل التساؤلات التى أملتها الملاحظة والمعاينة ، سواء كانت الملاحظة عن الأرض ، أو كانت عن الناس فى أحضان الأرض ، أو كانت عن التفاعل الحياتى بين الناس والأرض . وصحيح مرة ثالثة أن الجغرافية قد أنجزت من خلال حسن إستخدام الأسلوب التركيبى التحليلى ، حسن تصوير أبعاد الظاهرات الجغرافية ، ومدى توزيعها وإنتشارها ، وحسن تعليل هذا التصوير وبيان ضوابطه ، وحسن صياغة العلاقات والربط بين الظاهرات الجغرافية ، وإستخلاص النتائج الموضوعية المفيدة لحساب الحياة والتفاعل الحياتى على الأرض ، ولكن الصحيح – بكل تأكيد – أن مهمة الأداء الوظيفى من خلال الإجتهاد الجغرافى ، قد زج بالفكر الجغرافى الحديث فى النصف الأول من القرن العشرين ، فى خضم زاخر بالجدل والنقاش الموضوعى ، لكى يسفر عن تفجير إرادة التغيير ، وما انتهت إليه من تحولات ، صنعت قاعدة ومفاهيم وأهداف الفكر الجغرافى المعاصر .

ومن المفيد – على كل حال – أن نتبين كيف انساق الإجتهاد

الجغرافى فى النصف الأول من القرن العشرين ، انسياقًا متأنياً وهادئاً فى الإتجاه الصحيح ، وصولاً إلى نقطة التحول التى أسفرت عن فلسفة وأهداف الفكر الجغرافى المعاصر . كما ينبغى أن نتبين كيف كان التجديد والتجويد ، الذى أكسب هذا الفكر الجغرافى المعاصر مكانة مرموقة ، فى خدمة البحث الجغرافى التطبيقى . بل ينبغى أن نتابع الإجتهاد الجغرافى ، ومدى نجاحه الذى بنى - بالضرورة - على إنغماس الفكر الجغرافى المعاصر فى فلسفة واقعية متطورة ، دعت وتدعو إلى أكثر من التأمل الشديد ، فى جدوى التفاعل الحياتى بين الإنسان والأرض وضوابطه . وما من شك فى أن الجغرافية المعاصرة ، قد طوعت مغزاها وطورت مرماها ، وإنكبت على البحث التطبيقى ، الذى تود أن تنتصر الجغرافية فيه لإرادة الحياة الأفضل ، فى كل مكان على الأرض .

وهذا معناه أن الجغرافية الحديثة التى طاوعت فلسفة الفكر الجغرافى الحديث وخدمت أهدافه ، قد وضعت الخبرة الجغرافية والبحث الموضوعى فى **خدمة الحياة** ، أما الجغرافية المعاصرة التى طاوعت فلسفة الفكر الجغرافى المعاصر ، وخدمت التجويد والتطوير فى أهدافه ، قد وضعت الخبرة الجغرافية والبحث الجغرافى التطبيقى فى خدمة **تحسين أحوال الحياة** . ويمكن القول أن هذا - بكل الإيجاز -هو جوهر التحول ، من أهداف سعت إليها الجغرافية الحديثة ، إلى أهداف تحققها الجغرافية المعاصرة فى الوقت الحاضر .

ولقد تأتى هذا التحول تأسيساً عل حصاد معركتين كبيرتين ، الأولى فكرية جدلية بحتة ، والثانية عسكرية حربية ، وتسبب حصاد هاتين المعركتين فى تفجير التغيير الجذرى ، الذى بنى عليه التجديد والتجويد فى مفاهيم الفكر الجغرافى ، الذى استحق أن يصبح عصرياً، وفى أداء الجغرافية المعاصرة التى تستوعب مفاهيم هذا الفكر ، وتحقق أهدافه ومتطلباته . ومن الجائز أن كل أولئك الذين اشتركوا فى هاتين المعركتين لم يفطنوا إلى إنهم يضعون الأساس فى هذا التحول الفكرى المثير ، ولكن المؤكد أن الأساس الذى يرتكز عليه هذا التحول الفكرى المفيد ، كان أساساً قوياً وسليماً .

وعن المعركة الأولى ، ينبغى أن نتصور مسألة الصراع الفكرى الجغرافى ، التى تأتت على المدى الطويل منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى . ولقد احتدم هذا الصراع الفكرى الجغرافى ، بين فريقين من المفكرين الجغرافيين ، الذين أسهموا بفكرهم فى صياغة فلسفة الفكر الجغرافى الحديث ، وباجتهادهم الموضوعى فى صياغة وترسيخ الجغرافية الحديثة ترسيخاً علمياً لحساب الحياة . وربما كانت البداية هادئة ، عندما تطلع فريق إلى التركيز على دراسة الأرض وتوجيه أقل إهتمام إلى وجود الإنسان على هذه الأرض ، وخالفهم فريق آخر وتطلع أكبر قدر من التوازن الموضوعى بين الإهتمام الجغرافى بالأرض، وهى تحتوى الناس ، وبالناس وهم يتسيدون على الأرض فى وقت واحد(١) .

هذا وسرعان ما تحول هذا الجدل الموضوعى وتصاعد، وإتخذ شكل الصراع الفكرى، بين فلسفتين متناقضتين ومتضادتين . ولقد تبنى فريق متشائم فلسفة فكر متزمت كبل إرادة الإنسان ، وسلم زمام مصيره واستسلم ، لكى تتقدم مسيرة الحياة ، على هوى وإرادة ما يمليه الواقع الجغرافى الطبيعى من حوله فى الأرض . وتبنى الفريق الآخر فلسفة فكر متسيب حرر إرادة الإنسان وسلمه زمام مصيره ، لكى تتقدم مسيرة الحياة على هوى وإرادة انتصاره، على تحديات الواقع الطبيعى من حوله فى الأرض .

ومن خلال الجدل الفكرى والنقاش الموضوعى المكثف، الذى أسهم فيه الفريقان المتضادان من المفكرين الجغرافيين ، بشأن تجسيد محصلة المواجهة، التى طالما وضعت الإنسان فى مواجهة التحديات ، وهو يتفاعل ويكد وينتصر لإرادة الحياة وتقدمها ، كانت النتائج التى توالت وأوصلت

---

(١) تمثل هذا التوازن الموضوعى من خلال تصاعد الاهتمام بالجغرافية البشرية الذى تبناه فيدال دى لا بلاش . ولقد فتح هذا الإهتمام باب الجدل مع فريق الحتم . بمعنى أنه لو لم ينتصر الفريق الذى وضع دراسة الإنسان فى مكانها الصحيح فى الإطار العام للجغرافية ، لما نشأ الفريق الذى أعترض ورفض واستنكر فكرة الحتم الجغرافى .. وهناك من يؤكد على أن عدم الإكتراث بالجغرافية البشرية لبعض الوقت، قد أساء للجغرافية كعلم موضوعى متخصص .

الفكر الجغرافى الحديث إلى نقطة التحول . ونقطة التحول معناها الظاهر أن يختار الفكر طريق الفلسفة المتزمتة ، ويتمادى فى تصور انصياع إرادة الحياة للأرض ، أو أن يختا ر طريق الفلسفة المتسيبة، ويتمادى فى تصور انصياع الأرض لإرادة الحياة . ولكن معنى نقطة التحول الحقيقى، أن يجد الفكر الجغرافى من يخرجه من مأزق الإختيار، وأن يرشده إلى فلسفة أكثر واقعية ، لا تستغرق فى التزمت ، ولا تتمادى فى التسيب .

وقبل أن نتصور كيف احتدم هذا الصراع الفكرى الجغرافى ، وكيف تصاعد وتشعب وحمى وطيسه ، بين هذين الفريقين المتضادين – بصرف النظر عن إنتماءاتهم للمدارس الفكرية الجغرافية الوطنية – وكيف وصل التفكير الجغرافى إلى نقطة التحول ، ووجد من انتشله ينبغى أن نؤكد على أن الإجتهاد الجغرافى النشيط والمتوثب من وراء هذا الصراع الفكرى ، قد أثرى الجغرافية الحديثة ثراء حقيقياً (١) ولكن المؤكد أنه قد أوقع الفكر الجغرافى فى حيرة شديدة ، دعت إلى التخوف عليه من أن يضل أو أن يضلل . ومن المفيد – على كل حال – أن نتابع هذا الصراع الفكرى ، لا لكى نتبين أبعاده ، بين فريق الحتم وفريق الإمكانية فقط ، ولكن لكى نصور كيف ساق هذا الصراع الفكر الجغرافى الحديث إلى موقف الحيرة ، وكيف وجد الاجتهاد الجغرافى السبيل الذى انتشله من هذه الحيرة ، لكى تبدأ نقطة التحول .

وفريق الحتم من الجغرافيين كان فريقاً صارماً ، وعلى رأسهم ديمولان وسمبل . ولقد جذب إنتباه هذا الفريق تصور غريب كبل إرادة الحياة . ولقد انغمس هذا الفريق فى الحتم والتأكيد على مدى انصياع الحياة، أو مدى إمتثال الإنسان وإستسلامه لإرادة الواقع الطبيعى وضوابطه من حوله فى أى مكان. ومن خلال نظرة متزمتة ، وضع هذا

---

(١) لقد زج هذا الصراع الفكرى بالجغرافية لكى يعمل الإجتهاد الجغرافى على هامش العمل التطبيقى . ومع ذلك كان ذلك فى إطار أكبر من الحذر لأن الخبرة الجغرافية لم تكن قد تهيأت بعد لهذا التحول من جمود النظرية إلى مرونة التطبيق

الفريق الإنسان ونشاطه وتاريخه وحياته وأنماط معيشته فى أى مكان ، فى إطار الحتم . ومن شأن هذا الحتم أن ينتصر للتصور الذى يفترض انسياق الإنسان ، وراء ما تمليه الضوابط الطبيعية ، وإلتزامه بما تهمس به الطبيعة فى أذنه ، لكى يواجه هذه التحديات ، ويحل عقدتها المستعصية، لحساب تقدم مسيرة حركة الحياة .

هذا وما من شك فى أن الفلسفة المادية ، قد صعدت أهمية الاستعانة بالاحصاء فى القرن التاسع عشر، إلى حد أخضع السلوك الإنسانى لبعض القوانين . وربما ظهر عندئذ وكأنه ليس حراً ، بل أسير ظروف وعوامل وقوى وقهر تخضع أرادته وتشكل حياته ، وتملى عليه أن يمتثل . والسؤال الذى ينبغى أن نبحث له عن إجابة ، هو أن نتبين مدى تأثر التفكير الجغرافى أنذاك ، بهذا الخط الذى أسفرت عنه الفلسفة المادية .

ومن الجائز أن هناك بعض مقدمات فلسفية يونانية قيمة كمنت من وراء هذا الحتم ، الذى كبل حرية الإنسان ، وإستهان بإرادته وقدراته ، على مواجهة تحديات الطبيعة من حوله فى المكان . ولكن الذى لا شك فيه أن فكرة الحتم الجغرافى لم تولد – بالفعل – إلا فى مهد الفكر الجغرافى الحديث ، والفلسفة التى نهل من معينها وفجرت إجتهاده ، وهو يرسخ علم الجغرافية ، يحمله مسئولية النظرية الفكرية الجغرافية، وما تبتغيه أو ترنو إليه من أهداف ، لحساب الحياة .

وربما جمح كارل ريتر فى إتجاه الحتم قليلاً ، عندما استشعر أثر البيئة فى الإنسان . ولقد تصور ريتر أن خصائص البيئة تكون من وراء أهم الخطوط العامة التى شكلت السلوك الإجتماعى ، ونمط التفاعل الحياتى بين الإنسان والأرض فى أحضان المكان . ولكن المؤكد أن ريتر لم يتورط فى خطيئة الحتم الجغرافى تورطاً حقيقياً . وهناك من يعتقد أنه أعطى للإنسان وزناً فى مواجهة أعباء الحياة . وهناك من يتهمه بأنه وضع البذرة ، ثم تبرأ منها .

وربما ناقش همبولت هذه المسألة أيضاً فى كتابه عن الكون ، عندما استشعر المواجهة بين الإنسان والبيئة . ولقد تصور همبولت أن

الإنسان قد يفر من هذه المواجهة ، ويتحلل من الإنتصار لإرادته وحياته. ولكن المؤكد أن همبولت أيضاً لم يتورط فى خطيئة الحتم الجغرافى تورطاً يدينه . وهناك من يعتقد أنه أطرى مقدرة الإنسان ، وجسد إمكان إنتصاره فى مواجهة أعباء الحياة . وليس هناك بالفعل من يتهمه بأنه شارك ريتر فى بذر بذرة الحتم ، حتى نتبين كيف تبرأ منها .

أما راتزل فلقد تمادى فى تبنى مسألة الحتم بشكل واضح وهو يصور أثر البيئة ومدى تأثر الإنسان بها ، وإستجابته لما تمليه . فى كتبه أكثر من دليل على تأكيد حتمية قوى الطبيعة على الإنسان ، وعلى أنماط حياته . ومع ذلك فينبغى أن نؤكد على أن قضية الحتم الجغرافى لم تأخذ شكلها الصارم المتزمت ، ولم تجسد انصياع الحياة للبيئة والعوامل الطبيعية ، إلا بعد راتزل . ويبدو أن أبوة راتزل كانت غير ناضجة . والإعتقاد السائد أن راتزل بلور الفكرة ، ولكن الذى نماها هو تأثر بعض الجغرافيين بكتابات بشل ، فى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكتابات فريدريك لبلية والتى عدل عنها فيما بعد .

ومع مطلع القرن العشرين وفى أحضان علم الجغرافية ، الذى انكب على أداء دوره الوظيفى ودراسة الإنسان ، تولى ديمولان الفرنسى تفجير صرامة البيئة ومدى تأثيرها على الحياة . ولقد تبنى هذا الجغرافى مهمة تجسيد الفلسفة ، التى تصور الحتم الجغرافى . ومن الجائز أن ديمولان قد تأثر بمنطق وفكر بعض الإجتماعيين من أمثال لبلية وتورفيل ، عندما صور كيف يتولى الواقع الجغرافى الطبيعى فى البيئة ، صياغة وتشكيل شخصية الجماعة ، وفرض نظامها الإجتماعى. ولكن المؤكد أن أراء ديمولان قد عكست صدى رأى راتزال وضخمته كثيراً .

ولقد أصر ديمولان على تصور مدى انصياع حركة الحياة للضوابط الحاكمة فى البيئة ، وهى تقبض على زمام المصير وتفرض عليها الإستسلام . كما جسد مدى إمتثال الإنسان واذعانه لما يمليه عليه الواقع الجغرافى الطبيعى ، فى المكان من حوله . بل لقد ذهب التعصب للفكرة الحتمية إلى أبعد من ذلك الحد ، عندما تصور ديمولان

كيف انه لو بدأ البشر حياتهم مرة أخرى من جديد فى أحضان الأرض، والواقع الجغرافى الطبيعى لم يتغير ، لأعاد التاريخ سيرته الأولى ، ولتكررت حركة الحياة ، وسارت أشواطها المتوالية ، على نفس الدرب من غير أدنى تغيير .

وهذا معناه حتمية جريئة بالفعل ، ومن غير تحفظ . ومن الجائز أنها ضلت ، بل وضللت وهى تسلب الإنسان جدوى إجتهاده وقدراته، فى مواجهة التحديات التى تعلنها البيئة . ولكن المؤكد أن هذه الجرأة قد امتهنت قدرات الإنسان وملكاته وابداعاته وأساءت إلى مدى اصراره، ونجاحه فى ابطال مفعول هذه التحديات ، أو تطويعها لإرادته الصلبة .

وهكذا تفنن ديمولان وتمادى فى التدليل على مدى الإنصياع الذى وصل فى إعتقاده ، إلى قاعدة أعلنت أن البيئة تشكل واقع المجتمع ونظامه الإجتماعى . بل لقد هلل حتى أفلح فى جمع فريق من الجغرافيين إلى صفه ، وفى صياغة فلسفة تدعم هذا التمادى فى الحتم . وانبرى هذا الفريق الذى استهوته فكرة الحتم الجغرافى ، وآمن بها إلى التبشير أو الترويج لمنطقها الصارم ، الذى يطعن فى حرية حركة الحياة على الأرض فى المكان والزمان .

ولقد انساقت مس سمبل بدورها فى إشاعة إقتناعها بالحتم الجغرافى . ومن الجائز أن حتمية مس سمبل كانت من طراز خاص لأنها أخذت منطق وأساس هذا الحتم كله من راتزل ، ولم تتأثر ببعض الإجتماعيين . ومن الجائز أنها بنت الفكرة على نتائج بعض التعميمات، واستخلصت منها قوانين تصور مدى تأثير البيئة على الإنسان ، ومدى إمتثال الإنسان لها . ولكن المؤكد أن مس سمبل قد إنزلقت إلى حضيض هذه الفكرة الحتمية الجريئة ، فى إمتهان قدرات الإنسان ، عندما تصورت مدى عجز الإنسان إلى الحد الذى يفرض عليه الإستجابة الكاملة ، لما تهمس به الطبيعية فى أذنه ، لكى يواجه التحدى ويمضى فى حركة مفروضة على الحياة .

وبصرف النظر عن جدوى الإجتهاد الذى قامت به لكى تجمع الأمثلة ، وتجسد الرؤية التى تصور مدى إمتثال الإنسان لإرادة البيئة ،

فلقد جاءت كتابة مس سمبل فى شكل من أشكال التعصب ، والإصرار على منطق الحتمية وفلسفتها وعلى أهدافها ونتائجها . وتعمدت لدى تجسيد بعض الأمثلة – فى بعض الأحيان – أن تلوى عنق الحقائق الجغرافية بشدة ، لكى تستخلص النتيجة أو التفسير الحتمى ، الذى تلمسته دائمًا . ولعلها قد جردت الإنسان تمامًا من حرية الإختيار ، ومن أى قدرة على تحديد مصيره فى المكان والزمان .

وما من شك فى أن هذا الفريق الذى روج للحتم الجغرافى ، قد أثار قضية فكرية جوهرية ، وخاض تجربة بحثية طويلة وصعبة فى سبيل الترويج لها أو الدفاع عنها . وكان من شأن هذا الفريق الذى افتتن بتأثير البيئة ، أن يتصور ويجسد قوة الضواغط البيئية التى تضغط على الحياة. بل لقد تصور أن حركة الحياة تتأتى من خلال العجز وعدم القدرة على معاندة أو توقيف أو تخفيض معدلات هذه الضواغط البيئية.. ومعنى ذلك – بكل تأكيد – فرض إرادة وقوة هذه الضواغط البيئية على الإنسان ، والاستهانة أو الاستخفاف بقدراته على إحباط أو إبطال أو تطويع مفعول التحديات التى تضغط وتفرض قوة الضواغط البيئية ضد ارادة الإنسان على الحياة . ومعنى ذلك أيضاً ، أنه بمقدار ما تكون الضواغط البيئية ، وبمقدار ما تهمس به البيئة فى أذن الإنسان ، يكون التأقلم أو التعايش فى أحضان المكان ، والإنسان صاغر ومرغم لا يملك حيلة غير الإمتثال .

هذا ، وكان من شأن هذا الفريق الذى انزلق إلى هاوية الحتم الجغرافى ، وتصور كيف تقود الطبيعة والقوانين الطبيعية فى البيئة حركة الحياة ، وكيف ينصاع الإنسان ، وهو صاغر لحركة الحياة الموجهة على طريق التقدم ، الذى حددت معالمه الخواص والضواغط البيئية من حوله ، أن يواجه الرفض الذى اشترك فيه فريق من المفكرين الجغرافيين وغير الجغرافيين (١) . ومن الجائز أن توخى الرفض

(١) كان دور كايم وهو غير جغرافى أشد المفكرين امتعاضا من فكرة الحتم، وما تنطوى عليه من إملاء ارادة البيئة والضواغط البيئية على حركة الحياة . –

الإنتصار لقدرات الإنسان التى امتهنت ولحريته التى انتهكت . ولكن المؤكد أنه رفض صارم ، لأنه طعن فى سذاجة وضيق أفق الحتميين .

ومن الطبيعى أن يتصدى بعض الإجتهاد الجغرافى وغير الجغرافى ، ويعلن الرفض لهذا الإنزلق فى قبضة الحتم الجغرافى ، وهو يستشعر أن البيئة لا يمكن أن تكون العصا السحرية ، التى تفرض قوة الضواغط وتحكم بها قسراً حركة وارادة الحياة . ومن الجائز أن أنقذ هذا الرفض الفكر الجغرافى الحديث ، من مغبة القبول بفلسفة ومنطق الحتم الجغرافى والتردى فى خطيئة تضلله . ولكن المؤكد أن إجتهاد هذا الفريق قد انتشل كرامة وقدرات وكفاءات الإنسان من مهانة الإستسلام ، لقوة الضواغط البيئية . ولقد تصور هذا الفريق أبعاد التأثير المتبادل بين الإنسان والبيئة ، لأنه قد استشعر قدرات الإنسان على مواجهة التحديات وإحباطها ، وعلى مقاومة الضواغط البيئية وتطويعها من ناحية ، واستشعر مدى إنتصارات الإنسان فى هذه المواجهات لحساب الحياة من ناحية أخرى .

ومعنى ذلك أن صيحات الرفض التى استنكرت فلسفة ومنطق فكرة الحتم الجغرافى ، قد تنكرت لإجتهاد الحتميين ، تنكراً شديداً . ومن الجائز أن فريق الرفض قد فند رأى الحتميين وقوض تصوراتهم من أساسها ، ولكن المؤكد أن هذا الفريق قد برهن على قدرات الإنسان وكفاءته وحقه فى الإختيار وتحريك المواقف لصالحه فى مواجهة كل الضواغط البيئية وما تعلنه ضد الإنسان من تحديات . ومعنى ذلك أيضاً – وهو الأهم – صيحات هذا الرفض المعلن ، الذى تصدى لفلسفة ومنطق الحتم الجغرافى ، كانت النذير الذى حذر الفكر الجغرافى ، حتى لا ينساق أو ينزلق فى تيار تعصب جغرافى ممقوت ، يلوى عنق الحقائق الجغرافية على هواه ، وهو يكبل ارادة الإنسان وينكر عليه قدراته وإبداعاته .

– ولقد تولى الرد على هذه الفكرة وفندها ، وبرهن على بطلان نتائجها المبنية على تعميمات لاتنتبه إلى الإختلافات العقلية والنفسية بين الناس .

وتأسيسًا على هذه الصيحات المعارضة والرافضة والمستنكرة ، فكرة الحتم الجغرافى ، وتأسيسًا على منطق وفلسفة الإجتهاد الجغرافى المعارض والرافض فكرة الحتم الجغرافى ، كان التيار الفكرى الجغرافى المعاكس . ولقد أسفر هذا التيار الفكرى الجغرافى المعاكس عن فكرة جديدة . وهى فكرة جسدت الرد الموضوعى، والتفنيد المنطقى على الحتميين . بل إنها كانت – بكل تأكيد – وسيلتهم لتحرير ارادة الإنسان، ولتقدير ملكاته ومواهبه وقدراته ، فى مواجهة الضواغط البيئية عليه .

ومن الجائز أن نتبين كيف استلهم هذا الفريق معارضته ، ثم صنع فلسفة فكرته الجديدة من خلال إجتهاده المضاد للحتميين ، ومن الجائز أيضًا أن ندرك كيف اعتصر هذا الفريق خبرته ، ثم جسد رؤيته الجغرافية الكاشفة عن مدى إنتصار الإنسان على الضواغط البيئية . ولكن المؤكد أن هذا الفريق الذى تبنى فكرة الإمكانية ، قد تلمس أوصال فلسفته ومنطقه ، من خلال استشعار كيف يطوع الإنسان الأرض للحياة ، بشكل ينبىء أنه لا يمتثل ولا ينصاع ولا يترك زمام مصيره، لكى تلعب بها الضواغط البيئية وهو مكتوف الأيدى .

وفريق الإمكانية الذى قاده لوسيان فيفر ولا بلاش كان فريقًا متفائلاً بالإنسان ومؤمنًا بقدراته . ولقد حرك هذا الفريق التيار الفكرى المعارض للحتم الجغرافى ، فى مطلع القرن العشرين . ولم يقف إجتهاد هذا الفكر المعارض عند حد الرفض فقط ، بل تمادى فى نداء يعلن إحترام وتقدير كفاءة الإنسان وقدراته . بل ولم يقبل هذا الفريق منطق الإلتزام والإنصياع والإستكانة ، لما يمليه الواقع الطبيعى فى البيئة ، أو لما يمكن أن تهمس به البيئة فى أذن الإنسان ، لكى يطوع ذاته وأسلوب حياته للبيئة ويطاوعها .

وهكذا رفض فريق الإمكانية الذى انتصر لارادة الحياة ، وقدر كفاءات الإنسان مسألة القوانين الطبيعية التى بناها الفكر الجغرافى الحتمى على تعميمات ، وحاول أن يطبقها من غير وعى ، أو ادراك لمواهب الإنسان . بل لقد استشعر أن هذه التعميمات قد تنطوى على

مغالطات تنطلى على ذوى الغفلة فقط . ومن ثم إنطلق تفكير هذا الفريق الذى حرر ارادة الإنسان إلى الإجتهاد الجغرافى المكثف ، لكى يتلمس ويستشعر ويجسد مدى كفاءة وقدرات ومواهب الإنسان ، وهو ينتصر لارادته وحياته على الضواغط البيئية .

وعندئذ أصبح الإنسان فى بؤرة إجتهاد هذا الفريق الجغرافى ، لا يمثل وجوداً سلبيًا ، أو وجوداً قابلاً للاستسلام . بل وتلمس هذا الإجتهاد الجغرافى مواهب الإنسان وقدراته وكفاءته ، وكيف كانت تسعفه وتبصره وتنتصر له ، فى مواجهة قوة الضواغط البيئية ، وكيف أسفر إنتصار الإنسان عن تفوق حقيقى جعله سيد مصيره فى أى مكان. ولقد تكشف لهذا الفريق المتفائل والمعجب بالإنسان ، أن الصمود فى مواجهة التحديات وقوة الضواغط البيئية تفجر أو تكشف عن قدر معلوم من الضبط البشرى الحاكم المضاد ، وأن هذا الضبط البشرى يطلق يد الانسان لكى يطوع أو يحبط أو يبطل مفعول هذه التحديات الطبيعية . بل أنه يملى على البيئة – بالفعل – أسباب وحقيقة وروائع انتصاره للحياة ، ودعم مسيرتها فى الإتجاه الأفضل .

هذا ، ونود أن نؤكد على كفاءة فريق الإمكانية ، فى تلمس منطق الرفض الحاسم لفلسفة ومنطق فكرة الحتم الجغرافى ، وفى شجب وصاية الطبيعة وهيمنتها وفرض ارادتها على مسيرة الحياة . بمعنى أن هذا الرفض كان موضوعياً ، ومن خلال إجتهاد جغرافى متحمس للإنسان ، وكفاءة الإنسان . بل لقد تبنى هذا الفريق فلسفة واقعية، ومنطق سوى يدرك فاعلية قدرات الإنسان ، ومدى تحررها فى التسيد على مصير الحياة فى الأرض .

ومن الجائز أن نظر هذا الفريق إلى الطبيعة نظرة موضوعية. ومن الجائز أيضًا أنها استخفت بها ، وهى ترشد وتبصر حركة الحياة . وهذا وهو ما اعتبره الفريق الآخر إلزام وإملاء وفرض ارادة ولوى ذراع الحياة . ولكن المؤكد – على كل حال – أن رؤية هذا الفريق للطبيعة فى البيئة ، بصرف النظر عن مدى حنوها على الحياة ، أو عن مدى قسوة ضواغطها وتحدياتها على الحياة ، كانت رؤية عادية ومتفائلة . وفى

اعتقادهم أن الطبيعة لم تسلب الإنسان حريته فى الإختيار ، ولم تفقده قدرته على الإنتصار ، فى أى مواجهة بينهما بشكل أو بآخر ، ولم تحبط حرصه على التشبث بزمام مصيره ، فى أحضان الواقع الطبيعى فى البيئة .

وبهذا المنطق الموضوعى ، تولى الإجتهاد الجغرافى الذى أكد من خلاله فريق الإمكانية رؤيته وفلسفته وفكرة ، دراسة موقف الإنسان وقدراته فى مواجهة التحديات البيئية دراسة مكثفة على أوسع مدى فى إطار التنوع البيئى . ولقد استشعر هذا الإجتهاد الجغرافى -- بكل تأكيد- مدى قبول الإنسان بالتحدى قبولاً إيجابياً ، فهو لا يفر ولا يستدبر . كما أنه لا ينصاع أو يمتثل لها . واستشعر هذا الإجتهاد الجغرافى أيضاً قدرات الإنسان ، وهو يضع صيغة أو صيغ الضبط المتفاوت ، التى اعتمد عليها دائماً فى إحباط أو إبطال أو تطويع مفعول هذه التحديات الطبيعية ، إنتصاراً لارادة الحياة ، فى أى بيئة .

وينبغى أن نؤكد على أن إجتهاد هذا الفريق ، قد احترم قدرات الإنسان ، ووضع هذه القدرات فى مكانة ، اعطته السيادة على الأرض ، وعلى مصيره على الأرض ، بجدارة وإستحقاق . وفى اعتقادهم -- وهذا صحيح -- أن هذا الضبط البشرى ، الذى أكد سيادة الإنسان على الأرض، هو الذى قاد وكفل تحرك الحياة فى الإتجاه الأفضل . وفى اعتقادهم أيضًا ، أن الطبيعة وضواغط البيئة ، هى التى فجرت هذا الضبط البشرى، وأنها لم تكن أبداً لها فضل قيادة تحرك الحياة ومسيرتها ، فى الإتجاه الأفضل .

وإقتناع هذا الفريق الرافض للحتم الجغرافى ، وإدعاءه بأن الطبيعة لا تهمس فى أذن الإنسان فيطاوعها ، وبأن الطبيعة لم يكن لها فضل ريادة التحرك فى إتجاه الحياة الأفضل ، إدعاء لم يبدأ من فراغ . بل أن الإقتناع بالرأى المضاد لم يكن عبثاً . وما شك فى أن هذا الإقتناع قد تولد بعد مراجعة تراث الوجود الإنسانى ورصيده على المدى الطويل مرة ، ومن بعد تأمل وتدبر فى كفاءة الضبط البشرى الرادع للتحدى فى أحضان البيئة مرة أخرى .

هذا وينبغى أن نؤكد على أن هذا الإقتناع قد نماه وأكده الإجتهاد الجغرافى ، الذى عكف على حساب مدى زيادة معدلات فاعلية وجدوى إنتصارات ، الضبط البشرى الرادع للتحدى البيئى ، مع كل خطوة تخطوها مسيرة الحياة حضارياً . وفى تراث الإنسان - بالفعل - بينات كثيرة تعلن عن صدق هذه الرؤية الجغرافية الصادقة ، وتسجل مدى تصاعد الإبداع والتفنن فى إحباط ، أو إبطال ، أو تطويع مفعول التحديات من عصر إلى عصر آخر ، وتصور وتجسد الإنتصار الحقيقى لحساب الحياة . ومن ثم ينبغى أن ندرك كيف أن تولد نمو وترسيخ الإقتناع بانتصارات الإنسان ، قد أطلق العنان لكى يشطح الإجتهاد الجغرافى ، ويتمادى فى تصور مدى تعاظم قدرات الإنسان وتصاعد إمكانياته من غير حدود ، إلى حد قهر وإملاء ارادة الحياة ، إنتصاراً وتفوقاً مطلقاً لحساب حركة الحياة .

ومن الجائز أن يكون هذا الإقتناع الذى أسفر عن فكرة مضادة للحتم الجغرافى ، قد شط وشطح وتمادى فى إطلاق العنان لقدرات الإنسان . ولكن المؤكد أن الفكرة المضادة للحتم قد بنيت على أسس فلسفة ومنطق وتفكير سوى إلى حد كبير . وإلا فكيف يمكن أن ننكر أو نستنكر العلاقة الإيجابية بين إجتهاد الإنسان وكده وجدوى قدراته المبدعه من ناحية ، وما أسفر عنه هذا الإجتهاد من نجاح وتفوق ، وهو يضع التقدم الحضارى والإجتماعى والإقتصادى من ناحية أخرى ؟

* * *

ومهما يكن من أمر هذا الصراع الفكرى الذى بدأ منذ سنة ١٨٩٣ - بصرف النظر عن مقدماته فى مراحل سابقة - ثم احتدم وحمى وطيسه فى العشرينات من القرن العشرين بين فريقين متضادين ، فإنه كان - قبل كل شيء - صراعًا فكرياً جغرافيًا مفيداً وحيوياً بالدرجة الأولى ، لحساب الفكر الجغرافى الحديث وفلسفته . وفى الوقت الذى انكب فيه فريق الحتم الجغرافى الذى كبل ارادة الإنسان وحدد أبعاد قدراته وصور مدى إستجابته وانصياعه للضواغط البيئية ، انبرى الفريق الآخر وأطلق العنان لقدرات الإنسان وإمكانياته من غير

حدود ، وهو يطوع الواقع البشرى الطبيعى ، لارادة الحياة ولا يكاد يطاوعه .

ولقد دعا هذا الصراع الفكرى المتضاد ، أول ما دعا إلى عمق البحوث الجغرافية عن الإنسان ، الأمر الذى وضع وثبت دعامات الإجتهاد الجغرافى لحساب الجغرافية البشرية . بل لقد أطلق العنان للدراسة الميدانية والمسح الجغرافى ، على أمل أن يجمع كل صاحب رأى النماذج التى تدعم رؤيته ، وأن يتدبر فى الرؤية الجغرافية التى تضع قدرات الإنسان فى مكانها ومكانتها الحقيقية . ومن ثم كانت التجربة العريضة – بكل ما احتملته من صواب أو خطأ – تجربة مفيدة لأنها أسفرت عن شكل من أشكال الإنفتاح والتفتح الفكرى الجغرافى ، فى النصف الأول من القرن العشرين .

وعن الإنفتاح نقول إنه مفيد ، لأنه تسبب فى ثراء حقيقى ، وإنجاز عظيم ، ورصيد ضخم ، اعتز به الفكر الجغرافى الحديث وازدحمت به المكتبة الجغرافية . كما نذكر كيف أنه بصر الإجتهاد الجغرافى ، وأكسب الخبرة الجغرافية مزيداً من المرونة ، من غير تجنى أو تجاوز الموضوعية ، لحساب البحوث الجغرافية. وعن التفتح نقول أنه أكثر فائدة ، لأنه تسبب فى شحذ بصيرة الإجتهاد الجغرافى ، وتنمية قدرات التأمل والتدبر والتفكير ، التى انكبت على تمحيص الرؤية الجغرافية وإستخلاص النماذج والنتائج التى تدعم فكرة الحتم أو التى تدحضها . كما نذكر كيف أن هذا التفتح قد وضع بذرة أو نواة التجديد والتجويد فى أحشاء الفكر الجغرافى الحديث ورعاها ، وهو يتطلع إلى ما يمكن أن تسفر عنه أحياناً ، وإلى ما ينبغى أن تعطيه أحياناً أخرى .

وقل أن الحتمية تجسد الموقف المتحيز للطبيعة الذى يستخف بالإنسان ، وأن الإمكانية تجسد الموقف المتحيز للإنسان الذى يستخف بالطبيعة. وهذا الموقف المتحيز مرفوض فى الحالتين ، لأنه يعنى الحكم غير المتوازن ، على أى من الطرفين ، الطبيعة وخواص الأرض ، والإنسان وحركة الحياة . ومن ثم قل أن النظرة المتوازنة هى التى ينبغى أن تكون فى مجال تحرى أبعاد العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، وهو يتعامل معها وهى تطاوعه ، وهى تجاويه .

ويستوجب الموقف غير المتحيز أو الموقف المتوازن للعلاقة بين الطبيعة وخواص الأرض فى جانب والإنسان وحركة الحياة فى جانب آخر، استشعار أن الطبيعة تضبط وتنضبط وأن الإنسان يضبط وينضبط فى وقت واحد . بمعنى أن هذه العلاقة تتأتى تحت مظلة الضبط والإنضباط المتبادل . وتحت هذه المظلة تكون المواجهة التى تنتهى إلى تحديد نقطة فاصلة ، بين المباح الذى يستوجب أن تطاوع الأرض الإنسان وتجاويه ، وغير المباح الذى يستوجب عدم إقدام الإنسان على التعامل مع الأرض لأنها لن تطاوعه .

هنا وتتحرى **التعادلية** استشعار الضوابط الطبيعية ، وهى نتيجة لقوة فعل عناصر الطبيعة المتداخلة فى توليفة المنظور الجغرافى الطبيعى للأرض . كما تتحرى أيضاً هذه التعادلية استشعار الضوابط البشرية ، وهى نتيجة لقوة فعل إمكانيات وقدرات ، وهى متداخلة فى توليفة المنظور الجغرافى البشرى للإنسان . وتحسب **التعادلية** حساب التغيير الذى يتأتى عندما يشتد عود الإنسان وتتطور قدراته ، فيبادر إلى تحريك النقطة الفاصلة بين المباح وغير المباح لحسابه أو لحساب تعامله الأفضل . كما تحسب هذه التعادلية حساب التغيير الذى يتأتى عندما تتغير خواص الأرض ، وتباغت الإنسان وتبادر بتحريك النقطة الفاصلة بين المباح وغير المباح لحسابها ، وخصماً من حساب الإنسان .

ويبقى القول بأن التعادلية (Equalism) تحمل الإنسان مسئولية المبادرة ، بأن تكون العلاقة بينه وبين الطبيعة وخواص الأرض منضبطة حتى تطاوعه ولا تخذله . وهو مسئول أيضاً عن التربص بالطبيعة وتجنب المباغتة ، لكى لا يفقد الإنسان حقه فى التعامل مع الأرض . بل قل هو مسئول مرة أخرى عن المحافظة على استمرار هذه العلاقة ، وتحرى المحافظة على استجابة الأرض ، وتخفيض معدلات الضغط عليها تجنباً لافسادها وتلوث البيئة .

كما يجب أن نقول أيضاً أن الوصول إلى نقطة فاصلة ، بين المباح وغير المباح ، وهى متغيرة وغير جائز ثباتها ، يكون معناها أنها تجسد شكلاً من التصالح بين الطبيعية والإنسان . وهذا التصالح ، الذى يجيز

للانسان أن يتعامل مع الطبيعة فى إطار المباح فقط، ولا ينبغى أن يتجاوز هذا المباح إلى غير المباح حتى لا يتحمل عواقب هذا التجاوز . ولأن هذه النقطة الفاصلة بين المباح وغير المباح متغيرة يجب أن يواجه الإنسان كلما تطورت قدراته الطبيعة من جديد ، ويعمل بما فى وسع تكنولوجيته لزحزحة هذه النقطة ، زحزحة تكفل زيادة مساحة المباح على حساب تناقص أو تقلص مساحة غيرالمباح .

وتفكير جغرافى جاد ونشيط ، بكل هذا التفتح والإنفتاح ، قد أدى بالضرورة إلى إبداع جديد ومفيد . ولقد تمثل هذا الإبداع ، عندما انكب الإجتهاد الجغرافى بذكاء وحنكة ، على تقييم دور الإنسان ودور الضواغط الطبيعية ، فى إطار ملحمة المواجهة بينهما بين أحضان البيئة ، تقويماً جغرافياً . وأصبح هذا التقييم الجغرافى مصدر رؤية ومنبع حكم رشيد ، عندما يتخذ منه الإجتهاد الجغرافى ، بعداً من أبعاد العمل فى خدمة عمق وموضوعية البحث الجغرافى .

ولقد أضيف هذا **التقييم الجغرافى** إلى التوزيع والتعليل والربط، من أجل صياغة وتكامل البحث الجغرافى وصولاً إلى أهدافه . بمعنى أن الإجتهاد الجغرافى الذى حدد مسيرة البحث الجغرافى من خلال التوزيع والتعليل والربط ، استجابة لصياغة البحث كما أراد له الفكر الجغرافى الحديث أن يكون ، قد أضاف التقييم الجغرافى لكى يتكامل ويتعمق البحث فى أحضان الفكر الجغرافى المعاصر . بمعنى أن قضية التقييم الجغرافى التى أسفرت عنها ملحمة الإبداع الفكرى بين الحتميين والإمكانيين ، أصبحت العلامة التى بشرت بالتجديد والتجويد. ولقد نقلت الف الجغرفى إلى أحضان فلسفة جديدة ، لكى يطوع العمل الجغرافى العملى ، فيساير ويجاوب حاجة العصر .

ومن الجائز أن يكون التقييم الجغرافى نقطة تحول ، حيث أنهى فلسفة ومنطق ومهمة الفكر الجغرافى الحديث ، وحيث حمل الفكر الجغرافى المعاصر مسؤلية فلسفة ومنطق ومهمة متجددة . ومن الجائز أن أصبح التقييم الجغرافى نقطة تحول ، يبدأ من عندها الأمل، لكى يتحول العمل الجغرافى من جمود النظرية إلى مرونة التطبيق .

ولكن المؤكد أن الإجتهاد الجغرافى لم يوسع قاعدة استخدام التقييم الجغرافى، ولم تقتحم مجالات التطبيق فى إطار فلسفة ومنطق الفكر الجغرافى المعاصر ، إلا من بعد صيحات وصيحات تصاعدت هنا وهناك ، وألحت وطلبت من الجغرافية أن تقتحم مجالات التطبيق .

وقل أن هذا التحويل الذى تأتى ، وقد هيأ العمل الجغرافى لأن يقتحم ميادين العمل التطبيقى ، قد أدى إلى إنهاء مرحلة الوصف الجغرافى **التصويرى التفسيرى** ، لكى تبدأ مرحلة الوصف الجغرافى **التصويرى التفسيرى التقويمى** . بمعنى أن أصبح الجغرافى معنيًا بثلاثة إهتمامات هى :

١ – معاينة وملاحظة الصورة أو المنظور الجغرافى الطبيعى أو البشرى والتدقيق فى العناصر المتداخلة فى توليفته .

٢ – تحرى التفسير أو التعليل الذى يفسر ما تتحدث به وعنه الصورة الجغرافية ، وتداعيات العلاقات بين عناصرها .

٣ – التمعن فى عمق التعبير الذى تنطق به وتعبر عنه الصورة الجغرافية ، والتماس التقويم الجغرافى الذى يحسب حساب جدوى الأبعاد المشتركة فى صياغة وتكوين الصورة فى المكان والزمان .

وما من شك فى أن الجغرافية قد جاوبت هذه الصيحات ، وأقدمت على الإقتحام الكبير ، الذى يعنى التغيير الحقيقى فى الأداء الوظيفى التخصصى ، ويعنى أيضًا بداية المرحلة التى يعيشها الفكر الجغرافى المعاصر ، بكل مقومات ونزعات التجديد والتجويد فى العمل الجغرافى ، لحساب التطبيق فى خدمة الحياة . ومن المفيد – على كل حال – أن نتبين متى وكيف ولماذا تعالت هذه الصيحات التى نادت على الجغرافية وإستجارت بها ؟ ، ومتى وكيف ولماذا استجاب الفكر الجغرافى وسخر الإجتهاد وطور العمل وحمله مسئولية التقييم الجغرافى لحساب التطبيق فى خدمة الحياة ؟

* * *

وهنا يبدأ الحديث عن **المعركة الثانية** ، وهى ملحمة صراع

وحـرب وقـتـال شـهـدتهـا سنوات من القـرن العـشـرين بين فـريقين متصارعين هما فريق الحلفاء وألمانيا وحلفائها. وغريب أمر معركة حربية ، تكون ضراوتها من وراء عملية تحول الفكر من فلسفته ومنطقه التي سخرت العمل الجغرافي قبل الحرب ، إلى فلسفة ومنطق الجديد الذي سخر العمل الجغرافي بعد الحرب . ومع ذلك فلا وجه للغرابة ، والجغرافية علم يؤدي دوره في خدمة الحياة . وكان عليه أن يجاوب أي صيحة تدعوه لكي ينصر الحياة ويبصرها .

ومن الجائز أن الحرب العالمية الأولى كانت هديراً وهجيراً ، تلظت بها الدنيا وتضررت من جرائها الحياة . ومن الجائز أن كانت هذه الحرب معارك كر وفر على الأرض الأوروبية وفيما وراء البحار ، ولكن المؤكد أن استسلام فرنسا قد زج بالحلفاء في المحنة ، و تحملت بريطانيا – البقية من الحلفاء – وطأة ومرارة هذه المحنة وهي تواجه الحرب الضارية – على مدى أعوام – وتحت وطأة الضرب الجوي المباشر ، ووطأة الحصار البحري الألماني الذي أغرق معظم إمدادات التموين والعتاد والغذاء إليها ، كانت صيحة التوجع البريطانية ، التي نادت على أبنائها من الجغرافيين ، وتطلعت إلى إجتهادهم في دعم صمودها ، وهي تواجه الخطر والموقف العصيب .

هذا ولم يكن غريباً أن تصدر الصيحة إلى الجغرافيين الذين كانوا قد نزلوا إلى الميدان البريطاني بالفعل اعتباراً من سنة ١٩٣٠ . ومن الطبيعي أن ندرك كيف أن العمل الجغرافي ، قد انكب من خلال الدراسة في الميدان على إجراء مسح لاستخدام الأراضي . ومن الطبيعي أن نجد قصة تحتوي على مدى إجتهاد الجغرافيين في أداء هذا الجرد القومي . ولكن الأهم من ذلك كله أن نتبين كيف جاوب الجغرافيون هذه الصيحة وكيف تحول عملهم تحولاً مثيراً ومثمراً إلى إنجاز جغرافي علمي مفيد.

هذا ولم يكن الجواب مطلوباً من أجل بذل دماء ، أو تضحية في سبيل الأرض . بل لقد كان الجواب مطلوبًا من أجل هدف آخر ، قوامه تسخير العمل الجغرافي في الميدان ، الرحب على الصعيد البريطاني، لدعم الصمود وترشيده في الحرب وفيما بعد الحرب . وهذا الجواب

علامة بالفعل على أن الجغرافية قد طوعت خبرتها وتحمست وتحملت مسئوليتها فى الأداء الوظيفى التطبيقى .

وما من شك فى أن دادلى ستامب الذى كان يتولى الإشراف على الجغرافيين العاملين فى حقل المسح ، والدراسة لحساب وإستخدام الأرض فى مصلحة مسح الأراضى البريطانية للاستغلال Land Utilisation Survey ، قد حقق هذه الإستجابة بالفعل . ولقد وضع ستامب مع الفريق من زملائه وتلاميذه علمه فى خدمة هذه الإستجابة. وهذه الإستجابة – فى تصور أى جغرافى منصف – قد أطلقت العنان لكى يبدأ التطبيق العلمى للإضافة الجديدة ، التى توخت حسن إستخدام التقييم الجغرافى فى العمل أو البحث الجغرافى . وهذا معناه إتجاه حقيقى يبدأ به الفكر الجغرافى المعاصر ، بكل ما يتطلع إليه من تجديد وتجويد .

هكذا طور ستامب الإجتهاد الجغرافى مع الفريق فى الميدان . وتولى على المدى الواسع أداء دور وظيفى جغرافى متخصص تطبيقى . ومن الجائز أن هذا الإجتهاد الجغرافى الذى دعت إليه وطأة الحرب والموقف الصعب ، قد استنفر همة الجغرافية لكى تنغمس فى العمل التطبيقى . ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الجغرافى قد اتخذ من التقيم الجغرافى، وهو يتحسس انماط إستخدامات الأرض سبيلاً لحساب الجدوى من هذا الإستخدام لحساب الحياة . والمؤكد أيضاً أنه قد تبين من خلال التقييم الجغرافى ، مدى عمق الفجوة التى تفصل بين إستخدام سائد بالفعل وهو جائر أو غير إقتصادى أحياناً وإستخدام اقتصادى أمثل أحياناً أخرى، ينبغى أن يكون فى هذه الأرض. ولابد أن التقييم الجغرافى ، قد حمل الإنسان مسئولية عمق وإتساع هذه الفجوة، وما تعنيه بالنسبة للبناء الإقتصادى البريطانى الذى ثبت عجزه عن تصعيد أو تعظيم كفاءة الإستخدام إلى الحد الإقتصادى الأمثل .

ويصرف النظر عن مدى نجاح هذا الإجتهاد الجغرافى فى المجال التطبيقى بعد الحرب العالمية ، وما أسفر عنه من إضافات لحساب الفكر الجغرافى المعاصر ، ينبغى أن نتصور عندئذ ، كيف كانت البداية

الحقيقية التى أشاعت التقييم الجغرافى ، وأكدت التحول كما ينبغى أن ندرك كيف انطلق الفكر الجغرافى المعاصر بعد نضج النبتة التى احتوتها أحشاء الفكر الجغرافى الحديث ، على مدى أكثر من خمسين عاماً فى القرن العشرين .

هذا ولقد تولت المدرسة الجغرافية البريطانية مسئولية هذا التحول وريادة العمل التطبيقى الجغرافى ، من خلال كفاءة جدوى التقييم الجغرافى . وما من شك فى أن كل المدارس الفكرية الجغرافية ، كانت فى وضع الإستعداد لقبول منطق وفلسفة هذا التحويل ، ولم تعارضه أو تعترض عليه . ومن ثم سارت عمليات الإجتهاد الجغرافى فى الإتجاه الصحيح المجدد ، وأخذت فى ممارسة التقييم الجغرافى ، الذى وسع اطار التحول العملى النشيط لحساب البحث الجغرافى ، الذى يجاوب روح ومنطق وفلسفة الفكر الجغرافى المعاصر فى خدمة حركة الحياة .

التقييم الجغرافى وانطلاقة التغيير :

والتقييم الجغرافى عندما أضيف إلى التوزيع والتعليل والربط ، قاد الإجتهاد الجغرافى فى أسلوب بحث موضوعى أكثر عمقاً . بل لقد فتح هذا التقييم الجغرافى باباً ، لكى يجد الاجتهاد الجغرافى سبيلاً واضحاً لقياس وحساب الجدوى ، بشأن الظاهرة الجغرافية التى يعالجها البحث الجغرافى لحساب حركة الحياة . وما من شك فى أن مسألة حساب الجدوى ، هى نقطة الإنطلاق الجغرافى إنطلاقاً متحرراً من جمود النظرية البحتة إلى مرونة التطبيق . ومعنى مرونة التطبيق أن تشترك الخبرة اشتراكاً مباشراً وفعالاً مع زمرة العاملين الباحثين فى المجال التطبيقى ، الذى ينفع الحياة ويبصر حركة الحياة فى الإتجاه الأفضل .

ومن شأن تقييم الظاهرة الجغرافية المعنية وحساب الجدوى ، أن يكون – بكل تأكيد – لحساب الإنسان . بمعنى أنه عمل موضوعى ، يتولى تأكيد حق الإنسان ومصلحته فى كل ما تحتويه الأرض . وإلا فلمن يكون هذا الذى تحتويه ، إذا لم يكن – بالفعل – حقاً للإنسان ، الذى له مكان السيادة ومكانة التفوق على الأرض ؟

هذا ولقد فرض حساب الجدوى لأى ظاهرة معنية ، على الإجتهاد

الجغرافى مسئولية البحث المكثف ، الذى يسبر الغور ويعجم العود، ويحدد الأبعاد التى تتداخل جميعها فى عمليات التقييم الجغرافى . بل أنه أصبح حريصًا على تنشيط الحس الجغرافى واستنفار التفكير الجغرافى السوى، لكى يظاهر ويلهم الإجتهاد الجغرافى ويبصره، لدى اداء دوره فى التقييم الجغرافى وحساب الجدوى . والمؤكد أنه حساب الجدوى المطلوب – بكل الإلحاح – ليس لحساب الحياة فقط وإنتصار ارادتها ، بل لكى يصبح هذا التقييم سبيلاً لادراك مثمر يتحرى ماهية وكنه ومدى فاعلية التأثير المتبادل بين الأرض والناس تحت مظلة الضبط والانضباط المتبادل ، لحساب حياة أفضل ، وتفاعل حياتى أكثر كفاءة مع الأرض .

ولقد إتخذ الإجتهاد الجغرافى من التقييم مطية وأسلوب عمل فى الدراسة الميدانية ، وفى الدراسة المكتبية على السواء ، وهو يحسب جدوى الواقع الطبيعى وضواغطه فى الأرض . ومن الطبيعى أن تتكشف له مدى ثبات هذا الواقع ، لأنه لا يتغير إلا على المدى الجيولوجى . ولكن المؤكد أن يتحقق التقييم من ماهيته ومدى إستجابته أو عصيانه لارادة الحياة ، وأن يعجم التقييم عود التحديات التى تواجه حركة الحياة .

كما إتخذ الإجتهاد الجغرافى من التقييم مطية وأسلوب عمل فى الدراسة الميدانية ، وفى الدراسة المكتبية على السواء ، وهو يحسب جدوى الواقع البشرى فى نفس الأرض . ومن الطبيعى أن تتكشف له مدى تغييره وقبوله وتطلعه وقدراته على صنع التغيير . ولكن المؤكد أن يتحقق التقييم من ماهية ومدى إستجابته أو عجزه عن صنع التغيير الذى تبتغيه ارادة الحياة ، وأن يعجم التقييم عود الضبط البشرى ، الذى يحبط أو يطوع مفعول التحديات ، التى تعاند ارادة الحياة وهى تصنع التغيير إلى ما هو أفضل .

وعندما يفسح التقييم الجغرافى المجال وتتفتح أبواب البحث، لكى يفطن الإجتهاد الجغرافى إلى معنى ومغزى ديناميكية البعد البشرى المؤثر ، وهو يواجه مصيره على الأرض ، تنكشف للفكر الجغرافى المعاصر جدوى هذا البعد البشرى ، وما يفتعله من ضبط فعال يحل

عقدة التحديات والضواغط البيئية ، التى يفرضها البعد الطبيعى فى مواجهة مسيرة الحياة فى الأرض . كما تتكشف له أيضاً ، مدى العلاقة بين ثراء الخلفية الحضارية . وهو تشد أرز الجدوى المتغيرة لهذا الضبط البشرى ، وهو يجتهد فى مواجهة التحديات ، والإبداع البشرى ، وهو يضع هذا الضبط البشرى موضع التنفيذ وينجح فى إحباط هذه التحديات . ومن خلال هذه العلاقة ، تصدى الإجتهاد الجغرافى إلى إعادة النظر فى دراسة الجغرافية البشرية وفروعها المتعددة . ولقد اتخذ من التقييم الجغرافى سبيلاً أو منطلقًا ، إلى تجديد أو تجويد هذه الفروع الكاشفة عن حياة الإنسان وإجتهاده وإنتصاره ، لحساب مصيره وحياته الأفضل فى أحضان المكان .

* * *

وارجع إلى العرض الذى جاء به الجغرافى المصرى جمال حمدان فى كتابه المشهور الذى شد إنتباه الناس ، لكى تعرف كيف باشر الكاتب مهاراته فى تقويم موقع مصر الجغرافى ، وفى تقويم استمرارية العلاقة الإيجابية بين الإنسان والطبيعة المتمثلة فى النيل وجريانه الرتيب . وقل ان هذا التقديم هو الذى ينتهى إلى الحكم الجغرافى الأنسب على هذه العلاقة . ومن ثم يبتنى على سداد وتوفيق هذا الحكم الجغرافى الرشيد ، صياغة الرأى الجغرافى الذى يكون الإنسان أحوج ما يكون إليه لتنشيط أو لتعديل أو لتحسين هذه العلاقة ، وهو يتعامل مع طبيعة الأرض ، أو وهو يتجنب التعامل الجائر أو وهو يلتمس الأقدام على غزو الأرض البكر وانشاء العلاقة التى يسخر بموجبها الأرض لحسابه .

واستيعاب مهارة الجغرافى فى مباشرة التقويم ، وإصدار الحكم الجغرافى وصياغة الرأى الجغرافى الذى يرشد ، أو الذى يبصر تعامل حركة الحياة مع طبيعة الأرض فى المكان والزمان من حوله ، هى التى اجلست الجغرافى فى مجلس المستشار فى كل شركة أو فى كل مؤسسة أو فى كل وزارة فى الدول المتقدمة . بل قل اجلسته هذه المهارة أيضاً مع الفريق الذى يتحمل أعباء وضع الخطط التنموية . بل قل

استطاع الجغرافى أن يقدم التخطيط الإقليمى ، لكى يكون الوعاء الأنسب للعمليات التنموية ، وينال كل إقليم تخطيطى حصته المناسبة من المشاريع التنموية التى تناسب الأرض ، وهى مسرح التنفيذ التنموى، ولا تكون غريبة على الناس الذين يتحملون مسئولية الإنجاز التنموى ويجنون ثمار هذا الإنجاز التنموى فى وقت واحد .

إنجازات الجغرافية المعاصرة :

وبعد أن كانت الإجابة عن لماذا ومتى وكيف ، حدث التحول من الفكر الجغرافى الحديث ، إلى الفكر الجغرافى المعاصر ، ينبغى أن نؤكد على أن هذا التحول كان ضرورياً لكى يجاوب الأداء الوظيفى لعلم الجغرافية حاجة العصر . ومن الجائز أن نذكر كيف استشعر الإجتهاد الحاجة إلى التغيير والتحويل فى مواجهة حاجة العصر . ومن الجائز أن نتصور كيف انطوت الجغرافية على ارادة التغيير والتطور ، فى إطار المضمون الذى تحتويه ، ومن أجل الأهداف التى تتطلع إليها . ولكن المؤكد أن الفكر الجغرافى الذى كان يزخر بالتأمل والتفكير والجدل ، لا ولم ولن يقتنع بأنه قد أنهى مهمته .

ومن المفيد حقاً أن يقتنع الفكر الجغرافى ، وهو النبض الذى تحيا به الجغرافية ويوجهها ، بأنه لم ولن ينهى مهمته التى يرضى بها أو يرضى عنها . ذلك أن الإقتناع معناه التجمد وإفتقاد دوافع التطور . وما من شك فى أن التجمد لا يمكن أن يعنى إكتمال الجغرافية بحيث تصبح صالحة ، لكى تجاوب حاجة العصر وكل عصر ، ولكنه يعنى قصوراً وعجزاً ، لأن ما يصلح من العلم فى عصر ، لا ينبغى أن يصلح ويجاوب حاجة كل عصر . ولسنا فى حاجة لأن نؤكد أن الفكر الجغرافى النابض بالحيوية ، قد برهن دائماً على أنه لا يتجمد ، وأن التغيير سمة من أهم سمات مسيرته على المدى الطويل .

وهكذا كان ينبغى أن يحدث التحول الذى بنى عليه التجديد والتجويد فى علم الجغرافية . وكان ينبغى أيضاً أن يحدث بعض التغيير فى بنية التركيب الهيكلى للجغرافية . وما من شك فى أن هذا التحول والتغيير ، يعبر عن مدى إستجابة الجغرافية فى شكلها العلمى ،

لتحمل مسئولية ، انجازات الفكر الجغرافى المعاصر التى تصور رؤية معاصرة للتجديد والتجويد فى وقت واحد . وهذا - بكل تأكيد - سبيل حميد من أجل جغرافية معاصرة افضل ، وإجتهاد جغرافى أنفع وأجدى لحساب حركة الحياة .

وقبل أن نصور إنجازات الفكر الجغرافى المعاصر ، ومقدار وسرعة إستجابة الجغرافية المعاصرة ، وهى تتحمل مسئولية هذه الإنجازات ، ينبغى أن نذكر أن قضايا الفكر الذى يصنع التجديد والتجويد ، لا تجد قبولاً سهلاً أو قبولاً كلياً من بعض المفكرين الجغرافيين . وقد يتخوف فريق من أن تضل الجغرافية وهى تنغمس فى التغيير وصولاً إلى التجديد والتجويد (١) . وقد يتخوف فريق أخر من أن تقع فى قبضة من يغالى فى طلب التجديد والتجويد من المفكرين الجغرافيين ، فتتفسخ وتتفقد وضوح رؤية الهدف أو الأهداف التى تنشدها (٢) .

هذا ولا ينبغى أن يكون هذا التخوف علامة على محاولات التخريب أو على الرغبة فى التجمد إطلاقًا . ولكنه التخوف الذى يكون مبعثه التأنى فى الإستجابة لمنطق التغيير . بمعنى أنه ليس ثمة معارضة أو

---

(١) يمكن أن نتصور هذا التخوف من خلال مناقشة وجدل تعريف الجغرافية ، طلب إهمال كل تراث الجغرافية والبحث بعد ذلك عن هذا التعريف . ويبدو أن هذا الإتجاه علامة على التخوف من التغيير الذى يمكن أن يضلل الجغرافية . وقد وصل التفكير إلى فرط عقد الجغرافيين اقتراح ان يتحول الجغرافيون كل فى تخصص قائم بذاته ، مثل المناخ والديموجوافيا والجيورفولوچيا والإقتصاد .

(٢) هناك من هز الجغرافية هزاً عنيفًا وهو يستنكر ، أن تكون قد عرفت المضمون أو افلحت فى صياغة رؤية واضحة لأهدافها . ويتهم الجغرافية أنها تنهل من علوم يتشكك فى وجودها . كما يتصور أنها تزج بإجتهاد فى ميادين كثيرة ، ثم يعجز عن متابعة أدائه . كما ينظر إلى أن محتوى الجغرافية البشرية ، وهو يدب فى ظلام حالك ويتخبط إجتهاده تخبطاً عشوائيًا فى أدائها، لأنها تخلط بين جملة موضوعات تفتقد الترابط . ويذهب هذا الرأى الحائر إلى أن الجغرافيين فى حاجة إلى تأهيل أنفسهم وإثراء فكرهم تأهيلاً عميقًا فى علوم مثيرة مثل الإقتصاد والإجتماع وغيرها قبل أن يتفرغوا للإجتهاد الجغرافى . بل قد يذهب هذا إلى أن الجغرافى لا يمكن أن يكون جغرافياً قبل أن يعرف ما هو المطلوب منه ؟ وما هى حدود إجتهاده ؟ وما هو الدور أو الأداء الوظيفى لمهمته الجغرفية .
راجع الفصول الثلاثة من كتاب تطور الجغرافية الحديثة تأليف روجر منتسل وترجمة د. محمد السيد غلاب ود. دولت صادق .

تشكيك . بل قل هى مراجعة جادة يتطلع بعض المفكرين من خلالها رؤية أوضح لدواعى التغيير أحياناً ، ولكيفية التغيير أحياناً أخرى . وقد تنشأ هذه المراجعة تأسيساً على إجتهاد جغرافى حقيقى ، يتخذ من التشكيك عملاً مظهرياً ، يبنى عليه إستطلاع معنى ومغزى ومرمى هذا التغيير ، من مفاهيم الفكر الجغرافى الحديث ، إلى مفاهيم الفكر الجغرافى المعاصر .

ويصرف النظر عن هذا التخوف وما يمكن أن يعبر عنه أو يؤدى إليه ، نقول أن معظم الإجتهاد الجغرافى – هو من غير شك – من أنصار التجديد والتطوير . ولعلهم قد استجابوا بالفعل ، وقدم الجغرافيون البحوث والدراسات الموضوعية ، التى ألبست الجغرافية ثوبها الجديد المعاصر . ومن الجائز أن هذا الفريق قد أبدى شجاعة أكثر مما ينبغى ، لتبنى مسئوليات التجديد والتجويد فى عطاء الجغرافية المعاصرة . ومن الجائز أنه اعتقد فى أن الشجاعة فى الاجتهاد والأداء الموضوعى الوظيفى تكفل – فى حد ذاتها – وضوح رؤية الأهداف التى تبصر مضامين هذا التغيير، الذى ينبض بالتجديد والتجويد . ولكن المؤكد أن الاسراف فى التخوف ، لم يفلح فى وقت تيار التغيير ، أو فى فتور همة واجتهاد المتعجلين فى طلب أهداف التجديد والتجويد ، من أجل جغرافية معاصرة أفضل .

وهناك الحاح حقيقى – بكل تأكيد – وتعجل شديد ، يصبو إلى زيادة معدلات التغيير ، والانتقال من حيز الفكر الجغرافى الحديث المحبوك ، إلى حيز الفكر الجغرافى المعاصر الفضفاض ، وإلى تجسيد أهداف هذا التغير فى تجديد وتجويد جغرافى تطبيقى ، ينفع الناس ويخدم بالفعل والعمل حركة الحياة ويبصرها ويقودها إلى ما هو أفضل فى أحضان البيئات والأقاليم . ومما لا شك فيه أن الاتجاه المتعجل فى دفع عجلة التغيير ، هو الذى ينبغى أن يتخوف منه بعض الجغرافيين ، لكيلا تضل الجغرافية المعاصرة أو يغرر بها وتفتقد سبيلها السوى إلى أهدافها الحقيقية وتوجهاتها التطبيقية .

ومن غير أن نلوى عنق الحقائق الموضوعية ، ندرك أن علم

الجغرافية كان فى النصف الثانى فى القرن العشرين فى حاجة إلى مراجعة رصيده وسبيله وأهدافه ، قدر حاجته لأن يتخذ من التغيير مطية إلى أهداف تكفل له التجديد فى العطاء ، والتجويد فى الأداء ، الذى يساير روح العصر . وكيف لا تفعل الجغرافية ذلك ، وهى التى أقدمت من خلال التقويم ، على ادراك مسئولية الريادة فى تقصى حقيقة وجدوى الضبط البشرى ، وهو يقبض على زمام مصيره وتسيده على الأرض ، أو وهو يحبط ويبطل مفعول التحديات البيئية ومعاندتها لإرادة تقدم الحياة إلى ما هو أفضل . وهل غير التجديد فى العطاء والتجويد فى الأداء سبيلاً إلى تحمل هذه المسئولية ؟ وهل غير هذه المسئولية سبيلاً إلى انجاز الجغرافية المعاصرة ، فى شكلها ومضمونها وهدفها ؟

ومن الجائز أن نتصور العلاقة موضوعية ، بين التجديد فى العطاء والتجويد فى الأداء ، الذى يبتغيه الفكر الجغرافى ، وهو يجاوب حاجة العصر . ومن الجائز أن يضع علم الجغرافية المعاصرة فى اعتباره هذه العلاقة ويلتزم بها ، لحساب موضوعيته وأهدافه . ولكن المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى قد وضع التجديد فى العطاء فى خدمة التجويد فى الأداء دائمًا ، ووضع التجود فى الأداء فى خدمة التجديد فى العطاء أحيانًا. بمعنى أن التجديد فى العطاء يمثل تجويداً حقيقيًا فى الأداء الوظيفى للعمل الجغرافى ، الذى أخذ به الاتجاه التطبيقى ، وأن التجويد فى هذا الأداء الوظيفى التطبيقى قد بصر التجديد فى العطاء ، ورشده إلى بعض الاضافات المفيدة ، أو إلى بعض الأهداف السوية .

ومن غير انكار هذه العلاقة ، وما ينبغى أن تكون عليه ، وما يمكن أن تؤدى إليه ، يجب أن نميز تمييزاً ظاهرياً – على الأقل – بين سبيل التجديد فى عطاء الجغرافية المعاصرة ، والتجويد فى أداء دورها الوظيفى الهادف لحساب الحياة . ويدعونا هذا التمييز الظاهرى إلى أن نفصل فى البيان والوضوح والمتابعة بين ، ماهية التجديد فى العطاء وما انطوى عليه من اضافة إلى الجغرافية المعاصرة ، وماهية التجديد فى الأداء الوظيفى وما انطوى عليه من تحسين فى انجاز الجغرافية المعاصرة التطبيقى .

التجويد فى الجغرافية المعاصرة :

ليس المقصود من التجويد فى الأداء الجغرافى ، المهارة فى العرض الموضوعى ، وصياغة الحبكة الجغرافية فقط . وليس المقصود من التجويد فى الأداء الجغرافى المتخصص ، حسن وكفاءة التصوير الجغرافى وجودة التعبير فقط . وليس من المقصود من التجويد مرة ثالثة ، مجرد تصعيد وشحذ الاجتهاد الجغرافى المتطور ، وهو يؤدى دوره الوظيفى التخصصى المطلوب فى مجالات البحوث والدراسات الموضوعية أو الاقليمية أو المنهجية فى الميدان النظرى أو التطبيقى فحسب . ولكن المقصود من التجديد شئ آخر تماماً ، يساير روح العصر والالحاح على طلب حصاد الخبرة الجغرافية التطبيقية .

ولكى يتحقق المقصود أو الغاية من التجويد بالفعل ، كان على الجغرافى أن يدرك مضامين العمل والاجتهاد الجغرافى بداية ، وأن يتجنب بعد ذلك التجديد النمطى الملتزم الضيق ، الذى قد تفتقد من خلاله الجغرافية المعاصرة ، الاطار العام الذى يحدد شكلها السوى وسبيلها القويم ، ويجسد مرماها وأهدافها . وهذا معناه أن تتجنب الجغرافية المعاصرة الانسلاخ من ذاتها ، وموضوعيتها التخصصية الهادفة والمستهدفة . ومعناه أيضاً أن يجد الفكر الجغرافى السبيل ، لكى يبصر الجغرافية المعاصرة فتعرف طريقها السوى ، ولكى تحسن التحرك والأداء فتحقق أهدافها الموضوعية ، لحساب العمل التطبيقى، وهو الذى ينفع الحياة .

ومن الجائز أن يكون التجديد فى الأداء الجغرافى قد بدأ قبل أن يكون التحول الحقيقى من الجغرافية فى أحضان الفكر الجغرافى الحديث فى النصف الأول من القرن العشرين ، إلى الجغرافية المعاصرة ، فى أحضان الفكر الجغرافى المتجدد فى النصف الثانى من هذا القرن . ومن الجائز أن يكون هذا التجويد فى الأداء قد بصر ورشد هذا التحول، لكى يسلك السبل القويم بأقل قدر من الاهتزاز أو التردى فى الضلال . ولكن المؤكد أن هذا التجويد فى الأداء يمثل ظاهرة صحية ، تشبثت بها الجغرافية المعاصرة ، لكى يمتد التجويد فى الأداء إلى انجاز العمل

الجغرافى التطبيقى وحسن توظيفه فى خدمة الحياة .

وهكذا نتبين أن التجويد فى الأداء ، فى الجغرافية المعاصرة ، ظاهرة صحية ومفيدة بكل تأكيد . وهى علامة لا تخطئ ولا تضلل عندما تصور كيف تراجع الجغرافية ذاتها ، وتتحسس أبعاد موضوعيتها، وتتلمس مدى نجاحها ، بعد رحلة طويلة وشاقة فى أحضان فكر بناء لا يكف عن التطور . وهل نشك فى أن هذه المراجعة ووقفة التأمل فى التراث الجغرافى العريق والضخم ، سبيل من سبل انطلاقة التجديد فى الأداء لكى تسيطر الجغرافية المعاصرة على دورها الوظيفى فى ظل التغيير والتطور استجابة للحياة ؟ وهل نشك فى أن هذه الانطلاقة المبنية على أحداث التجديد فى الأداء ، سبيل أوحد لضمان توظيف هذا الأداء فيما ينبغى أن يعمله ويتفرغ له ويجيده ، فى خدمة الحياة ؟

ومن الجائز أن الجغرافية المعاصرة قد أدركت وهى فى موقف التأمل ، الواقع الصعب الذى يمكن أن تتضرر منه بشكل أو بآخر ، وهى تكد وتعيش الحيرة التى صنعتها الاختلافات والتناقضات ، بين المفكرين الجغرافيين ، ومن خلال جدل حول تعريفات كثيرة ومتنوعة لعلم الجغرافية ومجالات توظيف أدائه واهتماماته ، وحصاد أهدافه وتطلعاته. ولكن المؤكد أن الجغرافية المعاصرة التى استشعرت قمة النضج والرسوخ بعد مشوار فكرى مضنى ، على مدى أكثر من ثلاثة قرون كاملة ، كانت تحرص على معرفة أين تقف ، وماذا تريد، وكيف ينبغى أن تؤدى دورها الوظيفى المتخصص ، فى خدمة حركة الحياة ؟

وصحيح أن الجغرافية المعاصرة تقف وتتأمل وتتدبر فى رصيد راسخ أحياناً ، وفى أشلاء رصيد عتيق أحياناً أخرى ، وكيف أسفر عنه اجتهاد عريض وصراع فكرى جاد على المدى الطويل . وقد تعتز الجغرافية المعاصرة بهذا الرصيد والتراث العريق ، وهى تدرك – بكل اليقين – أنه قاعدة التركيب الهيكلى للبناء الجغرافى العلمى الراسخ ، وأنه انطوى على قوة دفع التطور ، وصولاً إلى هذا الموقف وهذه المكانة فى الشكل المعاصر وصحيح مرة أخرى أن الجغرافية المعاصرة تتطلع

بزهو إلى المستقبل ، وتحلم برصيد جديد ومتجدد ، يسفر عنه اجتهاد مجدد ونشيط ، وهى على استعداد أن تقدمه وتعطيه - بكل الخبرة المكتسبة - وفاء وامتثالاً لدورها الوظيفى المتخصص المطلوب لحساب الحياة . ولكن المؤكد أنها بعد أن تتلفت إلى الماضى العريق ، وإلى المستقبل الغامض ، تشفق على ذاتها وكيانها وقدراتها فى وقفتها المعاصرة . ويحق لها أن تحس بهذا الاشفاق على الذات والكيان والقدرة وعلى الأداء ، وصولاً إلى الهدف ، وأن تحرص على صلابة العود وعزم الخطوات وحيوية النضج وتدفق العطاء ، فى اطار فكرى سوى ، لكيلا تشيخ أو تضيع وتفقد السيطرة على أهدافها .

وهكذا يتكشف لنا كيف أن التجويد فى الأداء الذى تبتغيه الجغرافية المعاصرة هدف عزيز ، يقف من ورائه قلق شديد يعيش فى جوف الجغرافيين المعاصرين وهم لا يخجلون من الافصاح عنه بشكل أو بآخر . ولكن هل يصلح هذا القلق ، لأن يصبح قوة الدفع التى تحفز التجويد فى الأداء ؟ وفى الواقع أنه ليس القلق هو الذى يدفع ويحفز التجديد فى الأداء ، ولكنه الاجتهاد الذى يتصدى لهذا القلق والعزيمة التى تدعم صمود الجغرافيين المعاصرين ، وهم يتخذون من التجديد طوق نجاة وتملص من هذا القلق .

ومن علامات القلق العلمى ، اشفاق معظم الجغرافيين المعاصرين على الجغرافية من تعاظم أهدافها أحياناً ، واتساع مجالاتها وزيادة الطلب على خبراتها وعطائها ومكتسباتها التطبيقية أحياناً أخرى . كما يتأتى هذا القلق ، عندما يكون التأمل الذى يكشف عن افتقاد التوازن إلى حد الخلل ، بين الاجتهاد الجغرافى فى الشقين الطبيعى والبشرى . ومن الجائز أن يكون هذا الخلل منطقيًا على اعتبار أن التحول من الجغرافية الحديثة إلى الجغرافية المعاصرة ، هو من حصاد الاجتهاد فى الشق البشرى من الجغرافية أكثر من أى شئ آخر . ولكن هذا الخلل فى حد ذاته قد أخل برؤية القيمة الحقيقية للفصل، بين الشق البشرى والشق الطبيعى والحرص عليه .

ومن علامات القلق العلمى أيضًا ، ذلك الجدل والنقاش الشديد ،

الذى احتدم وتصاعد ، حتى بين أبناء المدرسة الجغرافية الوطنية الواحدة، حول تعريف جامع مانع عن الجغرافية المعاصرة ، يحدد سبيلها ويوضح مغزاها ، ويجلو رؤية مرماها . ومن الجائز أن هذا الجدل والنقاش ، قد أثار واستنفر الاجتهاد على المستوى الأنسب ، الذى عمل على تجويد الأداء فى البحث الموضوعى عن هذا التعريف ، وحقق كسباً حقيقياً للجغرافية المعاصرة وبصرها . ولكن المؤكد أن هذا الجدل قد وضع بعض الجغرافيين فى أحضان التشاؤم إلى حد بعيد . وبات هذا البعض يتصور سوء المصير، ويتخوف على علم الجغرافية الراسخ من أن يتفسخ أو يضيع أو يضل فى أحضان التحول الذى يساير روح العصر .

وليس أصدق من الجدل الذى بدأ وهو يحير الفكر الجغرافى ، لكى يشق الصف الواحد ، حتى يختلف الشركاء حول تقسيم الجغرافية (١)، والتماس وجدوى الفروع التى تندرج تحت مظلة هذا التقسيم، الذى أسفر عنه الفكر الجغرافى الحديث ، بعد قرابة ثلاثة قرون طويلة ، ورحلة شاقة ضيعت العمر والأجيال فى التدبر والتأمل . ومن فريق استنكر هذا التقسيم وحمل عليه لأنه لا يستند - فى رأيه - إلى أساس منطق مقبول ومقنع ، إلى فريق آخر آثر أو فضل تقسيماً جديداً على أسس ورؤية جديدة ، إلى فريق ثالث فضل الاقلاع عن التقسيم وتفرغ الجغرافية إلى دراسة الموضوعات الجغرافية (٢) من غير تقيد أو التزام بفاصل وحواجز بين أقسام هى غير ذات معنى أو مغزى ، كانت الحيرة الحقيقة التى تردى فيها الفكر الجغرافى المعاصر ، وهو بصدد ترسيخ الجغرافية المعاصرة .

وربما تفاقمت هذه الحيرة بشدة ، عندما رأى فريق آخر أن التفاعل الحياتى بين الانسان والأرض مسألة جوهرية، ينبغى أن تكون الأصل والأساس فى المضمون الجغرافى . وفى رأيهم أن الانسان يجب أن

---

(١) موسى هو أشد الجغرافيين تحمساً لرفض واستنكار تقسيم الجغرافية إلى جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية ويجاريه اير Eyre فى هذه الحملة

(٢) يتحمس هدر Hodder لدراسة الموضوعات دونما حاجة لمسألة التقسيم الذى يمزق كيان الجغرافية .

يتناوله الاجتهاد الجغرافى على أنه عامل جغرافى ، وليس أكثر ، وأن البيئة الطبيعية هى عامل جغرافى آخر لا أقل ولا أكثر . ومن ثم يكون الاجتهاد الجغرافى المعاصر ملتزماً بمتابعة وادراك ودراسة موضوعية التفاعل بين هذين العاملين الجغرافيين ، وبترسيخ أهدافه حول هذا الفعل المشترك ، بين هذين العاملين وصولاً إلى ترشيده .

وهكذا يصور الجدل أحياناً جانباً من التفاؤل الذى ينبئ عن كيف يحاور الجغرافيون أنفسهم ، وهم يستشعرون حاجة إلى خلق أو ابداع شكل جديد ، وثوب جديد للجغرافية المعاصرة . وهذا معناه أن فكر الجغرافية المعاصرة فكر يتشوق إلى هذا الشكل الجديد ، الذى يحدد الاطار ، ويتبين الأهداف ، وينشط الاجتهاد الباحث عن التجديد فى الأداء الوظيفى العلمى المتخصص . ومعناه أيضاً أن الجغرافية المعاصرة تبحث عن تجويد الأداء فى اطار الشكل الجديد . ومن شأنها أن ترنو إلى قدرة اقتحام المستقبل الغامض . ولا يقوى هذه القدرة سوى التجديد فى الأداء وصولاً إلى الأهداف المثلى ، التى كانت وما زالت وينبغى أن تظل متمثلة فى ترشيد وخدمة مصلحة الانسان فى حركة الحياة إلى ما هو أفضل .

وفى اعتقادى أن كل الاضافات المجددة التى تحمل مسئوليتها الجغرافية المعاصرة ، قد وضعتها فى ميادين رحبة ، وأدخلتها فى مشاكل المشاركة الفعلية فى حقول البحث والعمل التطبيقى . ومن ثم ولدت هذه المشاكل التفكير والتدبر فى أمر وضع الضوابط ، التى تحدد شكل العمل الجغرافى ، وتوضح مسار الاجتهاد الجغرافى فى الاتجاه الصحيح . والخوف من أن تضل الجغرافية المعاصرة الطريق السوى لو أن ترك التفكير الجغرافى المعاصر ، للاجتهاد الجغرافى الحبل على الغارب . والتفكر الجغرافى المعاصر الذى ينكب على التجويد فى الأداء لم يفلت من بين يديه الزمام بعد ، لكى ينطلق الاجتهاد الجغرافى انطلاقاً حراً من غير ضوابط .

وفى اعتقادى أيضاً أنه لا ينبغى أن نتخوف من الجدل ، الذى يطعن فى تقسيم الجغرافية الموروث من الفكر الجغرافى الحديث ، أو يتشكك

فى قيمة وجدوى الفروع الجغرافية ، التى تندرج تحت مظلة هذا التقسيم ، لأنه ليس جدلاً هداماً . وهو - بكل تأكيد - جدل بناء ومفيد، لأنه يطلب بنية جغرافية أصلب عوداً ، فى صحبة الفكر الجغرافى المعاصر . بل أنه يستنفر التفكير الجاد الباحث عن ضوابط تضبط الاجتهاد الجغرافى على المسار الصحيح ، الذى يساير روح التطور ويقدم الخبرة الأفضل فى الأسلوب والأنسب فى المنهج ، لحساب الانسان ومصلحته فى حركة الحياة إلى ما هو أفضل .

والتجويد فى الأداء الجغرافى المعاصر حاصل بالفعل ، ويسفر عنه الاجتهاد الجغرافى . ومن الجائز أن الفكر الجغرافى المعاصر لم يفرغ بعد من صياغة الضوابط، التى تحكم هذا لاجتهاد الجغرافى وتمسك بزمامه ، لكيلا يضل أو يضلل علم الجغرافية المعاصرة . ولكن المؤكد أن الدخول فى تجربة تجويد الأداء الجغرافى المعاصر ، الذى يتأتى على مستوى الاسهام فى العمل التطبيقى ، وانجاز المهام وصياغة النتائج كلها أمور يمكن أن ترشد التفكير الجغرافى ، فى أمر صياغة هذه الضوابط .

ومن قبيل التجويد فى الأداء الجغرافى المعاصر ، نذكر كيف يعتصر الخبرة وينجز الترشيد ويقدم التوصية ، من خلال مهارة فى التقويم الموضوعى ، لجدوى العامل البشرى وفاعليته ومدى انتصاره وهو يطوع العامل الطبيعى . ومن شأن هذا التجويد أن يوضح كيف استلهم الاجتهاد الجغرافى حسه الجغرافى ، وكيف أحسن استخدام خبرته وأدائه ، وكيف تطلع إلى ما يكمن وراء الرؤية الجغرافية المباشرة، لكى يتحسس التحدى الطبيعى . ويقيم مدى معاندته، ويتحسس الضبط البشرى ، ويقيم مدى وجدوى ابداعه فى تطويع هذا التحدى . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الذى طالما انكب على وصف وتفسير وتحليل وربط يقنعه ، فى مجال دراسته فى الجغرافية الاقتصادية واستغلال الموارد وعمليات الانتاج المتنوعة ، لم يعد يجد فى هذا المضمار شيئاً يبهره ، وإنما تحول إلى ما وراء هذا كله من مضامين ونتائج قيمة ، تعلن عن شكل من أشكال التجويد فى الأداء .

ووأضح أن الجغرافى لم يغير سبيله فى الاهتمام بالعملية الانتاجية

ورؤية التفاعل بين الانسان والأرض ، وواضح أنه حقق نتائج كانت مرضية عندما حلل الرؤية الجغرافية ، على مستوى هذه الصورة المعبرة عن التفاعل الانتاجي بين الانسان والأرض . ولكن الواضح أيضاً أن التقييم قد فتح للاجتهاد الجغرافي باب التجويد في الأداء ، الذي أسفر عن رؤية وتصور أفضل، لما ينبغي أن يوجه هذا الاجتهاد، ولما ينبغي أن يسفر عنه من نتائج مفيدة في المجال التطبيقي .

ومن قبيل التجويد في الأداء الجغرافي المعاصر أيضاً ، نذكر كيف يعتصر الخبرة وينجز الترشيد ويقدم التوصية ، من خلال مهارة في التقويم الموضوعي لجدوى التخطيط الذي وضع لحساب التنمية على مستوى القطاعات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخدمية . ومن شأن هذا التجويد أن يوضح كيف استلهم الاجتهاد الجغرافي حسه الجغرافي ، وكيف أحسن استخدام خبرته وقدراته في العمل التطبيقي ، لكي يبشر بالتخطيط الاقليمي . ولقد اقتنع بجدوى وضع الاطار الذي يحدد الأقليم التخطيطي ، ويجعل منه وعاء مناسبًا للخطة التي توظف برامجها في التنمية . كما اقتنع بضرورة الخطة الشاملة التي تصنع النمو المتوازي والمتوازن والمتزامن اقتصاديًا اجتماعيًا وخدميًا على مستوى الاقليم التخطيطي . أو ليس هذا حسن استخدام وتجويد في الأداء ؟ لأنه بدلاً من أن يستجيب ويقدم الترشيد للتخطيط كما أراد بعض المخططين أن يكون ، نجد الجغرافي وقد أقحم امكانياته وخبراته وتسبب في تعديل جوهري في التخطيط لحساب التنمية ، وحمل عاتقه مسئولية تجويد الأداء الذي يكفل انجاح هذا التعديل الجوهري .

ومن قبيل التجويد في الأداء الجغرافي المعاصر ، نذكر الدور الذي أسفر عن أساليب أفضل في اعداد ورسم الخرائط والرسوم البيانية التي ترقى إلى مسايرة الجغرافية المعاصرة . وما من شك في أن الاعداد الأفضل ، قد أعطى الخرائط والرسوم قدرة على التعبير الأفضل . بل لقد أصبحت الخريطة تضارع الكلمة في تجسيد الرؤية الجغرافية . ربما كانت في بعض الأحيان من الجودة ، إلى حد أن أصبحت أصدق تعبيراً من الكتابة الجغرافية .

وعمليات التجويد فى الأداء الجغرافى لم تفرغ بعد من كل ما تصبو إليه . ولا خوف من التجديد على التجويد لأن التجويد فى الأداء هو من الأمور التى تخدم - كما قلنا - التجديد فى العطاء . والجغرافية المعاصرة القادرة على التجويد فى الأداء ، ما زالت طوع الفكر الجغرافى المعاصر ، وما يسفر عنه من أفكار تشكلها وتحدد أو تجدد أهدافها وتعلى مكانتها المرموقة ، بين مجموعة العلوم وطرحها المشارك ، فى مجال العمل التطبيقى .

* * *

التجديد فى الجغرافية المعاصرة :

التجديد فى عطاء الجغرافية المعاصرة ، هو - من غير شك - أعظم انجاز من انجازات الفكر الجغرافى على الاطلاق . وما من جدل فى أن الفكر الجغرافى قد اعتصر تراثه على مدى القرون ، التى شهدت مراحل نموه وتطوره وصناعة علم الجغرافية ، وترسيخ دوره الوظيفى المتخصص ، لكى يهيئ وينمى التطور الذى أسفر عن هذا التجديد الحقيقى فى عطاء الجغرافية المعاصرة . وقد طاوعت الجغرافية المعاصرة هذا الفكر الجغرافى المتطور ، وأقبلت بتفتح وانفتاح على صياغة هذا التجديد فى عطائها لحساب الانسان . والتجديد يعنى فيما يعنى التطوير . ومادام علم الجغرافية يأخذ من علوم طبيعية وعلوم انسانية تتطور ، فكان عليه أن يتطور ويساير روح العصر وتوجهاته.

ويمكن أن نتبين هذا التجديد فى اضافات مفيدة من وجهة النظر العلمية المو ' ـوعية . وقد سجلت هذه الاضافات معنى التغيير والتطور فى الجغرافية المعاصرة . ومن الجائز أن هذه الجغرافية المعاصرة لم تفرغ من تجسيد أهدافها النهائية التى تبتغى الوصول إليها . ولكن المؤكد أن أهداف الجغرافية المعاصرة شأنها فى ذلك شأن الجغرافية الحديثة ، تبدو مرنة ولا تجد ما يدعو إلى وضع حدود تحدد أو تحول، دون مرونتها وتطورها . وهذا معناه أن الجغراقية المعاصرة قد حررت أهدافها أو هى على الأقل حريصة على ترك الباب مفتوحاً ، لكى تتطور التطور الموضوعى الذى يجسدها ويحدد أبعادها وتطلعاتها .

وقـد تمثلت اضـافات التـجـديد ، فى فـروع جـديدة ومـجـددة فى الجـغـرافـية وفى الاجـتـهـاد الجـغـرافـى ، وفى اعـداد وتجـهـيز اسـتـخـدام الخـرائط. وتصـور هـذه الفروع الجـغـرافية الجـديدة ، التى تظللها مظلة الجـغـرافية الاقـتـصـادية ، مـدى ما أسـفـر عنه حـسن اسـتـخـدام التقـييم الجغرافى فى حساب الجدوى ، من ريادة منطق التجديد، فى الجغرافية، واضطلاع الاجـتـهـاد الجـغـرافى بهـذا الـعـمل الرائد . كـمـا يصـور اعـداد وتجهيز اسـتخدام الخرائط ، ثورة حقيقة فى تعاظم مكانة الخرائط ، فى خدمة التعبير الواضح الموجز عن حصاد الاجتهاد الجغرافى.

وهـذا مـعناه أن عمليات التـجديد قـد امتـدت بشـكل سـافر ومـباشـر وبناء إلى الشق البـشـرى من الجـغـرافـيـة . ومـعناه أنهـا مـا زالت تتـهـيب الاضـافة المجـددة فى بناء ووظيـفـة الاجـتـهـاد الجـغـرافى الذى يعـالج الشق الطبيـعى من الجـغـرافية . ومـا من شك أن اقبـال التـجديد على الجـغـرافـية البـشـرية، قـد عـبر عن تطلع الجـغـرافـيـة المعاصـرة إلى توظيف الاجـتـهـاد الجغـرافى فى عمل بناء ، من خلال حـسابات الجدوى ، فى اطار التـفـاعل الحياتى بين الانسان والأرض ، لحساب أو لمصلحة الحياة الأفضل .

والفـرع الجـديد الأول ، قد تمـثل فـى موضـوع **اسـتـخـدام الأرض** . ومن شأنه أن ينكب علـى استطلاع التعـامل البشرى مع مـا تنطوى عليه من موارد مـسـتخدمـة فى الأرض ، أو مع ما تهيئه من فرص الاسـتيطان والتـوطن والسكن . ومـا من شك فى أن سـتامب الجـغـرافى البـريطانى ، قـد تولى تنشـئة ووضـع أسس وقواعـد هذا الفـرع الجـديد وريادته ريادة مـجـددة ، عندمـا انكب مع تلامـيـذه على عـمليـات المسح الجـغـرافى البريطانى لأول مـرة بشكل منظم ، طلباً لحـصـر أنواع وانماط اسـتـخدام الأرض . كـمـا فطن سـتامب إلى قـيمـة وأهمية التقـييم وحـساب الجـدوى الاقـتصـادية لهـذه الأنماط الاسـتـخـدامـيـة ومـسـتوياتـهـا التى تتـراوح بين الاسـتـخدام الردىء أو الجـائر ، أو الاسـتـخـدام التـقليـدى ، أو الاسـتـخـدام الاقتـصادى المتطور من ناحية ، التقـييم وحـساب الجـدوى البشـرية التى تتصدى للعمل فى هذه الأنماط مـن ناحيـة أخرى .

وهـكذا أعطى سـتامب المثل منذ البداية الدليل ، على أهـمـية الدراسـة الميدانية وأسلوب الـعـمل والاجتهاد الجغرافى فـيه ، من أجل اجراء المسح الجغـرافى ، وعمـليات تسـجيل وحـصر الأنماط الاسـتخدامـية المتنوعة .

كما أعطى ستامب المثل منذ البداية مرة أخرى على أهمية التقييم ، وكيف أطلق العنان لكى يجد الاجتهاد الجغرافى نفسه ، فى موقف يلتزم فيه ، باضافة مجددة فى العمل والبحث الجغرافى التطبيقى . وهذا معناه أن هذا التجديد قد ولد فى معهد بريطانى ، فى أواخر الخمسينات من القرن العشرين ، لكى يعلن عن بداية التحول ونشأة الجغرافية المعاصرة .

واستيعاب وتقصى مسائل استخدام الأرض ، تستوجب حسن تحرى العلاقة بين الانسان ، وهو يتعامل مع طبيعة وخواص الأرض من ناحية ، والأرض وطبيعة خواصها ، وهى تجاوبه أو وهى تطاوعه من ناحية أخرى . كما ينبغى أن يكون الجغرافى على بينة بتفاوت مستويات الاستخدام ، وهى تتراوح بين الاستخدام الجائر وكيف يطعن فى قدرات الأرض على الاستجابة ، والاستخدام التقليدى الجامد وكيف يتشبث بالقديم ويرفض التجديد أو التغيير ، والاستخدام المتطور الذى يلتمس أساليب التجديد والنمو والتغيير فى طلب الأفضل .

هذا وفى الوقت الذى يعتمد فيه الجغرافى على التقييم فى حسن التمييز بين هذه المستويات المتفاوتة ، ينبغى أن يعتمد على التقييم مرة أخرى فى رصد دواعى تفاوت هذه المستويات ، حتى يعرف كيف يقدم الترشيد المناسب وتدارك الخطأ الذى يقع فيه الاستخدام الجائر أو تدارك دواعى الجمود والتحجر، الذى يعرض أو يعترض عن التغيير إلى ما هو أفضل . ويكون وكأنه يسأل عن سلبيات فى طبيعة خواص الأرض يتضرر بها الاستخدام ، وتستحقق العلاج الذى يتداركها . كما يكون وكأنه يسأل عن سلبيات الانسان وتردى تعامله فى الأخطاء ، التى يتضرر بها الاستخدام مرة أخرى .

هذا وفى وسع الخبرة الجغرافية أن تقيم التحدى الذى تجاهر به الأرض وخواصها أو تتستر عليه ، فيرشد الانسان لكى يعرف كيف يكبح أو يبطل مفعول هذا التحدى وصولاً إلى مستوى التعامل الأفضل. وفى وسع الخبرة الجغرافية أيضاً أن تقيم العجز الذى يستغرق فيه الانسان ، أو الجهل الذى يوقع به فى الخطأ لكى يعرف كيف ينصح بتحسين الأداء وصولاً إلى مستوى التعامل الأرشد .

وفضلاً على ذلك كله نقول أن موضوعية استخدام الأرض ، وهى تتدارس أوجه التعامل معها ، التى يطلب الانسان بموجبها الانتاج ، أو اقامة السكن أو توزيع الخدمات توفر الفرصة المناسبة لكى يجد التقديم أو التمهيد الأنسب على محاور اهتماماته المتنوعة . وقل أن استخدام الأرض فى الانتاج ، مدخل حسن ومفيد لاهتماماته التى تغطيها دراسته فى الجغرافية الاقتصادية . وقل أن استخدام الأرض فى اقامة السكن لحساب الاستقرار ، مدخل حسن ومناسب ومفيد لاهتماماته التى تغطيها دراسته فى جغرافية العمران . وقل مرة ثالثة أن استخدام الأرض فى اقامة وتوزيع الخدمات ، مدخل مناسب ومفيد لاهتماماته التى تغطيها دراسته فى جغرافية الخدمات . وتجسد الدراسة فى جغرافية الخدمات شكلاً من اشكال التجديد وتوسيع دائرة الاهتمام الجغرافى بها .

ومن الجائز أن البداية كانت متأنية ، ولكن الدراسة كانت مفيدة وموضوعية لأنها تطلعت إلى اداء اكبر قدر من الترشيد لعمليات استخدام الأرض بأساليب افضل . ومن الجائز أن تطور التصوير الجوى بواسطة الطيران العادى ، أو بواسطة الأقمار الصناعية ، قد أسعف الاجتهاد الجغرافى فى موضوع استخدام الأرض ، وقدمت له مجموعات الصور الجوية الجديدة ، والتى يجيد الجغرافى قراءتها والتعرف على أنماط استخدامات الأرض المتنوعة التى تنبئ به هذه الصور الجوية . ولكن المؤكد أن عمليات الدراسات الميدانية والرؤية الجغرافية المباشرة فى الأرض ، هى السبيل الأنسب لأداء المهمة المنوط بالاجتهاد الجغرافى ، فى موضوع استخدام الأرض .

وربما استشعر الاجتهاد الجغرافى فى هذا الفرع الجديد والمجدد لحيوية الجغرافية المعاصرة ، حاجة إلى الدراسة المكتبية أيضاً ، من أجل استكمال حلقات البحث الموضوعى ، الذى يتمم مهمة العمل التطبيقى فى موضوع استخدام الأرض . ومع ذلك فإن مسئولية الاجتهاد الجغرافى تكون كبيرة ، عندما ينكب على تقييم وحسابات الجدوى المعقدة ، من زوايا متعددة لعمليات وأنماط استخدامات الأرض . ولكى يكون التقويم موضوعياً وسوياً ومفيداً ، لحساب الترشيد المطلوب للاستخدام الأفضل ، ينبغى أن يتقصى الاجتهاد الجغرافى الواقع

الجغرافى الطبيعى فى الأرض المستخدمة ، وأن يدرك مدى استجابة هذه الأرض للأنماط الاستخدامية السائدة فيها . كما ينبغى أن يتقصى الاجتهاد الجغرافى الواقع البشرى فى الأرض المستخدمة ، وأن يدرك مدى كفاءة وجدية العمل فى أنماط الاستخدامات السائدة فيها .

ومن شأن هذا التقييم الموضوعى السوى ، أن يتحسس التحديات وجدوى تأثيرها الحاكم الذى يواجه أو يتسلط أو يعاند أنماط الاستخدامات المتنوعة . ومن شأنه أيضاً ، أن يتحسس حجم ونوعية وفاعلية الضبط البشرى ، الذى يتصدى لهذه التحديات ، وكيف طوعها أو أحبطها أو أبطل مفعولها ، وكيف أطلق قدراته لانجاح أنماط الاستخدامات السائدة فى الأرض . وكأن الاجتهاد الجغرافى مسئول ، عن تصور الصراع بين الانسان والأرض ، وتصور أسباب وأبعاد هذا الصراع ، فى مجالات التفاعل بين الانسان والأرض ، قبل عرض الرؤية الجغرافية لنتيجة هذا التفاعل ، وما يسفر عنه استخدام الأرض من عطاء من حيث الكم والكيف فى وقت واحد .

ومن الجائز أن يرشد هذا التقييم الجغرافى الموضوعى الاجتهاد الجغرافى إلى ادراك جدوى هذا الضبط البشرى ، ومقدار كفاءته ونجاحه فى دعم أداء الانسان الذى يستخدم الأرض . ولكن المؤكد أن يضع هذا التقييم الجغرافى الموضوعى ، يد الاجتهاد الجغرافى على أطراف الخيوط، التى يمكن أن تقود وتوجه وترشد عمليات تحسين أداء الانسان ، فى استخدام الأرض السائدة بالفعل أحياناً ، أو التى يمكن أن تقود وتوجه وترشد عمليات تغيير أنماط استخدامات الأرض واحلال أنماط استخدامية أفضل أحياناً أخرى . بمعنى أن هذا التقييم الجغرافى الموضوعى فتح باباً مهمًا لحساب الخبرة الجغرافية ، التى ترشد أساليب استخدامات الأرض ، سواء من خلال ترشيد تحسين الأداء ورفع كفاءة وجدوى العمل البشرى فى الاستخدام ، أو من خلال ترشيد تغيير أنماط الاستخدام طلباً للاستخدامات الأنسب فى الأرض .

والفرع الجديد الثانى ، قد تمثل فى موضوع **التخطيط الاقليمى**. وقد تولى الاجتهاد الجغرافى وضع قواعد وأسس هذا الموضوع الذى يعالج مسائل وقضايا تطبيقية بصفة خاصة . كما حدد هذا الاجتهاد

الجغرافى فى التخطيط الاقليمى دوراً رائداً للخبرة الجغرافية ، فى عمليات التنمية وتحسين الاستخدام فى كافة أشكاله ، لحساب الانسان ومصلحته فى حركة الحياة ، اقتصادياً واجتماعيًا وحضارياً . بل لقد أصبح التخطيط الاقليمى هو الأسلوب التخطيطى الأمثل ، لحساب الانسان، ومن خلال اجتهاد الانسان .

ومن الجائز أن البداية كانت يوم أن طلب الاجتهاد الجغرافى – وهو صاحب سبق وريادة فى استخدام الأرض – الاسهام برأى مباشر فى أى قرار يمس مستقبل استخدام الأرض ، على أى وجه من الوجوه . ومن الجائز أن استجاب الاجتهاد الجغرافى لهذا النداء ، وأدلى برأيه فعلاً فى مرحلة أو المراحل المبكرة التى شهدت الأخذ بالتخطيط سبيلاً لاستيعاب تنفيذ أهداف عمليات التنمية . ولكن المؤكد أنه اشترك اشتراكاً مباشراً، فى التخطيط الاقتصادى والتخطيط الاجتماعى وغير ذلك من أنماط التخطيط القطاعى . وقد برهن هذا الاشتراك على أنه اجتهاد مفيد يبصر يرشد ، ولا ينبغى الاستغناء عن عطائه وعن خبراته الجغرافية .

ومن خلال التقويم ، اكتشف الاجتهاد الجغرافى جدوى التخطيط الاقليمى بالقياس إلى جدوى أشكال التخطيط القطاعى التى تفتقد الشمول والتوازن بين كافة القطاعات المتنوعة . بل ولقد تبين للاجتهاد الجغرافى أن التخطيط الاقليمى ، يتجنب كل سوءات الأشكال الأخرى والتى تنحصر فى مشاكل التعايش بين النمو والتجديد فى قطاع أو بعض القطاعات والجمود والتقليد فى قطاعات أخرى . بمعنى أنه تنبه إلى مشاكل التعايش بين التقدم والتأخر فى وعاء واحد ، وإلى أن التخطيط الاقليمى يكفل النمو المتوازى والمتوازن والمتزامن لعملية التنيمة الشاملة فى كل قطاعات الحياة . بل قل انه يحول دون الوقوع فى خطيئة التحيّز التنموى لقطاع معيّن أو اقليم معيّن .

وقل أن أهم ما يميزّ الاقليم التخطيطى أنه يتمتع بالخصوصية والتفرد . ومن الجائز أن تكون هذه الخصوصية خاصية تتحدث عن تفرد الأرض ، وهى المسرح على صعيد المساحة المعينة المؤهل لوجود حركة الحياة . ومن الجائز مرة أخرى أن تكون هذه الخصوصية

خاصية تتحدث عن تفرد أوضاع وأحوال حياة وأنشطة وسبل تعايش أو تعامل حركة الحياة على المسرح . ومن الجائز مرة ثالثة أن تكون هذه الخصوصية عامة تتحدث عن تفرد خصوصية المسرح وطبيعته ، وعن تفرد حركة الحياة وهى تحيا وتتعايش وتتعامل على هذا المسرح . وفى وسع الجغرافى أن يرصد هذه الخصوصية أو هذا التفرد ، وأن يلتمس الأطر الذى تحتويه لكى يكون الاقليم التخطيطى ، وهو الأنسب لانجاز عمليات التنمية . وقل أنه الأنسب لأن وضع وتنفيذ المشاريع الانمائية تجاوب الخصوصية التى يتفرد بها الاقليم التخطيطى ، حتى تكون هذه المشاريع مناسبة لطبيعة وخواص المسرح وليست غريبة على الأرض، ومناسبة لوجود حركة الحياة وقدراتها على صناعة التغيير ومتابعته والانتفاع به وليست غريبة على الناس .

وعلى صعيد أى دولة من الدول يتبين الجغرافى ، مبلغ التباين بين طبيعة الأرض من ناحية ، ووجود حركة الحياة على هذه الأرض من ناحية أخرى ، ويستشعر شيئًا واضحًا من العمومية ويفتقد الخصوصية. ومن أجل هذه الخصوصية يتلمس الجغرافى مجموعة الأقاليم التخطيطية ، التى تتسم بالخصوصية . ونذكر على سبيل المثال أن العمومية تجمع بين اقليم الفيوم التخطيطى واقليم صعيد مصر، ولكن الخصوصية تستوجب التماس الفصل بين خصوصية يعلن عنها طبيعة الأرض وهى المسرح فى اقليم الفيوم التخطيطى فى جانب، وخصوصية أخرى تعلن عنها طبيعة الأرض وهى المسرح فى اقليم الصعيد التخطيطى . وأرقب بالمثل الخصوصية التى تستوجب الفصل بين اقليم سيناء الشمالية ، واقليم قناة السويس التخطيطى ، واقليم الدلتا التخطيطى .

وانكب الاجتهاد الجغرافى على صياغة اطار التخطيط الاقليمى وصياغة القاعدة التى يرتكز إليها . ولقد وجد فى الخبرة الجغرافية أهم المؤهلات والكفاءة ، لكى تتولى هذه الخبرة قيادة فريق المخططين ، أو أن تجلس فى مقعد المستشار بعد تحديد أطر الأقاليم التخطيطية ، وبعد تسجيل ما هو كائن ، لكى تضيف للتنمية ما سوف يستجد . وهو مسئول – فى اطار الفريق الجامع للمتخصصين – عن :

١ – اعداد وتجهيز الخطة فى اطار اقليم تخطيطى .

٢-برمجة مشاريع التنمية فى الاطار الشامل لكل القطاعات ، التى تمس واقع الحياة فى هذا الاقليم .

٣- عن الاشراف المباشر مع شركائه فى الفريق عن حسن تنفيذ البرامج الانمائية ، على المدى الزمنى المقترح ، من غير اخلال بالنمو المتوازى والمتوازن والمتزامن فى مجموعة الأقاليم التخطيطية .

ويدرك الاجتهاد الجغرافى الحاجة الملحة إلى حسن الانتفاع بالدراسة الميدانية ، فى هذا الفرع الجديد الذى يخدم التخطيط الاقليمى للتنمية . وتتخذ هذه الدراسة الميدانية ، لحساب العمل التطبيقى البحت شكلاً خاصاً ، يتجاوز ما تبتغيه الرؤية الجغرافية العامة والخاصة . وهناك أولاً مرحلة الاجتهاد الجغرافى لتحديد الاقليم التخطيطى ، الذى يمثل الوعاء الأنسب من حيث وضع وتنفيذ واستيعاب أهداف الخطة الشاملة . ويلى ذلك مرحلة المسح الجغرافى الشامل المكثف ، الذى تتكشف له الرؤية والمعاينة لأنماط الاستخدامات ، وكل القطاعات التى ينبغى ادراج حصة لها فى خطة التنمية فى الاقليم التخطيطى .

وفى هذه الدراسة الميدانية المكثفة ، يكون الاجتهاد الجغرافى مسئولاً عن تقويم الاستخدامات فى كل القطاعات الحياتية فى الاقليم التخطيطى ، تقويماً كاشفاً لسلبيات هذه الاستخدامات القائمة بالفعل . كما يكون مسئولاً عن تقويم وتقصى قدرات الناس على استيعاب التغيير المرتقب ، وتحسين الأداء وتجنب سوء الاستخدام . هذا بالاضافة إلى مسئولية الاجتهاد الجغرافى عن تقصى امكانيات التوازن بين تنفيذ برامج عمليات التنمية الشاملة ، التى ينبغى أن تتفرغ وتتخصص فى تحسين الاستخدامات ، فى قطاع الانتاج ، وفى قطاع السكن وفى قطاع الخدمات ، تحسيناً متوازياً ومتزامناً .

وايماناً من الاجتهاد الجغرافى بأن التنمية تكون بالضرورة لحساب الانسان ، وأنها لا تتأتى إلا من خلال قدرات وكفاءة أداء الانسان ، فإنه يتولى تقييم هذه القدرات وحساب جدواها . ومن ثم يبصر امكانات شحذ وتصعيد أو تربية وتنمية هذه القدرات ، ويحدد درجات الاستجابة التى يمكن أن تسفر عنها هذه القدرات، فى تنفيذ عمليات برامج التنمية.

ويضيف الاجتهاد الجغرافى إلى ذلك كه ، استطلاع واسع مكثف ، يجمع ما ينبغى جمعه من بيانات ومعلومات واحصاءات وتقصى درجة الصدق فيها ، لحساب بناء التركيب الهيكلى للخطة فى الاقليم التخطيطى .

وهكذا يتخذ الاجتهاد الجغرافى من الدراسة الميدانية المكثفة والمسح الجغرافى فى الاقليم التخطيطى ، مجالاً لرؤية كاشفة وعميقة . ومن شأن هذه الرؤية أن تصور الواقع الجغرافى الطبيعى بكل جوانبه عن الأرض التى تحتوى برامج خطة التنمية الاقليمية . ومن شأن هذه الرؤية أيضاً أن تصور الواقع الجغرافى البشرى بكل جوانبه عن الناس ء الذين يتحملون مسئولية الأداء أعمالاً وتنفيذاً لخطة التنمية الاقليمة ، ويتنعمون بثمراتها ، اقتصادياً وحضارياً واجتماعياً .

ومن الطبيعى أن يحقق الاجتهاد الجغرافى أهداف هذه الدراسة الميدانية المكثفة فى الاقليم التخطيطى ، من خلال كفاءة وعمل الفريق ، الذى يضم مجموعة من المتخصصين والفنيين فى تخصصات علمية تجريبية وتطبيقة متعددة . وعلى الاجتهاد الجغرافى تقع مسئولية قيادة عمل الفريق فى الدراسة الميدانية . ومن شأنه أن يوجه المسح الجغرافى والحصر الاحصائى والاستطلاع البيانى ، وأن ينسق مراحل الجهد والعمل الذى ينكب على جمع أوصال تجسيد الرؤية الكاشفة ، التى تجلو الواقع كله فى الاقليم التخطيطى .

وتجسيد هذه الرؤية الكاشفة لكل جوانب وأبعاد وأعماق الواقع ، فى اطار التفاعل الحياتى بين الناس والأرض ، وصدقها الموضوعى ، مسألة . بوية وضرورية . ومنها وعليها وبها تكون كل الحسابات من أجل وضع الخطة – بكل الحبكة – فى اطار الاقليم ، ومن أجل تضمين البرامج الانمائية المتنوعة والمتكاملة فى اطارها الشامل ، ومن أجل تنفيذ هذه البرامج على المدى الزمنى المعين . وهذا معناه أن تحريك عملية التنمية فى الاقليم التخطيطى ، وتحقيق أهداف عملية التنمية التى توضع الخطة من أجلها . لا يمكن ولا ينبغى أن تبدأ من فراغ أو أن تفتقد القاعدة .

وهكذا تصبح الرؤية الكاشفة للواقع قاعدة انطلاق ، يبدأ منها أو

يتولد منها التغيير الذى يعدل مسارات الاستخدامات ، أو التغيير الذى يجدد ويضيف بعض الاستخدامات ، وصولاً إلى أهداف عملية التنمية .
وقد تكون حاجة فريق المخططين إلى تجسيد هذه الرؤية الكاشفة أهم من ذلك كثيراً . ذلك أنها تبصر وترشد فريق المخططين ، بمقدار حاجة الاقليم إلى عملية التنمية ، أو بمقدار استجابة الأرض والناس فى الاقليم لعملية التنمية ، من خلال خطة اقليمية شاملة ، أو من خلال مجموعة خطط اقليمية متكاملة ، يتوالى تنفيذها مرحلياً من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى . كما أنها تبصر وترشد فريق المخططين ، بالمدى الزمنى الأنسب للتنفيذ الفعلى ، والممارسة العملية لعمليات وبرامج التنمية ، فى اطار أى اختيار انسب للاقليم من ناحية ، وبأساليب الربط وصياغة الجسور والعلاقات السوية بين برامج وأهداف عمليات التنمية ، التى تحتويها مجموعة الأقاليم التخطيطية من ناحية أخرى ، وصولاً إلى ثمرة التكامل التخطيطى الشامل ، تحت مظلة التوازن والتوازى والتزامن فى اطار الدولة .

وفى مرحلة وضع الخطة الاقليمة ، وصياغة وبرمجة وتنسيق البرامج الانمائية فى الاطار الشامل الجامع لبنية هذه الخطة ، يتولى الاجتهاد الجغرافى بمهارة ، قيادة الفريق المشترك من زمرة متخصصة فى علوم طبيعية وعلوم انسانية (١). ومهارة هذه القيادة الجغرافية ، تعتمد – بكل تأكيد – على خبرتها وقدرتها فى التركيب والتحليل ، الذى يخدم التنسيق ، وعلى حسن توليف وصياغة البرامج الانمائية وتضمينها فى الخطة العامة الاقليمية ، وصولاً إلى الحد الأنسب من

---

(١) قيادة فريق المخططين لا تمثل قيادة املاء وتسلط . ولكنها قيادة ابداع وتنسيق. ذلك أن الخبرة الجغرافية التى تبدع من خلال التركيب فى جميع أوصال الرؤية وتجسدها ، تبدع من خلال التحليل فى تشريح هذه الرؤية وتتكشف لها تفاصيلها ، تقوم بدور التنسيق البديع بين حصص أعضاء الفريق المتخصص فى صياغة التصور الذى تصاغ فيه الخطة . وقيادة المايسترو لفريق العازفين تعطيه فضل الخلط والمزج والتنسيق بين النغمات من أجل المعزوفة الجميلة . ولكن ذلك كله لا يسقط أو يضيع أو يخفى مهارة وتخصص وحسن اداء كل عازف من أعضاء الفريق . وهل هناك أفضل من خبرة الجغرافى فى حسن استخدام الحس والادراك الكاشف للواقع ، الذى تبنى عليه ، ومن أجل حسن تنفيذ الخطة فى الاقليم ؟

حسن التنسيق بين هذه البرامج الانمائية زمانيًا ومكانيًا ، وفى وقت واحد .

بل وتكون هذه المهارة مطلوبة للانتقال لدى التنفيذ بالعمل من خلال التقييم وحساب الجدوى فى هذا التنفيذ ، من الاستخدام السئ أو الاستخدام الجائر أو الاستخدام التقليدى الجامد ، إلى الاستخدام الاقتصادى ، ومن غير هزات أو اضطرابات يتضرر منها التركيب الهيكلى للبناء الاقتصادى ، والبناء الاجتماعى ، والبناء الحضارى ، فى الاقليم .

وبالاضافة إلى هذين الفرعين الجديدين ، استخدام الأرض والتخطيط الاقليمى وما أسفر عنهما من تجديد فى الجغرافية المعاصرة تبنى الاجتهاد الجغرافى بعض ظاهرات بشرية أخرى ، وخصص لها فروعًا تظللها مظلة الجغرافية البشرية . وقد أولاها - بكل تأكيد - ما تستحقه من اهتمام وبحث موضوعى ، من خلال دراسات موضوعية ، ميدانية ومكتبية . وقد اتبع أسلوب التوزيع والتعليل والتحليل ، ثم أضاف إليه التقييم ، لكى يحقق أو يستخلص نتائجاً موضوعية ، تنتفع بها مصلحة الانسان فى الحياة .

ومن هذه الظاهرات البشرية ، نذكر المرض الذى يهاجم صحة الانسان ويضعف بنيانه ويؤثر على قدراته . وقد خصص جغرافية المرض أو الجغرافية الطبية لمعالجة هذه الظاهرة البشرية ، على مستوى الاقليم ، أو على مستوى مجموعة الأقاليم ، أو على مستوى العالم كله . وكان من شأن هذا الفرع المتخصص أن يجلو العلاقة بين المرض ومدى انتشاره فى المكان ، وأن يقوم العامل التى تضبط أو تحكم انتشار المرض فى المكان . وقد يعكف أيضاً على ترشيد حركة مواجهة انتشار المرض، وانجاح الاجتهاد الطبى أو الصحى الوقائى ، الذى يطارد المرض ويحبط انتشاره .

ومن الظاهرات البشرية أيضاً ، نذكر العقيدة الدينية التى تكمن فى أعماق الانسان ، وتعمق ايمانه بالله وقدرة الخالق وعظمة الخلق . وقد خصصت الجغرافية المعاصرة جغرافية الأديان لمعالجة هذه الظاهرة

وتعقب انتشار وتوطن الأديان على مستوى الأقاليم ، أو على مستوى العالم كله . وكان من شأن هذا الفرع المتخصص أن يجلو العلاقة بين العقيدة والدين وهى زاد روحى يطلبه الانسان ، وواقع المكان وعوامل وضوابط انتشاره فى كل مكان ، وأن يقوم العامل الدينى ومدى فاعليته فى انضباط أفضل فى حركة الحياة . وقد يعكف الاجتهاد الجغرافى أيضًا على ترشيد التعايش بين الديانات والعقائد وتخفيض معدلات الصراع والمواجهات ، وتقييم العلاقة بين العقيدة وبعض جوانب التفرقة العنصرية أو التعصب الدينى ، ومشكلاته الانسانية فى السياسة وحركة الحياة .

ومن الظاهرات البشرية التى شحدت انتباه الاجتهاد الجغرافى قضية الخدمات التى تجاوب حاجة الانسان وتلعب دوراً مهماً فى حساب مستوى المعيشة . ويتحرى الاجتهاد الجغرافى التمييز بين خدمات البنية الأساسية التى تغطى مطالب حركة الحياة ، وهى تحيا وتباشر أنشطتها ، والخدمات السيادية التى تتحمل الدولة مسئولية توفيرها بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر بترخيص خاص من سلطة الدولة، والخدمات الانسانية التى تغطى شيئًا كثيراً من الاهتمام والعناية بالانسان . وأهم ما يهم الاجتهاد الجغرافى تحرى التوزيع الجغرافى للخدمات الأنسب ، وعرض انتاجها بالكم والكيف المناسب لكل من يستحق ما يبتغيه من هذه الخدمات . ويتحرى الاجتهاد الجغرافى تقييم كفاءة هذه الخدمات حساب المتاح من هذه الخدمات وانتاجها بالقياس إلى المعدلات العالمية . كما تتحرى أيضًا سبل الجمع بين نصيب الفرد من الدخل القومى ، ونصيبه من انتاج الخدمات المتنوعة من أجل حساب أفضل ، وأكثر تعبيراً عن مستوى معيشة الفرد . وفى وسع الاجتهاد الجغرافى أن يرشد تنمية الخدمات المتاحة أحيانًا ، أو أن يرشد اعادة النظر فى توزيعها الجغرافى فى اطار الرؤية الجغرافية ، للعلاقة بين توزيع وحجم انتاج الخدمات من ناحية ، وتوزيع وكثافة السكان من ناحية أخرى .

* * *

وبشأن هذا التجديد فى الجغرافية المعاصرة ، ينبغى أن نسجل ملاحظتين هامتين وموضوعيتين ، عن معنى التجديد وامكانياته ونتائجه .

وتصور الملاحظة الأولى معنى التجديد من خلال الاضافة المجددة، وكيف تسفر عن عطاء يضاف إلى تراث الجغرافية .

وتصور الملاحظة الثانية معنى التجديد من خلال التغيير المجدد، وكيف يسفر عن تغيير فى أبعاد ومفاهيم ورصيد وتراث الجغرافية .

والاضافة المجددة والتغيير المجدد معًا ، يمثلان أعظم شكل من أشكال الاستجابة لعملية التقييم الموضوعى للظاهرة المعنية ، التى أولاها الاجتهاد الجغرافى فى هذه المرحلة اهتمامه . بمعنى أن نثق فى التقييم الموضوعى للظاهرة المعنية ، لأنه هو الذى يفتح الباب على مصراعيه ، لكى ينكب الاجتهاد الجغرافى على صنع الاضافة المجددة ، أو صياغة التغيير المجدد ، فى بنية الجغرافية المعاصرة ، وفى رصيدها وتراثها العلمى . والاضافة المجددة والتغيير المجدد معاً ، يمثلان فى نفس الوقت أروع شكل من أشكال الاستجابة الجغرافية المعاصرة ، لتوظيف الاجتهاد الجغرافى ، فى أداء كل ما من شأنه أن يلبى مصلحة الحياة ، ويبصرها ويرشدها إلى ما هو أفضل .

وعن التصور الأول الذى يبين كيف يتأتى فيه التجديد من خلال الاضافة المجددة ، وكيف تبنى الاجتهاد الجغرافى ظاهرات بشرية معينة من أجل ترشيد حركة الحياة ، ووجودها ومصالحها فى الأرض ، تخصص الجغرافية المعاصرة فروعاً جغرافية متخصصة لدراستها . وينبغى أن ندرك – بكل الفطنة – كيف بنى أو نشأ هذا الاهتمام الذى أسفر عن اضافة فروع مجددة لحيوية الجغرافية البشرية ، فى اطار تحديد اقليمى واضح . ومن الجائز أن يعبر ذلك الاتجاه ، عن تطور فعلى فى الدراسة الاقليمية – وهذا صحيح – فى اطار الجغرافية المعاصرة . ومن الجائز أيضاً أن يعبر ذلك الاتجاه ، عن هدف أو أهداف يبتغيها ويرسم الاجتهاد الجغرافى مساره إليها – وهذا صحيح أيضاً – فى اطار الجغرافية المعاصرة . ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الجغرافى قد

أدرك قيمة الوحدة الجغرافية الاقليمية ، وكيف أنها الوعاء الأمثل الذى ينبغى أن يركز فيه بحثه الموضوعى أو التطبيقى ، أو أن يصب خبرته واهتمامه وهو يدرس الظاهرة البشرية المعنية . وهذا فى حد ذاته هدف وغاية صحيحة تستهدفها الجغرافية المعاصرة ، وتشد أزرها فى مواجهة المتشككين فى سلامة وصدق اتجاهاتها ،والخائفين عليها من أن تضل .

وهكذا يتخفف الاجتهاد الجغرافى فى أحضان الجغرافية المعاصرة من التركيز على دراسة العموميات واصدار التعميمات ، على مستوى أوسع من الاقليم المتميز جغرافيًا . ولكن ذلك لا ينبغى أن يصور الجغرافية المعاصرة ، وقد أقلعت عن النظرة الكلية أو تنكرت للنظرة الشاملة التى تطل على العالم ، وهى تستشعر وحدة الأرض ووحدة الناس ، ووحدة المصير والهدف الحياتى فى هذا العالم . ولا تعارض بين دراسة جغرافية أكثر عمقاً فى الأقليم ، ونظرة كلية على مستوى العالم الفسيح ، إلا إذا كانت النظرة الكلية تعمم ، ولا تعمق البحث الجغرافى الموضوعى العلمى التطبيقى .

وفى اعتقادى – على كل حال – أنه إذا كانت الجغرافية المعاصرة قد أقلعت عن شئ مما عاشت فيه الجغرافية الحديثة قبل الخمسينات من هذا القرن ، فهو أنها تتجنب الآن دراسة الجزء من خلال الكل ، وتحولت إلى دراسة الكل من خلال الجزء . بمعنى أن الدراسة الجغرافية المكثفة فى اطار الاقليم ، ينبغى أن تؤدى إلى تجميع أوصال كل دراسة تغطى كافة الأقاليم ، وصولاً إلى الدراسة الكلية على مستوى العالم . ومن ثم كان اهتمام الجغرافية المعاصرة واضحاً ، وهى تتعقب القواعد والأسس التى تسفر عن تقسيم أو تقسيمات اقليمية ، لكى تحتوى الاجتهاد الجغرافى المكثف ، ويدور فى اطارها أداؤه الجغرافى المتخصص فى البحث أو البحوث ، التى يبتغيها التجديد ، والفروع المجددة لحيوية ونشاط وأهداف الجغرافية المعاصرة .

من خلال هذا التجديد ، نرقب ونسجل مدى نجاح الجغرافية المعاصرة فى حسم ثلاثة مسائل هامة فى العمل الجغرافى بصفة عامة. وتتمثل هذه الأمور فى :

١- انتقال الجغرافية المعاصرة بفكر متفتح واجتهاد منفتح ، انتقالاً سوياً ومنطقياً إلى مرونة العمل والبحث التطبيقى فى الاطار الاقليمى . ومن الجائز أن الجغرافية المعاصرة قد شاركت غيرها من العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية على حد سواء ، فى العمل التطبيقى ، الذى يبتغى مصلحة الانسان ، ويخدم حركة الحياة وتطويرها إلى ما هو أفضل . ولكن المؤكد أن هذه الجغرافية المعاصرة ، قد تملصت من جمود النظرية بالفعل ، وانساقت فى المرونة الموضوعية والتطبيقيةلكى نشترك فى ترشيد الابداع البشرى وحرصه على حق السيادة والتسيد علـى الأرض .

وقد احتلت الجغرافية المعاصرة بذلك التحول مكانة مرموقة فى الأداء ،وهى تتولى قيادة الفريق المشترك ، من أجل العمل الجماعى التطبيقى وتنسيق ايقاعه الرتيب ، لحساب تسيد الانسان على الأرض. وما زالت الآفاق الرحبة تتفتح وتنفتح من يوم إلى يوم آخر ، لكى يوالى هذا التحول وما أسفر عنه من تجديد دوره البناء فى ترسيخ خبرات الجغرافية المعاصرة ، وتوظيفها فى أى غزو تطبيقى مفيد ، يملأ هذه الآفاق اجتهاداً وبحثاً وتجديداً واضافة ، لحساب الحياة الأفضل .

٢- أنهت الجغرافية المعاصرة الصراع الفكرى والجدل الموضوعى الذى احتدم بين الحتم الجغرافى وفكره المتزمت الصارم ، والامكان الجغرافى وفكره الفضفاض المتسيب انهاء واقعياً . ومن الطبيعى أن أدركت الجغرافية المعاصرة معنى التحدى البيئى ، وكيف يواجه ويعاند حركة الحياة . وما من شك فى أنها قومت أبعاده وتلمست مدى معاندته وصموده لإرادة الحياة . ومن الطبيعى أيضاً أن أدركت الجغرافية المعاصرة معنى الضبط البشرى ، وكيف يتصدى للتحدى البيئى ويحبط معاندة حركة الحياة . وما من شك فى أنها قومت قدرات هذا الضبط ، وتلمست مدى انتصاره لإرادة الحياة .

ولكن المؤكد أن الجغرافية المعاصرة قد رفضت بكل الحسم ، فكرة الحتم الذى يبشر بعجز الانسان ، وامتثاله وتسيير إرادة الحياة طوع بنيان هذا التحدى البيئى ، لأن يمتهن قدرة وكفاءة وصمود الانسان،

ولأنه يستنكره أو يكره ويتنكر له . وهو يشق طريق فى الحياة كما أنها رفضت بنفس الحسم فكرة الامكان الذى حرر الانسان وبشر بقدرة تسلط وتفوق من غير حدود . وتسيير إرادة الحياة رغم أنف التحدى البيئى . لأنها تستهين بمعنى التحدى البيئى . وتنكر أو تتنكر لصموده ومعاندته وهو يسد طريق الحياة .

وقد تبنت الجغرافية المعاصرة فكرة جديدة (١) وتصور جديد يتسم بالواقعة والموضوعية . ذلك أن هذه الفكرة لا تنكر ولا تتنكر لمعنى التحدى البيئى ومدى صموده وتحسب حسابه جيداً ، ولا تنكر ولا تتنكر لمعنى الضبط البشرى ومدى تفوقه وتحسب حسابه جيداً .

ومن ثم تخرج الفكرة التى تتدارك خطيئة الحتمية وهى Stop and go Determinisn التى بنيت على قبول بأن يكون التحدى البيئى علامة حمراء توقف مسيرة الحياة . وعلى قبول أيضًا بأن هذا التوقف الوقتى ، يكون من أجل ابداع الضبط البشرى ، الذى يحبط أو يبطل مفعول التحدى ، ويصطنع علامة خضراء تنير طريق مسيرة الحياة . وكأن الجغرافية المعاصرة قد جنحت إلى استشعار الصراع بين سلاح التحدى البيئى ، وسلاح الضبط البشرى مرة ، وإلى استشعار نجاح الانسان بعد وقفة ابداع ، فى المضى وتسجيل انتصار إرادة الحياة مرة أخرى .

وتعقيباً على هذا التفكير الذى يتحرى شيئًا من التماس تجميل موقف الحتمية، وتخفيف حدة الانحياز إلى صف الطبيعة ، وتحسين صيغة الاستخفاف بالانسان ، كان التفكير الذى تحرى التخلص من التحيز سواء كان هذا التحيز من شيمة الحتمية ، أو من شيمة الامكانية. ومن ثم كانت النظرة المتوازنة التى تتجنب الانحياز ، أو

---

(١) نشأ هذا التصور الجديد فى أحضان فكرة التطويع الواقعى . بمعنى أن الانسان يطوع الأرض أكثر مما يطاوعها ويمتثل لها ، وأن الأرض تطاوع الانسان أكثر مما تطوعه وتلزمه . ومع ذلك فكلاهما يطوع وكلاهما يطاوع وفى هذا انتصار واقعى وصحيح لإرادة الحياة . ومن غير تنكر أو انكار لإرادة التحدى لمصير الحياة

الاستخفاف بأى طرف من أطراف العلاقة بين الانسان والأرض ، وهو يتعايش مع خواصها الطبيعية أو وهو يتعامل مع مواردها المتاحة أو مصادرها الكامنة . ومن ثم تكون التعادلية Equalism التى تتصور هذه العلاقة بين الانسان والطبيعة وهى تتأتى تحت مظلة الضبط والانضباط المتبادل . وقل تسفر هذه المواجهة بين الانسان والأرض ، عن نقطة اتفاق تفصل بين المباح الذى يشهد قيام هذه العلاقة لكى تجاوب الأرض وغير المباح الذى لا ينبغى أن لا يتجاوزه الانسان حيث لن تجاوب الأرض. بل قل أن هذه النقطة الفاصلة بين المباح وغير المباح غير ثابتة ، بل هى قابلة للتغيير لحساب الانسان أحياناً عندما يشتد عوده وتتحسن مستويات أداء وسائله ، أو لحساب الطبيعة أحياناً أخرى عندما تباغت متغيرات خواص الطبيعة الانسان ، وتكاد تكون وكأنها تغدر به وتشق عليه عصا الطاعة .

٣- حملت الجغرافية المعاصرة علم الخرائط مسئولية الاستجابة لمنطق وأهداف التجديد فى الجغرافية . وقد بصرت العمل الفنى الذى يتفرغ لرسم وانشاء الخرائط ، لكى يخرج الانتاج من الرسوم البيانية الخرائط التى تجسد رؤية الجغرافية المعاصرة . بل لقد أولت الجغرافية المعاصرة الخرائط الاهتمام حتى تقف على قدم المساواة من الكلمة فى التعبير عن مضامين البحث الجغرافى سواء كان تطبيقيًا أو نظرياً . واستجابة علم الجغرافية لم تقف عند حد تطوير الأساليب واستحداث الأجهزة الأفضل ، وزيادة كفاءة تشغيلها فقط ، بل لقد لجأت إلى تطويع الطيران وحركة الأقمار الصناعية فى خدمة التصوير الجوى، وأحسنت استخدام هذا التطوير لانتاج الخرائط الأفضل . وتنعم الجغرافية المعاصرة فى الوقت الحاضر بانتاج هذه الخرائط والرسوم البيانية ، لأنها تجد فيها وسيلة تعبر بايجاز ووضوح شديدين عن مضامين البحث الجغرافى النظرى ، أو البحث الجغرافى التطبيقى ، على حد سواء . وهذا معناه أن تجديد الجغرافية المعاصرة قد أصبح قوة دفع وحافز حقيقى ، من وراء التجديد فى رسم الخرائط وتحسين دلالات التعبير فيها ، وفى رسم الرسوم البيانية .

عن التصور الثانى ، الذى يتأتى فيه التجديد من خلال التغيير ، فقد استمعت لمشيئة الجغرافية المعاصرة ، وقبلت بكامل اختيارها هذا التغيير وما يبتغيه . وينبغى أن نتبين هذا التغيير وكيف يبدو طفيفاً من حيث الشكل العام . ولكنه فى حقيقة الأمر يكون هذا التغيير تغييراً واقعياً ومؤثراً ، من حيث الجوهر والمضامين ، التى ينطوى عليها الفكر الجغرافى المعاصر .

ومن الجائز أن يعبر عن هذا التغيير ، قدر معقول من التطور فى مفاهيم واهتمامات وأهداف الدراسة فى بعض فروع الجغرافية البشرية ، وهذا صحيح تماماً فى اطار الجغرافية المعاصرة . ولكن المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى قد أدرك وتدارك أبعاد التجديد ، الذى يبتغيه التغيير فى هذه المفاهيم والاهتمامات والأهداف واستجاب له ، وهو يشحذ كل خبراته فى دراسة الظاهرة البشرية المعنية ، بالأسلوب الأنسب والمجدد . وهذا فى حد ذاته هدف وغاية صحيحة قد استهدفتها الجغرافية المعاصرة . بمعنى أن تبين الاجتهاد الجغرافى الغاية أو الهدف من دراسة هذه الظاهرة البشرية المعنية ، وانكب على الأسلوب الأنسب ، وصولاً إلى هذه الغاية ، من غير أن يتخبط أو من غير أن يتردد .

وربما دعا هذا التغيير الذى يجدد ، إلى رسم طريق الاجتهاد الجغرافى ، سبيل الوصول للغاية المستهدفة ، وإلى تخفيض معدلات الاهتمام ببعض جوانب موضوعية تخفيضاً واضحاً ، لكى لا يتضرر به البحث . وربما دعا نفس هذا التغيير إلى تكثيف الاهتمام ببعض جوانب موضوعية ، تكثيفاً واضحاً لكى ينتفع به البحث . ويكون التغيير فى الحالتين من قبيل التجديد بالفعل ، دون الخروج أو التملص من موضوعية وجوهر البحث . بمعنى أن الاجتهاد الجغرافى قد تخفف من بعض الأعباء ، التى لم يعد الفكر الجغرافى المعاصر يتطلع إليها بنفس حرص الفكر الجغرافى الحديث عليها من قبل ، وتحمل بعض الأعباء التى جدد بها الفكر الجغرافى المعاصر رؤيته لها . بل ربما اسقط الاجتهاد الجغرافى كل الاهتمام بهذه الأعباء ، التى انصرف الفكر

الجغرافى المعاصر عنها ، لأنه استشعر عدم جدواها ، أو لأن اسقاطها لا يخل بدور الجغرافية المعاصرة وأدائها الوظيفى ، فى البحث النظرى أو فى البحث التطبيقى [١]

وقد نجد فى التغيير الذى أسفر عن شكل من التجديد ، علامات تنبئ بتحول الجغرافية والاجتهاد الجغرافى تحولاً حقيقاً عن الاهتمام المتوازن بكل عنصر من العناصر التى تتداخل فى الرؤية ، أو فى تجميع أوصال هذه الرؤية الجغرافية البشرية أو الطبيعية . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى أخذ فى تنويع الاهتمام ، وأعطى لكل عنصر من هذه العناصر ما يستحقه ، من غير مساس بسياق الموضوعية المتكاملة ، أو بسياق الوضوح لهذه الرؤية الجغرافية . وربما بان تأثير هذا التغيير المجدد فى دراسات الجغرافية العامة على وجه الخصوص . بل لقد اعتبرت دراسة بعض العناصر التى تتداخل فى الرؤية الجغرافية العامة، مضيعة للوقت ، من غير أن ينتفع منها البحث .

ومن مظاهر هذا التغيير أيضاً تكثيف البحث عن بعض العناصر الجغرافية التى تسفر عن عنصر أو عامل جغرافى ، يلعب دوراً حاكماً فى صياغة وتركيب الرؤية الجغرافية . وضرب لذلك مثلاً بالعامل الذى يؤثر على البعد البشرى وجدوى هذا البعد وقدراته ، وهو يواجه التحدى ويضع علامات انتصاره وتسيده على الأرض . ومن هذا القبيل أيضًا تكثيف الاهتمام بالموقع الجغرافى الذى أصبح حجر الزاوية فى كثير من أمور الجدوى الاقتصادية . وكفاءة الخبرة الجغرافية ، وهى تؤدى دورها الوظيفى فى البحث لحساب العمل التطبيقى المباشر ، أو وهى تؤدى دورها الوظيفى فى البحث لحساب ترشيد التفاعل الحياتى،

---

(١) أسقطت الجغرافية المعاصرة بعض الفروع تماماً وتخففت من أعبائها ونذكر منها الجغرافية الاجتماعية كما خففت معدلات اهتمامها بجغرافية السلالات لأنها لم تعد تهمها فى غير البحث عن منطق تتفهم به أبعاد التفرقة العنصرية. وهناك تفاصيل وعموميات فى كثير من فروع الجغرافية البشرية خفضت معدلات الاهتمام بها . لأن سياق الموضوعية فى بحوث الجغرافية المعاصرة لا يتضرر من غيابها

أو تقديم الخبرة التى تشد أزر الحياة ، تطلب هذا التغيير وما يعنيه تكثيف البحث عن عناصر جغرافية معينة .

والمؤكد أن هذا التغيير المجدد فى حيوية ومفاهيم الجغرافية المعاصرة ، قد التزم دائمًا بكل ما من شأنه أن يضع ثمرات الخبرة الجغرافية فى خدمة الحياة . بل لقد أصبح اهتمام الجغرافية المعاصرة بدراسة الأرض والواقع الطبيعى فى أقاليم الأرض ، اهتماماً مسخراً فى الشكل ، وفى الموضوع ، وفى العمق ، وفى التأصيل ، بما تنتفع به الحياة . وربما أثار ذلك بعض التخوف من نتائج هذا الاتجاه ، لأنه قد يؤدى إلى عدم التوازن ، بين دراسة الجغرافية الطبيعية ودراسة الجغرافية البشرية . بل ربما تمادى وتصاعد هذا التخوف ، لأن عدم التوازن والخلل وتضيق الخناق يبرر دعوة بعض المفكرين إلى تغيير كلى يطعن فى الثنائية الجغرافية ، ويطمس تقسيم الجغرافية إلى قسميها الطبيعى والبشرى .

وهكذا يعبر هذا التغيير الذى أسفر عن تجديد فى اطار الجغرافية المعاصرة ، وفى اهتماماتها ، وفى أهدافها وفى حيويتها ، عن وسيلة من أهم وسائل تطويع البحث الجغرافى ، فى الجغرافية الطبيعية أو الجغرافية البشرية تطويعاً ، يطاوع ويجاوب ويخدم مصلحة الحياة . بل لقد أصبحت الحياة هى المقياس الدقيق ، الذى تعتمد عليه موضوعية وأهداف الجغرافية المعاصرة ، وهى تؤدى دورها فى البحث التطبيقى الموضوعى ، الذى يجاوب وينجز مصلحة الحياة ، أو وهى تقلع عن الدراسة الموضوعية التى لا تجاوب ولا تنجز مصلحة للحياة . بمعنى أن مصلحة الحياة باتت تلعب دور الضابط الحاكم ، لاجتهادات وانجازات الجغرافية المعاصرة أكثر من أى ضابط أخر .

بل لقد احتفظت الجغرافية المعاصرة بروح ومنطق التغيير ، لكى تسعفها فى التعديل والتطوير بأكبر قدر من المرونة ، ومن غير أن تتمرد أو أن تخرج عن مسارها الصحيح . ونضرب لذلك مثلاً كيف اتخذت الجغرافية المعاصرة من المنهج الرياضى الكمى سبيلاً لانجاز البحث الجغرافى لبعض الوقت . ومن الجائز أن نعتبر ذلك – فى حد

ذاته – تغييراً استوجب التجديد فى الجغرافية المعاصرة . ولكن المؤكد أنها أدركت – بكل الوعى – كيف ساقها هذا المنهج إلى معادلات رياضية، وانزلقت إلى قوانين وقوالب جامدة ، حتى أوشكت أن تتحكم فيما ينبغى أن يكون ادراكه ادراكاً جغرافياً مرناً وطيعاً .

ومن ثم لجأت الجغرافية المعاصرة إلى روح التغيير وعدلت عن هذا المسلك . وتحررت من جمود هذا المنهج الذى يفرغ الجغرافية من معناها المرن ، ويبعث على التخوف من التجرد من مغزاها ، أو التملص من مرماها . وهذا معناه أن الجغرافية المعاصرة قد ثابت إلى رشدها ، وأقلعت عن منهج يكلفها اصدار قوانين تحدد سلوك الحياة ، وتقنن حركتها . وهذا أمر ليس من أهداف الجغرافية فى شئ ، ولأنه غير صحيح أن تخضع حركة الحياة وسلوكها لبعض القوانين الجامدة المتصلبة ، والمعادلات الرياضية الرمزية .

وسواء تحلت الجغرافية بصفة التجويد فى الأداء ، وسجلت الانجاز المجود ، أو تحلت الجغرافية بقدرة الاضافة التجديد ، وسجلت الاضافات المجددة ، فإن المرونة فى التغيير ، والتغيير فى المرونة ، قد أطلقت عنان الجغرافية المعاصرة ، لكى تبحث عن أهدافها فى المرونة سبيل من أهم سبل التطوير . ومن شأن هذا التطوير أن يتم من غير أن تتنصل الجغرافية المعاصرة من مغزاها ، أو من غير أن تتجرد من موضوعيتها، أو من غير أن تتنكر لمرماها .

* * *

وبعد رحلة طويلة شائكة وشائقة تلك التى قطعتها مسيرة الفكر الجغرافى ، التى بدأت مبهمة فى رفقة أو معية بداية حركة الحياة على الأرض . وهى من غير شك مثيرة ، ولم تكف عن العطاء ، لكى ترضى حاجة الانسان إلى هذا العطاء . ورحلة طويلة فى اتجاه المستقبل لا نعرف مداها بالقطع ، إلا أن الفكر المعاصر يجهز لها . أما عن الشكل والجوهر والمرمى فى هذا المستقبل ، فلن يحدده إلا ما تستشعر الجغرافية فيه حاجة الحياة إليه وهى على وفائها للحياة .

* * *



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً – المراجع العربية :

١– امام ابراهيم أحمد : تاريخ الفلك عند العرب (المكتبة الثقافية) ٢٥ ، القاهرة ١٩٦٠.

٢– أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب (ترجمة تمام حسان) القاهرة ١٩٥٧ .

٣– البكرى : معجم ما استعجم (تحقيق مصطفى السقا) ، القاهرة ١٩٤٥ .

٤– جلال مظهر : حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى ، القاهرة ١٩٧٤ .

٥– جريفيث تايلور : الجغرافية فى القرن العشرين (ترجمة محمد السيد غلاب ومحمد مرسى أبو الليل) الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

٦– حسنى محمود حسن : أدب الرحلة عند العرب ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٧٦ .

٧– حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، مدريد ، مجلد ٧ و ٨ ، ١٩٥٩ و ١٩٦٠ .

٨– حورانى ، جورج فضل : العرب والملاحة فى المحيط الهندى (ترجمة يعقوب بكر) ، القاهرة .

٩– روجر متشل : تطور الجغرافية الحديثة (ترجمة محمد السيد غلاب ودولت صادق) ، القاهرة ١٩٧٣ .

١٠– زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٥ .

١١– شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٢– صلاح الدين الشامى : الجغرافية دعامة التخطيط ، الاسكندرية ، ١٩٧٦ .

١٣- **صلاح الدين الشامى** : الاسلام والفكر الجغرافى العربى ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

١٤- **كارل بروكلمان** : تاريخ الشعوب الاسلامية (ترجمة منير بعلبكى ونبيه أمين) ، بيروت ١٩٧٧ .

١٥- **محمد رشيد الفيل** : أثر التجارة والرحلة فى تطور المعرفة الجغرافية عند العرب ، الكويت ١٩٧٩ .

١٦- **محمد صبحى عبد الحكيم** : علم الخرائط ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٧- **نفيس أحمد** : جهود المسلمين فى الجغرافية (ترجمة ، فتحى عثمان) الألف كتاب ١٨٧ ، القاهرة .

١٨- **يسرى الجوهرى** : الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ .

١٩- **يوسف أبو الحجاج** : الجغرافية مغزاها ومرماها (ترجمة) الألف كتاب رقم ١٨٧ .

ثانياً - المراجع الأجنبية :

20- **Arnold, T& Guillame :** The Legacy of Islam , Oxford, 1931 .

21- **Beazley, R :** The Dawn of Modern Geography, London , 1897 .

22- **Bunbury, E.H. :** A History of Ancient Geography, London , 1883 .

23- **Cole, J.P. & King C.A.M.:** Quantative Geography, John Wiely, 1968 .

24- **Freeman, T.W. :** Geography and Planning , London, 1958

25- **Gibson. A. :** Regional planning and Development , Leiden, 1955 .

26- **Hartshorne, R. :** The Nature of Geography AAAG. Lancaster, Pennsylvania , 1939.

27- **Hartshorne , R. :** Perspective on the Nature of Geography, Murry, 1959 .

28- **Hozayin, S.A.** : Arabia and The Far-East, Cai
1942 .

29- **Hozayin, S.A.** : Some Contributions of the Arab
Geography . Geog. 1932, Vol. 17

30- **Kimble , G.H.T.** : Geography in the Middle Ag
London , 1963 .

31- **Minshull, R..M.** : Regional Geography, Theory
Practice , Hull , 1967 .

32- **Sharaf, A.T.**: A Short History of Geograpl
Discrovery , Alex., 1964 .

33- **Stump, L.D.** : Applied Geography , Pelicon, 196

34- **Scott, Kelti, J. & Howarth , O. R.** : Histoı
Geography , London , 1913.

35- **Thomson , J.B.** : History of Ancient Geograp
Cambridge , 1948 .

36- **Tozer, H.F.** : A History of Ancient Geograp
Cambridge , 1897 .

37- **Wooldrige, S.W. & East, W.G.**: The Spirit
Purpose of Geography, London , 1964 .

الفهرس

الموضـوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

رقم الايداع
١١٣٠٣ /١٩٩٨
الترقيم الدولى
I.S.B.N.
977-03-0496-8

الكرنك للكمبيوتر
ت : ٤٨٣٢٧١١ (٠٣) اسكندرية

مطبعة الإنتصار لطباعة الأوفست
١٠ شارع الوردى كوم الدكة
تليفون ٤٩١٦٠٩٧ / ٤٩٢٥٣٩٣